الكتاب الثالث

ألكسي تولستوي

ثلاثية درب الآلام

نهار غائم

مكتبة ١٢٩٨

ترجمة: غائب طعمة فرمان

نـهار غائم

درب الآلام

مكتبة | 1298

روايــة المدى

المؤلف: ألكسي تولستوي
عنوان الكتاب: درب الآلام نهار غائم
ترجمة: غائب طعمة فرمان
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
تصميم الغلاف: ريم الجندي
جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-160-8

9 8 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

ألكسي تولستوي

مكتبة | 1298

نهار غائم
درب الآلام

"لنعش منتصرين أو لنمت أمجاداً"

مكتبة
t.me/soramnqraa

١

كان شخصان ـ رجل وامرأة ـ جالِسَين عند نار موقدة. وريح باردة تهبّ على ظهريهما من منخفض في السهب، صافرة في سيقان القمح التي تساقطت حبّات سنابلها منذ زمن بعيد. كانت المرأة تضع قدميها تحت تنورتها، حاشرة كفَّيها في كمَّي معطفها من القماش السميك. وكان لا يرى من تحت منديلها الصوفي النازل على عينيها غير أنفها المستقيم وشفتيها المزمومتين بعناد.

لم تكن النار كبيرة، مجرّد أقراص مجفّفة من الروث جمعها الرجل مؤخّراً من حول أبقار جاءت تشرب الماء من المنخفض. وكان اشتداد الريح يضايقهما.

ـ من الأروع جداً الاستمتاع بجمال الطبيعة تحت فرقعة الحطب في موقد، وأنت تنظرين في النافذة ساهمة... يا الهي، ما أوحش السهب!...

قال الرجل ذلك بصوت منخفض وبارتياح خبيث. أدارت المرأة نحوه حنكها، إلا أن شفتيها لم تنفرجا، ولم تُجِبْه. كانت متعبة من السفر الطويل ومن الجوع، ومن افاضة هذا الرجل في الحديث، ونفاذه بتباه إلى أعمق بواطن أفكارها. دفعت رأسها إلى الوراء قليلاً ونظرت، من تحت منديلها المنزل، إلى الغروب الخريفي الكابي من وراء التلال التي لا تكاد تلحظ. ويمتدّ خطاً

نحيلاً لا يضيء السهب الخالي المقفر.

ـ سنشوي البطاطس الآن، يا داريا ديمترويفنا، فرحة للقلب والجسد... يا ربي، ماذا كنت تفعلين لو لم أكن معك!

وانحنى، وشرع يختار أمتن أقراص الروث، ويقلبها بين يديه، ويضعها بعناية على النار.. جوف جزءً من الجمر، وشرع يدفن البطاطس فيه، مخرجاً إياها من جيوب معطفه العميقة. كان له وجه محمرّ يرتسم عليه مكر شديد بل وخبث، ذو انف لحيم مفلطح في أرنبته، ولحيته هزيلة، وشارباه نحيلان، وشفتاه متمطّقتان.

ـ أنا أفكّر فيك، يا داريا ديميتريفنا تنقصك الوحشيّة وروح التشبث، بينما حضارتك سطحية، يا عزيزتي... أنت تفاحة محمرّة حلوة، ولكن غير ناضجة.

كان يقول ذلك، وهو منشغل بالبطاطس التي سرقها من حديقة خضروات، اثناء مرورهما بعزبة في السهب. وكان منخرا أنفه اللحيم اللامع من الحرارة يرتعشان بنباهة ومكر. كان هذا الرجل يدعى كوزما كوزميتش نيفيدوف. وقد اضجر داشا ضجرا شديدا بثرثرته وحدسه للأفكار.

وكانا قد تعارفا قبل بضعة أيام في قطار كان يسير بجدول مواعيد غريب، وخط سير عجيب، ثم أخرجه القوازق البيض عن الخط.

وقد بقيت العربة الأخيرة التي كانت داشا تسافر فيها، على السكة، إلا انها تعرّضت لنار رشاشة فهرب كلّ من كان فيها هائما في السهب، فقد كان لامحالة من نهب المسافرين والتنكيل بهم، كما جرت العادة في ذلك الوقت.

وكان كوزما كوزميتش قد وضع بصره على داشا وهما في العربة، فقد أعجبته بشيء ما، رغم أنّها لم تنجذب إلى الأحاديث الصريحة. والآن، وهما في السهب المقفر عند الفجر تشبّثت هي به. كان الوضع حرجاً. فقد كانت الطلقات والصيحات تسمع من المكان الذي انقلبت فيه العربات على المنحدر ثم شبّ لهب طرد ظلال داكنة من مجاميع الارقطيون القديمة وأجمات الافسنتين اليابسة التي مسَّها الجمد. فكيف كانت تجد طريقها في هذا السهب الشاسع؟

وبينما كان كوزما كوزميتش يسير إلى جنبها في الفجر المخضوضر، حيث كانت تتسرب رائحة دخان موقد كان يناقش على هذا النحو: "فضلاً عن أنّكِ فزعة فأنت، أيتها الحسناء، تعيسة كما يبدو لي. وأنا رغم التقلّبات العديدة، لم أعرف التعاسة البتّة بل ولا حتى الضجر... كنت كاهنا، ولكنّني جرّدت من لباس الكهنة لحبي للتفكير الحرّ، ودّعت الدير. وها أنا اضرب "في الأرض" كما يقول التعبير القديم. فإذا كان الإنسان بحاجة، لكي يسعد نفسه، إلى فراش دافئ لا محالة، وإلى مصباح هادئ ورف من الكتب وراء ظهره فإنّه لن يعرف ما تعني السعادة. فإنها لمثل هؤلاء ناس الغدُ دائما، ولكنّهم في يوم ما لن يجدوا غدا ولا سريرا. فلن يبقى لديهم سوى حسرة أبدية... ها أنا اضرب في السهب، وأنفي يشمّ رائحة خبز طازج. ومعنى ذلك أنّ في تلك الناحية ضيعة. ثم سرعان ما نسمع نباح الكلاب. يا إلهي، ما أروع الفجر! وإلى جانبي رفيق سفر في هيئة ملاك يئنّ ويثير شفقة قلبي، والرغبة في الانطلاق. فمَنْ أنا إذن؟ أنا اسعد إنسان في جيبي كيس ملح دائماً، وفي حدائق الخضروات توجد بطاطس

دائماً. ثم ماذا؟ عالم زاه تتصادم فيه العواطف... لقد فكّرت كثيراً جداً يا داريا ديميتريفنا بمصير مثقّفينا وينبغي أن أقول لك إنّ هذا كلّه ليس شيئاً روسيا... ولهذا ذَرَتْه الريح، فأصبح يبابا، مع الأسف... أما أنا، الكاهن المخلوع، فأنال مبتغاي من الصابرات، وأنوي أن استمر في ذلك زمنا طويلا..."

ولولاه لهَلِكَتْ داشا. فلم يكن يخيب في حال من الأحوال. عندما وصلا عند مطلع الشمس إلى عزبة تقف في السهب الأجرد الخالي، إسطبل خيولها فارغ، وسقف فنائها الطيني محروق، لقيهما عند البئر قوزاقي اشيب حانق يحمل بندقية. صاحت وقد لمعت عيناه الوضّاءتان المجنونتان من تحت حاجبين معقودين: "انصرفا!" استطاع كوزما كوزميتش أن يضلّل هذا العجوز بخفّة قائلا "وجدت من تصيح عليه، يا جد. آه، آه، يا أرضي العزيزة! نحن نجري ليلاً ونهاراً هاربين من الثورة، وقد تقرّحت أقدامنا، وتشقّق لساننا من العطش. فاعمل معروفاً، واقتلنا، فطريقنا مسدود، على أية حال". وظهر أنّ العجوز لم يكن فظّاً، بل دامع العينين. وقد جنّد إبناه في فيلق مامونتوف، وتركت كِنّتاه العزبة إلى القرية. ولم يفلح الأرض في تلك السنة. ومرّ الحمر، وأخذوا الحصان لقصد التعبئة. ومرّ البيض وفعلوا الشيء نفسه مع الدواجن. فبقي وحده في عزبته، وليس لديه غير قطعة من الخبز المخضوضر، وبعض التبغ المتبقي من السنة الماضية...

استراحا في بيته، وفي الليل واصلا السير متّجهين صوب تساريتسين التي كانت أسهل طريق للنفاذ إلى الجنوب. كانا يسيران ليلاً، وينامان نهاراً وغالباً في أكوام دَرْسِ الحنطة المختلفة من

العام الماضي. وكان كوزما كوزميتش يتحاشى الأماكن الآهلة. ذات مرة أطل من تل على قرية قوزاقية تمتد بيوتها البيضاء على جانبي بركة طويلة، فقال:

إن تجمّعاً من الناس في هذه الأيام قد يكون خطراً، ولاسيّما للذين لايعرفون ماذا يريدون. إنّ ذلك غير مفهوم ومثير للريبة ألا يعرف الفرد ماذا يريد. إنّ الإنسان الروسي حار، يا داريا ديميتريفنا، ومغرور، ولا يحسن تقدير قواه. أعطيه مهمّة ـ تبدو أكبر من طاقته، ولكنّها مهمّة عظيمة ـ فسترينه ينحني لك إجلالا... ولكن حاولي أن تنزلي إلى قرية فسترينهم يمطرونك بأسئلة. فبماذا ستجيبينهم، أيتها المثقّفة؟ بأنّك لم تستقرّي على رأي في موضوع واحد؟..

قالت داشا بخفوت:

إسمع، أتركني وشأني.

ورغم ممانعتها اعتزازا وكراهية استطاع كوزما كوزميتش أن يعرف عنها كلّ شيء: عن أبيها الدكتور بولافين، عن زوجها الآمر الأحمر إيفان ايليتش تليغين، عن شقيقتها كاتيا "الفاتنة الوديعة النبيلة". وذات مرة استيقظت داشا في غسق صاف من نوم مريح على القشّ، وذهبت إلى الجدول، واغتسلت، ومشّطت شعرها، الذي تبعثر تحت المنديل الصوفي، ثم أكلت، وانشرحت وقالت فجأة ومن تلقاء نفسها وبدون أن تسأل:

ـ سأقول لك كيف حدث ذلك... لم استطع أن أعيش في بيت أبي أكثر من ذلك... أنت تعتبرني طفيليّة. ولكن دعني أقول لك أنّ رأيي في نفسي أسوأ من رأيك بكثير... ولكنّي لا استطيع احتمال الشعور بأنّني مهانة وبأنني أسوأ من الجميع...

تمطّق كوزما كوزميتش، وقال:

ـ مفهوم.

قلّصت داشا عينيها وقالت:

ـ لا، لم تفهم شيئاً... ان زوجي جازف بحياته ليراني لحظة واحدة أنّه إنسان قوي الشكيمة شجاع شديد العزيمة... أما أنا... فهل تستحقّ مخلوقة مثلي أن يجازف امرؤ بحياته من أجلها؟ وبعد هذا الحادث ضربت رأسي في افريز النافذة. وكرهت أبي... لأنّه المذنب في كلّ شيء... فأيّ رجل حقير تافه هو! وعزمت على السفر إلى يكاترينوسلاف، والبحث عن أختي كاتيا. فقد كان في وسعها أن تفهمني وتساعدني، أن كاتيا هذه ذكية مرهفة كالوتر. لا تضحك أرجوك. فأنا أريد أن أفعل شيئاً اعتيادياً شريفا ضروريا... ولكن لا أعرف بِمَ أبداً. إنما أرجوك ألا تثرثر الآن عن الثورة...

ـ لست عازماً على الثرثرة، يا روحي. بل أصغي بانتباه وأشعر بعطف.

ـ اترك هذا العطف... في ذلك الوقت كان الجيش الأحمر قد اقترب من سامارا. وهربت الحكومة، كان شيئاً مقرفاً... وطلب أبي بأن أسافر معه. وجرى بيننا نقاش. واظهر كلّ واحد منا ما في قرارة نفسه. وأرسل أبي في طلب الحرّاس: "ستشنقين، يا عزيزتي!" وبالطبع، لم يأت أحد. فقد هرب الجميع. وخرج أبي إلى الشارع وليس معه غير محفظة للأوراق. أما أنا فهتفت له من النافذة بآخر كلماتي.. لا يكره الإنسان أحدا كرهه لوالده! وبعد ذلك لففت رأسي بالمنديل، وارتميت على الاريكة! أنتحب! وبذلك انقطعت كلّ حياتي الماضية...

وهكذا سارا في السهب مارّين بالقرى التي أثارتها الحرب الأهليّة، لا يكادان يلتقيان بالناس، ولا يعرفان أنّ أحداثا دمويّة كانت تجري في تلك الأماكن: كان جيش الدون القوزاقى العظيم المؤلَّف من خمسة وسبعين ألف نفر قد عاد لمحاصرة تساريتسين بعد إخفاقات آب.

قال كوزما كوزميتش، وهو يحفر في الرماد ليخرج البطاطس:

ـ إذا كنت منهوكة، يا داريا ديمترييفنا يمكننا أن نستريح في هذه الليلة، فليس بنا حاجة إلى الاستعجال. لكنّنا اخترنا مأوى سيِّئا، فإنّ الريح الهابّة من المنخفض لن تدعنا ننام. من الأفضل أن نسير بهدوء تحت النجوم ـ ما أبدع العالم! ـ ورفع وجهه الأحمر الماكر، وكأنه يتأكد من أن كلّ شيء على ما يرام في مملكة السماء أليست تلك معجزة من المعجزات، يا حلوة، أن يسير مخلوقان في الكون، يتابعان بذهن مدقِّق، تعاقب الظواهر، وكلّ ظاهرة أدهى من الأخرى، يصلان إلى استنتاجات لا تلزمهما بشيء... لا، لا تستعجلي أن تنتهي الرحلة بسرعة.

وأخرج كيس الملح من جيبه، ووضع بطاطِسَة على كفِّه وقلّبها نافخاً على أصابعه، وشطرها وناول داشا شطرا.

ـ طالعْتُ كمية هائلة من الكتب، وثقلَتْ على ذهني بلا نظام. حرَّرتني الثورة من سجن الدير، وقذفتني إلى الحياة بشكل خال من الرّقة تماماً. وأعطاني رئيس ميليشيا منطقة ساراتوف، وهو رجل ذكي جدا، بقيْتُ محبوساً عنده أسبوعين، بطاقة هويّة كتبها بخط يده: المهنة طفيْلي. التعليم: علم زائف. العقيدة: بلا مبدأ. وهكذا، يا داريا ديميتريفنا، عندما وجدت نفسي بلا شيء

غير كيس ملح في الجيب، حرّاً تماماً، أدركْتُ معجزة الحياة. وبدأت المعارف غير المُجدية التي تربك ذاكرتي تتبدّد، والكثير منها بدا مفيدا، حتى من حيث القيمة التبادليّة.. مثلا دراسة كفّ الإنسان أو قراءة الكفّ. فأنا مدين كليّاً لهذا العلم في الحصول على احتياطي الدائم من الملح.

لم تستمع داشا إليه. أنّ شيئاً ما، ربما هو صفير الريح الخفيف في أعواد القمح، كالحنين الشريد، جعلها تودّ كثيرا لو تبكي، فكانت تلوي عنقها دائماً لتنظر إلى الغروب الموحش. استولى عليها اليأس من تلك الرحابة اللامتناهية التي كان عليها أنْ تقطعها بحثاً عن إيفان ايليتش، بحثاً عن كاتيا، بحثاً عن نفسها هي. ولعلّها كانت ستجد في الزمن القديم لذة في اشفاقها على نفسها في عجزها هذا، في ضآلتها، في ضياعها في السهب البارد... لا، لا! تناولت داشا قطعة البطاطس من كوزما كوزميتش ومضغتها بالعة إياها مع دموعها... وتذكّرت كلمات من رسالة كاتيا التي تسلّمتها في بتروغراد: "الماضي مات، انقضى إلى البد، يا داشا".

ـ وإلى جانب الانقطاع التام عن الحياة فإنّ الاستعجال العديم النفع، الانشغال بالتوافه إحدى نواقص مثقّفينا، يا داريا ديميترييفنا... ألم تلاحظي مرّة كيف يمشي ذوو المهنة الحرّة؟ كيف يطأ ليبرالي الأرض بساقيه الرفيعتين في نفاذ صبر، وكأنّه يسير على نار... إلى أين، ولماذا؟

إنّ هذا الرجل المزعج كان لا يكفّ عن الكلام مظهراً نفسه.

ـ لا، يجب أن نواصل السير بالطبع. لنذهب.

قالت داشا وشدّت منديلها الصوفي على رقبتها بكلّ قوّتها.

نظر كوزما كوزميتش إليها متقصّيا. وفي ذلك الحين لمعت ومضات في ظلّ المنخفض الدامس، وترددت طلقات.

ما كادت الرصاصات الأولى تُطلق حتى رُدَّت الحياة للسهب المقفر الذي تلاشى فوقه خطّ من الغروب في السحب البعيدة. لم تستطع داشا ان تقفز، وهي تمسك بطرفي منديلها. وأسرع كوزما كوزميتش إلى إطفاء النار بقدميه، إلا أنّ الريح اشتدت، فتطاير الشرر. فأضاء فرسانا منطلقين. كانوا منحنين على رقاب خيلهم يسيِّطونها مبتعدين عن الطلقات من المنخفض.

ومرّ كلّ شيء مندفعاً، وهدأ. ولم يبق إلا قلب داشا يخفق بجنون. أخذ صراخ يتقاطر من المنخفض، وفي اللحظة التالية انثال من هناك رجال مسلّحون. كانوا يتحرّكون بحذر، منبسطين في السهب. التفت أقربهم نحو النار، وصاح بصوت متكسِّر: "أي" مَنْ أنتما؟" رفع كوزما كوزميتش يديه فوق رأسه ناشراً أصابعه طوعاً. تقدّم شاب في معطف جندي. "ماذا تفعلان هنا"؟ وأدار بوجهه ذي الحاجبين الداكنين، المتهيِّئ لكل طارئ نحو الجالسين عند النار. "جاسوسان؟ من البيض؟" ودفع كوزما كوزميتش بأخمص بندقيته دون أن ينتظر جواباً "هيا، حدِّثني ونحن سائرون..."

ـ لسنا إلا...

ـ ما هذه "الا"! الا ترى أنّنا في معركة!

لم يحتجّ كوزما كوزميتش، وتابع سيره مع داشا تحت حراسة الجندي. وكان عليهم أن يركضوا تقريباً ليلحقوا بالفصيلة التي كانت تسير بسرعة. وفي الظلام الدامس، وصلوا إلى سطوح قشّية، حيث صهلت خيول عند بركة صغيرة بين عربات مفكوكة

العدَّة. صاح أحد الرجال فوقفت الفصيلة. أحاط الجنود به، واخذوا يتحادثون:

- تراجعنا. لم يكن من ذلك بدّ. فإن الأوغاد يضغطون من الجناحين... هنا، على مسافة غير بعيدة، في المنخفض التقينا بدورية من الخيّالة.

قال الذي أحاط به الجنود هازئا:

- هربتم، يا لطاف. أين آمركم؟

- أين الآمر؟ يا آمر، إيفان! تعال بسرعة. قائد الفوج يدعوك.

نادت بعض الأصوات، ومن الظلام طلع شخص طويل القامة مكوَّر المنكبين:

- كلّ شيء على ما يرام، أيّها الرفيق قائد الفوج. لا توجد خسائر.

- ضع نقاط الحراسة، وأرسل جنوداً للنقطة الأماميّة. وأطعم الجنود دون أن تشعلوا نارا. وبعد ذلك تعال إلى الكوخ.

تفرَّق الجنود. وبدت العزبة وكأنّها قد اقفرت. لا شيء غير أصوات خافتة تصدر أوامر وهتافات الحراس تسمع في الظلام. وبعد ذلك خمدت حتى هذه الأصوات. كانت الريح تعبث في قشّ السطوح، وتصول في اغصان الصفصاف الجرداء عند حافة البركة. تقدّم من داشا وكزما كوزميتش الجندي الشاب الذي اكتشفهما. كان وجهه يلوح في ضوء النجوم المتومضة فوق العزبة نحيلا شاحبا ذا حاجبين داكنين. أمعنت داشا النظر فيه فظنّته فتاة... "تعالا ورائي قال بصرامة وقادهما إلى الكوخ انتظرا في الرواق. اجلسا هنا على شيء ما".

وفتح باباً وأغلقه دونه. وتسرّب من الباب صوت آمر الفصيلة

الخشن الواطئ الرتيب. وقد استمر ذلك وقتاً طويلاً وبطريقة رتيبة. حتى أنّ داشا أسقطت رأسها على كتف كوزما كوزميتش. فهمس لها: "لا بأس، سنخرج من الورطة". وفتح الباب ثانية، وتلمّس الجندي الأحمر بيده الجالسَين وقال: "تعالا ورائي". وأخرجهما إلى الفناء، وتلفّت ليرى أين يحبس الأسيرين، وأشار إلى هري صغير واطئ يحيط عليه سقف من القش. وكان باب الهرى مخلوعاً. دخلت داشا وكوزما كوزميتش فيه، وجلس الجندي الأحمر على العتبة العالية دون أن ينزل بندقيته. كان الهري يفوح برائحة طحين وفئران. قالت داشا بيأس خافت:

ـ هل يمكن أن أجلس إلى جانبك؟ أنا أخاف الفئران.

تنحّى عن غير رضى، فجلست هي على العتبة على جانبه. وفجأة تثاءب الجندي بتلذّذ، كما يفعل الأطفال، ونظر إلى داشا بطرف عينه:

ـ إذن، فانتما جاسوسان؟

ـ اسمع، يا رفيق قال كوزما كوزميتش وتقدّم نحوه من الظلام اسمح لنا أن نشرح لك...

ـ فيما بعد.

ـ نحن شخصان مسالمان، نازحان...

ـ ها، مسالمان... وكيف ذلك؟ من أين جاءكما السلام؟

ألقت داشا قفاها على عضادة الباب ناظرة إلى وجه هذا الشخص الجميل ذي الحاجبين الأسودين، والأنف الدقيق الخطوط المرفوع قليلا، والفم الصغير المنتفخ قليلاً، والحنك الدقيق. وسألته فجأة:

ـ ما أسمك؟

ـ هذا خارج الموضوع.

ـ هل أنت امرأة؟

لم يخفّف ذلك عنك.

وانتهى الحديث بذلك، إلا أن داشا لم تستطع أن تصرف بصرها عن هذا الوجه المدهش. سألته بخفوت:

ـ لماذا تتكلمين معي وكأنني عدو؟ فأنت لا تعرفينني. فلماذا تظنّين مسبقاً أنني عدو؟ أنا روسيّة مثلك... سوى إنني تعذّبت أكثر منك في أغلب الظنّ.

ـ ماذا يعني "روسية"؟.... من أين هذه "الروسية"؟ أنت بورجوازيّة.

قال الجندي الأحمر ذلك متلعثما وتجهّم لذلك.

انفرجت شفتا داشا. وتدنّت منه بحركة اندفاع، كما يحدث ذلك معها دائماً، وقبّلته من خدِّه الحار الخشن. فوجئ الجندي بذلك، فنظر إلى داشا رامشا... ونهض، وأمسك بالبندقية وابتعد ملقياً حزام البندقية على كتفه وقال مهدِّدا:

ـ اتركي ذلك، فإنّه لن يساعدك، أيتها المواطنة.

سألت داشا بلهفة:

ـ ما الذي يساعدني إذن؟ أنت وجدت ما تفعلينه. أما أنا فلم أجد... لقد هربت من تلك الحياة كالمجنونة. هربت لأجد سعادتي وأنا أحسدك.. ليتني أشد الحزام على معطف عسكري مثلك!

وقد استبد بها الاضطراب حتى أنها ألقت المنديل من رأسها، وعصرت نهايته بقبضتيها بكلّ قوّتها.

ـ كلّ شيء عندك واضح وبسيط... من أجل أيّ شيء تحاربين؟ لكي تستطيع المرأة أن تنظر إلى هذه النجوم دون أن تبكي... وأنا أيضاً أريد مثل هذه السعادة.

كانت تتحدث، وهو يصغي دون أن يحاول إيقافها، وقد أربكته هذه العاطفة غير المفهومة. وفي تلك اللحظة خرج من الكوخ آمر الفصيلة، ونادى بصوت عميق:

ـ هاي، أغريبينا، اجلبي الوغدين هنا.

كان قائد الفوج وآمر الفصيلة، وكلاهما في معطف عسكري وقبّعة ذات حافة ناتئة، يجلسان عند طاولة في الكوخ واضعين مرفقيهما أمام سراج نفطي. وكان قائد الفوج ذو العينين اللامعتين المتباعدتين يضع غليوناً بين أسنانه، وكان وجه الثاني قد لفحته الريح فأضحى كقشرة شجرة. طلب آمر الفصيلة من داشا وكوزما كوزميتش الواقفين عند الباب أن يقتربا قليلا.

ـ لماذا كنتما في السهب في مواقع القوات؟

وكانت عيناه تحدّقان في عيونهما. ومن تلك النظرة أحست داشا بوهن مفاجئ، وتمتمت بشفتيها الجافتين:

ـ سيتحدث هو. فهل يمكن أن اجلس؟

وجلست ماسكة بحافة المصطبة، ناظرة إلى السراج يرفّ في قحف من فخار. وبدا كوزما كوزميتش يتحدّث متمطّقا وهو يحرّك قدميه بعصبيّة، كيف وجد داريا ديميتريفنا في السهب، وكيف سار نحو الدون مفكّرين في الغالب بمواضع سامية. وتحدّث بتفصيل عن هذا الجانب من رحلتهما لاهثا مستعجلا حتى لا يقاطع. إلا أن الآمرين ظلا جالسين جلمودين وراء المنضدة مثل عملاقين.

ـ إنّه لشيء عظيم، ايها المواطنان الآمران، ان يفكّر الإنسان بأمور عظيمة. ماذا أريد أن أقول بذلك؟ شكراً للثورة على أنّها صرفتنا عن الأشياء التافهة الكئيبة. إنّ الإنسان، المخلوق المساوي للإله، المعدّ لتحقيق المهمّات الرفيعة يحرّك مثل اورفيوس الحياة في الصخر بأوتار مزهرة، ويطوّع جنون الطبيعة الوحشيّة كان هذا الإنسان يلطّخ أوراق النقد وفكره بضوء فتيلة داخنة بحثاً عن سبيل أحذق لخداع جاره... شكراً لكم لتحطيمكم معيشتنا التعيسة، ويا للمتعة على ذكراها!.. لم يبق شيء يلطّخ، وعليكم أردت أم لم ترد أن تدير فكرك إلى المواضيع الرفيعة... وهذا هو إثبات لإخلاصي هذا (وأخرج كيس الملح)... هذا الشيء الوحيد الذي أملكه في الدنيا، ولا أحتاج إلى شيء آخر. البقية أما أن اطلبها أو أسرقها . ولكن أريد أن أناقشكما، أيها المواطنان الآمران... أنتم تحاربون في سبيل سعادة الإنسان، ولكن الإنسان غالباً ما تنسونه، وهو عندكم يسقط بين السطور... لا تفصلوا الثورة عن الإنسان، لا تجعلوا منها فلسفة تجريديّة، لأنّ الفلسفة دخان يختفي بعد أن يتّخذ شكلاً غريباً... أنّ ما يفسر اهتمامي في مصير هذه المرأة هو أنني تصفّحت فيها رواية شاعرية جذابة، وهي، بالمناسبة، ما أجده في كلّ إنسان إذا نظرت إليه بحب استطلاع، وبتعطشّ... لأنه الكون نفسه يظهر أمامكم في معطف مهلهل وحذاء مستهلك.

قال قائد الفوج نافذا الدخان:

ـ حديث ماكر.

وقال آمر الفصيلة بعده:

ـ أرياني اوراقكما.

تناول الهويّتين من كوزما كوزميتش وداشا، وقدح السراج،

وانحنى كثيراً، وبلّل أصبعه وورق الهويتين بعناية. وكان قائد الفوج يتنهّد بين الحين والآخر ماصّاً الغليون المحروق الذي لم يفارق شفتيه خلال خمس سنوات من الحرب.

سأل آمر الفصيلة داشا:

ـ من هو أبوكِ؟

ـ دكتور بولافين.

ـ أهو وزير حكومة سامارا السابقة؟

ـ نعم.

نظر آمر الفصيلة إلى قائد الفوج، وناوله هوية داشا. ثم توجّه جهما إلى كوزما كوزميتش:

ـ وانت من ذوي الشعور الطويلة؟

حرّك كوزما كوزميتش حذاءه المهلهل بفرح، وكأنّه كان ينتظر منذ زمن هذا السؤال:

ـ مرّتان طردت من المعهد اللاهوتي. مرّة على تلويث الطعام، ومرة على نظم الاشعار التجديفيّة. وكان أبي قسيسا من ساراتوف، وقد سلخَتْ يده الابوية جلدي مرتين من ظهري. أما بقيّة خدماتي فمسجّلة في هويتي...

خزر آمر الفصيلة داشا من طرف عينيه دون أن يصغي إليه:

ـ قضيّتك صعبة.. عليك أن تروي كلّ الحقيقة وعَبسَ وحمحم مورقا الهويّة فقد ينقذك هذا. نعم. أنّ قضيتك صعبة.

نظرت داشا إليه صامتة بعينين متّسعتين. عند ذلك قالت اغريبينا التي كانت واقفة عند الباب، وكانت في نبرتها صلابة:

ـ إيفان، يمكن أن تصدِّقها. فقد تحدّثت معها...

رفع آمر الفصيلة أنفه الكبير، وتفرّس في اغريبينا. وضحك قائد الفوج. وكان كوزما كوزميتش غالبا ما يهزّ وجهه الأحمر المرح. وقال آمر الفصيلة ببطء:

ـ أين نحن؟ في حديث حول الموقد؟ (واهتز شاربا القائد الملتفّان، وتقلّصت عيناه) أيتها الجندية تشبريتس، على أيّ أساس تتدخّلين في الاستجواب؟

اختنقت اغريبينا من الغيظ. فلو لم يكن قائد الفوج هنا لروت على آمر الفصيلة دون تردد، مثل أية امرأة ريفية... إلاّ أنّه رفع صوته قائلاً:

أيتها الجنديّة تشبريتس، أخرجي وراء الباب.

توهّجت عينا أغريبينا الداكنتان. ضربت الأرض بأخمص البندقية، وزمّت شفتيها، وخرجت من الكوخ. نخر آمر الفصيلة وحشر يده في جيبه ليخرج التبغ.

ـ إذن، فقد نجحت هنا أيضا في التحريض؟..

أجابت داشا منزلة رأسها:

ـ أرجو أن تصدِّقني. فإذا لم تصدِّق فلا حاجة لأن أتحدّث عن شيء. أن أبي بولافين عدوكم مثلما هو عدوّي... أراد أن يشنقني فهربت من سامارا.

بسط آمر الفصيلة يديه الكبيرتين أمام السراج.

ـ كيف نصدِّقك، يا مواطنة، إذا كنت تروين حكايات؟

عندئذ أخرج قائد الفوج الغليون من فمه، ومسحه في كمه، وقال برصانة:

ـ لا تحتدم، يا غورا. فقد تقول الحقيقة..ز اسم عائلتك تليغينا؟ (قالت داشا بصوت لا يكاد يسمع: "نعم") هل تذكرين

اسم زوجك وابيه؟

ـ إيفان ايليتش.

ـ ملازم ثان في الجيش القيصري؟

يبدو... نعم.

ـ وكان آمر فصيلة في الجيش الأحمر الحادي عشر؟

ـ أتعرفه؟

واندفعت داشا إلى الطاولة وقد تضرّج خدّاها، وتفتّحت كالزهرة، هي التي كانت تجلس قبل حين ذابلة ميتة:

ـ رأيت إيفان لآخر مرّة عندما هرب على السطوح تحت الرصاص... هذا ما حدث...

قال قائد الفوج:

ـ اجلسي، واهدئي. أنا اعرف إيفان ايليتش، وقد كنّا سويّة في الحرب الألمانية، وهربنا سويّة من الأسر. إن اسمي بيتر نيقولايفيتش ملشين، ربما ذكرني لك يوماً ما؟ وهو معروف جداً في الجيش الأحمر ـ واستدار نحو آمر الفصيلة وقال ـ زوجتك اكثر فهماً منك ثم التفت نحو داشا وقال: استريحي، سنتحدّث غدا. يمكنك أن تستقرّي هنا. اخرجي إلى الرواق وستجدين مطبخا. ونامي هناك بهدوء.

سارت داشا ووراءها كوزما كوزميتش الذي بدا أن الآمرين لم يعودا يهتمّان به عبر الرواق ودخلا مطبخاً فارغاً دافئ. نصح كوزما كوزميتش داشا بأن تصعد وترقد على سطح الموقد: "دفئي عظامك، ونامي في ليلة مقدار ما نمته في أسبوع. دعيني، أساعدك، يا عزيزتي..."

صعدت داشا على سطح الموقد بصعوبة، وفكّت منديلها،

ووسدته خدها، وغطّت جسمها بالمعطف، ساحبة رجليها. كان المكان مريحاً وفيه رائحة آجرّ دافئ ودخان خبز. صرصر جدجد... ساكن المواقد الدائم. ولم يدع داشا تنام رأسا. غشاها النوم بسنةٍ رقيقة، والجدجد يصرصر مطرّزا نومها بخيط رمادي...

وتخيّلت أن رقّاص الساعة يدّق، إنها تجلس على البيانو، وقد أرخت يديها خدرا. وقلبها يخفق مذعوراً من الانتظار، ولكن لم تسمع خطوات المحبوب، المعبود لا شيء غير صرصرة الجدجد يطرّز نومها خيطاً وراء خيط...

وتردد صوت في داخلها "ياللهدوء" يا للهدوء. عادت إلى وطنها، داشا المسكينة... ولكنّك لم تعرفي وطنك البتّة يا داشا، داشا... آه! لا تعيقني... ولكن هذا قائد الفرقة، بالطبع، يضرب بعصاه، والآن ستصدح الموسيقى..." والصرير من جديد...

استلقى كوزما كوزميتش على مسطبة تحت الموقد. انه هو أيضاً لم يأته النوم رأساً. تمتم متمطّقا:

ـ صدّقوا، صدّقوا... قلوب بسيطة... لو كنت في مكانهم لما صدقت بهذه السرعة. لماذا؟ لأنّك لا تعرف نفسك... الإنسان غامض... صدّقوا، لأن الأقوياء من الناس بسطاء دائماً... وفي ذلك قوّتهم. الآن اعطونا هويتنا. صدّقوا. ولكن هل أنتم بحاجة إلى إنسان مفكّر؟ هل الثورة بحاجة إليه؟ نعم! ها أنا ذا... داريا ديميتربيفنا... أنا أسأل: هل الثورة بحاجة إلى إنسان مفكّر؟

٢

كان إيفان ايليتش تليغين قد تلقّى مهمة جديدة بعد عمليّة سامارا.

كان الجيش الأحمر العاشر قد استنزف ذخيرته القليلة في معارك آب قرب تساريتسين. وكان المجلس العسكري الأعلى للجمهورية يردّ بتأخير بالغ وبلا رغبة على الطلبات في إمداد تساريتسين بما هو ضروري للوقوف أمام الهجوم الحتمي الجديد لجيش الدون. إلا أنه كان في موسكو رفيق سلاح لقائد الجيش فوروشيلوف، أرسل إلى هناك لمهمّة خاصة هي التغلّب على التأخير غير المفهوم والبيروقراطية المكتبيّة لمؤسسات التموين التابعة للمجلس العسكري الأعلى. وقد استطاع هذا الرجل أن يرسل كمّية معينة من التموينات إلى جبهة تساريتسين.

وقد عهد إلى إيفان ايليتش بتحميل صناديق الذخيرة ومدفعين في سفينة في مدينة نيجنى، وإيصالها إلى تساريتسين. وها قد وجد نفسه مرة أخرى، كما كان في هذا الصيف وكما كان منذ سنوات، يعوم على الفولغا الكسول الواسع الجبّار. كانت السفينة البنّية الواطئة تضرب بدواليبها الماء الراكد. وكانت الضفاف ترى دائما في الأمام، وكان النهر ينتهي عندها، بينما كان اتساع جديد للنهر ينفتح بعد عطفة عريضة عميقاً رقراقاً تحت شمس الخريف.

في تلك الشهور كانت الفولغا قد طُهِّرت من البيض، ومع ذلك فقد كانت السفينة تسير بعيدة عن الضفاف، كلّما ظهرت قرية كبيرة ببيوتها المعتمة فوق الضفة العالية، أو لاح من خلال أوراق شجرة مصفرّة برج جرس على رابية جرداء، حيث كان من السهل الإطلاق من رشاش.

كان عشرة من بحّارة البلطيق يتحدّثون ويضحكون بالقرب من مدفع عند مؤخِّرة السفينة. وهناك كان إيفان ايليتش غالباً ما يستلقي على جنبه متأوِّهاً متهافتاً ضاحكاً على حكاياتهم حتى تدمع عيناه. وكان مصغياً بسيطاً سريع التصديق، وهو النوع الذي يحتاج إليه البحّار الذي يحبّ مَنْ يصغي إليه.

كان شاريغين الكومسومولي الطويل المهيب وهو أصغر البحّارة سنّاً، يتقدّم من جرس السفينة كلّ يوم، ويدقّه ليدعو الجميع إلى فوق. وكان البحّارة يجلسون في دائرة، ويخرج من باب العنبر الميكانيكي العجوز الذي، قيل أنّه فقد نقوداً غير قليلة في الثورة، ويطلع الوقّاد جسمه حتى الوسط من الباب نفسه، وهو رجل غير ودي متبرّم. وتخرج الطبّاخة من المطبخ وهي تمسح يديها. بصوت واثق مغرور. لم يستطع لصغر سنه أن يقرأ كثيراً، ولكنّه استطاع أن يفهم الشيء الرئيسي. وكان تحت طاقيته البحريّة شعر مجعد داكن، وله عينان جميلتان وضّاءتان، إلا أنّ لأنفه عيباً، فهو قصيّ مرفوع كان يبدو غريباً على وجهه.

لم تكن مهمّة سهلة. كان البحّارة يفهمون الثورة فهم رجال انفصلوا منذ زمن بعيد من مزارعهم ومن المحراث البدائي، عن قارب الصيد في الساحل. وقد ادّوا خدمة الأسطول الثقيلة، وحين دقّت الساعة ألقوا ضبّاطهم في البحر، ورفعوا علم الثورة العالميّة.

وكانوا قد رأوا العالم، وطافوا فيه. وكان شيئاً عريضا مفهوماً بالنسبة إليهم كرجال البحر. في الماضي كان هذا كلّ ما يملكه البحّار في صندوقه الصغير. أما الآن فلا يوجد حتى هذا الصندوق، الآن كلّ ممتلكات البحّار هي بندقية وشريط عتاد للرشاش... فلو كان هذا عهد لأمال كلّ واحد منهم لوضَع طاقيته ذات السطح الأحمر على أذنه، وسار يجوب رحاب العالم بمشيئته، تاركاً وراءه وهجاً يتصاعد إلى عنان السماء... "أي" يا عبيد القيصر، يا أرقاء الأرض، أيها التعساء، يا رعاع الحانات، اقتسموا الأرض، واقتسموا الذهب، أن كلّ شيء لكم فانعموا!..." ولكن الثورة البروليتارية طالبتهم ببرنامج أكثر تعقيداً وطالبتهم بضبط المشاعر.

كان شاريغين يقول لهم بصوته الواثق:

ـ الثورة أيّها الرفاق، هي عِلْمٌ. والمرء لن يبزها ولو كان سليمان الحكيم، ولا بدّ من أن يخطأ. ولكن ما هو الخطأ؟ من الأفضل أن تقتل أباك وأمك من أن تقع في الخطأ. فإنه يقودك إلى وجهة النظر البورجوازيّة، كما يجذب الطعم الفأرة إلى المصيدة. وإذا ما وقعْتَ فيها فاجلس حيث أنت واقضم ذنبك. فإنّ كلّ خدماتك قد شطب عليها، فأصبحت عدوا...

لم يكن البحارة قادرين على الاعتراض على ذلك بشيء فأنت بدون علم لن تستطيع أن تقود حتى سفينة فكيف أن تقضي على الثورة المضادة. وأحياناً كان أحدهم يحتضن ركبته بيديه الضخمتين الموشمتين، ويسأل: حسنا، قل لي إذا: بدون موهبة لن تستطيع أن تركّب موقدا في حمام، وبدون موهبة لا تستطيع المرأة أن تصنع عجينا. فهل الموهبة ضرورية أم لا؟

ـ انظروا، أيها الرفاق، إلى أين يسوقنا لاتوغين؟ الموهبة؟ إنّ الموهبة شيء متأصّل فينا، أنّها شيء خطير. وقد تقود الشخص إلى الفوضوية البورجوازية إلى الفردية....

فلوح لاتوغين بيده مبديا يأسه:

ـ هراء! عليك أولا أن تمضغ هذه الكلمات، وتبتلعها وتتبرّزها ثم تستخدمها...

قال الوقاد غاضباً من باب العنبر بصوت أجش:

ـ الموهبة، الموهبة! يصبغ أظافره، ويلبس بنطلوناً عريضاً، ويضع سلسلة في رقبته... هذا هو صاحبنا الموهبة!

عندئذ ارتفع لغط البحّارة. وقال الوقّاد بصوته الأجشّ "أنتم بحاجة إلى عشرة أعوام تقضونها بالقرب من الموقد" واختفى في قسم المكائن تلافيا للعواقب. وكان شاريغين يهدئ دائماً الضجة المهدّدة ويقول "بالفعل، يوجد بيننا رفاق يصبغون أظافرهم، ولكنّهم نفاية، ولن ينتهوا على نهاية حسنة. كما أن هناك من أفسدهم إنّهم الاشتراكيون الثوريون. ولكن غالبية البحّارة قد وهبت نفسها للثورة كليّة. ويجب أن ننسى ما يخصّ الموهبة، ويجب أن نخضعها. وسنمرح فيما بعد، من يبقى على قيد الحياة. أما أنا شخصياً فلا أحسب حسابا لذلك..."

وهز شاريغين خصلات شعره الأجعد. ولبعض الوقت كان لا يسمع هناك سوى خرير الماء تحت رأس السفينة. لقد أثرت صرامة الكلمات في المستمعين تأثيراً قويّاً. فإنّ الإنسان الروسي ضعيف إزاء كلّ ما هو احتفالي: فإذا شرب يتمادى حتى يفقد قبّعته، وإذا حارب يحارب بجنون فلا تستطيع أن توقفه، والموت رهيب في الأيام الاعتيادية، في المطر الشديد، أما في المعركة

الحامية. من أجل قضيّة عظيمة فإنّ الموت يقوّي النفس فلا يحسّ الإنسان الروسي بخوف، دعوه فقط أن يحس الحياة بحرارتها كما هي في العيد. فإذا أصيب برصاصة عدو أو طعن بنصله اللامع، فمعنى ذلك أنه تعثر ووقع باسطا رجليه ويديه في سهب واسع، وقد ثمل رأسه بأقوى خمرة في العالم.

وأعجب البحارة قول شاريغين بأنّه لا يحسب أن يبقى حيّا. كما غفروا له الخطبة المنبريّة وثقته الصبيانيّة بنفسه، بل حتى أنفه المرفوع بدا مقبولا. وبدأ يحدّثهم عن احتكار الدولة لتجارة الحبوب، عن الصراع الطبقي في الريف، عن الثورة العالمية. وأغمض الميكانيكي الأشيب الشاربين عينيه نصف إغماضة، وشبك أصابعه على بطنه، وهزّ رأسه مؤكّداً لاسيما في المواضع التي يتعثّر فيها ذهن شاريغين، ويبدأ بالتعبير بشكل مبهم. وكانت الطبّاخة اليسيا نازاروفا التي أخذوها إلى السفينة من استراخان في الرحلة السابقة لا تجلس البتّة مع الرجال، فكانت واقفة على جانب تنظر على الشواطئ المتباعدة. كانت السكينة والرصانة تنعكسان على وجهها الفتي الذي انحلته الآلام، وكان جبينها بارزاً وشعرها رمادياً جميلا قد ضفر بضفيرة حول رأسها، إلا أن غصّة كانت في حلقومها أحيانا فتبتلعها بصعوبة.

وكان تليغين يشترك في هذه الأحاديث أيضاً، متحدّثاً عن الشؤون العسكريّة، وكان يرسم بالطباشير على سطح السفينة مواقع الجبهات:

ـ إن الثورة المضادة، كما يرون، أيّها الرفاق، تسير على خطّة واحدة: تطويق روسيا الوسطى، وقطع التموين عنها بالحبوب والوقود، ثم تحطيمها. الثورة المضادة تقوم في المناطق

البعيدة عن المركز، وفي الأراضي الغنيّة. ففي موبان، مثلاً مليون ونصف مليون قوزاقى ومثلهم من الفلاحين المؤجّرين للأرض. والعداوة بينهم مستميتة. وقد أدرك دنيكين ذلك جيدا، فاندفع إلى النار بجرأة مع حفنة من الضباط المتطوّعين، وحطّم جيشا قوامه مائة ألف رجل، كان يقوده الوغد سوروكين الذي كان يجب أن يرمى بالرصاص منذ البداية على فوضويته وتعطّشه للخيانة. والآن يبني دنيكين لنفسه مؤخّرة قوية مساعدا القوازق على ذبح الحمر في كوبان. أن دنيكين عدو ذكي وخطير.

وكان البحّارة ينظرون إلى تليغين وانوفهم منتفخة والعروق الزرق تبرز من تحت البشرة السمراء. بينما كان الميكانيكي يهزّ رأسه دائماً مؤكّداً كلام تليغين "بالضبط، بالضبط..."

ـ ومهمّة الزعيم كراستوف أضيَق بكثير. لأنّ من الصعب إثارة القوازق خارج حدود الدون. أنتم تعرفون المثل القائل: يبدو القوزاقي مرتاحاً لأنّه يأكل مريا وينام مرتاحا. القوزاقي جرئ حين يدافع عن بيته. ومع ذلك فإن ثورة كراسنوف المضادة هي الآن بالنسبة لنا أكثر خطرا من أيّ شيء. وإذا تراجعنا عن الفولغا، وفقدنا تساريتسين فإنّ كراسنوف ودنيكين سيلتقيان بكلّ الثورة المضادة في سيبيريا. ومن حسن حظّنا أنه لا يوجد تفاهم كامل بين كراسنوف ودنيكين. وقوزاق الدون يسمّون المتطوّعين بـ"الموسيقيّين الجوالين" بينما يسمّى المتطوّعون قوزاق الدون بـ"بالبغايا الألمانيات..." ومع ذلك علينا أن نكون يقظين، وأن نعارض خطّة الثورة المضادّة بخُطّتنا الكبيرة، وهي، بالدرجة الأولى، تنظيم الجيش الأحمر تنظيماً صحيحاً، لكي لا يكون مجرّد انصار يتنقلون في عربات.

نظر شاريغين إلى تليغين في حسد، وأعلن:

ـ هذا صحيح... وهكذا، يا رفاق، نعود إلى النقطة التي بدأت منها... ما هو الضبط الثوري؟..

وفي إحدى هذه المحادثات مدت أنيسيا نازاروفا يدها إلى الأمام فجأة، كالعمياء، وقالت بصوت ذي نبرة خطيرة حتى أن الجميع التفتوا نحوها، وصاروا يستمعون إليها:

ـ اعذروني، يا رفاق... أحبّ أن أقول لكم... أحدّثكم بهذه الشؤون...

في الصباح الباكر، عند الفجر ذهبت أنيسيا نازاروفا لتحلب البقرة. ولكن ما كادت تفتح زريبة الأبقار وجاءها من الظلام خوار البقرة تطالب بالحلب حتى سمعت طلقات من السهب. فوضعت أنيسيا الجردل، وعدلت المنديل على رأسها. وكان قلبها يخفق، وحين اقتربت من باب الحديقة ارتخت رجلاها، ولكنها فتحت الباب. كان جمع من الناس يركضون في شارع القرية وراء عربة رشاشة يركبون فيها أثناء سيرها. واخذت الطلقات تسمع في مكان اقرب وأكثر تردّدا، من ناحية السهب، ومن ناحية البركة، ومن طرف الشارع العريض، ومن الطرف الآخر. ولم تلحق العربة التي كانت تقل رفاقا من سوفييت القرية أن تختفي، فقد حاصرتها الخيّالة. وداروا حولها كالكلاب حين تهاجم كلبا، وأطلقوا النار وطعنوا بالسيوف.

سدّت أنيسيا باب الحديقة، ورسمت علامة الصليب، وذهبت لتجلب الجردل، إلا أنّها استدركت فجأة، واندفعت إلى البيت، حيث كان ينام طفلاها بيتروشا وانيوتا. أيقظتهما وهي تمسّد على رأسيهما، وتهمس في أذنيهما، وألبستهما ملابسهما، وأخرجتهما

إلى الفناء وراء زريبة الأبقار، حيث كان يوجد تل من أقراص الروث المجفف قد صُفّ كبيت النمل، ومن الداخل فارغ. رفعت أنيسيا بعض أقراص الروث، وطلبت من الطفلين أن يدخلا إلى داخل التل، ويجلسا هناك دون أن يصدرا صوتاً.

والآن صار الشارع كلّه يغلي بكركبة حوافر الخيل، وصيحات الناس، وقرقعة السلاح. وأخيراً أخذوا يضربون باب أنيسيا بأعقاب البنادق قائلين: "إفتح!" وحين فتحت أنيسيا الباب أمسكها قوزاقيان أحمتهما الخمرة المنزلية. "أين سينكا نازاروف، أين زوجك تحدّثي، أو نذبحك في مكانك". ولم يكن زوج أنيسيا قوزاقيا، بل من الأغراب، وقد انضمّ إلى الجيش الأحمر، كانت لا تعرف أهو حيّ الآن أم لا. وهكذا قالت إنّها لا تعرف أين زوجها. فقد أخذه بعض الناس في الصيف. كفّ القوزاقيان عن هزّ أنيسيا واندفعا إلى البيت، وقلبا كلّ شيء فيه وحطماه، وحين خرجا مَسكا مرة أخرى بأنيسيا، وجرّاها في الشارع إلى سوفييت القرية، حيث كان الزعيم يعيش في السابق.

وكانت الشمس قد ارتفعت عاليا بينما أغلقت القرية بواباتها ونوافذها، وكأنّها ما تزال نائمة. وأمام السوفيت فقط كان القوزاق يروحون ويجيئون خيّالة ومشاة يسوقون فلاحين وقوزاقا بعضهم مشدود الوثاق، والبعض الآخر مدمى. وفيما بعد عرف أن قائمة قد وضعت بأسماء جميع الذين صوّتوا في الربيع إلى جانب السلطة السوفييتية، فأخذوهم جميعاً.

كان يجلس في بيت الزعيم ضابط ناعس خُيّطت على كمّه جمجمة وعظمان. وإلى جانبه الضابط القوزاقي زميف المعروف جيّداً لدى الجميع، والذي كان قد هرب من القرية قبل ستة

أشهر. وكان الجميع قد نسوا حتى ذكره، وها هو الآن بشاربيه المتدليَيْن ممتلئاً ضخماً أحمر كالنحاس. وحين دفعوا أنيسيا إلى البيت كان زمييف يصيح على المعتقلين، وكان عددهم أكثر من خمسين شخصاً تحت الحراسة:

ـ هل ساعدتكم السلطة السوفييتية، أيها الأوغاد الحمر البطون؟ حدِّثونا الآن ماذا علّمكم مفوَّضو موسكو؟..

وكان الضابط ينظر في القائمة، ويقول بهدوء لكلّ من كانوا يدفعونه نحو المنضدة:

ـ هل تعترف باسمك واسم عائلتك؟ حسنا، هل أنت متعاطف مع البلاشفة؟ لا؟ هل صوّت في شهر أيار؟ لا؟ إذن أنت تكذب. أجلدوه. التالي، القوزاقي روديونوف وكان يرفع عينيه الشاحبتين كعيني خروف،ويقول قف باستعداد، وانظر إلى! هل كنت مندوباً في المؤتمر الفلاّحي؟ لا؟ وحرّضت داعياً إلى السوفييتات؟ لا، مرّة أخرى إذن، أنت تكذب على المحكمة العسكريّة. على اليسار! التالي...

وكان القوزاق يمسكون بالناس ويدفعونهم من على مقدِّمة البيت، ويلقونهم أرضاً، ويسحبون سراويلهم، ويعرّونهم. ويجلس أحدهم على الرجلين المرتجفتين، والآخر يضغط على الرأس بين ركبتيه، ثم يخرج اثنان آخران قضيبي التنظيف من بندقيتيهما، وينزلان بالضرب على المطروح محدثين صفيراً في الهواء.

ولم يعد الضابط يستطيع أن يتكلّم بصوت هادئ، فقد كان الذين خارج النوافذ يولولون ويصيحون. وكان يحيط بمكان التأديب جمهور من القوزاق خيّالة ومشاة من الفصيلة المغيرة،

ومن القوزاق المحلّيين الذين خرجوا من بيوتهم للقاء الفصيلة صائحين "المسيح قام!..." كما كانو يزعقون ويشتمون: "أجلدوهم حتى العظام! أضربوهم إلى آخر قطرة من الدم. حتى يتذكروا سلطتهم السوفييتية!"

وأخيراً لم يبق في بيت الزعيم غير أنيسيا ومعلّمة شابة. وقد جاءت إلى القرية برغبتها، وحاولت جاهدة أن تنوِّر أهل القرية. فقد كانت تجمع النساء، وتقرأ لهن بوشكين وليف تولستوي، وتصطاد الخنافس مع الأطفال تصطاد الخنافس في مثل تلك الأوقات!

صرخ الضابط زمييف بها:

ـ إنهضي! أيتها السحنة اليهودية!

نهضت المعلّمة، وظلّت تحرّك شفتيها لبعض الوقت دون أن تنطق بشيء.

ـ أنا لست يهودية، وأنت تعرف ذلك جيّداً، يا زمييف... وحتى لو كنت يهودية، فأنني لن أجد في ذلك جريمة...

وسأل الضابط:

هل أنت في الحزب الشيوعي من زمان؟

ـ لست شيوعيّة. أنا أحبّ الأطفال، وأجد من واجبي تعليمهم القراءة والكتابة... تسعون بالمائة من سكان القرية لا يعرفون القراءة والكتابة، فتصوَّر...

قال الضابط:

ـ أتصوّر... وسنجلدك الآن.

شحبت وتراجعت. وصرخ زمييف بها: "إخلعي!" واختلج وجهها الحلو، وأخذت تفكّ أزرار معطفها ذي المربّعات، وخلعته، وكأنّها نائمة..

ـ إسمع، إسمع ولوّحت بذراعها على الضابط ما هذا منك!

ومن وراء النافذة ارتفع صوت نحيل بشكل لا يطاق. بينما كان زمييف ماضيا في أوامره "إخلعي سروالك، أيتّها الفاجرة!" وصاحت به المعلِّمة "أيّها الوغد" وتأجّجت عيناها، واحمر وجهها بحمرة الحنق:

ـ اقتلوني يا وحوش، يا غيلان... لن يمرّ هذا بسلام.

عند ذاك أمسكها زمييف، ورفعها قليلا وألقاها أرضا. ورفع قوزاقيان تنورتها، وضغطا على رأسها وقدميها، وخرج الضابط من وراء الطاولة على مهل، وتناول السوط من قوزاقي، وأطلت بسمة ساخرة على وجهه الرمادي. ثم رفع السوط، وأنزله بقوة على مكان الحرمة منها. ومال زمييف من كرسيه إلى الأمام وصاح بصوت عالي "واحد!" وأخذ الضابط يسوِّط، والفتاة صامتة... "خمسة وعشرون. كفى ذلك قال الضابط وألقى السوط ـ إذهبي الآن، اشتكيني لزعيم المنطقة!" وكانت راقدة كالميتة.

رفعها القوزاق، وحملوها إلى الرواق. وحان دور أنيسيا. شدّ الضابط حزامه القفقاسي، وأشار برأسه إشارة خفيفة إلى الباب. وجنّ جنون أنيسيا حقداً وحاولت أن تتخلّص، حين جرّوها أمسكت بشعر بعضهم، وتشبّثت، وعضّت أيديهم، وركلتهم بركبتيها. وأطلقت نفسها حاسرة الرأس ممزّقة الثياب، وهاجمت القوزاق، وفقدت الوعي حين ضربوها على رأسها. مزّقوا الجلد على ظهرها بقضبان تنظيف البنادق، وألقوها عند مقدّمة البيت ظانّين أنّ هذه المرأة الخبيثة قد ماتت

وأعادت فصيلة النقيب نميشايف التأديبيّة النظام في القرية،

وأقامت زعيما، وحملت عدّة عربات من الخبز وشحم الخنزير المقدّد وبعض الأشياء الأخرى المنهوبة ورحلت. وبقيت القرية طوال النهار ساكنة لم يوقد فيها موقد، ولم تخرج ماشية. وفي الليل اندلعت النار في عدة بيوت للأغراب، ومنها بيت أنيسيا.

وخاف الجيران إطفاء الحريق، لأنه عندما اندلعت النار الأولى في طرف القرية هرع بعض القوزاق بأفراسهم إلى هناك، وسمعت طلقات. وقد احترق بيت أنيسيا كلّيا. وفي الصباح فقط استدرك الجيران: أين ولداها؟ إنّ ولدي أنيسيا، بيتروشا وأنيوتا، اللذين ظلاّ إلى الليل جالسين في تل أقراص الروث قد احترقا مع البقرة والأغنام والدواجن.

والتقط الطيّبون أنيسيا التي كانت تئن مغميا عليها عند بيت الزعيم، وأخذوها إلى بيتهم، وأرقدوها هناك، واعتنوا بها. وبعد عدة أسابيع أخذت تفهم، فقد حدّثوها عن ولديها. ولم يعد لأنيسيا شيء تفعله في القرية. وهذا ما قالته للناس الطيّبين. وكان الفصل خريفاً، ولا أخبار من زوجها. وقد زهدت في العيش. فتنقّلت من قرية إلى أخرى، متسوّلة تحت النوافذ. وبلغت الخطّ الحديدي، ووصلت أخيراً على استراخان، حيث أُخذت طبّاخة على السفينة، لأنّ الطبّاخ قد نزل إلى الشاطئ في المرّة السابقة ولم يعد.

روت أنيسيا نازاروفا هذا الحديث عن حياتها، ثم قالت:

ـ شكراً لكم، يا رفاق. أنتم تعرفون مصيبتي الآن، فشكراً لكم.

ومسحت عينيها بالمِئزر، ونزلت إلى مطبخ السفينة. وظلّ البحّارة طويلاً جالسين في صمت جاهم يحتضنون ركبهم بأيدهم

المعروقة. انصرف إيفان ايليتش عنهم، واستلقى في ناحية. وفكّر كاتما حسرته "وهكذا تلتقي بإنسان، وتمرّ به ساهيا، بينما هو أمامك مملكة من خرائب داخنة..."

وبالتدريج تحوّل من قصة هذه المرأة الشجيّة إلى همومه هو. وكان يخفيها عميقا في طيّات نفسه عن الجميع، وعن نفسه بالدرجة الأولى. وكان قليل الأمل في أن يلتقي مرّة أخرى بداشا. حقّاً إنّ الإنسان الحيّ يتحمّل من الجراح والمصائب ما لا يتحمّلها أي حيوان. ولكن ما أرحب الأرض! وأين يبحث عن داشا في سيل الملايّين النازحين إلى الشرق. ثم أنّ الأحمق العجوز، الدكتور بولافين، قد يذهب معها إلى الخارج.

وتذكّر، وهو يهزّ رأسه ويتحسّر رثاء، ميول داشا نحو الراحة النفسية، نحو الأناقة، وتوقّد عاطفتها الباردة قليلاً، مثل فوران نبيذ مثلّج. "لم تكن تقوى على ذلك. لقد نمت في دفيئة، فإذا بها تصادف تيّاراً قوياً يهزّ العالم... مسكينة، مسكينة... رفضت أن تعيش بعد وفاة ابنها في بطرسبورغ وكانت تنطفئ في الظلمة الباردة...".

وكان إيفان ايليتش لا يعرف ما حصل لها بعد بطرسبورغ إلا من قراءته لرسالتها على عجالة. لا شكّ في أنّ داشا قد قاست كثيراً بعد بطرسبورغ وفهمت الكثير... بأية عاطفة جذبته في ذلك اليوم إلى النافذة، وهي تنقذه من الملاحقين: "سأبقى وفيّة لك مدى الحياة، أهرب، أهرب.." وقد التصقت به رائحة شعرها الكستنائي الدقيق... إنه لم ينسَ ذلك ولن ينساه. يا لها من امرأة عجيبة معبودة... "أوه كفاك ذكريات..."

وبدأ الجو يسيء. وعتمت الفولغا، ونهضت من الشمال

كالحواجز سحب باردة موحشة، وصفرت الريح في الصواري القصيرة. ومرّت كامشين، وهي بلدة خشبيّة مهملة بحدائقها العارية على التل. وبعد كامشين تماما بدأت جبهة تساريتسين.

٣

كانت السحب المترعة بالبرد تعوم فوق تساريتسين. وكانت الريح تصعد الغبار، وكالدوّامات تفرش به البيوت الخشبيّة المتلاصقة التي كان بعضها يواجه النهر وبعضها الآخر يدير له ظهره، ناهضة فوق المنحدرات الوَعِرَة بين المراحيض والمصانع. كان إيفان ايليتش يصعد شارعاً مرتفعا قلعت المطار حجارته. وكان الكورنيش، والأرصفة، وشوارع المدينة أيضاً خالية من الناس. وفي الساحة فقط، حيث كانت الكاتدرائية الرمادية الضخمة تلوح خلف نقاب من الغبار، تقابلت معه فصيلة مسلحة. كان أفرادها من الكهول والشبان المرتدين كيفما اتفق يسيرون مديرين ظهورهم للريح في مقاومة جامحة.

وكانت تسير في المقدّمة عجوز نحيلة بادية الغضب في قبعة من قبعات الجيش الأحمر، وقد ألقت بندقيتها على كتفها، مثل الجميع. وحين حاذت إيفان ايليتش سألها عن مقر القيادة. ألقت العجوز نظرة شزراء عليه، ولم تجب، ومرّت الفصيلة كلّها في عجلة تثير الغبار.

كان على إيفان ايليتش أن يذهب إلى قيادة الجيش، ويبلغ بوصول السفينة بحمولتها من الذخيرة، ويقدّم ورقة الشحن. ولكن أين يجد هذه القيادة! لا شيء حوله غير حوانيت مغلقة بالألواح،

ونوافذ خالية من الحياة، ولافتات تقرقع بحديدها ويخيّل إليك أنّها ستسقط في اللحظة التالية. وفجأة اعترض سبيله عسكري مضمّد اليد زفر بألم من خلال أسنانه، وشتم همسا. اعتذر إيفان ايليتش وألقى عليه نفس السؤال عن القيادة. فإذا به يتبيّن أنّ الرجل الذي أمامه هو سيرغيفيتش سابوجكوف، قائد فوجه السابق. وقال سابوجكوف:

ـ ما لك مندفع كالمجنون. سلِّم.

همّ إيفان ايليتش بأن يعانقه، إلا أن سابوجكوف تنحى قائلا:

ـ دعك عن هذا حقاً. تمسّك بالهدوء. من أين جئت؟

ـ جلبت سفينة إلى هنا.

ـ يا للعجائب! أنت حيّ ترزق؟ خداك يتفتقان من العافية! هذا هو الصنف الروسي! تريد مقرّ القيادة؟ إنه هنا. أين نزلت؟ بالطبع، لم تنزل في مكان ما. حسنا، سانتظرك.

ودخل مع تليغين في مدخل بيت آجري يبدو من بيوت التجار، وأشار إلى حجرات القيادة في الطابق الثاني:

ـ إسمع يا إيفان. أنا منتظرك...

كان إيفان ايليتش قد شاهد مقرّ قيادة سوروكين وجيوش الجبهة الجنوبيّة، حيث لا يستطيع المرء أن يعثر على الحجرة التي كان يريدها، فقد كان الجميع يكذبون وكأنّهم على اتفاق، وفي كلّ مكان دخان التبغ، وكاتبات الآلة الطابعة يضربن على آلاتهن بذعر، والمرافقون ينتقلون من باب إلى باب مهيبين ببناطيل ركوب الخيل. أما هنا فكان الهدوء. وقد وجد الباب المطلوب حالا. كان ضابط الخفر يجلس عند نافذة متربة

لا يكاد النور ينفذ من خلالها. وقد رفع وجهه العظمي العليل وثبت بصره في تليغين دون أن يحرِّك جفنيه المحمرّين. أجاب:

ـ لا يوجد أحد. القيادة في الجبهة.

ـ إسمح لي أن اتّصل بالقائد. يجب تسليم الحمولة بسرعة.

رفع الضابط الخفير جسمه برخاوة رجل أذبله الأرق، ونظر في النافذة. فرأى سيارة قد وصلت من توها .

ـ إنتظر

قال ذلك بهدوء، وتابع تصنيف المراسلات والتقارير في عدّة إضبارات. بعضها مكتوباً بالقلم الرصاص لا يتبيّن الإنسان من محتوياتها سوى عظمة نفس كاتبيها الشهمة البسيطة.

دخل إثنان يرتدي أحدهما معطفا استراخانيا، ويتدلّى منظار من رقبته، وعلى جنبه سيف خيّالة ثقيل في محمل من الجلد الخشن. والثاني في معطف من معاطف الجنود الطويلة، وقبّعة من تلك التي يرتديها عمال بطرسبورغ في أيام الشتاء، وكان لا يحمل سلاحا. كان وجها الرجلين داكنين من الغبار.

توقّف الرجل ذو المعطف الاستراخاني في الحال، وكان فتيّاً له عينان بنيتان مستديرتان مرحتان "شيء ممتاز!" أما الآخر ذو المعطف الذي لطّخه الوحل فقد أخرج منديلا، ومسح به وجهه النحيل، محاولا أن يزيل أكبر قدر من الغبار من شاربيه الأسودين. وأحسّ تليغين بأنّ عينيه اللامعتين بجفنيهما المرتفعين الرقيقين تثبتان عليه بصرهما.

قال الخفير:

ـ الرفيق جاء ببلاغ لكم.

وكان إيفان ايليتش يرى هذين الرجلين لأوّل مرة فلم يعرف

مَنْ هما، فتردد قليلاً. ومال الضابط الخفير نحوه وقال:

ـ تحدّث، يا رفيق، هذا هو المجلس العسكري للجبهة.

أخرج تليغين أوراقه، وأبلغ. تبادل الرجلان النظرات بعد أن سمعا بأنّ سفينة محمّلة بالذخيرة قد وصلت من توّها. تناول الرجل في معطف الجندي ورقة الشحن، بينما راح الثاني يمرّر عينيه على سطورها من وراء كتفه متلهّفا، بل أنّ شفتي فمه الصغير تحرّكتا تردّدان أرقام كمّية العتاد والقذائف وأشرطة الرشاشات...

سأل الرجل في المعطف العسكري:

ـ كم عددكم في السفينة؟

ـ عشرة بحّارة البلطيق، ومدفعان للميدان.

وتبادلا النظرات ثانية. وعاد نفس الرجل يقول:

ـ إملأ الاستمارة. في الساعة الخامسة بعد الظهر عليك أن تكون في طاقم السفينة أمام قائد الجبهة وأدار بحركة متمهّلة يد جهاز التلفون الذي صرّ صرّيراً جافاً، واتصل بشخص ما، وهمس له ببعض الكلمات، ووضع السماعة، وقال: أيها الرفيق الخفير، جهّز على الفور أكبر عدد ممكن من العربات. وللتفريغ استعن بعمّال مصنع المدافع. تأكّد من التنفيذ وابلغني.

وذهب كلا الرجلين إلى الغرفة المجاورة. وأخذ الخفير يدير يد التلفون. وراح يكرّر بصوت مكتوم: "قسم النقل... الرفيق إيفانوف. لا يوجد؟ قتل؟ اعطني خفيرا آخر. مقرّ قيادة الجبهة يتكلّم..." جلس إيفان ايليتش ليملأ الاستمارة. وكان الأمر واضحاً: الحضور أمام القائد. يعني الذهاب إلى الخنادق رأسا. استرخى إيفان ايليتش على السفينة، وإذا به يشعر الآن، وهو

يخربش بالقلم الذي يتعثّر على الورق، بحركة الادارة المألوفة التي تكرّرت كثيراً خلال السنوات، حين كان يتراجع إلى الخلف كلّ ما هو ساكن دافئ شخصي في الإنسان ويتضاءل حرصه على حياته، وسعادته، ليحلّ في محله بقوّة غير منظورة إيفان ايليتش آخر إنسان بدائي قاس عازم.

كان ما يزال ثمة وقت كثير حتى تحلّ الساعة الخامسة. سلّم تليغين استمارته وخرج إلى الممر. نهض سابوجكوف بسرعة من الأريكة الخشبيّة.

ـ هل فرغت؟ لنذهب إلى مكان ما.

ونظر بابتسامة ساخرة إلى تليغين الذاهل. وكان سابوجكوف على حاله عصبيا متوتّراً، وكأنّه يعرف ما لا يعرفه الآخرون، إلاّ أنّ مظهره الخارجي قد تغيّر كثيراً. فقد أضحى وجهه الوردي صغيرا مثل وجه عجوز. أوضح له تليغين بأن عليه أن يهرع إلى رصيف النهر، ويجمع طاقم السفينة، ويفرغ الصناديق.

ـ مؤسف. ولكن ما العمل؟ لنذهب إلى الرصيف. صمت ثلاثة أشهر، يا إيفان، وبلغ بي الأمر في المستشفى إلى حد أنني كدت اكتب "يوميات مثقف سابق". ولم أعد اشرب، يا أخ، نسيت...

كان سابوجكوف متأثراً جداً في لقائه بإيفان ايليتش. خرجا من البناية. ودفعتهما الريح في الشارع نحو الفولغا المعتم المتنفس بأمواج مزبدة طويلة.

ـ أين الفوج، يا سيرغى سيرغيفيتش؟ لماذا انفصلت عنه؟

ـ لم يبق من فوجنا شيء في الواقع. لا وجود الآن لهذا الفوج في الجيش الحادي عشر.

نظر تليغين إليه صامتا، وفي نظرته ذعر. بدأ سابوجكوف يمسح الغبار عن حاجبي عينيه بيده.

ـ انتهينا في ضيعة بيسبوكويني. هل لك علم بمأساة الجيش الحادي عشر؟ إن القائد العام سوروكين فعل من الأمور ما يستحقّ عليه أكثر من ثلاثة إعدامات، إبن الكلب ذاك. فقد أخفى عن الجيش أمر المجلس العسكري الثوري لتساريتسين القاضي بقطع الجبهة والالتقاء بالجيش العاشر. ولم ينفذ هذا الأمر إلا من قبل فرقة جلوبا وحدها، واتجهت نحو تساريتسين، وهذا فقط لأن سوروكين اعتبر جلوبا خائنا وأمر بإعدامه رميا بالرصاص. وتصوّر الأمر: انقطعنا عن مينيرالنيه فودى، وانقطعنا عن ستافروبول، حيث هلك جيش تامان. وفي حالة ذعر ترك سوروكين احتياطات الذخيرة في تيخوريتسكيا. وكانت خيّالة الجنرال شكورو تضغط علينا من الجهة اليمنى وخيالة فرانغيل من الجهة اليسرى. فتراجعنا شرقا في سهب بلا ماء... ولم يبق من فوجي غير سريّة واحدة. وكنّا ننام أثناء سيرنا، لنتخلص من العدو وشققنا طريقنا عبر منخفضات، ولم يكن لنا طعام نأكله، ولا ماء نشربه... لا شيء في ذلك السهب اللعين غير الرياح القارصة! أحياناً كان يسقط إنسان وفرسه متجمِّدَين وتغطِّيهم الرمال مثل حدبات قبور السكيفيِّين .. ووصلنا إلى ضيعة بيسبوكويني، فلم نجد فيها إنساناً ولا دجاجة، وحتى الكلاب أخذها القوزاق. أما البيوت فكانت أبوابها مفتوحة.. ووجد الفتيان حليبا فشربوه بكلّ قوة عطشهم. فهمت؟ وإذا بهم يتلوون على الأرض، ولم يبق أحياء منهم غير حوالي ثلاثين شخصا... وفي الفجر طوقونا طبعا بالرشاشات، وقضوا علينا...

وبينما كان إيفان ايليتش يصغي كان يسرع خطاه حتى تعثر.

ـ وأنت، كيف؟

ـ الشيطان يعلم. لقد أسعفني الحظ... جرحت منذ البداية، في يدي، وأصيبت أعصابي أو شيء من هذا القبيل، وفقدت الوعي... ومنذ تلك الساعة بدأت أعيد النظر في الكثير من الأشياء. وبينما كنت منبطحا ضمد الجنود ذراعي، وحملوني إلى كومة قش، وغطّوني بالقش، يعني اهتموا بي في مثل هذا الوقت أؤكّد لك أننا لا نعرف شعبنا ولم نعرفه البتّة... يقول إيفان بونين أنه وحش همجي، بينما يقول ميريجكوفسكي انه رعاع ورعاع المستقبل أيضا... هل تذكر حديثنا في عربة القطار ليلاً؟ كنت سكران ولكنني لم انسَ شيئا. أين كان يكمن الخطأ؟ الفلسفة والمنطق في حاجة إلى هدف يصححهما، مثلما يحتاج التصويب إلى هدف منظور، وهذا الهدف هو معرفة عميقة لتجارب الحياة... أن الثورة شيء، وعمانوئيل كانت شيء آخر!

ـ سيرغي سيرغيفيتش، وماذا حدث بعد ذلك؟..

ـ بعد ذلك... خرجت من القش ليلا. في الضيعة كانوا يغنّون الأغاني. يعني أنّ المنتصرين قد سكروا. اصطدمت بجثة مقطوعة القوائم، وبأخرى. وفهمت كلّ شيء... وأخذت حصانا، وانطلقت في السهب، حيث قضيت عدة أيام مؤلمة ... والتقطتني فصيلة من خيّالة بودوني، وهو فارس في سهوب سالسك... وأوصلوني إلى محطة كوبرلي، ومن هناك إلى هنا. وهنا بقيت طويلا في المستشفى... وبقي دفتر الخدمة والوثائق في معطفي، في القش.. أتذكّر معطفي؟ إنّك لم تحصل على مثله الآن...

ـ اسمع، وهل قتل غميزا أيضاً؟

ـ فقدنا غميزا منذ زمان مع صف من العربات. وقد أصيب بحمى تيفوس شديدة...

ـ يؤسفني أمر غميزا.

ـ الجميع مأسوف عليهم، يا إيفان. لا، أنا اكذب، ليس ذلك أسفا... لقد تعوّدت على الفوج، وليس من اللائق أن أبقى وحدي حيّاً.. أنا لا أجد مكانا لي، يا إيفان. ذهبت إلى مقر القيادة، وطلبت سرية على الأقل... أنا افهمهم جيدا. فأنا رجل غير معروف لهم. وليس لدي غير البطاقة العسكرية... تكلّم عني في القيادة، أرجوك...

ـ بالطبع، يا سيرغى سيرغيفيتش...

ـ إنّ أحسن شيء هو أن تضمّني إلى الفصيلة، كلمة شرف.. مساعد على الأقل، جندي الأتصال... انظر ما فعل القدر بنا... هل تذكر كيف كتبنا الأشعار في شقّتك، وأخفنا البورجوازيّين؟ كلّ شيء لا يذهب سدى، وكل شيء يخلّف أثرا. عبثت ونسيت... وإذا بك تجد نفسك أمام لوحة جبّارة يقف لها شعر رأسك. إسمع، هل تذكر كيف عثرت عليك في زريبة عند الألمان؟ كانت غارة عظيمة! ثم حين كسرت سيفي... لطيف جدّاً أننا نلتقي من جديد... أنت تبدو في صحة ممتازة، يا إيفان. لقد تعلقت بك، أو شيء من هذا القبيل... إسمع، وأين زوجتك؟

وانقطع حديثهما، فقد لحقت بهم العربات التي انطلقت مسرعة نحو الرصيف.

هبط غروب هائل كئيب وراء سطوح المدينة، من خلال دوامة الغبار ناشرا حمرته الدموية في السحب المتحرّكة. وتحرّك

ثلج قليل دائرا فوق الفولغا. وكانت العربات المحمَّلة التي يحرسها العمّال المسلّحون قد أقلعت منذ وقت بعيد. وأقفر الشاطئ. ابتعدت السفينة عن المرسى، وسارت مع التيّار ثم أرست دون أن تشعل الأضواء.

وجلس البحّارة بسترهم المحزّمة وراء حاجز المرسى محجوبين عن الريح صامتين لا يدخّنون، ومعهم القنابل اليدويّة وأكياس الأمتعة والبنادق. وقد عرفوا من أحاديث العمال ماذا كان يجري في هذه المدينة الخالية المضاءة بغروب دام كدراً. وكانت الأمور لا تبعث عن الفرح.

كان إيفان ايليتش ينتظر الخيول لتفريغ المدفعين، وينظر في ساعته قلقا، وقد تلفن عدّة مرات إلى مقر القيادة. واتضح أنّ الخيول قد أرسلت، وأمروا الفصيلة بأن تأتي مع المدفعين إلى المحطة. خرج إيفان ايليتش إلى سطح المرسى متغلبا على قوة الريح المطبقة على الباب. فوجد أنيسيا نازاروفا أمامه.

ـ لماذا أنت هنا؟

صمتت مطبقة شفتيها، وخفضت رأسها إزاء نظرته. كان شال مهلهل مرقع، يبدو حاميها الوحيد من البرد، مشدودا على كتفيها، ووراء ظهرها كيس من الجنفاص.

قال إيفان ايليتش:

ـ لا، لا، لا، انزلي إلى السفينة، يا أنيسيا. لست بحاجة لك في فصيلتي.

بينما كان الرجال يسحبون المدفعين عبر المعبر الخشبي إلى رمل الساحل ويشدونهما إلى الخيول، انطفأ الغروب في السحب واندمج النهر بالضفاف الداكنة. سارت الفصيلة نحو المدينة وهي

تحت الخيول المشدودة إلى المدفعين. أقبل شاريغين نحو إيفان ايليتش، وقال بصوت خفيض:

ـ ماذا سنفعل مع أنيسيا؟ الرفاق يطلبون أن تبقى مع الفصيلة...

وفي اللحظة التالية ابتعد لاتوغين عن عجلة المدفع، وتقدّم نحو إيفان ايليتش من الجهة الأخرى:

ـ أيّها الرفيق القائد، إنها بمثابة أم لنا. أنت تعرف ما الجبهة... يمكن أن تأتي بشيء وتساعد وتغسل قميصا... إنها امرأة قوية الشكيمة، ولو كانت هادئة المنظر. ظلّت متعلّقة بنا تعلّق الكلبة، ما العمل...

وكانت أنيسيا وراء إيفان ايليتش، كانت تسير مع الفصيلة مطرقة الرأس أيضاً. قال شاريغين:

ـ لنقل إنّها ممرضة غير متدرّبة... شيء رقيق...

وهز إيفان ايليتش رأسه: "صحيح. أنا أيضاً أردت أن أبقيها". عاد لاتوغين ثانية إلى عجلة المدفع، وأمسك بها، وصاح بالخيول التي كانت تجاهد بكلّ قوتها لتصعد المرتفع: "هيا، يا لطاف، إصعدي"! وكان الرمل المتطاير من المرتفع يتناثر على الفصيلة، ويدور مجنونا. وأخيرا سارت العجلات على أرض الشارع. كانت البيوت التي لا تكاد تبين مظلمة وما من نافذة مضاءة فيها. وكانت الأسلاك على الأعمدة تطن طنينا شديدا. وتطقطق اللافتات. وكان إيفان ايليتش يسير مبتسما. "ها أنت قد تلقّيت درسا، وضربت على أنفك، أي، يا قائد، لا أراك مراعيا شعور الناس. صحيح. ولا اعتراض عليه... استلقيت على جنبك من نجنى حتى تساريتسين، مصغيا إلى الثرثرة، ولم تعرف أي

أناس هؤلاء الفتيان... أنظر إليهم يمشون مشية البحارة المتمايلة، والريح تعبث بالاشرطة على قبّعاتهم ...لماذا ربطوا مصيبة أنيسيا ومصيرها البائس بمصيرهم بدون مناقشة، وفي ساعة كهذه، حين أمروا بترك الحياة السهلة على السفينة، والزحف خلال الزوابع الرملية الباردة، في هذا الظلام ليحاربوا ويموتوا؟ هل هم بواسل إلى هذه الدرجة؟ لا، كلا، إنهم يبدون اناسا اعتياديّين للغاية. نعم، لست بالقائد ذي الشأن، يا إيفان ايليتش... الجاهل... القائد الجيّد هو الذي يحفظ في أصعب الأحوال نفسيّة كلّ مقاتل مهما كانت معقّدة...»

واستبد به قلق شديد من حديثه الأخير مع سابوجكوف، ومن حادثة أنيسيا التي قد تبدو غير ذات أهمّية. ووجّه اللوم لنفسه، قبل كلّ شيء، وأتهم نفسه بالأنانية، واللامبالاة، والارتخاء وكمد الذهن... في مثل هذا الوقت جعل خدّيه يمتلئان، وحتى سيرغى سيرغيفيتش لاحظ ذلك... وبينما هو يفكّر وقع على فكرة أخرى، وأحس فجأة بالدفء، وبأنّ قلبه يهنأ بلحظة مضيئة، فقد كان وراء كلّ هذا التدقيق مع النفس فكرة خفيّة، هي إرجاع حبّ داشا السابق لنفسه... ثم نخر في هبّة غبار هاجمته من وراء منعطف، فطرد من ذهنه هذه الأفكار غير المناسبة كلياً.

في المحطّة تلقّى إيفان ايليتش أمراً بتحميل المدفعين فوراً، واتخاذ مواقع المدفعية في منطقة محطة فوروبونوفو. وقد سلّم له الملاحظ الأمر، وهو شاب فاره ذو عينين رهيبتين سوداوين كليلة من آذار، نام على خدّيه. ارتبك إيفان ايليتش بعض الشيء، أخذ يشرح له بأنه ليس مدفعياً، بل من المشاة، ولا يستطيع أن يأخذ

على عاتقه مسؤولية قيادة بطارية. قال الملاحظ بخفوت وتهديد:

ـ هل مفهوم لك الأمر، يا رفيق؟

ـ مفهوم، ولكنني أوضح لك، يا رفيق...

ـ في اللحظة الراهنة ليست القيادة بحاجة إلى توضيحات. هل تنوي تنفيذ الأمر؟.

"أوه"، يا للشيطان، كيف يتحدّثون هنا" فكّر إيفان ايليتش مع نفسه، ووجد نفسه يؤدّي التحيّة العسكرية: "حاضر!" واستدار، وسار إلى السكة.

كانت الأمور في هذه المدينة لا تشبه الأمور في أية مدينة أخرى. ففي محطات المدن الأخرى مثلا، إذا كنت تريد الذهاب إلى أي مكان كان عليك أن تسير خلال جموع من البورجوازيّين المتنكّرين المستلقين جنبا إلى جنب والجنود الهاربين والفلاحين والنساء مع أكياس يخرج منها ذيل ديك أو يقبع فيها خنوص. أما هنا فلا يوجد أحد، بل تبدو الأرض مكنوسة رغم أنّ الغبار الذي تطلقه الريح خلال النوافذ المحطّمة كان يغطّي بطبقة كثيفة ملصقة على الحيطان، وحانوت المرطّبات الذي تركه صاحبه منذ زمان. وحتى الأحاديث كانت تدور هنا بطريقة خاصة باختصار وتحذير، كما يتحدّث الإنسان وأصبعه على الزناد.

تسلّم إيفان ايليتش قاطرة وأمر بالشحن بسرعة دون جهد زائد ودون صياح. تلفن على مقرّ القيادة وسألهم عن سابوجكوف فأجابوا: "حسنا، خذه على مسؤوليتك"... وكان الطاقم قد بدأ بشحن المدفعين على عربتي شحن على ضوء المصابيح المتأرجحة. وقف إيفان ايليتش يتمعّن في وجوه البحّارة. هذا هو

غاغين من مدينة نوفغورد بوجهه القاسي ذي التجاعيد العميقة، والشعر الأسود الساقط من تحت طاقيته على جبينه حتى جفنيه، وهذا بايكوف الهزلي السكّير ذو اللحية العريضة المغبّرة التي تبدو معلّقة في وجهه الصغير، والرأس المستدير القوي كالجوزة، وهو من الشمال، وكان رفاقه التسعة قد أمسكوا بعجلتي المدفع دافعين بهما على اللوحتين المنحدرتين، بينما كان بايكوف يجلس مقرفصا تارة، وناظرا من الجانب الآخر تارة أخرى مردّدا: "يتحرّك، يتحرّك، يا أولاد، اضغطوا، هيّا..." بل أنّ احدهم لكزه بركبته: "اضغط أنت يا رجل!..."

وهذا لاتوغين من نيشنى نوفغورد بوجهه العريض المنمّ عن جسارة، والأنف المبعوج الذي لابدّ أنه انكسر في عراك، الرجل الشديد البأس المتوسّط القامة، الذكي، الخطر عند الشجار و "الشرس" مع النساء... وهذا زادويفيتر...

وتقدّم منه شاريغين:

ـ إيفان ايليتش، أتعرف أين تقع فوروبونوفو؟

ـ لا أعرف شيئا هنا.

ـ إنها قريبة. عند تساريتسين تماما. وهناك تقع الجبهة.. يقولون أنّ البيض يضغطون... بالمدافع والدبابات والطائرات... كما أنّ وراء القوات حوالي مائة ألف من القوزاق يتبعونها على عربات.

كان شاريغين يتحدّث بخفوت وانفعال، لمعت عيناه الزرقاوان، وارتعشت شفتاه الجميلتان وهو يبتسم. تجهّم تليغين.

ـ ألم تجابه بكلّ هذا في المعارك الجدّية، يا شاريغين؟

فتوهّج وجه شاريغين. وصعد الدم إلى أنفه الصغير، واحمر تماماً. فتابع تليغين قوله:

ـ نصيحتي أن تقلّل من سماع الأقوال... كلّ ذلك لإثارة الذعر... هل اهتممت بطعام الفصيلة؟

ـ حاضر!

ورفع شاريغين كفّه إلى طاقيته بالتحيّة، وهو ما لا يفعله عادة. وتألقّ وجهه. وكان فتى طيبا سريع الانفعال، ولكن لا بأس سيجتاز الامتحان. ذهب إيفان ايليتش على عربة البضاعة التي كانوا يربطونها وراء العربات المكشوفة الحاملة للمدفعين. فرأى سابوجكوف يركض على رصيف المحطّة منفعلا، وقد تأبطّ كيسه وسيفه.

ـ إيفان، تحدّثت عني؟

ـ كلّ شيء على ما يرام، يا سيرغي سيرغيفيتش.. إركب.
صعد سابوجكوف إلى عربة البضاعة. وكانت أنيسيا تجلس في ركن منها على كومة من أمتعة البحارة.

انزل المدفعان قبل الفجر على مسافة قريبة من فوروبونوفو، وهي محطّة على الخط الحديدي الغربي، ووضعا تحت تصرّف احدى كتائب المدفعيّة. وهناك عرف تليغين وفصيلته أنّ الأوضاع في الجبهة صعبة جدا. وكان خطّ الاستحكامات يبنى بالقرب من فوروبونوفو بشكل قوس يمتدّ حوالي عشرة فراسخ عن تساريتسين ابتداء من عند محطة غومراك شمالا، وانتهاء عند ساريبتا جنوب تساريتسين. وكان قوس الاستحكامات هذا يمثّل خطّ الدفاع الأخير. وفي المؤخّرة وراءه تمتد سلسلة واطئة من التلال، وأبعد منها ينحدر حتى سهل المدينة نفسها. وكان التراجع يعني

النزول إلى أمواج الفولغا الثلجية.

كانت الريح بالامس قد بدّدت السحب، وجمعتها عند حافة السهب في ظلمة حالكة. طلعت الشمس خالية من الدفء. وكان السهل البني المسطّح يمور بعدد جمّ من الناس، بعضهم يحفر الأرض، والآخر يدقّ الأوتاد، ويمدّ الأسلاك الشائكة، ويضع أكياس الرمل. ومن تساريتسين كانت تأتي قطارات البضاعة محمّلة بالناس، فينزلون منها، ويتفرّقون، ويختفون في الأرض. وكان آخرون يخرجون من تحت الأرض ويتّجهون نحو المحطة متعبين. وكان يبدو وكأنّ كلّ سكان المدينة القادرين على حمل رفش قد سيقوا إلى هنا للعمل، أرادوا أم لم يريدوا...

جاء فريق من هؤلاء، حوالي خمسة عشر شخصاً من مختلف الفئات من كلا الجنسين، على موقع بطارية تليغين يترأسهم مهندس عسكري عجوز ضئيل البنيان.

وقد هتف بصوت أجش مطلعا شاربيه الاشيبين من لفاح وبرى سميك ملفوف عليه:

ـ أيها المواطنون! أنّ مهمتكم بسيطة. أريد أن تقيموا متراسا ارتفاعه نحو ١٤ ذراعا. خذوا التراب من هنا، والقوه هناك حتى يصل إلى هذه العلامة على الوتد... تفرقوا خطوة، وانكبّوا على العمل بهمة!

وصفّق بيديه الصغيرتين الموردتين من البرد ليشجعهم، وخرج من الحفرة بسرعة. شيّعه الناس بنظرات مشبعة بالحنق. هزّت امرأة وجهها المستدير في اثره:

ـ إخجل، يا غريغورى غريغوريفتش، اخجل!

وبقي الآخرون واقفين حاملين الرفوش بشكل يوحي بأن هذه الرفوش بالذات هي الأدوات الفظيعة للدكتاتورية البروليتارية. ولم يشرع يحفر الأرض غير فتى غليظ الشفة بارز الحنجرة كان مسرورا جدا في أن يكون في المواقع الحربيّة، إلا أنّهم همسوا إليه في الحال:

ـ إخجل، يا بيتيا، اترك العمل حالا...

وشرعوا يتحدّثون جميعا مخاطبين شخصاً ذا وجه أصفر عصبي كان حتى ذلك الحين يقف مغمض العينين مترنّحا بعض الشيء. وكان معطفه الرسمي لموظف وزارة المعارف قد شدّ بحبل في تحدٍّ.

ـ لماذا صمت، يا ستيبان الكسييفيتش؟.. انتخبناك... وننتظر منك...

رفع جفنيه باستشهاد، واختلج خداه.

ـ سأتكلّم يا سادة، ولكن ليس مع غريغورى غريغوريفيتش.. يجب أن نلبس الحداد جميعا على غريغورى غريغوريفيتش...

وفي تلك اللحظة انقذفت حجارة من المتراس، وظهر فوق الحفر بوز حصان يعض الشكيمة بأسنانه، ومن الأعلى انحنى من السرج فارس عريض المنكبين، محمرّ الخدين، ملتح يضع على رأسه قبعة كوبانية. قلّص عينيه، وسأل ساخراً:

ـ الا تستطيعون، أيها المواطنون، أن تقرّروا أتعملون أم لا؟

عندئذ تقدّم ستيبان الكسييفيتش قليلا إلى الأمام بمعطفه المشدود بحبل، ورفع رأسه إلى الفارس، وأجاب برقّة مقنعة، كتلك التي تستعمل مع الأطفال في الدرس:

ـ يا رفيق، أنت الرئيس الكبير هنا، على قدر معرفتي... (هزّ الفارس رأسه مرحا، وربت بيده المقفرة على حصانه الواقف بحذر على حافة الحفرة). يا رفيق، باسم فريقنا الذي جند الليلة بالقوة على أساس قوائم لا يعرف أحد عنها شيئا، أعلن عن احتجاجنا القاطع...

فقال الفارس الملتحي، ولكن بلهجة مهدِّدة هذه المرة:

ـ اها!

ـ نعم، نحن نحتج! ـ وتقطّع صوت ستيبان الكسييفيتش ـ أنتم تضطرون ناسا غير قادرين على العمل العضلي، على أن يحفروا لكم الخنادق.. إنّ ذلك أسوأ أوقات التحكّم.. أنتم تمارسون العنف!..

واختلج خدّاه كلاهما، وأغمض عينيه، لأنّه تكلّم كثيراً جدا، وتأرجح وجهه الأصفر المرفوع... نظر الفارس وقد تقلّصت عيناه، وارتعش منخراه الكبيران، وانطبق فمه بقوة، فلاح كالجرح. نزل من الفرس، وهبط إلى الحفرة، وضرب بنطلون الركوب ضربة واحدة، وقال:

ـ بالضبط. نحن نضطركم للدفاع عن تساريتسين، إذا كنتم لا تستطيعون ذلك اختيارا. فلماذا يضايقكم هذا.. هيا ليعطني أحدكم رفشا.

ودون أن ينظر مدّ يده الكبيرة بقفازها البني، فأسرعت تلك المرأة الممتلئة المستديرة الوجه لتقدِّم رفشها إليه، وكانت طوال الوقت لا تصرف عنه عينيها الذاهلتين.

ـ لا حاجة لأن نتشاجر. إن ذلك سوء تفاهم محض وغرس الرفش وقلع التراب، والقاه بقوّة على المتراس في العلى نحن

نحارب، وأنتم تساعدوننا. وعدوّنا واحد... فالقوزاق لا يرحمون أحدا. سيسلخون جلدي. سيجلدونكم واحدا واحدا، ويقتلون بعضكم بالسيوف...

كان يضطرم بالعافية والقوّة كما يضطرم الموقد. ألقى بعض الفرش من التراب، وألقى نظرة سريعة على الواقفين "هيّا" وربت على كتف الفتى ذى الحنجرة البارزة، وعلى آخر لطيف المظهر أبله قليلا له رموش بلون القش. "هيّا، لنريهم كيف يكون العمل". ابتسم الشابان بارتباك، وشرعا يحفران ويلقيان التراب. وهزّ الآخرون أكتافهم، ثم أخذوا الرفوش وبدأوا العمل. وقالت السيدة ذات الوجه المستدير: "وأنا أيضاً، اسمحوا لي" وتعثّرت برفشها. فأمسكها الآمر الملتحي ولا بد قبضته كانت قويّة، فقد احمرّت وبدا عليها المرح. وخشي ستيبان الكسييفيتش أن يظلّ وحيداً، فقال بصوت عال:

ـ ولكن كيف ذلك يا رفاق. الثورة، والعنف؟ الثورة قبل كلّ شيء هي ضدّ العنف.

أجاب الملتحي بصوت رنان:

ـ الثورة تطبّق العنف ضد أعداء الشغيلة، وتتحقّق هي نفسها عن طريق هذا العنف. مفهوم؟

ـ ...ولكن هذا ضدّ الأخلاق...

ـ ... تطبق البروليتاريا العنف عليكم ليتحرّر العالم كلّه من العنف.

ـ إسمح، إسمح...

ـ لا، قال الرئيس بقوّة ـ لا أسمح لك. لقد أخذت تشاكس وذلك تخريب. خذ الرفش... يا رفاق، يعني أستطيع أن آمل

بأن المتراس سيكون جاهزا في الساعة الحادية عشرة. إلى اللقاء...

كان البحّارة يستمعون إلى هذا الحديث من بعيد، ويغالبون الضحك. وعندما غادر رئيس مدفعية الجيش العاشر اقبلوا على المثقّفين للمساعدة ولكيلا تتراخى همّتهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٤

كان فوج بيتر نيقولايفيتش ملشين يتراجع مع الفرقة كلّها على طول الجهة اليسرى من الدون صاداً ليل نهار الوحدات الأمامية للطابور الثاني التابع لجيش الدون المجهّز بشكل جيّد، والمؤلف على الطريقة النظامية. كان رجال فوج ملشين قد أضنتهم المعارك والمسيرات الليلية، بلا طعام ساخن، ولا نوم ولا راحة. وكان قوزاق كراسنوف يعرفون جيّداً كلّ وهدة، وكلّ منخفض مائي في تلك السهوب، ويحصرون الخصم في الأماكن الملائمة لهجومه. في الفجر بدأت وحدات مشاتهم في إطلاق النار لصرف الأنظار، بينما كانت خيّالتهم تشقّ طريقها خلال الوهاد والمنخفضات من الجناحين، وتهاجم بشكل مباغت وبضراوة وصفير وصياح.

وكان ملشين يقول للمقاتلين "الصمود، يا رفاق، وهو أهمّ شيء. قوّتنا في التلاحم. ونحن لا نهاب هؤلاء البراغيث، فنحن نعرف الغاية التي نقاتل من أجلها، والموت هيّن لنا. القوزاقي جرئ ولكنّه طماع، وهو يريد غنيمة، ولا يريد أن يفارق حياته، ويحرص على فرسه أكثر من أيّ شيء آخر".

سارت سريّة إيفان غورا كحراسة للمؤخّرة مغطّية طابور العربات، حيث كان الجرحى في كلّ عربة فيه. وكان من غير

الممكن تركهم، وما من مكان يتركون فيه. فقد كان القوزاق لا يأخذون أسرى. خيّالة كانوا أو مشاة، وكانوا يجرّدون كلّ من نجا من المعركة مِن ذوي النجوم الحمر من ملابسهم ويذبحونهم بالسيوف. وبعد أن ينتشوا من ذلك ينصرفون ناظرين إلى الجثث المقطّعة بفظاعة، ماسحين سيوفهم بأعراف خيولهم.

لم يكن في الدون البتّة مثيل لتلك البغضاء الضارية التي ظهرت في القرى الغنيّة... فقد جاءها محرّضون من نوفوتشيركاسك، وطاف الزعيم كراسنوف بنفسه في بعضها. وبقرع الجرس جمعوا "حلقة إنقاذ الدون" وحسب العادة القديمة خلعوا القبّعات وانحنوا ودعوا القوزاق إلى شحذ السيوف وامتطاء الخيول: "حانت ساعتك، أيّها الدون الحرّ، فانهض... سنزحف على تساريتسين كالسحابة القوزاقية الرهيبة، ونقضي على وكر الشيوعيّين اللعين، ونطهّر الدون من الجرثومة الحمراء... إنهم لا يريدون أن يعيش الدون غنيّاً مرحاً! إنهم يريدون أن ينتزعوا خيولنا وماشيتنا، ويعطوا أرضنا إلى الفلاحين القادمين من تولا واريول، ويأخذوا ملح أرض الدون، إلى المناجم إلى الأبد... لا تدعهم يلوّثون معابد الله، ودافعوا عن محراب وطننا. لا تضنوا بالحياة... وسيقدّم زعيم جيش الدون العظيم تساريتسين لكم مدّة ثلاثة أيام بلياليها".

كان آمر السرية إيفان غورا المديد القامة المكوّر الكتفين ذو الوجه المسودّ من السهر، قد تعوّد في تلك الأيام على رؤية خيّالة القوزاق يلوحون من بعيد في الأفق، وعرف عاداتهم، فلم يكن يأمر رجاله بالانبطاح دون فائدة، بل كان يطلب إليهم أن يسيروا دون أن يلتفتوا إلى الوراء.

سار طابور العربات في المقدّمة في صف متراص عربة وراء عربة، يعقبه الجنود في مشية ثقيلة مهلهلي الثياب، نحيلين، مطأطئي الرؤوس. وكان إيفان غورا نفسه يسير في المؤخرة كالنمل. قبل نصف عام كان رجلا قوياً، إلا إنّه أصيب في هذا الصيف بجرح في رأسه إثر ضربة بالفأس في زريبة حين كان يصادر الحبوب، ثم أصيب بارتجاج الدماغ في معركة قرب محطة ليخايا، كان يسير نشيطا تارة، ويغفو في السير تارة أخرى. وأمام عينيه الغائمتين تتراءى ذكرى لطيفة ما: الناس يجلسون على جذوع الأشجار في غسق الصيف، وخطّاف يطير محوِّما فوق رؤوسهم... أو أعشاب خضراء وعليها وسادة عليها اغريبينا ضاحكة... وكان يطرد من ذهنه هذه الأحلام، ويتوقّف، ويعدّل وضع البندقية على كتفه، ويفتح جفنيه الثقيلين، وينظر إلى السائرين، وإلى العربات بجرحاها المتقلّبين، وإلى السهب المنبسط المحروق الداخل في روحه، يندح على امتداد البصر، بنّي الأديم موحشاً متماوجاً لا شجرة فيه ولا عمود ولا تلغراف. وتعثّر، وهزّ رأسه... آه، لطيف أن يسير الآن بجوار عربة، ويضع يدا على حافتها، ويغفو لحظة في السير!

وها هم ثانية الفرسان الصغار في طرف السهب، وطلقات من هناك، ويصفر الرصاص ببراءة.

ـ انتباه، يا رفاق! يا من في العربات لا تناموا!..

كانت في العربة زوجته أغريبينا جريحة في ذراعها. ووراء هذه العربة سارت داشا وكوزما كوزميتش.

ارتفعت في الظلام صيحات ممطوطة. وتوقّف طابور العربات. ومالت داشا على حافة العربة في الحال، ووضعت

رأسها على يدها. ومن خلال تهويتهما سمعت إيفان غورا يقترب، ويتكلّم بصوت خافت مع أغريبينا الجالسة في تلك العربة...

ـ أتمنى لو أدخّن... أنني أكاد اسقط

ـ لماذا توقّفنا؟

ـ استراحة حتى الساعة الخامسة.

ـ من قال لك؟

ـ جاء مراسل.

ـ الْقِ رأسكَ عليّ، يا إيفان واغْفُ.

ـ وهل هناك فرصة؟.. انظري إلى فتياننا... كيف هدّهم التعب... وأنت لماذا لا تنامين، هل تؤلمك يدك؟

ـ تؤلمني.

صرفت العربة صريفا خفيفا. جذب نحوه أغريبينا. وزفر بعمق مثل حصان متعب.

ـ يقول المراسل: إنّ العدو يعبر الدون ومعه قوّة هائلة! ووراء الأفواج يسير الرهبان مع الرايات، والعربات تحمل براميل الفودكا. والقوزاق يهجمون وهم سكارى، جزّارين تماما...

ـ كُلّ شيئا من الخبز، يا إيفان.

أخذ يمضغ ببطء، ويبتلع بعسر. ثم تمتم:

ـ نحن على مقربة من الدون تماما. وعلى مسافة قريبة يوجد معبر، وقد أخذ القوزاق إلى الضفة الأخرى. ولهذا السبب توقّفنا على ما أظنّ.

اهتزت العربة مرة أخرى. وانفصل إيفان غورا عنها، وانصرف بخطوات ثقيلة. وهدأ كلّ شيء: الناس والخيول. وكانت

داشا تنفخ في كمّها... ستتخلّى عن كلّ شيء من أجل لحظة مثل هذه من التحابب المكظوم مع من تحبّه. أوه، يا للقلب الحاسد الغيور! بِمَ كنت تفكرين من قبل؟ وماذا كنت تنتظرين؟ كان حبيبك العزيز على مقربة منك، ولكنّك لم تهتمي به وفقدته إلى الأبد... ادعيه الآن، واصرخي: إيفان ايليتش، إيفان، فانيا...

... أيقظها كوزما كوزميتش. كانت ترقد منطوية تحت العربة. كانت طلقات تتردد من بعيد، وكان فجر أخضر ينتشر في الرحاب. وكان البرد شديدا جعل أسنان داشا تصطك، وأخذت تنفخ في أصابعها.

ـ داريا ديميترييفنا، خذي حقيبتك بسرعة ولنذهب... هناك جرحى...

تردَّدت الطلقات في الأسفل عند النهر حادة في سكون الصباح. نهضت داشا بصعوبة، وقد تخدّرت تماما من النوم القصير على الأرض الباردة. عدّل كوزما كوزميتش عليها شارة الإسعاف، وركض في المقدِّمة، ثم عاد:

ـ أسرعي، يا عزيزتي، أسرعي... جماعتنا على مسافة قريبة. ألا تسمعين أنينا؟ لا؟

ركض ثم توقّف مادّاً رقبته، وتفحّص ما حوله. لم تهتمّ داشا لذهابه ومجيئه، ولكنّها كانت تشمئزّ من جبنه هذا.

ـ عزيزتي، انحني. ألا تسمعين صفير الرصاص؟

وكان كلّ ذلك توهّما منه. فلم يئن جرحى، ولم يصفر رصاص. وتوهّج ضوء الفجر. وإلى الأمام لاح نقاب أبيض، وكان النهر قد فاض على الضفاف. كان ذلك الضباب الخريفي الواطئ ينفرش فوق النهر، وعلى شجيرات الصفصاف العارية عند

الشاطئ. وكان إيفان غورا يغوص فيه إلى الوسط، وكأنّه يغوص في حليب. وعلى مسافة أبعد جندي آخر في قبّعة عالية وثان وثالث يلوحون حتى الحزام. كانوا يمدّون أبصارهم إلى ضفّة الدون اليمنى العالية التي لم يصل إليها الضباب. وهناك وراء النباتات السوداء تصاعدت غيوما كثيرة من الدخان في الهواء الراكد.

وقد رآها كوزما كوزميتش أيضاً، فبدا وكأنّ الغبطة قد خنقته. واتسعت عيناه وقال:

ـ أنظري يا داريا ديميترييفنا، أنظري ماذا يجري؟ إنّهم جاءوا مع الجيش لينهبوا. مائة ألف عربة... هذا باتي، والرجال البولوفيّون أنظري: خيول غير مشدودة، وعربات! وعند النيران يضجع رجال ملتحون وسكاكينهم وراء جزماتهم.. أنظري، يا داريا ديميتريفنا.. منظر يُرى مرة واحدة في العمر...

ولم تَرَ داشا عربات ولا خيول ولا قوزاقا يضجعون عند النيران.. ومع ذلك فقد أحسَّت برهبة. استدار غورا وأشار لهم بيده أن يجلسوا في الضباب. وتمتم كوزما كوزميتش وكأنّه مستغرق في قراءة رواية شيّقة:

ـ حبّذا لو نُري ذلك لمثقَّفينا. ها؟ حلم لا يروى... أرادوا دستورا، وهذا هو! أرادوا أن يحكموا الشعب الروسي... أى، أى، أى... وهذا هو... يقف إلى حزامه في الضباب رهيباً ذكيّاً، يفهم كلّ مصيره، وعيناه نافذتان في جحافل العدو... أى، انظري إلى هذه الجموع... لقد شدّت أحزمتها، ولبست قفازاتها... لن تجدي ذلك في أي كتاب تاريخي...

وفجأة توقّفت طلقات بنادق ورشاشات. وتوقّف كوزما

كوزميتش في نصف جملته. كان إيفان غورا واقفاً في المقدِّمة فأدار رأسه. وسمع انفجاران كامدان عند النهر في الأسفل، وفي الحال اصطبغ الضباب بوهج أرجواني، وتناهت صيحات بعيدة وتتابعت الطلقات من جديد.

ـ يبدو أنّ أصحابنا أحرقوا المعديّة على الضفة الأخرى قال كوزما كوزميتش ذلك واطلع رأسه من الضباب مذبحة، هناك، مذبحة...

ركض إيفان غورا وصفَّ جنوده نحو الشاطئ منحنين، واختفوا في الأجمة. انتشر الشروق عريضاً على السهب. وشفّ الضباب واهتزّ وتمزّق بين أغصان الصفصاف العارية. وارتفعت فجأة صيحات رهيبة فوق الشاطئ، فوق نقاب الضباب عند النهر حتى أنّ داشا ضغطت قبضتيها على أذنيها. وانبطح كوزما كوزميتش على الأرض.

ضربات، وصلصلة، وطلقات، وعويل، وطرطشة مياه، وانفجارات قنابل يدوية.

ثم ظهر إيفان غورا من الأجمة. سار مبتلعا الهواء، زافرا بقوة. وكان رأسه خالياً من الطاقية ولكنّه كان يحمل قبّعتين قوزاقيتين عليهما شارتان حمراوان. تقدّم من داشا وقال:

ـ سأرسل نقّالة، فاركضي سريعا إلى النهر. هناك رفيقان يحتاجان إلى تضميد...

ونظر إلى القبّعتين، ورمى واحدة منهما، ووضع الأخرى على رأسه بحركة عصبيّة.

ـ أراد الأوغاد تطويقنا على القوارب... إذهبي، لا تخافي. قضينا على الجميع هناك...

٥

كانت شواطئ الدون تضجّ بين قريتي نيشى تشيرسكايا وكلاتش. فقد كانت أفواج جيش الدون العظيم بخيّالتها ومشاتها تعبر النهر على ثلاثة جسور عائمة وفي المعديّات والزوارق. كانت الخيالة تسير بتشكيلة الزحف، وهي في بزّات جديدة، وقبعات مائلة وخصلاتها التقليدية بارزة منها على الجبين، حسب العادة. والأعلام الصغيرة الملوّنة على رؤوس الرماح. والماء يتناثر من بين ألواح الجسور من تحت حوافر الخيول الفتيّة التي كانت تحدج الدون الرمادي المياه بعيون زائغة.

كان المشاة من الشباب الغضّ يجتازون النهر بزوارق طويلة، وقد فغروا أفواههم، وهم ينظرون إلى التجمّع الضخم للقوزاق والخيول والعجلات، ويقفزون من الزوارق إلى الماء، ويتسلّقون الشاطئ العالي، ويصطفّون وبنادقهم عند أقدامهم، ويخلعون قبعاتهم. وكان الشمامسة بخصلاتهم المتطايرة يصرخون كالوحوش ويقرعون بمباخرهم، بينما كان القساوسة الذين يبدون كالأجراس الذهبية بحللهم المزهرة يباركون القوات.

كان الجنرال مامونتوف يراقب العبور وهو واقف تحت راية القائد العام على رابية أمام ضباط القيادة والحراس. وكان منظورا جيّداً من قبل الجميع في بزّته العسكرية القوزاقية السوداء، على

صهوة جواد فضّي كان يضرب الأرض بحافره. كانت القوات تسير منشدة الأناشيد على قرع الطبول، وخصل شعر الخيول على الصولجانات القوزاقية تتطاير في الهواء. وكان هدير المدافع يسمع في شرق السهب المغلّف بغبار القوات السائرة.

رفع القائد يده التي يتدلّى منها السوط، محتجبا عن الشمس، ونظر إلى الطائرات وهي تطير وأجنحتها مائلة قليلا إلى الوراء، وعدّها، وراقبها حتى اختفت هابطة نحو الأفق. مرّت بالرابية المدافع الثقيلة التي أنزلت لتوّها من السفينة، وقد رسموا على دروعها ومواسيرها خطوطا للتمويه. ومرّت عربات تجرّها خيول صغيرة مختلفة الألوان قصيرة القوائم شعثة الأعراف وسائقوها الملتحون يسوّطونها بجنون. وقبل أن يهدأ الغبار جاءت الدبابات الضخمة من ألواح التدريع المبرشمة وقد ارتفعت أنوف جنازيرها المسنّنة. وعدّها القائد. عشرة من الأغوال الفولاذية ستسحق الأوغاد الحمر في شوارع تساريتسين. نزل من الرابية وعدا بفرسه بمحاذاة الشاطئ ورايته الزرقاء السوداء تخفق وراءه مرفوعة بذراع حاملها.

وحملت القوارب قوّات جديدة، وسارت المعديّات تحمل عربات العلف ومختلف الامتعة. وبالقرب من المعبر وقفت عربات مختلفة الأشكال منها عربات كبيرة تستخدم في حمل الحزم من الحقل. والقوزاق الموقّرون واقفون بينها بهدوء ينتظرون المعدية، أو سائرون أو جالسون عند النار يمضغون. كان هؤلاء هم التجار الذين أرسلتهم القرى القوزاقية إلى قواتها. وكانوا يقومون بالشؤون المعيشيّة ويأخذون المغانم من النقود والماشية والحبوب والعلف أو الأشياء الأخرى الضرورية من الملابس

والبطّانيات والحشايا ونُضد الريش والمرايا والسلاح. ومن هذه المغانم كانوا يزوِّدون قواتهم بالعلف والأغذية وبالملابس والسلاح إذا اقتضت الحاجة، ويسجِّلون الأشياء الباقية في قوائم ويضعونها على العربات، ويرسلونها إلى القرى بمعية الأولاد والنساء.

مرّ مانتوف بضيعة ريتشكوف، حيث أحرق نصف البيوت، والاهراء قد اسودَّت من الرماد، واستدار بمحاذاة الخط الحديدي، وانتظر قدوم القطار المصفّح من الجبهة اليمنى.

كان جيش الدون المؤلَّف من اثني عشرة فرقة خيالة وثماني فرق مشاة يهاجم بخمسة طوابير.

سارت الطوابير الخمسة كلّها بزحف سريع نحو آخر خط لاستحكامات الدفاع عن تساريتسين. وكان الجيش العاشر الذي فقد الاتصال مع الوحدات الشمالية والجنوبية يتراجع متراصّاً في جبهة تزداد ضيقا. واستنفدت فرقه الخمس بتعدادها القليل آخر الذخيرة وآخر القوى.

كان المجلس العسكري الأعلى للجمهورية الذي كان عليه أنْ يقدِّم مساعدة حاسمة للجيش العاشر مشلولا في تلك الأيام بالذات بفعل خيانة سريّة حسنة الحبكة انعكست في التأخير الشديد لجميع التحرّكات، وفي الاصرار على أنّ الكفاح في سبيل تساريتسين أمر ثانوي ليس له أهمّية وعلى ذعر مجلس تساريتسين العسكري.

وتركت تساريتسين لتدافع عن نفسها ضد القوزاق بقواها الخاصة.

في تلك الأيام أصدر المجلس العسكري للجيش العاشر

أمرين: أولهما بتسيير جميع السفن والصنادل والقوارب والمعديّات من تساريتسين على شمالها منها حتى لا يكون المجال للتفكير في تراجع القوّات إلى الضفة اليسرى من الفولغا. أما الثاني فكان يخصّ الجيش، ويقضي بعدم التخلّي عن المواقع المحتلّة حتى صدور الأوامر. والتراجع عقابه الاعدام رميا بالرصاص.

مرّ النصف الأول من النهار هادئا في بطارية تليغين. وترامى هدير المدافع وراء الأفق، إلا أنّ السهل كان مقفرا. وكان البحارة يحفرون ملجأ.. ذهبت أنيسيا إلى المحطّة، دون استئذان، وعادت بعد حوالي ثلاث ساعات تحمل كيسين تنوء بهما: في احدهما خبز وفي الآخر بطِّيخ. أفرغت الكيسين وفرشتهما على الأرض بين المدفعين، وقطعت الخبز، وقطعت كلّ بطيخة إلى أربع قطع، وقالت: "كلوا!.." وانتحت هي جانبا راضية تنظر إلى البحّارة الجياع يلتهمون البطيخ. كان البحارة يأكلون دون أن يمسحوا خدودهم، وهم يغدقون في الثناء:

ـ عظيمة أنت، يا أنيسيا...

ـ من العسير إيجاد امرأة مثلك.

ـ ... امرأة نادرة حقا...

وقال شاريغين الرصين الذي يُدلي بدلوه في كلّ حديث:

ـ إنها صاحبة المبادرة، وذلك المهمّ في الموضوع.

رفع البحّارة رؤوسهم عن قطع البطيخ، وأطلقوا ضحكة صاخبة. نهض شاريغين، وتناول الرفش قائلاً:

ـ أقترحُ، أيّها الرفاق، أن نحفر لأنيسيا ملجأ منفصلا. فمن الضروري الحرص على مثل هؤلاء الناس، يا رفاق...

ضحك البحّارة، وراحوا يحفرون خندقا صغيرا لأنيسيا في منخفض وراء البطارية لتختبئ به عند إطلاق النار. ولم يكن هناك من عمل آخر. أفرغت القنابل من السفينة، وصفّت صفوفا بالقرب عن المدفعين، ونظّفت البنادق. وأقام سابوجكوف الاتصال مع نقطة قيادة الكتيبة. استلقى البحّارة في الأخدود يتدفّأون في الشمس. ولسان حالهم يقول: نحن على استعداد لاستقبالك، يا جنرال مامونتوف.

جلس إيفان ايليتش على عربة المدفع، وأخذ نصلاً جافاً وكسره. ولم يكن يدخل في مناقشات كبيرة فقد كان يعتزّ بهذا العالم الصغير من الناس الذين جاءوا من مختلف الأنحاء، والذين يختلف بعضهم عن الآخر ولكنّهم ربطوا مصائرهم ببعض. فهذا سيرغى سيرغيفيتش الذي يبدو وكأنّه لا ينسجم مع أحد ويفيض دائما بأفكار حادة أصبح في الحال ضروريا للجميع، وقد وجد مكانه فورا. واستقرّ عند عجلة المدفع يتنفّس بعمق. وشاريغين الشاب الطموح الذي لا يتميّز بالذكاء، ولكنّه صلب ذو روح صافية بلا ظلال ينام على جنبه هادئا، وقد وضع قبضته تحت خده. وتمدد زادويفيتر على الرمل بعظمة محوّلا إلى الشمس وجهه الجميل الخشن التقاطيع. أنه فلاح ماكر جسور مدبر إذا كتبت له الحياة فسيعود إلى بيته ليدير شؤونه. ولاتوغين مارد آخر من غابات سيبيريا يشخر شخيرا جبّاراً وقد غطى وجهه بطاقيته. إنّه أكثر تعقيداً بكثير وبلا مكر - فهو ليس بحاجة إليه - وهو نفسه لا يعرف بعد أي سماء سيتسلّق ومعه مسدّس وقنبلة يدويّة.

أوْكَلَ اثنا عشر رجلا حياتهم إلى إيفان ايليتش. وسلّمه المجلس العسكري البطّارية في مثل هذه اللحظة الحرجة...

صحيح أنّه كان يعرف شيئا في الرياضيّات، ومع ذلك فقد كان عليه أن يعلن لهم بثبات أنّه لا يصلح لقيادة البطارية...

ـ إسمع، يا غاغين، هل يعرف احد منكم حساب زوايا التسديد؟ إذ ليس عندنا مقياس المسافة...

كان غاغين واقفاً على سُلّمه الخندق يتطلّع إلى السهب من فوق المتراس، فالتفت وسأل كئيبا مثبتا نظرة سوداء في تليغين:

ـ مقياس المسافة؟ وما حاجتك إلى مقياس المسافة؟ سيبلّغوننا بالتلفون من نقطة القيادة عن الزاوية والتسديد.

ـ صحيح.

ـ كلنا نعرف الزوايا والتسديدات والمسافات. ولكن ليس هذا هو الأمر، يا رفيق تليغين... ستكون المعركة رهيبة دون مقاييس المسافات، بل بالحقد. إعمل المستحيل، واضرب حتى آخر قذيفة. هذا ما ينبغي أن تفكّر فيه... تعال هنا، سأريك شيئا.

صعد تليغين إليه على السلمة. اشتد هدير المدافع، وكأنّه قد اقترب، وكان الأفق في الغرب والجنوب مغلّفاً بعتمة داخنة. نظر تليغين إلى الاتجاه الذي يشير إليه إصبع غاغين ولاحظ في السهل مجموعة من الرجال تزحف من الشمال، وصفّاً من العربات.

قال غاغين وهو يشير برأسه إلى دخان هائل يرتفع بشكل مظلّة في الجنوب صوب ساريتا:

ـ رجالنا يتراجعون. منذ مدّة طويلة وأنا أرى ألافا وألافا يركضون في هذا الاتجاه... هل ترى الانفجارات؟ إنها لم تكن من قبل. إنّهم يضربون بالمدافع الثقيلة. توقّع ظهور الجنرال هنا في صباح الغد.

تفقّد إيفان ايليتش مرة أخرى أجهزة البطارية. وأحصى

القذائف والخراطيش. لم يكن هناك غير مشطين لكل بندقية. وقد اقلقه بشكل خاص موقع البطارية المكشوف. كانت الخنادق المحفورة حديثا تلوح من الموقع على مسافة ما يقرب من أربعمئة متر، ولكن لم تكن تبدو فيها أيّة حركة، بينما كانت وحدات القوات الحمراء تمرّ إلى مسافة أبعد بكثير. جلس تليغين بالقرب من سابوجكوف. كان وجه سابوجكوف متغّضنا، وكأن النوم لم يعد سهلا عليه.

ـ اعذرني، يا سيرغى سيرغيفيتش، على إزعاجك. صِلْني بآمر الكتيبة...

فتح سابوجكوف عينيه الغائمتين:

ـ ولماذا؟ لقد اعطيت الأوامر بعدم إطلاق النار. وسيبلّغوننا إذا اقتضى الأمر... ما الذي يقلقك؟ - وتحرّك نحو العجلة وتثاءب بتصنّع واضح: احسن ما تفعله أن ترقد وتشبع نوما.

عاد إيفان ايليتش إلى السلّمة، ووقف طويلا بلا حراك واضعا يديه على المتراس. كانت شمسي برتقالية داكنة هائلة تغوص في العتمة التي أثارتها حوافر الأفواج القوزاقية التي لا عدَّ لها في مكان ما وراء الأفق. تحرَّك ظلّ الليل على الوادي، ولم يعد من الممكن تبيّن حركة القوات فيه. وصارت السماء في الشفق تحت نجمة المساء الصافية كبلاد خيّالية عند بحر أخضر، وقد اصطفت هناك أبراج صينية، ثم انفصل واحد منها، وعام، وتحوّل إلى حصان ذي رأسين، ثم إلى امرأة تلوي ذراعيها...

وبدا وكأن المرء ما أن يخرج من الحفرة، ويحرّك قدميه، مثلما يحدث في الأحلام، حتى يجد نفسه قد طار إلى تلك البلاد الرائعة وإلا فما معنى ظهورها لك في ساعة المعركة المميتة.

قال سيرغى سيرغيفيتش، وقد وضع يده على ظهره:

ـ دعك مِن هذا. فأنه مثاليّة محض، يا إيفان، أن تحدُق في الأشباح. هل نلفّ سيجارة؟ لقد سرقت في المستشفى علبة التبغ. فأنا أحرص عليه لأدخّنه قبيل الموت...

وكان على عهده يتحدّث بلهجة ساخرة، رغم أنّ حزنا يختفي في الغضون القاسية عند فمه، وفي عينيه الغائمتين. لفّا سيجارتين، وشرعا يدخُنان. دخّن تليغين دون أن يمصّ الدخان، بينما راح سابوجكوف يعبّه شاهقا.

سأل تليغين بخفوت:

ـ لماذا تضرب على وتر الموت؟

ـ أصبحت أخاف الموت... أخاف أن تصيبني رصاصة في الرأس، فإنّها لن تقتل في مكان آخر، أما في الرأس فأخافها. الرأس ليس هدفا، فقد صنع لشيء آخر. إنني أشفق على أفكاري...

ـ كلّنا نخاف، يا سيرغى سيرغيفيتش، ولكن لا يحسن التفكير في ذلك...

ـ وأنت هل اهتممت بأفكاري مرّة واحدة؟ أنت لا تعرف إلاّ أنّ سابوجكوف فوضوي، وسابوجكوف يعبّ الفودكا... بينما أرى أنا من خلالك، وكأنّما من زجاج، حتى آخر تلافيف دماغك. وأستطيع أن أنقل رسالتك إلى الأحياء، بينما أنت لا تستطيع أن تنقل شيئاً عني... وهذا شيء مؤسف جدا. أنا أحسدك يا إيفان.

ـ على أي شيء تحسدني بالذات؟

ـ أنت إنسان مكشوف: الواجب، والحبّ المخلص، والنقد الذاتي، خادم في منتهى الوفاء، وفتى طيّب. وستعبدك زوجتك

حين تستقرّ. وحياتك بسيطة، لأنك إنسان من طراز قديم.

ـ شكرا على الشهادة.

ـ أما أنا فآسف لأنّ غامزاً لم يرمني بالرصاص في ذاك الصيف. لقد انتظرنا الثورة ونحن نرتعش من اللهفة. وقذفنا في العالم بجزمة من الأفكار: ذلك هو العصر الذهبي للفلسفة والحريّة المنشودة. فإذا بها كارثة أفظع كارثة...

وضرب بكفّه فوق عينيه ضربة ازاحت طاقيته على رأسه.

ـ كنت أودّ بهذا الخصوص أن أدلي ببيان إلى البشريّة.

ـ لا أكثر ولا أقلّ ـ بيان خبيث للغاية وليس للخير فليذهب الخير إلى الشيطان ـ بل للشر. ولكن لا توجد نسخة مكتوبة، لم أكتبها بعد... أرجو المعذرة.

وكان الظلام قد خيّم. وعلى الأفق اشتعل حريق وتصاعدت التوهّجات الحمراء الداخنة واتسعت ولاسيما إلى الجنوب في ناحية ساريبتا. فقد كانت المَزارع تحترق مضيئة الطريق للعدو المهاجم بسرعة. كان تليغين الآن يسمع بأذن واحدة: هناك بعيدا في الغرب كانت الصواريخ الخضراء تنطلق ثلاثاً دفعة واحدة، وكأنّها افاع تطلّ برؤوسها البراقة من وراء الأفق.

الا أنّ سيرغى سيرغيفيتش واصل كلامه بعناد وبصوت مرتعش دون أن يعير التفاتةً إلى هذه الاضاءات. ممّا جعل جلد إيفان ايليتش يقشعّر بين لحظة وأخرى.

ـ أم أننا نعيش لكي نأكل؟ في هذه الحال لتحطم الرصاصة جمجمتي ودماغي الذي كنت اعتبره. وأنا في تمام الخطأ، يعادل الكون كلّه، لينفجر مثل فقاعة صابون. الحياة، ولعلّك تدري، هي حلقة من الكاربون زائدا حلقة من الازوت، زائدا مادة أخرى

تافهة. ومن الجزئيات البسيطة تنشأ أشياء أكثر تعقيدا، ثم معقّدة جدا، ومن ثم معقّدة بشكل رهيب... وبعدها انفجار! ويبدأ الكاربون والازوت والتفاهة الأخرى بالتحلّل إلى أبسط حالة. وهذا كلّ شيء، كلّ شيء يا إيفان.. فما علاقة الثورة هنا؟

ـ أي هراء تقول، يا سيرغى سيرغيفيتش؟ الثورة هي التي ترفع الإنسان فوق الابتذال.

ـ اتركني وشأني! ثم إنني لا أتحدّث معك، فأنت لا تفقه في الثورة كثيرا. الثورة انتهت، حطّمت. فانظر أبعد من أنفك... إنّ روسيا السوفييتيّة الآن في حدود ما قبل إيفان الرهيب. وقريبا ستكون جميع الطرق بيضاء من العظام. وستنتصر حلقات الكاربون والازوت، واعني بذلك أولئك الذين سيأتون في الصباح على خيول.

صمت تليغين منتصباً في وقفته، ويداه وراء ظهره، وفي الظلام كان من الصعب تبيّن تقاطيع وجهه الحمراء من الوهج.

ـ إيفان، لا تستأهل الحياة أن تعاش إلا من أجل مستقبل خيالي، وحريّة عظيمة كاملة، حين لا يعاق الفرد بأي شخص أو بأي شيء من أن يشعر بأنّه معادل للكون كلّه. وكم من أمسيات تحدّثت فيها عن هذا مع رجالي! كانت النجوم التي فوقنا هي نفس النجوم في زمن هوميروس العظيم. والنيران التي كانت تحترق هي نفس النيران التي أضاءت الطريق خلال ألوف الأعوام. وأصغى الفتيان إلى حديثي عن المستقبل وصدّقوني، وفي عيونهم التمعت النجوم، وانعكس ضوء النيران على حراب القتال... وهم جميعاً يرقدون الآن في السهوب.. لم أقُد رجالي إلى النصر... يعني خدعتهم!

على بعد حوالي مائة وخمسين خطوة إلى اليمين تردَّدت صيحة حارس تبعها حديث خافت. التفت تليغين متفحّصاً. لابد أنّ أحداً من الجماعة تقدّم من غاغين الواقف في الحراسة في الجانب الآخر.

ـ وماذا لو كان هذا المستقبل، يا إيفان، مجرّد حكاية أسطوريّة رويت في سهوب روسيا النائية؟ وإنّه لا شيء؟ وإذا كان الأمر كذلك فأنّ الرعب يجتاح العالم. وتقدّم سابوجكوف من تليغين تماما، وقال همسا وقد جاء الرعب وحتى الآن لم يصدّق احد بذلك عن حق. والرعب أخذ من توّه يمتحن قوة المقاومة. إنّ أربع سنوات من إبادة البشر ليست شيئا إذا قيست بما هو آت. إنّ تدمير الثورة عندنا وفي العالم أجمع هو الشيء الأساسي... وبعد ذلك التعبئة الشاملة العامة للفرديّة. رؤوس حليقة وغلّ في اليد... وفوق رفات العالم الرماديّة يسيطر الرعب المنتصر المنتفخ... من الأفضل لي أن أقتل في الحال بضربة حارّة من سيف قوزاقي...

قال تليغين:

ـ أنت بحاجة إلى راحة وعلاج، يا سيرغى سيرغيفيتش.

ـ لم أكن أتوقّع جوابا آخر منك!...

نزل غاغين على الحفرة بصحبة عسكري طويل مكوَّر الكتفين. فرح تليغين فرحاً غامراً بانتهاء حديث ثقيل لا يطاق. كان القادم ملطَّخاً بالوحل وذيل معطفه ممزَّق، ومن الغريب أنه كان يرتدي قبَّعة قوزاقية. وقد تكلَّم بصوت كثيف، وكأنه ظلَّ أسبوعاً غاطساً على رقبته في مستنقع.

ـ مرحباً أيها الرفيق الآمر. كيف الحال عندكم، هل لديكم قذائف؟

أجاب تليغين:

ـ مرحبا. ولكن مَنْ أنت؟

ـ أنا من سرّية فوج كاتشالين. وقد أُمرنا باتخاذ موقعنا أمامكم. أنا آمر السرية.

ـ لطيف جدا. لقد بدأت أقلق: الخنادق حفرت، ولكن لا توجد لدينا نقاط حراسة.

ـ وها قد جئنا واتخذناها. كما جلبنا جرحى. وسنضعهم في قطار. أردت أن اطلب خبزاً من الملاحظ فقال: نفد وسيكون غدا. بينما السرية لم تتناول شيئا منذ ثلاثة أيام... ألا يوجد لديكم؟ على الأقلّ قطعة لكلّ فرد، ليشمّوا رائحته... سنردّه لكم غدا. وقد نهدي لكم بقرة.

سمع تليغين مَنْ يناديه، فألتفت. كانت أنيسيا قد اقتربت كالظلّ وسمعت الحديث، فقالت:

ـ ادّخرت خبزا يكفي لثلاثة أيام. يمكن أن نعطي لهم... في الغد سأحصل على كمّية أخرى.

ضحك تليغين ضحكة قصيرة:

ـ حسناً أعطي للرفيق آمر السرية أربعة أرغفة.

لم يكن آمر السرية يتوقّع أن يقدّموا له الخبز بهذه السهولة. فتساءل "حقا"؟ وشكر. وتناول الخبز الذي جلبته أنيسيا، ووضعه تحت إبطه، إلا أن الخجل منعه من الانصراف حالا. وجاء البحّارة يتمطّون بعد النوم ووقفوا يحدّقون في هذا الرجل الموحل المهلهل الثياب. فأخذ يحدثهم عن مآثر الفوج الذي ظل عشرة أيام يخترق الحصار دون أن يفقد مدفعا واحدا، ولا عربة جرحى، إلا أنّه كان يتكلّم بتشوش وغموض حتى أن بعض

البحارة أشاح بيده وانصرف.

قال لاتوغين، وهو ينظر إليه ببرود:

ـ خذ قسطك من النوم أولا، ثم حدّثنا... ولكن ألا تعرف لِمَ هذا الضوء الساطع هناك؟ وأشار بيده ناحية ساريبتا.

أجاب إيفان غورا:

ـ أنا أعرف. لقد التقيت في المحطة برجل من هناك... إن الجنرال دينسوف يقتحم ساريبتا. يقولون: في الحرب مع المانيا لم تكن النيران بمثل هذه الشدة. المدفعية تمحو كلّ شيء. والقوزاق يتدفّقون من المنخفضات... يا للهول. والزبد يسيل على فرقة مروزوف إلا نصفها. والعدو يندفع نحو الفولغا حتى يطلع إليها ما بين ساريبتا وتشابورنكى. عندئذ سينتهي الأمر!

وهز رأسه للبحارة، وخرج من الحفرة. سأله تليغين:

ـ من هو قائد فوجكم؟

أجاب غورا وقد اختفى في الظلام:

ـ ميلشين بيتر نيقولايفيتش...

٦

ظلّت فرقة مروزوف تتقهقر ببطء تحت ضغط الطابور الخامس طوال الليل واليوم التالي نحو ساريبتا، وقرية تشاربورنكى الواقعة على بحيرة. كانت مئات الجثث تتناثر في السهل. لم يترك الجنرال دينسوف الحمر يلتقطون أنفاسهم. وكان كلّ هجوم يصدّ يعقبه هجوم جديد في الحال. وكانت قنابل الشرابنيل تعوّل وتنفجر فوق الخنادق. والانفجارات تهزّ الأرض، وزوابع التراب تنهال على المقاتلين. وعندما تصمت مدافع القوزاق، كان المقاتلون يخرجون من الخندق وجوهم قد شوّهها الحنق والألم ولطّخها الدم.

ظهرت مجموعات عديدة من الخيّالة من وراء التلال والوهاد وانتشرت في عدوها كالطفح البركاني، وتصاعد الغبار من تحت حوافر الخيل... لوّحوا بسيوفهم، وولولوا على العادة التترية القديمة. فلو جبن مقاتل وركض مذعوراً أمام الانثيال العاصف للخيول الصهباء العريضة الصدور والفرسان السود المطبقين على أعراف خيولهم في اندفاع لإرواء سيوفهم بالدم الحار فأنّ صفّ المقاتلين سيتحطّم ويطعن بالسيوف ويداس بحوافر الخيل...

ثبت جناحا فرقة مروزوف بعزم وقد دفعا إلى حدائق ساريبتا وأهراء قرية تشابورنكى إلا أنّ الوسط التوى نحو الفولغا دون أن

ينكسر، تماماً مثلما تنوء اليد تحت ثقل ضاغط. وهنا بالذات، في الوسط، على الخطوط الأمامية كان يوجد قائد الفرقة والمفوَّض السياسي والمرافق والمراسلون المقرفصون وراء أجسام خيولهم المبطوحة. وكان القائد يستعيض عن القتلى والجرحى بالامتدادات المتضائلة بالتدريج والتي كان يسحبها من الجناحين. إلا أنّه لم يطلب احتياطات من قائد الجيش حيث لم يعد هناك شيء يأخذه في تساريتسين.

واليوم صباحا حصل حادث مؤسف في الخط الرئيسي للدفاع. فإنّ أفراد الفوجين الأوّل والثاني من الفلاحين الذين عبثوا بالمزارع والقرى القريبة قد خرجوا من الخنادق فجأة، ورفعوا بنادقهم فوق رؤوسهم، وذهبوا للاستسلام للبيض. وفي قيادة الفوج الأوّل أحاط بعض أمراء الوحدات في مطبخ الميدان بقوميسار الفوج والشيوعيّين ورموهم بالرصاص. وفي نفس الوقت حدث الشيء ذاته في الفوج الثاني حيث رُمي بالرصاص قائد الفوج والقوميسار وبعض الشيوعيّين. وبقيت سريتان فقط على الوفاء، ولم تستجب للاستفزاز، وفتحت النار على الخونة الذين كانوا يركضون رافعين رايات بيضاء نحو مواقع البيض للاستسلام. ولما رأى جنود مانتوف هذه الجموع من بعيد ظنّوا أنهم مهاجمون ففتحوا ناراً حامية عليهم. وارتبكت فلول الأفواج الفلاّحية وألقت السلاح وارتدَّت إلى الوراء. وحوصروا، واقتيدوا. وصارت الجبهة مكشوفة لخمسة فراسخ تقريبا.

وفي تساريتسين صدرت صفّارات الإنذار في مصنع السلاح والمصنع الميكانيكي وجميع مصانع نشر الأخشاب. وكان

الشيوعيّون الذين أرسلهم المجلس العسكري يطوفون الورش ويقولون:

ـ اتركوا العمل، أيها الرفاق، واحملوا السلاح، وأنقذوا الجبهة.

ولم يكن في المصانع من العمّال غير الشيوخ والعجزة والأولاد القاصرين. فتركوا العمل، وخبّأوا المعدّات، وأوقفوا الآلات، واطفأوا الأفران، وهرعوا إلى المستودعات حيث كان يحفظ ما لديهم من أسلحة. واصطفوا وراء البوابة، واتجهوا نحو محطة القطار.

هرولت الزوجات والأمهات من البيوت الصغيرة في الضاحية، ودسسن في ايديهم صرر الطعام الصغيرة، وسارت نساء كثيرات إلى المحطّة وراء الفصائل التي كانت تسير في صفوف متخلخلة وكثيرات منهنّ صاحبنهم أبعد من ذلك، إلى المواقع نفسها. وهناك ظلّت الأمهات والزوجات واقفات طويلا على التلال حتى جاء قائد الجيش وتوسّل إليهن، وهو يضع يده على قلبه، بأن يعدن إلى بيوتهن، لأنه لا حاجة إليهن هنا، بل هُنّ مصدر إعاقة، لأنهنّ يجعلن من أنفسهن وهُنّ واقفات على مكان مرتفع هدفاً واضحاً لمدفعيّة ماموتنوف.

وقبل أن ينتهي النهار سد ثلاثة ألاف عامل من عمال تساريتسين الثغرة على الجبهة، حيث بدأ البيض ينفذون منها، وقذفوا بهم إلى الوراء متكبِّدين خسائر فادحة.

كان ذلك حين كانت فرقة مروزوف تتحمّل ضغطاً لا مثيل لاستماتته من الخيّالة والمشاة. وقد دفع بوسط الفرقة إلى الفولغا تقريبا. وكانت القذائف تتفجر في شوارع ساريبتا. واحترقت قرية

تشابورنكى، وانتشر اللهيب في طوح القش، واحترق القصب على ضفاف البحيرة في السهب.

كان قائد الفرقة يتفحّص السهل بالمنظار. كانت الشمس تغوص في الأفق. رأى الخيّالة القوزاق يتجمّعون ويتفرّقون ببطء دون محاولة للاخفاء تشكيلتهم. وقد عرفت عينه المجرَّبة مِنْ تحفز الخيول بأن هذه وحدات جديدة متهّيئة لآخر هجوم. وإذن فبحلول المغيب ستكون فرقة مروزوف كلّها وعلى رأسها قائدها قد بدأت مسيرتها الأخيرة عبر صفحات التاريخ.

أنزل المنظار، وأخرج غليونا مسوَّدا، ووضع فيه على مهل قبضة من تبغ ساراتوف، وأخذ يبحث عن علبة الكبريت متلمِّسا جيوب معطفه. ولم يجدها. تلفّت يمنة ويسرة. كان المقاتلون يستلقون على بعد خطوات إلى الأمام أمام أكوام من التراب. كانت بقعة سوداء تنتشر على قميص أحدهم، وكان الآخر يشخر كأبله حاكّاً خدّه على مقبض البندقية.

ألقى قائد الفرقة الغليون على الأرض بحذر فتدحرج في الافسنتين، وتناول المنظار ثانية. فارتجفت يداه بشكل لا أرادي.

كانت حشود جديدة ضخمة من الخيّالة تُرى إلى الجنوب الغربي... فقد ظهرت من مكان ما بينما كان يملأ غليونه. طلعت عدّة آلاف من الخيّالة وراء التلال مثيرة الغبار الذي أضاءته الشمس المائلة. قال القائد لنفسه: إنّ قوة كهذه يمكن أن تحطِّمنا وتدوسنا بعصفة واحدة! ابعد قائد الفرقة عينيه عن المنظار لحظة. سكن كلّ شيء في الخنادق، وتوتّر. ونهض المقاتلون، ضاغطين على البنادق. وقبل أن يفتح قائد الفرقة فمه ليقول لهم كلمة حادة ترامى هدير المدفعية من بعيد فعاد إلى منظاره مرّة أخرى. أي

شيطان هذا! ارتفع زهاء عشرين انفجارا في السهل قرب خيّالة القوزاق المحتشدة. وأسرع القوزاق يعدون متحوّلين إلى جبهة عريضة للهجوم، ولمعت راية الزعيم في الوسط. واستدار القوزاق ليواجهوا هذه الكتل المندفعة من الخيّالة. تراجعت العصبة الكثيفة من القوزاق وقد مدّت حرابها، ثم اصطفت، وأطلقت خيولها إلى الأمام واندفعت كلتا الكتلتين من التلال، وتقاربنا واختلطنا. وارتفعت سحابة هائلة من الغبار فوق ذلك المكان.

قرّب قائد الفرقة عدسة منظاره، ورأى مشاة العدو ينهضون بذعر من الأرض التي كانوا ينبطحون عليها.

وقال قائد الفرقة لنفسه: "أها! لهذا السبب إذن ألحّ رئيس المجلس العسكري في التلفون على الصمود لآخر قطرة من دم... يعني وصلت فرقة دميتري جلوبا الفولاذية...

وفي اثر الخيّالة التي هاجمت القوزاق نهضت من وراء التلال صفوف كثيفة من مشاة الفرقة الفولاذية. وأبعد من ذلك، عند الأفق لاحت من خلال الغبار جِمال وعربات وجموع من الناس. إنّها قوافل الفرقة التي كانت تجرّ وراءها، كما اتضح بعد قليل، كمّيات هائلة من القمح، وبراميل الكحول مع مئات النازحين وقطعان المواشي.

وسقط قوزاق كثيرون في المعركة. وتراجعت الخيّالة البيضاء المحطّمة نحو الغرب، واختلط مشاة العدو بين صفوف الفرقة الفولاذية وفرقة مروزوف وتحطّم قسم منهم. واستسلم القسم الآخر. ولما انتهى كلّ شيء وقد استمرت المعركة نحو ساعة ركب قائد الفرقة جواده، وسار به في السهل المزروع بجثث القتلى من الرجال والخيول. وكان الدخان لا يزال يتصاعد هنا

وهناك ويتردّد انين الجرحى الذين لم يلتقطوا. التقى قائد الفرقة بجماعة من الخيّالة. كان يتقدّمهم رجل يرتدي ملابس كوبانية ويضع صفوفا من الرصاص على صدره، وخنجرا كبيرا عند خصره بينما تدلّت نهاية منديله الصوفي على كتفيه. وقد حثّ حصانه الأسود وتقدّم من قائد الفرقة وأوقف حصانه فجأة، وقال بصوت حاد آمر:

ـ مرحبا، يا رفيق. مع من أتحدث؟

ـ مع قائد فرقة مروزوف الدونية. مرحبا، يا رفيق. ومَنْ أنت؟

اجاب الفارس بضحكة مقتضبة:

ـ مَنْ أنا؟ تمعَّن فيَّ. أنا ذلك الرجل الذي اعتبره قائد الجيش الحادي عشر خارجا على القانون. وأراد أن يرميه بالرصاص في نيفينوميسكيا، ولكنّني جئت إلى تساريتسين، وفي الوقت المناسب، كما يبدو.

لم يعجب قائد الفرقة كثيراً بهذا الكلام المتباهى الطويل، فَعبس، وقال:

ـ إذن أنت دميتري جلوبا...

ـ اعتقد أنّ هذا هو اسمي منذ الطفولة. والآن أرني أين يمكن أن أتحدّث بالتلفون هنا مع المجلس العسكري.

ـ لقد تحدَّثت إليه. والمجلس العسكري على علم بكلّ شيء.

أجاب دميتري جلوبا بعجرفة:

ـ لا يهمّني ما تحدَّثت به. دعهم يسمعون صوتي.

ولكن لكز حصانه الأسود لكزة جعلته ينطلق كالمجنون.

٧

في ساعة متأخِّرة من المساء أرسل إيفان ايليتش مذكرة إلى العقيد ميلشين: "يا بيتر نيقولايفيتش، أنا هنا، وأودّ كثيراً أن أراك"... فرد ميلشين مع نفس المراسل: "سعيد جداً. سآتي حالما أدبّر أمري. عندي أشياء كثيرة أحدّثك بها. بالمناسبة هل تعرف مَنْ عندي الآن؟"

ولكن القلم انكسر، أو أنه كان يكتب في الظلام فلم يتبيَّن إيفان ايليتش الكلمات الأخيرة، رغم أنه أشعل بضعة أعواد من الثقاب...

ولكنْ ميلشين لم يأت. وبعد منتصف الليل أخذت الصواريخ تضيء السهب. وتلقَّت البطاريّة أمراً بالاستعداد.

قال إيفان ايليتش لرجاله:

ـ والآن، يا رفاق، يجب اعتبار المعركة قد بدأت. يعني كونوا حريصين حتى لا تنفجر قذيفة واحدة عبثا... ثم إنّكم على علم بأمر قائد الجيش القاضي بعد التراجع خطوة واحدة دون أمر خاص بذلك. يعني كلّ شيء يحدث في المعركة... (وفكّر مع نفسه... اللعنة كيف لصقت بي "يعني" هذه) في عام ١٩١٥ وضعوا خلفنا رشاشات، لأن الجنرالات لم يكونوا يثقون بأنّ الفلاح سيريق دماءه في سبيل مولانا القيصر... وعلى الرغم من

أنهم يلعنون نيقولا في الخنادق. ولكن روسيا، على أيّة حال هي بلادهم... ولم يكن في تلك الحرب أرهب من هجوم الحراب الروسية...

وفجأة سأل لاتوغين ببحّة:

ـ يا آمر، ما معنى هذا الهراء؟.. ها؟

إلاّ أنّ إيفان ايليتش تابع كلامه وكأنه لم يسمع شيئا.

ـ والآن لا توجد رشاشات وراء ظهورنا. وخيانة الثورة هي أفظع من الموت بالنسبة لكلّ واحد منا، يعني لكي تنجو بجلدك... يجب أن نفهم أمر قائد الجيش على النحو التالي: ألا تضعف في الساعة الحاسمة حين تشتعل الأرض تحت أقدامك. يقولون هناك أناس لا يعرفون الخوف. إنّ ذلك كلام فارغ... فان الخوف موجود، وهو يرفع رأسه. وعلينا أن نحطّم رأسه... فالعار أقوى من الخوف.. وأنا أقول ذلك، يا رفيق لاتوغينن لأن هناك رفاقا لم يتمرّسوا بعد في معارك خطيرة... وهناك رفاق ذوو أعصاب ضعيفة. وقد يصاب أحنك الناس بالارتباك. ولهذا فلو أصبت، أنا الآمر، بالضعف وخرجت من البطارية، مثلا، آمركم برمي الرصاص في الحال. وأنا من ناحيتي أرمي بالرصاص مثل هذا الرجل. يعني هذا كلّ شيء.. أمنع التدخين حتى يحلّ الصباح...

سعل مرة أخرى، تمشى وراء المدفعين بعض الوقت. وكان يريد أن يقول أشياء كثيرة، ولكنّه لم يستطع...

ـ لا مانع من الأحاديث، يا رفاق.

ناداه لاتوغين مرة أخرى:

ـ يا رفيق تليغين واقترب تليغين منه واضعاً يديه خلف

ظهره قبل انخراطي في الجيش طوّفت في الدنيا... عاريّاً حافيّاً مشاكساً. وعملت حمّالاً في الموانئ، وكسرت الحطب للتجار، ونظّفت المراحيض، واشتغلت سائساً في إسطبل الاسقف، وتشاتمت مع نيافته بسبب سوء الطعام. واشتبكت مع اللصوص في وقت ما... رأيت كلّ شيء! أوه، كنت أحمق، شقيّاً، وكانوا يضربونني... أحيانا حتى أكاد أموت...

ـ قال بايكوف:

ـ من أجل النساء، في الغالب؟

وانفجر صاروخ بعيد فلمعت في ضوئه الشاحب أسنانه الصغيرة وسط لحية كثيفة.

ـ ومن أجل النساء أيضاً... ولكن ليست هي المسألة. المسألة أنك، يا رفيق تليغين، لم تقل لنا الشيء الأهم. حمت حول الموضوع ولم تصب لبّه... الواجب الثوري، هذا صحيح. ولكن لماذا أخذنا هذا الواجب على عاتقنا طواعية؟ هلاّ أجبت على ذلك؟ لا تستطيع؟ طبعا، لقد أكلت طعاما آخر. أما نحن فقد ذقنا الويل، وسُلِبَتْ أرواحنا. ويبدو أنّ ما من حيوان يستطيع أن يتحمّل ما تحمّلناه. لو كنت في مكاننا لدلّيْتَ عنقك منذ زمان، وجررت الحمل. انتظر، لا تتكدر، فنحن نتحادث إنسانا لإنسان. لماذا قضت أمي حياتها كلّها تخدم الناس؟ ما الذي يجعلها أسوأ من ملكة اليونان؟

قاطعه بايكوف ثانية:

ـ يا لها من شطحة! رأينا ملكة اليونان في عام ١٩١٣ في اثينا. ما الذي ذكّرك بها؟

ـ ولماذا عاش أبي عيشة الخنزير، حتى ضربه الجندرمة في

الحقل حتى الموت، وبصقوا عليه؟ لماذا يسمّونني إبن الكلب؟

قال شاريغين، وقد نهض من ركبتيه وكان جالساً في مكانه عند القذائف:

ـ هذا لا يصحّ. أنت تتحدّث حديثا غير منظَّم، يا لاتوغين. ما شأن إبن الكلب هنا، وما علاقة ملكة الإغريق؟. كلّ ذلك بناءٌ فوقي. ولكن الجوهر في الصراع الطبقي. عليك أن تعرف مكانك مَنْ أنت؟ بروليتاري أم عنصر لا طبقي...

صاح به لاتوغين:

ـ إذهب إلى الشيطان! أنا ملك الطبيعة. هل هذا مفهوم لك أم ما زلت غرّا؟ كنت قد طالعت كتابا جاء فيه أن الإنسان ملك الطبيعة. ولهذا السبب أقف عند هذا المدفع. أن ملك الطبيعة يعيش فينا. الواجب، الخوف الخوف! أنا اليوم سأضرب بمدفعي الربّ نفسه لا الجنرال مامونتوف. ذلك هو بناؤك الفوقي! سأقضم عظامه بأسناني...

صاح سيرغى سيرغيفيتش من مكمنه عند تلفون الميدان:

ـ سكوتا، يا رفاق! أبلغكم أنّ نجاحاً كبيراً قد حقّقناه قرب ساريبتا. حطّمنا فوجَين من الخيالة، وفوجا من مشاة القوزاق. وقد قُتل ألف وخمسمائة وأسر ثمانمائة.

وسرى نبأ النجاح قرب ساريبتا في الجبهة. وفي هذه الاثناء كانت وحدة من وحدات الجيش العاشر فرقة بوديونى للخيّالة تشقّ طريقها من سهوب سالسك إلى تساريتسين، وكان قد عزلها هجوم الطابور الخامس. كانت المسيرة قاسية، وقد أصاب الإعياء الناس والخيول. ثم استطاع أحدهم في محطة صغيرة أن يتّصل بالمصادفة تليفونيا بمقر قيادة مروزرف وسمع صوتاً مرحاً يهتف

بالسماعة مطعّماً كلامه بعبارات لاذعة: "هل أنتم نائمون؟ ولا تعرفون أننا جعلنا فرقتين من خيّالة الأوغاد طعاما للكلاب؟ تعالوا لتحصوا الاسرى" ولدى سماع هذا النبأ العظيم، وإن كان مبالغاً فيه كثيرا أوقفت الفرقة قوافلها تحت الحراسة، وقامت بمسيرة فرسخ صوب الشمال لملاقاة أوغاد الجنرال دنيسوف.

إلاّ أنّ النجاح قرب ساريبتا كان محليّاً على أية حال، ولم يخفّف الوطأة في مواقع تساريتسين الرئيسية، بل جعلها أصعب. واستفاد مامونتوف بسرعة من الحادث السّار بخصوص فوج الفلاحين الهاربين وأعاد في الليل تنظيم طوابير للهجوم، ومنذ الفجر وقد حوّل كلّ ثقل الهجوم إلى هذا القطاع من الجبهة الأقل حصانة والممتدّ خمسة فراسخ الذي كانت تحميه حفنة ضئيلة من فصائل العمّال.

كان السهل الذي دخلته نخبة قوّات الدون مقطوعاً بمنخفضين عميقين ضخمين يقطعان الجبهة من الغرب إلى الشرق ويمتدّان حتى المدينة نفسها. وأخذت الخيّالة القوزاقية تسير فيها مقتربة من خنادق الحمر. وكان السهل كلّه يبدو مغطّى بكتل من التراب تبدو مثل بيوت النمل. ذلك زحف المشاة. وأمامهم تزحف دبابات هائلة بجنازيرها العمياء. وكانت الطائرات تحوم حول البطاريات وعربات المؤونة الممتدّة عبر السهب من تساريتسين وإلى تساريتسين، وتلقي قنابل صغيرة كالكمثرى تنفجر بقوّة رهيبة.

كان قطار مامونتوف المصفّح يرسل دخانا في الأفق. وكان السهب كلّه إلى يساره ويمينه مملوءاً بعربات الريفيّين التي كانت تتحرّك في أعقاب القوّات في كتل متلاصقة. وكان تجار القوزاق

يرون المدينة بقبابها ومداخن معاملها وأدخنة الحرائق في الضواحي. آه، كم كانت العيون تلمع تحت الحواجب الكثيفة لهؤلاء الناس الفوّاحين برائحة الدخان وشحم الخنزير والقطران!

وفوق السهب كانت القذائف تنطلق مخترقة الهواء هادرة مطوّقة مواقع الحمر بنوافير من التراب. وقفز الخيّالة من المنخفضَيْن العميقين زاعقين واندفعوا إلى الخنادق خلال الأسلاك الشائكة لا يلوون على شيء بضراوة عارمة بحيث أنّ رصاصة لو أصابت قوزاقيا ولاح في عينيه ظلّ الموت فأنّه سيمضي في عدوه شاقاً الهواء بسيفه حتى ينهار على السرج، ويبسط ذراعيه وكأنّه يقهقه بجنون ويتدحرج من حصانه المذعور.

زحفت صفوف المشاة ثم اندفعت إلى الأمام. واشتبكت الخيّالة والمشاة في عراك عند خنادق الحمر. وقد أمر مامونتوف جميع القوزاق في ذلك اليوم بشدّ شريط أبيض حول قبّات طاقيّاتهم خوفاً من أن يخطئ رجاله فيطعن بعضهم بعضاً في معمعان المعركة. وازداد القتال فظاعة واستماتة لأنّ المتحاربين في كلا الجانبين كانوا من الروس. بعضهم في سبيل حياة جديدة غير مشهودة والبعض الآخر في سبيل أن يبقى القديم على حاله.

وفي كلّ مرة كانت موجات الهجوم تتراجع مصطدمة بقطارات الحمر الصغيرة المدرَّعة. وكانت هذه القطارات المصنوعة على عجل في مصانع تساريتسين أما من صهريجين للبنزين أو من عربتين للبضاعة مكشوفتين بينهما قاطرة تسير على طرق خلف الجبهة. وكانت أحياناً تنفذ برشاشاتها ومدافعها إلى قلب المعركة. وكانت تعتصر من قاطراتها القديمة الصغيرة آخر ما تبقّى لديها من قوّة، وتنطلق وسط الانفجارات وسحب البخار

المنبعثة من جوانب القاطرات التي اخترقها الرصاص، وتجوب الطرق المحطَّمة حاملة الماء والخبز والذخيرة إلى الخنادق.

ـ استلق!

وعلى مقربة حدث انفجار شديد جعل الضوء يشحب، والجسم ينضغط، وتساقطت على الفور كتل التراب على الظهور والرؤوس والأيدي التي ارتفعت لتقيها.

ـ إلى المدفع.. إلى الأماكن!

صاح تليغين، ووثب، ولمح بشكل مبهم ومن خلال الغبار مدفعاً محطماً برزت إحدى عجلتيه إلى العلى، والرجال يقفزون نحوه غضابا... "كلّهم سالمون. لاتوغين، بايكوف، غاغين، زادويفيتر.. أين شاريغين؟.. هنا... سليم.. المدفع الثاني سليم. بيتشينكين، فلاسوف، إيفانوف... يهزّ رأسه...".

وصرخ سابوجكوف بصوت مبحوح طالعا من الخندق المتهدّم وفي يده سمّاعة تلفون:

ـ أبعد إلى اليسار، ستة وثمانون، التسديد ستة صفر، البطارية، نار!

ويكرّر تليغين الأمر مُحدِثاً غباراً. ويلقي شاريغين القذائف إلى بايكوف، الذي يعاين فتيلة الانفجار، ويقذفها إلى غاغين المعبِّئ. ويفتح زادويفيتر المغلاق، ويقوم لاتوغين بالتسديد، ثم يرفع يده:

ـ نار!

تهتزّ ماسورتا المدفعين، وتنطلق القذائف... جمدت حركات الرجال السريعة، مثل شريط سينمائي قد أوقف... وهذا ما حصل. انقذف ظلّ ضارّ، وومض بريق، على مقربة من المكان.

ـ استلق!

وتكرّر كلّ شيء. الهدير، وزوبعة التراب، والاختناق. وكان الغيظ قوياً حتى أنّ العروق تبدو وكأنها ستنفجر. ولكن ما العمل إذا كان الجانب الآخر لا يبخل بالقذائف، أما هنا فلم يبق منها إلا القليل، بينما يجلس في نقطة المراقبة للكتيبة غبي لا يستطيع أن يحدِّد بالضبط موقع مدفعية العدو الثقيلة.

جرح لاتوغين في هذه المرة. وقد جلس يصرّ بأسنانه، بينما كانت أنيسيا تتحرّك إلى جانبه رقيقة خفيفة لا يعرف أحد أين تروح ومن أين تجيء ونزعت سترته وقميصه التحتاني بسرعة، وضمدّت كتفه، وقالت وقد قرفصت أمامه "تعال، يا عزيزي، سآخذك إلى نقطة الإسعاف". ولكنّه دفعها عنه وهرع إلى المدفع وهو عار إلى النصف مدمّى يصرّ بأسنانه، وكأنّه يقضم عظمة بالفعل.

وأخيراً حدث حادث انتظره الحنق الذي لا يطاق والذي أتعب الجميع ساعات طويلة منذ بداية هذه المعركة المدفعيّة غير المتكافئة. وكان سابوجكوف قد أجاب من توّه على سؤال آمر الكتيبة حول عدد القذائف المتبقيّة وكان ينتظر الرد. كانت دموع قذرة تنحدر على وجهه من عينيه الملتهبتين، وكان بين الحين والآخر يرفع السماعة عن أذنه، وينفخ فيها. وقد حدث شيء مفاجئ في الهواء نفسه. فقد خيّم سكون، وامتلأت الآذان بالطنين. زحف تليغين على بطنه إلى المتراس قلقاً. وكان ذلك في اللحظة المناسبة... لقد بدأ الهجوم الحاسم. وكانت العين تميِّز الكتل الداكنة للخيّالة القوزاق والمشاة تلمع بينها هنا وهناك رايات مذهّبة. إنهم القساوسة الذين نقلوا في السيارات لمباركة القوّات

في الميدان المكشوف، على مرأى من بطاريات الحمر.

طلع البحّارة إلى المتراس زاحفين على بطونهم. وكانت أنفاسهم ثقيلة. وقال بايكوف ليثير ضحكهم:

ـ لنضرب الملائكة ضربا مباشراً.

ولم يضحك أحد. وقال لاتوغين بحدّة وبلهجة آمرة:

ـ يا آمر، دعنا نخرج المدفعين إلى الأرض المكشوفة. لماذا نحن كالفئران في حفرة...

ـ لن نستطيع ذلك دون خيول، يا لاتوغين.

ـ نستطيع...

وصاح شاريغين:

ـ لا تجادل الآمر أثناء المعركة. هذه فوضوية!

ودوَّت صرخته المباغتة هذه صبيانية غريبة حتى أنّ البحارة التفتوا إليه متجهِّمين فغرف الرمل بكلتا يديه، وأخذ يفرك به وجهه بكلّ قوّته. وعاد إلى مكانه ووقف بلا حراك سوى أنّ رموشه الطويلة كانت ترفّ فوق خدَّيه المفروكين.

نزل تليغين من المتراس، واقترب من المدفع، وأمسك عجلته.

ـ لاتوغين على حقّ، يا رفاق... على العموم تعالوا نحفر هنا. هرع البحّارة الذين كانوا يتابعون حركته صامتين إلى الرفوش وأخذوا يحفرون منحدرا في الحفرة في أسهل موضع لإخراج المدفع إلى مكان مكشوف.

صاح سابوجكوف بصوت متوتِّر مبحوح:

ـ يا تليغين. الآمر يسأل هل يمكن برجالنا أن نخرج

المدفعين إلى مكان مكشوف؟

ممكن!

قال تليغين ذلك بهدوء وثقة. كان لاتوغين يعمل برفشه، رغم أنّ كتفه الجريحة كانت تسبّب له ألما محرقا والدم يسيل منها عَبْر الضمادة. ثم لكز بايكوف فقال:

ـ أحبّ المثقّفين. ها؟

وأجاب بايكوف:

ـ ستتعلّمون حمل الماء بالمنخال. سيتعلّمون شيئا من الفلاحين.

وفجأة تمزّق السكون بهدير عاصفة ناريّة. اندفع تليغين إلى المتراس. وامتلأ السهل كلّه بالقوّات المتحرّكة. ولقطع طريقها انطلقت من اليمين وعلى خطّ غير عال القطارات المصفّحة التابعة للآمر اليابيف الذي اشتهر في ذلك اليوم وهي تعوى وتلهث وتنفث دخانا صدئا. وكان إيفان ايليتش يركّز انتباهه على اقرب استحكام لسريّة من فوج كاجالين كانت تتّخذ موقعها وراء الأسلاك الشائكة، لا في خنادق، بل في حفر. وكانوا قد جلبوا إليهم الماء توّاً في برميل، إلا أنّ الحصان فزع، واستدار وقلب البرميل، وانطلق مع العربة. وشاهد تليغين إيفان غورا، ذلك الرجل الطويل الغريب الأطوار الذي زاره يوم أمس. كان يركض خلال الخنادق مقرفصاً، يبدو أنّه يوزّع آخر ما تبقّى من ذخيرة.

وإلى يسار موقع السريّة (ويسار بطارية تليغين) وعلى بعد أقلّ من نصف فرسخ كان يمتد المنخفض الذي يشقّ الجبهة حتى المدينة نفسها. وكان المنخفض طوال النهار تحت القصف، وكانت موجات القوزاق تتدفّق منه بعيدا من هذا الموقع. والآن

فهم إيفان ايليتش وهو يراقب القلق الظاهر بين مقاتلي إيفان غورا أنّ القوزاق لابدّ أن يتوغلّوا في المنخفض، ويهاجموا الخنادق من المؤخِّرة، والبطارية من الجناح، فيثيرون المتاعب. وهذا ما وقع بالفعل...

لقد طلع الخيّالة من المنخفض قرب الاستحكامات مباشرة وانتشروا وأخذ جزء منهم يلتف على مؤخّرة إيفان غورا، وانطلق آخرون نحو البطارية. فاندفع تليغين نحو المدفعين. كان البحارة يدفعون المدفع من الحفرة إلى الأكمة لاهثين شاتمين: لقد غطست عجلتاه في الرمل.

قال تليغين إهدأ ما يمكن.:

إنّهم القوزاق! إدفعو!

وأمسك بالعجلة بقوّة جعلت ظهره يقرقع:

ـ قنبلة شظايا! بسرعة!

وتردّد زعيق القوزاق الوحشي وكأنّ جلودهم تسلخ وهم أحياء استلقى غاغين تحت عربة المدفع ورفعها على كتفيه: "ياالله يا شباب!" وأخرجوا المدفع من الرمل، ووضعوه على الأكمة فانتصب مائلا منكّساً الماسورة. تناول غاغين قذيفة في يديه الكبيرتين، ووضعها في المدفع، وكأنّه في غير عجلة من أمره... كان حوالي ثلاثين فارسا ينطلقون نحو البطارية، منحنين على اعراف خيولهم، هازّين سيوفهم. وحين قابلهم لهيب طويل، وانفجرت قنبلة شظايا، شبّت بعض الخيول، واستدارت أخرى إلا أنّ عشرة من الفرسان صعدوا الأكمة غير قادرين على كبح جماحها.

وفي تلك اللحظة تفجّر الحنق المحتدم. فقد أرسل لاتوغين

العاري حتى الوسط صيحة مبحوحة، وبادر في الهجوم بخنجر معقوف، وغرسه في سترة قوزاقية سوداء تحت حزامها المزيّن... ووقع زادويفيتر تحت حصان فشقّ بطنه بغيظ، وما كاد فارسه يقع على الأرض حتى عاجله بطعنة خنجر. وتفادى غاغين ضربة سيف، وأمسك بتلابيب ضابط ضخم وجرّه إلى الأرض، وطرحه، وشدّ قبضته عليه. أما الآخرون فكانوا يطلقون النار من بنادقهم، واقفين وراء المدفع. وراح تليغين يضغط على زناد مسدسه ببطء وهدوء، كما كان يحدث له دائما في مثل هذه الأحوال (فإن الانفعالات تأتي فيما بعد). كان الاشتباك قصيراً، وبقي أربعة من القوزاق مطروحين على الأكمة، وهرب اثنان ثم وقعا تحت النيران.

وصُدَّ الهجوم الأخير كما صُدَّت الهجمات السابقة في ذلك اليوم. ولم يتمكن العدو من خرق جبهة الحمر، سوى أنّ مشاته توغّلوا عميقا في أضعف مكان بين فرقتين للحمر. وحلّ المساء وكانت ماسورات المدافع حامية، والخيول متعبة، وكلّت حِدّة الخيّالة، وصار من الصعب دفع المشاة إلى الهجوم. وانتهت المعركة، وسكتت الطلقات في السهل الذي خلا إلا من رجال الإسعاف الذين كانوا يزحفون لالتقاط الجرحى.

واتجهت نحو البطاريات والخنادق براميل الماء وعربات الخبز والبطيخ، وعادت محمّلة بالجرحى. وكانت الخسائر فادحة في جميع وحدات الجيش العاشر. ولكن الأفدح من ذلك كان استنفاد جميع الاحتياط في ذلك اليوم، بينما لم تعد المدينة قادرة على مدّ الجبهة بشيء.

وعاد قائد الجيش إلى عربة ركاب كانت واقفة وراء محطة

فوروبونوفو. وترجّل ببطء ونظر إلى الرجلين القادمين إليه، وهما رئيس مدفعية الجيش ذلك الرجل الضخم الملتحي المورّد الخدين الذي كان قد جاء وتحدَّث إلى المثقَّفين في بطارية تليغين واليابيف قائد القطارات المصفّحة الذي كان يبدو كطالب منفعل عائد من المتاريس. وقد ابتسما للقائد، سعيدين بعودته من الخطوط الأمامية، حيث كان قد اشترك عدّة مرات في ذلك اليوم في المعارك بالسلاح الأبيض. وكان معطفه مثقوباً، ومسند قربته المعلّقة على كتفه مهشَّما.

دخل قائد الجيش في العربة. وطلب ماء. وشرب عدّة أقداح، ثم طلب سيجارة. أشعلها وغامت عيناه الجافتان فوضع السيجارة على حافّة المنضدة، وقرب منه مجموعة من البلاغات، وانكبّ عليها... أجل، إنّ الخسائر لفادحة، فادحة للغاية، ولم يبق ليوم الغد سوى القليل من الذخيرة، بل النزر اليسير. نشر خريطة، وانحنى الثلاثة عليها. ورسم قائد الجيش بالقلم خطّاً ـ كان قد خرق خلال ذلك اليوم في بعض المواقع فقط ـ ولكن ليس بالقدر الكبير، بل وقد التوى عند ساريبتا نحو البيض، إلا أنّ خط الجبهة في القطاع الذي وقع فيه يوم أمس الحادث المؤسف لفَوْجَيْ الفلاحين، قد مال بشكل حاد نحو تساريتسين فتباطأ القلم في يد قائد الجيش. وقال القائد: "والآن دعونا نتأكّد مرّة أخرى..." كانت التقارير مضبوطة. وتوقّف القلم على بعد سبعة فراسخ من تساريتسين، في قاع المنخفض تماما، ثم استدار بشكل حاد عائداً نحو الغرب راسما إسفينا. فألقى قائد الجيش القلم، وضرب بكفّه على هذا الإسفين:

ـ هذا يقرّر كلّ شيء.

وعبس رئيس المدفعية، وحوّل عينيه، وقال بعناد:

ـ آخذ على عاتقي تقطيع هذا الإسفين إذا حصلت في الليل على مزيد من الذخائر.

وقال رئيس القطارات المصفّحة:

المعنويات في الوحدات عالية. سيصمدون إذا أكلوا وناموا ساعة أو ساعتين.

وأجاب قائد الجيش:

ـ الصمود لا يكفي. بل يجب تحطيم العدو، بينما خطّ الجبهة غير ملائم لذلك. قل لي هل القطار جاهز؟ إذن فأنا ذاهب.

وجلس دقيقة أخرى مشلولا بالإعياء، ثم نهض، وطوق كَتِفَيْ رفيقيه وقال:

ـ اتمنّى لكما التوفيق.

عاد رئيس المدفعيّة ورئيس القطارات المصفّحة إلى نقطة المراقبة أي إلى برج الماء لخطّ السكة الحديدية البارز لوحده، والذي كان طوال اليوم عرضة لضرب مركز من الأرض والجوّ. صعداً إلى حيث تقع التلفونات في الأعلى، ووجدا العشاء في انتظارهما وهو عبارة عن قطعتين من الخبز الجاف ونصف بطيخة غير ناضجة. كان رئيس المدفعيّة رجلا موفور الصحة بشوشاً، وقد غمّته هذه الحصة الشحيحة من الطعام.

قال وهو واقف عند فتحة في جدار آجُرّي:

ـ بطيخ سيء. إذا كان البطيخ يقطع بالسكين فهو ليس بطيخاً. يجب كسر البطيخ بضربة من قبضة اليد.

وبصق الحَبّ، وقلّص عينيه ونظر إلى السهل المكشوف

المسطَّح تحت الشمس الغاربة وقال:

ـ لو أنّ طاسة من الفطائر الحارة لشبعت. ما رأيك يا فاسيلي؟ يبدو أنّ أمراً سيصدر هذه الليلة بالانسحاب.

ـ كيف الانسحاب؟ تسليم الطريق الدائري؟ هل جننت؟

ـ وأين كنت أنت، حين سمحت للعدو بفتح ثغره؟ أين كانت قطاراتك المصفّحة؟

كان رئيس المدفعيّة وهو يتكلّم يرفع إلى عينيه بين الحين والآخر إصبعين منفرجتين، أو يخرج من جيبه علبة كبريت ويمسكها بيده الممدودة ويحدِّد الزوايا والمسافات بدقّة تصل إلى خمسين خطوة.

ـ ولكن جنودهم من سلاح الهندسة ساروا خصيصا وراء صفوف المهاجمين، فاستطاعوا أن ينسفوا الخطّ في عشرات الأماكن.

فكّر رئيس المدفعية بعناد:

ـ ومع ذلك كان لا يجوز السماح بدق إسفين... إسمع، ألا تلاحظ شيئا؟

كانت العين الحادّة المجرَّبة وحدها قادرة على أن تلاحظ أنَّ السهل البني الممتدّ نحو الغرب لم يكن هادئا خاليا من الناس، بل أنّ فيه حركة حذرة. فقد كانت تجاعيد الأرض كلّها، وكلّ الاكمات الشبيهة بآلاف من كتل النمل تلقى ظلالا طويلة، وكانت بعض هذه الظلال الطويلة تغيِّر مواقفها ببطء.

قال رئيس المدفعية:

ـ إنهم يغيرون القوات. يزحفون... خذ المنظار... أتلاحظ وكأنّ اشرطة صغيرة تلمع؟...

ـ أرى بوضوح... وإنها على أكتاف الضبّاط...

ـ مفهوم أن أكتاف الضباط هي التي تلمع... انظر كيف يزحفون... انظر، كالعناكب!.. وما أكثر ما على أكتاف الضباط.. لا ترى العين غيرها...

ـ غريب!

ـ منذ ثلاثة أيام نبّهنا ستالين على أن نتوقّع ذلك. وهذا ما حصل، بالفعل...

نظر اليابيف إليه. وخلع قبّعته، ومرّر أظافره على رأسه، ومشّط الشعر المتلبّد من العرق، فانطفأ البريق في عينيه الرماديتين، ونكسّ رأسه، وقال:

ـ مفهوم لماذا هدأوا اليوم في ساعة مبكرة... كان يجب أن نتوقّع ذلك... سيكون يوما شاقا.

وقعد إلى التلفون بسرعة، وأخذ يتلفن. ثم أمال قبّعته على جبهته، واندفع على السلّم الحلزوني.

وظلّ رئيس المدفعية يراقب السهل حتى غابت الشمس. وبعد ذلك اتصل بالمجلس العسكري، وقال في السماعة بخفوت ووضوح:

ـ يا رفيق ستالين، في الجبهة لواء ضباط يحلّ محل القوزاق فجاءه الردّ:

أعرف. سيصلك قريبا مظروف.

وبالفعل بعد مدة قصيرة سمع فرقعة موتوسايكل. وتردّد صرير السلّم ثم انسلّ في الفتحة بصعوبة رجل ثيابه من الجلد الأسود. ولم يكن رئيس المدفعية قصير القامة، أما سائق الموتوسايكل هذا فقد كان أطول منه:

ـ من رئيس مدفعيّة الجيش هنا؟

ولمّا سمع "أنا" طلب منه الهوية، وأشعل عود الثقاب وقرأ حتى احترق العود كلّه ولسع أظافره. عند ذاك فقط قدّم له المظروف بشكٍّ بالغ، ونزل عائداً إلى الأسفل.

كان في الظرف قصاصة ورقية صفراء، كتب فيها رئيس المجلس العسكري بيده:

"آمركم أن تحشدوا في الليل وقبل حلول الفجر، كلّ المدفعية (وهناك خطّ تحت "كل") والذخيرة الموفّرة في القطاع الممتدّ خمسة فراسخ بين فوروبونوفو وسادوفايا على أن يجري التحرك بكلّ سرّية ممكنة".

ظلّ رئيس المدفعيّة يقرأ ويعيد قراءة هذا الأمر المفاجئ والمخيف. كان يحمل في طيّاته أكثر من المجازفة، وتنفيذه صعب بشكل لا يصدّق. فقد كان يعني حشد كلّ البطاريات السبع والعشرين (٢٠٠ مدفع) في قطاع صغير جداً هو قطاع الثغرة. فماذا لو أنّ العدو لن يزحف على هذا المكان بالذات، بل يوجّه ضربته يسارا أو يمينا. أو ربما ضرب وذلك أخطر على الجناحين، في ساريبتا وغومراك؟ عندئذ سيكون التطويق، الهزيمة!

جلس رئيس المدفعية إلى التلفون في حالة من الارتباك النفسي العميق، وأخذ يتلفن إلى امراء الكتائب مشيراً عليهم بالطرائق التي يسلكونها، والأماكن التي ينقلون فيها جميع قواتهم الهائلة الضخمة: آلاف الناس والخيول وعجلات الجيش والعربات والخيام. وكلّ ذلك يجب أن يحمل ويرسل وينقل، ويفرغ ويوزَّع بين المواقع. ثم يجب حفر الخنادق للمدافع. ومدّ

الأسلاك الشائكة وكلّ ذلك خلال بضع ساعات قبل الفجر.

ودون أن يتحوّل عن التلفون صاح على الرجال في الأسفل بأن يجلبوا الفانوس، ويبلغوا جميع المراسلين بإعداد الخيول. فكَّ ياقة قميصه السميك، وراح يمسِّد على رأسه الحليق، يملي أوامر قصيرة يتسلّمها المراسلون، فيهرولون من برج الماء، ويمتطون الخيول، وينطلقون في جنح الليل. كان رئيس المدفعيّة ذا دهاء، فقد أمر بأن تشعَل نيران في مواقع البطاريات بعد ان ترفع هذه البطاريات من أماكنها، وأن تكن هذه النيران غير كبيرة لتبدو طبيعية حتى يظنّ العدو بأنّ الحمر في الليلة الباردة يدفِّئون أقدامهم الحافية على النار.

ثم قرأ الأمر مرّة أخرى، وفكّر بأنّ من غير الصحيح تماماً تعرية الجناحين، وقرّر إبقاء ثلاثين مدفعا قرب ساريبتا وغومراك. وحين أجابه أمراء الكتائب بأنّ الخيول جاهزة، وأنّ القذائف والمعدّات الطبيّة قد شحنت، وأشعلت النيران هنا وهناك حسب الأوامر جلس رئيس المدفعية في سيارة قديمة تسير على خليط من الكحول والكيروسين، وتقرقع بجسمها مثل عربة غجر، واتجه بها إلى مقرّ القيادة في تساريتسين.

سار مقرقعاً في المدينة المظلمة الخالية، وتوقّف عند دار تاجر، وركض على السلّم غير المضاء إلى الطابق الثاني، ودخل غرفة كبيرة ذات نوافذ قوطيّة وسقف بلّوطي لا يضيئها غير شمعتين تقف واحدة على منضدة طويلة تناثرت عليها الأوراق. أما الثانية فيرفعها قائد الجيش في يده عاليا، حيث كان واقفاً عند الحائط أمام الخريطة. وإلى جانبه رئيس المجلس العسكري يعلّم بالقلم الأحمر على مواقع القوّات للمعركة في الغد.

ورغم أنّ الغرفة لم يكن فيها هذين الشخصين الصديقين القديمين فإن رئيس المدفعيّة تقدّم حسب الأصول العسكرية، وأبلغ عن سير تنفيذ الأمر. أنزل قائد الجيش الشمعة، والتفت إليه. وابتعد رئيس المجلس العسكري عن الخريطة وجلس على المنضدة. قال له رئيس المدفعية:

ـ سيتمّ نقل عشرين بطارية قبل الفجر إلى القطاع الأوسط كما وضعت سبعة بطاريات على الجناحين قرب ساريبتا وغومراك.

واشعل رئيس المجلس العسكري غليونه، وطرد الدخان من وجهه. وسأل بخفوت وصرامة:

ـ أي جناحين؟ ما شأن ساريبتا وغومراك هنا؟ الآمر لم يتحدث بكلمة واحدة عن الجناحين. أنت لم تفهم الأمر.

ـ لا، أبداً. فهمت الأمر.

ـ جاء في الأمر (وارتعش جفناه السفليان وتقلّصت عيناه) جاء في الأمر بوضوح: تركيز جميع المدفعية، كلّها حتى آخر مدفع في القطاع الأوسط

نظر رئيس المدفعية إلى قائد الجيش، إلا أن هذا ردّ على نظرته بنظرة جادّة محذِّرة.

قال رئيس المدفعية بحرارة:

ـ لكن هذا الأمر، أيها الرفاق، رهان على الحياة والموت.

وأكّد رئيس المجلس العسكري: بالضبط!

ووافقه قائد الجيش.

ـ ولكن ماذا سيحدث لو أننا نجمع قبضة قويّة في القطاع الأوسط، ونكشف الجناحين تماما؟ أين الضمان في أنّ البيض سيزحفون على القطاع الأوسط فقط؟ وماذا لو شنّوا المعركة في

مكان آخر؟ المشاة وحدهم لم يصمدوا للهجوم. فقد أنهكوا خلال اليوم. وسيكون الوقت متأخّرا لإعادة تنظيم البطاريات من جديد... وهذا ما أخشاه.. القطارات المصفّحة لا يعتمد عليها بعد الآن، وسيضطر المشاة على أيّة حال إلى التراجع هذه الليلة عن الطريق الدائري... وهذا ما أخشاه.

نقر رئيس المجلس بأصبعه على المنضدة مرّة ثم أخرى وقال:

ـ لا تخشَ! لا تخشَ! لا تتردد! أليس من الواضح لك أنّ البيض لا بدّ سيلقون بكلّ قواهم غدا في القطاع الأوسط بالذات؟.. إنّ ذلك تمليه بالضرورة نتائج العمليّات الحربيّة يوم أمس. إنّ أكبر فشل لهم كان بالقرب من ساريبتا، ولن يرغبوا في أن يدسّوا بأنوفهم مرّة أخرى، فهم يعرفون حركة لواء بوديوني في مؤخّرتهم. ونجاحهم بالأمس في القطاع الأوسط يتلخّص في أنهم تمكنوا من التوغّل في خطوطنا الأماميّة. وأخيرا فقطاع فوروبونوفو ـ سادوفايا هو أنسب مكان لهم إذا كله منخفضات، كما أنّه اقرب طريق إلى تساريتسين. وأنت نفسك أبلغتني عن وضع لواء الضباط في محل القوزاق. فأستخلص استنتاجا من ذلك. أنّ لواء الضباط هو اثنا عشر ألفاً من المتطوّعين الضباط النظاميّين المتمرّسين بالقتال. والجنرال مامونتوف لا يرمي هذه القوات للفرجة... إنّ لدينا جميع الأسس للاعتقاد بأنّ الهجوم سيكون في القطاع الأوسط بالذات.

وقال قائد الجيش:

ـ التقارير المسائية تؤكد ذلك أيضاً. البيض سَحبوا من القطاعين الجنوبي والشمالي أربعة عشر أو خمسة عشر فوجاً،

وهم يسيِّرونها الآن عبر السهب... هذا بالإضافة إلى لواء الضباط...

قال رئيس المجلس العسكري:

ـ وبهذا الشكل، يقدِّم العدو بنفسه الظرف المواتي لنا لدحر قواه الرئيسيّة إذا ما كنّا حازمين وجريئين غير مترددين. ومهمّتنا غداً لن تكون ردّ هجوم بل القضاء على نواة جيش الدون...

ابتسم رئيس المدفعية ابتسامة عريضة، وجلس وضرب ركبته بقبضته وقال:

ـ يا للجرأة، يا للجرأة لا مجال للاعتراض. سأصليه ناراً حامية تجعله يركض مذهولا حتى الدون.

حرّك رئيس المجلس العسكري الشمعة نحو الخريطة التكتيكيّة، أخذ رئيس المدفعية يوضح نيّته في وضع البطاريات واحدة لصق الأخرى في عدة صفوف.

قال له قائد الجيش:

لا تتخندقوا. ضعوا المدافع على أكمات مكشوفة. وقدّموا المشاة لصق المدافع تماماً. اذهب لتتلّفت إلى أمراء الوحدات.

وبعد عدة دقائق بدأت حركة صامتة عجلى على طول خط الجبهة الممتدة أربعين فرسخا. وفي السهل المظلم، تحت السماء المرَّصعة بالنجوم، حيث كانت المجرّة تلمع ذلك اللمعان الذي لا يحدث إلا في ليال نادرة من الخريف انطلقت الخيول بالمدافع، ومدافع الهاون، وسارت المدافع الثقيلة تجرّها ثمانية أزواج من الخيول، واندفعت العربات ذوات العجلتين. وتحرَّكت وحدات المشاة من أماكنها دون أن يلاحظها العدو وتراجعت في شبه دائرة دفاعيّة متماسكة.

ونفخ البوّاقون نوبة استيقاظ في السهب الأشيب المغطّى بقشرة من الجلد مستنفرين الأفواج القوزاقية إلى المعركة. ونهضت الشمس من وراء سهوب الفولغا. وهدرت المدافع من بعيد. وطقطقت الرشاشات. وكانت جبهة الحمر صامتة وكلّها في الظل، والشمس قبالتها. وكان الأمر قد صدر لجميع البطاريات بانتظار الإشارة، وهي أربعة انفجارات عالية لقنابل الشرابنيل.

بدأ هجوم البيض بزوبعة من النيران من خطّ الأفق. والتصق كلّ ما هو حيّ بالأرض منكمشا مترقّبا وقد أصبح كلّ نتوء، وكلّ حفرة غطاء وملجأ. ومن خلال الهدير كانت في بعض الأحيان تتردّد صيحة وحشيّة، وتتطاير كتل الأرض سوية مع عجلة من عربة أو معطف عسكري داخن. واستغرق القصف التمهيدي خمسا وأربعين دقيقة. وحين استطاع الناس أن يرفعوا رؤوسهم كان السهل كلّه يموج بالقوات المتحرّكة. كان الضباط يسيرون في عدة خطوط شاهرين حرابهم بلا عجلة أو توقّف. ووراءهم سار اثنا عشر طابوراً من كتائب الضباط، وبين كلّ طابور وآخر فاصلة، وكأنّهم في استعراض. ورفرفت عاليا رايتان لفوجين. وكانت الطبول تقرع قرعاً صاخباً، وتعوّل النايات. وإلى الخلف من المشاة ماجت كتل سوداء لعدد لا يحصى من القوزاق.

ـ أنظر يا إيفان ايليتش، ها هم الأعداء الطبقيّون!... ها هم المحاربون! يا سلام!

ـ أنظر إلى ملابسهم... وأحذيتهم... مشبعون باللحم...

ـ من المؤسف أن تمزّق هذه الملابس...

ـ يا رفاق، كفّوا عن المزاح، وانتبهوا.

ـ نحن نمزح لنبعد الخوف عنا، يا رفيق تليغين...

... حثّت الصفوف المقدّمة خطاها. وكانت على بعد خمسمئة خطوة... وكان من الممكن تبيّن وجوههم.. ويا لها من وجوه بشعة بعيونهم الغائرة الشاحبة من الحقد، بوجناتها الناتئة متحفزَّة لتفتح أشداقها بصيحة الحرب "هورا!".

أطلّ رئيس المدفعية بجسمه من فتحة الجدار الأجرّي لبرج الماء، ومدّ ذراعه إلى الخلف ليعطي جندي الاتصال إشارة قنابل الشرابنيل الأربع! وانتظر دقيقة أخرى، فقد كان يجب أن تعبر الصفوف والطوابير السائرة باتزان على وقع الطبول والنايات خطّ الطريق الدائري لسكّة الحديد... ومرّت دقيقة أخرى... المهمّ ألاّ يتحوّل هؤلاء الشياطين من الخطو إلى الركض...

- ... يا رفيق آمر السرية لا استطيع اكثر... بالشرف...

- عد إلى الخندق، يا ابن...

- أحسّ بالغثيان... دعني ابتعد فقط..

- سأقتلك، يا ابن...

- أرجوك.. يا رفيق إيفان غورا!

- إمسك البندقية!

... قرّر رئيس المدفعية في نفسه بأن يدع هذه الصفوف المتقدّمة تصل إلى العمود... لقد أصبحت الصفوف الأماميّة تلتوي وتتموّج، ورجالها يتعثّرون في خطاهم... زر عينيه رأى بوضوح ذلك العمود المائل بقطعة من الأسلاك الشائكة... ذلك العمود الذي كان عليه أن يقرّر مصير الهجوم كلّه، مصير هذا اليوم، مصير تساريتسين بل ومصير الثورة... عليه اللعنة!... ثم أنّ رجلاً في حذاء أصفر - كان أوّل من تخطّى وراء العمود. وفتح رئيس المدفعيّة قبضته وراء ظهره، وأفرج أصابعه، وتراجع عبر الفتحة،

وهتف لجندي الاتصال "إشارة" !..

انفجرت أربع قنابل عالياً كسحابات قطنيّة في السماء الصافية فوق الطوابير الزاحفة. وهزّ الهواء هدير هائل لم يسمع مثله أحد. واهتز برج الماء الآجُرّي. وألقى جندي الأتصال بالسماعة، وسدّ أذنيه. ودبدب رئيس المدفعية بقدميه وكأنه يرقص ولوّح بذراعيه، وكأنه يدير فرقة موسيقيّة...

صار السهل الذي كانت تزحف فيه منذ لحظة الكتائب الرماديّة الخضراء في خطاها الموزونة والمنذرة أشبه بفوهة بركان ضخم متأجّج. وكان من الممكن أن تتبيّن العين من خلال الغبار والدخان، الصفوف المهاجمة ترقد كالمصعوقة والصفوف الخلفيّة يختلط بعضها ببعض. ومن الشمال انطلقت القطارات المصفّحة في مؤخرّتهم على الطريق الدائري. ونهضت سرايا الحمر من الخنادق، وانطلقت في هجوم معاكس،. اختطف رئيس المدفعية السماعة من جندي الأتصال وصاح: "انقلوا النار إلى العمق!". وحين قطعت العاصفة الناريّة خط التراجع على البيض شقّت صفوفهم سيارات اللوري وعليها الرشاشات، وبدأ السحق.

٨

كانت داشا جالسة في فناء صغير على صندوق كتب عليه "أدوية". ويداها على ركبتيها وقد غسلتهما من لتوّها فكانتا حمراوين من الماء المثلّج. أغمضت داشا عينيها، وعرّضَت وجهها لشمس تشرين الأول. كانت العصافير المتخمة الحواصل تنفش ريشها وتزقزق ويتباهى بعضها على بعض، على أغصان عارية، حيث كان ينتهي ظلّ السطح. وكانت منذ حين في الشارع تلتقط الشعير وروث الخيول الذي يتناثر كثيراً أمام المنزل الأبيض ذي الطابق الواحد. وقد أفزعها قدوم العربات فطارت إلى شجرة بِتولا. كانت زغردة العصافير تبدو لداشا موسيقى مريحة للغاية وكأنّها تقول: مهما يكن فما زلنا نعيش.

كانت داشا في مريول أبيض مبقّع بالدم وقد شدّت منديلا بقوة حتى حاجبيها. في المدينة لم يعد قصف المدافع يهزّ زجاج النوافذ، ولم تسمع الأنفجارات المدوّية لقنابل الطائرات. فقد انتهى فزع اليومين السابقين بزغردة العصافير. ولو أمعن المرء التفكير في الأمر لشعر بالكدر من مدى ازدراء هذا المخلوق الحقير المتخم الحواصل للإنسان... يزغرد العصفور: إني صغير ولكنّي حكيم، انقل الروث، وأقفز من غصن إلى آخر وراء عصفورة، وأزغرد للشمس الآفلة، ثم أنام حتى الفجر، وتلك

هي كلّ حكمة الحياة...

سمعت داشا صوت عربات تتوقّف خلف البوابة... لقد جلبوا جرحى جدداً، وأدخلوهم إلى المنزل. كانت متعبة بحيث لم تستطع فتح جفنيها اللذين ينسلّ ضوء وردي من خلالهما.. سيدعوها الطبيب إذا اقتضت الحاجة إليها... إنّ هذا الطبيب رجل لطيف في صوته غلظة وفي نظراته رقّة. قال لها "أخرجي إلى الفناء حالا، يا داريا ديميتريفنا، فأن حالتك صعبة، واجلسي في مكان ما. وسأوقظك عند الضرورة"... كم من أناس طيبين في هذه الدنيا! وفكرّت داشا مع نفسها: لو أنه يخرج الآن للتدخين لتقصّ عليه ما لاحظته على العصافير، فقد بدت لها ملاحظاتها عميقة المغزى... وما العيب إذا كان الطبيب قد أعجب بها؟ وأرسلت داشا زفرة ثم أخرى أعمق... كلّ شيء يمكن تحمّله حتى الذي لا يطاق إذا قابلتك نظرة حنون... ولتكن عرضيّة، فإنّ التقاءك بها ترفع روحك المعنوية، وثقتك بنفسك فيعود الإنسان حيّاً من جديد... وذلك، أيتها العصافير، لا تفهمينه!..

وبدلا من أن يخرج الطبيب طلع من السرداب الذي يقع المطبخ فيه رجل ذو وجه مصفًر عصبي وعينين مأساويتين. كان يرتدي معطف بزّة مصلحة التعليم الشعبي، ولكنّه في هذه المرّة لم يكن محزّما بحبل. صعد بضع درجات من السلّم الآجُرّي، ومدّ عنقه النحيل مستمعاً. فلم يسمع غير زغردة العصافير وقال:

ـ فظاعة. كابوس! هذيان!

وضغط كفّيه على أذنيه، ثم رفعهما في الحال. كانت الشمس الواطئة تضيء جانب وجهه بأنفه الدقيق الغضروفي وشفتيه المكتنزتين.

ـ لا تبدو نهاية لذلك، يا إلهي!.. ثم سأل داشا فجأة هل أصبت بهلوسة صوتيّة في وقت ما؟ اعذرني، نحن لم نتعرّف على بعض، ولكنني أعرفك... كنت قد التقيت بك قبل الحرب، في بطرسبورغ، في "الأمسيات الفلسفية". كنت آنذاك أكثر شبابا، ولكنّك الآن أجمل وأكثر جاذبية... الهلوسة الصوتية تبدأ من بعيد، وتكون حينذاك بلا صوت، ولكنّها تقترب بسرعة مريعة. وينمو طنين متنوّع الأصوات لا وجود لمثله في الطبيعة، ويملأ الدماغ والأذنين. وأنت ترين أن لا شيء هناك، الا طنين في الواقع، ولكن هذا الطنين في داخلك أنت... النفس كلها متوترة، ويبدو لك أنك لن تعودي بعد قليل قادرة على تحمّل هذه الأبواق الجهنمية. عندئذ تفقدين الوعي فينقذك ذلك... وأنا أتساءل: متى النهاية؟

كان يقف أمام داشا قبالة الشمس مطقطقا بأصابعه الرقيقة وحدة بعد الأخرى.

ـ عليّ أن احفر الطين في مكان ما، وأمزجه وأصلح الموقد، لأنهم أنزلونا إلى السرداب باعتبارنا عناصر طفيليّة... إنّ أبي اشتغل طوال حياته مديرا لمدرسة وبنى هذا البيت من ادخاراته... قولي ذلك لهم! وفي السرداب يتكدّس آجُرّ محروق، وهناك نافذتان تقعان على الرصيف، وهما متربتان جداً بحيث لا يتسرّب النور منهما. وكتبي مكدّسة في ركن.. وأمي مصابة بمرض قلب، وهي في الخامسة والخمسين من العمر، وأختي مشلولة الرجلين من الملاريا. والشتاء على الأبواب... آه، يا إلهي!

وفكّرت داشا في نفسها بأنّه مثل روح "سكر" في مسرحية

"الطائر الأزرق" على المسرح الفني، وأنه سيكسر كلّ أصابعه العشر.

ـ مَنْ لا يعمل لا يأكل!... لقد تخرَّجت مِنْ كليّة التاريخ والآداب وكدت أحصل على الدكتوراة.... ودرَّست ثلاثة أعوام في مدرسة للبنات في هذه المدينة المنحوسة، في هذا الجبّ المغضوب عليه، حيث أنا مكبّل من يديّ ورجليّ بمرض أمي وأختي... ثم هذا هو حصاد الحياة كلّها: من لا يعمل لا يأكل! إنّهم يضعون في يدي رفشا، ويجبرونني بالقوة على حفر الخنادق، ويهدِّدونني حتى اخضع للثورة، لهذا الاستهتار بحرية الإنسان! لسيطرة القوّة البدائية!... وانتهاك الفكر!... أنا لست من الأعيان ولا برجوازياً، ولست من "المائة السود"[1] .. وجسمي يحمل ندبة من ضربة حجارة في مظاهرة للطلاب... ولكنّني لا أريد أن أخضع للثورة التي دفعتني إلى سرداب... ولم أكن أصقل عقلي لكي أنظر عبر نافذة صغيرة متربة في سرداب إلى أقدام المنتصرين السائرين على الرصيف... أنا لا أملك الحقّ لأقضي على حياتي بالقوّة، فإن لي أماً وأختاً.. وحتى في الحلم لا أجد مكاناً ألجأ إليه، واختفي فيه... "لنحمل المشاعل المتوقّدة"! ولكن إلى أين نحملها، ولم تبق في الدنيا كهوف معزولة...

وكان يتحدّث بكلّ ذلك بسرعة غير اعتيادية، وعيناه تائهتان. أصغت داشا إليه بلا دهشة ولا عطف، وكأنّ هذا الرجل العصبي الذي طلع من مطبخ في شبه سرداب تتمّة ضروريّة لرعب تلك الأيام من الدوي والحرائق وأنات الجرحى.

---

(١) عصابات ملكيّة رجعيّة معادية للثورة. المترجم.

وسألها مباغتة بصوت اعتيادي مدمدم:

ـ ما الذي جاء بك إليهم؟ التهوّر؟ الخوف؟ الجوع؟ أودّ أنْ أقول لك أنني راقبتك خلال هذين اليومين وتذكرت كيف كنت أنظر إليك بعين الإعجاب الصامت في "الأمسيات الفلسفية" في بطرسبورغ، وأنا لا أجرؤ على أن أتقدم منك وأعرّفك بنفسي... أنت تقريبا "السيدة المجهولة"[٢] لاليكساندر بلوك... (وفكّرت داشا على الفور: لماذا "تقريبا؟") الأميرة التي يجب أن تطرّز بالذهب تلبس مبذلا قذرا ويداها حمراوان، وتنقل الجرحى.. فظاعة، فظاعة!.. هذا هو وجه الثورة...

واعتمل الغضب في وجه داشا فجأة حتى أنها زمّت شفتيها، ولم تردّ بكلمة واحدة على هذا العصابي الأصفر الشاحب، ودخلت البيت فصدمتها، بعد الهواء الطلق عن الفناء، رائحة اليودوفورم والجسد الإنساني المعذَّب.

كان الجرحى يرقدون في كلّ حجرة على أسرّة متلاصقة من ألواح خشبيّة. ورأت داشا الطبيب في غرفة العمليات، نفس الغرفة التي كان معلِّم مدرسة البنات يكتب رسالته فيها قبل إخراجه منها. كان الطبيب يمسح بالفوطة ذراعيه المشعرَّتين المشمّرتين إلى ما فوق المرفق. وحين رأى داشا غمز لها بعينيه البنِّيتين.

ـ هل غفوت قليلا؟ أما أنا فقد أجريت هنا عملية طريفة: قطعت لشاب حوال خمس أذرع من أمعائه الدقيقة، وبعد شهر سأشرب معه الفودكا. ثم أنهم جلبوا آمرا آخر مصابا بصدمة

---

(٢) السيدة المجهولة شخصية حافلة في المؤلّفات الرومانسيّة للشاعر الروسي العظيم ا. ا. بلوك (١٨٨٠ ١٩٢١) وصورة رومانسيّة للحلم المتمثّل في شخص امرأة لغز. الناشر.

حادة... حقنته بالكافور، والقلب يعمل ولكنه ما يزال فاقد الوعي... راقبي نبضه، فإذا بدأ ينخفض احْقنيه مرة أخرى..

ألقى الفوطة على كتفه، وقاد داشا إلى سرير خشبي. كان إيفان ايليتش تليغين ممددا على ظهره. كانت عيناه متقلّصتين بشدة، كأن ضوءاً قوياً مسلط عليهما. وكانت شفتاه الممدودتان مضمومتين. أمسك الطبيب بيده اليسرى الموضوعة على صدره، ومس النبض، وهزّ اليد هزة خفيفة:

ـ أترين؟ لقد كانت متجمّدة وكأنّها متشنّجة... الصدمة تكون أحيانا بصورة غريبة... أنها لم تدرس الدراسة الكافية... ومظاهرها تشبه مرض الصرع لدى الصغار الرضّع... الجهاز العصبي المركزي لا يتمكّن من الصمود أمام هجوم مباغت..

وقطع الطبيب كلامه، لأنه هو نفسه أصيب بصدمة مباغتة ولو كانت خفيفة. إذ ركعت داريا ديميتريفنا على ركبتيها برقّة أمام السرير، وضغطت وجهها كله على ذراع الآمر، حين تركها الطبيب.

استيقظ فاديم بتروفيتش روتشين في ساعة متأخِّرة في غرفة الفندق الوضيعة بشبّاكها القذر المغطّى بجريدة مصفرة. وكان يلتحف بطانيّة خفيفة في سرير قصير. سيغادر القطار في ساعة متأخِّرة من الليل، وكان أمامه نهار طويل. ولم تبقَ في علبة السجائر غير سيجارة واحدة. دعكها، وأشعلها، وأخذ ينظر إلى يده النحيلة المعروفة ببشرتها المنكمشة من البرد. لم يؤدِّ بحثه عن كاتيا إلى نتيجة... إنّه لم يجدها. والإجازة قد انتهت، وكان يحبّ أن يعود إلى فوجه في كوبان.

بعد يومين سينزل من عربة القطار، ويستقلّ عربة، ويسافر

في السهب دون أن يتحدّث إلى ضابط الصف الجالس على مقعد السائق. وفي الشارع العريض في القرية ستغطس عجلات العربة في البرك المملوءة بماء المطر الخريفي الذي لا جدوى منه. وسينزل من العربة إلى الوحل، ويأمر بأن تحمل حقيبته إلى الكوخ، ويذهب هو إلى إدارة القرية حيث مقرّ القيادة ليقابل آمر الفوج اللواء شفيدي.

وسيجد هذا الأحمق المنعم يطالع مقطوعات شعريّة للرمزيّين: "الدائرة الملتهبة" لسولوغوب أو "اللآلئ" لغوميليف. وبعد تقديم التقرير سيسلم فاديم بتروفيتش مفرزة. وقد يتسلّم سريّة. وتبدأ الاعمال الرتيبة: التدريب العسكري، وزيارة نادي الضباط حيث سيسألونه عن الفتيات، والسكر والعربدة ويتفكّهون على نحوله وشعره الشائب وهيئته المتهجّمة. وفي الأمسيات يذرع حجرته من ركن إلى ركن. وفي الساعة العاشرة سيخلع له الجندي المرافق حذاءه في صمت. وهذا احتمال واحد، أما الثاني فقد يكون الفوج في الجبهة، في القتال...

وتراءى له نفس السهب المقفر تظلّله طبقات من سحب الشمال، وفيه مداخن المواقد المتبقيّة بعد الحرائق، والعربات المغروزة في الوحل وعليها الجرحى، والخيول النافقة، وفي الطرف الأقصى من هذا السهب خندق فيه ناس، راقدون بين الغائط والخرق المدماة... وتخيّل نفسه متفائلا دائما، ثم قدرياً ذائع الصيت ومثالاً للكراهية الباردة التي ليست في نفسه، والتي لم يعد يشعر بها منذ زمان. فليس في نفسه غير النفور والغثيان لدى التفكير في الناس.

قعد على السرير محاولا أن يزرّر قميصه، ومدّ يده يبحث

عن تبغ في بنطلونه الذي سقط على الأرض واستلقى ثانية شابكا يديه وراء رأسه.

"لا يمكن البقاء في هذا المزاج على أيّة حال" قال لنفسه بخفوت، ولم يكن ذلك صوته، ولم يعجبه، وأقرفته الطريقة التي قال بها.... "لماذا لا يمكن؟ وما هذه "على أيّة حال" لا يمكن؟ كلّ شيء ممكن! حتى شدّ طرف الحزام على قبضة الباب والطرف الآخر حول الرقبة... هيّا، يا روتشين، كن نزيها... يا لك من طاهر... أنت وغد مثل الآخرين".

وأخذ يتذكّر بغيظ وانتقام آلاف اللقاءات هنا في يكاترينوسلاف... نساء على وجوههن أثار التعب بسبب الاجلاء وبقايا بائسة من العفّة، يتجوّلن من فندق إلى آخر يعرضن مختلف الأشياء "العزيزة كالذكريات"، وجنرالات يطبطبون على ظهرك بكلمات تحبُّب، حليقي الوجوه جداً، مفعمين بالصحة، ومضاربين وقحين متخصِّصين في بيع وشراء فواتير شحنات البضائع الحكوميّة على السكة الحديد، واقطاعيِّين صاخبين هاربين من عزبهم، فكانوا يزدحمون في غرف الفنادق مع زوجاتهم في غرف الفنادق مع زوجاتهم الحمقاوات وبناتهم الطويلات المنمشّات التعيسات يستدينون ويأكلون في المطعم بترف، ويعلِّمون الطباخين طهي أكلات خرافيّة ويسمّون الثورة شغبا، وبشكل عام، يقضون الوقت وسط أبهج الآمال التي لم تزايل الأعيان الروس حتى في أحلك الأوقات. وتذكّر خليط الناس في بهو الفندق، الذين فقدوا الوضع الاجتماعي بسرعة بالغة، فلم يكن من الممكن تميّزهم إلا من أزرارهم المعلّمة وأغطية رؤوسهم، فهذا مدعٍ عام أمسك بشاب وقح ومضارب محظوظ،

يحاول أن يقنعه بشراء ساعة عاطلة. أما هذا الرجل الأشيب الساعل ذو العصا فرئيس دائرة المالية، والظاهر أنّه قد بدّد أشياءه الثمينة، فهو ينظر بحسد إلى الصفقات الكبيرة، وإلى الأيدي السريعة التي تتعامل بالنقود. والمضاربون الشطار في بدلاتهم الفاخرة يدخلون راكضين من الأبواب الأماميّة، ويتجمّعون جماعات، ويتهامسون بعصبية وأصابعهم وعيونهم لا تستقرّ، ثم يندفعون ثانية إلى الشارع وكأنهم آلهة التجار والنجاح. وفي البهو يمكن أن تعرف عن حركة الشاحنات الحكومية، وعن صهريج زيت صناعي قد فقد، وعن سعر الدولار الذي يصعد ويهبط عدة مرات في اليوم تبعيّة مباشرة لهجمات الفرنسيّين... والمضاربون الصغار في البهو يتنحوّن جانبا، وتتركّز عيونهم المتراقصة من الإنفعال على رجل "كبير الشأن"

وكان مثل هذا الرجل يدخل وقورا متماهلا يرتدي معطفاً طويلاً جداً وسدارة مخمليّة تنحدر على يافوخه، وفي يده مظلة، ولحيته تنسدل على رقبته. فتبدو مصونة لا تمسّ ولا يمكن لصاحبها أن ينزع منها شعرة واحدة ويلويها إلا في حالة التركيز الفكري فقط. وتعكس عيناه صورة لحياة فكريّة مجهدة منزّهة عن الأشياء التافهة، لرجل مفكِّر يوازن ويبحث ويجد تلك العناصر التي تسبِّب هبوط أو ارتفاع خلاصات الطاقة العالمية، أي العملة الصعبة.

وفي البهو وفي الشوارع القريبة من الفندق تجري اللعبة. وهي محرّمة رسميا من قبل سلطات الهيتمان وقيادة الاحتلال الالماني. واللاعبون في حركة دائبة على الرصيف من باب الفندق حتى اقترب مفترق طرق. وهم يشترون ويبيعون مستعينين

بالنظرات المفترسة، وحركة الأصابع، .وبعض الكلمات. ولا يملك أحد منهم عملة صعبة، فهي مخفية وكمّيتها في المدينة غير معروفة بشكل عام. وهم يلعبون على فرق السعر، وتسوى الحسابات بالعملة الهيتمانية. وفي دقيقة واحدة تتكوَّن ثروات، وفي دقيقة أخرى يصبح الغني مفلساً. ويذهب المحظوظ مع بطانته إلى المقهى حيث يأكلون الكعك مع قهوة بذور البلوط، أما الخائب فيتسكّع على الرصيف يائسا، وريح تشرين الثاني التي تكنُس قصاصات الورق والأوراق الساقطة تعصف بأذيال معطفه الطويل المتربة.

إن نزلاء هذا الفندق المزدحمين على الأرصفة وفي حوانيت التبغ والمقاهي والمطاعم، والمتاجرين فيما بينهم حيث يغشّ أحدهم الآخر كانوا جزءاً من القطيع الصاخب الجشع الذي كان يجأر ويثغو في المدن المنتزعة من الثورة، حيث يجد الحرّية في أن يزدرد ويشرب ويتسافد ويغشّ ويدخل في مضاربات... وكان ينبغي أن يحمي هذا القطيع بالحراب والمدافع، وتنزع له مدن جديدة، وتقام له روسيا عظيمة موحدة غير قابلة للتقسيم مطهَّرة من الآفة البلشفية.

ردّد فاديم بتروفيتش بصوت مسموع مرة أخرى: "وضاعة وضاعة وكذب... حسناً وماذا لو هربت من الجيش؟"

وأخذ يفكّر في ذلك مرخيا لأوّل مرة الأعنَّة الخلقية، كاشفاً في نفسه باستمتاع حاد مكامن الدناءة والخسَّة... بل وضحك وأسنانه مصكوكة... لقد كانت أفكاره كابداع فجائي، كالأثم الأوّل...

"من أجل أي قدّيسات، يا صاحبي، جريت في دروب

الحياة ممسكا عنان نفسك؟ واعتبرت نفسك رجلا لائقاً، عضو في مجتمع لائق، بل وغادرت الفوج إلى الجامعة لتوسّع أفقك الفكري... في صباك كأنّ يخيل إليك أنّك سبيّه باندريه بولكونسكي[٣]. واعطاك الدافع الخلقي الرضا، وكان ذلك كافياً تماماً: فقد شعرت بأنّك طاهر. كنت تدير وجهك باشمئزاز عن كلّ ما هو مشكوك فيه وغير نظيف كما تديره من حفرة قاذورات. وكانت لك ثلاث علاقات فقط مع نساء متزوّجات، قطعتها عندما كانت هذه العلاقات في ذروة الصفاء، حين أخلى الفضول المضطرب مكانه للقبل الرطبة المعتادة... وهذه الحصيلة العامة: إلى أين قادتك الحياة اللائقة ورأسك المرفوع بعزّة؟ إلى رفات نار! إلى هيكل محترق لإنسان!"

ولما وصل فاديم بتروفيتش إلى هذه النتيجة بدأ بتقليب منهجي لإمكانيات الهروب من الجيش. الفرار إلى خارج البلاد؟ إنّ الحرب تجتاح العالم بأسره. وفي كلّ مكان يبحث المخبرون عن الأجانب المشتبه بهم، ويسوقونهم إلى السجون ويشنقونهم هناك.. وفي جميع أنحاء العالم تحمل البواخر الشبان المتحمّسين...

وهؤلاء يزعقون "عن قريب سنقضي على الألمان الخنازير، ونعود إلى فتياتنا المرحات"... وفي المحيط يصيبهم طوربيد" ويتخبّط الشبان المرحون في الماء المثلّج حول رقعة من الزيت... في أوروبا طوابير الشبان في ألبسة الكاكى المخاطة كما تخاط الأكفان على الأموات يندفعون مطيعين بصفوف متراصّة وفي يأس قانط للقاء الرشاشات وقاذفات القنابل ومدافع الهاون وقاذفات

---

(٣) أمير دولة كيف عرف بشجاعته الفائقة. الناشر

النار. النار من أمامهم والنار من خلفهم. فالسفر إلى الخارج يسقط من الحساب... من الممكن التسلل إلى أوديسا، والحصول على جواز مزوّر، والعمل نادلاً في مطعم كباب... ولكنّ أحداً من الناس سيكتشفه ويقول مندهشا: "أي، أي، أي. روتشين، أهذا أنت يا صاحبي؟" أم لعله يضارب بمقادير صغيرة، أو حتى يسرق؟ إنّ ذلك يحتاج إلى رصيد كبير من الحيوية. أم يعيش على مصاحبة ما حتى النصر النهائي: الاشتراكيون قد شنقوا جميعا، والفلاحون يجلدون، والانجليز قد صفحوا عنا، ونبدأ بشعور من التقصير في جمع جيش وراء الفولغا لسحق الالمان. ثم نوزّع السلاح، وفي يوم من الأيام ينقلب الجنود على الأسياد الضباط، أبطال "الحملة الجليدية". وتبدأ الحكاية من جديد. وكاتيا المسكينة التي لم أجدها حتى الآن ستنادي لآخر مرّة في مكان ما في محطة قطار محطّمة النوافذ، وسط النائمين والهاذين والموتى: "فاديم، يا فاديم"... ثم أنّ هناك إمكانية أخرى: أنْ اشنق نفسي... في الحال... أذلك شيء رهيب؟ أبدا... ولكن من المقرف أن أقوم بهذا الجهد على نفسي"..

كانت يداه باردتين كالثلج، وقد أحسّ ببرودتهما بقفاه. ولم يستطع أن يستقرّ على قرار. وكان أشخاصا صغارا يدبّون في نفسه كالذباب ويتناهبون إرادته وروحه... وحين يأخذ الظلام بالهبوط سينهض ويلبس بنطلونه، ويذهب ماشيا إلى محطة القطار، ولربما يشتري سجائر احتياطا للطريق.. وسيمضي في العيش، فإنَّ سيفاً لن يمسّ مثل هذا الرجل، ولن تصيبه رصاصة، ولن تلسعه قملة تيفوس...

كان صوتان رجوليان غاضبان يجادلان بعجالة منذ وقت بعيد

وراء الجدار، فيترددان إليه من خلال باب وضعت أمامه خزانة، وكان صاحب أحدهما يبدأ كلامه دائما بعبارة "إسمع، يا سيد بابريكاكي، لو كنت الرب"... ولكن الآخر لم يدعه يكمل فكان يقول: "إسمع يا غابل أنت، لست ربّاً بل حماراً! يجب أن يكون المرء مخبولا ليشتري أسهم "كروب شتالفيركه" قبل نصف ساعة من ظهور الجريدة".. "إسمع، أنا لست ربا!.. "إسمع يا غابل، لو جمعت كلّ ما عندك لما استطعت تغطية خسائري. أنت جيفة..."

كانت هذه العبارات تقتحم أذنَيْ فاديم بتروفيتش بالقوة، فكّر مع نفسه "اللعنة، ليتني أرمي الباب بالرصاص"... ثم بدأ جري وأصوات منفعلة وراء الباب الآخر المؤدّي إلى ممرّ الفندق: "يجب استدعاء طبيب"... "ما الحاجة إلى طبيب، إنّه بارد"... "ما هذا وكيف حصل؟" "حصل كما حصل، هذا لا يعنيك"...

خفتت الأصوات، وتردّد رنين مهمازين.

ـ اعذرني، يا حضرة رئيس الشرطة، أرجوك. هل صحيح أنّه إبن أخ إمبراطور النمسا؟

ـ صحيح، كلّ شيء صحيح. هيا يا سادة، افرغوا الممرّ. وبعد ذلك تحدّث شخصان بصوت خفيض عند الباب تماماً:

ـ ليس هذا انتحارا على الاطلاق. مرافقة أطلق عليه النار. إنّه بلشفي.

ـ كيف يمكن أن يكون ضابطا نمساويا وبلشفيا؟

ـ لا يهم. إنهم في كلّ مكان. ليست فحسب فينا، بل برلين نفسها في أيديهم منذ الأمس...

يا إلهي، يا إلهي. أنا لا استطيع أن أستوعب ذلك.

ـ نعم يجب الفرار...

ـ إلى أين؟

ـ الشيطان يعلم. ربّما إلى جزيرة ما...

ـ صحيح... بالأمس سمعت أنّ في أندونيسيا الهولنديّة جزرا تنبت فيها أشجار الخبز. ولا حاجة هناك إلى ملابس. ولكن كيف الوصول إلى هناك؟

وبعد ذلك دخل صبي الغرفة بسرعة دون أن يطرق الباب. إنّه منظف الأحذية في الفندق ذو الأنف الأفطس، والفم الباسم من الأذن إلى الأذن...

ـ طبعة استثنائية، الثورة في المانيا... يا مسافر، إدفع ثلاثة روبلات...

وألقى الجريدة على صدر روتشين دون أن يلحظ عيني هذا المسافر المفتوحتين المفزعتين، ولا وجهه الشاحب كوجه الأموات.

ـ سآخذ الفلوس من إفريز الشباك. إقرأ الجريدة، يا مسافر.

وخرج من الغرفة وثبا. أخذ قلب فاديم بتروفيتش يدقّ بعنف، إلا أن ورقة الجريدة الصغيرة المطبوعة بصورة غير واضحة ظلّت مطوية على صدره وقتاً طويلاً... ثورة في ألمانيا!.. الجنود على سطوح العربات، المحطات المحطّمة، الجماهير المنشدة بأصوات وحشية، الخطباء الهاتفون من على قواعد النصب التذكارية قارعين الهواء بقبضاتهم: الحرية، الحريّة! وكأن الحريّة تعوّض عن خبزهم، عن الوطن. عن الشعور بالواجب والهدوء الموزون للدولة التي تكوّنت عبر قرون! الثورة ـ المدن المملوءة بالقاذورات، الفتيات الشعثاوات في البولفارات...

والشوق، شوق الإنسان الذي ينظر من النافذة إلى السطوح الناحلة للمدينة، حيث لم تعد سرّاً... وحتى الشمس ارتفعت إلى علو شاهق لا يطال... شوق الإنسان الساعي بجهود جهيدة إلى أن يحمل نفسه عبر الحياة وأن يحمي استقلاله وعزته وشجاه.

وفطن فاديم بتروفيتش أخيرا إلى أنه يتكلّم بصوت مسموع. لقد كان ذلك يشبه هذيانا والعينان مفتوحتان. نشر صفحة الجريدة. كان نبأ اندلاع الثورة في المانيا مطبوعا على عرض الصفحة كلها بحروف كبيرة. لقد بدأت أثناء المفاوضات على الهدنة في غابة كومبيان، حين جاء المفاوضون الالمان إلى قطار الجنرال فيغان الواقف على خطّ مسدود مخصّص للمدافع.

وقد سألوا: ما هي اقتراحات الفرنسيّين؟ ولم يدعهم الجنرال إلى الجلوس، ولم يمدّ لهم يده، وأجاب بشراسة باردة: "ليست لديّ أية اقتراحات. يجب حمل ألمانيا على الركوع".

وفي ذلك اليوم أطيح بالحكام الذين جلبوا العار لألمانيا. وتشكّل في برلين سوفييت نواب العمال والجنود. وغادر الإمبراطور غليوم مقر القيادة سِرّاً، وهرب إلى هولنده، وعلى الحدود قدّم سيفه إلى ضابط الجيش الهولندي.

بعد بضع دقائق كان فاديم بتروفيتش مرتديا معطفه المشدود بحزام شدّاً محكما، وقبّعته، وأعاد قراءة الجريدة مرّة أخرى واقفا عند النافذة. ثم دسّ في جيبه أوراق النقد المجعّدة، وخرج إلى الشارع.

رأى رجلا ركينا يسير أمام الفندق وكأنه قد خرج لتوّه من بدلة الغوص من عمق سحيق. كان وجهه الأحمر منتفخا، وعيناه بارزتين من محجريهما. وكان يكرّر وهو يحرّك شفتيه الغليظتين

المسفوعتين: "أبيع سندات غروب شتالفيركه، أبيع، أبيع"... وكان يقلّب عينيه على السابلة بأمل مجنون في أن يجد من هو أكثر حماقة منه...

أخذ الجنود النمساويون يدفعونه ويضغطونه نحو الحائط. وكانوا قد جاءوا جماعات لا نظاميّة، وقد القوا بنادقهم وراء ظهورهم وسبطاناتها إلى ألأسفل... وكان ذلك أحد مظاهر الثورة: الامتناع عن قتل الانسان منذ يومها الأوّل... وعلى الرصيف إلى جنب هذا الجمع سار ضابط نحيل ذو شاربين حريريّين فتيّين، ووجهه الرقيق الذي توتّرت قسماته يشمخ بترفّع، وعلى كتفه الأيسر شريط أحمر. إن هذا الفتى الذي أرسل إلى الفوج في زمن الحرب لم تتح له الفرصة، على ما يبدو، لأن يظهر في بزّته العسكرية الجديدة ساحباً قراب سيفه المعدني على أرصفة فيّنا المرحة بنسائها اللعوبات الفاتنات. وقد كتب له وهو في ريعان الصبا وبشاشته أن ينتخب عضواً في لجنة الجنود، وها هو يقود سريته إلى محطة القطار للجلاء، تحت نار النظرات الشامتة الهازئة المتقاطرة عليه من الجانبين... بينما تجتاح فينا الفوضى والمجاعة، ويقيم العمال المتاريس.

تابع روتشين ببصره طويلا هؤلاء الأوروبيّين المتشامخين. وقد خامره أيضاً شعور الشماتة وقال محدِّثاً نفسه: "لِمَ تمكثون طويلاً في أوكرانيا، تأكلون الوز وشحم الخنزير... يبدو أنّ اتفاقية بريست انقلبت عليهم في منقلب وعر".. إلا أنه عبس في الحال: "ولكن ما شأنك بذلك؟ أنهم يخلدون إلى الدعة في موسكو، أما أنت فأذهب إلى خندق عفن، مع أصحابك المعادين للثورة"... وازداد عبوسه لأنه نطق بهذا التعبير الأخير لأوّل مرّة وبهدوء

وسخرية... ففي هذا التعبير بالذات كان يكمن سبب تمزّقه الروحي. لقد كانت كاتيا أبعد بصراً منه حين قالت عند تشاجرهما العنيف في روستوف "لو كنت مؤمناً من كلّ قلبك بعدالة قضيتك فاذهب وقاتل".. ولكن كلمة المعادي للثورة تعني الوغد السافل وفق كلّ المفاهيم التقليديّة للمثقّف النزيه الذي يحترم نفسه... فحاول أن تعيش مع ذلك...

حشر يديه في جيبي معطفه وسار مصعُدا في بولفار يكاترينيسكي العريض. وكانت مشيته أيضاً مشية وغد سافل، مشية شاحطة متثاقلة. مرّ بصالون حلاقة فوجد نفسه ينظر دون إرادته إلى هيئته في مرآة ضيّقة معلّقة إلى جانب الباب. وأطلت ابتسامة خبيثة معوجّة على وجهه الشاحب شحوب الموتى. دخل، وجلس على مقعد الحلاقة دون أن يخلع معطفه، وطلب أن يحلق ذقنه. وهنا، في هذا الصالون أيضاً، كان كلّ شيء يدفعه إلى الغثيان: المكان الواطئ الدافئ الذي لصقت عليه بإهمال أوراق جدران رخيصة، والحلاق نفسه قد وضع المشط في شعره المملوء بالقشرة، ويداه القذرتان الرقيقتان الفواحتان برائحة حلوة كريهة.

تحدّث الحلاق وهو يطرق زبد الصابونة متباطئا في بدء دعك ذقن فاديم بتروفيتش

ـ وكأنّ الحياة كانت بلا متاعب لتغرق في متاعب أخرى... حاربوا أربع سنوات، والآن عندهم ثورة... فيم كانوا يفكّرون؟ لماذا لم يسألوني؟ وفتح الموسى، وأخذ يشحذها بعنف هناك سياسة كبرى، وهناك شغلنا الصغير الهادئ، فأرجو لك أن تعرف الفرق بينهما وأخذ يفرك خدّي فاديم بتروفيتش بالزبد الحار أنت اليوم أول زبون لي. إن الناس يفقدون عقولهم. فإذا كان

الإمبراطور غليوم قد فرّ إلى هولنده فإنّ أحداً في بلدتنا لا يريد أن يحلق ذقنه! دعني أقول لك السبب. إنهم جميعاً يخافون البلاشفة، ويخافون فصائل ماخنو، فهم يريدون أن يرسلوا ذقونهم، ليشبهوا البروليتاريّين وسحب الموسى على ذقن زبونه بشحيط اعذرني ربّما لا تحبّ أن يمسك الحلاق بأرنبة أنفك؟ هناك من الزبائن مَنْ يطلب ذلك. لقد تدرَّبت في كورسك، وكان أستاذنا يعمل حسب الموضة القديمة، فكان يدخل أصبعه في فم الزبون، أما بالنسبة للأعيان فكان يستخدم الخيارة. فكان يتقاضى على الحلاقة بالإصبع عشرة وبالخيارة اثنى عشر. وكان ذلك ثمنا طيبا. سأحلق لك مرّة أخرى، عندنا متسع من الوقت. قبل أن تأتي بلحظات مرّ علي رجل مجنون. هل تعرف بابريكاكي؟ إنه مالينا الكبير. عند اضطراب أعصابه من المستحيل أن تحلق له، فإنّ على خدَّيه بثورا، وحتى لمسها بالفرشاة يسبِّب ألما فظيعا له. واليوم، والحمد لله، قد انتشرت في جسمه كلّه. أراد أن يدخل السلوان إلى قلبي بقوله: إنّ الألمان مزمعون على الخروج من أوكرانيا، وأنّ البلاشفة بدأوا الهجوم بالقرب من بيلغورد، بينما أعلنت حكومة أوكرانية جديدة في بيليا تسيركف: حكومة مديرين. في الماضي كان عندنا "مجلس رادا" وكانت سوفييتات، وهيتمان. ولكن لم تكن لدينا بعد حكومة مديرين. وعلى رأسه بيتلورا وفينيتشينكو. وكلاهما من زبائني في كييف العام ١٩١٦. وبيتلورا كان يشتغل محاسباً في اتحاد الزيمستفو. وفينيتشينكو كاتب وقد شاهدنا مسرحياته. ليس فيها شيء مميّز... تصوّر أنّ امرأة تخدع رساماً، فيتكلّم معها كلمات ضخمة. وفي تلك اللحظة يأتي إليها عشيقها، فتستقبله في غرفة مجاورة. وتصوَّر أن

الرسام لا يقدر أن يدخل عليهما الحجرة، كما أنّه لا يريد أن يطرد هذه الساقطة، فيعمد إلى عضّ يده ليقطع وترها، ويصير مشوَّها نكاية بهذه المرأة. كنت أحلق لفينيتشينكو وكان وجهه رخواً مثقباً... يقول بابريكاكي أن حكومة المديرين أصدرت نداء تدعو فيه الفلاحين إلى الإطاحة بالهيتمان سكوروبادسكي... وكأنّ الهيتمان هذا بلا متاعب! وحلق الحلاّق وجه فاديم بتروفيتش للمرّة الثانية، وقلّص عينيه ناظراً نظرة غير راضية إلى شعره الأشيب غير المشذَّب، وقال: اسمح لي بأن احلق لك شعرك على طريقة à la boxe ثم لعلّك ترغب في صبغة شعر؟ بقي عندي شيء من صبغة شعر أجنبيّة من لون أسود. فما حاجة الإنسان إلى هذه الليفة الشيباء؟ (فقال روتشين من خلال أسنانه: "احلقه كله"). سَمْعاً ـ وطقطق الحلاق بمقصّه بالقرب من أذنه، وكأنّه يسترسل في منطلق جديد ـ أتعرف حضرة الضابط ما هو أحد أحلامي؟ أنْ أجد في الدنيا بلدة صغيرة هادئة، ولو كانت نائية تنيرها مصابيح الكيروسين... وهل تراني بحاجة إلى زبائن كثيرين؟ عشرة زبائن. وعندما أفرغ من العمل أشعل غليوني وأجلس عند الباب. هدوء وسكينة وعجائز مسالمون يمرّون بك فتنهض وتنحني لهم بالتحية فيردون عليك بمثلها. لا أحد يفكّر بالناس الصغار، يا حضرة الضابط، فقد شطبوا من الحساب. نحن لا نحسب في الوجود، حتى تنمو لك هذه الليفة. أنظر بأية هيئة جئت. وماذا صنعت منك: صورة بهيّة!

نظر روتشين إلى نفسه في المرآة. كانت جمجمته اللامعة حسنة الشكل رحيبة للأفكار النبيلة السامية، والوجه ضيّقاً بانحدار لطيف من عَظْمَي الوجنتين البارزين بالكاد إلى الذقن غير المفرط في بروزه، وغير المستكين أيضاً. كان حاجباه الداكنان معقودين

على قصبة الأنف فتباعدا نحو الصدغين بنزوة ملطَّفين من صرامة العينين الذكيتين الصغيرتين اللتين تبدوان داكنتين من حدقتيهما المتسعتين. لا شيء في هذا الوجه يخجل صاحبه منه. إلا أنّ الفم، على ما يبدو قد أفسد الأمر كلّه. في الإمكان أن تكذب العينان، فإنهما كاذبتان كاتمتان، إلا أنّ الفم لا يتقبّل التمويه. أنظر إليه دائم الحركة، بلا شكل، كاليرقانة... الشيطان يعرف ما هذا! لست فاوست، يا فاديم بتروفيتش... نهض، وألقى على رأسه قبّعته الميدانية القذرة المثقوبة برصاصة مائلة قليلا إلى جانب، ودفع أجرة سخية وخرج... مازال لم يستقر على قرار... إلا أنّه لم يعد يشعر بارتخاء في رجليه، ولم يعد يعثر بطرفي حذائه على بلاط الشارع. تلك حصيلة الذهاب إلى صالون حلاقة! إن قطرة صغيرة من الحبّ قد تسرَّبت في يأس نفسه الكدر.

أضيئت الأضواء في النوافذ. وكانت الريح تعصف في أشجار الحور الجرداء الضائعة ذراها في الظلام. وشع مصباح نيّر بوقاحة فوق باب مطلى لمطعم كابريه "بي با بو" بين جذوع الأشجار في الجانب الآخر من الشارع. وكان هذا المقصف مشهوراً بالشواء على الطريقة الجورجية. وأحسّ فاديم بتروفيتش بعصرة في معدته، وهو يفكّر في الطعام، فأنّه لم يتناول طعاماً منذ يوم أمس. كان ذلك إحساساً بالجوع قوياً قاهراً استولى عليه وأزاح من طريقه جميع التعقيدات السايكولوجية. استدار روتشين نحو الباب المضاء بعزم. طلعت مخلوقة في تنورة بيضاء من وراء شجرة، وحاولت أن تسدّ عليه طريقه، وتابعته بهسيس متوسِّل:
"يا عزيزي الضابط، دعني أوفِّر لك متعة..."

كان مكانا واطئ السقف طويلا زيَّنه منذ وقت ليس بالبعيد جداً الرسام اليساري المشهور فاليت الهارب من بتروغراد. وكان سقف "بي با بو" أسود مرصّعاً بنجوم كبيرة من الورق الفضي. وعلى الجدران السوداء طيوف آجُريّة اللون وصفراء وبرتقالية منشورة الأطراف تبدو وكأنّ عاصفة قد اكتسحتها هي تخاطيط مستطيلة لرجال ونساء. وكانت هذه الصورة الجدارية جدِّية جداً بالنسبة للكابريه. فقد كان الرعب، لا الحساسيّة، هو الذي يسوق هذا القطيع العاري فوق الجدران. وقد قال الرأسمالي الذي موّل هذا المشروع وهو بابريكاكي نفسه قال ذات مرة "إقطعوا أطرافي عن جسدي لو كنت أفهم هذا التصبيغ، فهو يقرفني، بينما يجد إعجاباً من الجمهور..."

تناول روتشين غداءه، وشرب نبيذا. وكان القطار يغادر في الساعة الرابعة، فعزم أن يمكث في المطعم حتى الثالثة، وسيرى كيف تسير الأمور... كان يشعر بالدفء، وبشيء من الطنين في رأسه.

وكان النادل وهو تتري من مطعم "يار" الراحل في موسكو، وصاحب قديم غالباً ما يقبل عليه ويرفع الزجاجات من جردل الثلج، ويقول وهو ينحني ليصبّ الشراب:

ـ أعذرني، يا فاديم بتروفيتش فأنا أجئ إليك باستمرار... هل تذكر موسكو... آه، أنت ترى كيف نعيش هنا... إنّ هؤلاء الأوباش يتراءون لي حتى في النوم...

كان المطعم غاصاً بالناس، رغم جو القلق في المدينة، حيث كانت طلقات منفردة تتردّد في الأطراف وفي ظلام الشوارع الخلفيّة، فيحاول الخيّالة الهيتمانيّون من الحرس أن يصموا أذانهم

عنها، أثناء مرورهم مصعّدين إلى قصر الحاكم، ورغم الذعر في السوق السوداء اليوم. لم يكن برنامج الترفيه قد بدا بعد. وقد جلس إلى البيانو على المسح الصغير شاب طويل ذو رقبة ممدودة بسمك الساعد، وشعر زنجي منتصب، مائل إلى قفاه. وكان يعزف لحناً من أوبريت.

كان يحيط بمائدة روتشين جو من الضجيج والسكر. كان بعض أصحاب العقارات مِمّن ضاقوا من السأم في حجرات فندقهم بين بناتهم الخائبات ينفسون عن همومهم وراء أباريق الخمرة.

صرخ رجل له خدّان ناعمان:

ـ أؤكّد لكم أنّ نهاية الألمان قد حانت الآن! وفي عشية العام الجديد سيكون فيلق الحملة الإنجليزي في موسكو. وسنشرب الويسكي الاسكوتلندي. لا يخلو شرّ من نفع! وقَهْقَه الرجل الطيّب فاغرا فمه مظهرا أسنانا جيّدة إذن فالنصر للثورة الألمانية!

ورفع شخص آخر يده طالبا الأنتباه، وكان شديد الهزال ذا عينين تلمعان بسخرية من داخل محجريهما الرماديّين:

ـ اللورد مستشار الخزانة يجلس في مجلس اللوردات على نضد من الصوف، كما هو معروف... إلا أنّ نبلاء سيمبيرسك كانوا يفخرون بالعمود المرمري في فناء جمعيتهم للتأكيد على أنّ ما من شيء مزعج يستطيع أن ينال من السادة أعمدة النبالة حتى آخر الدهر... ولهذا كانوا يهمّون مرتاحين تحت ظلّة الارقطيون... لقد انتهى تاريخ النبلاء الروس... وليس لنا ما يكفينا من نضد الصوف... تماماً كما انتهى تاريخ أمّنا روسيا، أيها السادة... قرأت آخر صفحة

من قصة مدينة غلوبوف[٤] ، وقذف الكتاب في زاوية. ولم يحدث هذا خلال الزوبعة والعاصفة، كما قال أحد الأذكياء الكبار، وفي يوم اثنين اعتيادي. بصق الرب وأطفأ القنديل... لقد بعت أرضي الصغيرة في العام ١٩١٤، ومنذ ذلك الحين وأنا مواطن عالمي... ذلك أضمن شيء...

ـ ذلك جيّد بالنسبة لك، يا سيّد، فقد أنهيت جامعة أكسفورد. أما أنا فأين أولي ببناتي الثلاث؟ أين؟

تساءل الرجل الطيّب المورّد الخدّين، ونخر، ومدّ يده إلى أبريق الخمرة وأضاف قائلاً:

ـ أما بشأن نهاية روسيا، فأنا لا أوافق أيضاً. ذلك من أثر تعليمات الإنجليزي... أستطيع أنا أن أعمل مساعد مأمور، أو رقيب عمّال، وأستطيع أن أحرث بنفسي ثلاثة فدادين، ولكن سأؤمن بروسيا.

وصبّ شيئاً من الخمرة، والتفت في الحال بثقله إلى الرجل الثالث الجالس إلى المائدة، وسأل:

ـ أين أذهب بهن؟ نشأن فارعات مسطّحات منمشات سريعات التأثير كأنهن من السيّدات بطلات قصص تورجينف، وذلك كلّفه في زماننا! وأمّهنّ مسؤولة عن كلّ ذلك، ولكن الذنب يقع عليّ أيضاً، وأنا اعترف بذلك نادماً. كانت الكبرى تريد الإلتحاق بدورات النساء العليا، ولكنّنا أقنعناها بالعدول،

---

(٤) المقصود من قصة مدينة غلوبوف "تاريخ مدينة" (١٨٦٩ ـ ٧٠) للكاتب الهجائي الروسي المشهور م. ى . سالتيكوف شدرين (١٨٢٦ - ١٨٨٩). ومدينة غلوبوف تعني بطلان سلطة القيصر. وكلّ سلطة استبدادية بوجه عام . الناشر.

وهي فضلاً عن ذلك كسول... وانجذبت الصغرى إلى المسارح، وكان من الممكن أن تكون ممثّلة من الدرجة الأولى، وأؤكّد لك ذلك... وصرفناها عن ذلك بجهد كبير، بل واستخدمنا التهديد... وباختصار كنت الأب المستبدّ، وذلك في زماننا هذا! وكلّ ذلك بسبب قلّة التروي... والإنجليزي ينظر ثلاثة أعوام إلى الأمام وهو جالس على نضده الصوفي، إنّ هذا صحيح... أما نحن فكنّا نفكّر من فصل إلى فصل، كما يقولون وشرب من قدحه محرّكاً خدّيه، وأضاف بشكل مفاجئ ولكن بشكل عام لن نضيع...

وكان ثالث الجالسين شديد السكر بحيث لم يكن يستطيع إلا أن يصرف بأسنانه، ويأكل الزهور زهور الأسطر الصغيرة يقتطعها من مزهرية على المائدة. ولم يكن يصغي إلى شيء، مثبتا عينيه الكدرتين في المائدة المجاورة حيث جلست عليها فتاة على قدر كبير من الجمال لها عقصة كبيرة بريئة من شعر شاحب الشقرة، وشاب ضخم في لباس شبه عسكري. كان يبكي بصمت واضعاً ذقنه على راحة يده، لا يعير التفاتاً إلى أحد، وكأنّ كلّ الموجودين هنا ضيوف حقاً. غضنت الفتاة وجهها المستدير الأزرق العينين في ضيق، ومسّدت على يده، وأمسكتها، وراحت تقبّلها. وأحنت رأسها على مقربة من الشاب، وهمست له بعجالة وهلع. هز الشاب وجهه الضخم هزّاً بطيئاً، وسمع روتشين صوته الكامد الهامد الشبيه بصوت دمدمة النيام:

ـ أتركيني، زينا، أتركيني.. لم أعد أريد شيئاً، لا إياك ولا إياي..

وكان في إمكانه أن لا يقول شيئاً آخر، فقد كان مفهوما بدون ذلك بِمَ ستنتهي الليلة بالنسبة لهذا الشاب... كانت الفتاة

تشبه كاتيا بشيء ما، لا بوجهها، بل بعذوبة حركتها الهادئة... ستنهي حياتها أيضاً في مكان ما بين مرضى التيفوس في محطّة قطار على مفترق طرق... جاء فتيان، وجلسا على عجل إلى مائدة شاغرة، وحجباهما. كان لكليهما خصلة شعر مشذّبة نازلة حتى حاجبيه، وأسنان مسوّسة، وخواتم من الألماس في أصابعه القذرة. قال أحدهما للآخر مباهيا "ضربت ماشكا بقضيب حديدي ضرباً موجعاً، ودست عليها حتى قرقعت عظامها، الساقطة..."

ـ هل تسمح لي بالجلوس إلى مائدتك، أيها الضابط؟

هز روتشين رأسه دون أن ينطق بكلمة. فجلس إلى مائدته رجل في نظارة من النيكل دافعاً قدمين ضخمتين تحت المائدة. كان يرتدي بزّة عسكرية خضراء رمادية ضيّقة عند الصدر لضابط ألماني من فصائل "لاندشتورم" المتطوّعة. قال للنادل وهو ينطق الكلمات الروسيّة بعسر:

ـ أرجوك أن تطعمني. منذ وقت طويل وأنا لم آكل ثم بيرة، بيرة!

ونفخ خدّيه النحيلين مظهراً كيف سيشرب البيرة، وضحك ثم نظر بشيء من الدهشة إلى روتشين العبوس مصوّباً إليه عينين هادئتين زرقاوين كعيني غراب الزرع:

ـ هل يتكلّم حضرة الضابط الالمانية؟

ـ نعم

ـ إذا كنت أضايقك أبحث عن مائدة أخرى بكلّ سرور.

ـ أنت لا تضايقني.

وكان جواب روتشين في هذه المرة أكثر لطفاً. كان للضابط الألماني وجه من تلك الوجوه الألمانيّة التي تمتاز بالضيق وصغر

الفم مع انبعاج خفيف فيه، وتظلّ تحتفظ بسمة الطفولة والتورّد الرقيق حتى الشيخوخة. كان أنفه مرفوعاً، وكأنّه بدافع من التطلّع الحسن النية إلى كلّ إنسان. قال:

ـ من قبل كانوا لا يسمحون لنا، نحن الجنود، بارتياد المطاعم ومنذ يوم أمس أصبح الانضباط الألماني أكثر معقوليّة.

ابتسم روتشين ابتسامة معوَّجة، فأسرع الضابط الألماني بتحديد فكرته على وجه الدقَّة رافعا كالأستاذ أصبعا قويّة الاظفر:

ـ الإنضباط لابدّ أن يكون معقولا وإذ ذاك يكون على شاكلة النظام الاجتماعي، وشرطا ضرورياً للتطوّر. ومثل هذا الانضباط المعقول يولد من الحركات الاجتماعيّة العميقة. ولكن إذا لم يكن كذلك، وكان من وسائل الإكراه فأننا لن نسمّيه انضباطا.

وهزّ رأسه مرحا، منهيا فكرته الغامضة قليلا هذه.

سأل روتشين:

ـ اتجلون إلى ألمانيا؟

ـ نعم. إن وحدتنا انتخبت لجنة فأصدرت هذه اللجنة قراراً مبدئياً تماما من حسن الحظ رغم أنّه لم يتَّخذ دون مقاومة.

ـ أنت تعرف ما تعني العبارة الروسية: لا أحد يمسكك من رجليك.

ـ معرفتي بالروسية ليست قليلة. أعرف أنّهم حين يقولون لك ذلك فمعنى ذلك "إذهب إلى جهنم وبئس المصير"...

ـ وليكن ذلك... يبدو أنك ذكي فما حاجتنا إلى التظاهر؟ كنا أعداء. وافترقنا أعداء.

ـ اها، حسناً ـ وفكّر الألماني وهزّ رأسه وقال:

ـ من ناحيتي سيكون نكران ذلك من العبث بل وعدم اللياقة. وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة مرّة أخرى منهياً هذا الموضوع. أحضر له الطعام والبيرة. أبدى اعتذاره لأنّه سينقطع عن الحديث بعض الوقت. وأقبل على الشواء غير متعّجل، بل وماضغاً قطع اللحم والخبز والطماطم المشويّة بنوع من التبجيل.

ـ لذيذ.

قال ذلك شاعراً بأنّ روتشين لا يصرف عنه عينيه الداكنتين الحاقدتين. وأتى على كلّ ما في الصحن، ومسحه بقطعة صغيرة من الخبز، ووضعها في فمه. وشرب القدح الكبير من البيرة الباردة مسبلا جفنيه نصف إسبالة.

ـ الألمان يهتمّون بالطعام اهتماماً جدياً جدا. جاعوا كثيراً وسيجوعون طويلا حتى تحلّ مشكلة الطعام حلاً نهائياً.

وارتفعت أصبعه الطويلة إلى الأعلى مرّة أخرى.

ـ في فجر التاريخ، حين انتقلت البشرية من الجمع البدائي لهبات الطبيعة إلى التدخّل القسري في الطبيعة أصبح الطعام حصيلة العمليّة الطبيعية الخطيرة للحصول عليه. وصار الطعام عملاً مقدّساً. الأكل يعني امتلاك حياة أخرى، قوّة أخرى. ومن هنا تأتي فكرة إمكانية رقي الطعام، أي السحر... وطقوس الطعام السحرية هي في أساس كلّ العبادات الباطنيّة. إنّهم يأكلون جسد الله... وقد سجّلت حواراً طريفاً مع عالم روسي عن أصل قرص الفطائر. وأيام المرفع في عيد أكل الشمس. وقد طلسموها برقصات دائريّة، ثم أكلوا صورتها، وهي قرص الفطيرة. وهكذا ترى أن السلاف في معتقداتهم كانوا دائماً يطمحون إلى ذرى عالية جداً.

وضحك، وفكّ الزرّ المعدني لسترته العسكريّة، وأخرج دفتر ملاحظات سميكاً ذا كعب جلدي مهترئ، نفس ذلك الدفتر الذي أخرجه في عربة القطار قبل شهرين ليقرأ لكاتيا روتشينا فقرة من أميان مارتسلين. وضع الدفتر على المائدة، وقلّب بحذر أوراقه المملوءة بملاحظات ومقتطفات وعناوين مكتوبة بخطّ دقيق.

قال وقد وضع أصبعه على صفحة:

ـ أنظر.

إلا أنّ روتشين لم ينظر إلى تلك السطور الصغيرة، بل إلى ما خطّته يد كاتيا في الأعلى: "ياكاترينا دميترييفنا روتشينا، يكاترينوسلاف، شبّاك البريد".

فسأله بصوت أجشّ:

ـ مِن أين لك هذا؟

وتدفّق الدم إلى وجهه. فرفع يده إلى ياقة قميصه العسكري. وخيّل للألماني أنّ الضابط الروسي سيخرج مسدسه باليد الأخرى حالا، على عادة سني الحرب... إلا أنّ عيني الضابط المخفيتين لم تعبّرا إلا عن المعاناة والتوسّل... قال له الألماني بأكثر ما يكون من اللطف:

ـ يبدو أنّك تعرف هذه المرأة معرفة جيدة جداً. أستطيع أن أحدّثك شيئاً عنها.

ـ معروفة لي..

ـ أوه تلك قصّة من القصص المحزنة.

ـ ولماذا محزنة؟ هل قتلت هذه السيدة؟

ـ لا استطيع أن أقول ذلك عن ثقة. وأودّ أن آمل بمصير أفضل... خلال سني الحرب أدركت أنّ الإنسان هو مخلوق يملك

قوة بقاء خارقة، رغم أن من السهل جرحه، وأنه سريع التأثر بكلّ ألم... وهذا يحدث...

ورفع أصبعه من جديد إلا أن روتشين قال وقد تلوّى وجهه:

ـ قلْ لي أين رأيتها، وماذا حصل لها؟

ـ تعارفنا في عربة قطار... وكانت كاترينا دميترييفنا قد فقدت لتوّها زوجها الذي تحبّه بحرارة...

ـ كان ذلك افتراء مقصوداً!.. فأنا حيّ كما ترى...

ألقى الضابط الألماني ظهره على كرسيه، وتكوّر فمه الصغير، وصارت عيناه الشبيهتان بعيني غراب الزرع مستديرتين، وضرب كفّيه على المائدة:

ـ أنا أدخل هذا المطعم لأوّل مرة، وأجلس إلى هذه المائدة، وأُخرج دفتراً... وإذ بالأموات يستيقظون! أنت زوج تلك السيدة؟ لقد حدثتني عنك، وكنت أنا أيضاً أتصوّرك آنذاك في الصورة التي أنت فيها... لا، يا رفيق روتشين، يجب ألا، ألا...

وتلعثم وأطبق شفتيه في عيني فاديم بتروفيتش المغرورقتين بالدمع. وظهرت قطرات العرق على أنفه المرفوع بحسن نيّة:

ـ نزلت من القطار قبل يكاترينوسلاف، فكتبت عقيلتك عنوانها لي. وقد أصررت أنا على ذلك، إذ لم أرد أن أفقدها كطائر عابر. وخلال الطريق استطعت أن أشعرها ببعض البشاشة. إنّها ذكية جداً. وعقلها الصافي والقليل التطوّر متعطّش للأفكار الطيبة الرفيعة. وقد قلت لها: "إنّ الحزن هو نصب ملايّين النساء في وقتنا هذا. ويجب أن يحوّل الحزن والشقاء إلى قوة اجتماعية... ليلهمك الحزن الصمود"، سألتني "وما حاجتي إلى

هذا الصمود؟ وهل تراني أريد أن أعيش أكثر؟" قلت لها: "نعم، أنت تريدين أن تعيشي. ليس هناك أهمّ من الرغبة في الحياة. وإذا كنا لا نرى من حولنا غير الموت والشقاء والحزن فأننا يجب أن نفهم بأنّنا نحن أنفسنا ملومون لأننا لم نزل حتى الآن سبب ذلك، ولم نحوّل الأرض إلى مسكن وادع سعيد للإنسان، تلك الظاهرة الرائعة. خلفنا صمت أبدي، وأمامنا صمت أبدي. وليس لنا سوى فترة قصيرة من الزمن علينا أن نعيشها لتملأ سعادة هذه اللحظة كلّ فراغ الصمت اللانهائي..." لقد قلت لها ذلك لأدخل السلوان إلى نفسها... وعلى هذا النحو نزلت من القطار، وانضممت إلى وحدتي. وفي الليل تلقّينا اخباراً تقول إنّ القطار الذي كانت زوجتك تقلّه قد أوقف من قبل شرذمة من الماخنويّين، ونُهب، واقتيد جميع المسافرين إلى جهة غير معلومة. هذا كلّ ما أعرفه، يا رفيق روتشين...

بدأ برنامج الترفيه على المسرح الصغير. دُفع البيانو والموسيقي ذو الشعر الناتئ إلى ما وراء الكواليس. وظهر دون ليماندو عريف الحفلات الموسكوفي الذائع الصيت، وهو رجل حسن المظهر لا يحزر عمره ذو عينين مصبوغتين يرتدي سترة "سموكين" وقبّعة قشّ قاسية أنزلها على حاجبيه.

ـ اهنئكم، أيها السادة، بالثورة الألمانية وصافح نفسه بنفسه بشدة كنت قبل برهة في محطة القطار. وقد قلت لضابط ألماني: "مرحبا، كيف الحال؟" فقال لي: "حسن جدا وأنت كيف حالك؟" قلت: "كذلك حسن جدا. ها هو شهير تشرين الثاني، وقبّعة القش باردة فيه، بينما تركت قبعتي الشتائية في موسكو، والآن لا أعرف متى سأحصل عليها". فيقول لي "اشتر لك قبعة

شتائية" قلت: "ادخرت ألف مارك للقبّعة. أما اليوم فقد أعطوني مقابلها خمس روبلات" فيقول متعجّباً: "آي، آي، آي". قلت له: "آي، آي، آي". وهكذا تحدّثنا عن هذا وذاك، بينما كان جنوده يصعدون على سطوح العربات. قلت له "هل أنتم راحلون؟" قال "راحلون". قلت "نهائياً". قال: "مع الأسف الشديد". قال "ما في اليد حيلة". قلت "بأيّ معنى: ما في اليد حيلة؟" قال "بمعنى الخلوّ من كلّ معنى". قلت "آي، آي، آي. بينما كنا نأمل أنّ ذلك لن يحصل عندكم". وهنا غنّى الجنود الجالسون على سطوح القطار أغنية "التفاحة" الروسية فانصرفت... وكان الظلام من حولي، والريح تصفر، وفي الشوارع الجانبية طلقات نارية. وكان عليّ أن أبدأ البرنامج. فقد تأخّرت عن موعدي، وقلبي يرتعش. فأخذت أغنّي.

ودقّ البيانو وراء الكواليس، فقفز العريف محرّكاً رجليه:

آه، يا تفاحة

الليل مظلم

فإلى أين أتوجّه؟

معقول أنْ أعرف...

وأدار روتشين ظهره إلى المسرح، ونظر في عيني هذا الألماني العجيب، وسأل:

ـ هل تستطيع أن تبلغني في أيّ منطقة يعمل ماخنو الآن؟

ـ تقول تقاريرنا الأخيرة أنّ ماخنو بدأ يضغط بشكل خطير على الوحدات النمساوية المتراجعة وعلى الوحدات الألمانيّة في بعض الأماكن. ومقرّ قيادة ماخنو عاد من جديد الآن إلى غولاي بوله...

١٠

في بداية تشرين الثاني كان فوج كوتشالين في الاحتياط للتعزيز والاستراحة. ولم يبق منه بعد انتهاء المعارك غير ما بين مائتين وثلاثمائة مقاتل. وكان بيتر نيقولايفيتش ميلشين الذي عهد إليه اللواء كمفاجأة له نفسه قد تحدّث في المجلس العسكري، وباقتراح منه عيّن تليغين آمرا لفوج كوتشالين، وكان تليغين يرقد في المستشفى، كما عين سابوجكوف له، وإيفان غورا مفوّضاً للفوج. وضُمّت بطارية تليغين إلى مدفعية الفوج.

كانت أياماً رطبة تفوح برائحة دخان المواقد ورائحة شعر الكلاب المبلّل. وكانت الرطوبة تقطر من السطوح المعتمة، والأرض تتحوّل إلى وحل، وكان المقاتلون، وهم يعودون من التدريب يجلبون بأحذيتهم كتلاً ضخمة من الوحل. وكانت معنويات الجميع عالية. وكان الموسم الرهيب في نهايته، فقد دفع جيش الدون بعيدا وراء شاطئ الدون الأيمن. وتردّدت الشائعات عن أنّ الهايتمان كراسنوف في نوفوتشير كاسك ضرب رأسه في الحائط يأسا بعد أن علم بهزيمته الماحقة الثانية قرب تساريتسين.

كان المقاتلون، بعد انتهاء يوم من التدريب العسكري والدراسة السياسيّة ومحو الأميّة، يتفرّقون عند هبوط الظلام في القرية منكمشين من البرد، بعضهم إلى معارفهم، والبعض الآخر

إلى "الصديقة الجديدة". أما الذين لم يكن لديهم معارف ولا أصدقاء فقد كانوا يقضون أوقاتهم في السير منشدين الأغاني، أو في إغواء الفتيات بالألاعيب الهازلة جالسين في مكان جاف. وما كان يبتدئ بالنكات والضحك غالباً ما ينتهي بالنقاشات الحادّة في بعض الأحيان لأن أعصاب الجميع كانت متوترة.

كان اثنان من بحارة بطارية تليغين العشرة قد جرحا جرحاً خطيراً وقتل ثلاثة. وبقي خمسة. ونزل البحارة في بيت قوزاقي جيد كان قد تركه صاحبه الهارب. وكانت أنيسيا تعيش معهم وقد سجلّت في الفوج إسمي كجندي غير محارب. وكانت تصطف أسوة بالمقاتلين الآخرين وتتمرّن على الرمي وتحضر التثقيف السياسي. وصارت ترتدي بزة نظيفة لجندي أحمر، سوى أنّها لم ترد أن تحلق شعرها المجعّد الجميل، وقد رأت الكثير من الفظائع والموت، وفي عهد تشرين الأول المضني خاضت في مصيبتها التي لا تعوَّض، كما يخوض الناس إلى أذقانهم في مخاضة نهر. ولم تظهر تجاعيد جديدة على وجهها الذي عاد إليه الشباب وتقسّى، وأترع خدّيها غذاء الجنود في المؤخّرة، وانتصبت قامتها، وصارت مشيتها خفيفة، وتجدَّدت بكلّيتها. وفي الليالي حين كان البحارة يشخرون بقوّة في المسكن المدفأ كانت هي تغسل ملابسهم خفية، وترفؤها وتصلحها، وفي بعض الأحيان كان عملها يمتد حتى يصدع بوق الاستيقاظ ممدوداً في الفجر الرمادي.

كما بقي في الفوج كوزما كوزميتش نيفيدوف في منصب غير رسمي وهو كاتب الفوج. وفي أصعب الأيام، اليوم السادس عشر والسابع عشر، أبدى شجاعة بل واستماتة خاصة حين كان يخرج

الجرحى من النار. وقد لاحظ الجميع ذلك. ولم يتقاعس فيما بعد، حين انتقلت بقايا فوج كوتشالين إلى الهجوم المضاد، كما لم يتأخّر وراء الدون، حين بدّل الفوج، وحوّل إلى المؤخّرة.

ذات مرة التقى به إيفان غورا عند مطبخ الميدان مبلَّلا قذراً نحيلاً منفعلاً فدعاه بأصبعه:

ـ ماذا عساني أفعل معك، يا نيفيدوف؟ لا أستطيع أن أفهم أيّ شخص أنت؟ قس مجرّد من مسوحه، وفي سن محترمة. فما الذي يجعلك تتعلّق بنا؟

تنشقّ كوزما كوزميتش لأنّ قطرة من المطر سقطت من على أنفه المقشَّر، وتطلع إلى المفوَّض بعينيه الصهباوين المرحتين:

ـ هذه طبيعتي، يا إيفان ستيبانوفيتش. أتعلق بالناس... إلى أين أذهب، وعن أي مجتمع إنساني آخر أبحث؟ فأنا رجل مفكّر.

ـ ولكن ليس هذا هو الموضوع إسمع...

ـ أما بخصوص مؤنة الفوج (وأشار كوزما كوزميتش إلى القصعة المملوءة التي كان يحملها) فأن هذه الشوربة من شحم الخنزير قد اكتسبتها بنزاهة. ولا تراني قد حرصت على سلامة جلدي... أما البنطال والحذاء فقد حصلت عليهما بنفسي من العدو في ساحة المعركة... وأنا لا أطلب شيئاً، ولا أقلّ على أحد. وفي المستقبل أيضاً آمل أن أكون نافعاً. اليست الثورة بحاجة إلى إنسان ذكي؟ بلى.. وليس في فوجكم كاتب متعلِّم... وأنا فضلاً عن ذلك أكتب باللاتينية والإغريقية، وقد أنفع في مواضع أخرى...

فكّر إيفان غورا مع نفسه: "حقاً لماذا لا نستفيد من إنسان إذا كان ذكياً ويريد العمل؟.."

- الموضوع أنْ أصلك يقلقني. نخشى أن تبثّ الأفكار الضبابية...

قال كوزما كوزميتش:

- نعم، مرّ وقت كنت فيه أركض وراء السراب، ولا حاجة لي أن أخفي شيئاً... كنت تائهاً فيه. لا، لا تخشوا شيئاً من تحريضي، فأنا مع الله في نزاع...

سأل إيفان غورا:

- في نزاع؟ ها؟ حسناً، تعال إلى منزلي في المساء لنتحادث..

وعند هبوط الظلام ظهر كوزما كوزميتش في منزل المفوّض الذي كان جالسا عند النافذة وهو في معطفه وقبعته، يقرأ جريدة محرّكا شفتيه. طوى إيفان غورا الجريدة، ونهض وأغلق الباب:

- إجلس... هناك شيء غير جميل قد حصل. هل أنت قادر على أن تضمّ لسانك وراء أسنانك؟ بالمناسبة، سيكون وضعك أسوأ إذا بدأت بالكلام الزائد: فأنا أعرف كلّ شيء، حتى ما يحلم به المقاتلون أثناء نومهم...

وأخذ يقطع شريطاً ضيقاً من حاشية الجريدة البيضاء، ونخر، وهو يحاول لفّ الشريط بأصابعه التي لم تكن تطاوعه في تثنيها.

- حصد الناس، وخزن القمح. أما درسه فقد تأخّر بعض الشيء بسبب الأوضاع العسكريّة.. إلا أن الناس يثقون بنا، وهذا الشيء الرئيسي - إنّهم يريدون الاعتقاد بأنّ السُّلطة السوفيتيّة أصبحت متينة... حسنا... ولكن عن قريب سيحلّ عيد الحجاب المقدس...

ورفع إيفان غورا بصره إلى كوزما كوزميتش قليلا، واختلج منخر أنفه الكبير في ارتباك...

ـ عن قريب عيد الحجاب المقدسّ... والخرافات ما زالت حيّة في الناس... ولا تستطيع محوها بمرسوم في يوم واحد... إنّها تقتضي وقتاً طويلاً، كما يمكن أن يقال... بينما الفتيات غير راضيات، وهن ينتظرن العيد، ولا أحد يرسل لهن الخطابات بالأمس كنت في قرية سباسكويه. أوقفت النساء عربتي، وصرن يبكين ويشتمن ويضحكن... التعاطف مع السوفييتات كلّي، ولكن هذا العيد يصعب عليهن... القرية غنية، والحبوب كثيرة، ولم تطبّق عليهم حتى الآن ضريبة فائض الحبوب... ويجب التعامل معهم بذكاء ليقدٌموا الحبوب عن وعي بالأمر. ولكن كيف يمكنك أن تقوم بالدعاية بينهم، إذا كانت النساء قد أمسكن بعنان العربة وهن يصرخن: هيِّئ لنا قِسّاً أحمر.. نحن بحاجة إلى عقد حفلات زفاف، وفتياتنا تعبن من الانتظار، وعندنا مائة وخمسون طفلا يصرخون في المهود، وهم لم يعمَّدوا بعد...' تفو.. لقد ظلّ رأسي يوجعني في اليوم التالي... إلى هذا الحدّ أزعجتني النساء. هل أستطيع أن أرسل لهن قسا؟ ولكن يجب حلّ المسألة. إنهن بعد التفكير الطويل قد يرسلن في طلب القسّ القديم من نوفوتشير كاسك... وسيكون ذلك تصادماً... أنت، يا كوزما كوزميتش ملمّ في هذه الأمور، فأنقذني خذ عربة، وأذهب إلى القرية وتكلّم مع النساء.. ولكن وكأنني لا أعرف شيئاً. أنا رأيت أولئك الفتيات فظاعة: إنهن ناضجات وأشار إيفان غورا إلى صدره أنّ القضية إنسانيّة.. فهل تذهب؟

أجاب كوزما كوزميتش:

ـ بكلّ سرور.

وهزّ رأسه مكوّرا شفتيه.

ـ وأنت يا شاريغين مضجر في الحديث. دماغ ناشف يجعل المرء يفقد عقله.

وأخذ لاتوغين قبعته، وأرتداها مائلة، وحافتها الناتئة على أذنه، وتحرّك على المصطبة، إلا أنّه لم ينهض منها، وحرّك مقلتيه، ونظر إلى أنيسيا.

كانت تجلس مقطّبة الجبين من جهد الانتباه. مثبتة بصرها كما هي الحال دائماً في ساعات الدراسة في أيّ شيء كان، وليكن مسمارا في الحائط. فأنّ عقلها غير المتعلّم كان يجد عسرا في تقبّل الأفكار المجردة، فقد كانت مثل كلمات من لغة غريبة، لم تكن تنفذ إلى أحاسيسها الحيّة إلا أجزاء وومضات متقطّعة. كانت كلمة "الاشتراكية" تثير فيها تصور شيء جاف مهسهس، مثل شريط أحمر تلامس زغبه أيد خشنة. وقد حلمت بهذا الشريط. وكانت "الامبريالية" عندها مثل الملك نبوخذ نصر الذي رأته في صورة شعبيّة رخيصة التصق بها فضلات الذباب وقد وضع التاج على رأسه ولبس رداءً صبّ بلون قرمزي زاه. وكان الملك قد ألقى صولجانه وكرته الملوكيّة عند مرأى يد تكتب على الجدار كلمات تنبئ بهلاكه.

إلا أنّ أنيسيا كانت محبّة للعمل، وقد بذلت جهدها للتغلّب على هذه التصوّرات الناقصة.

وكانت تحسّ بنظرة لاتوغين عليها، إلا أنّها لم تصرف بصرها عن المسمار في الجدار، ولكنّها أطبقت ببطء ركبتيها المتباعدتين.

سأل شاريغين:

ـ لماذا أنا مضجر في حديثي، يا لاتوغين؟ المقالة التي نتدارسها منشورة في "ازفستيا"، أفلا تعجبك؟ إذا كنت مقاتلا في سبيل الثورة وجب عليك أن تتمثّل بدقة، وأنت تحشو بندقيتك، الوضع الراهن والمهمات العامة أيضاً.

وحين قال شاريغين ذلك نقل نظرة داكنة من عينيه الزرقاوين الجميلتين إلى أنيسيا. فتابعت هي النظر إلى المسمار. وقال بايكوف بصوت رفيع، دون أن يضحك:

ـ ولكن ما نفع الصدار لذئب، فأنه سيمزّقه في الأجمات على أيّة حال. والعلم خال من المتعة بالنسبة لرجل شاطر.

ردّ لاتوغين فوراً بدون نبرة هزء أيضاً:

ـ كلام لبق! ولكن ليس صحيحاً تماماً. لا، ليس العلم خالياً من المتعة بالنسبة لرجل شاطر. أنا أحترم العلم، إذا كان الأطفال يخرجون منه. ولكن الأمر مضجر إذا كان إنسان لا يعرف أين يدا الفيل وأين رأسه... ولكن كفاك إغاظة لي. إن كلمة حقيقية، كالمرأة، تعانقك وتحرقك، وتجعلك تركض حافياً على الجمر. بهذه الكلمات تحدّث معي، يا شاريغين... بينما أراك تعزف على نغمة واحدة: "البروليتاريا العالميّة والاشتراكيّة.." لقد اقتحمت الموت في سبيلها. وأنا أريد أن يحدّثوني عنها، ولكن بالطريقة التي أصغي إليها وأصدق بها: أيّة شجرة أبدأ بتكسيرها لأصنع بيتاً، وفي أيّ مرجة أتنزّه في قميصي الحريري... آه، لو أضرب على رأسك بكُرة أرضية لتعرف كيف تتحدّث عن الثورة العالمية.

نظرت أنيسيا إلى وجهه القوي العريض بعينيه المتباعدتين مثل عيني ثور أصيل. نظرت وقالت لنفسها بوحشة أنّ فقدها

لعينيها خير من النظر بهذه الصورة.

لم يكن غاغين، ولا زادويفيتر، ولا بايكوف يوافق على سلوك لاتوغين. كانوا يتحادثون بلطف وهدوء تحت شرشرة المطر الهادئة على السطح القشّي. حقّاً أنّ شاريغين كان في بعض الأحيان، بسبب من حداثة سنه وعدم استيعابه العلم بعد، يعبِّر عن أفكاره بطريقة ثقيلة خائفاً من استعمال الكلمات البسيطة، وكأنه يخشى أن توقعه في مأزق. وكان يشعر بحرّية أكثر مع الكلمات الأجنبية المجرّبة، ومع ذلك فلم يكن يحسن بلاتوغين أن يهزأ برفيق مخلص، فضلاً عن أنّ الجميع كانوا يدركون يوافقون على هذا السبب أيضاً.

قال غاغين له:

ـ المفوَّض يهيئ فصيلة تموين، فأذهب إليه واسأله أن يضمّك إليها. فأنت ضجر لأنّك لا تفعل شيئاً. لا أحد ينتظر منك خيرا. فقد طال وقوفك، يا فتى...

هزّ بايكوف لحيته، وأخذ يضحك. كما أن زادويفيتر حدس ما يلمح إليه غاغين، ففتح فمه بأسنانه القويّة وقهقه. وتدفّق الدم إلى وجه أنيسيا، حتى انفجرت الدموع من عينيها. تناولت معطفها، واستدارت ولبسته، وتحزَّمت عليه بقوة، وخرجت من الكوخ. وشعر الجميع بالحرج تماماً. طوى شاريغين الجريدة ببطء وهو يبتسم ابتسامة هازئة. وقال للاتوغين:

ـ لنذهب، ونتحدّث.

فقلص هذا عينيه، وقال:

ـ لنتحدّث.

وخرج الإثنان إلى الفناء في الظلام، تحت رذاذ دقيق يدغدغ

الوجه. وأحسّ شاريغين أنّ لاتوغين ينتظر بداية الحديث وعلى فمه ابتسامة هازئة ليردّ ردّاً لاذعاً لئيماً... كان شاريغين يريد أن يطرح بهدوء تام مسألة خرق الانضباط الرفاقي وضرورة التحرر من التركة البورجوازية الفاسدة... ولكنّه قال بدلا من ذلك، وبعد أن استنشق بمنخريه نفساً عميقاً من رطوبة الليل.

ـ اتركْ أنيسيا وشأنها... ليس هذا لطيفاً... بل قذارة، ومشاكسة...

قال ذلك وصمت. أما لاتوغين الذي لم يتوقّع مثل هذا المنقلب فقد وقف أمامه بلا حراك. ولم يستطع أن يجد ما يصلح أن يردّ به. لا "مَنْ طلب منك أن ترعاني، أيّها الغرّ، أيّها البكر، أيها العفيف؟" ولا "كثيرون سألوني عن هذه الأمور، ولكن القليلين خرجوا منّي سالمين..." فقد تبيّن تماماً أنّه، أي لاتوغين، إنسان قذر... انبعث في نفسه إحساس حارق بالمهانة.. ولو حدث ذلك في الماضي لأخرجه عن أطواره... قلّص عينيه، وصكّ على أسنانه... مستحيل!

قال:

ـ نعم، نعم. تقريعك هذا يعني أنّني أرقت دمي عبثا، يعني مازلت كما كنت صعلوكا، قاطع طريق، إبن كلبة؟ حسنا، شكراً لك يا كوستيا...

واتجه نحو المخرج وضرب بشدّة باب السياج بقبضته.

عادت الحياة إلى إيفان ايليتش تليغين ببطء. (كان إلى جانب اهتزاز الأعصاب مصاباً في عدّة أماكن بشظايا الفولاذ الصغيرة من انفجار قنبلة).

في أوّل الأمر كان في غيبوبة مستديمة. ثم حلّ محلّها نوم

مع فترات متقطّعة من اليقظة حين كانوا يقدّمون له الطعام. وبعد ذلك أخذ يحسّ بحالة هنيئة من السكينة. كانت عيناه معصوبتين بضمادة. وكان يرقد في غرفة منفردة سدّت نافذتها بإحكام. وأحياناً كان يسمع خطوات خفيفة، وهمسا ليس أعلى من خشخشة الأوراق ورنين ملعقة، وحفيف ثوب. وكانت بالقرب من رأسه ساعة صغيرة تدق بلا انقطاع تارة أكثر وضوحا، وتارة أكثر خفوتا. وكانت الأحاسيس الآتية إليه من العالم الخارجي محدودة بهذه فقط، وبحضور غير مرئي لمخلوق حذر. ما أن يزفر زفرة حتى تسري حركة خفيفة في الهواء، فينحني "هذا" المخلوق فوقه، بل ويحسّ رائحة رقيقة طريّة.

وبين الحين والآخر كان يتدخّل مخلوق غليظ تفوح منه رائحة عرق قويّة، وتبغ بشكل رئيسي:

"ما هو نبضه؟"

ويهمس المخلوق الرقيق بالجواب همسا لا يكاد يسمع. فيقول الغليظ بانشراح:

"رائع. الرجل قوي... يجب أن تراعي بشكل أساسي: الهدوء الكامل، دون أي مهيّجات خارجيّة..."

غمغم تليغين في ذهنه ببطء: "أنت نفسك مهيّج خارجي.... أخرج، ولا تطنطن... أما أنت، أيتها الحنون، فانحني وعدّلي شيئاً ما، ولكن الأحسن أن تمسّدي على يدي.. ما أن فكّرت بذلك في سرّي حتى فهمت ومسّدت على يدي. مَنْ هذه الممرضة، ومن أين وجدتم مثل هذه المحبوبة؟"

وكان الكلام ممنوعاً عليه. ولكن لا يمكن أن يمنعوه من التفكير. منذ سنين عديدة لم يحدث له أن خلا لنفسه بدون

ملامات ولا هموم. وكان ذلك مكافأة كبيرة على كلّ السنوات الصعبة من الخدمة النزيهة. لم يفعل شيئاً تنقصه النزاهة، وضميره ينام هادئاً مثل قطّ داخن اللون في يوم مطير. وكانت أفكاره تهيم في عالم نصف واقعي. وأكثر الأحيان يتذكر شمس الشمال الصيفيّة، كتلك التي كانت في بطرسبورغ في يوم بارد، تسكب الضوء على إسفلت الرصيف الضارب إلى الزرقة، حيث تجرجر الريح أذيالها... ما أكثر ما مرّت به من أفكار وما أكثر ما شهد في بطرسبورغ... والآن تمرّ أمام جفنيه المطبقين نافذة بيت خشبي، والشمس تضرب باهتة على الزجاج المحبَّب، ووراء الزجاج شيء يتراءى له... إلا أنّ الذكرى انطفأت واختفت، ولم تبق إلا كآبة الهوى من تماس الذكرى به.

وكانت تتردّد في ذاكرته باستمرار كلمات طال عليها النسيان من أغنية لا يعرف أين سمعها بالضبط، ربما في نزفيا دريفنيا، في بيت ريفي وراء نهر كرستوفكا. كانت غجريّة مكسال نحيلة تغنّي بصوت خفيض في أزقّة الغسق الليلي، وهي تعزف على الأوتار: "لك أن تذهب يميناً وشمالاً، ثم تجوب البيت كله عبر دهاليزه المظلمة، فتجد بابا إلى اليمين، ووراء الباب علّية، وكلّما كنت تبحث عنه لن تجده أبداً..."

غنّت لهم للرجال الذين جلسوا أمامها صامتين عن الشوق الأبدي الذي لا تكون الحياة بدونه... إبحث، إبحث، وانظر إلى العلّية، فلعلّه هناك؟ آه، أنتم، يا حمقى، يا من يلوح عليكم خمار البارحة! عمّن تبحثون؟ تسيرون في الشارع الطويل عند غروب شمس الشمال، والريح الخفيفة تسوق الغبار تحت أرجلكم، وتبحثون. أين تلك النافذة ذات الزجاج المحبّب؟ وهل

على إفريزها تجلس أحلى فتاة على الأرض، في ثوب قطني، وقد طوّقت ركبتيها، وراحت تقرأ كتابا، والكتاب يتحدّث عنك، يا من تبحث. كلّ ذلك هراء، فأنتم تبحثون عن أنفسكم...

في السكون والظلام، وتحت تكتكة الساعة كان إيفان تليغين يهوم ويحلم: مع عودة الحياة إليه استيقظ في نفسه حبّ النفس المختفي في أعماقه، والذي ينكره مبدئيا. وفي هذا العالم نصف الخيالي كان يبدو وكأنّه يجمع ذكرياته، أطيبها وأبرأها وأحبّها تلك التي يفقدها الإنسان في طريق حياته، وبلا عودة في الغالب. وقد أقبل حبّ النفس عليه، مع إقبال العافية. فكان يأكل بشهيّة ويتمدّد بقوّة خفيّة عن الممرضة.

ذات مرة، بعد أن نام نومة مريحة، وأكل عصيدة القمح أراح رأسه جيدا على الوسادة، وقال فجأة بصوت عال:

ـ يا ممرّضة، هل من الممكن أن نتحادث قليلا عن أشياء صغيرة؟

انحنت الممرضة عليه بسرعة، وهمست مذعورة، وضمّت شفتيه براحتها:

ـ شش! شش!

وحين رفعت يدها عاد يقول بوقاحة هذه المرّة:

إذن قصّي عليّ شيئا ما... إن لك يداً لطيفة صغيرة كم عمرك؟ ما اسمك؟

ارسلت بضع زفرات قصيرة ما بين النشيج والغصّة... يا لغرابتها... وكان هو يريد أن يقول لها: "استيقظت... وفجأة عنّ لي... إذا كان الإنسان لا يحبّ نفسه، فأنه لا يقدر أن يحبّ أحدا... فما نفعه بعد ذلك؟ فمثلاً إنّ السفهاء والأوغاد لا يحبّون

أنفسهم... إنّهم ينامون نوماً غير مريح، وكلّ جسمهم يهرشهم، مرّة يختنقون بالغيظ، ومرّة يلتهبون من الرعب... يجب أن يحبّ الإنسان نفسه، وأن يحبّ في نفسه ما يمكن أن يحبّه الآخر فيه... لاسيما المرأة امرأته..."

إلا أنّ إيفان ايليتش لم يقل شيئاً من هذا. وخرجت الممرّضة من الغرفة، وبعد قليل عادت مع الطبيب عدو المهيّجات الخارجية، الذي صار يطنطن بأوقح طريقة:

ـ أراك تبدي وقاحة، أيها الرجل لا يجوز... إسمح لك بقليل من الكلمات الضروريّة للغاية... يجب أن أرسلك إلى الفوج في أحسن شكل... وواجبك، يا حلو، أن تصبح إنساناً صحيحاً في أسرع وقت ممكن.. إعطيه منوما، يا ممرّضة...

قال كوزما كوزميتش:

ـ قف، يا صاحبي، ودعني أنزل هنا. وسأدخل إلى القرية ماشياً.

ـ ولماذا ماشياً؟

ـ لا تعلّمني. سأدخل إليها كالحاج. هل فهمت؟

ـ أنت وشأنك...

وأوقف لاتوغين حصان المدفعيّة المخصى الممتلئ، على الطريق المتآكلة بالقرب من سدّة عليها أشجار صفصاف معوجّة بدأت أوراقها تتساقط. كانت قرية سباسكويه على الجانب الآخر من بركة مسطحة. وكانت مستودعاتها بأكوام الدريس الطري تقترب من الشاطئ. وكان الدخان يتصاعد من المداخن متلوّياً فوق سطوح القصب التي تكلّل على البيوت الصلصالية الواطئة باعثة للدفء.

قال لاتوغين:

ـ القرية كلّها تقطر الخمر.

وأرسل زفرة عميقة، وأخذ ينظر إلى الوزارات التي كانت تسير على السدّة ممتلئة بيضاء مهيبة. لاحظ ذكر الوز في المقدّمة عربة واقفة وفيها رجلان فتوقّف ممتعضاً، وتوقّفت وراءه زهاء خمسين وزّة وزوزت الوزات فيما بينها تتشاور، وتهادت منحدرة على بطونها على منحدر السدّة إلى الماء، وعامت فيه، وكأنما تدفعها نسمة خفيفة على الماء المضبّب إلى السبخة.

قال لاتوغين:

ـ كلّ وزّة تزن خمسة عشر رطلا، البهيمة ما أشهى أن تسلق، يا أمي العزيزة!

قال كوزما كوزميتش:

ـ إذهب يا صاحبي ـ ومدّ له يده على عجل وقل للمفوّض يجب أن أبقى في القرية لألقي نظرة ولأرى ما يجري هنا. وبعد أسبوع تعالوا مع فصيلة التموين. ستكون كلّ الأمور على ما يرام.

ـ ستغرق في الخمرة هنا، يا كوزما.

ـ أنا، يا أخ، لا أرفعها إلى فمي. والآن، إستدر، إستدر. وإلا فسيرانا الناس...

أدار لاتوغين العربة، وضرب الحصان العريض الكفل بعسلوج غاضباً، فركضت العربة به دون أن يلتفت. أما كوزما كوزميتش فقد سار على السدّة إلى القرية. كان يرتدي معطفاً رثاً مخضرّاً من القدم، قصّ في وقتها من مسوح قسّ وقد تحزّم عليه بمنديل من القطن، وحمل وراء ظهره كيساً من الخيش من النوع الذي يحمله الجنود الحمر، ووضع على رأسه قبّعة جندي عالية

يعود تاريخها إلى زمن الخرب الامبرياليّة المنحوسة. وباختصار، كان مظهره مناسباً.

الريف موحش في أواخر الخريف. فإن أشجار الكرز والتفاح قد القت أوراقها، فهي الآن مطروحة مبلّلة من جمد الليل على مرتفع الأرض التي اقتلعت منها الخضراوات. أما عبّاد الشمس الذي يغري الشمس لتنعكس على نوافذ البيوت الصغيرة فلم تبق منه غير سيقان متعفّنة. والوحل منتشر في كلّ مكان حتى عتبات البيوت. وصفاقات النوافذ الباهتة الألوان تصرف وتصطفق من الريح المثلّجة، ولا أحد يريد أن ينظر من النافذة، فإن كلّ ما يستطيع أن يراه هو غراب يحطّ على السياج منتظراً أن تقذف ربة البيت في الفناء شيئاً يؤكل.

"يعيشون في سبات، يدمدمون ويهرشون. والعواطف نائمة، والرغبات خارج الخيال... ولكن كلّ إنسان مخلوق على صورة وشبه أرسطاطاليس أو بوشكين. إنّ لكم عيونا أيضاً يمكن أن تروا بها عجائب الأرض التي لا يملّ منها... ولكلّ واحد منكم رأس بين كتفيه وهو أعجب العجائب... (وهنا هزّ كوزما كوزميتش قبعته العالية على رأسه) إذا قارنته بالكون، فإن هذا الرأس لا شيء بالنسبة له اطلاقاً. إلا أنّ الكون كلّه، من الناحية الأخرى، موجود في هذا الرأس. فإنه، أي الرأس، ينفذ إلى الأسرار الغريبة عن رب الإنجيل.. ولهذا فما الحاجة إلى أن ينظر الإنسان من الشباك إلى غراب؟"

سار كوزما كوزميتش يفكّر بمثل هذه الأفكار متمطّقا من التلذذ، ماراً بالاسيجة الواطئة والبيوت التي تثقل عليها سطوح القصب حتى التقته فتاة ترتدي حذاء طويلاً ومعطفاً قصيراً من فراء

الأغنام، وتحمل دلوين مملوئين وازنتهما على كتفها بمرفاع من الخشب. كانت عريضة الأكتاف رصينة غير ودود.

ـ إسمك ناديجدا؟ أم أنا مخطئ؟ مرحبا.

توقفت الفتاة، وأدارت إليه ببطء وجهها العريض.

ـ نعم، ناديجدا. ولكن من أين تعرف؟

ـ أقرأ ما في القلب.

ـ لا تقرأ مثل هذه الأشياء عندنا. سر في طريقك.

قال كوزما كوزميتش:

ـ ما دمت قد طردتني فأنا عائد إلى السهب أعدّ حدبات القبور. ياله من طريق طويل لاسيّما حين يسير المرء وحيدا. أوه، يا الهي، ما أطوله!..

ارتجفت شفتا الفتاة. ومشت منصرفة، إلا أنها توقّفت ثانية ونظرت بريبة إلى وجه هذا الرجل الباسم الماكر جدا. وبسط كوزما كوزميتش ذراعيه أمامها:

ـ إذا رغبت في النوم نمت على كومة قش، وإذا جعت سرقت شيئاً ما... وليس هذا ما أريده، يا فتاتي الحلوة... الأنبياء ساروا حفاة على الأحجار الحادة، وظلّوا يبشّرون برسالاتهم... والقديسون وقفوا على الأعمدة، واقتاتوا على الجراد.. وهل تعرفين ما هو الجراد؟ جنادب... ولأي شيء تعذّبوا؟ أجيبيني... أراك تفكّرين... (تقدّم منها، ومطّ شفتيه) لقد أحبّوا الإنسان... كلّ إنسان هو معجزة. أما أنت، يا ناديجدا، فمعجزة مزدوجة... أنا أرى أنّكم قد درستم القمح، وقطرتم الخمرة، وأفنية بيوتكم تفوح يكفي... ولكن لا فرح عندكم... ولا ضوء عندكم...

سألت الفتاة ناظرة حولها وقد تراخت:

ـ ألعلك تبيع الكيروسين؟

ـ أنا لا أبيع شيئا، ولا أطلب صدقة. جئت لأمرح عندكم وأجعلكم تمرحون.

صمتت الفتاة برهة، وعادت تنظر إليه بعينيها الطويلتين الرماديتين كالسحابة. انحنت لتضع الدلوين على الأرض، ووضعت المرفاع عليهما.

ـ الغم قائم عندنا في القرية، ولا أحد يستطيع أن يدخل المرح إليها. بأي شيء تريد أن تدخل المرح؟

ـ حين أقول فمعنى ذلك أنّ لي وسيلة.. أنا قسّ مجرّد من مسوحه...

فغرت الفتاة فمها، وكان فماً غضاً له أسنان بيضاء منتظمة، حتى أن كوزما كوزميتش راوح في مكانه بهجة. وانجلى الجفاء من على وجهها وكأنما أطارته هبّة ريح.

ندّت منها آه التعجب، ووضعت يديها تحت نهديها اللذين انفرج عنهما المعطف الفرائي. ثم أرسلت الآه ثانية، واهتز ردفاها:

ـ إذن، تعال إلى البيت... سيتحدّث أبي معك قليلاً. توجد عنده مفاتيح الكنيسة.

قال كوزما كوزميتش:

ـ لا، لا اذهب... تعالوا أنتم إلي... هكذا يا سوداء الحاجبين...

وغمز، وهز كتفيه بمرح، وسار في الشارع باحثاً بعينيه عن أفقر بيت.

حلّ اليوم الذي رفعت فيه الضمادة عن عيني إيفان ايليتش وقد جرى ذلك عند هبوط الظلام. وكانت الممرّضة تهمس

للدكتور مذعورة وراء الباب... فكّر الطبيب: "سخافة الرجل. ليس نباتا ضعيفا. إفعلي ما قلت لك..." واستدارت الممرّضة نحو السرير، وانحنت حتى أنّ شعرها الناعم مس أنف إيفان ايليتش، ورفعت الضمادة، ولأوّل مرة سمع بدلا من الخشخشة والهمس صوتها ضعيفاً متقطّعاً.

- استلق هادئا، أرجوك، وتعوّد على الضوء.

وفتح عينيه بشيء من الخوف بعد فترة طويلة قضاها في ظلام. كان كلّ شيء مغبشاً. وكان ضوء شاحب ينفذ من أحد طرفيها. وكانت الممرضة تجلس إلى طاولة صغيرة عند نهاية السرير لم يستطع أن يتبيّن وجهها فقد كانت تنحني بانخفاض، وتفعل شيئا بضمادة من الشاش.

ظلّ إيفان ايليتش على استلقاءته يبتسم. فوق رأسه سقف منحدر، ولابدّ أن يكون هناك سلّم مؤدّ إلى العلبة، أما هذا فهو شبّاك ذو زجاج محبّب. ولا أفضل من هذا المكان... وفي الحال طافت في ذهنه ذكرى مكان آخر، وكأنّ أحداً أزال جلدة غضّة عن جرح، مكاناً داخناً راعداً متفجّراً، حيث وقع أمامه انفجار خاطف مصفرّ اللون.. وأبعد إيفان ايليتش هذه الذكرى عنه قائلاً لنفسه: "لا حاجة إليها، لا أريد، وقد كادت تسحق دماغه... وعاد يسمع تكتكة الساعة من جديد مقطّعة فترات متساوية من الحياة بلطف وبلا ألم...

نادى إيفان ايليتش:

- أيتها الممرّضة.. أنا لا أراك بشكل جيد.

هزّت رأسها، وتدحرجت اللفافة من على ركبتيها، وانفلتت، فعادت تلفّها من جديد. كانت حركاتها خفيفة، فلابدّ أنها ما تزال

في ريعان الشباب... ومحنكّة أيضاً! ومهما جاهد إيفان ايليتش أن يتفرسّ فيها تكاثفت طبقات الظلام، والآن لا يتميّز وبشكل مبهم غير مريولها من القماش الخشن، ومنديلها الذي يغطي كتفيها مثل منديل أبي الهول.

وفكّر إيفان ايليتش مع نفسه:

"مفهوم، مفهوم... لابدّ أن المسكينة مجدَّرة الوجه أو قبيحة بشكل كبير.. إنّها بالطبع تشعر بأنني ممتن لها وتنهّدَ إيفان ايليتش ما أكثر أولائك من الرقيقات والوفيّات، الصديقات في الحياة والموت... وهي ذكية أيضاً، على ما يبدو.. فأن جميع غير الجميلات ذكيّات... وإياهن يجب أن يتزوّج الرجال وإياهن يحبون... بينما الرجل يبذل كلّ شيء في سبيل أن يكون على وسادته وجه وسيم لامرأة لها رموش الدمى تهمس له بكلّ صنوف السخافة والوضاعة... أما داشا فشيء آخر، لم أحبّها من أجل جمالها... وأغمض إيفان ايليتش عينيه، ووضع قبضته تحت خدّه ـ هذا كذب. لقد أحببتها، يا رجل، من أجل جمالها الأخاذ... وهذا ما لم ترده هي..."

نهضت الممرِّضة دون أن تحدث ضجة، وهي تظنّ أنه نائم، وخرجت وظلّت غائبة وقتاً طويلاً. ثم صرف الباب صريفا لا يكاد يسمع. ولاح ضوء أصفر كامد. فتح إيفان ايليتش جفنيه قليلاً دون أن يبدي حركة. ورأى داشا تدخل في مريول أبيض وبمنديلها. كانت تحمل مصباحاً صغيراً من التنك، حاجبة ناره بكفِّها الوردية الشفافة. ولم يندهش إيفان ايليتش من رؤية داشا. سوى أنّه لم يصدِّق بأن هذه داشا.

وضعت داشا المصباح على الطاولة، وخفضَت القتيلة

وجلست وأخذت تنظر إلى إيفان ايليتش كان وجهها نحيلا مثل وجه فتاة أصيبت بالتفوئيد. ولاحت غضنة في طرف فمها المنتفخ قليلا. كان ضوء المصباح لا يظهر غير خدّها وعين واحدة وادعة وسيعة انعكست نقطة ضوء المصباح على حدقتها. كانت تبدو وكأنّها قد عزمت على أن تجلس طويلا، وقد أسندت مرفقها على ركبتها، وأنزلت حنكها على جمع يدها الصغيرة المضمومة. إنّ داشا وحدها كانت تستطيع أن تجلس هذه الجلسة.

... في ذلك المساء في بطرسبورغ، عندما جاءت إلى "المجمع المركزي لمكافحة العرف" الذي كانت شقّة تليغين مقرّاً له، يوم أن رآها لأول مرة بدت له رائعة كالربيع. كانت وجنتاها تتوهّجان، وكان الدفء يشعّ منها وهي في ثوبها من القماش الأسود السميك. وقد ملأ عطر رقيق الغرفة التي كان الشعراء المشتركون في "التدنيسات العظيمة" يجلسون فيها على الألواح التي مدّت على كتل خشبية. أنزلت داشا حنكها على جمع يدها مستمعة إلى قصائد متحذلقة، ماسة بطرف خنصرها شفتيها النزقتين المنتفختين قليلا.. وفيما بعد نقل إيفان ايليتش إلى غرفته المقعد التي جلست عليه...

كلّ ذلك شعّ في ذاكرته بين خفقتين من قلبه. وكان يدقّ في صدره دقّات متعالية مثل حارس يطرق الباب في منتصف الليل: استيقظ! إلا أن هذه المرأة الجالسة على مقعد عند قدمَيْ السرير لا يمكن أن تكون داشا! وكان يرمقها بنهم من خلال شِقّي جفنيه دون أن يتحرّك... لابدّ أنها لاحظت ذلك فقد دفعت جسمها كلّه إلى الأمام...

ناداها: يا ممرّضة، يا ممرّضة!

ورفع جسمه فاتحاً عينيه على سعتهما... اندفعت داشا نحوه بصيحة مذعورة خافتة سعيدة... أمسكها من كتفيها، ومن ظهرها، وكأنّما يخشى أن يغيب الطيف عنه...إنها داشا حقّاً: نحيلة هشّة حية! ضغط وجهها عليه، وأحس بارتجاف شفتيها، واهتزاز جسدها كلّه... أمسك رأسها، وأبعده عنه لينظر في وجهها الحبيب الجديد أبدا، الجميل أبدا بشكل غير متوقّع. وراحت هي تكرّر وعيناها مغمضتان:

ـ أنا معك، كلّ شيء بخير، كلّ شيء بخير...

أخذ يقبّلها من فمها، ومن طرفَيْ فمها حيث رسمت عليه المعاناة خطّين صغيرين، ومن عيناها همست له:

ـ والآن إهدأ، إهدأ يا عزيزي إيفان. لن افترق عنك. معك إلى الأبد إلى الأبد...

ما أن حلّ المساء حتى كانت القرية كلّها تعرف أنّ في بيت الارملة الفقيرة آنا تريخجيلنيا يجلس الرجل الذي لحق ناديجدا فلاسوفا في الشارع، وقال لها: "جئت لأجعلكم تمرحون. أنا قس من جانب الحمر..." وصدّقت الأمر جميع النساء، المسنّات منهن والشابات. وقد شعرت ناديجدا بوجع في لسانها لكثرة ما يناديها باسمها: "ناديجدا!" (كانت المصغيات يقاطعنها قائلات: "يا إلهي، من أين عرف اسمك؟" "هذا ما يسمّى بقراءة ما في القلب.." كما أنّ وجهه روسي، أحمر وكأنّ كلّ جلده قد سلخ، وشعره يصل إلى كتفيه وعليه ملابس رثّة. ولكنّه لم يكن يبدو جائعاً، بل مرحاً كلّ كلامه أحجية...

وضحك الرجال، وهم يسمعون ثرثرة النساء: "دعونا نأمل بالا يحرق هذا العارف بقراءة ما في القلب القرية من جهاتها

الأربع... لو كان قسّاً من صحيح لاتجه إلى اغنى بيت في القرية... وإلاّ فحتى الصراصير لا تجد ما تأكله عند تريخجيلنيا... لا، يا نسوة، يجب أن يؤخذ إلى سوفييت القرية، وليظهر هوّيته هناك... فقد يكون جاسوسا من قطّاع الطرق؟ هكذا..."

عندئذ قالت زوجة لزوجها "كفاك تحريك لسان، الناس يضحكون منك" فأيّدتها النساء الأخريات بالإجماع. وصاحت الزوجة وعيناها تلمعان جسارة "قبل الثورة كنّا نطيعكم، ولم نر خيراً كثيراً من أوامركم. إنّ عقولنا ليست أقلّ ذكاء من عقولكم، ونفهم أكثر منكم... ثم خاطبت النساء قائلة: يا عزيزاتي، أنظرن إلى ابنتي ناديكا، إن صدرها يكاد يشق بلوزتها... وهي تنظر في المرآة، وتقول لي: لماذا يضيع عمري هدرا؟ فهل أقول لها: انتظري إلى عيد الحجاب المقدّس المقبل؟ فأقول لزوجي مجدّدا: لماذا لا يريد أن يأتي إلى بيتك ليأكل لحم الخنزير؟ وهل كان المسيح يأتي إلى بيوت الأغنياء فحسب؟ إنه ذهب إلى بيت آنا الفقيرة، لأنه قسّ أحمر، ولا حاجة به إلى لحم خنزيرك، وهو يفكّر بحظّنا التعيس".

اكتفى الرجل بهزّ ذراعه، وانصرف. وفي المساء احتشدت النساء قرب بيت آنا، وأوفدن إليه موفدات. وقبل أن تدخل الموفدات إلى البيت عرفن من فتاة صغيرة، هي جارة آنا، أنّ آنا تريخجيلنيا سخنّت اليوم حمامها منذ الصباح (وهو مبنى صغير متداع وراء البيوت على ساحل البحيرة) وأنّ القسّ استحم هناك، وأنّها أعطت له قميصاً نظيفاً كان لزوجها المتوفى، وأنّ القسّ الآن يستعد، بعد الحمام، لشرب "القصعين" مع آنا (وكان أهل القرية يشربون هذا الشراب بدلاً من الشاي).

كان القسّ يجلس على المصطبة مرتدياً قميصاً أزرق ناحلا، وقد وضع يديه على الطاولة. ولم تكذب ناديجدا، فقد كان وجهه أحمر يمكن أن يثير الخوف، وقد أطبق شفتيه بطلاوة، كالدبّ. وكانت الأرملة تغلي البيض على نار من أعواد، وكان لهب أزرق يطنّ خارجاً من مدخنة سماور بالية مثقوبة.

دخلت الموفدات الثلاث البيت، وسلّمن بانحناءة، وجلسن على المصطبة أقرب إلى الباب. ولم يقلن شيئا، إلا أنّ عيونهن لاحظت كلّ شيء.

وفجأة سأل كوزما كوزميتش بصوت عال:

ـ قلن: ماذا وراءكن؟

وتقلّبت عيون الموفدات. وأجابت أحداهن، وهي أم ناديجدا، بصوت معسول:

ـ يقولون أنّ العادات قد ألغيت؟ بينما نحن معها، يا أبانا. الزفاف يحدث مرّة واحدة، بينما الحياة طويلة. اليس كذلك؟

أجاب كوزما كوزميتش:

ـ كلّما طالت الحياة كثر خيرها خيرا. فماذا خبّركن؟

ـ ولكن لا تخف عنّا. فنحن سوفييتيات. انتخبنا سوفييت القرية، وصوّتنا إلى جانب السلطة السوفييتية. وأغلقنا الكنيسة بالختم، وقدّمنا القسّ إلى "اللجنة الاستثنائية" المحلّية لحيازته رشاشة.

قال كوزما كوزميتش:

ـ أها! إن ذلك القس كان ذا خطر.

ـ ولو تعرف كيف كان يهدّدنا، فيقول "يا أعداء المسيح، سأرمي اجتماعكم برصاصة رشاشة "مكسيم" من النافذة..." على

هذا النحو كان يخيفنا. كانت فتياتنا العرائس يصوّتن، بالطبع، مع الجميع، ولكن حين اقترب عيد الحجاب أردن أن يعقد قرانهن في الكنيسة. وقد عاندن، واجمعن أمرهن. وأنت تعرف أن الفتيات إذا اجتمعن على أمر فلن تستطيع أن تنتزع واحدة منهن... فقل لنا الآن: ما العمل؟ سمعنا أنهم نزعوا مسوحك، أهذا صحيح؟

أجاب كوزما كوزميتش:

ـ مؤكّد.

ـ وما السبب؟

ـ بسبب من حريّة رأيي. فأنا في نزاع مع الربّ.

وتبادلت الموفدات نظرات هلعة. وهمست أم ناديجدا في أذن واحدة ثم الأخرى، فهمست هاتان لها أيضاً. فقالت بصوت أكثر جسارة:

ـ إذن سيكون القران باطلاً؟

ـ ولماذا، إذا كانت الفتيات راغبات... سأعقد قرانهن وأسجلهن في سجل الزواج. عند ذاك حتى المجلس المسكوني لن يستطيع فسخ القران. وسأضع التاج فوق رأس العروس، وكأنّها ملكة الديناري، وأطوف بالعروسين وأسألهما الأسئلة المطلوبة، وأقول الأشياء التي تقال في مثل هذه المناسبة، وسنعقد الفرح بلا معصية ولا نقيصة.. فماذا تردن بعد؟

قالت إحدى الموفدات:

ـ وصغارنا أيضاً لم يتعمّدوا حتى الآن، وليس لهم يوم قديس يتبرّكون به.

ـ كم عددهم؟

- كثير. يمكن أن نعدّهم.

- وهل هم لا يرضعون جيدا، لأنهم بلا تعميد؟

وتبادلت الموفدات النظرات ثانية، وهززن أكتافهن. وضعت الأرملة المقلاة على الطاولة، ولدى عودتها إلى الموقد نظرت بحزن إلى كوزما كوزميتش، وهو يغرف البيض بالملعقة، ويأكل بتلذذ مغمضاً عينيه باستمتاع.

سألت موفدة أخرى:

- وهل سيكون التعميد معترفاً به؟

- تمام الاعتراف، كما في عهد الأمير فلاديمير المقدّس.

- وكيف ستعمل وأنت بلا شمّاس ولا مرتِّلين؟

- وما حاجتي إليهم؟ سأقوم بالأمر وحدي بأصوات مختلفة.

عندئذ تقدّمت منه ناديجدا، وجلست بالقرب منه، وسألت وهي تدق الطاولة بحد كفها:

- وهل ستأخذ فلوساً كثيرة؟

وتأخّر كوزما كوزميتش في الجواب. حتى أنّ المرأة تثاقلت أنفاسها، وأخذت يداها ترتعشان. ومدّت الموفدتان الأخريان عنقيهما، وهما جالستان عند الباب.

- لن آخذ منكن فلساً واحداً. أنا لم آت إلى هنا من أجل ذلك. إدفعوا لكاتب سوفييت القرية لقاء كتابة الوثائق.

وبدا اقتراح هذا الرجل مغرياً من جميع النواحي. ولكن الشيء الرهيب أيضاً أنه قد يكون زائفا... قبل شهر ونصف، عندما كانت القرية ما تزال تحت حكم الهاتيمان مامونتوف حدث ايضاً أن جاء رجل ينتعل خِفّين على قدمين حافيتين، وقد نمت لحيته حتى عينيه. واتجه إلى بيت كان يستريح بالقرب منه الناس

عند الغسق، ووقف حتى ألفه الناس، ثم جلس بالقرب من العمّ العجوز اكيم. وظن أنهم سيقدّمون له لفافة تبغ، إلا أن أحدا لم يفعل ذلك. عندئذ وضع رجلا على رجل وسرّ في أذن واكيم: "ألا تعرفني، أيها الجندي القديم؟" فأجابه "لا، أبدا" فهمس له بصوت أخفت "إعلم إذن، انني الإمبراطور نيقولا الثاني، ولست أنا الذي أعدموه في يكاترينبورغ، بل شخصاً آخر. وها أنا أسير في الأرض خفية حتى يحين الوقت الذي أكشف عن نفسي..." وكان العمّ واكيم ثقيل السمع، فلم يسمع كلّ شيء، فكان عليه أن يرفع صوته. والناس ليسوا بلهاء. فقد جرّوا هذا الإمبراطور في الحال إلى السدة ليغرقوه في البحيرة. إلا أنّ الذي أنقذ حياته هو أنّه راح يصرخ: "ما هذا، يا أخوان؟ كنت أمزح..."

قالت أمّ ناديجدا:

ـ لا يبدو أنك من المهوسين بالربّ. ثم أنهم، ليسوا موجودين الآن وفكّت معطفها لأنها شعرت بالحرارة فلماذا لا تأخذ فلوساً؟ ماذا في فكرك؟ وكيف يصدّقك الناس؟

أنا أحبّ الملح. أعطوني قبصة في كلّ بيت أعقد قرانا له أو أعمّد طفلاً ووضع كوزما كوزميتش الملعقة، والتفت إلى الأرملة قائلا ـ قدّمي السماور! ها أنت ترين ـ وأشار للموفدات إلى آنا النحيلة بوجهها الداكن المرتخي وصدرها المسطّح وتنورتها المرقّعة المعكوفة آنا صدّقتني، وستذهب معي إلى أيّ مكان. أما أنتن، الشبعات، الناعمات، فدائما تبحثن عن موضع السفالة في الإنسان، وترين فيه محتالا. أنتن غولاك وأنا أشعر بالضيق معكن. وإذا تملّكني الغضب، فسأرحل عند الفجر بحثاً عن الحظ في مكان آخر...

وضعت آنا السماور على الطاولة، ورأت الموفدات أنّها تبتسم، وكانت السعادة تغمر وجهها المجدّر المنهوك من الغمّ والدميم. ألقت أم ناديجدا نظرة خاطفة عليها كنظرة الصقر، ومدّت يدها الخشنة إلى كوزما كوزميتش:

ـ مقبول! لا تغضب، ولا حاجة بك إلى الذهاب بعيدا. فأنت ستجد كلّ شيء هنا.

في الصباح صعد كوزما كوزميتش إلى برج الجرس وقرع الجرس الكبير فانداح الرنين النحاسي في القرية وهرع الشيوخ والعجائز إلى النوافذ للتطلّع. ثم قرعة ثانية وثالثة، وأمسك الحبال المشدودة بالأجراس النحاسية الصغيرة، وأخذ يدقّ دقات صغيرة متسارعة، ثم قرعة عالية من الجرس الكبير. وقبل أن تستطيع أطراف الأصابع أن تصل إلى الجبهة لترسم علامة الصليب كان الناس يسمعون دقّة أخرى، وكان القسّ المجرّد من مسوحه يعزف لحناً راقصاً.

خرج بعض أهالي القرية المحترمين إلى خارج بيوتهم ينظرون إلى برج الجرس بدون رضا...

ـ القسّ يعبث...

ـ يجدر أن يجرّ من هناك من شعره، ويصرف...

ـ يصرف!... إنه هو الذي سيصرفك...

ـ ومع ذلك فإن قرعه كان موزونا... دعوه يدخل المسرّة إلى الناس لخاطر الفتيات لخاطر النساء..

وتهيّأ أهل القرية كلّها ـ المدعوّون وغير المدعوّين ـ إلى إقامة الأفراح. وكان النهار مضبّباً، والجمد على الأرض، وفي الجوّ رائحة خبز طازج ولحم خنزير مشوي. وبدأت في فناء أحد

البيوت حركة غير اعتيادية، وأصوات طيور داجنة، وتطاير الدجاج والوزّ من خلال الأبواب الخارجيّة... في بيت كان العريس حليقا مرتدياً منزوياً على المصطبة في ركن الأيقونة لم يأكل ولم يدخّن. وفي بيت آخر كانت العروس تزيّن. وكانت العجائز اللواتي شعرن بأنهن ضروريات في مثل هذه الأمور قد علّمنها أن تنتحب بطريقة مستحبّة:

ليس هذا صوت وزّة توّز على الشاطئ،

بل نحيب فتاة حسناء في حجرتها.

وكانت الجدّة تندب بصوت شائخ فتنضمّ إليها أخرى ملقية خدّها المتغضّن على راحتها بتفجّع:

وداعاً، وداعاً، يا شمسي الحسناء.

إنّ أبي الذي أعالني

ووالدتي التي أنجبتني

زوّجاني، وباعاني.

باعاني، باعاني

إلى طرف ناء غريب...

ولكن لم ترذ أيّة عروسة أن تنتحب، بل كان ذلك يحزنها.

ـ في زمانكم يا جدّتي، كانوا يرسلونكم إلى طرف غريب أما نحن فطرف واحد: سوفييتي.

وكانت روائح الطهي وخبز الفطائر تنبعث من كلّ مكان. وكانت النساء يتراكضن حاملات الدلاء والمكانس. وكان الخطّابون يتنقلون من بيت إلى بيت ورائحة الخمر تفوح منهم قويّة واجتمعت الشبيبة في فناء الكنيسة وعزف عازفان على

أكورديون...

وفي ذلك الحين جاء رئيس سوفييت ستيبان بيتروفيتش نديوشكاشي قادماً من البريد، وهو من عجزة الحرب وحائز على وسام صليب القديس غيورغي أربع مرات. لم يعر التفاتا إلى رنين الأجراس، وكأنّه لا يسمعها، وفتح باب سوفييت القرية، ودخل، وبعد قليل من الوقت خرج إلى مقدّمة البيت يحمل مطرقة وورقة ودقّ الورقة على الباب بأربعة مسامير، وأخرج من جيبه ختماً ملفوفاً في قصاصة جريدة، وزفر فيه، ودمغ به على إمضائه. وكان مكتوباً في الورقة:

"يا مواطني قرية سيباسكويه، بمناسبة قيام الثورة في ألمانيا تقرّر عقد اجتماع عام في الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم".

وتوافد الناس على سوفييت القرية. ولما رأى كوزما كوزميتش من فوق برج الجرس أنّ ساحة الكنيسة قد خلت كفّ عن قرع أجراسه، ونزل من البرج. وقال شيخ الكنيسة، وهو والد ناديجدا، وكان في قفطان أزرق ذي شرائب، قال وصفق غطاء صندوق الشموع في أسى:

ـ إن ابن الكلبة ستيبان نديوشكاشي هذا ظل يلاحقني أسبوعاً كاملاً في العام الماضي يطلب مائتي روبل ليسقف بيته بالألواح. وها هو الشيطان ذو الرجل الواحدة ينتقم! خرب الزفاف.

ـ ماذا جرى؟

ـ حدثت ثورة أخرى في مكان ما، في ألمانيا كما يبدو. وقد حشد الناس لاجتماع عام. إنّه لا يستطيع أن يصبر بلا سياسة! أي أحمق هو، يا آلهي!

كان ستيبان بيتروفيتش يخطب في الناس من على مقدّمة

سوفييت القرية، وهو يهزّ الهواء بقبضته ويدقّ ألواح الأرضية بقدمه الخشبيّة. كان وجهه مشدوداً وفمه فاغراً، وشارباه خشنين. قال عندما شقّ كوزما كوزميتش طريقه في الزحام ليكون أقرب إلى الخطيب:

ـ إن الوضع الدولي يتطور لصالح السلطة السوفيتيّية. والألمان يمدّون يدهم البروليتاريّة. وذلك عون كبير لثورتنا، أيها الرفاق. لقد التقيت بألمان، وكنت في ألمانيا. وأستطيع أن أقول لكم شيئاً واحداً، هو أنّ الألمان يعيشون في تقتير، ولكلّ قطعة خبز حسابها. ولكنهم يعيشون أحسن منا. ويجب التفكير في هذه الحقيقة، يا رفاق. إنّ قرية ألمانية مثل قريتنا مزوّدة بأنابيب لمياه الشرب، وأقنية لنقل السماد إلى حدائق الخضراوات، وتلفون، وأنابيب غاز تصل إلى كلّ شقة، وصالون حلاقة، ومشرب للبيرة فيه منضدة بليارد. أما المدارس فلا حاجة إلى الحديث عنها، كما لا حاجة إلى الحديث عن انعدام الأميّة... وتوجد في كلّ بيت درّاجة وغرامفون...

سرى طنين في الحشد، وصفّق أحدهم، فتبعه الجميع مصفّقين.

ـ إن ساقي قد قطعتها قنبلة ألمانية في بروسيا الشرقيّة. إلا أنني، في اللحظة الراهنة، أرتفع فوق اعتباراتي الشخصيّة...

صرخ صوت عالٍ فتي:

ـ تكلّم أوضح!

ـ أنا لا ألوم الشعب الألماني على فقدي لساقي، بل ألوم الإمبرياليّة العالميّة... وهي التي يجب أن تقطع رقبتها بكلّ تصميم... ونحن، الروس، قد عرفنا ذلك من قبل، ولكن الألمان

قد فهموه أخيراً. إننا في هذا الاجتماع، أيّها الرفاق، نهتف لكلا الشعبين: عاشت الثورة العالمية...

هتف صوت شاب: هورا!

وصفّق المجتمعون مجدّدا.

- لأنتقل إلى الشؤون المحلّية... في مدرستنا يتسرّب الماء من السقف كما يتسرّب من منخل. وقد اتخذ قرار بشأن ذلك. وأنا اتساءل: هل جمعت الفلوس، واشتريت الألواح؟ لا. بينما لديكم الفلوس لتنفقوها على الأفراح، ولديكم فلوس للقسّ. ورنين الأجراس يزعج الناس في دائرة سعتها عشرة فراسخ... ألأجل هذه الوقائع يمدّ الألمان لنا يدهم البروليتاريّة؟

اقترح اتخاذ قرار تمنع بموجبه إقامة الأفراح ودقّ الأجراس إلا بعد أن تجمع النقود لإصلاح المدرسة، وأجرة عمل المدرسة، وأثمان الدفاتر والأقلام، وتغطية مبلغ إجمالي هو أربعة آلاف وتسعمائة وسبعة روبلات وسبعة كوبيكات.

وترك خطاب الرئيس أثره، واخجل الناس، وهذا هو الأهمّ وخطب بعده عدّة خطباء كرّر جميعهم كلماته، ولم يضيفوا إليها سوى أنّه ما دامت الاستعدادات للأفراح قد بدأت فلا داعي لتضييع الوقت، ويجب جمع النقود على الفور، ولكن ليس على أساس إسهام الجميع، بل على أن تدفعها تلك العوائل الست عشرة الغنيّة التي تقيم الأفراح. واتخذ الاجتماع العام قراراً بذلك.

ولما علمت العرائس بالقرار أثرن صراخاً شديداً، ووجّهن إلى آبائهن وأمهاتهن كلمات حادّة جعلت الآباء يعدون الفلوس ويحملونها إلى سوفييت القرية. قدّم ستيبان بيتروفيتش وصولات بها، ولم يقل إلا "سيروا في طريقكم".

كاد المساء يحلّ حين ساروا بالعرائس إلى الكنيسة. وتعجَّب الناس مِمّا طلعن به من فاخر الثياب: معاطف لها ياقات فرائية، طرحات مؤطّرة بالفضّة والذهب، وأحذية عالية الكعوب بدت فيها العرائس وكأنهن يسرن على أطراف أصابعهن. وحين خلعن عنهن معاطفهن عند مدخل الكنيسة كشفن عن حلل نفيسة وأثواب نادرة المنال مختلفة الألوان، ضيّقة من الخلف حتى لتكاد تنشقّ، وعريضة في الأسفل كالباقة، والأعناق عارية. أما ناديجدا فلاسوفا فقد كانت يداها أيضاً عاريتين حتى الإبطين.

"أنظروا، أنظروا، أمن المعقول أنّها أولغا غولوخفاستوفا؟" "أنظروا إلى ستيشكا، كيف هي!"، "من أين لهم هذا؟"، عربة يجرّها ثور ناقلة معها الطحين ودهن الخنزير... وبادلتها مع سيدات نوفوتشير كاسك..."

وقال بعض العارفين:

"لقد شاهدت حفلات راقصة عند حاكم الولاية.. ولكن أين هذه من تلك.."

حفلات راقصة... في نوفوتشير كاسك احتفل بمرور ثلاثمائة سنة على آل رومانوف، واجتمعت سيدات المجتمع في الكاتدرائية. نزلن من العربات، وسرن على البُسُط، ولكن لا تقارنهن بهؤلاء..."

خرج كوزما كوزميتش برداء القس الاعتيادي لا برداء القداس، وعلى رأسه طاقية قسّ متّسخة تغطّي صلعته. (لأن القسّ القديم لم يكتف بالهروب من الاعتقال، بل استطاع أيضاً أن ينهب خزانة أثواب الكنيسة). نقل كوزما كوزميتش بصره بين العرائس. كلهن جميلات ناهدات مورّدات الخدود! وبدا العرسان

بوجوههم الهلعة أصغر منهن. تنحنح كوزما كوزميتش راضياً، وفرك يديه المثلّجتين، وأتمّ مراسيم القران سريعا مرحا تارة يتمتم في بربرة عجلى، وتارة يقلّد صوت الشماس العالي، وتارة يترنّم، ولكن كلّ شيء كما يجب حسب الأصول كلمة بكلمة، وحرفاً بحرف.

وبعد أن انتهى من مراسيم القران طلب من العرائس والعرسان أن يتبادلوا القبل، وألقى فيهم كلمة:

ـ في الأيام الماضية كانوا يحدّثونكم حكايات واعظة. ولكنني سأروي أنا لكم قصة من الحياة قبل الثورة بخمسة عشر عاما كانت لي أبرشية في قرية نائية. وكنت آنذاك أعيش في قلق كبير، يا مواطني الاعزاء. وأنا رجل روسي غير هادئ، وكلّ شيء لا يوافق مزاجي، وليس كما ينبغي، وأتأذّى منه. بينما أجد نفسي معنياً بكلّ شيء. فأنا أبحث عن العدل. وحدثت حادثة أنهت شكوكي. جاءني شيخ طاعن في السن يقوده صبي. أخرج من تحت لفافة نعله ورقة من فئة ثلاثة روبلات هرمة أيضاً، ودعكها وتلمسها، ووضعها أمامي وقال "هذه لك لتصلّي جنّاز الأربعين على روح امرأتي العجوز" قلت له: "أيها الجدّ، خذ الروبلات الثلاثة، وسأصلّي على عجوزك بدون مقابل... هل جئت من مكان بعيد؟" "نعم سرت عشرة أيام" "كم لك من العمر؟" "ضيّعت الحساب. ولكنّني أظنني تجاوزت المائة" "وهل لك أولاد؟" ـ "لا أحد، كلّهم ماتوا. وكانت العجوز حيّة، وقد عشنا سويّة ستين عاما، وتعوّد أحدنا على الآخر. وقد أشفقت، عليّ وأحببتها. ثم ماتت..." "وهل تعيش على التسوّل؟" ـ "نعم... إصنع معروفاً. خذ الروبلات الثلاث، وأقرأ جنّاز الاربعين..."

قلت "حسنا، قل لي الأسم" "أي اسم؟" "اسم العجوز" تفرّس في بعينيه الضريرتين: "ما اسمها؟ نسيت. غاب عن بالي...عندما كانت شابة كنّا نسمّيها الشابة، ثم سمّيناها ربّة البيت، وفيما بعد صرنا نسمّيها العجوز، وظلّت على ذلك..." "وكيف أصلي عليها بدون إسم؟" وقف العجوز طويلا متّكئا على عصاه. وقال "نعم، نسيت ذلك من الضنك، كنّا نعيش في عسر. حسناً، أنا ذاهب، وسأبحث، فقد يكون هناك أناس ما يزالون يذكرون..." وقد عاد هذا الشيخ في الخريف، وأخرج من لفافة نعله الروبلات الثلاثة وقال: "عرفت. في القرية تذكّرها شخص: إنّها إبنة بيتر".

كانت العرائس الست عشرة جميعاً واقفات منكسات الرؤوس مطبقات الشفاه. وكان الأزواج الشبّان الحمر الوجوه توتّراً بسبب ضيق ياقات القمصان يقفون إلى جانب زوجاتهم بلا حراك. بينما سكن الناس مصغين.

ـ إنّ الروسي قد نشأ جاهلا لا يتذكّر اسمه. كان السادة يعيشون حياة الأسياد، والتجار يغرفون الفلوس، ونحن القساوسة نطوف بالمباخر. أما أنتم وأنتن يا أهل الصبا والجمال فما كان من الممكن في تلك الأزمنة الملعونة أن تشعروا بالدم الحار يجري في عروقكم، بل تذوون كالزهور وسط الأحواض قبل أن تتفتحوا.

وقطع كوزما كوزميتش خطبته، وكأنّه يفكّر، وخلع طاقيته، وحكّ صلعته. سألت ناديجدا فلاسوفا بصوت منخفض:

ـ والآن هل يمكن الإنصراف؟

ـ لا، انتظري... وها أنا في منحدر حياتي وُفّقت في أن أرى

العدل... إنه ليس كالعدل الذي وصفه نيكراسوف. هل قرأتموه؟ لا... وليس كالعدل الذي كنت أحلم به، وأنا عند النهر في ساعة المساء أصطاد السمك وحيداً جالساً قرب النار، ضاربا البعوض على رقبتي. العدل كفاحي، متوعّد، متصلّب... وأقول لكم بصراحة أنني كثيراً ما خفته... فحين تلعلع الرشاشات، ويهجم عليكم الفرسان بالسيوف ينتهي وقت التفلسف (سرى بين الحاضرين ضحك مكتوم). إنّكم لن تجدوا العدل هناك، أشار إلى قبّة الكنيسة ولا حولكم. إن العدل هو أنت نفسك، أيها الإنسان الشجاع. فلتكن لديك الرغبة والجرأة... لماذا تنظرون إليّ؟ أم لعلّ حديثي غير مفهوم؟ جئتكم لأعلّمكم كيف تفرحون. سترقصين اليوم يا أولغا ونادیا وستيشا وكاترينا ـ وكان لدى كلّ إسم يشير بيده إلى صاحبته ـ حتى تئنّ ألواح الأرضيّة، وحتى تتوهّج عيون نيقولاي وفيودور وإيفان توهّج عيون المسعورين.. وهذا كلّ شيء... انتهت الموعظة...

وأدار كوزما كوزميتش ظهره للناس، ودخل حجرة الخزانة.

عاد مفوّض الفوج إيفان غورا من تساريتسين وقد قالوا له هناك أنّ فصائل التموين التي أرسلت من بتروغراد وموسكو لم تكن دائماً على مستوى المهمّة الموكلة إليها. وبين رجالها أناس غير مجرَّبين أحنقهم الجوع، وأخرجتهم عن توازنهم رؤيتهم الناس يأكلون الوزّ في القرى. وقد إختفت إحدى هذه الفصائل دون أثر، ووجدت فصيلة أخرى في محطّة فورونيج في عربة بضاعة مختومة عثر فيها على جثث ثلاثة من عمّال بتروغراد شقت بطونهم، وحشيت بالحبوب، وألصقت على جبهة أحدهم رقعة كتب فيها "كلوا حتى الشبع".

وعد المفوّض الرفاق في تساريتسين بالمساعدة. ولدى عودته إلى الفوج بدأ يختار الرجال للفصائل مجرياً أحاديث أوّلية معهم. وعين لاتوغين وبايكوف وزادويفيتر للسفر على قرية غير مدفأة، ولك الآن، وبعد عودة اغريبينا من المستشفى، كانت أرضه مكنوسة، وعند العتبة فرشت حصيرة، ووضعت فوطة مطرّزة على الطاولة، ولم يكن يفوح بالتبغ الرخيص الحامض بل برائحة خبزٍ طازج. طلب من الرفاق أن يمسحوا أحذيتهم جيّداً لدى الدخول وقال:

ـ اجلسوا. ماذا عنكم من أخبار سارة؟

أجاب لاتوغين:

ـ وأنت ماذا عندك؟

ـ إسمعوا إذن. يبدو أن فتياننا لا يذهبون لجمع الحبوب عن رغبة.

ـ وما دخل الرغبة هنا أو عدم الرغبة؟ إذا وجب أن يذهبوا فسيذهبون. وأنت تطلب الرغبة!

ـ ولكن القضيّة دقيقة جداً.

كان إيفان غورا يجلس وظهره إلى النافذة، فخاطب زادويفيتر الذي كان يدقّ الطاولة بأظافره جهماً:

ـ أنت يا حارس الأرض، ما رأيك في هذه الأمور؟

ـ كم تريد أن تأخذ من الحبوب من سباسكويه؟

ـ كميّة كبيرة نوعاً ما. أربعة آلاف وخمسمائة بود(٥)) من مائة واثنين وستين بيتاً، مع التفريق بين الغني والفقير بالطبع...

---

(٥) البود يساوي ١٦،٣ كيلو غراما. المترجم.

ـ أشكّ في أنّهم سيعطون مثل هذه الكمية.

ـ ولهذا السبب أرسلكم، لكي تجعلوهم يعطون. أرسلكم بلا سلاح، أيها الرفاق.

غمغم لاتوغين:

ـ لا حاجة له.

غمز بايكوف وقال:

ـ بدونه سنبرهن بصورة أقوى. أننا ذاهبون إلى أصحابنا لا إلى أعداء.

قال إيفان غورا عابساً:

ـ إلى أصحابنا وإلى الأعداء.

قال زادويفيتر:

ـ إسمع، يا مفوّض. أنا لست أتراجع، ولكن ليس من علمنا أن ننسلّ إلى أهراء الآخرين. فإنّ ذلك مقرف.

ـ وأنت، ما رأيك، يالاتوغين؟

ـ لا تحاول أن تنفذ إلى سريرتي، يا إيفان... سنجلب لك الحبوب، وكفى.

ـ وأنت يا بايكوف؟

ـ أنا من البحر الأبيض، وأحترم الجماعة.

ـ يا رفاق، لهذا السبب دعوتكم ووضع إيفان غورا يديه الكبيرتين على الطاولة. وأخذ يتحدّث بصوت هادئ، كما يتحدّث الأب مع أبنائه أنّ احتكار الحبوب هو شريان الثورة الحيوي. إذا الغى الاحتكار ألآن فسيصبح الغولاك سيّداً مهماً بذلنا من عرق ودم. وهو ليس صاحب الحانوت السابق ذا السماور المنتفخ، بل

هو غولاك متمكّن واسع الحيلة متمرّس.

صاح زادويفيتر:

ـ غولاك... غولاك؟ قل لي أنّ في استثماري بقرتين، فَمَنْ أنا؟

ـ ليست مسألة بقر، ولكن لمن ستكون السلطة؟ إنّ غولاك القرية يفكرّ في ذلك ليل نهار. فقد سرَّح شغيله، وذبح بقرته، ولم يحرث الأرض في الخريف، وهو يهتف في الاجتماعات العامة، ويصوّت للسلطة السوفييتيّة. أنّه سريع الحركة كالبرغوث.

ـ حسناً، يا إيفان... لو أعود إلى البيت، وأشتري بقرة أخرى أو ثورين فماذا أكون؟

ـ هل دخلت إلى الجيش الأحمر عن رغبة أم كراهية؟

ـ عن رغبة، بالطبع.

وافقه زادويفيتر فقال إيفان:

ـ إذن، فلن تشتري ثيرانا.

ـ ولماذا؟ لا أعرف لماذا ينبغي ألاّ اشتري ثيرانا.

ـ يجب أن تكون اهتماماتك أوسع. فأنت لم تحمل البندقية من أجل هذين الثورين...

قال لاتوغين:

ـ ولكن سيشتري الثيران. فلماذا تعذّبه؟ تابع حديثك. هزّ إيفان غورا رأسه مبتسما:

ـ لا أريد أن ادخل في جدال ولكنّني أؤمن بالإنسان... ولكن، حسناً... ما هي مهمة هذه الطبقة؟ مهمة الغولاك هي الإستيلاء على تجارة الحبوب. إن الثورة فتحت عيني الغولاك

وهو الآن لا يحلم بدكّان في القرية، أو بحانوت بل بإهراءات حبوب وسفن... ولو استطاع أن يمتطي الثورة فأنك ستعمل له يا زادويفيتر، حتى تنضح عرقاً ودماً، وستكون ثيرانك له. إنّه يفكر أيضاً بتحويل الاحتكار لصالحه. ذات مرة دخلت قرية مع فصيلة تموين، وبذلنا قصارى جهدنا يُجْد ذلك نفعاً. العداء فيما حولنا وكلّ كلمة نقولها لا تترك أثرا. كان بابولين مصّاص دمائهم في معطف رثّ من فراء الأغنام، وحذاء لبّادي مرقّع يبدو ناعماً رقيقاً لا يفتأ يعضّ شعر لحيته... فكّرت مع نفسي: أي شيء هذا؟.. وذهبنا إلى إهراءاته فلم نجد حبوبا. وحفرنا هنا وهناك بالطبع، ولكن لم نعثر على شيء. وفي زريبة الحيوانات لم نجد غير حصان هزيل، وجلدين من جلود الأبقار معلّقين في السقف. فما الذي فعل؟ إنّ إبن الكلب هذا عرف بمجيئنا فطاف على الفلاحين قائلاً: "آه، آه... الجندرمة القيصريون لم يعذّبوكم مثلما ستعذّبكم السلطة السوفييتيّة. أنا لا يهمّني شيء. أستطيع أن أنتقل إلى ابنتي في المدينة، فقد تزوّجت رئيس اللجنة التنفيذيّة هناك. أما أنتم فلا أعرف كيف ستقضون هذا العام. إنّ البلاشفة يأخذون كلّ شيء، وحتى القش الذي على سطوح بيوتكم سيأخذونه للجيش الأحمر... والله يحبّ المحسنين، فاذهبوا، يا أخوان، إلى إهراءاتي، وخذوا ما فيها من حبوب ولا تبقوا على حبّة، سنعيش، وسنتحاسب فيما بعد..." ومع ذلك فقد أخذ منهم وصولات، ولكنّه ظلّ محسناً... ولم يعطنا شيئا، بينما ستعود حبوبه من الفلاحين مضاعفة. قد يكون صغيرا، ولكن أمثاله كثيرون في كلّ مكان. وليس القضاء عليه سهلاً. وهو منذ ألف عام يتحكّم بما يدخل في فم الفلاح من طعام، ويعرف أي خيط يمدّ ولأي إنسان. نعم، يا أصحاب، إن احتكار

الحبوب قضية رئيسية بعيدة النظر. حقّاً أنها صعبة.

ولكن ما هو السهل؟ إن حراثة الأرض البكر صعبة دائما. والسهل فقط هو العزف على البلالايكا. وإذا كان الفلاح لا يفهم هذه السياسة الكبيرة فأنت الملوم في ذلك بالدرجة الأولى. إذهب إلى بيت مزرعة الثريّ وقل له: "افتح إهراءاتك". إن كلّ حبّة فيها غزيرة كالدمع. ولكن كلّ حبّة فيه مقدّسة لقضيّة مقدسة.

ـ أين مفاتيح سوفييت القرية؟

ـ عند الرئيس...

ـ ما يزال هناك يمرح...

نزل لاتوغين وبايكوف وزادويفيتر من العربة ولم يعرفوا ماذا يفعلون. وانصرف الذي سألوه. راقبوه طويلا وهو يتوغّل في الشارع. وكأنّ الأرض نفسها قد بلعته، وانفغرت عن هاوية. جلسوا على مقدّمة سوفييت القرية، ولفوا اللفائف، ودخّنوا. كانت تهبّ على وجوههم ريح باردة تسوق السحب. ونزلت حبات لاذعة من الثلج وكأن منخلا ينخلها، وسرعان ما امتلأت بالثلج أخاديد الطريق الأسود، واستحال الجوّ قفراً.

قال زادويفيتر:

ـ حين أسمع المفوّض يتحدّث أحس بيدي تريد أن تمسك سيفاً. ولكن الواقع في هذه القرية مثل كلّ القرى. أين أولئك الأعداء؟ إسمع عزف الموسيقى الصاخب!

على بعد عشرة بيوت منهم ظهر جمع صغير من الناس لابدّ أنهم كانوا من غير المدعوّين إلى العرس، أو الذين ضاق بهم المكان. وترامت من هناك أصوات أكورديون تمتدّ إلى أقصاه أيدٍ ثملة، وطبطبة أقدام.

قال لاتوغين:

ـ أنت تريد أن تبلّل أصابع قدميك فقط، بينما يجب الغطس إلى القاع، أيها الرفيق العزيز. إن الثورة تتطلّب التعميق، وقد تحدّث المفوّض عن ذلك.

ـ التعمّق، التعمّق! وإلى أي حد؟ إنّنا نقلب كلّ شيء ولكن يجب أن يعيش الناس، ويبذروا الحبّ، وينجبوا الأولاد. فمتى سيكون ذلك؟

ـ الشيطان يعرف، متى. لا توجّه السؤال إليّ.

كان لاتوغين حانقاً يقضم القش. غضّن زادويفيتر جبينه. وفكّر في كلمات المفوض يوم أمس مستغرقاً فيها غير منقطع عنها على طريقة أهل الريف. قال بايكوف:

ـ إذا بقينا فإن قضيّتنا تظلّ جامدة لا تتحرّك، يا أولاد. فهل نذهب للبحث عن رئيس السوفيّيت؟

ورفع جسمه، فقال له لاتوغين:

ـ لا تذهب.

ـ يعني كيف؟ ولماذا؟

ـ ليس من المستحبّ أن أشرح لك السبب.

عندئذ قال زادويفيتر بتصميم:

ـ إذا كان لابدّ من الذهاب، فلنذهب سويّة. هيّا إلى الرئيس.

ـ لا أذهب.

ـ يجب أن تخضع.

ـ كفاك، يا لاتوغين قال بايكوف بمصالحة لن نقترب من

المائدة، ولن نشرب قطرة واحدة. سننادي على الرئيس من الرواق.

وذهبوا للبحث عن الرئيس. وكان ستيبان بيتروفيتش نديوشاشى قد أمسك نفسه يومين وفي اليوم الثالث أخذ يفكّر بأن القرية قد تفلت منه. نظّف الوحل من رجله الخشبيّة، ولبس بنطالاً أسود دون أن يحشره في رأس حذائه، وفتل شاربيه، وسار مهيبا في جولة في القرية.

"الحمد لله... تفضّل، يا ستيبان بيتروفيتش..." فكان بين معانقة من رب بيت ومصافحة ودِّية من ربّ بيت آخر: "للرئيس مكان الصدارة!" وكانوا يجلسونه في الركن تحت الأيقونة وكانت الخطّابة تجلب له العصيدة الكثيفة المالحة على طبق صغير ليدفع فدية، فكان يدفع روبلاً واحداً (لا أكثر)، ويقبل قدحاً مملوءاً بالفودكا، ويتمزمز بقطعة من السمك الجاف. كان على خطأ في ظنّه بأنّ الاحتفالات ستنتهي في اليوم الثالث، فإن اليوم الثالث لم يكن إلا بداية للاحتفال الكبير، والرقص والغناء والعناق والأحاديث القلبيّة، والمشاجرات، والمصالحات.

ثم ما أقوى هؤلاء الناس! وكم تحمّلوا خلال هذه الأعوام: التعبئة في عهد القيصريّة، حين بدأوا يستدعون في آخر المطاف من كانوا في سن الرابعة والخمسين، ولم يبق إلا النساء، يحرثن الأرض. وفي مكان ما في الشمال كانت المرأة تسوق محراثا يجره حصان واحد، أما في هذه الأماكن فقد كن يحرثن بمحراث ثقيل يجرّه زوجان أو ثلاثة أزواج من الثيران، وما تزال النسوة يتذكّرن ذلك الخريف حتى الآن. ومات الكثيرون من الناس من الأنفلونزا الخطيرة. واحترقت القرية مرتّين. وما كاد

الرجال يرجعون من الحرب العالميّة حتى بدأت التعبئة لجيش كراسنوف والابتزازات الثقيلة، وإيواء القوازق، كما هو معروف، خفاف الأيدي. يبدو القوزاقي لك في ساعة وكأنّه صاحبك الودود، ولكن ما أن يمتطي سرجه حتى ينقلب إلى قوزاقي أصيل لا يتورّع عن طعن خنزيرك بأزرق إذا رآه في الشارع. وكلّ ذلك أصبح من الماضي. وصارت السلطة لنا الآن، والضرائب والإتاوات ألغِيَت، وأضيفت قطع أراض جديدة، وكان الناس يريدون أن يمرحوا بلا قيد.

وكان ستيبان بيتروفيتش يجلس في كلّ بيت وقتاً كافياً لإرضاء ربّ البيت ثم ينتقل إلى بيت آخر فيه وليمة. وكان يتحدّث في ركن الأيقونة أحاديث رصينة مع أبَوَيْ الزوجين وأمّيهما عن الحرب الأهلية المندلعة الآن في شمال الدون قرب فورونيج وكامشين حين كان كراسنوف يمزّق الجيش الثامن والتاسع. "...ولهذا، أيها الحمو العزيز، والحماة العزيزة والخطّابون الاعزاء، لا يجوز لنا أن نغفو، حتى لا نؤخذ على غرّة! بل يجب أن نساعد السلطة السوفييتية... وكان يتحدث عن الشؤون المحلّية، وعن هذا وذاك، فكان أصحاب البيت يدهشون من سعة اطلاع ستيبان بيتروفيتش. إنّه يعرف ما يوجد في إهراءات هذا، وما تضمّ زريبة ذاك، وما يخفى ثالث من أشياء.

وصعب عليه أكثر فأكثر الانتقال من بيت إلى بيت على رجله الخشبيّة، وأن يبدأ من جديد الشيء نفسه: تبادل التحيّات والجلوس. وفي أحد البيوت تناول فجأة صحن العصيدة من يد الخطّابة وأكلها كلّها، وكانت ملحاً فقط، وأخرج من جيب معطفه العسكري أوراقاً نقدية مدعوكة، هي كلّ ما تبقّى له، وحشرها في

يد الخطّابة، وجرع قدحا كبيراً من الخمرة البيتية، وصاح بالعروس التي ظلّت ترقص لليوم الثالث في الغرفة الحارة وضيق المكان رقصة الكادريل لعشرة أزواج من الراقصين:

"ستيبانيدا، أرقصي أقوى!"

وفي ذلك الوقت أخبروه بأن ثلاثة من الجنود الحمر يسألون عنه. فقال: "ادعوهم إلى هنا" أجابوه: "دعوناهم، فلم يقبلوا..."

أسند ستيبان بيتروفيتش يديه على المائدة، وأحنى رأسه، ووقف برهة، وطلع شاقاً طريقه بين الناس، وخرج إلى الرواق حيث وجد بالفعل ثلاثة رجال يبدو عليهم الجدّ.

سأل بصوت ثابت:

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ من أنتم؟

ـ فصيلة التموين!

أجاب لاتوغين بلهجة تهديد متوقّعاً أن يجفل رئيس السوفييت على أقل تقدير. إلا أن ستيبان بيتروفيتش الذي كانت تفوح منه رائحة قويّة لطيفة جعلت بايكوف يقترب، لم يجفل البتّة: جئتم في اللحظة المناسبة! أنا انتظركم منذ زمن... يا ناس!

ـ صاح ستيبان بيتروفيتش في الباب الموارب الذي كان ينبعث منه الضجيج ورنين الأواني وطبطبة الأقدام أوقفوا الموسيقى مؤقّتا! وفي هذه المرّة ترنح بشدة حتى أنّ بايكوف سنده بمسكة من يده. يا رفاق، جئتم أنتم إلى سوفييت قرية سباسكويه، لا إلى أي مكان آخر!

وأمسك بمسكة الباب، وصاح في داخل البيت بتصميم أشد:

ـ أيها المواطنون، إلى الاجتماع جميعاً!

وخرج من الرواق إلى الفناء، حيث كان ثلاثة فلاحين كهول متكئين على عربة محلولة من خيولها يغنّون أغنية قوزاقية بأصوات متنافرة، واثنان متعانقان يبرهن أحدهما للآخر على شيء ما بينما كان شخص آخر يدور محاولاً أن يجد باب الخروج ليذهب إلى بيته. وهنا أيضاً، وخارج البوابة حين كان الناس يرقصون على الأكورديون كرّر ستيبان بيتروفيتش طلبه في الذهاب إلى سوفييت القرية دون تلكّؤ.

وكان يقول وهو يسير ضارباً رجله الخشبية على الأرض المتجمّدة بحدّة.

ـ الأفراح أفراح، والعمل عمل. القوائم جاهزة. والاحتياطات قد عرفت وسجّلت... أرسلوا برقية إلى تساريتسين أذكروا فيها أن الحبوب سُلِّمت كاملة وعندما حاول بايكوف وزادويفيتر أن يقنعه بتأجيل الاجتماع ولو إلى الغد حتى يصحو الناس من سكرهم على الأقل راح ستيبان بيتروفيتش يكرّر مَنْ يكون ذكّياً وهو سكران، فإنّ نفعه مزدوج. لا حاجة لكم لتعليمي. غداً سيكون الأمر أصعب. يجب ألاّ ندع أحداً يفكّر في الأمر مرّتين.

وبينما كان الناس يتوافدون إلى سوفييت القرية وضع ستيبان بيتروفيتش أمام الرفاق من فرقة التموين السجلاّت والقوائم، وأخذ يهمس بحماس:

ـ لدينا ثلاثة بيوت من الغولاك: كريفوسوتشكا وهو لص، في العام ١٩٠٧ نهب البريد، وقتل الساعي، وأخفى الفلوس عشرة أعوام، وبعد مرور فترة طويلة على الجناية بنى لنفسه هُرْياً من الآجرّ، ومخزنا، وأثناء الحرب جمع المال من صفقات

الجلود. وفي قرية سباسكويه وحدها نحر نصف الماشية. والآن يسعى إلى تكوين جمعية تعاونيّة، وينقل إليها مخزنه، وسأكتشف هذه الحيلة سريعا... إنّه يقول عن نفسه أنه مسلول، وأنّه يرى النور في الليالي... إنّه رجل خطير. أما البيت الغولاكي الآخر فهو بيت ميلوفيدوف، وكان هذا متعهِّد مناجم عاد إلى القرية قبيل الحرب، وصار يدير حانة سرّية مع محلّ للرهون... إنّه عنكبوت مُرابٍ وغد امتصّ القرية قطعة قطعة. وقد عرفنا أنّه هو الذي أرسل إلى القرية الشخص الذي زعم أنه الإمبراطور نيقولا الثاني وذلك ليعرف مزاج الناس... والغولاكي الثالث هو ميكيتنكو تاجر المواشي أباً عن جدّ. وكانت له صنادله على الدون. وبالإضافة إلى هذه البيوت الثلاثة يوجد حوالي عشرة بيوت من ذوي قرباهم والأنساب والأصدقاء المقرّبين. كما أنّ هناك فلاحين حذرين يقولون: "من يدري بِمَ ينتهي هذا كلّه، ولمن ستكون السلطة، والذي لا يدخل في خصومة مع أحد هو أذكى من غيره". أولئك من جبهة الأعداء... أما هؤلاء فهم جميعا من جماعتنا ومرّر إصبعه السميكة على القوائم قائلا: الوضع في القرية حرج. أما أن يقتلوني، وأما أن أقصّ جناح بعضهم.

تجمهر الناس على سوفييت القرية صاحين وسكارى. وتزاحم الجمهور وتماوج وهدر. كان بايكوف يتطلّع من النافذة فترنَّم مع نفسه بأغنية بحرية:

طيور النورس تحوم على الرمل،
أمّارة على حنين البحار،
ومادامت لم تقع على سطح الماء
فالبحر عاصف الجوّ...

وقال بصوت عال لرفاقه:

ـ هيا إلى واجهة البيت سريعا، وإلا فسيحصل اضطراب...

اندفعت إلى بيت آنا فتاة من الجيران صغيرة منمّشة زرقاء العينين عارفة بكلّ شيء، وقالت سريعة الكلام تعبّ الهواء مع كلماتها:

ـ آه، لو تعرفين ماذا حصل في سوفييت القرية! الفلاحون يقلعون أوتاد السياج...

وبنظرة واحدة من عينين لا ترمشان ألمّت بكلّ شيء. ورأت آنا في فستان قرمزي كانت قد ارتدته مرّة واحدة في حياتها حين كان زوجها حيّاً، وحذاء له حاشية، وجوربين أبيضين، وكانت تجلس حاسرة الرأس على حافة السرير حيث استلقى القسّ المجرّد من مسوحه عاكفا ركبتيه. وقد لبس قميصاً نظيفاً أعطته له آنا مرقّطاً بنقاط سود. وكان يمسك بيد آنا...

صاحت آنا بها خجلة:

ـ ما لك تندفعين إلى أبواب الناس!

فوثبت الفتاة خارجة من البيت، ولم تقلْ كلمة واحدة من الخوف. إلا أنها جعلت كوزما كوزميتش يستيقظ. وكان قد تعب خلال الأيام الأخيرة، فقد شرب وأكل كثيرا، وتحدّث أكثر. ولم يفوت الفلاحون كلمة واحدة من موعظته ولم يكونوا قد فهموا بعض الأقسام منها، إلا أنّ ذلك لم يزدها إلا قيمة. وكان في كلّ بيت يضطر إلى أن يتحدّث عن الشيء الذي أثّر فيهم أكثر من غيره: عن العدل. وحين كانت المائدة تخلو إلا من الشيوخ والأجلاّء كان أحدهم ممن أرخت الخمرة أفكاره يدفع العظام

والفتات بكمّه، ويبتدره قائلا:

ـ أزعلتنا يا كوزما كوزميتش... كيف تقول لا يوجد عدل؟... عند ذاك سيكون العالم غابة وحشيّة.

وكان شخص آخر يقاطعه: شبابنا ويشير برأسه إلى الطرف الآخر من البيت، حيث كانت التنانير والضفائر والشرائط والوجوه المنفعلة تدور لا يمكن السيطرة عليهم. إنهم يقولون الآن أنّ كلّ شيء ممكن: لا وجود للّه ولا للقيصر، وآباؤنا وأمهاتنا حمقى. لطيف هذا... فأي شيء يمسك أولادنا الآن؟ أين الرابط الذي يشدّهم؟ وعلاوة على ذلك تقول: لا يوجد عدل...

فيتدخّل شخص آخر ذو لحية في الحديث:

ـ حين يأتي من إنسان أقوى، فأن هذا سيكون في الأعلى، وسيكون عادلا أيضاً. وسنكون نحن مرة أخرى مثل أجمة مشذّبة...

سأل كوزما كوزميتش:

ـ هل أنت قويّ؟

ـ أنا قويّ.. ولكن الروبل أقوى مني.. تلقّيت منه الضربات طوال حياتي.

ـ وهل شكوت إلى أحد؟

ـ وإلى من أشكو؟

ـ وهل ذهبت للأضرحة المقدّسة في ديركييفو بيشورسكيا؟

ـ لا، لم أذهب.

ـ إذن، لا يوجد عدل؟

ـ كيف لا يوجد؟ كنت أغلي من الغيظ. وقد عدت من

الحرب ومعي بندقية، ووقفت على الحد الذي يفصل أرضي، وقلت: هل اعتبرتموني مقتولا؟ أعيدوا لي فداديني الثلاثة!..

ـ وهل أعادوها؟

ـ بالطبع...

ـ إذن، يوجد عدل؟

ـ أي عدل هذا بتخويف الناس بالبندقية؟ لا، يا أخ أنا لا أريد أن أؤذي أحدا، ولا أريد أن يؤذيني أحد. هذا هو الجدّ واكيم. وحيد فريد... لم يعد قادراً على العمل، ويعيش على عطايا الناس، يقدّمون له قطعة خبز مرّة. أين ذهب كلّ ما عمله؟ كان له كوخ صغير، فاستولى عليه ميلوفيدوف لقاء ديونه... وأعمالي أين تذهب؟ كدحت خلال خمسين عاما ما يكفي لبناء أربعة بيوت آجرية، بينما هذه ثيابي ممزّقة عند الكوعين...أعمالي كالحمام تطير مني، وتحطّ على سقف شخص آخر، لا على سقفي... جميل قولك: "إن العدل هو أنت نفسك، أيها الإنسان الشجاع". أنا، يا كوزما كوزميتش لا أخاف الموت، وما أزال قادرا على حمل عشرين عوداً على ظهري، ولكنني لا استطيع أن أنال العدل. لو كان هناك عدل لقدّر الإنسان حسب عمله لا حسب ما يملك من الفلوس... كيف يمكن تحقيق ذلك؟ شكرا للسلطة السوفييتيّة عند ذاك...

ـ ذلك بالذات قانون السلطة السوفييتيّة، يا عجيب...

ـ يعني، ما زال في الطريق إلينا.

وأحزن كوزما كوزميتش أنّه على الرغم من كلّ دهائه لم يستطع أن يجيب هذا الرجل بشيء. فقد كان تجاذب الحديث مع المثقّفين أسهل بكثير من تجاذبه مع الفلاحين. وفي جميع

الأحاديث حول الموائد التقط ما يشبه الرضا مشوبا بعدم الارتياح والامتعاض والترقب. وبدا وكأن هؤلاء الناس ينظرون على نحو غامض شيئاً جذرياً تأتي به الثورة، ويستعجلون مجيئه سريعاً.

وفي ليلة اليوم الثاني جرجر نفسه إلى بيت آنا وهو في حال سيّئة تماماً. وجلس على الأرض إلى جانب المصطبة، وطبطب على وجهه بكفّيه، وغطّى وجهه بيديه، وضحك وهو يردِّد: "أحسّ بضعف يا آنا. صرت عجوزا، يا آنوشكا".

قادته آنا إلى الحمام على شاطئ البحيرة دون أن تتفوّه بكلمة. وغسلته بنفسها وسخّنت جسمه بالبخار. وكان الهرم لا يبدو إلا على وجه كوزما كوزميتش، أما جسمه فأبيض أملس. واستولى الحنان على آنا حين رأته يقفز على الرف كالسمكة ويقول "عليّ بالليفة..."

وبعد الحمام هدأ ونام حتى الضحى منتظم الأنفاس. ولما استيقظ شرب حليباً وقال "اعذريني، يا آنوشكا، ولا تعتبي عليّ رأسي يوجعني..." وغفا ثانية. وحين أيقظته الفتاة الجارة كان مرحه المألوف قد عاد إليه.

ـ ما الذي جا بالفتاة الصغيرة؟

ـ اجتماع عام، كما يبدو. جأ جنود من الجيش الأحمر لجمع الحبوب، وعلا الهرج.

ـ إنّهم جماعتنا، يا رب!

أخذ كوزما كوزميتش يلبس ثيابه على عجل. نظرت آنا إليه من تحت حاجبيها صامتة. وفي تلك البرهة انفتح الباب مرة أخرى، وأدخلت الفتاة الصغيرة رأسها فقط:

ـ إنّهم يتعاركون. المصابون كثيرون! عادت فلاسوفا بزوجها

إلى البيت مضرّجا بالدم... ملأت الشارع صراخا، وهي تشتمك... وأخذ ميتروفان كريفوسوتشكا يشدّ حصانه، فمنعوه. جرّوه وراء البوابة، وأخذوا يضربونه بقسوة.. يا ويلي!

واختفت مرّة أخرى. وسار كوزما كوزميتش في أثرها إلى الباب، فصرخت آنا بصوت مرعب:

ـ لن أتركك!

وقفت عند الموقد طويلة نحيلة رافعة كتفين شبيهتين بأكتاف الرجل، ودفعت رأسها إلى الخلف وكأنّما قُصِم ظهرها. ضغط كوزما كوزميتش على يدها بكلّ قوته:

ـ آنا، لا تكوني حمقاء! وإلا سأمسك بقضيب النار... اهدئي. سأعود بعد قليل. لنتغدّ مع الرفاق. فأعدّي لنا فطائر، إسمعي... كُفّي عن هذا، أقول لك!

قالت بجهد من خلال أسنان مصكوكة:

ـ طيّب، يا أبانا...

كانت الجارة الصغيرة تريد شيئا أرهب بكثير ممّا شاهدت، وهي تركض نحو سوفييت القرية وتعود ناشرة الخبر في البيوت. إلا أنّ الاجتماع كان صاخباً حقاً. لم تثر مسألة إعطاء الحبوب نقاشات كبيرة: "فاللازم لازم". وأصغى الناس بهدوء إلى الرئيس وهو يقرأ قائمة الحصص العادلة، وجعلوه يكرّرها. وبدأت في الجمع أحاديث قصيرة وحركة، وأخذ بعض الناس يتزاحمون ليقتربوا من واجهة البيت، وآخرون يتدافعون إلى الشمال نحو حديقة الخضراوات المجاورة، المحاطة بسياج من الأغصان المضفورة.

صاح ميكيتنكو بصوته الطاغي المعروف للجميع: "ليس هذا

صحيحا!" فردّدت عليه اصوات كثيرة "صحيح، صحيح!" واندفع إلى واجهة البيت رجل ملتح ممزّق الكمّ، وألقى قبعته تحت رجليه، وأخذ يلقي مظالم قديمة:

ـ أين ذهبت كلّ أتعابي؟ إلى هؤلاء. وهل عليَّ أن أركع على الأقدام أمامهم لقاء كسرة خبز؟ وهل هذه هي السلطة السوفييتيّة؟

دفعه شخص آخر ممتقع الوجه من الغيظ، وأخذ يتفوّه كلمات أفظع. عند ذاك اندفع قسم من الذين كانوا واقفين على بعد مقتربين من السياج، وانتزع الأعواد، وهاجم المجتمعين من الخلف. نزل لاتوغين وزادويفيتر وبايكوف من واجهة البيت، ودخلوا بين الناس مفرّقين إياهم، منتزعين الأعواد من أيديهم، صائحين: "بلا فزع، كلّ شيء على ما يرام. واللعنة على الشيطان... الاجتماع مستمر..."

وكانت المشاجرة قصيرة، فقد كان المهاجمون قليلي العدد. بعضهم اختفى، والبعض الآخر لوحق في الشارع. وبقي بعض الناس منطرحين على الأرض المغطّاة بالثلج...

سار كوزما كوزميتش عبر أسيجة حدائق الخضراوات تقصيراً للطريق، وأضاع طريقه، ووجد نفسه في بيت لا يعرفه. ورأى نسوة كانت إحداهن تنتحب، والأخريات يستمعن إليها. وحين وقع بصرهن على كوزما كوزميتش أخذن يتحدّثن. وتقدّمت فارفارا فلاسوفا أم ناديجدا نحوه طاوية كُمّي معطفها الجنفاصي الطويلين وقد بدا عليها الغيظ، وتحرّكت الأخريات وراءها. قالت فارفارا:

ـ لهذا السبب لم تأخذ فلوساً منّا، أيها القسّ المجرّد من

مسوحه!.. بينما نحن، الحمقاوات صدّقناك... جعلت القرية كلّها تسكر... انتزعت كلّ شيء منا... شوشت عقول جميع الحمقى، هذا المشوّش... باعنا للشيوعيّين.. لا تبحلقن فيه، بل اضربنه حتى الموت.

ردّ كوزما كوزميتش متراجعا:

ـ لا يجوز لكن ضربي... متأسّف، يا نسوان.. لا تَمْسِسْنني!

ـ وهل أسفِت أنت علينا؟

خلعت النسوة المناديل من رؤوسهن هائجات وأخذن يتكلّمن دفعة واحدة، متّهمات القس المجرّد من المسوح بالاجحاف في تعيّين الحصص، وبسفك الدماء في سوفييت القرية، وبأنّه هو الذي جعل ربّ البيت المقتدر لا يجد مكانا له الآن في القرية، كما أنّه المسؤول في أن ينحر ويؤكل هذا العدد الكبير من الوز والخنانيص في هذه الأيام، لقد كان المذنب في كلّ شيء. وحصرته النساء على السياج. وذهبت جهود كوزما كوزميتش عبثا في سحرهن من جديد، مُكرِهاً نفسه على الابتسام متمتماً: "هيه، أعلنتن عن غضبكن، وكفى... لنتكلم بهدوء..." كانت فارفارا فلاسوفا أول من جذبت شعره من جانبي أذنيه، وتتابعت ضربات النساء على ظهره المحنى. وفكّر أنّ أفضل طريقة هي أن ينطرح، ويغطّي وجهه بيديه. كانت أضلاعه تطقطق. وتمنّى في سرّه: "فقط أنْ لا يضربنه بشيء صلب... وإذا به يسمع صوتا قويّاً: "اضربنه بالعود، هذا المسخ!" حاول كوزما كوزميتش أن يقفز، إلا أن غشاوة غطّت على بصره. وفجأة رفعوا أيديهن عنه. عند ذاك سمع توجّعه وأجبر نفسه على أن يمنع نفسه عنه. رفعته أيد وأسندته إلى السياج.

مسح كوزما كوزميتش الثلج والقشّ عن عينيه ورأى آنا ووراء تنورتها وجه الفتاة الصغيرة المنمش يبدو عليه التحمّس. كما رأى لاتوغين وزادويفيتر وبايكوف.

سأل لاتوغين:

ـ هل أنت حيّ؟ ليجلب له بعض الناس قدحاً من الخمرة البيتية الآن. إنك، يا كوزما، فعلت الكثير هنا... واتخذ الاجتماع قرارا بشكرك على الدعوة ضد الكنيسة...

ـ لا يمكنك أن تتصوّري، يا داشا، إلى أي حدٍّ كنت غثّاً، إنسانا كئيبا طوال المدة التي أعقبت افتراقنا في بتروغراد.. نعم، كنت ذلك الرجل... إنّ لنا حياة لاشعورية. إلها كالعلة تعذبك وتضعك على نار بطيئة... وتفسير ذلك سهل بالطبع... أنتِ كففتِ عن حبي، وأنا...

أدارت داشا رأسها إليه بحركة سريعة، فقرأ في عينيها الرماديتين النديتين الرهيبتين دائما أنه على خطأ، فإنّها لم تكفّ عن حبّه. وخدّرته تلك النظرة لحظة، ثم انفرج فمه عن ابتسامة لا تنم عن ذكاء كثير ولكنّها فرحة على أية حال. واصلت داشا وضع الأشياء في سلّة صغيرة، وهي أشياء حصل عليا إيفان ايليتش صباح اليوم كجرايات من الألبسة بعد أن طاف عدد من المؤسّسات.

كانت أشياء ضرورية ومفيدة: جوارب، وبعض القطع الصغيرة من القماش يمكن أن يفصَّل منها فستان، وملابس داخلية جميلة جدا ومن ألبسة لا تصلح إلا لصبيّة، مع الأسف، إلا أن داشا كانت من الهزال والنحافة بحيث كانت تبدو صبّية. وكانت من بين الأشياء أحذية طويلة. وكان إيفان ايليتش معتزّاً بها اعتزازاً

لا يقلّ عن اعتزازه فيما لو أنّه استولى على بطّارية للعدو. وكانت هناك أشياء تدعو إلى التفكير فيما إذا ستكون نافعة في حياة التنقّل التي تنتظرهما. وقد أعطيت لإيفان ايليتش بدلا من المفارش وأخذها من أحد المستودعات. إنّها قطة وكلب من الصيني، وبعض عاقصات الشعر من الجلد، دزينة من بطاقات البريد عليها مناظر من القرم، وكورسيه من قماش جيّد للغاية له اذنيات من عظم الحوت، كبير جداً حتى أنّ داشا استطاعت أن تلفّه على نفسها مرّتين.

ـ داشنكا، أنا اتكلّم عن وداعنا في محطّة القطار... لقد قلت لي شيئا مثل: "وداعا إلى الأبد..." ربما اخطأت في سمعي.. كنت أيضاً مغموما جداً... وكنت أنت هشة شاحبة بعيدة المنال، عازفة عن الحبّ...

ـ أيّة فظاعة!

قالت داشا ذلك دون أن تلتفت. وكانت تلفّ القطة في جورب سميك لكيلا تنكسر في الطريق. وكانت داشا دائماً غير مكترثة بالأشياء، ولكنّها أعجبت بسبب ما بهاتين الدميتين من الفخار الصيني: القطة الحلوة، والكلب النائم بأذنيه الكبيرتين، وكأنهما قد سعيا إليها سعياً ليقيما لها عالماً صغيراً من البسمات البريئة في هذه الحياة الكبيرة الرهيبة المتهدّمة التي كانت تخيّم عليها سحب منذرة من الأفكار والأهواء...

ـ وعلى أيّة حال غادرت بتروغراد بهذه الصورة عنك... حملتها وعشت معها.. كنت تصاحبينني كقلبي. وعزمت على أن أعيش وحيدا عازبا...

وحاول أن يسير في الغرفة بحيث تكون داشا مركز دورانه.

وكانت قد خلعت منديل رأسها. وكان شعرها المتلوّي ذو الشقرة الشاحبة مضفوراً في قفاها بشريط من الساتان الأحمر (أعطوه لها من مستودع إدارة المدفعية). كانت داشا تارة تنحني على السلّة الموضوعة على مقعد، وتارة تنزل ذراعيها على جنبيها، وتفكّر في شيء ما. كانت ترتدي مريول ممرّضة أبيض افتن من أي فستان تفننوا في تفصيله، وقد شدّته من خصرها (عن عرض، شأنه شأن الشريط)..

- غريب، يا داشنكا. كان الخطر والموت من قبل يبدوان أمرين غير مهمّين. فليقتلوا، ذلك لا يهمّ. في الحرب لا يدلّ ذلك على الشجاعة مطلقا، بل مجرّد سوداوية... أما الآن فحين أفكّر في الماضي أشعر أحيانا بالرهبة... أريد أن أعيش ألف عام لكي اتلمّسك، وأنظر إليك...

- حلوة سأكون بعد ألف عام... إسمع، يا إيفان، ماذا سأفعل به على أيّة حال وبسطت الكورسيه مرّة أخرى، ووضعته على صدرها يمكن أن تدخل فيه ثلاث نساء. ربما لا نأخذه؟

- وماذا لو سمنت؟ سينفعك.

- أنا لا ألبس كورسيهات أبداً، أنت فقدت عقلك. إسمع، لو رفعنا منه العظام، وشققناه فمن الممكن أن يُصنع منه صدار لطيف..

استغلّ إيفان ايليتش انشغال كلتا يديها فتقدّم من ظهرها، وجذب داشا إليه بلطف.

- أصحيح ما تقولينه؟ قوليه مرة أخرى.

- صحيح، بالطبع... أنت رجلي الوحيد على هذه الأرض، وأنا بدونك لا شيء... جئت للبحث عنك... إيفان، فكر على أية

حال وصررت كتفيها، وتنحّت قليلاً يجب أن يكون هناك تناسب في القوى. إنك ستحطمني يوماً ما... إسمع ماذا نسينا؟ فات الوقت الآن على كلّ حال...

ـ قولي وسأطير حالا...

ـ لطيف لو نحصل على إسفنجة..

ـ توجد إسفنجة.

وهرع إيفان ايليتش إلى معطفه، وأخرج من جيبه إسفنجة وبعض الأشياء غير اللازمة.

ـ هذا هي أشياء، يا داشا. لم يستطع أحد أن يشرح لي لأيّ غرض هي، ولكنّني أخذتها على أية حال.

ـ إنّها شيء نفيس يا إيفان. هذه قطعة من المطاط لتدليك الوجه، يا لروعتك! إنّ هذه ضرورية جداً لي.

أعدَّت داشا السلة، وتقدّمت من إيفان ايليتش الذي كان جالسا على طرف التخت، متهيِّئا في كلّ لحظة إلى الوثوب. رفعت داشا وجهه، وحدقت في عينيه باهتمام:

ـ لقد قطعت على نفسي عهداً. لن أنتظر شيئا في حياتي الجديدة. فأنا لست سولفيج[٦]، ولا أريد أنْ أحدِّق بعد الآن في ضباب البحر. بل أن أحبّ فقط، وأعمل... خذني كما أنا سيئة أو حسنة، ولكنني زوجة وفية لك... لنبدأ بداية جديدة في كلّ شيء...

دخل الدكتور دون أن يطرق الباب على عادته، ومعه آخر عدد من جريدة وأخذ يعلن الأنباء العسكريّة بصوت راعد:

---

(٦) سولفيج - شخصيّة نسائية من دراما إبسن الشاعرية "بيرغونت". المترجم.

ـ إنّ الادميرال كولتشاك، ذلك الرجل الذي طرد الإدارة من أومسك، وأقام للعمّال حمام دم قد نصّب نفسه الحاكم الأعلى لروسيا بدون تواضع!... واعترف به الفرنسيّون والإنجليز... ما رأيك في هذا؟ إنّ له جيشاً قوامه ستمائة ألف رجل وسيتنازل على ما يبدو عن الشرق الأقصى لليابانيّين بلطف! ثم إسمع الشيء التالي: إن الاسطول الإنجليزي والفرنسي المتّحد قد ظهر في ممرات سيباستوبول ونوفورسيسك المائية... حلفاء! أنظر أياً ساعدنا ليربح الحرب بدمائنا! ومطّ الدكتور شفتيه بحنق، وتابع قوله تدخّل على المكشوف تماماً! يا داريا ديميترييفنا لا تنظري إليّ بهاتين العينين الرهيبتين... خذي زوجك، وتعالا إلى غرفتي لتناول حساء البورش... أنت تذكرين الرجل الذي كان يرقد عندنا مصاباً بجراح حراب. لقد أرسل لي كيساً من الكرنب ووزّة ولحم خنزير... مع الأسف، يا إيفان ايليتش، مع الأسف أنك تأخذ مني مثل هذه الممرّضة الرائعة على مرأى مني... بالمناسبة سنشرب اليوم الفودكا، وليذهب جميع المتدخّلين إلى الجحيم...

١١

احتاج فاديم بيتروفيتش إلى شيء قليل ليتغلّب على تردّده. وكان هذا الشيء القليل هو وقوعه على أثر لكاتيا. فإنّ أثر قدم امرأة حافية على رمل شاطئ يجعل رجلا يؤلّف في مخيّلته قصة كاملة عن تلك الرائعة التي مرّت من هنا على ضجيج أمواج البحر الكبير. شبّت فيه عاطفة الغيرة المعذِّبة، متغلِّبة على أفكاره اليائسة، وجزعه القاهر، وصار كلّ شيء يبدو له بسيطا واضحاً.

غادر يكاترينوسلاف في تلك الليلة ذاتها (بعد الحديث مع الضابط الألماني). ترك الحقيبة في الفندق، ولم يأخذ معه غير تبديلة من الملابس الداخليّة، وحقيبة الظهر. وفي الطريق خلع شارة الضابط عن كتفه، وعقد شريط القبّعة، وخلع الشارة من كمّه الأيسر، والقاها من النافذة، ومع هذه القاذورات ذهب مهبّ الريح كلّ ما كان يبدو له حتى تلك الليلة في "بي يا بو" ضروريا لاحترام النفس. أفرج ساقيه، وحشر كفّيه وراء حزامه وجلس على التخت في العربة المظلمة الفارغة تقريباً، وقد أفعم قلبه فرح وحشى. إنّها الحريّة! كان القطار ينطلق به إلى كاتيا. ومهما حدث لها، فإنه سيجد طريقه إليها، ولو تقطّع جسده إرباً إرباً.

في يكاترينوسلاف حذّر ناظر المحطة من أنّ قطّاع الطرق

عادوا إلى طغيانهم في منتصف الطريق إلى روستوف، وهذا هو آخر قطار يتّجه شرقاً، وليس من المؤكّد حتى ما إذا كان سيسير على الخط الأسفل عبر غولاي بوله، أو على الخط الأعلى عبر يوزوفكا. وفي المحطة نفسها تحدّث الجابي الأقدم إلى المسافرين الذين أحاطوا به عن قطّاع الطرق الذين ينطلقون في السهب على العربات بحثاً عن الغنائم، ويضرمون النار في ضيع أصحاب الأرض الذين ما يزالون لحماقتهم قابعين فيها، ويهاجمون بجرأة المستودعات العسكريّة ومصانع التقطير، ويحومون حول المدن.

وقال الجابي الأقدم بصوت جهوري:

ـ لا بأس لو أن الهايتمانات بلا رئيس. ولكن لهم رئيسا. وماخنو اتمان على جميع الاتمانات. رجل له شعبيّة وله دولة كاملة وعاصمة هي غولاي بوله. وهو لا يضيّع وقته في الصغائر. إنّه يدع القطارات تمرّ دون عراقيل، ولكن يفتشها بالطبع، ينزل من يشاء، ويطلق النار عليه في البقعة أمام ملوحة الخط الحديدي. في السفرة الأخيرة، ونحن نقترب من الرصيف رأيت ماخنو يقف تحت الجرس وهو يدخّن سيجاراً، قفزت من العربة، واقتربت منه، وأدّيت له التحيّة. ومع ذلك فقد قال لي بغلظة: "أنزل يدك. فأنا لست قصيرا أو ربّاً لك... هل معك شيوعيون؟" أجبته "لا على الإطلاق" "أو حرّاس بيض؟" "لا، مجرد مسافرين محليّين" "وهل تنقل تحويلات نقدية؟" وشعرت بأنّ صدري يتمزّق. قلت له: "تعال، وتأكّد بنفسك عربتا الأمتعة والبريد فارغتان" "حسناً، إذن سر بالقطار"

وكان التوقّف في المحطات الصغيرة مؤلماً، سكون، دمدمة العجلات، الركود، الإنتظار المرهق. وكان فاديم بتروفيتش يخرج

إلى فسحة العربة. فلا يرى أحداً على الرصيف المظلم، ولا على الخطوط، لا شيء غير ضوء شاحب لفتيلة مغروزة في زيت أصفر من نافذة المحطة، وشخصين جالسين هما الجابي والمختص بالبرقيات مستعدين للجلوس هكذا طوال الليل، وقد دفنا أنفيهما في ياقتيهما. والذهاب إليهما، والاستفسار بلا فائدة. فإنّ القطار يتحرّك حين تُعطى الطريق له من المحطة المجاورة، وقد تكون تلك المحطة خالية من كلّ شخص حي.

استنشق فاديم بتروفيتش الهواء البارد، وقد توتّر كلّ جسده وتصلّب... لم يكن في هذا الظلام الخريفي، في روسيا المقفرة المترامية الأطراف غير نقطة واحدة حيّة قطعة من اللحم الحار بحبّ عارم نحوها... كيف كان من الممكن أن يتملّكه ذلك الإحساس المعتم في لحظة من لحظات الرغبة العاتية في الانتقام والتنكيل لِيدفعه إلى من يلقي عنه يدي كاتيا المتشبّثتين به في أعلى درجات القنوط. ويتركها بفظاظة وحيدة، في مدينة غريبة. ومن أين ستأتيه تلك الثقة التي تجعله، بعد أن يجدها، وبدون أن ينطق بكلمة واحدة (تلك هي الطريقة الوحيدة المقبولة) يرمي نفسه نحوها ليقبّل قدميها بجوربيها المرفؤين للغاية، على الأكثر، ويحصل مع ذلك على الغفران منها؟ إن مثل تلك الخيانات لا تغتفر بسهولة!

وبينما كان فاديم بتروفيتش مسترسلا وحده في أفكاره في فسحة العربة، متمتما في غضب، محرّكاً حاجبيه، وخرج الجابي من المحطة، ووقف عند العربة غير مكترث بما قد يقطع القطار من مسافة... سأل فاديم بتروفيتش هل سيطول الإنتظار؟ لم يجد الجابي الرغبة حتى في هزّ كتفيه. كانت الريح تهزّ الفانوس

المسودّ الذي كان يمسكه في يده فيكشف عن أطراف معطفه الأسود المتطايرة. وفجأة انطفأ الضوء الشاحب في نافذة المحطة وصفق باب. وتقدّم المختص بالبرقيات وظلّ الاثنان يطيلان النظر في ملوحة الخط الحديدي.

همس المختصّ بالبرقيات:

ـ أطفئه!

رفع الجابي الفانوس على وجهه المشورب المنتفخ، ونفخ على الفتيله الساخمة وصعد في الحال مع المختصّ بالبرقيات إلى فسحة العربة، وفتح الباب في الجانب الآخر من العربة.

ـ أخرج، قال الجابي لفاديم ونزل على عجل وهرول.

قفز روتشين في أثره. تعثّر بالخط، ووقف على كومة من العوارض، وصعد إلى حقل كانت الظلمة أشف قليلا منه، فلاح شخصان سائران. لحق بهما. قال المختصّ بالبرقيات:

ـ في هذا المكان حفر. اللعنة على الظلام! كانوا يرفعون الرمل. وأنا دائما اختفي هنا

وتبيّن أنّ الحفر كانت تقع إلى اليسار قليلا. نزل روتشين فيما يشبه الخندق مقتفيا أثر صاحبيه. وبعد قليل جاء شخصان آخران أيضاً. زفر الجابي زفرة ثقيلة:

ـ سأترك هذه الخدمة، لقد ضجرت. أية مواصلات هذه!

قال المختصّ بالبرقيات:

ـ صمتاً. الشياطين آتون.

الآن كانت كركبة حوافر الخيول تسمع من السهب، ومعها قعقعة عجلات العربات.

سأل الجابي المختصّ بالبرقيات:

ـ من الذي يعبث في هذه الأنحاء؟ حاكى الموت؟

ـ لا. إن هذا في غابة ديبريفسكي الآن. بل اظنها ماروسيا، لا وليس هي أيضاً. فمن عادتها أن تجري بالمشاعل... لا بدّ أنّه الهاتيمان صغير من هذه النواحي.

قال سائق القطار بصوت مبحوح:

لا، أبداً أنه ماكسيوتا من أعوان ماخنو... اللعنة عليه...

زفر سائق القطار ثانية: عندي يهودي في العربة الثالثة ومعه حقائب... لم أخبره، مؤسف...

كانت كركبة الخيول تقترب، وكأنّها الريح قبيل العاصفة الرعدية. أخذت العجلات تدمدم على البلاط قرب المحطة. وارتفعت صيحات: "هيا، هيا!" وسمع صوت تحطّم زجاج، وطلقة، وزعيق قصير، وضربات على الحديد... أخذ الجابي ينفخ في يديه المكوّرتين:

ـ لابدّ أن يفعلوا ذلك. أن يكسروا زجاج النوافذ، على عادة السكارى...

لم يستمرّ كلّ هذا الشغب طويلاً. وصدر صوت يائس "أركبوا". وصرفت العربات وحمحمت الخيول، وقرقعت العجلات، وانطلقت عصابة الاتمان مبتعدة في السهب، عند ذاك خرج الجالسون في الحفر، وعادوا على مهل نحو القطار المظلم، وصعدوا إلى أماكنهم. أشعل المختصّ بالبرقيات قنديل الزيت، وأخذ يتّصل بالمحطة المجاورة، وتفقد السائق والوقّاد القاطرة ليتأكدا من أن قطّاع الطرق لم ينتزعوا شيئاً مهمّاً منها، وصعد روتشين إلى العربة. وتمتم الجابي وهو يسحق بقدميه

هشيم الزجاج المحطّم على الرصيف:

ـ وهذا ما حصل. قتلوا المسكين... فلو أخذوا الحقائب وحدها. ولكنهم يريدون دائما إزهاق روح إنسان.

ومضت فترة أخرى من الوقت طويلة وغير معلومة، وصفر الجابي أخيراً صفرة قصيرة، وأعولت القاطرة كالساخطة في السهب الحاوي، واتجه القطار نحو غولاي بوله.

وضع فاديم بتروفيتش مرفقه على الطاولة المطوية ودفن وجهه في يديه، وراح يركّز ذهنه كلّه في حلّ المشكلة: إنّ كاتيا غادرت روستوف في اليوم التالي مباشرة. بعد أن أبلغها أونولي النذل عن موته. ومعنى ذلك فإن لقاءها مع الضابط الألماني في القطار جرى بعد يومين... ولتفرض أنّ هذا الألماني سرى عنها بدون أي محاولة للطمع فيها يأتي... لنفرض أنّها كانت في ذلك اليوم في حاجة ماسة إلى من يبعث في نفسها السلوان. ولكنّها بعد يوم واحد من فقدها لمن تحبّه كتبت في دفتر رجل غريب، وبشكل متقن جداً، عنوانها، واسمها، واسم أبيها دون أن تنسى أن تضع الفواصل بين العبارات. إنّ ذلك للغز! السماء قد أطبقت عليها. وزوجها المحبوب مطروح في مكان ما، كالجيفة. إنّ من الطبيعي، على ما يبدو، أن تصاب بيأس قانط في الأيام الأولى من ذلك.

يظهر أنّها اعطت عنوانها على "شبّاك البريد". ومعنى ذلك أنّها كانت تجد بصيصا من الأمل... فأي لغز!

ـ أيها المواطن، أرني أوراقك وجلس الجابي مقابل روتشين، ووضع الفانوس المسخم بالقرب منه. حين نتجاوز غولاي بوله يمكنك أن تنام باطمئنان.

ـ أها.. ذلك يزيد الأمر ضرورة... أنا الذي سيسألونني: مَنْ أحمل من الركاب ..

ـ ليست لديّ أية أوراق...

ـ وكيف يكون ذاك؟

ـ قطعتها ورميتها.

ـ عندئذ يجب أن أبلغ عنك...

ـ بلِّغ، عليك اللعنة...

ـ ولِمَ هذه اللعنة في مثل هذا الوقت؟.. هل أنت ضابط؟

كانت أفكار روتشين مشدودة متوتّرة، فأجاب من خلال أسنانه:

ـ فوضوي.

ـ نعم، مفهوم... نقلت الكثيرين من أخوانك من يكاترينوسلاف وتناول الجابي الفانوس، وأمسكه بين رجليه، وأطال النظر، حيث كانت الشرارات التي ترسلها القاطرة تتطاير وراء النافذة المظلمة. وقال بخفوت: أنت رجل مثقّف. فعلّمني كيف أتصرف؟ في السفرة الماضية تكلّمت أيضاً مع فوضوي، وهو رجل رصين وأشيب وعقّ. قال لي: "نحن لسنا بحاجة إلى السكك الحديدية، سندمّرها كلّها بحيث تكون نسيا منسيا. فإن السكك الحديدية تولد العبودية والرأسمالية. سنقسم كلّ شيء على الناس بالتساوي، والإنسان يجب أن يعيش على الطبيعة، وبلا سلطة، كالحيوان..." شكراً على ذلك!... أنا أشتغل على القطارات منذ ثلاثين عاما، وقد بنيت من ذلك بيتا صغيرا، في تاغانروغ، حيث توجد زوجتي العجوز مع معزة وشجرتي خوخ في الحديقة. وذلك كلّ ما أملك. فما حاجتي إلى هذه الطبيعة؟ أن أرعى المعزى على المنحدر؟ قل لي هل كان هناك نظام في

الحكم السابق؟ كان هناك استغلال، وأنا لا أذكر ذلك. لنأخذ عربة من الدرجة الأولى نجد الهدوء والاحتشام. بعضهم يدخّن سيجاراً، وبعضهم يهوم بمهابة ووقار. فتحسّ أنّ هؤلاء مستغلّون، ولكن لا تسمع سبباً صريحا. أعوذ بالله... فترفع يدك بالتحيّة، وتمرّ بالعربة بهدوء... أما في الدرجة الثالثة فالفلاحون، بالطبع، متكوّمون واحداً فوق الآخر، ولا مجال للخجل.. كلّ ذلك كان موجودا، بالتأكيد... ولكن كان لديك أيضاً دجاجة محمّصة، ولحم خنزير مقدّد، وبيض، أما الخبز فأنت تذكر الأرغفة، يا صاحبي؟ وصمت ناظراً إلى الشرر وراء النافذة هذا محور يحترق في عربة الأمتعة. بسبب انعدام الزيت، يعني أنّ النقليات في طريقها إلى النهاية بدون تدخل الفوضويّين... والآن قل لي ماذا سيحصل الآن؟ استبدلوا القيصر برادا، والرادا بالهيتمان، والهيتمان بمن سيستبدولنه؟ بماخنو؟ أراد أحد الحمقى أن يصبّ سكين محراث، فوضع الحديد على النار حتى ذوّب نصفه وأتلفه، فقال لنفسه: لأصنع فأسا، فأذاب نصف الباقي أيضاً، ولم يبق إلا ما يمكن أن يصنع منه مثقبا، فأخذ يطرقه بمطرقته طرقاً شديداً حتى لم يبق شيء... وهكذا... لا نظام، ولا خوف، ولا سلطان... ستصل إلى غولاي بوله وترى كيف يعيش الناس في ظل "النظام الفوضوي الحر". شيء واحد يمكن أن أقوله: إنهم يعيشون في سكر ومتعة لم يسمع أحد بمثلها منذ قديم الزمان. وقد أعلنت المنطقة كلّها "بستان عنب". وما أكثر المومسات اللواتي نقلتهن إلى هناك!. نعم، كلامي بلغة الشيوخ، فأعذرني، أيها الرفيق الفوضوي: إنّ روسيا ضاعت..

× ×

أخذ الكثيرون من الفلاحين الميسورين الذين انضموا في

الصيف إلى فصائل الهايتمان يفكّرون الآن في العودة إلى قراهم. حملوا العربة بكلّ ما وقع في نصيبهم بالعدل من الغنائم، وحوّلوا العملات المحليّة المختلفة إلى العملة القيصريّة، وشدوا المشمعَ بقوّة على أشيائهم، وربطوا سخانا في المحور الخلفي. وخرج بعضهم سراً، وآخرون ذهبوا علانية إلى الهايتمان: "وداعاً يا سيّد، لست جندياً عندك بعد الآن" و"لم ذلك؟" مشتاق إلى بيتي. لا أجد رغبة في طعام أو شراب أو نوم. وحين تقضي الحاجة مرة أخرى، دعنا وسنأتي" وشدّوا الخيول الجيّدة، واخرجوا إلى الضيع، والقرى والنواحي التي تخلّصت من إيواء الألمان.

وفكّر ألكسي كراسيلنيكوف أيضاً في ذلك. تشاور مع ماترينا زوجة أخيه، بل ومع كاتيا روتشينا أيضاً فيما إذا كان من المبكر العودة إلى البيت؟ ألعلّهم سيجدون في انتظارهم منغّصات.. فإنّ من المتعذّر التسلّل إلى قرية فلاديميرسكويه سرّاً، وقد تلقى عليهم مسؤولية قتل العريف الألماني. والألمان قوم جادون. ومن ناحية أخرى فإنّهم حين يجدون النار قد أتت على كلّ شيء سيضطرون إلى بناء البيت، وتنظيم المرافق. وكل ذلك يجب أن يجري الآن، في الخريف.

كان نصيب ألكسي كراسلنيكوف من غنائم جيش ماخنو خمسة خيول فتية قوية، وثلاث عربات من الأشياء والأقمشة ومختلف المتاع. وكلّ هذه الأشياء جمعتها ماترينا أكثر مما جمعها ألكسي. فقد كانت تحضر الاجتماعات غير هيابة، حيث كانت فصيلة الهايتمان أو ماخنو نفسه يقسم الغنيمة. وكانت دائماً مهندمة جميلة مهتاجة فكانت تأخذ ما تريد. وحين كان أحد الفلاحين

يتهيّأ للجدال معها كان هدير الضحك ينفجر في كلّ مكان حين كانت تنتزع منه الشيء المتنازع عليه سواء أكان شالا أو معطفا فرائيا أو قطعة من القماش الجيّد. وكانت تقول: "أنا امرأة، وأنا أحوج إلى ذلك. فإنّك ستبيعه لتشرب بثمنه أيها اللص. ستأتي به إليّ ليلاً..." كما كانت تبادل وتقايض، وكانت تحتفظ في العربة ببرميل من الخمرة لهذه الغاية.

قلب ألكسي الأفكار في رأسه، ولم يستقرّ على رأي، حتى وصل نبأ سار، وهو أنّ سكوروبادسكي الذي تخلى عنه الألمان وقواته نفسها قد تنازل عن الهيتمانية. وأنّ رجال بيتلورا دخلوا كييف، وأعلنوا فيها "الجمهورية الأوكرانية الديمقراطية". وفي نفس الوقت تحرّك الجيش الأحمر الأوكراني من الحدود السوفييتيّة وكان الأمر يوحي بالثقة التامة.

في الليل، ودون علم أحد جلب ألكسي الخيول من السهب، وأيقظ ماترينا وكاتيا، وطلب أن يعدّ الفطور بينما هو يشد الخيول إلى العربات. وأكلوا حتى الشبع قبل أن يخرجوا في السفر الطويل. وقبل انفلاق الفجر ساروا خلال طريق وعر في الضباب قاصدين بيتهم في فلاديميرسكويه.

كان من الصعب أن يرى المرء في كاتيا روتشينا المسافرة على عربة في سترة من فراء الغنم، وحذاء طويل ملطخ، والريح قد أسفعت خديها، وتركتهما كالخوخ، أن يرى فيها تلك السيدة الناعمة المتهيّئة عند أقل صدمة تصيبها في الحياة، على أن تلملم أطرافها مثل قطيطة مسكينة. كانت، وهي نصف مستلقية على القش، تسوّط الحصان حتى لا يتأخّر عن الخيول الثلاثة التي كان ألكسي يسوقها على عربته فتندفع بين الحين والآخر في عدو. أما

العربة الأخيرة فكانت تسوقها ماترينا التي لم تكن تثق بأحد ماشياً كان أو راكبا.

كان السهب مقفرا. وكان الثلج يلوح في ثنايا الوهاد وقد حملته رياح كانون الأول من الهضاب الطباشيرية. وفي الأفق كانت ترتفع أهرامات بلون الصدأ هي ما تخرجه المناجم. والحياة لم تبدأ بعد في المنطقة التي هجرها المحتلّون. وقد انضمّ الكثيرون من عمال المناجم والمصانع إلى فصائل الحمر، وهم الآن يحاربون قرب تساريستين. وهرب كثيرون إلى الشمال، حيث كانت وحدات الجيش الأحمر الأوكراني تتشكّل عند الحدود السوفيتيّة. وقد نما العشب في الطرقات، والأعشاب في حقول الذرة المهملة، حيث كانت أضلاع صفراء لفرس ميت تبرز من خلالها هنا وهناك. ولم يكن في تلك المنطقة غير النادر من البيوت.

كانت ماترينا تردّد قائلة لأخ زوجها: "ابتعد عن الناس، ولا تنتظر منهم خيرا". فكان ألكسي يكتفي بالضحك "آوه، ثعلبة... كنت امرأة عذبة... والآن أصبحت مفترسة، يا عزيزتي ماترينا..."

وكان لكاتيا وقت وافر للتفكير، وهي تهتزّ في العربة، وتقضم القش. كانت تدرك حقّ الادراك أنهما يحملانها إلى قرية فلاديميرسكويه كغنيمة لالكسي إيفانوفيتش، ولربما هي أغلى كلّ ماكان له محملا على العربات الثلاث. ومن هي غير أسيرة من العالم المحطّم؟ سيقيم ألكسي إيفانوفيتش على ركام بيته بيتاً جيّداً، ويفصله على الناس الآخرين بسياج قوي، ويخبئ في السرداب كلّ نفائسه، ويقول بحزم: "كاترينا ديميتريفنا، لم يبق الآن إلا شيء واحد الأخير وأنت صاحبة الكلمة..."

كانت الحياة بكلّيتها تبدو لها كمدينة أحرقتها الحرب: أكواما من الرماد، ومداخن مواقد محروقة. مات الأحبّاء، ولا خبر عن الاعزاء، قبل فترة تلقّت ماترينا رسالة من زوجها سيميون مرسلة من سامارا، كتب فيها، فيما كتب، أنّه ذهب إلى العنوان المذكور في الشارع الذي كان يسمّى دفوريانسيكيا سابقاً، ولم يجد هناك دكتوراً يدعى بولافين، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب مع ابنته. ولم يبق لكاتيا غير شخصين يشفقان عليها ويحبّانها مثل قطيطة أليفة هما ألكسى وماترينا. فهل من المعقول أنها كانت قادرة على أن ترفض لهما أمرا؟

كان لابدّ لها ومنذ زمن طويل أن تصير عجوزا محت الدموع بريق عينيها بعد أن عانت تلك السنين الطويلة الغاصّة بالأحداث كقرن من الزمن. إلا أن خدّيها كانا يتوردان إذا مسّتهما الريح الباردة فقط، وكانت تحس بدفء كدفء الشباب، وهي في فروتها. وكان هذا الإحساس بالشباب الذي لا يزايلها يفعمها بالأسى، فهل شاخ قلبها؟ أم هو أيضاً ليس كذلك؟

وقد قالت لها ماترينا غير مرة: "إنّ الرب قد ربطها بهما، والرب وحده سيحلّ هذا الرباط". ولم يفرض عليها ألكسي مثل هذه الأحاديث البتّة. ولكنه في بعض المناسبات جازف بشدة لينقذ كاتيا من أذى مباشر متصرّفاً كرجل إزاء امرأة يحرص عليها لنفسه، وما كان في وسع كاتيا أن ترفضه، فما كان لها أن تجد الكلمات لتبرّر جحودها. ولكنها كانت تودّ ألا يحدث ذلك أطول فترة ممكنة. كان ألكسي إيفانوفيتش رجلاً جذاباً كأن الشمس تشعّ دائماً في وجهه المفتوح الغليظ قليلا وكان قوياً رابط الجأش، مستقيم الظهر، عريض الصدر، شعره الغزير كالطرّة،

وكان جريئاً متعقّلاً في ساعة الخطر، يعامل كاتيا بطيبة ورقة مشوبة بالدعابة. ولكن كاتيا، حين تفكِّر في اليوم الذي لابدّ أن تصبح فيه قريبة منه، كانت تغمض عينيها وينكمش جسمها كلّه، وكأنّها تود أن تدفن نفسها في القشّ على العربة.

ذات مرة، في وقت الغداء، انعطفوا عن الطريق إلى جدول كوّن في تلك البقعة مجمّع ماء صغيراً عليه أطلال طاحونة مائية وقصب مداس. ذهبت ماترينا لتجمع حطبا للنار، وسارت كاتيا إلى الجدول لتغسل القدر. وبعد قليل من الوقت جاء ألكسي وألقى قبعته وقفّازيه على العشب، وجلس عند الماء قرب كاتيا، وبلّل وجهه بالماء، ومسحه في طرف فروته...

ـ ستجمد يداكِ...

وضعت كاتيا القدر على العشب، ورفعت جسمها من على ركبتيها، وقد أحسّت بيديها تجمدان حتى العظام، نفضت عنهما قطرات الماء وأخذت تمسحهما أيضا بفروتها.

قال ألكسي متوتّراً خشنا متحفِّزا:

ـ أظنّ أنّ الناس كانوا يقبّلون يديك هاتين في العهد القديم.
حدجته بنظرة صافية وكأنّها تسأله: ماذا حصل؟ لم تكن كاتيا تعرف البتّة قوة جمالها، وتعتبر نفسها ببساطة قلب حلوة، وأحياناً حلوة جدا، وتحبّ أن تكون موضع إعجاب، مثل طائر صغير ينفش ريشه (حين تبدأ الشمس الوردية تشعّ على الندى الشاحب ناهضة بين جذوع الأشجار). ولكنّها لم تكن عارفة بجمالها الذي جعل ألكسي إيفانوفيتش الآن يصرف عنها عينيه بعد أن لمعتا لمعاناً جافاً.

ـ أريد أن أقول: عندي قنينة زيت عبّاد الشمس في العربة،

فادهني به يديك، وإلا فستتشقق البشرة..

وبدت ابتسامته الهازئة المعتادة تطلّ على شفتيه الطريتّين تحت شاربيه الأجعدين الخشنين. زفرت كاتيا مستروحة، ولو أنّها لم تفهم تماماً كم كان قريباً في هذه المرّة ذلك الشيء الذي لم تكن تريده. كان الكسي، بعد أن ذهبت ماترينا لجمع الحطب، يحدِّق في كاتيا الجالسة قرب الماء، أما بتأثير النعاس وهو مستلق على القش في العربة المتأرجحة، وأما من سكون السهب الجاثم. وقد جاء إليها مثل صبيّ سمع فجأة صوت العصا تهبط على ألواح الغسيل عند النهر، فحدس أنّ الجارة بروسكا تغسل الغسيل رافعة تنورتها ورِبْلتا ساقيها تبدوان بيضاوين شهيّتين فإذا به ينسلّ إليها خفية خلال نبات الارقطيون والقراص مستنشقا بنهم جميع الروائح التي استحالت فجأة روائح مثملة. ولكن في هذه الحال لم يكن الخوف هو الذي أوقف ألكسي إيفانوفيتش، فان تخويفه لم يكن من السهل. بل أنّ كاتيا بنظرة عينيها الجميلتين الهادئتين قالت له: ليس هذا جميلاً ولا لائقاً.

وكان يسيطر على نفسه في مواقف أصعب من هذه المواقف التافهة، ومع ذلك فقد كانت يداه ترتجفان وكأنّما بعد جهد بذله في رفع حجر طاحونة. تناول القدر من على العشب.

ـ هيا إذن، لنطبخ عصيدة واتجها نحو العربات.

ـ يا كاترينا ديميترييفنا، لقد تزوّجت مرّتين فلماذا لم ترزقي بطفل؟

ـ هي الظروف، يا الكسي إيفانوفيتش... زوجي الأول لم يرغب في ذلك، وأنا كنت حمقاء.

ـ والمرحوم فاديم بيتروفيتش لم يرد أيضاً؟

قطبت كاتيا حاجبيها، وأشاحت بوجهها، ولم تجب.

ـ كنت أريد أن اسألك منذ زمان... أنّ تجربتك كبيرة... كيف بدأت هذه الأشياء الحلوة؟ هل قبل زوجاك، أقصد خطيبيك، يديك؟ تطرقا وحاما حول الأمر؟ كيف يجري هذا الأمر عند السادة؟

وصلا إلى العربات. ألقى ألكسي على الأرض عدة الفرس التي كانت على العربة، ألقاها بكلّ قوّته، وتناول قوس العريش من تحت العربة، وأسنده إلى العريش، وأخذ يشدّ القدر إلى نهايته...

ـ أنت من الطبقة الراقية، وأنا من بيت فلاحي... وقد التقينا في طريق ضيّق. وليس لك من عودة إلى الوراء... انتهى الأمر. والشيء الذي لم نقلبه رأساً على عقب بعد، سنقلبه حتى النهاية قريباً... وليس لك من مخرج غير أن تجدي سيّداً جديداً...

ـ هل أسأت إليك في شيء، يا ألكسي إيفانوفيتش؟

ـ لا، أبدا... أنا الذي أريد أن أسيء إليك، ولكن كلماتي تكفي... فلاّح... أحمق... كم أنا أحمق... أنا أعرف، أعرف.. أنّ كلّ ما تفعليته هو أن تنتهزي فرصة لتهربي إلى الخارج... احسن مكان ملائم لك...

ـ كيف لا تخجل من ذلك، يا ألكسي إيفانوفيتش! هل فعلت شيئاً أستحق عليه هذا الإتهام؟... أنا مدينة لك بكلّ حياتي ولن أنسى ذلك أبداً....

ـ ستنسين... أرأيت كيف تخاف ماترينا الناس؟ وأنا أيضاً لا أثق بالناس... منذ عام ١٩١٤ وأنا أسبح بالدم. أصبح الإنسان اليوم حيواناً. ولعله كان من قبل أيضاً، ولكن لم نكن نعرف. كلّ

واحد ينتظر أن يلقي الآخر من على سرجه. وأنا أيضاً حيوان، أم لعلك لا ترين، أيتها الحمامة الوديعة. أنا أريد أن يعيش أطفالي في بيت آجُري، وأن يتكلموا بالفرنسية أحسن منك... "باردون، ميرسي"...

جاءت ماترينا تحمل بين ذراعيها عساليج وجذامات، وألقتها تحت القدر المتدلي من طرف العريش، وأمعنت النظر في الكسي وكاتيا.

ـ لا يحقّ لك أن تكدِّرها، يا ألكسي قالت بصوت خافض هل رويت الخيول؟

استدار ألكسي، واتجه نحو الخيول وأخذت ماترينا تضع الحطب تحت القدر:

ـ إنّه يحبّك. كم خطبت له من الفتيات، وهو لا يريد... وأنا لا أدري ماذا يحصل لكما. صعب عليكما كليكما...

انتظرت ماترينا أن تقول كاتيا شيئاً. أخرجت كاتيا الحبوب المدقوقة وشحم الخنزير صامتة، وبسطت قماشة على الأرض، وأخذت تقطع الخبز.

ـ لماذا تصمتين؟

زادت كاتيا من إطراقة رأسها، وهي تقطع الخبز. وتحدرت الدموع على خدّيها.

كانت سهوب يكاترينوسلاف الخصيبة الممتدّة نحو البحر الأسود وبحر آزوف منطقة جديدة. لقد كانت من قبل تدعى بالسهب الوحشي، حيث كان السكيفيّون القصار البدناء الطوال الشعور ينطلقون على خيولهم الشعثاء خلال أعشاب تصل إلى

أكتافهم، والتجار الأغريق المعتمدون على حراسة موثوفة يتنقّلون من أوليفيا إلى تانايس[٧]، والقوط[٨] الرُّحّل بعرباتهم الضخمة ما بين البحرين يسوقون قطعانهم من الماشية. وإلى هذه المنطقة أيضاً اندفعت من حدود الصين الشمالية جحافل هون[٩] المتعدّدة اللغات مثل سحب الجراد ناشرة الرعب الشديد حتى ظلّت هذه السهوب مقفرة قرونا عديدة، ونصب الخزر خيامهم المخطّطة في طريقهم من دربند ليحاربوا روسيا الدنيبرية، وطافت قبائل البولوفيّين بقطعانهم الهائلة من الخيول والجمال، وهم في قفاطينهم الحريرية الخوارزمية حتى وصلوا إلى استحكامات سفياتسلاف[١٠] وبعد ذلك بزمن وطأتها جحافل التتر بخيولهم الخفيفة متجمّعين لشن الغارات على موسكو.

---

(٧) أولفيا ـ مدينة ـ دولة قديمة في عهد ملكية العبيد تقع على الساحل الأيمن من خليج بوغ، على البحر الأسود. وقد أسست في بداية القرن السادس قبل الميلاد. وتانايس مدينة قديمة في مصبّ الدون أسست في بداية القرن الثالث قبل الميلاد. وكانت مركزاً تجارياً هاماً بين إغريق البوسفور والرحل على سواحل بحر آزوف وسهوب الدون. الناشر.

(٨) القوطيّون قبائل الألمان الشرقيين.

(٩) الهان شعب من الرحل تكوّن في القرن الثاني إلى القرن الرابع في منطقة الاورال. وفي السبعينات من القرن الرابع بدأت انتقالاتهم الجماعية نحو الغرب، الأمر الذي شكّل دفعة لما سمّي بهجرة الشعوب الكبرى. وقد بلغ تحالف قبائل الهان في عهد القيصر أتيللا ذروة توسّعه وقوّته. وبعد وفاة هذا القيصر في العام ٤٥٣ انحلّ هذا التحالف، وصار الهان كشعب يختفون بالتدريج.

(١٠) سفياتسلاف (٩٤٥ ـ ٩٧٢ تقريباً) هو أمير كييف الكبير، وقائد عسكري لروسيا القديمة. ويظنّ أنّ استحكامات سفياتسلاف هي استحكامات دفاعيّة على الحدود، أقيمت في القرن العاشر على شواطئ نهر سول وستوغنا. الناشر.

ومضت موجات الأقوام، ولم تبق إلا حدبات القبور، وعلى بعضها أصنام حجرية ذات وجوه مسطّحة وأيد صغيرة مطوية على البطن. وأخذت سهوب يكاترينوسلاف تستوطن مزراع حبوب الأوكرانيّين والروس والقوزاق النازحين من الدون وكوبان والمستعمرين الألمان. وكانت جديدة عليها القرى الكبيرة، والضيع التي لا تعدّ وهي بلا عادات متوارثة، ولا اغان قديمة، ولا بساتين زاهرة، ولا مروج مروية. لقد كانت منطقة قمح وأصحاب أراضي أغمار يحسنون الاطلاع على أسعار القمح في الخارج. كما كانت غولاي - بوله جديدة أيضاً. بلدة صغيرة كثيبة ممتدّة على طول ساقية غايتشور المستنقع والناضب المياه بين الحين والآخر.

كانت المسافة بين محطة القطار وغولاي بوله سبعة فراسخ عبر السهب. استأجر روتشين عربة "حنطور" أوصلته إلى السوق الكبيرة الممتدّة في مرجة، وفي السوق أخذ فاديم بيترفيتش يساوم على دجاجة محمّصة مع امرأة وقحة تجلس منفرجة الساقين على عربة بين الحوائج التي جلبها من القرية للبيع. وكانت هذه المرأة التي لم تكن تجيد عملها تحتدّ فتدفع بضاعتها إلى أنف المشتري تارة، وتنتزعها من يده تارة أخرى، وتشتمه بصوت زاعق متلفتة في كثير من الحركة مخافة أن ينشل شيء من عربتها. طلبت خمسة روبلات ثمناً للدجاجة المحمصة، ثم عدلت عن طلبها في اللحظة التالية فلم ترد أن تبيعها بالفلوس، بل بلفّة من الخيوط. قال روتشين لها:

ـ خذي الفلوس منّي، يا حمقاء ويمكنك أن تشتري الخيوط. هناك يبيعونها.

ـ لا استطيع أن أترك العربة، أعد فلوسك إلى جيبك وابتعد عن البضاعة...

وبعد ذلك شق طريقه إلى رجل في زيّ عسكري غزير الناصية، مدجّج بالسلاح كان يسير في السوق ويهزّ على كفّه لفّتين من الخيوط. ألقى نظرة كدرة على روتشين، وحرّك شفتيه المتوّرمتين قائلا:

لا أقايض إلا بالكحول.

وعلى هذا النحو لم يستطع روتشين شراء الدجاجة. كان أكثر ما يجري بالسوق هو تجارة المقايضة، والإبتزاز الخالص، حيث السعر يتحدّد بالحاجة، فكانت الأبرتان تقايض بخنوص وبشيء آخر زيادة، أما البنطلون الخالي من الرقع فكان يخوّل البائع مصّ دم المشتري. كان مئات من الناس يتاجرون، ويصرخون ويشتمون آخذين طريقهم بين مجموعة كبيرة من العربات، وفي نفس المكان كان الحلاقّون يقتعدون مقعدا أو عجلة وقد نشروا أدواتهم أمامهم، وكان المصوّرون المتجوّلون ومعهم آلات تصوير وتحميض آنية تقف على ثلاثة أرجل يقدّمون للزبون بعد خمس دقائق صورته الفوتوغرافية مبلّلة، وكان عازفو الكمان العميان محاطين بالمستمعين غير متورّعين من مدّ أيديهم في جيب أحمق يتثاءب... وكان جميع هؤلاء الناس مستعدّين أن يقلعوا من أماكنهم في أقصر وقت، ويتفرّقوا ويختبئوا إذا ما بدأ تراشق جدّي بالنار وهو أمر لم تكن أية سوق في غولاي بوله تسلم منه.

أخذ فاديم بيترفيتش طريقه بين العربات، فوجد نفسه في جمع متهلّل قرب دوارة. أناس ذوو شوارب في بزّة الفرسان، وفي ستر البحارة، وفي معاطف الخيالة القصيرة مسلّحون بالقنابل

اليدوية ومختلف الأسلحة الباردة والحارة. كانوا يجلسون في اعتبار ويدورون على أحصنة خشبية لها أعناق ممدودة بصورة خيالية وأقدام طائرة. وكان أحدهم يردّد بصوت عالي النبرة متعجرف: "أسرع، أسرع". وكان شخصان في ثياب رثة يديران الدوارة بكلّ ما لها من قوة، وعازفان على الأكورديون يعزفان لحن "التفاح" محرّكين المنفاخ بضراوة، وكأنّما ليستوعبا كلّ ما هو في نفوس أحرار ماخنو من سعة وجرأة. صاح الذين كانوا ينتظرون دورهم: "كفاية، انزلوا!" فزأر الدائرون على الأحصنة "أسرع!". وهنا طارت قبّعة أحدهم من على رأسه، وفي نشوة انشراح جرد شخص سيفه، وضرب به الهواء وكأنّه يقطع به رأس عدو موهوم. وعندئذ اندفع الواقفون فجأة وجذبوا الجالسين على الأحصنة والدوارة دائرة. وحدث هرج، ودمدمت قبضات مع صفير صافرة، ثم دارت الدوارة من جديد، وامتطى الفرسان الجدد الأحصنة بمناخيرها المتّسعة المحمرة.

ابتعد فاديم بيترفيتش إذ لم يجد هنا أحداً متعقّلا كان من الممكن أن يتحدث معه. اشترى من بائع متجوّل قطعة فطيرة فيها جبنة هشة، وسار وهو يمضغها في شارع عريض مصفوف بالبلاط. لم تبق لديه إلا فلوس قليلة، وإذا قيس الأمر على ما دفعه ثمنا للفطيرة فإنها لن تكفيه أسبوعاً واحداً. كان ينظر بسهوم إلى البيوت الآجُرية ذات الطابقين من تلك التي يبنيها التجار، وإلى حوانيت الحنطة، والدكاكين، وإلى اللافتات الزاهية. كان يمضغ ويفكّر بسهوم أيضاً: إن توافه الحياة لم ترهبه كثيرا بعد أن وثب إلى الحرية الفالتة.

قابله رجل يركب دراجة عجلتها الأمامية متخلخلة. ثم

عسكريان يركبان فرسين يرتديان سترتين جركسيتين بلا أكمام وقبّعتين مائلتين من فراء الأغنام. وكان راكب الدراجة الصغير النحيل يرتدي بنطالا رماديا وسترة مدرسية وكان شعره السبط يكاد يصل إلى كتفيه من تحت قبعة مدرسية زرقاء ذات ظليلة مؤطّرة بالأبيض زرقاء. وحين حاذى فاديم بيترفيتش رأى بدهشة وجهه الناحل المعدوم الحاجبين. حدج روتشين بنظرة نافذة ومالت العجلة في تلك اللحظة، وتماسك راكبها بصعوبة مغضّنا وجهه الأصفر المتيّبس، ومرّ به.

بعد دقيقة أدار أحد الفارسَيْن فرسه، وخبّ به نحو روتشين، وانحنى على سرجه متمّعنا فيه بحدقتين متحرّكتين. سأل روتشين:

ـ ما الخبر؟

ـ مَنْ أنت؟ ومن أين؟

ـ مَن أنا؟ وأشاح روتشين وجهه من رائحة البصل والخمرة البيتيّة القوية أنا رجل مستقلّ، قادم من يكاترينوسلاف.

سأل الفارس بلهجة تهديد:

ـ من يكاترينوسلاف؟ ولأي غرض أنت هنا؟

ـ جئت لأبحث عن زوجتي.

ـ تبحث عن زوجتك؟ ولماذا خلعت الشارة عن كتفيك؟

أجاب روتشين بأكبر قدر مستطاع من الهدوء وهو يكظم غيظه:

ـ أردت ذلك ففعلت. لم أستأذن منك.

ـ أنت تردّ بجرأة.

ـ وأنت أيضاً لا تخيفني، فأنا لست من الخائفين.

طوّف الفارس ببصره في وجه روتشين باحثاً عن جواب. ورفع قامته فجأة، ولاحت ابتسامة وقحة على وجهه المستطيل المشوّه باختلال التناسق، ولكز حصانه بمهمازَيه، وعدا نحو راكب الدراجة. استمرّ روتشين في سيره متعثّراً من الانفعال.

ولكن أولئك الثلاثة لحقوا به في الحال. صاح راكب الدراجة ذو السترة المدرسيّة بصوت عال يوخز الأذن:

ـ لا يريد أن يتكلّم معنا، ولكن سيتكلّم مع لوفكا.

ضحك الفارسان ضحكا صاخباً، وأطبقا على روتشين بفرسيهما من الجانبين. ومرّ راكب الدراجة متقدّما إلى الأمام مديرا الدواستين بكلّ ما لرجل سكران من حول، وردد الفارسان "إمش، إمش" مجبرين روتشين على أن يهرول تقريباً بين الحصانين. وكان من العبث التخلّص أو الاحتجاج. توقّفوا في نفس الشارع عند بيت آجري ذي حديقة صغيرة وطأتها الأقدام. كانت نوافذ البيت مطلية بالطباشير، وفوق الباب يتدلّى علم أسود تحته قطعة من الخشب الابلكاش كتب عليها: "المركز الثقافي التعليمي للجيش الثوري الشعبي للهايتمان ماخنو".

كان الغيظ قد غشّى على ذاكرة روتشين حتى أنه لم يتذكّر كيف دفع إلى البيت، واقتيد عبر ممرّات مظلمة إلى حجرة تناثر فيها البصاق والقذارة لها رائحة شديدة الحموضة تكتم الأنفاس ودخل في الحال رجل مبتسم لامع الوجه يترنّح قليلا لبدانته يرتدي سترة قصيرة من تلك التي كان يرتديها في الأقاليم المعروفون من الموسيقيّين والمغنّيين الكوميديّين.

ـ إذن ما الأمر؟

سأل الرجل وجلس عند طاولة مهزوزة بعد أن أزاح أعقاب السجائر عنها.

قال له ذو الوجه المعوَّج الذي صحب روتشين:

ـ أمرنا الهايتمان أن نعرف هل هو وغد أم شيء آخر.

ـ أخرج الآن، يا رفيق كاريتنيك (وبعد أن خرج هذا) أجلس الآن.

قال روتشين منفعلا للرجل المبتسم البدين ذي السترة القصيرة:

ـ إسمعني. أنا اعرف أنني وقعت في أيدي الاستخبارات. وأنا أوضح لك من أنا ولماذا أنا هنا، فليس لي ما أخفيه....

ـ أنظر إلي قال الرجل ذو السترة دون أن يصغي إليه أنا ليفا زادوف، ولا داعي للكذب علي، وسأستجوبك وستردّ على استجوابي.

وكان اسم ليفا زادوف معروفا في الجنوب بما لا يقلّ عن الهايتمان ماخنو نفسه. فقد كان ليفا (لوفكا) جزارا، ورجلاً شديد البطش بشكل مذهل حتى زعم أنّ ماخنو حاول غير مرة أن يقتله، ولكنّه كان يعفو عنه لولائه. وكان روتشين قد سمع عنه أيضاً وأحسّ لأوّل مرّة بالدم يجمد في عروقه. كان يقف أمام الطاولة. لوفكا زادوف يجلس أجعد الشعر غزيره، مورّد الخدّين متلذذا بسلطانه على رجل بثّ فيه الرعب.

ـ إذن، تكلّم، هل أنت من ضباط دينيكين؟

ـ نعم سابقا...

ـ سابقا؟ أي، أي، أي... من أين أنت قادم؟

ـ من يكاترينوسلاف إلى غولاي بوله. ها أنا أقول لك...

ـ أي، أي، أي... لماذا تقول لليفا أنك قادم من يكاترينوسلاف، بينما جئت من روستوف.

وأخذ روتشين يبحث عن تذكرة السفر بعجالة، وسرت البرودة في جسمه ثانية، فقد يكون قد رماها. وتبيّن أن التذكرة في جيب القميص مع صورة فوتوغرافية باهتة مدعوكة لكاتيا. قدّم التذكرة إلى لوفكا، فقلبّها هذا وقتاً طويلاً، ودققها في الضوء لقد كانت التذكرة صحيحة على أية حال، وهذا ما حيّر لوفكا قليلاً، وكان قد توصّل، على ما يبدو، إلى اعتقاد، بل وحدود الحكم.

وغيّرت التذكرة هذا الأمر كلّه. وكفّ لوفكا عن تكشيرة السخرية وارتعشت شفتاه الغليظتان بزراية:

ـ ما الذي جعلك تتوقّف في غولاي بوله إذا كنت تحمل معلومات استخباراتيّة إلى قيادة دينيكين؟

ـ أنا لا أحمل معلومات استخباراتية. غادرت الجيش منذ شهرين، وتركت الخدمة. ومزّقت الهويّة العسكريّة. وقد جئت إلى هنا كرجل غير مرتبط...

لم يصرف لوفكا عنه عينيه السوداوين. وبذل روتشين كلّ جهده ليكبح انفعاله، ويجيب إجابة مروى بها، وهو تحت هذه النظرة الخالية من أي شيء معقول وإنساني، فأنشأ يتحدّث (بتبسيط وسهولة وإدراك) عن الأسباب التي دعته إلى الهروب من الجيش...

قاطعه لوفكا بصوت هادئ:

ـ لو تكذب عليّ أيها الوغد، مرة أخرى لفعلت بك ما لم يفعله أحد...

وبحركة سريعة لصوصية انتشل من روتشين صورة كاتيا،

وتمعَّن فيها مبتسما مثل رجل عليم بالنساء، ونقر عليها بأظفره وقال:

ـ من هذه الكليبة؟

ـ زوجتي... جئت من أجلها... أعطني الصورة..

ـ ستوضع فوق جثتك الدامية وغطى لوفكا الصورة بيده البدينة والآن، حدّثني عن معلومات استخباراتية...

صاح روتشين: لن أقول كلمة أخرى بعد!

ـ ستقول لي، فالناس ينطقون عندي.

ورفع لوفكا جسمه قليلا، وضرب فاديم بيتروفيتش على وجهه مثلما يضرب القط بمخلبه، واخطأ التسديد فوقعت الضربة على الصدغ. ووقع روتشين مغشياً عليه.

كان أعداء الجمهورية السوفييتيّة يتصوّرون أنها محكوم عليها بالسقوط في أقصر وقت تحت ضرباتهم. إلا أنّ هذه الجمهورية نظّمت كلّ رهافة العقل والعلم، وجميع قوى الشعب الروحيّة والماديّة لتتحوّل هي نفسها إلى الهجوم. وكانت خطّة البلاشفة العسكرية هي إخضاع كلّ شيء لمهمات الدفاع، دون التراخي ساعة واحدة في القيام بالتغيّرات الاجتماعية العميقة، مطبّقة بشجاعة المبادئ التي كان تحقيقها خارج نطاق عمل اليوم. ومن ثم: إنشاء جيش أحمر قوامه ثلاثة ملايّين رجل، وتنظيم حماية في الشمال، والقيام بهجوم في سيبيريا وجنوب الأورال، وتشديد العمليات الهجومية بشكل رئيسي ضد قوزاق كراسنوف على الدون، وضد دينيكين في شمال القفقاس.

وأقامت جمهورية روسيا السوفييتية الواقعة تحت ضغط الجيوش البيضاء من كلّ الجهات جبهة طولها أكثر من خمسة

عشر ألف كيلو متر، أضيفت إليها بعد ذلك جبهة معقدة ومشربكة هي الجبهة الأوكرانية.

واشتد أوار الحرب الأهليّة بشكل خاص في أوكرانيا الغنية التي أحدث الاحتلال القريب العهد والحكم الهيتماني وعودة أصحاب الأراضي الإنتقامية تصدّعا عميقا بين الفئات المختلفة من سكانها. فانجذب العمال وعمال المناجم في الدونباس والفلاحون ذوو الأراضي الصغيرة والعمال الزراعيون على السلطة السوفييتيّة، بينما انحاز الفلاحون الأغنياء والبورجوازية على المديريّة المستقلّة ورئيسها الهايتمان بيتلورا خائفين من اللجان الثوريّة، ولجان فقراء الفلاحين، واللجان التنفيذية، والمفوّضين من مصادرة فائض الحبوب. وكان بيتلورا موضع تأييد أيضاً من المثقّفين الذين كانوا يردّون على الثورة السوفييتيّة بكلّ ضخامة: "أخرجوا، أيها الموسكوفيون الملاعين!" وغطّت الرومانطيقيّة القديمة للسراويل الفضفاضة بعرض البحر الأسود، والعباءات القوزاقية، والسيوف المعقوفة ونواصي الشعور الطويلة على الحقائق التاريخية الحزينة حول التضحيات الدموية للشعب الأوكراني الذي ناضل خلال ثلاثة قرون في سبيل استقلاله.

طرد بيتلورا الهيتمان، وتبوأ المديرية في كييف، وأعلن جمهورية مستقلّة، وبدأ يخوض نضالاً ميؤوساً منه ضدّ الثورة البروليتاريّة. وكانت له بعض الفرق المؤلّفة من جنود الهيتمان الذين انحازوا إلى جانبه، ومن الغاليسيّين الثابتين المنضبطين الذين كانوا يؤمنون بتحقيق الحلم القديم في اتحادهم مع أوكرانيا الحرة، ومن مختلف أصناف المغامرين الذين كانوا يطعمون أنفسهم من النهب الحربي. ولكن لم يكن لبيتلورا القدر الكافي

من الذكاء والدهاء يجعله يقترح لأوكرانيا الفلاحيّة المجزّأة إلى فئات، والهائجة شيئاً ملموساً غير المراسيم الفضفاضة. كما لم تكن له احتياطات.

في كانون الأول الّفت حكومة أوكرانيا السوفييتيّة السرية في بلدة سودجا من مقاطعة بولتافا. وقد أرسل رئيس المجلس العسكري لتساريتسين فوروشيلوف قائد الجيش العاشر إلى سودجا لينضمّ إلى الحكومة. وشكّل مجلس عسكري ثوري في البلدة.

وفي ذلك الوقت بدا الجيش الأحمر الأوكراني النظامي الهجوم في الغرب باتجاه كييف، وفي الجنوب نحو خاركوف ويكاترينوسلاف. وكان هذا الجيش قد تشكّل عند كورسك قبل هذه الأحداث بوقت طويل، وغالبيّة رجاله من الفلاحين الأوكرانيّين الهاربين إلى هناك من المحكمة والإعدام، وكان يتألّف من فرقتين. ولما كانت الفرقتان ليستا بالقوة الكافية تماماً فقد عوّل على تأييد فصائل الأنصار، وكان جيش الهايتمان ماخنو أكثرها قوة.

كان ماخنو يلهو. كان يجوب المدينة كلّها على دراجة عارضاً نفسه في بزّة مدرسيّة حصل عليها بعد الغارة على بردیانسك، أو يغنّي الأغاني على الأكورديون مترنّحا في الشارع مع مرافقه كاريتنيك، أو يأتي إلى السوق غضوباً ممتقعا باحثاً عن المشاحنات، إلا أن الجميع كانوا يتحاشونه عارفين البساطة التي يخرج فيها مسدّسه من جيب بنطاله. وكالعادة حين رآه رجاله الجسورون الذين لا يخافون الله ولا الشيطان على مقربة من الدوارة نزلوا من أحصنتهم الخشبيّة، وانسلوا متوارين. فتسنى

للهايتمان أن يركب وحده الدوارة بصحبة كاريتنيك ويدور بها حتى يصاب بالدوار.

وشاع في غولاي بوله كلّها أنّ الهايتمان أخذ في المدة الأخيرة يكثر من الشرب، حتى ليخشى أن يبيع الجيش ويشرب بثمنه. ولكن القليلين من الناس فقط حدسوا أنّه يضمر مكيدة. وكان ماكراً كتوماً مراوغاً مثل وحش تعرّض مراراً لمخاطر الصيادين.

كان ماخنو يكسب الوقت. في تلك الأيام كان عليه أن يتخذ قراراً بالغ الأهميّة. لقد فرغت يكاترينوسلاف من الألمان والهيتمان ورجاله الذين كان يحاربهم. وولّى أصحاب الأراضي هاربين. وكانت المدن الصغيرة قد نهبت. وكان أعداء جدد يزحفون عليه من ثلاث جهات: المتطوّعون من القرم وكوبان، والبلاشفة من الشمال، ورجال بيتلورا الذين احتلوا يكاترينوسلاف لتوّهم يأتونه من الدنيبر. فمن هو الأخطر من هؤلاء؟ وإلى أيّة جهة يحوّل عربات الرشاشات؟ كان يجب اتخاذ القرار دون تأخير. كان الجيش يقلّ أفرادا، وتظهر مظاهر الزعزعة عليه. وكان الجنود من الفلاحين زرّاع الحبوب يقولون: "من حسن الحظ أنّ البلاشفة قادمون إلى أوكرانيا والآن يمكن أن نتفرّق إلى بيوتنا، ومن لم يسأم بعد فليضع النجمة الحمراء على طاقيته" أما نواة الجيش "المائة السوداء المسماة على اسم كروبوتكين" رجال السيف الشجعان الذين انصرفوا عن كلّ عمل من أجل الحياة الحرة ممتطين ظهور الخيل، فقد كانت تصيح:

"... لئن أراد الهايتمان بيعنا للبلاشفة لقطعنا رأسه أمام الجبهة، وكفى... ها هو بيتلورا قد استولى على يكاترينوسلاف،

أما نحن فليس لنا إلا الانتظار... نفد طعامنا، وأصبحنا حفاة عراة، وبعد قليل سنعدو في السهب مع الذئاب... يا أخوان، إلى يكاترينوسلاف! "

ظلّ البحّار تشوغاي الموفد من القائد العام للجيش الأحمر الأوكراني ثلاثة أيام في غولاي بوله ينتظر بثبات أعصاب أن يصحو ماخنو إلى نفسه ويتحدّث معه. وفي هذه الأيام قدم من خاركوف الفيلسوف الشهير عضو أمانة الاتحاد الفوضوي المسمّى "الناقوس" ليتحدّث إلى الهايتمان أيضا. وكان أعضاء المجلس العسكري السياسي لماخنو، والفوضويون المحلّيون، والمستشارون المقرّبون يتصيّدون الهاتمان أينما استطاعوا، ويحذّرونه من الغير حتى لا يصغي إلى أحد، وأن يتمسّك بالحرية العليا للشخصيّة.

كان ماخنو يدرك أنه ما لم يتّخذ قراراً حازماً ملائماً للجيش فإن قضيته ومجده سينتهيان. والآن كان أمامه خياران: أما الميل نحو البلاشفة، والعمل بما يأمر به القائد العام، ثم الإنتظار، في آخر المطاف، الساعة التي سيرمونه فيها عقاباً على تصرّفه الفردي. وأما قتل الموفد تشوغاي، وإثارة انتفاضة فلاحية في أوكرانيا ضدّ كلّ سلطة. ولكن هل الوقت مناسب لذلك؟ ربما يكون على خطأ...

وكانت هذه الأفكار سرّية جداً حتى كان من الخطر أن يفضي بها حتى إلى الكلبين الوفيّين: لوفكا وكاريتنيك. وكان يحسّ بالضيق من هذه الأفكار. كان الجيش ينتظر، والموفد تشوغاي والفوضوي الشهير الشيخ الجليل القادم من خاركوف ينتظران. وكان ماخنو يشرب الخمرة، دون أن يفقد توازنه،

ويتحامق ويعبث لغاية مقصودة، فقد كان بصره حادا وسمعه مرهفا، فكان يعرف كلّ شيء ويرى كلّ شيء. وكان الغيظ يغلي في داخله.

كان ماخنو قد أمر باعتقال الرجل الغريب الذي كان يرتدي معطف الضابط، والذي ادّعى بأنّه قادم من يكاترينوسلاف، وطلب إرساله إلى لوفكا. وبعد ذلك بوقت قصير حضر ماخنو نفسه إلى المجلس الثقافي التعليمي ودخل مع درّاجته إلى الحجرة التي كان يجري فيها الاستجواب. بعد الضربة الخاطئة التي وجّهها لوفكا زادوف إلى روتشين جلس لوفكا وراء الطاولة، ووضع قبضة فوق قبضة، وأسند حنكه عليهما. نظر ماخنو إلى الرجل المطروح على الأرض، وأسند الدراجة:

ـ ماذا فعلت معه؟

ـ ربتّ عليه فقط أجاب لوفكا بذلك.

ـ أحمق.. هل قتلته؟

ـ لست جرّاحاً، فكيف لي أن أعرف؟

ـ هل استجوبته (هزّ لوفكا كتفيه) هل هو من يكاترينوسلاف؟ ماذا يقول؟ من استخبارات دينيكين؟

وكان ماخنو يحدّق بلوفكا تحديقة شديدة غير محتملة حتى أنّ عيني لوفكا احتجبتا تحت حاجبيه.

ـ لا بدّ أن لديه معلومات، أين هي؟ أنت تلعب مع الموت..

ـ بدأت من توّي، يا نستور إيفانوفيتش.. ولم أكن أعرف أنّ الوغد بهذه الدرجة من الضعف.

أخذ روتشين يئنّ في تلك اللحظة، وطوى ركبتيه. قال لوفكا فرحا:

ـ لا شيء، أعصاب.

أمسك ماخنو الدراجة، فوقع بصره على صورة كاتيا ملقاة على الطاولة. اختطفها وتمعّن فيها:

ـ أخذتها منه؟ من هي؟ زوجته؟

كانت لنستور إيفانوفيتش ذاكرة جيّدة، مثل جميع الناس ذوي الإرادة القويّة والتركيز والتشكك والتجربة الكبيرة في الحياة. فقد تذكّر على الفور رؤيته لكاتيا لأوّل مرة (حيث جعلها تطلي أظافره) وتدخل ألكسي كراسيلنيكوف وكلّ المعلومات التي استقاها عن هذه المرأة الجميلة. وضع الصورة في جيبه، وقاد الدراجة، وتوقّف. فقد رأى وجه روتشين تعود إليه الحيوية، وفمه ينتفخ قليلا.

ـ اجلبه إليّ. سأستجوبه بنفسي...

فكرة واحدة ترسّخت في ذهن نستور إيفانوفيتش في أيام اللهو هذه، وهي ضرورة الخروج بالجيش إلى يكاترينوسلاف واجتياحها بالقوة، ورفع راية الفوضوية على دوما المدينة. إن مثل هذه الغنيمة ستقوي عزيمة الجيش وتلاحمه فإن يكاترينوسلاف مدينة غنيّة تكفي منتوجاتها من الأنسجة والأشياء الأخرى ولاية كاملة، بحيث يمكن أن تلقي على القرى والأرياف من عربات القطار والعجلات وقطع الأقمشة والاجواخ، وينثر السكر بالارفاش، ويغدق على الفتيات بالأشرطة والزينات والجوارب والأحذية: (هذه لكم أيها الفلاحون، هدايا من الهايتمان ماخنو! هذا هو النظام الحرّ اللاسلطوي، بلا أصحاب أطيان ولا

بورجوازيّين، بلا سوفييتات ولا لجان استثنائية...»

أما سائر الأشياء فلم يجد لها حلاً بعد، والآن، وبعد أن ألقى نظرة على صورة كاتيا وجد الحلّ فجأة. وقد قفز إلى ذهنه مثل عفريت الزنبوك في علبة من لعب الأطفال. ولكنّه لم يبد أي شيء يدلّ على أنّ كلّ شيء فيه كان يرقص طربا... ركب الدراجة وسار في الشارع إلى بيت ممتدّ طولاً ذو نوافذ كبيرة في مقدمته أشجار حور عالية. كان هذا البيت مدرسة تستخدم مقرّاً للقيادة. وكان مرافقوه وهو نفسه يعيشون في غرفة واحدة.

بعض مضي ساعة جلبوا روتشين إليه. كان لوفكا يسير أمامه، وخلفه رجل من رجال ماخنو يضع على رأسه قبّعة فرائية صنعت من ياقة معطف قسّيس، عليها شريط أسود مائل كان يدفع روتشين من ظهره بماسورة مسدسه. كان ماخنو جالساً على أريكة صغيرة غطِّيت بقماش خشن تشقّق حتى برزت اللوالب من تحته. صاح بصوت عال:

ـ ما هذا؟ كأنكما تقومان بدور الجندرمة في العهد القيصري؟ أترك السلاح! أخرج.

ودفع بوجهه الأصفر الهزيل من أسفل إلى فوق يشير إلى الرجل بالخروج (فامتثل هذا في الحال، وضرب الأرض بحذاءه. وخرج) نهض ماخنو من الأريكة، وضمّ قبضته اليابسة وضرب لوفكا على وجهه، وشفتيه وأنفه.

زعق:

ـ جزار! سكير! مصاب بالسفلس! تلوّث الفكرة! وتلوّثني! لم ينتظر لوفكا زادوف اعتمال الغضب في صدر الهايتمان، إذ كان يعرفه جيداً، بل حشر رأسه بين كتفيه السمينتين وحمى نفسه

بيديه من الضربات، ولاذ خلف الباب، واغلقه خلفه.

خلع ماخنو قبعته. كان جبينه يتصبّب عرقا. وجلس ثانية على الأريكة. ولو كانت لديه مسبحة لبدا مترهبناً متزمتاً كلياً.

ـ تفضّل بالجلوس وأشار بيده الطويلة إلى مقعد ليجلس عليه روتشين. لو نضطر إلى رميك فإنّ ذلك لا يغيّر من الأمر شيئاً، أنّه عار أن تهان الكرامة الإنسانيّة. خذ سيجارة، ودخّن. هل أنت من الاستخبارات؟

قال روتشين بصوت لا رنّة فيه وتبسّم ابتسامة ساخرة، وتناول سيجارة.

ـ هربت، وانتهيت منه. على أية حال لن تصدق ما سأقول لك فلا داعي للكلام.

ـ الناس لا يكذبون عليّ قال ماخنو بنفس الصوت العالي ذي النبرة المتميّزة التي كان من الصعب تسجيلها بعلامات النوتة. وخيّل لروتشين أنّه يشبه صوت طائر جارح وكرّر ماخنو: "الناس لا يكذبون عليّ" وكانت عيناه الجافتان الجامدتان تعكسان قوة إرادة بالغة حتى كان ليصعب النظر إليهما: وما كان في مقدور إنسان أن يتحمّل نظرتهما دون أن تترقرق عيناه بالدموع. ومع ذلك فقد تحمّلها روتشين. أحسّ برأسه يتصدع بعد حادث الأمس. وغالب هذا الألم، وجمع كلّ قواه للمناوشة الأخيرة.

ـ إذا كنت بحاجة إلى معلومات عن جيش المتطوّعين فلك أن تسأل. ولكن معلوماتي قديمة. خرجت في إجازة منذ شهرين. وفي هذا الربيع قمت بعمل غير صحيح، ثمنه حياتي... أنت تنوي رميي بالرصاص. سواء بهذه الطريقة أو بأخرى، الآن أو فيما بعد فأنني لن أفلت من رصاصة ستكون من نصيبي بسبب غلطتي..

لاحت في عيني ماخنو واختفت ومضة من السخرية. "إنّه لا يقول الحقيقة بي..." ومصّ فاديم بتروفيتش نفساً عميقاً من سيجارته، ووضعها على حافة المنضدة، ودسّ يديه في حزامه: "ستصدق عندما أسألك..."

ـ قبل كلّ شيء: كيف انضممت إلى معسكر البيض؟ تدحرجت مثل تفاحة على منحدر... حسنا، كنا مثقفي روسيا، يعني: ملح الأرض، وقد قرأنا ميخائيلوفسكي وكانت وكوبوتكين وحتى بيبل إلى جانب الكتب الأخرى المهدِّئة. وأنا أتذكر كم ليلة مؤرقة قضيتها في مثل هذه الأحاديث مع ألكسي بوروفوي(١١) وحدث ما توقّعه عند ذكر هذا الأسم، فقد غامت عينا ماخنو في الحال كالحمقاوين، ولكن للحظة واحدة لا غير) كنا مفعمين بالتوقّعات الحماسية. ثم جاءت ثورة شباط! وانتهى كلّ ذلك بشيء حامض المذاق: فبدلاً من العيد الضخم رأينا البولفارات تتناثر عليها قشور بذور عباد الشمس، والبحارة والجنود والهرج، ولم نر بلاداً عظيمة بل لبخة، وعصيدة دخن بلا ملح...

تململ ماخنو على الأريكة، وفجأة ودون أن يفطن إلى ذلك، جلس وكأنّه في اجتماع عمال سري في عيد أول أيار، محتضنا ركبتيه الهزيلتين. بل ولاح في عينيه ما ينمّ على الانتباه.

ـ وظهر أن المثقفين خارج الموضوع. أما في اكتوبر فقد أمسكونا من مخانيقنا كالقطط الصغيرة، وألقونا في المزبلة...

---

(١١) ألكسي بوروفوي هو أحد منظِّري الفوضوية مشهور بين جماعة ماخنو وقريب من ماخنو. الناشر.

وهذا كلّ شيء على وجه التفصيل وجيش المتطوّعين مزبلة عموم روسيا. إنّه خال من كلّ شيء إنشائي وحتى لا يمكن أن يكون فيه شيء مرمّم. ولكنّه قادر أن يدمر، بل ويشكّل خطر... ومن المؤسف أنني وعيت.. ذلك هو الأمر، يا نستور إيفانوفيتش... (وقد خرجت تسميته باسمه واسم ابيه بشكل طبيعي).. وما كان لي أن أظلّ على قيد الحياة، ولم أرد ذلك.. ولكن هناك مخلوقاً أغلى عندي من كلّ الفلسفات وأغلى من ضميري... وهو الذي أوقفني...

ـ أهو هذه؟

سأل ماخنو فجأة مشيراً إلى الصورة.

ـ نعم هي.

ـ خذها، فانا لست بحاجة إليها...

أخفى روتشين صورة كاتيا في جيب قميصه. وتناول عقب السيجارة، ودخّن. ولم تكن يداه ترتجفان. ولم يفقد سياق الحديث:

ـ مزّقت الهوية العسكريّة، وجئت إلى هنا مقتفيا أثرها. وما دمت قد عدت إلى الحياة من جديد، فمرحبا بالعودة إلى الفلسفة والإيديولوجية. فنحن لسنا من أرباب الحرف... والشيء الوحيد الذي أتقبله... بشكل مجرّد كلياً، بالطبع، بشكل مجرّد... هو الحرية المطلقة، الحرية الفالتة... ولتكن جنونية، مستحيلة، ومع ذلك... يجب أن يموت الإنسان في سبيل شيء وراء حدود الخيال.

قال ماخنو خافت الصوت:

ـ على أية حال أعطني الإخباريات التي لديك، أين خبأتها؟

توقّف روتشين، وأدار رأسه، وهزّ ذراعه بوهن ويأس. ظلّ ماخنو وقتاً طويلاً على الأريكة لا يريم حراكا. وفجأة وثب، وأخذ ينبش في كومة الأشياء في ركن الحجرة أسلحة وأسرجة وعدّة وحقائب ورقيّة... ووجد بعض المعلّبات، وزجاجتين من الكحول، ووضع كلّ ذلك على المنضدة، ثم أخذ يدير المفتاح ليفتح علبة سردين. قال:

ـ سآخذك إلى القيادة. زوجتك في السرية السادسة عند كراسيلنيكوف في ضيعة بروخلادني. وسيأتي موفد من البلاشفة بعد قليل إلى هنا. أدخل في ظنّه أنني متواطئ مع جيش المتطوّعين. إنّ مهمتك أن تضلّله. مفهوم؟ هل تلعب الورق؟

وبهت فاديم بترفيتش في هذه المرة عن حق وظلّ يرمش بعينيه فقط دون أن يحاول حتى أن يفهم كيف انقلبت الأمور هذا المنقلب، وما معنى هذا كلّه. كسر ماخنو مفتاح علبة السردين، وأخرج من جيبه مطواة من عرق اللؤلؤ لها عدّة شفرات، وأخذ يستعملها في فتح علب من الأناناس، ومعجون اللحم الفرنسي، وسلطعون البحر، ففاحت روائحها القويّة في الحجرة.

ـ لديّ دائماً الوقت الكافي لرميك، ولكنني أريد أن أستخدمك قال ماخنو وكأنه يرد على أفكار روتشين الشاردة هل أنت من ضباط الأركان أم من ضباط الجبهة؟

ـ في الحرب العالمية كنت في أركان الجنرال أيفرت...

ـ والآن ستكون في أركان الهايتمان ماخنو... في الأشغال الشاقة في عهد القيصرية رفعوني من رأسي، ومن قدمي،

وألقوني على الأرض الآجُرية... بهذا الشكل يمرس زعماء الشعب مفهوم؟

رنّ التلفون في صندوق أصفر كان على الأرض بين النفايات. قرفص ماخنو، وصرخ في السماعة بصوت الطائر الجارح:

ـ أنا في الانتظار، في الانتظار!

كان الموفد تشوغاي رجلاً بطيء الحركة قوياً جداً في سترة من قماش خشن مستهلكة ولكنها نظيفة، وطاقية لا ظليلة لها منسرحة على علبائه. وكان يجلس ممسكا الورق بشكل لا يدع الآخرين يختلسون النظر إليه. وكان يراقب بعينيه اللامعتين الجاحظتين كلّ حركات نستور إيفانوفيتش. وكان وجهه الساكن العريض عند الوجنتين ذو الشاربين الاسودين خاليا من التعبير، ولكن الكرسي المقوّس كان يرسل تحت ثقله صريفا بين الحين والآخر. فكان هذا الشخص الذي لبس سروال بحارة حشره في نهايتي حذاء عريض قصير لو جلس بين سبع تنانين برونزيّة ذات أعناق منتفخة لسجدت له.

كانوا يلعبون لعبة "الماعز" وهي لعبة ابتكرت في الجبهات لكي تلهي الرجال بالضحك عن جراحهم ومخاوفهم. وكان نستور إيفانوفيتش قد اقترح على ضيفيه حالما دخلا، ودون أن ينهض من المنضددة ويصافحهما أن يلعبوا لعبة "التسعة" بالنقود (وكأنما دعاهما لأجل ذلك). ووزّع الورق بسرعة حتى لتعذّر على العيون أن تلاحق حركة يديه، ووضع على المنضدة ورقة من فئة ألف روبل، وغطاها بعلبة سلطعون البحر. إلا أن تشوغاي تناول ورقتيه، ووضعهما تحت نفس العلبة .

فسأل ماخنو:

ـ أنت خائف؟

أجاب تشوغاي:

ـ لا، لا يمكن أن تلعب بالنقود. تعال نلعب لعبة "الماعز".

جلس ماخنو باسطا ساقيه، واضعاً الورقة تحت الطاولة، مديرا ظهره إلى الباب تاركاً وراءه مكاناً فارغاً (وهذا ما لاحظه تشوغاي في الحال)، وكان روتشين يجلس إلى يساره، بينما جلس إلى يمينه ليون تشورني عضو أمانة اتحاد "الناقوس" وهو شخص أشعث الشعر لا يحدس عمره، ضئيل الجسم، جاف جدا، ناتئ عظم القصّ حتى لكأنّ صدره بلا رئتين بشكل يخيّل إليك أنه يعيش بروحه فقط. وكانت قشرة الرأس والشعرات الشيب تتناثر على سترته المدعوكة، ومن انسراح فكره ترك أوراقه كلّها مكشوفة للآخرين.

وكان في مجيئه إلى هنا قد استعدّ إلى صراع قاس مع تشوغاي الذي كان ينوي اغتصاب ماخنو وجيشه، الظاهرة الحافلة بالإمكانيات التي لا تنضب. وكان مرتبكا بعض الشيء لأنّه بدلاً من أن يدخل في معركة عامة مع البلشفي صار عليه أن يلعب لعبة "الماعز" فكان يلقي الأوراق المغلوطة، أو يوقعها تحت الطاولة، حتى خسر اللعبة أربع مرات متتاليات، وجعل ماخنو يصيح عليه بنداء الخاسر "الماعز، الماعز.. المنتن" ضاحكا بأسفل وجهه فقط.

كان ماخنو، بعد كلّ لعبة، يمدّ يده بحركة كحركة القرد إلى زجاجة الكحول ويصب في الأقداح والكؤوس متأكّداً من أن الجميع يشربون بالتساوي. وكان الحديث حول المنضدة فارغا

للغاية، وكأنّهم في الواقع أصدقاء اجتمعوا في مساء سيء الطقس يضرب المطر فيه النوافذ السوداء، وتهزّ الريح اشجار الحور العارية أمام البيت متغلغلة فيها صافرة معوّلة وكأنها روح شريرة.

كان ماخنو يتحيّن الوقت. وكان تشوغاي أيضاً يتحيّنه بهدوء مستعداً لكل المصادفات، لاسيّما حين أدرك من بعض تلميحات المضيف أنّ الشخص الرابع الجالس حول المنضدة الصامت البادي الوقار الأشيب وتحت عينيه كدمات زرق هو ضابط في جيش دينيكين، وكانت كلّ الدلائل تشير إلى أن ليون تشورني لابد أن يكون أول من فرغ صبره، فقد أخرج منديل جيب قذر، وكوّره في يده بعصبية، وراح يدفعه إلى أنفه وعينيه بعد كلّ كأس من الكحول. وهذا ما حدث فعلا.

ـ بدأنا الجدول مع جماعتكم البلاشفة منذ أن كنّا في باريس بدأ القول مدمدما، محرّكا أوراقه باتجاه تشوغاي ولم ينته الجدل، ولم يثبت أحد حتى الآن أنّ لينين على حق. انشاء دولة عمال وفلاحين بدلاً من الدولة الإقطاعية - البورجوازيّة!... ولكن الدولة دولة! استبدال سلطة بسلطة. خلع قفطان الأعيان وارتداء قميص الفلاحين! وسيكون عند ذاك مجتمع بلا طبقات!

وضحك ضحكة خفيفة ضاغطا منديله على شفتيه الجافتين. ولم يظهر على وجه تشوغاي ما ينمّ على الاعتراض، سوى أنّه تفرّس في علبة سلطعون البحر، وقرّبها منه، وتناول ما استطاع أن يتناوله بالشوكة:

ـ ترى، ماذا تقترح؟ الفوضويّة، أم النظام؟

ـ التهديم! همس ليون تشورني له وقد سلبت الخمرة صوته. وتصلّبت خصلات لحيته الرمادية كسبلة كلب الحراسة

تهديم المجتمع المجرم بأسره! تهديما لا رحمة فيه، حتى يسوَّي أرضاً فلا يبقى منه حجر على حجر... بحيث لا تخرج من البذرة اللعينة دولة أو سلطة أو رأسمال أو مدن أو مصانع مرة أخرى...

ـ ومن سيعيش عندكم في هذا المكان المقفر؟

ـ الشعب!

ـ الشعب! صرخ ماخنو مادّاً عنقه نحو تشوغاي الشعب الحرّ!

قال تشوغاي:

ـ إذا بدأنا بالصراخ فلا بدّ أن ننتهي باطلاق النار وتناول الزجاجة وصبّ للجميع (دفع ليون تشورني كأسه فانسكبت) في إمكانك أن تهدم، فذلك لا يحتاج إلى دهاء. ولكن كيف تنوون أن تعيشوا بعد ذلك؟

قال ليون تشورني متوجّساً أن يتصدى نستور إيفانوفيتش للجواب:

ـ إنّ مهمتنا هي التهديم المريع التام الذي لا يرحم. وهي تستنفد كلّ طاقة وحماس جيلنا. أنت أسير، أيها البحار، أسير تفكير مقصوص الجناح جبان. كيف للشعب أن يعيش حين تهدم الدولة؟ ها ها، كيف له أن يعيش؟

فقال له ماخنو في الحال:

ـ أعذرني، يا رفيق تشورني. المشاريع الصغيرة لا أنوي أن أهدمها، كما لا اهدم الفرق الجماعية، ولا أهدم استثمارات الفلاحين....

ـ إذن، فأنت جبان كهذا البلشفي.

ـ أوه، عبثا اتهامك إياه بالجبن قال تشوغاي وغمز لنستور

إيفانوفيتش مشجعا •كان وجه هذا أحمر كالجمرة) - إن نستور إيفانوفيتش لم يبخل بدمه، وهذا شيء معروف... لن نتخلّى عنه لكم بالسهولة التي تتصوّرها... سنحارب معه.

قال ليون تشورني بهدوء غير متوقّع. وارتخت خصلات لحيته على خدّيه. وأخذ يلتهم معجون اللحم بنهم وسرحان الفكر.

ألقى تشوغاي على روتشين نظرة من طرف عينيه. كان روتشين يدخّن بخلو بال رافعاً عينيه إلى السقف. كشف نستور إيفانوفيتش عن أسنانه الكبيرة بضحكة صامتة. وفكّر تشوغاي مع نفسه: "إنّ في الأمر تواطؤاً، على ما يبدو". وصرّ المقعد تحته. كان على تشوغاي أن ينفّذ أمر القائد العام باقناع ماخنو بالقيام بعمليات مشتركة ضد يكاترينوسلاف بوجه خاص، ولكنّه الآن، بالإضافة إلى ذلك، يجد كلّ المبررات للتخوّف من الاستنتاجات التنظيميّة الخطيرة في حالة الدخول في جدل غير موفّق مع هذا الفوضوي الذي التهم، في الغالب، مئات من الكتب السميكة. كما لم يعجبه صمت الضابط الدينيكيني الذي يبدو من بوزه أنّه من المثقفين أيضا. ولكن تشوغاي لم يصدق بأنّه من ضباط الأركان لدى ماخنو.

ثبّت طاقيته على يافوخه بشكل أقوى.

ـ أريد أن أسألك سؤالا.

قال ليون تشورني من فم مملوء:

ـ تفضّل.

ـ قال الرفيق لينين: بعد نصف عام سيكون في الجيش الأحمر ثلاثة ملايّين رجل. فهل تستطيع، يا ليون تشورني أن

تعبّئ في مثل هذه المدة ثلاثة ملايّين؟

ـ أنا واثق.

ـ يجب أن يفهم مِنْ هذا أن لديكم الجهاز لهذا العرض؟

ـ هذا هو جهازي.

قال ليون تشورني مشيرا بالشوكة إلى ماخنو.

ـ جيّد جدا. لنتوقّف عند هذه الشخصية. يعني، تستطيعون أن تجهزوا نستور إيفانوفيتش بما يكفي ثلاثة ملايّين مقاتل من الاسلحة والذخائر، إلى جانب المعدات والاطعمة والعلف بالطبع. إنّ مثل هذا الجيش يحتاج إلى نصف مليون رأس من الخيول وحدها. يجب أن يفهم أنكم تملكون كلّ ذلك؟

دفع ليون تشورني عنه العلبة التي أفرغها. وانكمش جبينه في غضون صغيرة:

ـ إسمع، يا بحار، لا تخيفني بالأرقام. إنّ وراء أرقامكم فراغا، محاولات بائسة في لمّ شعث روسيا القديمة الممزقة بتخييطها بخيوط مهترئة. إنّها قومية مستترة! ثلاثة ملايّين جندي في الجيش الأحمر! اوه، لكم خفت! عبّئوا ثلاثين مليونا. ومع ذلك فإنّ الثورة الحقيقيّة المقدّسة ستمر بملايّينكم من الفلاحين المالكين المزينين بالنجوم الحمر... إنّ جيشنا وهنا شدّ قبضته هو الإنسانية، وذخيرتنا هي حنق الشعوب المقدّس، تلك الشعوب التي لم تعد تطيق أي تنظيم للدولة، ولا رأسمالية، ولا دكتاتورية البروليتاريا... الشمس، والأرض، والإنسان! ولتقذف إلى نار عظيمة جميع المؤلّفات من أرسطاطاليس إلى ماركس! جيش! خمسمائة الف حصان! إنّ خيالكم لا يرتفع أعلى من شارب رقيب أول. خذها هدية. إننا سنسلّح مليار ونصف مليار

إنسان. وما دامت لنا أسنان وأظافر وأحجار تحت اقدامنا فإنّنا سندحر جيشكم. وسنحوّل المدينة وكل ما تتشبّثون به إلى كومة من خرائب، أيها البحار...

"أها، شيخ خفيف اللسان" فكّر تشوغاي مع نفسه وهو يرى ماخنو الذي ركّز كلّ انتباهه في البداية ينزل كتفيه، وينطفئ التورّد في خدّيه اللذين غارا. وكفّ عن الفهم، فإنّ المعلم حاد عن الإدراك السليم.

عندئذ قال تشوغاي:

ـ عندي سؤال ثان لك، يا ليون تشورني...

ـ هات....

ـ الذي فهمته من كلامك أنكم لم تستعدوا للتعبئة العامة. ولكن كلّ أمر يحتاج إلى ما يبدأ به: القنبلة تحتاج إلى فتيل، والنار إلى عود ثقاب. فعلى أي شيء تعوّلون لأنتم؟ أين ملاكاتكم؟ الهايتمان ماخنو؟ (تقلّبت حدقتا ليون تشورني، فقد كان يبحث عن حلول) جيشه ذو روح قتالية. صحيح، ولكن نسبة الفوضوّيين ليست كبيرة. إنه ليس جيشكم.

واختلس نظرة جانبية إلى ماخنو ليتأكّد من أنه لا يمدّ يده في جيبه ليخرج مسدسه. لا، لقد رآه جالسا في هدوء. أخذ ليون تشورني يبتسم ابتسامة ازدراء:

ـ يبدو أنّ حديثنا وصل إلى نقطة تقتضيني أن اعلّمك الألف ياء، أيها البحار.

ـ سيكون لطفاً منك.

ـ إنّ العالم الخارج على القانون هو ما نعتمد عليه، وهو ملاكاتنا. إنّ الخروج على القانون هو التعبير الأكثر احتراماً لحياة

الشعب... ذلك يجب أن يعرف! والخارج على القانون العدو اللدود لكل تنظيم للدولة، بما في ذلك اشتراكيتكم، يا عزيزي. وفي الخروج على القانون دليل على قدرة الشعب على الحياة... الخارج على القانون لا يتصالح ولا يهاب، يهدم من أجل التهديم. وتلك هي العفويّة الشعبيّة الاجتماعيّة الحقيقية. إفرك عينيك.

وخلال هذا الدفق الحماسي من الأفكار سار ماخنو على أطراف أصابعه إلى الباب، وفتحه قليلا، وألقى نظرة على الممر، ثم عاد إلى المنضدة. صار روتشين الآن ينظر إلى العجوز العجيب نظرة استطلاع متسائلا مع نفسه: ألعلّه يتحامق عن قصد؟

صاح ليون تشورني:

ـ أراك ترف برموشك مذهولا، أيّها البحار. أن فصائلك قد ارتكبت! فاعلم إذن: أننا كسرنا أقلامنا، وأفرغنا الحبر من محابرنا. فليرق الدم! لقد آن الأوان! والكلمة تتحوّل إلى عمل. ومن لا يهمّ في هذه الآونة الضرورة العميقة في الخروج على القانون كحركة عفوية. ولا يتجاوب معها ينبذ إلى معسكر أعداء الثورة...

أخذ ماخنو يقضم أظافره مقلّصا عينيه. وفكّر روتشين بنفسه: "لا، إن العجوز يعرف ما يقول". مال تشوغاي نحو المنضدة، ووضع عليها مرفقه، ورفع أصبعه، ليكون لليون تشورني ما يركّز عليه.

ـ السؤال الثالث: حسنا لنقل أنكم عبّأتم هذه الملاكات. وعملت هذه عملها. قلبت الأشياء رأساً على عقب... ولكن ألا ترى أن هذا الشغب لابد أن يصل إلى نهاية؟ لابدّ. والخارجون

على القانون في رأينا هم لصوص، أناس فاسدون، لا يستطيعون العمل. أنهم لا يعملون. ولم يعملوا، وهم يأخذون كلّ ما يريدون. وماذا سيكون عندئذ؟ مرة أخرى لا بد أن يكون هناك من يعمل لهم. ألا ترى ذلك؟ ولكن لم يبق شيء ينهبونه أو يحطمونه. يعني لن يكون أمامكم إلا أن تسوقوا اللصوص إلى تجاويف الأرض وتقضوا عليهم؟ أليس كذلك؟ أجبني عن هذا السؤال...

ساد الصمت في الغرفة، وكأنّ المتحادثين ركّزوا كلّ انتباههم على الاصبع التي رفعها تشوغاي ثم عكفها. نهض ليون تشورني ضئيلا (كان يبدو في جلسته أطول قامة) عنودا كالفكرة الفلسفية. وقال ملتفتا نحو ماخنو ماداً ذراعه نحو تشوغاي:

ـ إرمه! إرمه... أنه مخبر عميل...

وثب ماخنو في الحال إلى المكان الفارغ من الغرفة نحو الباب. وحكّ تشوغاي بأظافره في حركة سريعة سطح المسدس المتدلّي من حزامه تحت سترته. وتراجع روتشين عن المنضدة، وتعثّر، وجلس على الأريكة. ولكن سلاحا لم يشهر: فقد كان كلّ واحد يعرف أنّه لو أخرج سلاحه فلا بدّ له أن يرمي. برقت عينا ماخنو من التوتر. وتكلّم تشوغاي بلهجة إرشادية:

ـ عبثا، يا جدّ... اللجوء إلى طريقة رخيصة ليس بالجدل... وأنت تستحق هذه على اتهامك لي بالعمالة (ولوّح بقبضة كبيرة جعلت وجه ليون تشورني يرتعش في ألم). ولكن لن أردّ عليك رفقاً بصدرك الضعيف... يا جدّ، يجب أن تستخدم الألفاظ بعناية أكبر...

وفي هذه المرة أيضاً لم يقف ماخنو في صف المعلّم...

غضّ ليون تشورني بصره، وكأنّه يريد أن يختفي في خصلات لحيته، وتناول معطفه بياقته البالية التي كانت من فرو القندس في يوم ما، وقبّعة مخمليّة بنفس الإهتراء، ولبسها وخرج متحمّلاً الخيبة برجولة.

قال ماخنو وهو يعود إلى المنضدة، ويمسك بالزجاجة:

ـ ألا نواصل الشرب؟ يا رفيق روتشين، إذهب إلى الخفير ليخصّص لك سريرا شاغرا.

أدّى روتشين التحيّة، وخرج. وسمع وهو خارج الباب صوت ماخنو يقول لتشوغاي:

ـ هؤلاء ينادون: "الهايتمان ماخنو" وأولئك "الهايتمان ماخنو" فماذا تقول أنت للهايتمان ماخنو؟

١٢

وما أن وصل ألكسي كراسيلنيكوف إلى قريته فلاديميرسكويه وسار في رماد بيته المغطّى بالثلج. وشمّ رائحة الدخان الآتي من بيت الجيران، ورأى الوزات سماناً، والبرد ما يزال في أوّله، ناشرات أجنحتها موزوزات، راكضات مرتفعات قليلا عن الأرض، في المرجة المكسوّة بطبقة رقيقة من الجمد، حتى أدرك إلى أي حد كان ضيقا بحياة قطاع الطرق.

فليس من عمل الفلاح أن ينطلق في السهب في عربة رشاشة بين الضيع المحترقة. بل عمله أن يفكّر دائما حول الأرض ويشتغل. إجتهد وستر أمنا الأرض تهب نفسها لك. وكان كلّ شيء يدخل الفرحة إلى قلب ألكسي إيفانوفيتش: الأفكار المتعلّقة باقتصاد بيته، وهي أفكار نساها أثناء إقامته عند ماخنو، والنهار الناعم الرمادي، ونثار الثلج البطيء المتقطّع، وسكون القرية، ورائحة الدخان المألوف. وكان ألكسي في سيره يلتقط من حين لآخر صفيحة صدئة من صفائح السطح، ومسمارا، وقطعة حديد محترقة فيكومها في كومة واحدة. لم يكن معتزاً بما كسبه محمولا على ثلاث عربات، بل كان معتزاً بأنه سيبني ويقيم استثماراته الفلاحيّة غير مدقّق في كلّ روبل. ستكون أمامه أعمال لا تحصى ولا تعدّ منذ أول وتد يدقّه على الأرض الخربة حتى ذلك اليوم

التي ستخرج ماترينا فيه خبز قمحه شذيّ الرائحة من الموقد قائلة: "موقد جديد يخبز بشكل رائع". وهذا أيضاً كان يدخل الفرحة إلى قلب ألكسي. لا بأس فإنّ عرق الفلاح سيعَّوض...

وجد وهو ينبش الرماد بطرف حذائه، فأسا احترق مقبضها. وقلّبها بين يديه طويلا، وهزّ رأسه بابتسامة ساخرة، فقد عرف أنها نفس الفأس! ومنها بدأت كلّ المصائب. وتذكر كيف أن أخاه سيميون، وقد سمع صيحة ماترينا الشاكية وثب مسعورا في البيت. وكان ألكسي قد رس الفأس في قرمة في الرواق عند الباب. ولو لم يقع بصر سيميون عليها لما حدث أي شيء في الغالب...

"آه، سيميون، سيميون وألقى الكسي الفأس الصدئة على نفس الكومة لو كنا معا لقمنا بالعمل أسرع وأقوى... نعم، يا أخي، أخذت كفايتي من الضوضاء والضجيج..."

وألقى نظرة على الأرض مفكُراً في رسالة سيميون التي تلقّاها وهو في غولاي بوله. كتب أخوه هذه الكلمات "قل لزوجتي ماترينا أن تصون نفسها رجاء من كلّ لهو، فإنها ليست بحاجة إلى ذلك، وليس الوقت وقته... وحين أقتل ستكون حرّة... إنّه وقت عصيب يجعل المرء يصكّ على أسنانه، وأنا أراكم في الحلم فقط. لا تنتظرا مجيئي قريبا، فإنّ الحرب الأهليّة تبدو بلا نهاية.

وهزّ ألكسي نفسه.. اللعنة عليها، ومع ذلك فإنّ المرء لا يستطيع أن يذهب ببصره بعيداً. ومرّة أخرى أخذ الكسي ينظر إلى الأدخنة الهادئة تتصاعد هنا وهناك وراء الأسيجة ووراء الحدائق الجرداء، وفوق الأكواخ المغطّاة بالقصب والقش. كان الفلاحون

يتهيأون لقضاء الشتاء في الدفء. وهم على حق. فإن الجيش الأحمر سيأتي إلى هنا إن لم يكن بعد أسبوع، فبعد أسبوعين. كيف أنّ الحرب الأهليّة لا تبدو لها نهاية؟ لعلّ سيميون يهذي! ومن سيأتي إلى هنا إذن؟ "آه، سيميون، سيميون... أنك بالطبع تروح وتجيء على سفينة ألغام في بحر قزوين، والدم يتصاعد إلى عينيك ويغشّيهما..."

ومع ذلك فإنّ ألكسي كان يستشعر اضطرابا داخل نفسه. اخرج علبة التبغ وفطن، اللعنة، ليس له ورق للفّه... في هذا الصيف قال أحد المطبّبين أنّ جيش ماخنو يضمّ الكثيرين من ذوي الأعصاب المتوتّرة. تراه في مظهره الخارجي رجلا معافى، يلتهم صحونا من العصيدة. أما أعصابه فهي كأمعاء قطة مشدودة على كمان. ودمدم ألكسي بنفسه "آوه، أعصاب. من قبل حتى لم نكن نسمع بها". ووصل إلى مدخنة موقد بارزة محروقة، وحاول أن يهزها ليرى هل هي ثابتة في مكانها. دفعها بكتفه، فترنّحت "أعصاب..."

نزل ألكسي مع كاتيا وماترينا في بيت أرملة من أقاربه. وكان المكان ضيّقا وغير مريح. بيّضت ماترينا الموقد، وطلت الأرض الترابية بطبقة من الطين الرمادي، وعلّقت ستائر من الدنتلاّ على النوافذ الصغيرة المغبّرة. واشترى ألكسي طحينا وبطاطس وكمّية كافية من العلف للخيول، مِلْءَ عربة من هذا ومِلْءَ عربتين من ذاك. ولم يماحك مع أحد في سعر، ولم يبخل بالفلوس، وحتى حين كان الناس يلحّون بطلب الملح، الذي كان أغلى من الذهب، كان يعطيهم قليلا منه. وكان يعرف أنّ أهل قريته يعتبرون أنّه قد حصل على فلوسه بطريقة سهلة، كما كان يعرف أنّ

العربات الثلاث من الأمتعة والخيول ستظلّ طويلا تجلب الموجودة له.

وكان الأصعب من ذلك التغلّب على معارضة أهل قريته في بناء بيت له. وكان قد فكّر في تفكيك جناح في ضيعة الأمير كان يقع في مجمّع للأشجار الجرداء على مرتفع، وكان مهدّما مهملا. وكانت دار الأمير قد خويت، ولم تبق إلا النوافذ المحطّمة فارغة بين الأعمدة التي تساقطت قشرتها. وكان هذا الجناح الذي كان يقيم فيه القيّم سليما. ولم يكن صعبا تفكيكه ونقله إلى مكان بيته المحروق.

إلا أنّ الفلاحون كانوا ما يوالون تحت خوف ما. ولم تكن في القرية أيّة سلطة. فقد طردوا إدارة الهيتمان، والبيتلوريون ما يزالون متشبثين بالمدن على نحو ما. والحمر لم يأتوا بعد. ولأنّهم تعوّدوا على السلطة فإنّ غيابها كان يبثّ فيهم شيئاً من الخوف. فقد يحاسبهم أحد على أفعالهم فيما بعد، ولهذا قرّروا انتخاب عمدة. ولكن لم يرد أحد أن يصير عمدة. كان الأغنياء والأذكياء يكتفون بهزّ أذرعهم قائلين: "لا، لا، وما حاجتنا إلى ذلك..." ولم يرغب أهل القرية أن يضعوا في هذا المنصب معدما ليس له ما يفقده. وقد سرت شائعة من الجانب السوفيّيتي عن هؤلاء المعدمين الوادعين الذين ينقلبون، إذا تسلّموا السلطة، إلى معارضين أشداء.

ووجدت النساء الشخص الملائم. اقترحت واحدة للأخرى وتهامسن في القرية كلّها بأن الربّ نفسه أمر أن ينتخب الجد أفاناسي عمدة للقرية. وكان هذا العجوز يعيش بطمأنينة مع كِنّتيه (فقد قتل ولداه في الحرب مع الألمان) ولم يكن يشتغل في

الحقل، فكان يقضي وقته في رعاية الطيور الداجنة، وما حول البيت، ويزعق على كِنّتيه. وكان يهتم بالصغائر، متسقّطاً للعثرات. وكان في الزمان القديم يخدم عند الجنرال سكوبيليف.

ووافق الجد أفاناسي على منصب العمدة في الحال قائلاً: "شكراً على تقديركم، ولكن لا تتراجعوا، سأحملكم على إطاعتي". فكان يتجوّل في القرية متفحّصاً متسقّطاً العثرات في لحيته الرمادية المشطورة شطرين مثل لحية الجنرال سكوبيليف، ومعطفه من جلد الأغنام محزّم في اسفله بحزام، وبعصاه العالية من خشب الجوز.

وكان ألكسي يرفع قبّعته له كلّما التقى به، وينحني احتراما. وكان الجد أفاناسي يظلّل عينيه بحاجبيه المخيفين ويسأل:

ـ طيّب.. كيف الحال معك؟

ـ لا بأس. شكرا، يا أفاناسي أفاناسيفيتش، ما أزال أتعذّب في نفس المكان.

ـ ألا تستطيع أن تسوّي أمورك مع الفلاحين؟

ـ أملنا الوحيد فيكم يا افاناسي افاناسيفتش.. وددت لو تزورنا مرة...

ـ ألا يكون ذلك شرفا كبيرا لك؟

ومع ذلك فقد استمال ألكسي العمدة أفاناسي. أرسل ماترينا إلى كِنّتيه لتشتري وزة سمينة قدر الإمكان، وتقول لهما أنهم سيحتفلون غداً بيوم ميلاد، وأنّهم لن يدعوا أحدا، لأن المكان ضيّق ولكنّهم سيكونون سعداء في استقبال الطيّبين. وكان الجد فضولياً إلى جانب صفاته الأخرى. فما كادت ظلمة الشتاء تغمر القرية حتى ذهب إلى الحقل ودخل الكوخ المدفّأ بتدفئة قوية،

وأرضيّة مفروشة بقطعة من بساط من العتبة حتى المائدة المثقلة بغالي الطعام. وكانت المسارج والفتائل الدهنية الموضوعة في علب المعلبّات تشتعل في كلّ مكان، أما هنا، فوق المائدة فأضيء مصباح كيروسين.

دخل الجدّ أفاناسي جهما كما تقتضي السلطة، ورأى وهو يخلع قبعته ماترينا الجميلة بشفتيها المضمومتين وعينيها السوداوين الخبيثتين، والمرأة الأخرى صاحبة يوم الميلاد الجميلة أيضاً التي كانت تدور عنها أحاديث شتى في القرية. وكانت كلتاهما ماترينا وكاتيا ترتدي فستانا من فساتين أهل المدن الأولى أحمر والثانية أسود. فكّ الجدّ أفانسي لفاحه، وخلع معطفه، ودفع لحيته على الجانبين بحركة سريعة. وقال في كبرياء راضية:

ـ آها، احترامي للجمع اللطيف.

وجلس الأربعة إلى المائدة. تناول ألكسي من تحت المصطبة زجاجة فودكا قديمة. وبدأ حديث لطيف.

ـ أفاناسي أفاناسيفيتش، أعرّفك بصاحبة يوم الميلاد، خطيبتي. أرجو أن تعجبك وتكون عند مرضاتك.

ـ هكذا إذن؟ بالتأكيد النساء يحببن الحنان. من أين هي؟

أجاب ألكسي:

ـ أرملة ضابط. كنت مرافقا لزوجها المرحوم...

ـ هكذا، إذن مضى الجدّ في تعجبه. وكان لديه ما يحدّث به النساء فيما بعد. ورغب هو نفسه أن يتباهى فقال عندما حصلت على نيشان غيورغي بالقرب من بلافنا. جعلني الجنرال سكوبيليف مرافقاً له... كان يرسلني تحت قصف القذائف

والرصاص... كان يقول: أخرج على حصانك، أفاناسي... آه، كم كان يحبّني... يعني، خطيبتك من طبقة الأعيان... سيصعب عليها عمل الفلاحين بعض الشيء...

ـ لا تقوى على عمل الفلاحين، يا أفاناسي افاناسيفيتش. الحمد لله على أنّ لدينا الكفاية من الفلوس لاستخدام الأيدي العاملة.

ـ بالطبع.. إذن، لنشرب نخب صحّة الخطيبة، المرّ من أجل الحلو شرب الجدّ قدحه وتنحنح، ونكش بشدة شاربيه الأصفرين بيده، عندما خرج الزوجان إلى الحرب، واضطرت الحمقاوان إلى القيام بعمل الرجال كانتا تشكيان "أوي، ظهري انكسر" وتئنّان طأوي، يدي، رجلاي!؟ فأكاد انفجر من الضحك وضحك الجدّ فجأة ضحكة بلهاء أنا أعرف كيف أداري النساء. كان سكوبيليف يدعوني: ملك النساء...

نهضت ماترينا فجأة كاتمة ضحكتها، وذهبت إلى الموقد وراء الستارة لتخرج الوزّة المحمّصة. وكانت كاتيا تجلس هادئة متواضعة غاضّة بصرها. قال الكسي بحرارة وهو يصبّ الخمرة:

ـ ليس هذا مصدر المرارة والإزعاج، يا أفاناسي أفاناسيفيتش. يمكنني أن أقيم الزفاف ولو يوم غد، ولكن هل أستطيع أن أسكن زوجة شابة في هذا الخمّ؟ إنها وماترينا تنامان على تخت واحد ضيق، وأنا على الأرض العارية... المزعج أنّ أهل القرية ينظرون إلينا وكأنّهم ينظرون إلى غرباء... لماذا عاندوا؟ إنّ ذلك الجناح يقف بمفرده بلا فائدة. والمصادفة هي التي سلمته من الحرق. ومن بحاجة إليه؟ ينتظرون أن يعود الأمير إلى هنا ثانية ويشكرهم؟

قال الجدّ أفاناسي وهو يكسر فخذ الوزّة.

ـ الشيطان سيعود إلى هنا قبل أن يعود صاحب الأطيان... حسنا، أستطيع أن اشتري هذا الجناح من المجمع، وأكون مسؤولا عن كلّ شيء... (حدجت ماترينا ألكسي بعينيها. وضرب ألكسي المائدة) اشتريه!... أنا رجل قليل الصبر... لا بأس... من أجل هذا اللقاء. أعطيني، يا ماترينا، الشيء الملفوف في خرقة تحت المخدة. (عقدت ماترينا حاجبيها، وهزّت رأسها) هاتي، هاتي، ولا تبخلي.. فليس هناك شيء أغلى من الحياة.

أعطتها له ماترينا. ففك ألكسي الخرقة وأخرج ساعة منقوشة دقاقة لها سلسلة من الفولاذ. وهزها، ووضعها على أذنه.

ـ حصلت عليها مصادفة، وكأنّما كنت أعرف لمن سأهديها. احملها موفقا، يا أفاناناس أفاناسيفيتش.

ـ ما هذا، أتقدّم رشوة لي؟ سأل الجدّ أفاناسي بصرامة، إلا أنّ يداه ارتجفت حين وضع الكسي الساعة في كفه.

ـ لا تزعلنا، يا أفاناسي أفاناسيفيتش. أنا أهديها لك من صميم قلبي... عندي حوالي عشرين من هذه التوافه، وقد قايضتها ماترينا جميعها بالكحول. وهذه احسنها لأنها تدقّ. وبدلا من سماع الديكة عند الصباح إضغط على هذا اللولب فتدقّ لك فتلبس حذاءك اللبادي، وتخرج لتفقّد الماشية...

ـ أها قال الجدّ أفاناسي وفتح فمه ذا الأسنان القليلة أها، إذن ستوقظ كِنّتي! الآن لا تستطيع أن تنام إلى الضحى السمينتان.

لفّ الجدّ رقبته المعروفة بلفاحه، ولبس معطفه مترنّحا، وخرج، خفضت ماترينا ذبالة المصباح فوق المائدة، وجمعت كاتيا الصحون وحملتها الاثنتان وراء الستارة. وظلّ ألكسي جالساً

إلى المائدة. وقال بصوت لا رنّة فيه:

ـ أهذه الخمرة القديمة قويّة، أم لأنني لم أشرب منذ زمن؟ ماترينا، لطيف لو تخرجين لتفقّد الماشية.

لم تجب، وكأنّها لم تسمع. وبعد برهة نظرت إلى كاتيا، وابتسمت ابتسامة هازئة.

ـ أنا لا أفهم... أما أنك تأنفين منّا، وأما أنّك ساذجة كليّاً... حدجت ماترينا كاتيا بنظرة نارية تأمرها بألا ترد عليه. وتوهّج خداها.

ـ على الأقل أبكي... أنا لأول مرة أرى من أمثالك، يا ربي... أعلنها خطيبة لي، وهي لا تحرّك شعرة في رأسها.. تجلس منكّسة عينيها... لا هذا ولا ذاك... حورية ماء، والله. ماترينا! - هتف ألكسي إنها لا تفهم أنّ الأطفال يشيرون إليها بأصابعهم. جلبها ألكسي على عربة، وقد ربحها من ماخنو في لعب الورق... هذا لا يعنيها... أما أنا وصاح بجنون دعوهم يعرفون الآن أنها خطيبتي!

شحبت كاتيا، وذهبت وراء الستارة ومعها فوطة وصحن. جذبت ماترينا كتفها بقوة.

ـ نحن نعرف الآن من أي طرف نمسك الحياة... قتلت أوّل رجل في العام ١٩١٤ وأرسل ألكسي ضحكة مقتضبة رأيت ألمانياً يزحف، ورفع أنفه فأطلقت عليه رصاصة أصابته وسقط على جنبه. وانتظرت لأرى روحه تطير منه. أنا قتلت الكثيرين ولم أر روح أحد منهم... أوه، كفى، شكرا على المعرفة... سنبني بيتا على الحطام: الأوّل خشبي، والثاني آجري، والثالث تحت سقف ذهبي... عبثاً، يا كاترينا ديميتريفنا، عبثا أن تسلكي هذا السلوك

معي. أنا لا أمسك بالقوة. إذا كنت لا أروق لك، إذا كنت هَوْلَةً يمكنك أن تذهبي إلى حيث تشائين. خطيبة! أنا لا أتوقع أيّة متعة من خطبتي هذه.

مسّت ماترينا بشفتيها خدّ كاتيا، وأسرّت في أذنها: "أحمق سكران، فلا تلقِ بالا له..." علّقت كاتيا الفوطة على حبل ممدود، وخرجت من وراء الستارة. كان ألكسي يجلس بانحراف على المائدة وقد وضع ساقا على ساق، ودلّى يده الكبيرة المنتفخة. نظر إلى كاتيا بعينين غائرتين. جلست كاتيا على مقعد قبالته. كان ألكسي صاحياً متفرّساً، فغضت كاتيا بصرها.

ـ ألكسي إيفانوفيتش، كان يجب أن تتحدّث منذ وقت طويل... أنا أعتبرك إنساناً طيباً، يا ألكسي إيفانوفيتش. لم أجد منك غير الطيبة الأصلية طوال حياتنا المتنقلة. وقد تعلّقت بك. ولكن ما أعلنته اليوم لا يدهشني. كنت أتوقّع هذا منذ زمن... إنّ شيئا ما حصل لك منذ مجيئنا إلى هنا... يا الكسي إيفانوفيتش. أنت هنا إنسان آخر....

تنحنح ألكسي منظّفا حنجرته، ثم سأل:

ـ ما يعني "إنسان آخر"؟ ثلاثين عاما كنت شخصاً واحداً والآن صرت شخصا آخر؟

ـ إنّ حياتي يا ألكسي إيفانوفيتش، كانت كَنَوْم لا يقظة فيه... وهذا ما أقوله لك... كنت حيواناً بيتياً لا نفع فيه.. آه، نعم، كنت محبوبة. ولكن ماذا في ذلك؟ شيء من الاشمئزاز، وشيء من القنوط... وحين أحدقت بنا الحرب، كان ذلك يقظة لي: الموت، والدمار، والعذابات، والنازحون، والمجاعة... ولم يبق

للحيوان البيتي العديم النفع غير أن يولول ويموت... وكان ذلك سيحدث لو لم ينقذني فاديم... كان يقول لي وكنت أصدِّق بأنّ حبنا هو معنى الحياة كلّه... ولكنّه كان لا يبحث إلا عن الانتقام والتدمير... إلا أنه كان طيّبا؟ أنا لا أفهم... (ورفعت رأسها، ونظرت إلى شعلة فتيلة المصباح القصديري المنخفضة فوق المائدة) وقتل فاديم... عندئذ التقطتني.

ـ التقطتك قال ألكسي بابتسامة هازئة غير صارف عنها بصره ربّما تتصوَّرين نفسك قطّة...

ـ كنت إياها، يا ألكسي إيفانوفيتش. ولكنني الآن لا أريد... لم أكن طيّبة ولا شريرة، ولا روسيّة ولا أجنبيّة... حوريّة ماء... وارتفع طرفا شفتيها بمعابثة، وتجهّم وجه ألكسي وظهر أنّي لست إلا امرأة روسيّة... وسأظلّ على ذلك الآن... لقد رأيت معكم الكثير من المصاعب والفظائع... وتحمّلت ولم أقل أفّ... أنا اتذكّر إحدى الأمسيات... كانت العربات محلولة، وجاء الخيالة... واجتمع حول القدر الفائر اناس محتدّون صاخبون.

ـ تتذكّر! ماترينا، هل تسمعين...

ـ وظلّوا يتجمّعون حول القدر الفائر... وتحدّث كلّ واحد عن ضرباته المجيدة، كيف بتر رأساً، وهجم ثانية وتشابك في المعركة... يبدو أنهم لفقّوا الكثير من ذلك... ولكن شيئاً كبيراً قوياً كان في ذلك.

ـ ماترينا، إنّها تتذكّر المعركة مع الألمان قرب ضيع فيرخني... كان قتالا جسورا...

ـ وأتذكّر كيف وثبتِ في عربة الرشاشة... كنت أخاف أن اتقدّم منك وصمتت كاتيا قليلا وكانت حدقتاها المتّسعتان كانتا

تريان شيئاً بعيداً هذا ما كان... وعندما سافرنا إلى هنا قلت لنفسي: إن أمامي حياة واسعة... وليست على قطعة صغيرة من الأرض... هنا لا يوجد غير الخنانيص والدجاج وحديقة الخضراوات، وراءها سياج أصمّ وأيام رماديّة لا ومضة فجر فيها... (وغضّنت كاتيا جبينها، وكان عقلها البائس يريد فقط أن يصوّر الشيء الكبير المحسوس الذي حصل لها في السهوب، ولكنّها لم تستطع التعبير عنه) وحين وصلنا إلى هنا بدا وكأنّنا عائدون من مهرجان. واليوم أعلنت أنني خطيبك، ولقد أعلنت ذلك عن قصد.. فانتهى كلّ شيء... فماذا بعد؟ إنجاب الأطفال... ستبني بيتاً، وعن قريب ستكون ميسور الحال، ثم ثريّاً... أنا عرفت كلّ ذلك، وقد خلّفته في الجانب الآخر... كان ذلك في بطرسبورغ، وكان ذلك في موسكو، وكان في باريس، والآن يبدأ من جديد في قرية فلاديميرسكويه.

وكان مثل هذا الضيق في يديها المطروحتين على ركبتها، وفي رأسها المنكّس بمفرقه الواضح وشعره الكستنائي الدافئ كالرماد. حتى قلّص ألكسي عينيه بشدة... طار طائر النار هذا وافلت من يديه... قال خافت الصوت:

ـ أنت حمقاء، جدا، ياكاترينا ديميتريفنا. مبلبلة الفكر... أتريدين أن تخوضي في الدم مثل أخي سيميون؟ استغربت من أحاديثك هذه... لا، مع ذلك، لن أتركك تذهبين...

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٣

سافر إيفان ايليتش وداشا إلى الفوج ونزلا في بيت مطلي بالطين في مزرعة. وكانت غرفة استقبال تليغين المزوّدة بتلفونات وصندوق للنقود وراية موضوعة في قرابها على مقربة من الجانب الآخر من الرواق. ولكن هنا توجد مملكة داشا وحدها: موقد دافئ لم يستخدم للطهي، إلا أنّ داشا كانت تغتسل فيه متمدّدة على القشّ داخله، كما علّمتها القوزاقيات، وسرير عليه وسادتان قاسيتان وبطانية خفيفة (كان إيفان ايليتش يتغطّى بمعطفه)، ومائدة مغطّاة بقماش نظيف كانا يتناولا الطعام عليها ومرآة صغيرة معلّقة على الحائط، ومكنسة عند عتبة الباب، وعلى كوّة في تجويف الموقد المجصّص تقف القطة والكلب من الخزف الصيني.

قبل عامين كانت داشا وإيفان ايليتش وهما في غمرة الحبّ والإنطلاق قد أقاما في وضع كهذا أيضاً. ولم يغب عن ذاكرة داشا البتّة المساء الأوّل الذي قضياه في شقتهما الجديدة بنوافذها المفتوحة على شارع كامينو اوستروفكسي المضمخ بطراوة المطر. وكانت تحسّ بصفاء وهدوء طهريَين. وكان إيفان ايليتش يجلس عند النافذة في الغسق، وقد أحسّت أنّه مرتبك إلى حدّ العذاب، فقرّرت أن تأخذ المبادرة بنفسها عارفة أنّ ذلك سيدخل سرورا عظيماً إلى قلبه، فقالت "نذهب إيفان". ودخلا غرفة النوم حيث

كانت باقة كبيرة من الميموزا فوّاحة برائحة عذبة موضوعة في علبة على الأرض. فتحت داشا باب الدولاب، وخلعت ثيابها وراءه، وعبرت الغرفة حافية، واندسّت تحت البطانية، وسألت بلهجة سريعة "إيفان هل تحبني؟"

كانت داشا لا تعرف شؤون الحبّ، ولو أنها انشغلت فيها أكثر من اللازم. وما حدث في ذلك المساء بينها وبين إيفان ايليتش خيّب ظنّها. إنّه لم يكن ذلك الشيء الذي كتب من أجله هذا العدد الضخم من القصائد والقصص الغرامية والموسيقى، تلك القوة السحريّة التي تثير النشوة والدموع، تلك القوة التي كانت تحس بها وهي جالسة وحيدة في شقّة كاتيا الفارغة تعزف على البيانو "لستين وي" الأسود، فإذا بها تقطع الموسيقى فجأة، وتنهض، وتشبك أصابعها، ولو لم يكن جسدها كلّه في تلك اللحظة بارداً! شفافا كالزجاج لخنقها، وفي أغلب الظن، ذلك الذي يعتمل في نفسها ويفور.

وبعد ذلك بقليل من الوقت حملت داشا. وقد أحبّت إيفان ايليتش كثيراً، ولكنها أخذت تبعده عنها. ثم بدأت الأشهر الرهيبة المجاعة وظلام خريف بتروغراد، والحادث الوحشي عند قناة لبياجي الذي انتهى بولادة قبل الأوان، وموت الطفل، والرغبة الوحيدة في مفارقة الحياة. ثم الفراق.

والآن بدأ كلّ شيء من جديد. كان شعورهما أكثر تعقيدا وأعمق من ذلك العشق القديم الأثري بدا معه كلّ شيء ألغازاً! وأحاجي، كما في صندوق سحري شديد التزويق فيه هبات غير معروفة. لقد عانى الإثنان من أشياء كثيرة، ولم تتح لهما الفرصة بعد الآن ليعطي أحدهما للآخر تجربته. كان حبّهما الآن ولاسيّما

بالنسبة لداشا ممتلئاً ومحسوساً كالهواء في أوائل الشتاء، حين تكون عواصف تشرين الثاني قد ولّت وبواكير الثلج تحمل في الصمت الزمهريري الخفيف رائحة بطيخ مقطّع. وكان إيفان ايليتش يعرف كلّ شيء. ويجيد كلّ شيء، ويستطيع أن يجد جواباً لكل شيء، وحلاّ لكلّ ريبة. ومن جديد تراءى الصندوق السحري المزوّق أمام عيني داشا، ولكن لم يكن يحوي أحاسيس فالتة مستقلّة، ولا ألغاز وأحاجي، بل كانت فيه هبّات وأفراح حياة قاسية وأتراحها.

شيء واحد لم يكن مفهوماً لها في إيفان ايليتش، وقد أضحى يغمّها، وهو تكتّمه. فقد كان إيفان ايليتش كلّما أويا إلى فراشهما في المساء يستغرق في أفكاره. كفّ عن النظر إلى داشا. كان يتنحنح وهو يخلع حذاءه على المصطبة. وأحياناً كان يقول لها وهو يخلع حذاءه "داشونكا، عزيزتي، نامي، يا حبيبتي". ويذهب حافي القدمين عبر الرواق البارد إلى غرفة المكتب، ويعود على أصابعه ويضّجع على حافة السرير حذرا أنْ يصرّ تحته، ويغفو في الحال متغطّيا بمعطفه حتى رأسه.

أما في النهار فقد كان بادي المرح منشرحا مورّد الخدّين يروح ويجيء، ويقبّل داشا على خديها وعلى رأسها الأشقر الدافئ الحبيب.

ـ مرّة أخرى، مرحبا، يا زوجة الآمر... خبّريني، هل شؤونك آخذة في الإنتظام؟

وكان يسأل عن ذلك ثلاثين مرّة في اليوم. وكان المفوّض إيفان غورا قد اقترح على داشا تنظيم مسرح للفوج من بين المواهب المحليّة.

ورفضت داشا فزعة: "يا ربي.. أنا لا أفهم شيئا من ذلك... ربت إيفان غورا على يدها قائلا:

ـ ستقدرين على ذلك، يا عزيزتي، تعلّمي من الأخطاء. لقد نهضت بأشياء أصعب، عليك أن تتخلّصي من هذا الروتين اليومي. اعثري على شيء ثوري حماسيّ يجعل عيون المقاتلين تلتهب.

وكان المفوّض عجولاً على المسرح جداً. وكان فوج كاتشالين الذي أعيد تعزيزه وكسوته من الإحتياطات الضئيلة لدى إدارة تساريتسين للتموين يستعدّ إلى الخروج إلى الجبهة قريباً. وكان المقاتلون رغم التدريبات المتعبة والساعتين من التثقيف السياسي اليومي قد بدأوا، وقد شبعوا في المزارع، يتعابثون من فرط ما جمعوا من قوّة وعقد اجتماع.

وخطب سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف فيه، وقد وجد الفرصة، وبعد سنوات عديدة من الصمت ليقذف إلى العالم بمجموعة من الأفكار تفجّرت فيه. تحدّث عن التحوّل الثوري في المسرح وتحطيم كلّ الحدود بين خشبة المسرح والمتفرّجين، وعن مستقبل المسرح تحت السماء المكشوفة أو في حلبات السيرك الضخمة التي تتّسع لخمسين ألف متفرّج، حيث ستشترك أفواج بكاملها. وتطلق المدافع، وترتفع البالونات الهوائية، وتندفع الشلالات الحقيقية، وتقوم الجماهير لا الممثّلون الفرادى بتمثيل الشخصيّات البطوليّة.

ـ أين أنتم، يا مسرحيّي المستقبل؟ سأل سابوجكوف رجال الجيش الأحمر باسطاً ذراعيه، وكأنّه يهمّ بالطيران حتى روافد السقف. وكان هؤلاء يستمعون إليه بمرح رغم غموض الكثير من

كلماته التي كان ينطقها بعجالة واحدة في ذيل الأخرى أين أنتم، يا صانعي دراما عصرنا العجيب؟ أين أنتم أيها الشكسبيريّون الجدد؟ والسوفوكليّون الذين نزلوا من قواعدهم المرمريّة ليشاركونا مهرجان الفن، ومهرجان الإبداع؟ أحقاً أنّ الإنسان كان في يوم ما مكشوفاً أمامكم كما هو مكشوف الآن؟ أحقاً أن التاريخ قذف في يوم مثل هذه الثروات الضخمة من الأفكار؟

وبالطبع كان التهيّب يستولي على داشا تماما بعد أمثال هذه الخطب. ولكن التراجع كان متعذّرا.

سافرت مع سابوجكوف إلى تساريتسين لجلب الكتب والجنفاص والأصباغ. واستطاعا الحصول على شيء من ذلك. وقدَّم سيرغي سيرغيفيتش لها الكثير من النصائح المفيدة وما يزيد عليها من النصائح الحمقاء. وتقرّر انتقاء الممثّلين دون أي تدقيق ومماحكة، والبدء في إجراء التمرينات على تمثيليّة "اللصوص" لشيللر.

وكان تليغين في غبطة عظيمة لا ترجع إلى لهفته لتمثيل "اللصوص" المقبل بقدر ما ترجع إلى شعوره بأنّ داشا وجدت أخيراً ما تعمله وتنجذب إليه، وتروح وتجئ، وتتحدّث إلى رجال الجيش الأحمر، وتغضب، وأحيانا تبكي من الإنزعاج، وهي الآن (كما بدا له في بساطة قلبه) لا تعود إلى التركيز الشديد على همومها الشخصيّة وحدها.

وبأمر من الفوج ضمّ إلى الفرقة الدرامية أغريبينا وأنيسيا ولاتوغين (الذي ذهب إلى المفوّض يطلب ضمّه إلى هذا العمل) وكوزما كوزميتش وبايكوف وبعض العازفين على الأكورديون

والبلالايكا والمغنِّين من رجال الجيش الأحمر.

وفي المساء قرأت داشا التمثيليّة في السقيفة في ضوء بقية من شمعة. وكان وجوه الممثّلين في الضوء الباهت لا تكاد تبين من خلال البخار الطالع مع الأنفاس. وكانت الريح المتصاعدة ترسل الثلج من خلال خصاص بوابة السقيفة. قرأت داشا بصوت واضح صاف محاولة أن تتمثّل بمقدار ما تسعفها ذاكرتها الطريقة التي كان يقرأ بها بيسونوف في عهده: يد واحدة وراء طيّة سترته السوداء وصوت مفصول عن الحياة، وكلمات مثل قطع الثلج، تزدردها بنهم سيّدات الأدب المتنفّسات بعسر وهن جالسات حوله على مقاعد وثيرة.

وأدركت داشا وهي في منتصف القراءة أنّ التمثيلية لا تحظى بإعجاب، رغم الحذف الكثير الذي أجري عليها. وقرب النهاية استعجلت تماما. وعندما فرغت منها، وبعد فترة من الصمت الثقيل قالت:

ـ هذه هي "لصوص" شيللر التي يجب أن نمثّلها..

أخذ الرجال يدخّنون، وقال أحدهم، وهو لاتوغين، بصوت خافت:

ـ تمثيلية ذهنية.

عندئذ أخرج كوزما كوزميتش عقب شمعة من جيبه، وأشعلها، وجلس إلى جانب داشا.

ـ أيّها الرفاق، أطلعتنا داريا ديميترييفنا على النص والآن سأقرأُه لكم.

وتناول الكتاب منها، وأخذ يقرأ بصوت عال ملوّنا صوته ووجهه حسب جميع الشخصيات، فمرّة يصوّر الأسى الأبوي

للكونت العجوز مور، ومّرة يهمس بأزيز، وقد تسطّح أنفه، وتقلّبت عيناه: "... كنت الآن مغفّلاً يستحق الإشفاق لو لم استطع انتزاع إبني المحبوب من قلب الوالد، ولو كان مشدودا إليه بسلاسل من حديد... آه، أيّها الضمير! يا فزّاعة الطيور الممتازة... ليسبح مَنْ يقدر على السباحة، وليغرق من يَجِد نفسه ثقيلا..."

وتراءت للمستمعين في عين خيالهم ذلك الثعبان، فرانس مور. وهنا تحشرج صوت كوزما كوزميتش. غرس يده في شعره دافعاً إيّاه إلى صلعته ومط شفتيه بشكل رهيب، والتمعت عيناه بحقد نبيل: إيه، أيها الناس! أيها الناس! يا ذريّة التماسيح الكاذبة الخبيثة! قبلة على الشفاه، وخنجر في اليد ليغرز في القلب.. إلى جهنم وبئس المصير! إلتهب كالنار يا صبر الرجل النبيل، وانقلب ذئبا أيها الحمل الوديع..."

أهّت أنيسيا نازاروفا أهّةً خافتة، ومال لاتوغين بكلّ جسمه نحو الشمعة التي كانت تضيء الكتاب السحري التي كانت أظافر كوزما كوزميتش تدبّ على صفحاته. وفي عتبة السقيفة كان يهدر كارل مور نفسه الرجل المتمرّد المفهوم بالنسبة للمستمعين والذي أثار قلقهم. فيا لها من كلمات استطاع أن يعبّر بها عن المساءات التي لحقت به. إنها لتمثيليّة تنفذ إلى الأعماق!

وحين وصلت الشمعة إلى نهايتها، ونطق كوزما كوزميتش عبوساً بآخر كلمات كارل الذي يتذكّره، وهو يسير إلى الاعدام الرهيب، الكادح المياوم البائس أخذت أنيسيا وأغريبينا تفركان عيونهما بكمّي معطفيهما وقال لاتوغين "قطعة صادقة من الحياة". واتّفق الجميع على أنّ كارل ما كان ينبغي له أن يقتل

عبثا وبتأثير الغضب أماليا التي كان يحبّها، وكان يجب أن يأخذها إلى العصابة ويعيد تقويمها. ولابد من تعديل شيللر في هذا الموضع، وإلا فإنّ رجال الجيش الأحمر لن يعجبوا بمثل هذه التمثيليّة الجيّدة بسبب هذه النقطة التافهة، بل وقد تترك آثاراً سيئة على المقاتلين. وتقرّر في نفس الجلسة ألاّ تقتل اماليا، بل يقول لها كارل "إذهبي إلى البيت، أيتها التعيسة" فتبكي بكاء مرّاً وتخرج.

وعهد بدور أماليا إلى أنيسيا، ودور كارل إلى لاتوغين. وأرادوا إسناد دور فرانتس النذل والوغد إلى بايكوف، ولكنّهم خافوا أن لا يضبط نفسه فيكون أضحوكة لدى المتفرّجين، لأنّ الجنود ما أن يروا لحيته حتى ينفجروا ضاحكين. وتقرّر أن يمثّل كوزما كوزميتش دور فرانتس، ولكن يبدو أصغر عمراً ألزم بحلق شعره تماما. وعهد إلى رجل ذي صوت كثيف من رجال الجيش الأحمر دور العجوز الكونت ماكسيميليان فون مور. وتقاسمت أغريبينا والمقاتلون الشبّان بقية الأدوار. ودخل شخص يحمل قنبلة علبة كيروسين، وأضيئت السقيفة بالفتيلة المشتعلة الداخنة وبدأوا التمرينات قبل أن يتفرّقوا.

ولم تعد داشا إلى البيت إلا قبيل الصباح، وظلّت تحكي طويلا لإيفان ايليتش فضحك مقهقهاً وهو جالس على السرير حافياً واضعاً معطفه على كتفيه....

ـ لاتوغين يمثّل دور كارل مور؟ (ونخر وجعجع ماسكاً بطنه) سأموت من الضحك... ولكن أتعرفين لماذا أخذ الملعون دور كارل مور؟ إنّه يغازل أنيسيا.. بينما أنذره شاريغين بأن يفري كبده... و كوزما كوزميتش؟ فرانتس.. هذا ممكن... أي ملابس

سيرتدون؟ يتبخترون في القمصان العسكريّة؟ سأرسل المسؤول عن الميرة، في الضيعة انحصر محام من بتروغراد وحده مع حقائبه... ربّما نحصل على الستر الطويلة والفراك...

- أنت تجعجع بشكل لا يجعل لي رغبة في أن أحكي لك أتركني وانسلّت داشا إلى السرير ورقدت لصق الحائط، وأدارت ظهرها لزوجها. وعندئذ حشر البطانيّة تحتها بحذر، وغطّى قدميها بالمعطف، لأنّ الموقد قد برد، والبرد تسرب إلى البيت. وقالت داشا ناعسة:

- كلّ شيء سيكون على ما يرام.

وأخذ الفوج لا يتحدّث إلا عن المسرح. وألقى سابوجكوف محاضرة عن الأدب الألماني في عهد "العاصفة والهجوم" فتشبّه العباقرة العاصفيّين شيللر وغوته وكَلْينغر بالنسور الفتيّة التي أيقظتها بروق الثورة الفرنسيّة العظيمة. وأمطر سابوجكوف بالأسئلة حتى اضطر إلى أن يعلن عن سلسلة من المحاضرات عن تاريخ نهاية القرن الثامن عشر. وقضى ليالي كثيرة مستضيئا بسراج، محرّكاً قلمه، عاصرا ذاكرته قانعا بدخان التبغ لانعدام الكتب والمراجع. وكانت الأسئلة تتساقط عليه في المحاضرات كالإنهيار الجبلي، فقد كان رجال الجيش الأحمر يريدون معرفة كلّ شيء. فما أن يذكر شيئا حتى يُسأل عنه بالتفصيل. وما كاد يتطرّق إلى الديسِمْبريّين حتى طلب منه أن يقصّ كلّ ما يعرفه عنهم.

وكانوا يستمعون إليه لساعات عديدة مغالبين التعب، وكان بعضهم يهوم في غفوة، ثم يهزّ رأسه نافضاً النعاس عنه. وكان يجذبهم الحديث عن الأزمنة الغابرة، والبلاد الأجنبيّة، حيث كان أناس مثلهم وضعوا طربوشا أحمر على رأس رمح. واندفعوا

وحدهم ضد العالم كله. وابتكروا، وهم الجياع الحفاة، تكتيكاً حربياً جديداً يحقّق لهم النصر. وحين انتصروا أوثقوا من أيديهم وأرجلهم من قبل الذين لم يفطنوا إلى أن يقطعوا رؤوسهم في الوقت المناسب.

وهتف سابوجكوف بصوت متقطّع مبحوح:

ـ آوه، ماكسميليان روبسبير، كان في وسعك أن تنتصر، وكان في وسعك أن تنفذ الثورة! وقد عيّنت يوم حتفك، حين أنزلت راية الكومونة السوداء من فوق بلدية باريس...

وكانت الديكة تصيح في الأفنية حين أقبل المفوّض إيفان غورا، ودمدم:

ـ يا رفاق بعد ثلاث ساعات سينفخ في بوق الاستيقاظ.

ـ توقّف! يا رفيق فانين، أنت تمثّل شخصاً ميتاً. فلماذا تسعل متعمّدا؟ من أين لك هذه الطبيعة المقرفة؟ مثّل بصورة أكثر حرارة، ضع نفسك في الدور... كلّ شيء من جديد...

عثرت داشا بين الكتب التي جلبت من تساريتسين على مجلّة مسرحيّة فيها مقالة لكوغل بعنوان: "استخدم كلّ ما هو تحت يدك" وقد امتلأت بالنقد اللاذع للمسرح الفنّي. وقد أشار المؤلّف إلى تقاليد ممثّلى الدراما الروس العظام الذين كانوا يأخذون بالالباب والقلوب بعبقريتهم الوحشيّة. عند ذاك كان المسرح معبدا وثنيا، والستارة غطاء سحريا لتانيتا(١٢). وأسفاه، إنّ نسل ممثّلي الدراما العبقريّين قد انقرض، وآخر ذرّية له، مامونت دالسكي،

---

(١٢) تانيتا هي ربّة القمر الفينيقيّة، وأحد أشكال استارتا ربّة الخصب الأرضي، كانت تملك غطاء سرّيا ينزل من السماء، ويغطّي الأرض. الناشر.

بدل جزمة الممثّل التراجيدي التقليدية بشدّة من الورق. وذهب أولئك العظام الذين كانوا يهزّون النفوس ليحلّ محلّهم المخرج، السيد المتعلّم الذي صار يعرض للجمهور المحترم مزاجاً، وستائر مهزوزة، وابواباً حقيقية، وطنين البعوض بدلا من نفس إنسانية مصلوبة أمام قاعة المشاهدين. ويهتف كاتب المقال: "لا، إنّ المسرح الحقيقي هو غول العواطف الاشعث!" استقت داشا من هذه المقالة بعض المعلومات العمليّة التي ساعدتها في التمرينات.

كان لاتوغين وأنيسيا جالسين في ناحية ينتظران دورهما. كان وجه أنيسيا خلال هذه الأيام القليلة قد بدا عليه النحول، فليس من السهول تقمّص نفس إنسان آخر. وفقدت أنيسيا شهيّتها، وأضحى الطعام يثير غثيانها. فكّرت طويلا، كيف تجعل أماليا قريبة إلى نفسها، ووجدت المنفذ حين رأت في الكتاب صورة تلك الآنسة في فستان عريض (تصوّر أماليا حزينة وقد وضعت خدها على يدها). ظلّت أنيسيا تمعن النظر طويلا في الصورة مرسلة الزفرات، وتصوّرت: عندما كنت واقعة في مصيبتي التي هي أفدح منها بكثير كنت أهيم متعثّرة متنقلة من قرية إلى أخرى ولا أرى النور من خلال الدموع، أمدّ يدي من أجل قطعة يابسة من الخبز...لا، الصورة غير صحيحة. لو كانت أماليا، الرافلة بالحرير والمخمل، قد تحمّلت مصيبة أنيسيا لكانت يداها معوجتين في كمّيها القصيرين المتدليَيْن ولكانت الدموع في عينيها!

وعلى هذا الشكل، وشيئاً فشيئاً انقلبت أماليا فوق أديلريف محبوبة كارل مور إلى أنيسيا. بالأمس اثناء التمرينات صمت

الجميع حين خلعت أنيسيا قبعتها العالية بنجمتها من القماش الأحمر ومسّت بيدها شعرها المتناثر، وجلست على مقعد، وتكلّمت وكأنها تمسّ شغاف القلب:

"آه، بحق الرب! بحق الرحمة الكاملة! لم أعد بحاجة إلى الحبّ... ولا أطلب منك إلا الموت... أنا مهجورة، مهجورة(١) أتفهم أنت رنين هذه الكلمة الرهيب: "مهجورة..."

وصباح اليوم، أثناء التدريب فرض رئيس القسم على أنيسيا مهمّة إضافية جزاء على انسراحها التام. واضطر المفوّض إلى التدخل، فاستبدل بتوبيخ شديد. وهي الآن جالسة هادئة إلى جانب لاتوغين وفي عينيها الزرقاوين الواسعتين حلم، وشفتاها تبتسمان تارة، وترتعشان أخرى، وهما تلفظان الكلمات بلا صوت.

قال لها لاتوغين بصوت خافض:

ـ كانت في قريتنا فتاة ذات عينين صافيتين تدعى ساشا وكنت آنذاك في الرابعة عشرة، وهي في السابعة عشرة. لست أدري هل كانت مشيتها تلفت النظر أم شيء آخر؟ كانت الفتيات يأتين من الحقل وهي معهن في شال صغير وبلوزة كناريّة اللون تحمل كباشة، فكانت تبدو وكأنّها ستعانقك في اللحظة التالية... وزوَّجوها شيخا هرما، وذوت فتاتي ساشا... وأنت تستغربين لماذا إخواننا متلهّفون (تورّد خدا أنيسيا قليلاً وهو يتكلّم، وكأنه يغازلها) نحن نبحث عن حياة جديدة غير معروفة قبل ولم يجرّبها أحد، يا عزيزتي أنيسيا. نحن جميعا نفكّر في واحدة لا ترى حتى في الحلم...

ـ لا توجد مثل هذه النساء.

ـ أنت لا تعرفين! أنّ مثل هؤلاء النساء يعشن في جزيرة مرجانية في المحيط الهادي.

نظرت أنيسيا إلى وجهه العريض بعينيه المتباعدتين كما للثور وارتعش شيء في داخلها مرة أخرى، وسرت رِقّة حارة ندية في جسدها. ولكنّه لم يكن في هذه المرة حنينا أنثويا خاشعا فقد انقضى ذلك بفضل الزمن بل كانت تحسّ الآن بمرح. ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت:

ـ وهل كنت هناك؟

ـ لا يهمّ ذلك... ذلك مكتوب في سجل البحر.

ـ في أي سجل للبحر؟

ـ في كتاب بحري عن مختلف العجائب.

ـ أنت تكذب، يا لاتوغين، والإستماع إليك لا يريح.

ـ إسمعي أنت، وأنا سأمضي في كذبي.. ولكن سأقول لك الحقيقة. فكرّت ذات مرة، يا أنيسيا، بأنْ أقدم على عمل سيئ نحوك، ولكن أحد الأشخاص تحدّث معي. مرغوا أنفي، كما يفعلون مع قطة.. آه.. لا بأس... الإنسان ملك الطبيعة. شكرا على الدرس.

نظرت أنيسيا إليه ثانية. ولكن بدهشة. وكان لاتوغين قد رفع صوته حتى أنّ داشا نقرت بالقلم: "يا رفاق، لا تعرقلوا التمارين".

تابع لاتوغين كلامه همسا:

ـ في منطقتنا كرجينتس توجد جماعة من طائفة الطواشية. أنهم يخصّون أنفسهم لأنهم لا يستطيعون السيطرة على النفس. ولقد حكى لي أحدهم قائلا "أنا أحلم بطائر النار، أحلم ولكن

حين أفتح عيني لا أجد غير التعاسة الشوهاء..." وهم يأتون بأعمال منكرة، ويسوّطون زوجاتهم حتى حافة الموت... ويذهب أحدهم إلى بيطاره الحمامة البيضاء قائلا: "أنقذ روحي." فيطفئ هذا روحه كما يطفئ الشمعة... "عش، أيها المخصي، بخير وسلام، والله معك..." لا، يا أنيسيا، سنستحم بالدم، ونسلق بالصودا الكاوية، ولكن سنصيد طائر اليمن، ولو طار إلى آخر الدنيا...

دقّت داشا بالقلم:

ـ أيها الرفيقان، كارل، أماليا، المشهد الأخير، غيّروا ترتيب المسرح...

حين لاح وجه الصباح القرمزي الزمهريري وراء أدخنة الضيعة قفز فارس عن فرسه قرب البيت الذي اتخذ مقرّاً لقيادة الفوج، وترك فرسه المكسو بقشرة من الجمد، وأخذ يطرق الباب بضراوة. فتح إيفان ايليتش بنفسه الباب له، فسلّمه الجندي ظرفاً. وفي ذلك اليوم ذاته جمعت كلّ العربات من الضيع المجاورة، وبدأ الفوج مسيرته.

بدأ تطويق جيش الدون لتساريتسين للمرة الثالثة على التوالي منذ شهر آب، وفي هذه المرة وضع الجنرال مانتوف تساريتسين داخل كماشة من الجناحين. وعلى بعد خمسين فرسخاً إلى الشمال من المدينة خرقت أفواج الخيّالة الثلاث للجنرال تاركين بضربة مباغتة، وطلعت على الفولغا قرب حاضرة دوبوفكا.

وبعد يوم بدأ هجوم خيّالة الجنرال بوستوفسكي جنوباً بالقرب من ساريبتا. وكانت وحدات من فرقة دميتري جلوبا

الفولاذية تدافع عن ساريبتا. ولم يكن جلوبا نفسه موجوداً، فقد تشاجر مع المجلس العسكري الذي حظّر عليه الاستقلال بالتموين والتفرد بالأمر، ولخشيته من الإعتقال سافر إلى موسكو ليقدّم الشكوى. كانت الفرقة الفولاذية في فوران. كان البعض يقول إنّ الرئيس جلوبا سيعود كقائد جيش، والبعض الآخر أنّ الرئيس اعتقل. ويجب الذهاب إلى تساريتسين "في كتلة واحدة" لإنقاذه، ولكن الغالبية صدّقت ما راج عن هروب الرئيس إلى أستراخان، حيث أخذ يجمع جيشاً من المتطوّعين. غادر حوالي ألف وخمسمائة مقاتل خيّال الجبهة وعبروا الفولغا، وساروا بمحاذاة الضفة اليسرى إلى أستراخان. وتفكّكت الفرقة الفولاذية، واستولى الجنرال بوستوفسكي على ساريبتا، وصار يهدّد تساريتسين من الجنوب.

كان المجلس العسكري للجيش العاشر، في توقّعه لهذه الضربات الجانبيّة، أخذ قبل أسبوع منها يركّز جماعة ضاربة مؤلّفة من لِوائين للخيّالة: لواء الدون ستافروبول ولواء سيميون بوديوني. إلا أنّ هذين اللوائين لم يجدا الوقت الكافي للإلتحام فحصل الاختراق، وتحمّل لواء الدون ستافروبول الضربة كلّها على نفسه. وكان بوديوني يحثّ الخيول ليل نهار لنجدته.

ووجّه فوج كاتشالين إلى مكان تمركز الجماعة الضاربة. ظلّ الفوج يسير طوال بقيّة النهار، والليلة التالية بعد توقّف قصير ميمّما نحو وهج كدر كان يلوح في الظلام القارس. وكان الوهج يحجب ضوء الفجر، فارتفعت الشمس إلى يمينه، ولم تظهر إلا قليلا بين السحب الرقائقيّة المتوهجة كالنحاس.

كان تليغين وإيفان غورا وسابوجكوف يركبون الخيول، ووراءهم كانت العربات الحاملة للجنود الحمر، والمدافع وعربات المتاع تمتدّ صفوفا عديدة في السحب الثلجي. وكانت خيّالة الاستطلاع تلوح على مسافة بعيدة. سمع الآمران والمفوض، وقد أخذتهم الدهشة، أصوات القصف المدفعي الغاضبة آتية من مكان ليس بالبعيد كثيرا. أطلقوا فرسانهم وخلّفوا الفوج وراءهم، واقترب أحدهم من الآخر وتوقّفوا، وأخرجوا الخارطة من الحقيبة، وأخذوا ينظرون فيها. كان المكان الذي أمر الفوج بالتوجه إليه ما يزال بعيدا، ولكن سماع قصف المدافع بهذا الشكل كان يدلّ على أنّ الجبهة اقتربت. ولم يكن لهم معها أي اتصال، لا هاتفياً ولا بواسطة السعاة من راكبي الخيول. وكان من الممكن أن ينقلب هذا الغموض إلى هلاك.

قال إيفان غورا:

ـ هذا السهب الملعون. نحن فيه كالذباب الزاحف على مفرش مائدة. ومن حسن الحظ أنّ القوزاق لم يكتشفونا بعد.

قال تليغين:

ـ وكيف لم يكتشفونا؟ إنّ لهم سعاتهم، وهم يراقبوننا منذ خروجنا من الضيع.

أنزل سابوجكوف قبّعته حتى حاجبيه، وتوجّه نحو رجال الإستطلاع، وصلت العربات الأماميّة تجرها خيول شعثاء الأعراف من العرق لاهثة الأنفاس. أمر إيفان ايليتش الجنود الحمر الذين قفزوا منها بأن يهرعوا لينادوا ويلوّحوا لِلذين تأخّروا ليتقاربوا ويتراصوا. وشقّ طريقه بين العربات فرأى كوزما كوزميتش، وقد شقّ عنقه حتى أذنيه بالخرق، يسوق الحصان، وكانت داشا

تجلس على كومة الديكور على العربة، وهي ترتدي قلنسوة ومعطفا أبيض من جلد الغنم، ووجهها شديد التورّد ناعساً كوجه الطفل. هتفت بشيء له وهي تقلّص عينيها من نصاعة الثلج، إلا أنه لم يتبيّن شيئا مما قالته بسبب صريف العربات وضجيج الأصوات. ثم رأى اغريبينا جالسة مع ثلاثة جنود حمر، وهي الأخرى أخذت تهتف بشيء ما مشيرة إلى السماء بيدها المقفّزة. ماذا كانت تريد من هناك؟ ألقى إيفان ايليتش رأسه إلى الخلف، وهو على سرجه فرأى بوضوح طائرة تلوح كالطائر الأسود، وتطير أسفل من سحابة رقائقية كانت أشعة الشمس المغبّشة تنتشر تحتها.

ثم رآها الجميع. ضرب إيفان ايليتش حصانه وشقّ طريقه بين العربات صائحاً: "تفرّقوا!". صاح إيفان غورا الضخم بصوت كثيف فارجا ساقيه على الركاب: "أطلقوا النار على الطائرة!" انطلقت عربة مارّة بإيفان ايليتش تحمل داشا وقد لاح الرعب في عينيها، وكوزما كوزميتش يسوّط الحصان بأطراف العنان. وبدأ إطلاق نار مضطرب، فأخذت الطائرة بجناحيها المعكوفين وهدير محرّكها الضاري تصعد وراء السحابة، وتناثرت من بطنها بيضات اندفعت صافرة إلى الأسفل، وانفجرت على الثلج الأبيض كالأجمات السوداء.

كان الكثيرون من رجال الجيش الأحمر يلتقون بهذه التجربة الفظيعة لأوّل مرة. تراكضت بعض العربات بعيدا في السهب. وارتفع صوت البوق الممطوط ليجمع الصفّ المشتّت. وظل الفتيان ينظرون طويلاً إلى السحابة في خوف.

ثم بقي عليهم أن ينتظروا القوازق أنفسهم. سارت العربات

متلاصقة في صفوف متراصّة. رفعت الأغطية عن المدافع التي كانت تسير بطيئة في مربّع ممدود. وفي الغروب لاحت معالم القرية إلى الأمام ملوّنة بلون ليلكي. أقبل سابوجكوف يعدو من تلك الجهة مع رجلين من رجال الإستطلاع. وتقدّم مع تليغين وإيفان منفعلاً مرحاً، وخلع طاقيته، ومشّط شعره المبلّل بيده.

ـ كلّ شيء على ما يرام. لا يوجد أحد في الضيعة غير النساء والأولاد. وبعدها، على بعد خمسة فراسخ توجد قرية فيها قوزاق. قاطعه إيفان غورا غاضباً:

ـ قوزاق، قوزاق، يا لها من أخبار مطمئنة! ولكن أين قوّاتنا؟

ـ أقول لك لا أعرف... تركت قواتنا القرية، كما أنها لم تكن في الضيعة.

قال إيفان ايليتش:

ـ يجب احتلال الضيعة. ولكن لن اتقدّم بعدها خطوة واحدة حتى أتصل بالجبهة.

احتلوا الضيعة في الغسق. وكانت تمتد على حافة خندق مغمور بالمياه. أخذ الجنود الحمر يدقون على صفاقات النوافذ صائحين في ترهيب: "يا أصحاب البيت، اخرجوا!" ودخلوا البيوت المعتمة الدافئة. ولكنّهم لم يجدوا غير امرأة مع طفل وراء الموقد في أحد البيوت، وعجوز تدمدم من الخوف وراء موقد في بيت آخر. وكان جميع الرجال قد هربوا إلى القرية القوزاقية. أمر تليغين بأن يتخندقوا. وسدّ طرفا الشارع بالعربات المتلاصقة. وكان تليغين قد أرسل سابوجكوف قبل زوال ضوء النهار مع

جماعة من المتطوّعين في استطلاع في العمق ليتّصل بالجبهة خلال الليل.

مرّ الليل في توجسّ. ورغم أنّ القوازق ليسوا عشاق القتال في الليل، إلا أنه كان من الممكن توقّع أية حيلة منهم. كان إيفان ايليتش وإيفان غورا يقطعان الضيعة من طرف إلى آخر، ويسيران على الجليد الذي ما يزال غير متماسك ليعبرا إلى الجانب الآخر من البركة. كانت السماء ملبّدة بالغيوم، وهدأ القصف المدفعي في الشمال الشرقي. وهبّت الريح حاملة الرطوبة، وخفّت شدة القرس، ولم يعد الثلج يخشخش تحت الأقدام.

دمدم إيفان غورا وهو يسير إلى جانب تليغين:

ـ مصيدة، وقعنا في مصيدة حقيقية. لم نستطع أن نسير بالفوج إلى المكان المعيّن له... عار! إنهم يبحثون عنّا، ونحن نبحث عنهم. يا لها من لبخة! مَنْ الملوم، مَنْ؟

ـ دع عنك. لا لوم على أحد.

ـ أيّاً سيسألون أولا؟ إياي! وهذا حق. مفوّض ضاع في السهب مع فوجه، آه، لبخة!..

انطلقت طلقة منفردة بصوت رنان. توقّف إيفان غورا بغتة. وسمع دقات قلبه. وفجأة بدأ إطلاق نار عاصف، ثم هدأ فجأة كما بدأ. ولم تبق إلا وشوشة الناس يتبادلون الحديث وقد خرجوا من بيوتهم والنوم عالق على أجفانهم. قال إيفان ايليتش:

ـ الفتيان متوترو الأعصاب، شباب لم يقع تحت النيران. تعال ندخّن.

قبيل الفجر دخل البيت متخطّياً أرجل النائمين في حذر،

ووصل إلى الموقد بالتلمس. بحثت يد داشا عنه في الظلام، ومسّدت خده. فألصق كفّها الدافئة على شفتيه.

ـ لماذا لا تنامين؟

ـ أتعرف فيم افكر، يا إيفان؟ إذا طال مكوثنا في الضيعة فأنّنا في آخر الأمر سنمثّل "اللصوص" في العراء، بل ونحن في المعاطف، فليس هذا المهم...

ـ بالطبع، يا داشونكا...

ـ قمنا بالعمل في حماس. وسيكون من المؤسف أن يضيع كلّ شيء هباء....

ـ صحيح... غدا سأتحقّق في الأمر، فقد تكون هناك سقيفة... نامي، يا حبيبتي...

وخرج إلى الشارع ثانية، واستنشق نفسا عميقا من الريح الرطبة. لم يستطع إيفان ايليتش حتى الآن، بعد تلك السنوات العديدة من الاشتياق، أن يعود ذهنه على أنها قريبة منه، راقدة تحت معطف من فراء الغنم على الموقد، في هذا البيت الواطئ.

"إنّها لا تنام من القلق... لم تقل كلمة واحدة... ولكنها سُرّتْ فمدّت يدها لي... أية امرأة مدهشة هي!.."

وتأثّر إيفان ايليتش تأثيرا شديدا بتحسّسها إياه في الظلمة وانطباق كفّها على شفتيه، حتى أحسّ بأن وجهه يلتهب في الريح... أمن المعقول أنّه مخطئ على أية حال؟ "لا، يا عزيزي، هذه سخافات فاتركها... إنها صديقتك، نعم، نعم، نعم.... ووفيّة. نعم، نعم، نعم... فكن سعيدا بذلك..."

إنّه لن يستطيع أن ينسى أبدا تلك الأمسيات المظلمة في بطرسبورغ، حين كان يهرع إلى البيت حاملا فطيرة، أو شيئا من

الحلوى حصل عليها لداشا، فلا يوحي لها بغير النفور والذعر... يعني أنّه كان ينطوي على شيء من هذا، وما زال كذلك. ولكن، يا إلهي، كم أحبَّ هذه المرأة، وكم حنّ اليها!.

أقبل إيفان غورا في الظلمة، وقد حشر يديه عميقا في جيبي سترته.

ـ وكيف لو أمسكوا بسابوجكوف؟

ـ من المحتمل جداً.. سأرسل في الفجر بعثة استطلاعية أخرى.

ـ كان يجب أن أفعل ذلك في وقت أبكر من ذلك، أبكر بكثير وأخرج إيفان غورا يده من جيبه، وضرب جبهته بقبضته لم تثبت أهليّتك لما أوكل إليك، أيها الشيوعي! حتى إذا خرجنا من هذه الحادثة بسلام فإنّني لن اغفر ذلك لنفسي... لو كان الأمر بيدي لقدت مثل هذا المفوّض إلى ما وراء عنبر الغلال، وودّعته الوداع الأخير!

ـ إيفان ستيبانوفيتش، أنا ملوم بنفس القدر إذا كان الأمر كذلك.

ـ دع عنك! حسنا، لنذهب، وندخّن....

سار سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف مع خمسة من المستطلعين المتطوّعين في السهب على أمل العثور على أية دلائل تشير إلى الجبهة. إلا أن السهب كان خاويا دامساً لا ينفذ فيه البصر. أشعلوا أعواد الثقاب واستهدوا بالبوصلة. تعبت الخيول تعباً شديداً، وهي لم تطعم. وأخذ الحصان الذي وضعت عليه الرشاشة يعرج، ويجذب العنان. أمر سابوجكوف بأن يترجّلوا، ويفكّوا اللجام وحزام السرج. أخرجوا القمح من الأكياس

المشدودة على السروج، وسكبوا منها مقادير في قبّعاتهم وأخذوا يطعمون الخيول، مولين ظهورها وجه الريح.

ـ أيها الرفيق الآمر، وجدت تفسيرا لإخفاقنا في الإتصال بالجبهة ـ قال شاريغين مختارا كلماته، كما هو دائماً ـ الجبهة متركّزة... (وتثلج وعسر عليه تحريك شفتيه) نحن مددنا جناحينا في منطقة العمليات والقوزاق متمركزون... ربّما هذا ممكن؟

ـ آوه القوزاق، ذريّة التماسيح الكاذبة الخبيثة! إلى جهنم وبئس المصير!

قال لاتوغين ذلك بلهجة جادة. انفجر بالضحك الفتيان الشبان الثلاثة الذين جُنّدوا من القوى القوزاقية. أجاب شاريغين رأسا:

ـ ليس الوقت ملائما دائما للمزاح، يا رفيق لاتوغين. يجب كبح البذاءة في الأمور الجدّية.

قال سابوجكوف بصوت خافت:

ـ كفى، يا أولاد، لا تتشاجروا.

صلصلت الخيول بشكائمها وهي تمضغ حبّات القمح بقرقشة. وكانت الريح وراء ظهور المستطلعين تصفر في مواسير البنادق.

ـ أمضغ، ولا تعبث يا وباء!

صاح لاتوغين حين أخرج فرسه بوزه من القبعة وأخذ يحني له رأسه.

قبل هذا بوقت قصير حين كان المحاربون الحمر مجتمعين عند البئر في الضيعة نادى سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف على مَنْ يريد التطوّع في مهمة استطلاعية، فكان شاريغين أول من جاء

إليه قائلا "أنا ذاهب معك" وفي نفس الوقت لم يحجم ليضيف منفعلا: "لا تظن أيها الرفيق الآمر، أنني قادم لإظهار شجاعتي، بل عن وعي، ككومسومولي.."

وسمع لاتوغين هذا الكلام وهو يسوق خيول المدفعية إلى البئر فضحك مع رجال آخرين من الجيش الأحمر، ورأى وجه شاريغين الأحمر المنفعل... "آخ، أيّها الشيطان الأفطس، أنت تكذب. لن تتفوق عليّ" وهزّ كتفيه، وتقدّم من سابوجكوف:

ـ ألا أكون زائدا عليكم، يا سيرغي سيرغيفيتش؟ في وسعي أن اذهب إلى البطارية، واستأذنها بالخروج.

وكان طوال الطريق يتحارش بشاريغين، ويضحك الجنود الحمر. والآن نعته بالبذاءة، فوبّخه الآمر. هكذا! سكب لاتوغين بقية القمح في كفه، والقاها في فمه.

ـ يجب أن نمسك أسيراً، وإلا سندور في السهب بلا فائدة.. عندئذ سنعرف أين تتمركز الجبهة...

قال شاريغين مؤكّداً:

ـ حقا! اقتراح معقول.

ـ إلى الخيول، أيها الرفاق!

لبس سابوجكوف قبعته، وألجم حصانه، وشدّ حزام السرج متنحنحاً، وقفز على السرج. وقبيل الفجر اشتد الصقيع، ولم يكن الليل على حلكته السابقة. وكشف النور المخضوضر المبشّر بالصباح عن حوافي السحب الكدرة. وانطلق الفتيان في عدو منكبّين على سروجهم.

ـ قفوا! ها هم! قال لاتوغين، وأخرج بندقيته من فوق

رأسه موقعاً قبعته إنّهم ستة.. سبعة! وفي تلك الكدرة المخضوضرة لم تستطع إلا عيناه، عينا بحار، أن تتبينا شيئا ممسوح الملامح كلا لا، ليس هنا. اللعنة همس للمستطلعين الذين اقبلوا عليه ليس في هذه الجهة... أولئك هم، يلوحون بالكاد...

وبينما كانوا ينزلون الرشاش من على ظهر الحصان على عجل تردّدت كركبة خيول، ولاحت أشباح خيّالة متضخّمة غير واضحة.

صاح لاتوغين بصوت وحشي:

ـ ألقوا اسلحتكم، واستسلموا، أيها الفسّاق! ـ وضرب حصانه بماسورة بندقيته بطريقة غريبة على راكبي الخيول، وانطلق. فاندفع شاريغين في أثره ليلحق به. زعق سابوجكوف بصوت حاد "عد، عد!" توقّف القوزاق برهة وكانوا من رجال الإستطلاع ايضا، على ما يبدو ثم أداروا خيولهم، وأخذوا يبتعدون. أطلق لاتوغين عدة طلقات من على سرجه. جنح فرس كان يرقل في المؤخُرة فمال براكبه وسقط (أما الآخرون فكانوا على مسافة بعيدة فلا تكاد العين تراهم). دار لاتوغين وشاريغين حول الفارس الذي قفز من فرسه. نادى لاتوغين وهو يتصارع مع الفارس قرب الفرس الساقط: "تعالوا، يا رفاق!" وعندما أقبلوا عليه كان راكباً فوق القوزاقي وكأنّه راكب فرسا، وقد لوى يديه. "ليس كبيرا، ولكنه رجل ركين..." كان القوزاقي منبطحا على وجهه، وخدّه ممرغ في الثلج، يشخر مقلّصا عينيه في غضون.

أمروه بالنهوض، ودفعوه، وقلبوه على ظهره. أخذ القوزاقي

يشتم شتائم مقذعة بذيئة وكأنه يحرّضهم على قتله بأسرع وقت. امتقع سابوجكوف، وضربه بغمد سيفه: "إنهض!" رفع القوزاقي رأسه قليلا، ونظر إليه نظرة وحشيّة، ونهض مترنّحاً. كان رجل قصير القامة منحدر الكتفين، ذا لحية عريضة كالهالة ملطّخة بالثلج.

صاح سابوجكوف به:

ـ أمسك لسانك، يا بذئ اللسان، يا خانق الدجاج. أمامك آمر الفوج، فأجب عن أسئلتي.

مد القوزاقي ذراعيه المشدودتين في حزام وراء ظهره، ونظر إلى الواقفين أمامه بعينين مستديرتين صفراوين مديرا لحيته. وفجأة لعق شفتيه. وقال لواحد من المحاربين الحمر مورّد الوجنتين متهيئ للضحك:

ـ أنا أعرفك. أنت أبن عم كوركين، ألا تستحي من نفسك؟

ـ يوه. وأنا أيضاً أعرفك، يا كوف فاسيليفيتش...

ـ مرحبا، يا كوف فاسيليفيتش، على الرحب والسعة قال لاتوغين، وضحك المحارب الأحمر ثانية غير ضابط نفسه يا ذا اللحية العجيب، نحن نبحث عنك طوال الليل... أين فوجك؟ ومن أي فيلق هو؟

نحّاه سابوجكوف، وأخرج خارطة، وشرع بالاستجواب. كان القوزاقي يردّ كارها، ثم فكّر على ما يبدو بأنّ في الإمكان أن يكسب الوقت في الحديث، وأنّ الحمر الملاعين سيبردون قليلا، وقد يجد مخرجا، فأخذ يتحدّث. ومن كلامه عرفوا أنّ الجنرال تاتاركين قد خرق الجبهة، إنّ لواء الدون ستافربول أوقف نجاح تاتاركين عند حده، وأنّ معركة دامية تدور رحاها

الآن قرب دوبوفكا حيث تتجمّع قوات البيض والحمر على السواء.

وعثروا على رأس الخيط أخيرا. وقرّروا إرسال القوزاقي إلى الفوج مع واحد منهم، أما الآخرون فيجب أن يتوجّهوا إلى دوبوفكا غير مشفقين على خيولهم من التعب ليبلغوا القائد بوصول فوج كاتشالين. وهنا تساءلوا: أين شاريغين؟

نادى لاتوغين:

ـ ميشكا! هل غفوت مع الخيول؟

كان حصان لاتوغين يقف وقد وطأ العنان. ومن تحت بطن حصان آخر دلّى عنقه النحيل، لاحت ساقا شاريغين معكوفتين بشكل غريب. كان شاريغين يحتضن قربوس سرجه ضاغطا وجهه عليه.

ـ ميشكا! وأمسك لاتوغين كتفه بفزع، وجذبه إليه - يا أخ، ماذا دهاك؟

مال شاريغين إلى الوراء، وسقط عليه ثقيلا. كان وجهه بلون التراب، ومعطفه مشبعا بالدم من صدره حتى حزام الخراطيش. ألقاه لاتوغين على الأرض برفق، وعرّى بطنه الأبيض، وضغط بكفه على جرح دام من اثر طعنة.

ـ أنت الذي طعنته بالسيف؟ آخ، ياكوف، ياكوف... خلع لاتوغين معطفه وسترته ومزق قميصه من ياقته، ولفّه كجديلة، وأخذ يشدّ بطن شاريغين بحيوية وخفة.

ـ سيرغي سيرغيفيتش، يجب نقله إلى الضيعة.

ـ ولكن كيف؟

ـ ما هذه "كيف" !... استطيع أن آخذه وحدي، واسوق الأسير أيضاً.

نضح عرق من وجه شاريغين الشبيه بوجه الموتى، ودبّت الحياة في عينيه المقلوبتين، وعاد إليهما الوعي والإستغراب والذعر ممّا فكر في نفسه: ماذا حصل له لينهار جسمه الفتي القوي الذي لم يعرف المرض البتّة...

ـ يا رفاق، يا أحبائي، ماذا عليّ أن افعل الآن؟

ـ عليك بالثلج، يا عبيط.

وغرف لاتوغين الثلج، ووضعه على شفتيه.

وخلال انشغالهم بشاريغين، وإنزالهم الرشاشة من فوق الحصان الذي أخذ يعرج تنوّرت الدنيا تماما، وساقت الريح والسحب الواطئة المهلهلة الناثرة مطرا خفيفا مثلجا. ولشدة انغماسهم لم يلاحظوا حشودا ضخمة من الخيّالة آتية مع غمائم من الضباب.

دمدم السهب بوقع الحوافر. مرّت طوابير متماوجة من الخيالة تعدو، وعربات مدافع ورشاشات تجرّها الخيول. نظر المستطلعون إليهما ماسكين خيولهم من مقاودها. فات الأوان ولم يستطيعوا التراجع.

واكتشف أمرهم، فانفصل حوالي عشرين فارسا من مقدّمة الطابور العابر، وانطلقوا بهم. التفت سابوجكوف فرأى لاتوغين وقد بدا عليه الجدّ والشحوب يستلّ سيفه ببطء وحرّك المحارب الأحمر الضحوك بندقيته بلا غاية، وغضّن وجهه كلّه، وكأنّما من ألم...

هتف الفارس الذي كان في المقدّمة بشيء ما، وأشار إلى

رجال الاستطلاع. كان في قبّعة مائلة من فراء الأغنام، وعباءة قوزاقية سوداء واسعة عند الكتفين تغطّي حصانه الصغير حتى أعلى ذيله. أطلق سابوجكوف النار، إلا أن لاتوغين أسرع فسقط عليه من السرج، وأمسك يده:

ـ اللعنة! لا تطلق! إنهم جماعتنا!

واقترب الخيّالة. ارتمى الذين جاءوا من الجانبين على خيولهم وهم يطوّقون رجال الاستطلاع. اندفع الرجل الطويل ذو العباءة مصطدما بسابوجكوف، وهزّه من صدره بقوّة أفلتت كلتا قدميه من الركاب.

ـ أعمى! مَنْ أنتم، ومن أي وحدة؟

وتقلّبت عيناه السوداوان، ووقف شعر شاربيه، وما كاد يمسك نفسه من أن يضرب سابوجكوف المرعوب بمقبض سيفه.

ـ نحن من فوج كاتشالين للمشاة. نحاول أن نتصل بالجبهة.

ـ لا داعي لمحاولتك والجبهة بالقرب من أنفك. أجاب الرجل ذو الشاربين وقد برد غيظه وأعاد سيفه إلى غمده في قرقعة إركب حصانك وتعال معنا.

ـ معنا جريح...

ـ آوه، يا رب. هل فوجكم كلّه بمثل هذه البلاهة؟ ضع الجريح على الحصان مع هذا الشاب الركين وأشار إلى لاتوغين وما هذا البطل؟

ـ اسير قبضنا عليه.

ـ أعط الاسير لنا. (تلعثم سابوجكوف ليقول أنّ الأسير يجب

أن يرسل إلى الفوج) آه، يصعب عليّ التكلم معك. سيتحدّث معك رئيس الأركان، يجب أن يكون لك إدراك وعدّل العباءة بكتفه، وانطلق بعدو سريع، وكأنّ الفرس يتخطّر مرحا تحته ناثرا الثلج بحوافره اللامعة. وخبّ الجميع وراءه بمن فيهم لاتوغين يسند شاريغين، والأسير القوزاقي المحلول اليدين الذي دفن عبوسه في لحيته العريضة خجلا وحزناً.

اندهش الخيّالة بشدة من سؤال سابوجكوف: مَنْ هؤلاء الفرسان المنطلقون بسرعة في طوابير زاحفة، وهم الآن يلوحون أشباحا مبهمة من خلال الضباب والمطر؟

ـ ألا تعرفهم؟ إنّهم لواء سيميون ميخائيلوفيتش بوديوني.

ـ هل استرحت قليلا، يا داريا ديميتريفنا؟ لماذا يبدو القلق على وجهك؟ منذ الصباح لم تأكلي؟ أها... حلبت ملء جردل من الحليب. صدّقيني بودي أن اجلب منه شيئا لك، ولكن المحاربين الحمر شربوه كلّه. وفتتنا الخبز، وأكلناه ثلاثتنا وهكذا ملأنا بطوننا.

كان كوزما كوزميتش يتفجّر بعنفوان الحياة. وكانت داشا لا تستطيع النظر إلى وجهه الحليق تماما بشكل يبدو خاليا من اللياقة: حَنَكٌ صغير كثير الحركة وفم مكشوف أجرد، كأنه نفسه يتوسّل أن يغطّى. استيقظت داشا في وقت متأخّر فلم تجد أحدا في البيت ولا في الفناء. كانت في الهواء رائحة من الرطوبة المصاحبة لذوبان الثلج، ورائحة إسطبلات، وكانت غمائم من الضباب معلّقة على السطوح القصبيّة. رآها كوزما كوزميتش من الفناء المجاور فعبر السياج بحيويّة وأخذ يرقص حولها ماسحا يديه الصغيرتين القذرتين.

ـ أولا، إنّ كلّ شيء بخير وعلى ما يرام، يا داريا ديميتريفنا... وزوجك في الجانب الآخر من البركة، أما أنت فقد كنت تغطّين بنوم عميق تسمعي بالتراشق بالنار. أراد القوزاق أن يحبسوا نبضنا، فرددنا عليهم ردّاً حاداً جعلهم يتراجعون إلى قريتهم لا يلوون على شيء. مازلنا نحفر الخنادق. ذهبت إلى البطارية فعرفت أنّ كارل مور لم يعد حتى الآن من الاستطلاع. مرّت أنيسيا ومعها برميل، وقد تغيّر وجهها فشفتاها مزمومتان. وأنفها مدبدب، ولم ترغب في الكلام معي. هذا ملخّص الأحداث الخارجية. أما بخصوصك فخذي جردلا، واغرفي الماء الدافئ من المِرجل، ولنذهب لنحلب البقرة. فليس هناك مهدئ للروح والجسد أحسن من لمس حلمات البقرة لاسيما بالنسبة لمثقّفة حالمة.

ضحكت داشا، إلا أنه أصر قائلاً:

ـ شيللر هو شيللر، ولكن أصحاب ضيعتنا رحلوا دون أن يسقوا ماشيتهم أو يطعموها، أو يحلبوها. وهذا ليس بالأصول إذهبي واجلبي الجردل.

ـ ولكنّني لا أقدر على حلب البقرة، يا كوزما كوزميتش.

ـ جواب نموذجي. لم تكوني تقدرين على شيء، يا داريا ديميتريفنا. لم تكوني تقدرين على إمساك الإبرة، وكدت تفقدين زوجك إلى الأبد بسبب عدم مقدرتك هذه. ولكن سنحلب الحليب، وأعلّمك كيف تصنعين رقائق الحليب، وكيف تقلين البيض على شظايا الخشب وسيأتي إيفان ايليتش جائعا كالذئب. فتقدّم له زوجته الجميلة المقلاة والشحم المقدّد ينشّ فيها نشيشا مجنونا. فينكبّ عليها، وإذا بك تقدّمين له الرقائق! ثم تجلسين

قبالته وتنظرين إليه بابتسامة هادئة. فتبدو له ملغزة كابتسامة الجوكنده. هؤلاء هن زوجات قوّاد الجيش الأحمر!

وأصرّ كوزما كوزميتش على رأيه، فإنّ أية فكرة تخطر له تبدو كشوكة في رأسه، والأفضل أن توافقه عليها. طوت داشا تنورتها في الزريبة نصف المظلمة. وقرفصت تحت البقرة فلم تضربها هذه بقرتها ولم تركلها. غسلت داشا الضرع بالماء الدافئ، وأخذت تسحب الحلمات المحرشفة، كما علّمها كوزما كوزميتش المقرفص خلفها. وكانت تخشى أن تنقطع الحلمات ولكنه كان يردّد: "اسحبي أقوى، ولا تخافي". أدارت البقرة العريضة رأسها وغلّفت داشا بنشيقها الصاخب ونفسها الحار الطيب. رنت خطوط الحليب الدقيقة وهي تسقط على الجردل وتذكّرها بالطفولة. لقد كان ذلك عالما أبكم "واطئا" و"لطيفا" لم تحسّ داشا بوجوده قبل هذا. وهذا ما قالته لكوزما كوزميتش همسا.فهمس لها أيضاً وراء ظهرها:

ـ لا تقولي ذلك لأحد، فإنّهم سيضحكون منك قائلين: داريا ديميترييفنا كشفت في زريبة الأبقار عالماً مجهولاً. هل تعبت أصابعك؟

ـ بشكل فظيع.

ـ أتركي... (وقرفصي في مكانها).. بهذه الطريقة، على هذا النحو... أي، أي، هؤلاء هم المثقفون الروس! كانوا يبحثون عن الحقائق الأزلية فوجدوا بقرة...

ـ وأنت؟

ـ أنا ـ وترك الحلب من شدّة الانزعاج.

ـ تجلس تحت بقرة وتتفلسف.

ـ يا عزيزتي، من الأفضل ألاّ تحاولي الدخول في جدل مع قسّ سابق.

وتناول الجردل وخرج مع داشا من الزريبة إلى البيت، حيث أخذ يقطع قطعة خشب إلى شظايا.

ـ التفلسف هو تجول الأفكار. كان يوحان جورج هامان[١٣] المدعو بالساحر الشمالي يؤكّد أنّ "وجودنا ووجود الأشياء الأخرى خارجنا لا يخضعان للبرهنة أبدا، ويتطلبان الإيمان فقط..." أيعني إذا لا يوجد إيمان لا يوجد عالم أيضا؟ لا أنا ولا أنت؟ وأنّ هذه ليست شظيّة بل لا شيء؟ أفعلي هذا "لا شيء" سنقلي البيض؟

ووضع شظايا الخشب على إفريز الموقد وأخرج من الموقد بعض الجمرات، وأخذ ينفخ فيها.

ـ ولكن فلسفة الحياة شيء آخر، يا داريا ديميتريفنا. ادرسي الحياة واعرفيها واستوعبيها... فالحياة بدون تدخل العقل الرفيع تسير في طريق خبيث. إنّ وجودي حقيقة، لا ذرة للشك فيها، وهي بالنسبة لي مهمّة للغاية. ولما كنت محبّاً للعشرة والاستطلاع فإنّني أريد أن أرى كلّ شيء، وأفهم كلّ شيء. ولن يمضي وقت طويل حتى أعرف كلّ ما يدور حولنا وفي داخل نفوسنا، هذا ليس ظاهرة عفويّة بل تحت توجيه العقل البشري. ولكنّني لا أستطيع التحدث مع مفوّضنا عن ذلك. غير أني أود أن أتحدّث مع شخص آخر في لباس مدني، وأجلس معه ساعة من الزمن...

---

(١٣) يوحان جورج هامان (١٧٣٠ ١٧٨٨) فيلسوف وناقد وكاتب ألماني أثر في تكوين الأفكار الفلسفية الجمالية للرومانسية الألمانية. وقد سمي بالساحر الشمالي لأسلوبه الغامض ولأقواله المأثورة الشبيهة بالتكهن. الناشر.

داريا ديميتريفنا، أخرجي إلى الفناء، فهناك صومعة مؤنة في آخره، لاحظتها قبل حين، بل وكسرت القفل على بابها. أجلبي من هناك شيئا من الطحين، حفنتين منه...

وأعدّ الفطور. وبدلا من إيفان ايليتش الذي كانت داشا تنتظره من لحظة إلى أخرى دخل البيت جندي أحمر يحمل بندقية وكيس خراطيش مملوءاً:

ـ أمر الآمر بشد الخيول على العربة وتحميلها... وجمع المتاع!

واستنشق من أنفه، ودفع طاقيته على علبائه، وتقدّم من الموقد ممسكاً بندقيته، وأخذ من المقلاة ما استطاع أن يمسكه من الرقائق الحارة، وتشمم خجلان، وخرج.

صاحت داشا:

ـ يا رفيق، يا رفيق. ماذا حصل؟

ـ كيف ماذا حصل؟ انظري إلى الشارع.

وفي تلك اللحظة حدث انفجار بقوة شديدة فبدا قريبا جدا وكأنه في الفناء المجاور، وحتى أنّ الزجاج تطاير متهشّما في كلتا النافذتين الصغيرتين.

كانت خطة الهجوم على تساريتسين في كانون الأول قد وضعها الأخصائيّون العسكريّون في مقر قيادة دينيكين. وقد أشار البارون فرانغل وهو أصغر الجنرالات سناً إلى الأهمّية الهائلة للسيطرة على تساريتسين. وصادق الهايتمان كراسنوف على الخطة. وأرسلت لمساعدة جيش الدون فرقة تحت امرة ماي مايفسكي بقيت بلا مهمة بعد هزيمة الحمر في شمال القفقاس، وقد عزّزت بأحسن الوحدات القتالية من جيش كورنيلوف وماركوف

ودرزدوف. سار ماي مايفسكي عبر الدونباس لتغطية مؤخّرة جيش الدون الذي كان مكشوفا للضربات من الغرب، من ناحية اوكرانيا، ولم يترك على الحدود الشماليّة غير قوات دفاع قويّة. زحفت خمسون ألفاً من القوات المنتخبة من جيش الدون نحو تساريتسين

وفي نفس الوقت كان المقرّ العام لقيادة الجيوش الحمراء للجمهورية يضع خطّة لمجابهة الهجوم. فكان على الجيش الثامن الأحمر والجيش التاسع الأحمر المرابطين على الحدود الشماليّة لمقاطعة الدون أن يدخلا فيها من كلا جانبي الدون، ويدفعا قوزاق كراسنوف البيض إلى حراب الجيش العاشر، وبالجهود المشتركة للجيوش الثلاثة يُسحق جيش الدون في سهوب تساريتسين. وبعد أن يدحره تنعطف الجيوش الحمراء في جهة مقابلة تماماً وتتحرك غرباً، نحو الدنيبر، وتطهّر أوكرانيا من البيتليوريّين.

في هذه الخطة أُغفل شيء رئيسي، وهو أنّ خطوط ودوائر الخارطة الحربيّة، وشبكة الإشارات والأرقام كانت تطوي تحتها صراعاً طبقياً يلغي بقوانينه الخاصة واحتمالاته، وأنّ هذه الدوائر والخطوط مختلفة في نوعيتها. فبعضها كان يمكن أن يصبّ قوى جديدة في الأفواج والألوية والفرق الحمراء، وبعضها الآخر كان يضعفها.

ولم توجّه خطّة مقرّ القيادة العام الجيوش الحمراء في الإتجاهات التي تقتضيها الإستراتيجية العليا للحرب الأهليّة. فإنّ تحرّكها من الشمال إلى الجنوب الشرقي عبر الدون وخوبر ومدفيدتسا وخلال القرى القوزاقية ذات الميول العدائية قد

أضعفت قوّة الهجوم، وأطالت مدّته، وأعطت للعدو إمكانية المناورة وإعادة التنظيم.

ومثل هذه كانت الخطوات الحذرة التي اتّخذتها فيما بعد القيادة السريّة في داخل المجلس العسكري الأعلى للجمهورية الذي صادق على تنفيذ الخطّة الفاشلة التي وضعها مقرّ القيادة العام. فإنّ الخطأ الذي كان يبدو في الوهلة الأولى خافياً ومن الصعب تلمسّه قد كبر خلال ستة أشهر فصار خطراً جدياً.

بدأ هجوم كانون الأول المضاد للجيوش الحمراء. وقد جرى في منطقة أبعد كثيراً في شرق الدونباس، حيث كان الناس في مناطق المصانع والمناجم ينتظرون الجيش الأحمر بنفاد صبر ليقوموا بانتفاضة. إلا أنّ فرقة مايفسكي قد بدأت تدخل المنطقة من الجنوب ومعها مدكّات البنادق والمشانق. ووقع الجناح الأيمن للهجوم الأحمر تحت الخطر. وتوقّف الهجوم. ومن جديد تحمّل الجيش العاشر قوة الضربة كلّها للمرة الثالثة منذ شهر آب.

كان العدو أكثر عددا وأحسن تسليحاً وأغنى تموينا. وكان لديه اندفاع عارم نحو الهجوم. وبدت القوتان غير متكافئتين بشكل كبير. وأرسلت تساريتسين على الجبهة التعزيزات الأخيرة، وهي خمسة آلاف عامل، كلّ ما كان في وسعها أن تجمعه. وجاءت النجدة من الإبداع الثوري.

في العام ١٧٩٢ ابتكر الشعب الفرنسي الجائع الحافي المسلّح بمزاريق مصنوعة بيتياً نار المدفعية الصاعقة ليدحر القوّات المدرّبة للإئتلاف الأوروبي، وخلافاً لكل القواعد الحربيّة قام

بهجوم كاسح للمشاة، ضد تشكيلات المربّعات الشهيرة للملك فردريك.

وابتكر الشعب الروسي أشكالا جديدة لتنظيم وحدات الخيّالة. وكان من بينها لواء سيميون بوديوني الذي خرج من سهوب سالسك. ولم تكن قوّته تكمن في البسالة وحدها. فقد كان القوزاق البيض يجدون أيضاً شقّ الراكب إلى نصفين. لقد كان لواء بوديوني محبوكاً بالولاء والانضباط ابتداء من حامل الراية ذي الشاربين الطويلين وحتى حارس العربات الملتحي. وقد شكّلت كلّ كتيبة ومفرزة من سكان قرية واحدة. وصار المحاربون الذين كانوا في يوم ما يصطادون الجنادب سويّة في السهب وهم صغار يمتطون الخيول جنبا إلى جنب. الأبناء وأبناء الأعمام في الصفوف، والآباء والأعمام في عربات الحمولة والرشاشات. ومنذ اليوم الذي خرج فيه سيميون بوديوني من قرية بلاتوفسكايا بفصيلة من حوالي ثلثمائة وحتى اليوم لم تحدث حالة هروب واحدة... ثم أين يذهب مثل هذا المحارب؟ لا يمكن أن يعود إلى قريته أو ضيعته. فإنّ ذلك العار والمثول أمام محكمة.

وكان في اللواء محكمتان حسب عرف لم يدوّن في نظامه الداخلي: محكمة رسمية عسكريّة، ومحكمة رفاقيّة غير رسمية. كانت المحكمة العسكريّة تحاكم المحارب المذنب سواء على جبنه في المعركة، أو عدم إطاعته للأمر، أو وضع يده على مال الآخرين. وبالإضافة إلى المحكمة العسكرية كان المحاربون أنفسهم يحاكمون المذنبين في الحالات الخاصة. كانوا يجتمعون في مكان بعيد عن الأنظار، ويبدأون محاكمتهم لهذا الشخص. وكان يحدث أن تبرئ المحكمة العسكرية ساحة المتهم آخذة بعين

الاعتبار هذا الطرف أو ذاك، بينما كانت المحكمة الرفاقية تحاكمه بصرامة أشد، وتصدر حكمها عليه، فلا تستطيع أن تسأل أحدا عن مصيره.

وكان نظام القتال هو الآخر قائما على قاعدة جديدة غير مدوّنة أيضاً في أي من قواعد الميدان. كانت الكتيبة تنظّم نفسها في صفين للهجوم باكتساح. في المقدّمة يسير المحنّكون من الطاعنين بالسيوف ذوي الأيدي الثقيلة وهم في العادة فرسان لهم تجربة كبيرة. وكانت ضرباتهم من القوة بحيث ترسل فرس العدو يرقل وعليه الجزء الأسفل من جسم راكبه. ويأتي وراءهم فرسان ماهرون بالتسديد من المسدّسات والبنادق، وكلّ واحد يحمي في القتال الرفيق الذي يتقدّمه. ويندفع الأوّلون، وهم تحت حماية نار رفاقهم، ليغرسوا سيوفهم في العدو بجرأة ودون تلفّت إلى الوراء، ولم يحدث البتّة أن استطاعت خيّالة للعدو حتى ولو كانت أقوى عدد بمرتين أو ثلاث أن تصمد لهجوم البوديونيّين المركّز، المؤلّف من حلقات ذكّية منفصلة متلاحمة فيما بينها.

كانت الضيعة تحترق في عدة أماكن. ويتكوّر الدخان بين السقوف المتلاصقة، ويندلع اللهيب ناثرا الشرر ونتف القش المحترق تحت السحب العائمة على انخفاض. وكانت الحمائم تحوم وتقع في النار. وكانت الماشية ترسل الخوار في الزرائب. حطّم ثور أصيل السياج، وتحرّر طليقا مندفعاً في الشارع في خوار. وخرجت النساء من البيوت المحترقة راكضات يحملن أطفالهن على أيديهن باحثات لهن عن ملجأ. ومن ناحية القرية القوزاقية وراء التلال ظلت المدافع تقصف بلا انقطاع.

وفي منتصف النهار ظهرت من هناك صفوف القوزاق المشاة الأولى كنقاط صغيرة مبثوثة على امتداد واسع، وهي تنوي الإحاطة بالضيعة المحترقة ومحاصرتها، ودفع فوج كاتشالين المتخندق في خنادق حفرت على عجل ولألقائه في النار. وكانت هذه الخنادق تبدأ من دكان الحدادة في طرف الضيعة، وتمتدّ على حافة البركة، حيث الجليد الممزّق بالقنابل اليدويّة، وتلتوي نحو الطاحونة الهوائية على الرابية.

سار تليغين وإيفان غورا على فرسيهما بمحاذاة الخنادق تتبعهما أغريبينا مرافقة المفوّض مرتدية قبّعة مائلة من فراء الغنم على غرار ما تعلّمته من القوزاق. كانا يتوقّفان تارة بالقرب من مفرزة متخندقة إلى وسطها في أخدود ضيّق ومتجهّمة في مثل هذا الطقس، أو بالقرب من حظيرة للرشاشات. إيفان ايليتش مورّد الوجه ذو عينين بشوشتين، وإيفان غورا مسودّ الوجه ناحل من متاعب الليل، إلا أنه الآن قد هدأ حين اتضح الموقف. عدل تليغين جلسته على السرج، ومرّر يده المقفزة على شفتيه، وكأنما يمسح الإبتسامة منهما، وتكلّم مستغلا الصمت بين هدير الانفجارات:

ـ أيها الرفاق، لديكم الفرصة لإنزال خسائر دامية في العدو. أطلقوا النار بهدوء ودون فزع وبانتقاء: رصاصة لكلّ رجل. أنا والمفوّض ننتظر مثل هذا التسديد منكم. انتقلوا إلى الهجوم المضادّ بالحراب في تعاون واندفاع... آمركم بألا تتراجعوا مهما تكن الظروف.

هز المفوّض إيفان غورا رأسه، وهتف:

ـ عاش الرفيق لينين! ولتسقط الرأسمالية العالمية!

وبعد هذا الكلام ذهبا إلى الجماعة التالية من المحاربين. وبعد أن فرغا من الجولانّ في الجبهة كلّها ترجّلاً عن فرسيهما عند الطاحونة الهوائيّة. خلال ذلك الوقت عرف رجال الإستطلاع أنّ قوات كبيرة من القوزاق قد دخلت القرية أثناء الليل. وكان من الممكن الإستدلال من الطريقة المتهوِّرة التي هجموا فيها أنّ ظهور فوج كاتشالين في الضيعة قد فاجأهم بينما هم منهمكون في تنفيذ مهمّة أخرى، وأنّهم على ما يبدو قد عزموا على تنظيف الطريق من الحمر بضربة واحدة.

كانت الريح تصفر تحت سطح الطاحونة والتروس الخشبية تصرّ، وفي الطاحونة رائحة بيتية للطحين والفئران. تنهّد إيفان غورا بقوّة، وأخذ يطلّ برأسه من حين لآخر بين الألواح المخلوعة لعلّه يرى سيرغي سيرغيفيتش يلوح في السهب البني على الشرق. صاح تليغين بالتلفون في الأسفل ثم صعد السلّم الشديد المرتقى، وقال منفعلا وهو يرفع المنظار:

ـ نحن نعيد عملية تساريتسين!

ـ أيّة عمليّة لعينة هذه! نحن محاصرون كالأغنام... أؤكد لك أنّه قتل، فهذه هي الساعة الثانية.

ـ ليس من السهل قتل سيرغي سيرغيفيتش...

ـ لماذا أنت بشوش بهذا الشكل؟

ـ يجب أن نحارب بروح بشوش، يا إيفان ستيبانوفيتش.

انتشر الدخان المنبعث من القشّ المحترق في أماكن درس الحبوب واطئاً فوق الأرض باتجاه المهاجمين. والآن صار من الممكن تبيّن شخوص متفرّقة تتراكض. تراجعت النقاط الأماميّة للحمر إلى الخنادق وهي تطلق النار. واستعدت جبهة فوج

كاتشالين كلّها، وكانت تحيط بالضيعة المحترقة مثل حذوة حصان معوّجة. هتف تليغين:

ـ اها! اتخذوا وضع الاستلقاء! عصبّيون لم يتحمّلوا الموقف، هؤلاء الأوغاد! أنظر، أنظر إلى الصفوف تستلقي... إيفان ستيبانوفيتش، إذهب بحقّ الرب واخبر الجنود بلهجة أكثر جدّية بألا يطلقوا النار... لا رصاصة واحدة بدون أمر مني.

هتف بايكوف بخفّة مقصودة:

ـ يأتي المفوّض! الحظيرة في أماكنها!

ونهض طاقم الحظيرة التابعة للمدفع الأول والمؤلّفة من بايكوف ززرادويفيتر وغاغين وأنيسيا للمساعدة ووقف كلّ واحد في مكانه. ظهر إيفان غورا من وراء حائط طيني لكوخ محترق تتبعه أغريبينا على بعد خطوة وراءه. سارا نحو المفرزة التي كانت تغطّي البطارية، أخذ إيفان غورا يتحدّث إلى الجنود الحمر. بينما وقفت أغريبينا إلى جانبه متوتّرة كالسوط حاملة مسدّسا في يدها المسبلة.

وترامى صوت إيفان غورا الدافق:

ـ ... لا تطلقوا رصاصة واحدة بدون أمر خاص. أيها الرفاق، أحذّركم من أنّ المخالفة تعني رمي المخالف في مكانه...

هز بايكوف لحيته المبيضّة من قطرات المطر:

ـ يا إخوان، إياكم من هذه الفتاة حاملة المسدس، فإنّها ترمي دون أن يرف لها جفن...

أجابت أنيسيا:

ـ لماذا تضحك منها؟ أغريبينا رفيقة أصيلة...

تحوّل إيفان غورا إلى المدفع بادي الجدّ حتى أنّ طاقمه قد

جمد. وسارت أغريبينا خطوة بخطوة وراء زوجها، وكأنّها مربوطة به. كان المدفع الأوّل يقف فوق تركيب من ألواح متّصلة بعضها ببعض وعجلات عربات، وحوله تناثرت مناشير وفؤوس وقطع من الخشب. نظر إيفان غورا إلى هذه الغرابة. ورمشت جفونه وسأل:

ـ ما هذا؟

أجاب بايكوف:

ـ من اختراعنا، أيها الرفيق المفوّض، شبيه ببرج سفينة دائر.

ـ وما الغرض من عجلات العربات؟

ـ لتدوير المدفع بسرعة. ابتكار حاذق...

ـ هكذا إذن وواصل إيفان غورا سيره واغريبينا وراءه. أشار بايكوف إليها بحاجبه قائلا:

ـ أنا وهي في فرقة مسرحية واحدة، يا رفاق. أنا لا أخاف من المفوّض، ولكن أخاف منها... عيناها مستديرتان كعينَي الفأرة، وخاليتان من الرأفة... آه، يا نسوان، لأي شيء نقاتل؟

ـ أوصلتها له، يا داريا ديميترييفنا... لم يسمحوا لي بالدخول إلى الطاحونة... هز رأسه لي من الأعلى وقال: "أحقّاً أن داشينكا نفسها قد صنعتها؟" قلت "بنفسها، ولكن الفطائر باردة مع الأسف..." فقال: "أنا أحب الفطائر الباردة أكثر... أنقل لها ألف قبلة..."

ـ كلّ هذا من اختراعك.

ـ والله، لا... هل سمعت بما حدث؟... صاحبنا إيفانوف أقصد الطبيب استولى عليه الخوف، كالطفل حتى اصيب بقيء وإسهال... واغتاظ المفوّض قائلاً "أعصابه تحتاج إلى تقوية!"

وأمر بخلع ملابسه وصبّ الماء عليه عند البئر... إسمعي زعيقه، أنهم يصبّون عليه الدلو الثالث... شيء مضحك! أنا أيضا جبان، يا داريا ديميتريفنا...

كانت داشا تزرع الغرفة من النافذة إلى الباب وكأنها في قفص. وقد صفّت مواد التضميد، وفاحت في جو الغرفة رائحة الفينول واليودفورم. وكان كوزما كوزميتش يحوم حولها:

ـ تعلّق بي حلم ما يفتأ يراودني كلّ ليلة تقريباً. أحلم بأن في يدي بندقية وقلبي يخفق كالخرقة، وأنا اطلق النار. أضغط على الزناد بكلّ قوتي، وكأنني أضع كلّ نفسي في هذه البندقية الملعونة... ولكن البندقية لا تطلق، والزناد يتحرّك ببطء شديد، ويخرج من فوهة البندقية دخان باهت. والشخص الذي أطلق عليه النار بلا وجه، أو لا أستطيع رؤية وجهه أبدا، وهو يتحرّك ويتّسع.. فو! فظاعة!..

ـ لم هذا السكون؟

سألت داشا وطقطقت بأصابعها، وتوقّفت بالقرب من النافذة... بدأت بواكير المساء تهبط. وخمدت نيران الحرائق. ولم تعد تسمع الإنفجارات وصفير القذائف الممزّق للأعصاب، وسكتت طلقات البنادق. تقدّمت صفوف القوزاق زاحفة، وأوشكت على محاصرة الضيعة كليّاً. ابتعدت داشا عن النافذة وعادت تزرع الغرفة قائلة: سيكون ثمّة جرحى كثيرون، فكيف سنعالج الأمر؟

ـ المفوّض سيرسل أغريبينا، وتلك مساعدة كبيرة. وطلبت منه أنيسيا أيضاً وقلت له "أنّ مكانها ليس إلى جانب المدفع.

رومانسيّة محض أن تكون إلى جانب المدفع..." لنعد إلى حديثي. ما رأيك في حلمي؟

ـ قل الصدق! إيفان ايليتش سالم؟ وكلّ شيء بخير؟

ـ أخرج رأسه لي من ثغرة في السقف، والابتسامة تملأ وجهه. وهو على ثقة مطلقة في النصر...

وهزّت داشا رأسها. كان يجب أن تجبر نفسها على عدم التفكير في الآلاف من الرجال الزاحفين كالوحوش. فإنّها لا تفهم في ذلك، على أية حال... وبذلت قصارى جهدها لتحوّل فكرها، وكأنّها تجرّ غولاً خرافياً مربوطاً بحبل، إلى هذه الأشياء هنا، الموضوعة على المنضدة، إلى الضمادات والقناني والأدوات الجراحية... اليود قليل، وذلك شيء مريع! وأطاعها فكرها بسلاسة، ولكنّه سرعان ما انسلّ إلى هناك، دون أن تلحظه، وكأنّما من خلال كوى غير منظورة، موسعاً عينيه كبحيرتين... آه، ما حاجة هؤلاء الناس الملحّة إلى أن يقتلوا الأبرياء، كلّ الطيّبين، كلّ المحبوبين؟ أي شيء يمكن أن يكون أكثر فظاعة في الإنسان من الكراهية؟ وقد أحدقت الكراهية بداشا وضايقتها متحفّزة متصلّبة لتغرز فيها حربة ستمسكها بأصابعها المرتعشة...

ـ لا، هذه وقاحة صرف. نعم قالت داشا ذلك، وروّعت النظرة الوحشيّة من عينيها المتسعتَين كوزما كوزميتش لماذا تنظر إليّ؟ أنا اشعر بالغثيان مثل طبيبنا تماماً... لا أستطيع تحمّل الكراهية... ألأنّني تربيت على الرّقّة وليكن ذلك...

وأخذت تنقل القناني واللفائف من مكان إلى آخر بلا هدف:

ـ ثم أنا لا أفهم: لماذا بدأت تقصّ عليّ مثل هذا الحلم؟...

ـ أها، داريا ديميتريفنا. الحلم تحقّق... هناك كراهية مطهّرة كالحبّ... كراهية كنجمة الصباح على جبين عال... وهناك كراهية راسخة في الأحشاء، وحشيّة متحجِّرة.. وهي التي يجب أن تخافي منها... وأنا أيضاً قد خفت منها في العام ١٩١٤... يقال أنّ بعض الروس كانوا في خارج البلاد حين أعلنت التعبئة، فهرعوا إلى آخر قطار.. جباة العربات الألمان يصفقون الأبواب على أيدي الأطفال الصغار... أما حلمي، الذي لا أجد في نفسي الرغبة لأقصّه على المفوّض أو على أي شخص آخر غيرك، وفي مثل هذه اللحظة، فيعني أنني عاجز، وأنّ رحلتي على الأرض قد انتهت ونشج فجأة بندقيتي لا تطلق النار، بل تهس فقط.

ـ أنا اكرههم! صرخت داشا فجأة، وأخذت تضرب صدرها بأصابعها المضمومة الأطراف لقد شاهدتهم وأنا أعرف تلك الوجوه: عيون قتلة محترفين، ووجنات عليها بثور وذقون غائصة... أوغاد!.. متبلّدو الإحساس، جهلا... ومثل هؤلاء لا مكان لهم تحت الشمس!..

ـ إهدئي، إهدئي، داريا ديميتريفنا. من الأفضل أن نرى هل غَلى الماء في المرجل؟

ذهبت داشا إلى النافذة مسرعة. في المساء الرمادي كان الجنود الحمر يمرّون راكضين منحنين وقد وضعوا بنادقهم في تأهبّ للهجوم. بل ولمحت وجوههم المتوتّرة إلى حدّ التغضن. تعثّر أحدهم وكاد يسقط إلا أنه شمّر عن ذراعيه ليوازن نفسه، ومرّ راكضاً، ثم التفت مكشّراً عن أسنانه.

ارتفع صاروخ فوق السهب، ونشر أضواء خضراء ساطعة أضاءت لدى سقوطها البطيء الظهور الرمادية المضغوطة في

الخنادق. وشخوص القوزاق الناهضة على مسافة قريبة لا تتجاوز مائتي ذراع. كان شخص يجري بينهم وهو يدير سيفه فوق رأسه. انطفأت الأضواء. وفي لحظة الظلام الدامس بدأ هتاف ظلّ يتعالى كريح الزوبعة: "هوررررا!"

خلع تليغين قبّعته، ومرّر كفّه على شعره المبتلّ. لقد تمّ كلّ ما كان من الممكن التفكير فيه والتنبّؤ به وإنجازه. والآن بدأت المعركة النفسيّة، كان العدو أقوى بأربع مرّات، في أغلب الظنّ، إذا ما أخذت بعين الاعتبار تجمّعات إحتياطية كانت تلوح بالكاد من خلال المنظار.

طلع إيفان ايليتش حتى كتفيه من ثغرة في السطح وهو يراقب الوضع. وفجأة طوّقت الضيعة بنيران الطلقات. ودار كلّ شيء في عيني إيفان ايليتش... تجمّعت زمر من الرجال هنا وهناك في الخنادق... أخذ يبحث عن قبّعته مفكّراً "من الأسف أن تضيع مثل هذه القبّعة!.." هبط إلى الأسفل على الفور، ونزل من الرابية إلى الخنادق.

ارتدّ هجوم القوزاق الأوّل في كلّ مكان تقريباً وبالقرب من دكان الحدادة فحسب كانت المعركة مشتدّة، كما توقّع إيفان ايليتش فقد نشب هناك اشتباك، وتعالت صيحات وحشيّة، وتفجرّت قنابل يدويّة. وصل راكضاً إلى حائط السقيفة الطيني، حيث كان يوجد الإحتياط. ولكنّه لم يجد أحداً، فإنّ المحاربين الحمر لم يضبطوا أنفسهم، وتصرّفوا من تلقاء أنفسهم، وانطلقوا إلى دكّان الحداد لتقديم العون. كما هرع إلى هناك إيفان غورا في عدو وئيد منحنياً تحت ثقل كيس من القنابل اليدوية...

هتف إيفان ايليتش:

ـ يا مفوّض! ما هذا؟ فوضى! لا يجوز ذلك!

لم يلتفت إيفان غورا إليه إلا بأنفه الصارم الطالع من تحت الكيس. وبعد خطوتين رأى إيفان ايليتش داشا تدخل البوابة وهي تمسك محارباً يقفز على رجل واحدة. توقّف إيفان ايليتش، ورفع يده المنفرجة الأصابع وقال "أها... هذا ما جئت من أجله..." واستدار وعاد راكضاً إلى البطارية.

ـ هل كلّ شيء على ما يرام في البطاريّة؟

ـ كأحسن ما يكون الحال، مرحباً، يا إيفان ايليتش.

ـ أيها الرفاق، أطلقوا الشرابنيل على الإحتياطيّين!

صعد إيفان ايليتش على سطح قريب، وألصق المنظار على عينيه. كان الاحتياطيّون الذين لاحظهم قبل حين من الطاحونة يقتربون بكتل متراصة. صاح من السطح:

ـ نار سريعة!

أخذت قذائف الشرابنيل تنفجر واحدة تلو الأخرى في عتمة المساء الرصاصيّة. تماوجت صفوف المهاجمين، ولكنّها واصلت تقدّمها. وظلت قذائف الشرابنيل تنفجر فوق الرؤوس أوطأ فأوطأ، إلا أنّ الصفوف ظلّت تتقدّم. وتتدلّى كالأفعى، كالرؤوس النارية فوق صفوف الجنود الصغار كجنود اللعب القصديرية ارتفع صاروخ، ليضيء عملهم المأثور وكأنّه يقول لهم مشجّعاً "تقدّموا الآن، يا أخوان، زاحفين على عظام البلاشفة.." وما كاد الصاروخ ينطفئ حتى ارتفعت إلى اليمين في الشرق ثلاثة صواريخ متتالية وهبطت كأضواء حمراء كدرة منحوسة شاملة السماء كلّها.

وصاح تليغين:

- أجيبوا بثلاثة صواريخ حمراء متتالية!

في عتمة المساء سار رجال بوديوني في قاع وهدة مسطّحة، ووثبوا على الجناح الأيسر للمهاجمين مباغتة وبقوة شديدة مزقّت صفوف القوزاق المشاة واكتسحتها في برهة قصيرة من الزمن، وبدأ الشيء الرهيب الذي يخشاه المشاة لدى التقائهم بالخيّالة، والذي لا منجى منه، وهو الطعن في الراكضين. وكانت أضواء الصواريخ المنطلقة من الضيعة تضئ السهب حيث لا مكان ينجي من الموت بنصل صافر. ألقى الرجال أسلحتهم وهم يركضون، وغطّوا رؤوسهم بأيديهم، وكان الظلّ الأسود للفرس وراكبه يلحق بهم، ويقف الفارس البوديوني على الركاب مرناً ويميل جانبا، ويطعن بكلّ سعة كتفه فيتدحرج جسم القوزاقي تحت حوافر حصانه.

ولما رأى بوديوني أن قوات القوزاق قد دحرت في كلّ الميدان وهي تولي هاربة أوقف فرسه، ورفع سيفه صائحاً: "إليّ!" واستدار مع خمسين فارسا اقبلوا عليه، وانطلق نحو الضيعة. كان حصانه سريع العدو. اندفع سيميون ميخائيلوفيتش بوديوني على فرسه دافعا جذعه إلى الوراء على السرج، مرخيا يده الممسكة بالسيف قرب الركاب لتستريح، وقد أنزل على عباته قبعته الفضّية اللون من فراء الأغنام لكي تطوى الريح وجهه العرق، وتتخلّل شاربيه بحرّية. وكان الفرسان الذين ينطلقون وراءه مضطرين إلى همز خيولهم للحاق به. ساروا على حافة البركة التي كانت نجوم الصواريخ الساقطة تنعكس على البقع المتحرّرة من الثلج فيها. فر بعض الناس مبتعدين عن الفرسان، وانبطحوا على

الأرض. لم يلق سيميون بوديوني بالاً إليهم، وأشار بسيفه إلى دكّان الحدادة، حيث مايزال القتال ناشباً بين القوزاق ورجال كاتشالين: فكان هذا الجانب أو ذاك يهجم بالسيوف مرّة بعد أخرى، ثم يتراجع ويستلقي على الأرض.

انتشر فرسان بوديوني الخمسون كالمروحة وأطلقوا العنان لخيولهم، وعيونهم مصوّبة نحو القبّعة الفضّيّة اللون القافزة أمامهم، واندفعوا من التلة عند البركة مهاجمين القوزاق المشاة، وما من صلية رشاشة، ولا انهمار رصاص، ولا حراب مصوّبة كانت في وسعها أن توقف اندفاع الخيول الناخرة من شدّة الجهد. وأعملوا الطعن في كلّ من وقع في أيديهم، ولم يوقف سيميون بوديوني فرسه إلا في شارع الضيعة.

أسرع تليغين للقائه. لم يجبه سيميون مخائيلوفيتش بوديوني رأساً. بل مسح نصل سيفه بمنديل، ورمى المنديل على الأرض، وأعاد السيف الكبير ذا المقبض النحاسي إلى غمده، ورفع كفاً مستقيمة إلى صدغه بالتحية وقال:

ـ مرحباً، أيها الرفيق. مع من أتكلّم؟ مع آمر الفوج؟ أنا آمر اللواء بوديوني قائد الجماعة. آمرك بأن تبقي سريّة واحدة لحماية العربات والجرحى وأن تتقدّم بالوحدات الأخرى ومع المدفعية إلى القرية فورا، وتحتلّها، وتنظفّها من القوزاق البيض.

ـ سمعاً، وسينفّذ الأمر.

ـ لحظة يا رفيق...

ووثب على صهوة حصانه، وحشر كفّه تحت حزام السرج، وضرب بأصابعه مشفري الحصان الذي جاهد ليمسك بكمّه، ومدّ

يده إلى إيفان ايليتش:

ـ هل الخسائر كثيرة؟

ـ ليست كبيرة.

ـ هذا شيء جيّد. إذن كان في إمكانكم أن تصمدوا بقواكم الخاصة وبدوننا؟

ـ نعم، كان في إمكاننا أن نصمد. فإنّ الذخيرة كافية.

ـ هذا شيء جيّد يمكنك أن تنصرف.

ـ زالت الآلام في منطقة البطن تماما، يا أنيسيا كونستانتينوفنا، بل ولا أحسّ ببطني... هذا سوء تركيب.. إنّ عضوا مهما للغاية كالبطن يترك مكشوفا بلا حماية... انغرز السيف أقلّ من بوصة واحدة فأحدث مثل هذا التخريب... مثل هذا التخريب... أعطيني شيئاً من الماء.

كانت أنيسيا تجلس بالقرب منه متعبة صامتة. وكان المستشفى الآن يحتلّ بيتاً آجُريا من طابقين في القرية. ولم يبق فيه غير الذين أصيبوا بجراح خفيفة والذين كانوا من الصعب نقلهم من هنا. أما الآخرون فقد أرسلوا إلى تساريتسين قبل عدّة أيام. كان شاريغين يحتضر. وكان لا يريد أن يموت ويتأسف كثيرا لمفارقته الحياة، حتى أن أنيسيا تعذّبت معه أيضاً. وقد كفّت عن التسرية عنه، واكتفت بالجلوس على مقربة من سريره والإصغاء إليه.

نهضت أنيسيا لتغرف قدح ماء من الجردل وتقدّمه له ليشربه. كان وجهه ملتهباً وعيناه الكبيرتان الزرقاوان تتبعان أنيسيا ولا تنصرفان عنها. وكانت هي ترتدي كما ترتدي النساء مريولاً أبيض، وكان شعرها الذهبي الذي غالبا ما كان يحلم به قد ضفر

في ضفيرة واحدة لفّت حول رأسها. كان يخاف أن تنصرف فلا يبقى أمامه إلا أن يدفن رأسه تحت المخدة، ويصكّ اسنانه، ويسمع الدم ينبض في صدغيه بلا انتظام. وكان يتحدّث بلا انقطاع، وكانت أفكاره تتوهّج مثل فتيلة قنديل موشكة على الإنطفاء مرّة تلعق الحوافى، ومرّة ترتفع وتضئ بسطوع، ثم تخفت وترفّ.

ـ لم تكوني في ذلك الوقت جميلة، يا أنيسيا كونستانتينوفنا، وكنت تبدين أكبر من عمرك بمرّتين... تسندين خدّك على يدك، وتنظرين دون أن تبصري شيئا، فقد كانت غشاوة المصيبة تغطّي على بصرك... مع ذلك فأنا لست من المشفقين، فقد مسحت الشفقة من نفسي... المشفقون من الناس هم أكثرهم تيبسّاً. يجب أن يشفق الإنسان مرة واحدة في حياته... وكفى! وينتهي الأمر... يجب أن يوضع القلب على السنديان، ويلقى على الجمر المتوهّج، ومرّة أخرى تحت المطرقة... على هذا النحو يجب أن يكون الكومسومولّيون... عندما كنّا على ظهر السفينة دعوت إلى اجتماع سرى، وقلت للرفاق أنه لا يليق بالمقاتلين في سبيل الثورة أن يمسّوك... عند ذاك بدأ لاتوغين الحديث حول غاسلات الأواني.. آه، لاتوغين، لاتوغين!... لا يليق هذا بك مطلقاً، يا أنيسيا كونستانتينوفنا... الثورة أوقفتك على قدميك، فصرت تتفتّحين جمالا، ولكن ليس له... إنّ ذلك طريق مسدود. ويجب أن تطرح هذه المسألة ويناضل في سبيلها...

لعقت ذبالته حوافى الحياة، وقاست الظلام الداني، وخفتت. مرّر شاريغين لسانه على شفتيه الجافتّين. قرّبت أنيسيا قدح الماء منه. وعاد يتكلّم مرّة أخرى:

ـ أنا أعرف من أجل أي شيء أموت. ذلك لا يثير أي شكّ في نفسي... أوّد أن تذكريني... أنا من بتروغراد من جزيرة فاسيليفسكي... كان أبي نجّاراً، وقد تعلّمت في المدرسة المهنيّة، وعملت معه... كان يسحج فأسحج معه، ويسحج فأسحج معه، وكلانا صامت لا يتكلّم... وذهبت للعمل في مصنع البلطيق لبناء السفن... وهنا تكشفّ لي الشيء الرئيسي: لأيّ شيء أنا موجود... وبدأت حمى الأفكار، وعدم الاصطبار. وجذبني العلو، ولم تعد لي القوة على البقاء ساعة واحدة في الأسفل... ثم جاءت الحرب واستدعيت إلى الأسطول، وصككت على أسناني داخل فمي من الغيظ. كيف لا يمكن أن تفهمي، يا أنيسيا كونستانتينوفنا أنني رأيت إنسانا حيّاً، ابتدعناه نحن، واكتسبناه، وصنعناه... كيف نتركك تجوبين الأرض ثانية منكّسة الرأس؟... لِمَ الثورة إذن؟ لن يكون ذلك صحيحا... يجب أن تكوني ممثّلة... كنت كلّ مساء أحوم حول هذه السقيفة وأشاهد وأسمع... "آه، بحق الرب، بحق الرحمة... أنا مهجورة، مهجورة..." ستهتزّ الجبهات كلها بتمثيلك... ستنتهي الحرب الأهلية وتصيرين ممثّلة عالمية... عليك أن تسيري في هذا الطريق... ولا تضعفي... إنّه سيغنّى لك، ولكن لا تصغي إليه، يا أنيسيا كونستانتينوفنا. أودّ أن أبرهن لك أنّه لا حقّ لك في حياة شخصيّة... عزيزتي... لماذا أدرت رأسك؟ سأستريح قليلا، وأجمع أفكاري، فأنني أريد أن أقول شيئا آخر... فقد أغفلت دليلا مهما...

وتقلّب رأسه على الوسادة، ثم هدأ وصمت صمتاً طويلاً حتى أنّ أنيسيا انحنت قريباً منه، كانت مقلتاه لا تلوحان من

خلال جفنيه نصف المسبلين. لم يهتزّ قلب أنيسيا لأحاديثه، بل لتقلّب عينيه في جزع. وصار مفهوما لها كلّ ما جاهد ليعبِّر لها عنه بكلماته الحارة المشوشّة. في أغلب الظنّ أن طفليها الصغيرين قد ناداها على هذا النحو آنذاك، وقد أفزعتهما النار التي تلظّت في كومة الدريس حولهما، حيث كانا يجلسان متقاربين. ولم تكن أنيسيا حتى هذا الحين تسترجع في ذاكرتها وجهيهما الطفوليّين خائفة من ذلك. وها هي الآن تراهما يطوفان في عين خيالها كالأحياء، بتروشكا في سنّه الرابعة، والصغيرة أنيوتا. وكلاهما ذو شعر جعد وخدّين ممتلئين وفم ضاحك، وأنف صغير... والآن هذا هو الثالث قد ناداها. وستودِّعه، وترافقه حتى نهاية حياته.

أخذت أنيسيا تمسِّد بنعومة شعره المتلبِّد. اختلجت رموشه، ورأت بقعاً زرقاء تنتشر على صِدغيه.

١٤

كان القائد العام دينيكين يلعب في مساء كلّ جمعة لعبة الورق "الفينت" مع كاترينا الكسييفنا كفاشنينا قريبته البعيدة من ناحية أمه. وكانت لعبة "الفينت" هذه قد بدأت منذ العقد الأخير من القرن الماضي، حيث كان أنتون إيفانوفيتش يدرّس في الاكاديمية، ويستأجر غرفة في شقة كاترينا الكسييفنا الحسنة الترتيب على الذوق البطرسبورغي الواقعة في الطابق الأرضي في الشارع الخامس في جزيرة فاسيليفسكي. ولم يبقَ على قيد الحياة من اللاعبين الأربعة في ذلك الحين إلا هو وهي، وقد ألقاهما الزمن العصيب في يكاترينودار، حيث أصبح أنتون إيفانوفيتش، بإرادة الله، على رأس قوات البيض المسلّحة، بينما كانت كاترينا الكسييفنا التي هربت من بتروغراد في بداية العام ١٩١٨ تعيش عيشة متواضعة في هذه البلدة مع ابنتها التي كان اسمها أيضاً كاترينا الكسييفنا، الصغرى.

وقد عرض عليها القائد العام غير مرّة تحت هذا العذر أو ذاك أن يمدّها بالعون، إلا أنها كانت تردّ قائلة "الأفضل ألا يكون هذا بيننا، يا أنتون إيفانوفيتش، فإنّ الفلوس تضيّع الصداقة". وكانت تعيل نفسها بتصحيح مسودات وكالة الإستعلامات في

بيتها. كما أنها كانت تحتفظ هي وابنتها ببعض الأشياء الثمينة الصغيرة لليوم الأسود.

وكان مساء الجمعة مقدّساً، ولم يكن أحد، حتى الجنرال رومانوفسكي رئيس الأركان، يجرؤ على انتزاع القائد العام من لعبة "الفينت" التقليديّة. ففي الساعة الثامنة مساء كانت عربة يجرها حصان واحد ولها ظليلة جلديّة مرفوعة تقف أمام بوابة بيت خشبي صغير متواضع في الجزء السهبي البعيد من البلدة. ويأمر القائد العام الحوذي الملتحى الذي يعلّق على صدره نياشين القديس غيورغي، بأن يعود ليأخذه عند منتصف الليل، ويدخل البوابة بخطوات خافتة ويصعد إلى مقدّمة البيت الصغيرة، حيث يبدو الباب وكأنه ينفتح له من تلقاء نفسه.

وكان المخبرون الذين يرسلهم رئيس الاستخبارات كلّ جمعة إلى هنا يحاولون ألا يقع بصر القائد العام عليهم. كان أحدهم يجلس على سقف البيت مختفيا وراء مدخنة الموقد، والثاني وراء شجرة الحور الهرميّة في الجانب الآخر من الشارع، واثنان آخران وراء القاذورات في الفناء. وكان دينيكين كرجل عسكري لا يطيق المخبرين. وذات مرة، والورق في يديه، روى هذه القصة عن القيصر الراحل نيقولاي الثاني بخصوص هذه الضرورة المؤسفة. كان هذا القيصر يهوى النزهات المفردة في المنتزه في تسارسكويه سيلو. وكان المخبرون قد بُثّوا منذ الصباح وراء أحواض الزهور والأجمات على طول الدروب التي يمكن أن يسلكها القيصر. وفي فصل الشتاء كان الثلج يتساقط فيحجب الرؤية عنهم. وذات مرّة بينما كان القيصر يتمشّى سمع وراءه صوتا يهمس مكتوماً:

"الرقم السابع مرّ" واغتاظ نيقولاي كثيراً لأن المخبرين

سمّوه "السابع" فطرد رئيس البوليس السرّي، وبعد ذلك صار يسمّى "الرقم الأول".

وكان دينيكين يدخل الرواق الصغير المضاء بشمعة وينزع كالوشَيْه الجِلْدِيّين بعقبيهما المؤطّرين بالبرونز، ويخلع بنفسه دائما وبدون معونة أحد معطفه العسكري الجوخ العريض ببطانته القرمزيّة، ويصفّف شعره الشائب المسرّح إلى الخلف بلمعته الرصاصية، ويتقدم لينحني على يد كاترينا الكسييفنا. ويأخذ بين يديه يد ابنتها الصغيرة النحيلة الجميلة، ويربت عليها بلطف، ويتوجّه بتحية مقتضبة ناعمة: "مرحباً، أيها السادة" إلى اللاعبين الآخرين وهما مرافقة الأمير لوبانوف روستوفسكي، وفاسيلي فاسيليفيتش ستروبه الرئيس السابق لقسم في إحدى الوزارات، وهو رجل عجوز لطيف المعشر من بطرسبورغ.

وفي غرفة الاستقبال تكون الطاولة قد أعدّت، ووضعت عليها شمعتان، وشدّة الورق يشكل مروحة على الجوخ الأخضر. وحتى قطع الطباشير والمماسح المستديرة كانت تقليديّة كتلك التي كانت في الاعوام المنيرة في جزيرة فاسيليفسكي.

وكانت كاترينا الكسييفنا البادية المرح دائما، القصيرة القامة جداً، الممتلئة بافراط في الجزء الأسفل من جذعها تقبل متهادية نحو الطاولة بثوبها الأسود الملبوس كثيرا، ووجهها المستدير ضاحك، وفمها الكبير يهمس بلطافة، وكان الكرسي القديم المعوَّج يصرف تحتها دائما من جراء تململها، وكانت تضع تحته مصطبة صغيرة لتضع قدميها عليها. وقبل سحب الورقة التي تحدِّد شريكها في اللعب كانت تخمِّن، وفي كلّ مرّة يصادف أن يكون القائد العام شريكها. وكانت تصفّق مرحة أمام أنفها:

ـ ها قد حزرت، كما رأيتم، أيها السادة... كاتيا، شريكي في اللعب أنتون إيفانوفيتش مرة أخرى...

فيقول فاسيلي فاسيليفيتش بصوت كئيب:

ـ ممتاز!

ويجلس مختاراً لنفسه طبشورة وممسحة.

وفاسيلي فاسيليفيتش بارد الدم ملمّ بكلّ شيء شكوكي، حاضر البديهة ذو وجه نحيل صارم بدا عليه الهرم المبكر، وكان منافساً خطرا للغاية في لعبة "الفينت" يعامل هذه اللعبة بلياقة صارمة مثل جميع البطرسبورغيّين. وعاد يقول:

ـ ممتاز، كما قال مستشار حكومي وهو يتخلّى عن أوراقه الرابحة.

وتأخذ أصابعه الناعمة بأظافرها الصلبة بتمشيط الورق بسرعة.

وكان اللاعب الرابع، الأمير لوبانوف روستوفسكي، رغم شبابه، شغوفاً بالفينت أيضا. وكانت واجباته كمرافق القائد العام تقتصر على ذلك وعلى بعض المهمّات الشخصيّة. وكان هناك أشخاص آخرون من نمط حديث يقومون بالأعمال التنفيذيّة. وكان الأمير، مثل جميع آل لوبانوف روستوفسكي، قبيحاً له جمجمة مستطيلة صلعاء، وجبهة ضخمة وقسمات وجه لا تلفت النظر. وكان الأمير رفيع التهذيب، إذا أغفلنا نقيصة وحيدة، وهي دفع رجليه الطويلتين تحت الطاولة كما لو كان متضايقا من امتلاء مثانته. ولم يحدث البتّة أن أعرب عن رأيه، وإذا سئل عن شيء أجاب ببلاهة غير متوقّعة، لأنه كان يدرك جيّداً أنهم لن يتوجّهوا إليه بأمر جدي. وكان خدوما، وفي هذا الصيف، وقبل أن يجرح ويعفى ابدى شجاعة في المعارك.

كانوا يلعبون وكأنّهم يؤدّون طقوساً. وكانوا لا يتطرقّون إلى السياسة أو الحرب في تلك الساعات التي يقضونها في هذا البيت. فكان لا يسمع غير "ديناري... كوًبه... من غير ورقة رابحة، اثنتان من غير ورقة رابحة". فرقصت الشمعة، وأرسلت الدخان سيكارة موضوعة على حافة منفضة زجاجيّة. وأخيراً:

ـ إذن، هل نستسلم، يا كاترينا الكسييفنا؟

ـ مؤسف، آه مؤسف، يا أنتون إيفانوفيتش...

وكانت كاترينا الكسييفنا الإبنة جالسة في الغرفة على أريكة صغيرة مغلفّة بقماش البلش، تحوك وتبتسم دون أن ترفع رأسها... كان وجهها وعيناها، وشعرها بلا لون، وكان في انحناءة جيدها الرقيق، وفي يديها الجميلتين ظمأ إلى الحنان لا يبلّ. كانت كاترينا الكسييفنا الصغيرة سريعة التعرّض للحُبّ، في عامها السادس والعشرين، وكانت كلّ علاقاتها العاطفية تنتهي نهاية محزنة، أحدهم جاء يودّعها على عجل، ويرحل إلى الجبهة، والثاني بوغتت بأنّ له عشيقة، وقد أعلن عن ذلك دون شفقة وهي الآن واقعة في غرام لوبانوف روستوفسكي الدميم، واللطيف مع ذلك.

وكان يغازلها مازحاً، وكان ذلك يسرّ القائد العام الذي كان يعامل كاترينا الصغيرة معاملة الإبنة تقريبا. وكانت تحلم على الطريقة القديمة بأن ينسى الأمير علبة سجائره وفي صباح اليوم التالي، وبغياب كاترينا الكسييفنا الأم، يظهر أمام شبّاك البيت راكباً فرسه، ويدخل البيت، ويحيّيها صافقاً مهمازيه (وهي في فستان صوفي أسود ذي ياقة بيضاء وكفّين بيضاوين في طرفي الكمين)، ويعتذر، وتجمد إحدى نكاته على شفتيه قبل أن

يكلّمها، ويتفرّس في وجهها، ويفهم. ويدخلان غرفة الإستقبال، والإنفعال يعتمل في نفسيهما... وفجأة يمسك عضد ذراعها، ويجذبها إليه، ويقول بادي الانفعال "لم أعرفك، أنت مختلفة تماما. أنت شذيّة الرائحة..." وبهذه الكلمة كان تحليق خيالها ينقطع. كانت كاترينا الكسييفنا تحوك وتبتسم دون أن ترفع عينيها إلى الأمير الجالس بين الشمعتين. كان يكفيها أن يكون موجودا في الغرفة، وإنّها تشمّ رائحة تبغه الطيّب...

كان ذلك هو العالم الصغير المتقطِّع من روسيا القديمة، والذي كان القائد العام يستريح فيه أيام الجمع من المتاعب الثقيلة.

اليوم جاء القائد العام متأخِّراً خلافا لعادته، وقد بدا عليه الاستغراق وشيء من الذهول. وبينما كان يخلع كالوشَيه وطأ رجل قطة كانت تحوم عند قدميه. وزعقت القطة بصوت كريه. اختطفها لوبانوف روستوفسكي، وحملها إلى المطبخ. ضحكت كاترينا الكسييفنا الأم، وقال فاسيلي فاسيليفيتش "توجد قطط لا تطاق". وانتظر الجميع أن يدخل دينيكين غرفة الاستقبال، إلا أنه علّق معطفه غارقا في أفكاره، وظلّ واقفاً، جاذبا شعر لحيته الشبيهة بالإسفين في شكلها. عندئذ بدا الجدّ على جميع الوجوه. واستمرّ الصمت المقلق حتى جاء الأمير وأعلن أن القطة في حالة جيّدة. قال دينيكين:

ـ اها... هذا حسن... دعونا لا نضيّع الوقت.

ولعب أسوأ من المعتاد، ملقيا الورقات التي لا ينبغي إلقاؤها، متلفتاً طوال الوقت نحو النوافذ رغم أنّها كانت مغلقة بالصفاقات. نهضت كاترينا الكسييفنا الصغيرة بهدوء، وألقت

معطفها على كتفيها، وخرجت إلى الفناء لتتأكّد من أن الحراس في أماكنهم. اصطكت أسنان المخبر الذي كان جالساً على السطح وراء المدخنة حيث كانت الريح اللاذعة تصفر، وإلى الأعلى كان الهلال الكدر يغوص في السحب كالمجنون ثم يظهر، وصاح المخبر:

ـ أيتها الآنسة، أجلبي لي شيئاً من الفودكا بحقّ الرب... وفي حوالي العاشرة وصلت سيارة. وضع القائد العام أوراقه، ولمعت عيناه المجهدتان. دخل الجنرال رومانوفسكي طويلاً مورّد الخدين متشامخاً يرتدي معطفا من معاطف الضباط وقد تصالب على صدره طرفا قلنسوته القوزاقية. خلع الجنرال قبّعته، وضرب مهمازيه بطريقة جافّة، وانحنى انحناءة عامة للجميع:

ـ أنتون إيفانوفيتش، جئت لآخذك.

ـ إذن فقد حصل؟

ـ بالضبط، يا أتون إيفانوفيتش.

أسرع دينيكين يقول:

ـ سأعود، يا سادة، فاعذروني، فإنّها الظروف وفي الرواق لم يستطع أن يدخل يده في كم معطفه إلا بعد محاولات أبقَ، يا امير،هنا، والعب بعض الوقت... إذن لا اودّك، يا كاترينا الكسييفنا...

عاد اللاعبون إلى الطاولة، ولكن رغبتهم في اللعب قد زالت. تنهدّت كاترينا الكسييفنا الأم تنهيدة مكبوتة. عقد فاسيلي فاسيليفيتش حاجبيه الكثيفين، ورسم على المفرش الجوخ بالطباشير مشانق صغيرة وعفاريت. وجلس الأمير على الأريكة قرب كاترينا الكسييفنا الإبنة، فتألّقت، وتركت حياكتها. بدأ

الأمير، وهو يهزّ ساقه، يحدّثها بأنه اكتشف هنا قارئة بخت مدهشة، ويودّ أن يسألها عن أنتون إيفانوفيتش.

ـ إنها تأخذ شعرة من رأسك وتحرقها من الشمعة فيظهر الزبد من فمها....

ـ تنبّأت بسفر على الحصان، وبأنني سأجرح ثلاث مرات، ولكن كلّ شيء سينتهي بزفاف..

وحرّك رجليه، وتمايل وكأنّ أحداً كان يهزّه من وراء كتفه، وأخذ يغصّ بالضحك. تورّدت رقبة كاترينا الرقيقة وأذنها. وقالت كاترينا الكسييفنا الأم، وهي تمسح عينيها:

ـ كلّ شيء مقلق حقاً، وأعصاب الجميع متوتّرة... يا إلهي، لم نتصوّر البتّة أننا سنكون بهذه الحال...

ـ نعم، نعم، كنّا نتصور القليل أجاب فاسيلي فاسيليفيتش، ورسم فأسا ومقصلة روسيا بلاد عجيبة...

ووفى القائد العام بوعده، فحين دقّت الساعة الإنكليزية الصغيرة بعلبتها دقاً خفيفاً معلنة الحادية عشرة بربرت السيارة خلف النوافذ، وعاد أنتون إيفانوفيتش دينيكين يخلع كالوشَيه، ويقول:

ـ كنت أعرف، يا كاترينا الكسييفنا أنك قد هيّأت اليوم ديكا روميّاً مع الكستناء... إذن، أرجو أيها الأمير العزيز أن تخرج من سيارتي زجاجة شمبانيا..

كان بادي الحيويّة، يفرك يديه، إلاّ أنّه رفض اقتراح إكمال اللعبة "اتركوها، أنا وكاترينا الكسييفنا نستسلم مقدما، منقذين شرفنا فقط". بل وتناول سيجارة من علبة سيجائر فاسيلي فاسيليفيتش الذهبيّة، وشرع يدخن. وهذا شيء لم يحدث معه

البتّة. واستعجلوا في إعداد العشاء، ودخل الجميع غرفة الطعام الصغيرة، حيث كانت شمعتان تضيئان بضوء رقيق، وعلى الطريقة القديمة، أوراق الحيطان الرخيصة، وعلى المائدة صفّت أوان مثلّمة عليها معجون اللحم والمشهّيات. وكان الشيء الوحيد المفقود هو سمك الجلكى مع صلصة الخردل، وهو الطبق المفضّل لدى أنتون إيفانوفيتش. كما لم تكن أيضاً الطمأنينة المعتادة، حين كان اللاعبون بعد انتهاء اللعب يتحلّقون حول المائدة متابعين الجدل: "أؤكّد لك أنّه عليك أن تلقي البستوني..." أو "يا سيّدتي كنت أعرف أنّ في يديه آساً وملكاً وملكة بينما كنت تضربين قدمي من تحت الطاولة..."

أحسّ الأمير ببعض التوتّر فلفت الانتباه إليه بشهامة إذ أخذ يتكلّم عن بوّاب في بطرسبورغ، كان يملك قوة غامضة لمعالجة وجع الأسنان، والحروق والإلتهاب الجلدي، وبالمناسبة، أنّه تنبّأ بالحرب الألمانيّة، وهو ينظر في صحن فيه ترسبات القهوة. ولم يكن ذكر الحرب في محله تماماً. فأسرع فاسيلي فاسيليفيتش في تناول القارورة، وصبّ الفودكا قائلاً:

ـ يتعيّن علينا أن نشرب نخب ألا تحرم روسيا من البوابين المدهشين...

وفي ذلك الوقت جلب الديك الرومي. ألقى القائد العام ظهره على المقعد، وراقب ببصر حاد دخول هذا الطبق، ووضعه على المائدة بين الأواني المتزاحمة، وقد تصاعد البخار منه إلى ضوئي الشمعتين فتمايلا تمايلا خفيفاً.

قال القائد العام واقتطع لنفسه الجناح:

ـ في روسيا فقط توجد مثل هذه الديكة الروميّة.

نهض الأمير، وفتح زجاجة الشمبانيا دون أن يحدث صوتاً، وصبّها في أقداح الشاي. خلع أنتون إيفانوفيتش فوطة الطعام من وراء ياقته ببطء، وتناول القدح، ونهض ممسكاً بمقعده، وقال:

ـ أيها السادة، لا استطيع أن امنع نفسي من إخباركم بأخبار سارّة... بأنّ القوات الفرنسية قد نزلت صباح اليوم في أوديسا، واحتلّت القوات اليونانية خيرسون ونيكولاييف. إن معونة الحلفاء التي انتظرناها طويلا قد جاءت أخيراً...

في يكاترينودار هبطت طائرة إنكليزية نزل منها رجل غريب جدا حتى أنّ الدوائر الحاكمة وذات النفوذ لم تعرف ماذا تعتبره: أهو عميل سري لكليمانصو، أو مجرّد مغامر، أو ربّما شخصيّة خطيرة الشأن. وكان اسم عائلته فرنسياً: جيرو، واسمه بيتر بيتروفيتش، وكان يتكلّم الروسية بلهجة جنوبية، وبطلاقة، ويحمل جواز سفر أورغوائيا، رغم أنّ هذه الحقيقة لم تكن تشير إلى قوميّته، بقدر ما تشير إلى قدرته على التغلغل بدهاء. وكان قد جاء من باريس على ظهر باخرة افرغت في نوفوروسيسك حمولة من البنادق والذخيرة ومعدات أخرى. وكانت الوثائق التي قدّمها لآمر المدينة العسكري في غاية الضبط، وهي رسائل توصية من نواب في البرلمان، ورسالة من وزير الشؤون الكنسيّة، ورسالة أخرى من كونتسية فرنسية يصعب تلفّظ إسمها، وبطاقة صحفيّة من جريدة "لو بيتى باريزان" وأخيراً عروض عمليّة من دوائر مختلفة أخذت في ذلك الوقت تطلع كالفطر على الاحتياطات الضخمة من كلّ أصناف البضائع والحمولات السريعة التلف الموردة إلى فرنسا من كلّ أنحاء العالم.

وجد القائمون بالأمر أنفسهم أمام حقيقة واقعة مهما قلبوا الفكر: فهذا رجل قادم من باريس إلى يكاترينودار النائية التي ما تزال تحتفظ بآثار معارك آذار والصيف، وكأنه نازل من السماء، رجل أنيق اللباس، أوروبي بكامل قيافته، في سترة قصيرة لها ياقة من فراء الظربان الأمريكي، ولفاح زاهي الألوان يغطي صدره كلّه، يحمل حقيبتين جديدتين، وآلة تصوير معلّقة على كتفه. وكان ينتعل حذاء أصفر بديعا ذا نعلين سميكين بارزين لم يستطع حتى الآمر نفسه أن ينتزع بصره عنه، فكيف بجمهور الناس في الشارع، حيث سار بيتر بيتروفيتش جيرو وراء قوزاقي يحمل حقيبته رافعا رأسه بقبّعته الرمادية الفاتحة الممالة بأناقة.

أنزلوا هذا الأجنبي في أحسن فندق، وفي غرفة "لوكس" بعد أن أفرغوها من المسافر المضارب بابريكاكى وفتاته. وفي اليوم التالي قام جيرو بزيارة الجنرال دينيكين.

اضطرب أنتون إيفانوفيتش دينيكين، وأرسل إليه الجنرال رومانوفسكي إلى غرفة الإستقبال معتذرا بأنّ القائد العام قد ألمت به وعكة خفيفة ولكنّه سعيد من وجود ضيف بارز في بلدته.

فذهب جيرو لزيارة البروفيسور كولوغريفوف أحد سلاطين دوما الدولة، والذي يحيط دينيكين هنا بجوّ الأفكار السياسيّة تحت إسم "المجمع الوطني". وكان البروفيسور كولوغريفوف يعرف باريس جيّدا، ويحبّها فأبقى جيرو العزيز عدة ساعات متذكّرا بنشوة الغداءات في المطاعم الصغيرة والترفيهات الليليّة في مونمارتر. وتذكّر رائحة البولفارات، وعلى الرغم من بطنه المترهّل ولحيته الشعثاء الكثّة فقد لاحت على وجهه بشاشة فتيّة.

- شير آمي[١٤] - هتف البروفيسور كولوغريفوف وهو يلوي أزرار سترة الضيف علامة على الألفة أنك ستجد أناس أدركوا قبلكم في أوروبا الخطر المريع لآلة فرم اللحم الحمراء... إن البلشفيّة هي حقد الطبقات الواطئة المخرّب لكلّ شيء، وضراوة حثالات البشريّة... إنّكم تؤدّون انحناءة الاحترام إلى الاشتراكيّة ولا يسلم من ذلك حتى أحسنكم وأكثركم ذكاء. هراء! وابتذال! توجد اشتراكية، ولكن لا يوجد اشتراكيون، لأنّ الاشتراكية غير قابلة للتحقيق... وسنثبت لكم ذلك! روسيا مدعوّة بإرادة التاريخ إلى أن تكون حاجزا ستتحطم عليه الموجات الأبدية للفوضوية. وبهذا ندفع لذلك جلودنا، ونعطي الإمكانية لتطوّر هادئ للحضارة الأوروبية... ومن أجل ذلك، من أجل إنقاذ أوروبا والعالم أجمع من الشبح الأحمر نبسط لكم أيدينا، فمدّوا لنا يد المساعدة... نحن مستعدّون للقيام بأيّة تنازلات، فإن روسيا تتحمّل كلّ تضحية... وهذا ما يجب أن تكتب عنه...

واقتضى الفطور كثيرا من المشاغل، فلم يكن في يكاترينودار شيء من الأطعمة الرهيفة المذاق، لا شيء غير شحم الخنزير المقدّد والوز ولحم الخنزير، وأنت لا تستطيع أن تطعم الباريسي لقم العجين واللحم! واقترح فون ليزه عضو "المجمّع الوطني" والمعروف بذوقه الرهيف قائمة طعام تتألّف من حساء اللحم والفطائر، وطبق متلوت من سمك البربوط بالنبيذ الأحمر، وطبق ثالث، هو دجاجة مسلوقة في مثانة خنزير بدون أية قطرة من الماء. وحصلوا على نبيذ جيّد عن طريق المضارب

(١٤) يا صديقي العزيز كما تنطق بالفرنسية. المترجم.

بابريكاكى. وفي تمام الساعة الواحدة اجتمع ستة أشخاص من ضمنهم بيتر بيتروفيتش جيرو في شقة شولغين عضو دوما الدولة ومحرّر وناشر صحيفة "رودنايا زيملا". وكان الفطور رهيفا حقاً. وحين قدّمت القهوة المصنوعة من الشعير المحمّص، أخذ جيرو يدلي ببيانه:

ـ سأحدّثكم ببعض الكلمات عن باريس، أيها السادة... أنتم على معرفة جيّدة بها. كان الأجانب يتركون فيها كلّ عام أكثر من أربعة مليارات فرنك ذهباً. فلا عجب أن تدير الرؤوس الأبخرة المتصاعدة من شوارعها، ومن ذلك رؤوس الحالمين الناظرين إلى سيول السيارات اللامعة من علو نوافذ العلّيات. والآن، وا أسفاه، لا وجود للحالمين في باريس، فإنّ جثثهم تتفسّخ ملّوثة الهواء على نهر سوم، وفي شمبانيا، وفي أردين. لم تعد باريس مدينة المرح، حيث يرقص الناس في الشوارع، ويقهقهون بكلّ حناجرهم على لحية الملك ليوبولد، أو على غراميات الغراندوق الروسي الفاشلة. إنّ باريس وفرنسا قد فقدتا مليوناً ونصف مليون رجل صرعوا في الحرب وباريس مملوءة بالصبيان الذين يحترفون اللواط. وعلى سطيحات المقاهي لا يجلس إلا الشيوخ الكئيبون الذين لا يثيرون الإهتمام حتى بين المومسات مِمّن يتقاضين للخلوة بهن عشرين فرنكا. وتسير سيّارات الأجرة التي بعجت مقرقعة على الأرصفة المهشّمة. وما يزال الجنود الأمريكيّون العرمون كالخيول المستريحة يقبّلون في المطاعم والمقاهي الفاخرة. النساء! أوه، النساء دائما في المقدّمة. فَطول فساتينهن إلى حدّ الركبة وألغين الملابس الداخلية.

أصوات حول المائدة:

ـ أوضح أكثر، أرجوك.

ـ في المساء تخرج النساء إلى المسرح والمطعم متغطّيات من الخارج فقط بما لا وزن له، وبعبارة أدقّ أنّ فساتينهن ليست إلا قطعتين ضيّقتين من القماش ربطت به تنورة قصيرة. وكلّ رشاقتهن في سيقانهن العارية، وسيقان الباريسيّات فاتنة. فما الحاجة إلى الملابس الداخلية، إذن؟ اللعنة! لقد تحمّلنا الحرمان في الخنادق من أجل شيء ما! ولكن كلّ هذه الأشياء توافه. إنّ باريس اليوم هي المدينة المنتصرة. وهي كئيبة، شوارعها غير مكنوسة جيّداً، إلا أنّها مشحونة كلّها بالأحاديث المقلقة ذات الوجهين. كسبت باريس الحرب العالميّة، وهي تستعد لتكسب الثورة المضادة على مستوى العالم.

قال ثلاثة مِمّن حول المائدة "برافو" بصوت خافت. وامتنع الرابع عن التعليق لأنّه كان مشغولا بصنع كرة من فتاة الخبز. أما الخامس فهزّ كتفاً واحدة بحركة غامضة أشفعها بابتسامة غامضة أيضاً.

ـ باريس اليوم مغارة نمر هائج. وكليمانصو متعطّش للانتقام. وقبل أن يعقد الصلح وهذا لن يحدث قريباً ستعاني المانيا جميع اهوال حصار الجوع. وستقلع أنيابها وتقلّم أظفارها إلى الأبد. وقد قال كليمانصو في حديث شخصي له "سأقتل لدى الألمان حتى الأمل في أن يصبحوا أكثر من بلاد بلا مقام. وكمّية البازلاء والبطاطس التي يملكونها لا تقيهم إلا من الموت جوعا". ولكن كليمانصو، أيها السادة، كان قبل خمسين عاما يعاني من ذلّ الرعب أمام كومونة باريس إلى جانب ذلّ العار في سيدان. وذات

مرّة، في حفلة فطور للصحفيّين استغرق في الذكريات، وتحدّث عن الأثر الذي خلّفته في نفسه رؤيته لقطع عمود الإمبراطور العظيم المقلوب في ساحة فاندوم. وكان الكومونيّون قد أطاحوا بهذا العمود بمعونة عدد كبير من الحبال والرافعات. فقال "لم يصعقني التهديم بل الفكرة التي حمّست العمال الفرنسيّين للقيام بذلك. إنّ خطراً مميتاً يزحف على الحضارة، وفي الإمكان إبعاده، ولكنه سيعود، وسيعود في اليوم الذي يوضع فيه السلاح في يد الشعب. وسيكون ذلك يوم ثأرنا لسيدان، يوماً سيتعين علينا فيه أن نحارب في جبهتين". أيّها السادة، لقد تبّين أنّ كليمانصو كان على حقّ. إلى باريس يعود المسرّحون من الجيش. وقد مرّوا بفظائع فردن وسوم، واقامة المتاريس والقتال في الشوارع بالنسبة لهم مجرّد تسلية. إنّهم في كلّ الحانات يجمعون حولهم المستمعين ويصرخون بأنهم قد خدعوا. فالذين حاربوا تسلّموا أشرطة ونياشين وسيقانا إصطناعية، أما الذين حاربوا من أجلهم فقد كسبوا المليارات من النقود الصافية... والبورجوازيون الذين دمّرهم التضخم النقدي يقرعون الأنخاب مع المتذمّرين. وضواحي باريس مضطربة. والمصانع معطّلة، وقوات حامية باريس يشوبها الغموض. وفي ألمانيا فوضى الثورة ولا يكاد الاشتراكيون الديمقراطيون يتحملون ضغطها. وهنغاريا ستعلن السوفيّيتات، أنّ لم يكن اليوم فغدا... وإنجلترا تعاني من شلل الإضطرابات، وحكومة لويد جورج تجاهد فقط لأن تسوق المركب بين الصخور على الجانبين. وأنظار الجميع مصوّبة نحو كليمانصو. فهو وحده يدرك أنّ الضربة القاضية على ثورة أوروبا كلها يجب أنْ توجّه في بلادكم، في موسكو. إن الصيّادين

الايطاليّين حين يخرجون الإخطبوط من الشبكة يقرضون بالأسنان مثانته الهوائيّة فترتخي أطرافه بمصاصاتها الفظيعة عاجزة عن الحركة...

تشعثت شعور الجالسين حول المائدة، وعرقت نظّاراتهم فخلعوها. وحين توقّف جيرو ليقضم نهاية سيغار جديد انهالت الأسئلة عليه:

ـ كم فرقة فرنسيّة أُرسلت إلى أوديسا؟

ـ هل ينوي الفرنسيّون التوغّل في عمق البلاد؟

ـ هل يعرفون بالاخفاقات الأخيرة في باريس في هجوم كراسنوف على تساريتسين؟ وهل ستقدّم المساعدة لكراسنوف؟

ـ هل تمّ تقسيم مناطق النفوذ في روسيا؟ وبالمناسبة من ينوي أنْ يساعد بشكل جدّي جيش المتطوّعين؟

أطلق جيرو دخان أزرق ببطء:

ـ أيها السادة، أنتم تسألونني وكأنّني كليمانصو نفسه. أنا صحفي. وقد أبدت عدة صحف اهتماما بالمسألة الروسيّة، فأرسلتني إليكم. إنّ مسألة المساعدة المباشرة بالقوّات تتعقّد. ولويد جورج لا يريد أن يثير الأعصاب بلا فائدة. فلو أرسل إلى نوفوروسيسك مجرّد كتيبتين من المشاة الإنجليز فإنه سيخسر دزينتين من الأصوات في الإنتخابات التكميليّة إلى البرلمان. ومعلوماتي الأخيرة هي كالآتي: أسرع لويد جورج بالسفر إلى باريس على طائرة، مفضّلاً هذه الطريقة في التنقّل جوّاً لاحتمال وقوع انفجار في البحر لأنَّ المانش قد امتلأ مرّة أخرى بالالغام العائمة بسبب العواصف، وقبل أيام قليلة أعرب في مجلس العشرة عن الأفكار التالية: إنّ الأمل في انهيار سريع للحكومة

البلشفيّة لم يتحقّق، وهناك معلومات تقول أنّ البلاشفة أقوى الآن من أي وقت مضى، وأنّ نفوذهم بين الشعب قد قوي، وحتى الفلاحون يتواجدون إلى جانب البلاشفة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ روسيا البلشفيّة قد عادت إلى حدودها الطبيعيّة في زمن دولة موسكو في القرن الخامس عشر وأنّها لا تشكّل خطراً جدياً على أحد فإنّه ينبغي أن يقترح على حكومة موسكو أن ترسل من يمثّلها إلى باريس، ليمثّل أمام مجلس العشرة على غرار ما فعلت الإمبراطورية الرومانية حين استدعت زعماء المقاطعات البعيدة الخاضعة لروما ليقدّم هؤلاء تقارير عن أعمالهم... هذا هو، أيّها السادة، وضعنا في الغرب... هل لديكم أسئلة أخرى؟..

وبعد عدّة أيام من هذا الفطور (الذي أدخله البروفيسور كولوغريفوف في الحوليّات) أعلن الآمر العسكري في تقريره للقائد العام:

ـ مقابل فندق "سافوى" تماماً، يا صاحب السيادة، فتح محلّ مشروبات لا يقبل إلا الذهب والماس، ويدفع لقاءها أثمانا غالية للغاية من عملة الدون... ونوعية النقود مشكوك فيها، لأن الأوراق النقديّة جديدة....

قال دينيكين غاضباً وهو ينظر في ألواح الطبعة التجريبية للنشرات العسكريّة:

ـ أنت تشكّ دائماً، يا فيتالى فيتاليفيتش. ها أنت مرّة أخرى جلدت يهوديّاً دون علمي، بينما ظهر أنّه لم يكن يهودياً على الإطلاق، بل صاحب أراض من مقاطعة أورال... بين سكان هذه المقاطعة يوجد أناس شعرهم أسود، بل وحتى لهم شبه بالغجر... آه، يا لك!..

ـ أعتذر، يا صاحب السيادة. حصل التباس... لنعد إلى محل المشتريات، هذا الترخيص مسجل باسم المضارب بابريكاكى من سكان يكاترينوسلاف، بينما اتضح لنا أنّ صاحبه الحقيقي الذي وظّف فيه رأسمالا مشكوكا في قيمته هو (وهنا انحنى الآمر الانحناءة التي تسمح بها سمنته) الفرنسي بيتر بيتروفيتش جيرو...

ألقى دينيكين الألواح على الطاولة:

ـ إسمع، أيها العقيد، لعلّك تريد أن تفسد علاقتنا بفرنسا بسبب صغائر، بسبب سلاسل وخواتم صغيرة! وماذا فعلت أيضاً مع هذا المحلّ؟

ـ ختمته...

ـ أسرع على الفور، وفض الختم، واعتذر... بحيث...

ـ سمعاً.

ـ وسار الآمر على أطراف أصابعه، وغاب بكرشه وراء الباب. وبعد ذلك ظلّ القائد العام ينقر بأصابعه على المنشورات العسكريّة وقتاً طويلاً وشارباه الأشيبان يرتعشان

ـ شعب ماكر!

قال ذلك، ولم يكن واضحاً أي شعب يقصد به: شعبه أم الشعب الفرنسي...

١٥

في ضيعة بروخلادنى كانت في انتظار فاديم بيتروفيتش روتشين خيبة أمل جديدة. رأى الباب الخارجي للبيت الذي عاشت فيه كاتيا مع عائلة كراسيلنيكوف مفتوحاً على مصراعيه، وقد غطّى الثلج النقي على آثار الأقدام كلّها، وتكوّم على عتبة البيت المهجور كومة ثقبتها قطرات الذوبان.

لم يستطع أحد أن يقول لفاديم بيتروفيتش روتشين إلى أين رحل كراسيلنيكوف مع المرأتين. لم ينفوا أنّ شخصاً يدعى كراسيلنيكوف كان يعيش هنا، ولكن لا أحد يعرف من أين هو، ولا القرية التي جاء منها، فإن ناساً كثيرين من شتى الأنحاء قد جاءوا إلى الهايتمان ماخنو.

في البيت رائحة موقد بارد، وعلى الأرض قاذورات، وقد تسرّب الثلج من النافذة المحطّمة. وعند الحائط تختان عاريان. ولم يبق من كاتيا الراحلة ولو مجرّد ظلّ على الحيطان المقشّرة. وبعد الجهود الكثيرة تقاطع طريقاهما، ولكنه جاء متأخراً.

جلس فاديم بيتروفيتش على تخت قد صنع من ألواح غير مسحوجة. أيّاً من التختين كان تخت الزوجيّة، هذا أو ذاك؟ ألكسي رجل جميل وقح... "بكيت، وكفى. إمسحي الآن عينيك" قال لها بلهجة غير فظّة فقد كان أذكى من أن يكون

غليظاً مع سيدة محترمة قال بمرح وبشكل قاطع... وهدأت القطيطة، واستجابت وخضعت. وبشيء من الخجل والإحتشام تركته يفعل بها كلّ ما يشتهي... وفي أغلب الظنّ لم تنطح الحائط برأسها! التصقت به والتفّت حوله مسلوبة الإرادة وبلا عاطفة كما يلتف اللبلاب الشاحب ذو الأزاهير المرّة حول جذع شجرة...

دار فاديم بيتروفيتش في البيت، واطئاً علباً فارغة للمعلّبات. تخيّل فالت فاسق، كذب! عاد فاديم يقول لنفسه لابدّ أنّ كاتيا صارعت، ولم تستسلم، وبقيّت وفيّة طاهرة! إنّه لجبان، ومبتذل! أيظنّ أنّها ستظلّ نقيّة وفيّة إخلاصاً لذكراه؟ من الأفضل أن تجيب: هل ستقتل الإثنين لو رأيتهما على هذا التخت الصارف، أم ستنظر إليهما من العتبة، وترى عيني كاتيا، عالمك المفقود، وتقول "أعذراني، يبدو أنني زائد هنا..." وهذا هو امتحانك في الألم... تلك هي المحنة الرهيبة أخيراً... والآن لا تقدر أن تتحمّل أكثر؟ لا، تقدر، تقدر! ستظلّ تبحث عن كاتيا، تبحث، وتبحث...

كان كاريتنيك ذو الوجه المعوّج الذي يصاحب فاديم ينتظره في العربة. خرج روتشين من باب البيت الخارجي، وصعد إلى العربة، ورفع ياقة معطفه محتمياً من الريح. كان سائق ماخنو الشخصي وحارسه واالمنفّذ على الفور لأوامره القصيرة، هو الذي يسوق العربة. كان رجلا طويلا صامتاً يكنّى بالأخرس العظيم، له وجه قد استطال جزؤه الأسفل، وكأنه منعكس على مرآة معكوفة. وقد ساق الخيول الأربعة بعنف شديد حتى أنّ الراكب لا يكاد يستقرّ في جلسته متشبثاً بجانبَي العربة.

قال كاريتنيك رافعاً الكلفة وهو ينطّ ويتمايل ويتخبّط في العربة:

ـ كفى تكشيراً، أيها الرأس الأغبر. إذا أمر الهايتمان وجدنا زوجتك من تحت الأرض. آه، يا ربي، كأنّ ذلك شيء يقلق! النساء مصبوغات من الخارج فقط، ولكنّهن من عجينة واحدة... أبصق عليها، لن ترحل عنه. ملأ ألكس كراسيلنيكوف ثلاث عربات من الغنائم... كان فتى السريّة الأوّل في النهب والسلب، ومن حسن حظّه أنه غادر في الوقت المناسب...

ردّد فاديم بيتروفيتش مع نفسه، وهو يدفن وجهه حتّى حاجبيه في ياقته المرفوعة: "أنت تقدر، تقدر ليست هذه إلا بداية لمحنتك.."

دخلت العربة غولاي بوله منطلقة في شارعها المرصوف بالحجارة دون أن تقلّل من سرعتها. وأوقف الأخرس العظيم الخيول الأربعة العرقة عند مقرّ القيادة. وكانوا يتوقّعون روتسين هناك وسرعان ما استدعى لمقابلة الهايتمان. كان ماخنو يرأس اجتماعاً للمجلس العسكري الكبير في غرفة صفّ غير مدفأة، حيث كان أمراء الوحدات يجلسون على المقاعد المدرسيّة الصغيرة بأوضاع غير مريحة. وكان نستور إيفانوفيتش ماخنو في سترة سوداء مشدودة بحزامين أصفرين متصالبين يسير أمام المقاعد كالفهد وكان وجهه وهو صاحٍ، يبدو أكثر نحولا. وكان يضع يديه وراء ظهره ممسكا باليمنى يده اليسرى المرتخية كالسوط. وبرهة من الوقت أوقف فاديم بيتروفيتش بنظرة حادة. وقال له بصوت نافذ:

ستسافر إلى يكاترينوسلاف. وتقدّم التفويض إلى اللجنة

الثورية. وتراقب خطّة الإنتفاضة نيابة عن قيادتي. إذهب.

ـ كلّ شيء على ما يرام. التفويض معي وطوق كتفي فاديم بيتروفيتش، وقاده في الممرّ، ودفعه برَدْفِهِ إلى أحد الأبواب عليك أن تخلع معطفك. وسأهدي لك معطفاً آخر بطيّات عند الخصر ودون أن يرفع ذراعه عن كتفه فتح الباب بثلاثة مفاتيح إنه عائد لي شخصياً، ومبطّن بالفراء الفاخر. يجب أن تكسب صداقة ليفا. فمن يكن صديقاً لليفا يكسب ورقة رابحة.

وأدخل روتشين في غرفة لها نفس الرائحة الحامضة الموجودة في المركز الثقافي، واستمر في المفاخرة بنفسه وبأشيائه المتناثرة في أرجاء الغرفة، وقدّم لفاديم بيتروفيتش معطفاً جيّداً حقّاً سوى أنه مثقوب ببعض ثقوب الرصاص على الصدر والظهر. واندسّ تحت التخت وهو يلهث لبدانته، واخرج كومة القبّعات واختار واحدة من فراء الحمل لها قمّة قرمزية، وألقاها إلى روتشين عبر الغرفة واثقاً من أنّ هذا سيتلقّفها وهي طائرة. ثم أخذته نوبة البذخ فاختطف من الحائط سيفاً قفقاسياً مزيّناً بالفضّة: "وليكن ذلك ما يتقلّده، انه عائد إلى أحد الفرسان..." ثم أخذ يهندم نفسه. شد على كلّ من معصميه ساعة ذهبية بسوار وجزم سترته بحزام عليه مسدّسان "موزر" وتقلّد سيفاً له غمد تساقطت قشرته، بعد أن جرّب حدّه بأصبعه مقدّماً: "هذا... لعملي اليومي.." وأدخل رجليه في كالوشَيْن مطّاطَيْن عالِيَيْن: "مَنْ يستطيع أن يقول إنّي لست فارساً، على حدّ تعبير الناس في أوديسا الأم..." وفوق ذلك كلّه لبس فروة خروف: "لنذهب، أيّها الهر الصغير، سأرافقك..."

وأوصلهما الأخرس العظيم بنفسه إلى محطّة القطار وقال

لوفكا بحضوره، وبحيث لا يسمعه هذا:

ـ إنّه رجل ذو قوة نادرة، من المحكومين. هرب الهايتمان معه من السجن القيصري. كن حذرا معه. الوحش لا يحبّ أن ينظر الناس إليه طويلا... حتى أنا أخافه..

وانطرح لوفكا في العربة راضياً عن نفسه، منشرحاً متورّداً.

ـ أسعدك الحظ، يا روتشين. أعجبتني لسبب لا أعرفه.

... أنا أحبّ الأرستقراطيّين... قبل أيام تعيّن عليّ أن أقتل ثلاثة أخوة أمراء من آل غوليسين... تصرّفوا بروعة...

طلب لوفكا أن يجلب إلى مقصورة العربة بعض الكحول والأطعمة الخفيفة من بوفيه المحطة، واستمرّت نفس الأحاديث. خلع لوفكا فروته، وفكّ حزامه. وقال وهو يقطع شرائح سميكة

ـ أنا لا أفهم، لا أفهم كيف لم تسمع بي من قبل. أوديسا حملتني على الأيدي. في بحبوحة من الفلوس والنساء... كان الأمر يقتضي قوّة عملاقة كقوّتي، آه، الشباب! كلّ الجرائد كتبت: زادوف شاعر ساخر. آوه، أمن المعقول أنك لا تذكر؟ سيرة حياتي طريفة. أنهيت المدرسة المتوسّطة حاصلاً على الميدالية الذهبية. أبي سائق عربة بسيط من بيريسيب. بينما وصلت أنا إلى ذروة المجد رأساً. هذا شيء مفهوم فأنا جميل بشكل إلهي لم يكن هذا الكرش موجودا وجرئ، ووقح، ولي صوت فاخر ذو نبرة عالية. وسيل من المثاني الشعريّة اللاذعة. ثم أنا الذي أدخلت في الموضة السترة القصيرة، والأحذية الطويلة المصقولة بالورنيش: الفارس المتجوّل الروسي! كانت الملصقات تملأ

جدران أوديسا كلّها... ولم يبخل زادوف بشيء، وكان يهب كلّ شيء بسهولة! الفوضوية هي الحياة! وأنا منطلق في دوّامة من الدم فلا تعتصم بالصمت، أيّها الهرّ الصغير، وكن أكثر رقّة مع لوفكا، أم ما زلت غضبان؟ أجبني. الكثيرون يمتقع لونهم حين أتكلّم معهم... والذي أكون له صديقاً يصير وفيّاً لي حتى الموت... الناس يحبّونني حبّاً جمّاً.

كان فاديم بيتروفيتش يحسَ بدوار في رأسه. فبعد الصدمة التي تلقّاها في صباح اليوم لم يكن أمامه إلا أن ينبح كالكلب في برّية على ضوء قمر شاحب. وكانت المهمّة المفاجئة الأمر المقتضب الغامض إمتحاناً جديداً لقواه. وكان يدرك أنّ أية خطوة خاطئة أو مشبوهة ستكلّفه حياته، ومن أجل ذلك بعثوا لوفكا معه. ما هذه اللجنة العسكريّة الثورية التي يجب أن يذهب إليها لمراقبة الخطة؟ وما هي خطة الانتفاضة هذه؟ إنتفاضة مَنْ وضدّ مَنْ؟ كان لوفكا يعرف، بالطبع. حاول روتشين عدة مرات أن يوجّه إليه أسئلة استدلاليّة، ولكن لوفكا اكتفى بأن رفع حاجبيه إلى الأعلى وجعل عينيه تبدوان كالزجاج، وتابع ثرثرته، وكأنّه لم يسمع شيئاً، وأكل وتمطّق، دون أن يمسح شفتيه، واحمرَّ، وفكّ ياقة قميصه المطرّز.

احتسى فاديم بيتروفيتش قدحا من الكحول أيضاً، وراح يمضغ شحم الخنزير بلا تذوّق. وكبت بكلّ قواه نفوره من هذا الرجل المرعب المضحك البغيض... فمثل هؤلاء لم يصادفهم حتى في الروايات التي قرأها. وردّ مع نفسه: "يا له من متباه، منطلق في دوّامة من الدم..." وسرى الكحول في دمه، وارتخت الكمّاشات التي كانت تضغط على دماغه، دخلت لامبالاة

واثقة محل الأمر الآلي تقريباً والعديم المفعول تقريباً "تقدر، تقدر".

وقال للوفكا:

ـ على كلّ حال، كفّ عن التباله معي. لقد أعطاني الهايتمان توجيها معيّناً، وأنا رجل عسكري، ولا أحب الألغاز فخبِّرني: ما القضيّة؟

وتجمّدت على فم لوفكا ابتسامة. وكانت يده المنتفخة بمساماتها الكبيرة تتدلّى بالزجاجة فوق القدح:

ـ أنصحك بأن تقلّل من أسئلتك وتقلّل من استفهاماتك. فكلّ شيء قد نظم.

ـ يعني أنا لست موضع ثقة... إذن ما الغاية؟

ـ أنا لا أثق بأحد... وحتى بالهايتمان لا أثق... هيّا نشرب...

وفتح لوفكا فمه حتى مسّت حافة القدح حدّ أسنانه السفلى، وجرع الكحول ببطء. وفاحت من الكحول عفونة حلوة، كرائحة لحم نيئ مع سكر... هزّ شعره الغزير المشبع بالكهربة. وأخذ يقتطع فخذ الدجاجة.

ـ لو كنت في مكانك لما قبلت هذه المهمّة. ولا يهمك أن يكون الهايتمان الآمر... فهو يجب أن يستغفل. ستقع في ورطة، أيها الهر...

فرك روتشين وجهه براحتيه بقوة، وضحك.

ـ أتنصحني بأن اتملّص؟ ربما أذهب إلى دورة المياه، وأقفز من القطار، وهو منطلق؟ أهذه نصيحتك، كصديق؟

ـ تفاهة... أتظنّني أخاف الموت؟

ـ وما الداعي إلى الظنّ إذا كنت أنفذ من خلالك وأراك دودة زاحفة... اخف أسنانك وإلا خلعتها... هيا، صبّ قدحاً...

زفر روتسين زفرة عميقة بعسر:

ـ أتعرفني؟ لا، يا زادوف، أنت لا تعرفني... لو وضعت أمام الحائط لترمى، أيّها الوغد، لصرت تقبع مثل الخنزير...

كان لوفكا يهمّ بنهش فخذ الدجاج فأطبق فمه بشدة حتى ارتطمت أسنانه السفلى بالعليا وارتخى وجهه العرق. وقال بامتعاض:

ـ العكس هو الذي حصل حتى الآن. آخرون غيري قبعوا مثل الخنازير... ألعلّك أنت الذي تنوي القضاء عليَّ؟

ـ لو كنت وقعت في يدي قبل ثلاثة أشهر...

ـ لا تراوغ، أيها الضابط الأبيض، واكمل جملتك.

ـ الا تنتظر، أيها الجزار؟..

ـ أنا في انتظاره فأكمل...

وتكلّما بعجالة. والآن كان كلاهما يتنفّس تنفّسا ثقيلاً، وأقدامهما تحت التخت، وأحدهما يتفرّس في حدقتَيْ الآخر متوتّراً. قرقعت الشمعة ملتصقة على المنضدة الصغيرة المبسوطة، وأخذ الضوء يخفت. ولاحظ روتشين أنّ وجه لوفكا يربد ثم قال لوفكا له بصوت كامد الرنين:

ـ لنخرج إلى الممرّ... أخرج في المقدمة.

ـ لا أخرج...

ـ هيّا..

ـ لا تأمر، أنا لن أمتثل...

لم يبق إلا بصيص أزرق في نهاية الذبالة مثل نفس تتعسّر على الموت. والظاهر أنّ لوفكا كان يدرك أنّ التفوق في المقصورة الضيّقة سيكون إلى جانب روتشين المعروق الصغير إذا هاجم أحدهما الآخر في الظلام... جأر بصوت كصوت الثور:

- إنهض... إلى الممّر!

سحب باب المقصورة، ورفّ بصيص الشمعة، والتهب. ودخل تشوغاي.

- مرحباً، إخوان وانفرج فمه عن ابتسامة ساخرة تحت شاربيه الصغيرين، وتنقّلت عيناه الجاحظتان من لوفكا إلى روتشين

- أنا أبحث عنكما في القطار كلّه.

وجلس إلى جانب روتشين ومقابل لوفكا. وتناول الزجاجة الفارغة، وهزّها، وشمهّا، ووضعها.

- ما سبب هذه الجهامة على وجهيكما؟

- لم نتوافق بطبعينا.

قال لوفكا مشحّاً وجهه نظرته الساخرة.

- وأنت تصحبه على شاكلة مفوّض؟

- لست أنا على شاكلة شيء ما، بل أعلى... ولكن لماذا تسأل؟

- وهذا على الأكثر يقتضيك أن تفهم أي عمل مسؤول تصحب الرفيق إليه. أما الطبع فيجب أن تسيطر عليه. والآن، يا أخ، أخرج من المقصورة، فأنا أريد أن اتكلّم معه بدون حضورك.

كان تشوغاي يجلس متماسكاً، وذراعاه مطويتان على بطنه، وفخذاه متباعدان، وكان وجهه يبدو في ضوء الشمعة وردياً وكأنه من فخّار، وكانت قبّعته الصغيرة ذات الأشرطة تقف على علبائه بأعجوبة. انتظر بهدوء أن يتحمّل لوفكا الإهانة، ويخضع.

نخر لوفكا محمراً ونظر إلى روتشين نظرة متوعِّدة، ونهض صاخباً، ولمع حذاؤه الطويل الصقيل عند الباب، وخرج. ردّ تشوغاي الباب:

ـ ما الذي جعلك في غير وفاق معه؟

ـ شيء تافه قال روتشين شربنا نحن الإثنان.

ـ جوابك صحيح. ولكن أريد أن أقول لك، يا أخ، أنك قد دخلت تحت تصرّفي، فيجب أن تجيب عن كلّ سؤال أطرحه.

انتقل تشوغاي ليجلس قبالته، وبالقرب من الشمعة نشر ربع صفحة من الورق موقّع بتوقيع ماخنو ومطبوع على الآلة الكاتبة بحروف متلاصقة وبأخطاء نحوية وبلا علامات ترقيم، وقد ذكر فيه أنّ روتشين قد وضع تحت تصرّف هيئة الأركان العسكريّة الثوريّة لمنطقة يكاترينو سلاف.

ـ أهذا مقنع لك؟ (هزّ روتشين رأسه) هذا شيء جيّد خبِّرني: ما الذي جاء بك إلى هذه الجماعة؟

ـ أهذا استجواب تقتضيه الشكليّات؟

ـ نعم... حزرت. لا يجوز للمرء وضع ثقته في شخص لا يعرفه، ولاسيما في أمر مهمّ كهذا الأمر. هل توافقني على ذلك؟ (هزّ روتشين رأسه) قمت ببعض التحريات عنك... ليس هناك شيء مطمئن: فأنت عدو. عدو لدود، يا أخ.

تنهدّ روتشين، وألقى بظهره على التخت. كان ليل دامس

كالأبدية ينطلق وراء النافذة السوداء، التي انعكس ضوء الشمع على زجاجها. وأحسّ روتشين بطمأنينة، وراح جسمه يهتزّ اهزازاً خفيّاً. لقد بدأ استجوابه الثالث، والأخير على ما يبدو، والنهائي خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة أيام قضاها بلا نوم تقريباً. ومهما يكن من شيء فأيّ حقيقة كان في وسعه أن يقولها عن نفسه؟ قصّة معقدة مشربكة عن انسان قذفه أناس مجهولون خارج بيته القديم الذي ولد فيه، وخارج شارعه، ومملكته. ولكن أهذا الذي حصل؟ أليس هو الذي أمسك نفسه من تلابيبها، وقذفها في القمامة؟ ما الذي أخافه على وجه التحديد؟ وما الذي كرهه على وجه التحديد؟ وهل كان بيته القديم ومملكته المريحة القديمة ضروريّين حقّاً لسعادته؟ أوليس هما شبحين من صنع خياله المريض؟ ولو ينبش ذاكرته لن يجد في أفعاله خلال هذا العام شيئا معقولا ولا مبرّراً. في هذه المقصورة لا توجد محكمة فيها هيئة محلّفين ومحام دفاع رائع ناصية شعره الرومانطيقية. فقد كان عليه أن يقوم وجهاً لوجه بشيء مستحيل تقريبا: أن يقول الحقيقة، لا عن أفعاله كإنسان صغير، فإنّ ذلك غير مهمّ، وليس لها شأن في هذا الحديث بل عن نفسه كإنسان كبير... إنّه هنا المتّهم والحاكم في آن واحد... كما ليس مهمّاً الإستنتاج العملي من هذا الحديث إذا كان الأمر قد مس هذا الإنسان الكبير.

قال تشوغاي:

ـ ما بالك تغمغم. تكلّم بصوت مسموع.

ـ لا، أنا لست عدوا، فإنّ ذلك زيادة في التبسيط قال روتسين ضاغطا علباءه على متّكأ التخت - إنّ للعدو هدفاً، ولؤماً

وسوء طويّة.. أريد أن أسألك...

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ هيّا.

ـ هل أنا لازم لكم كأخصائي عسكري؟

صمت تشوغاي برهة متفحّصاً وجهه بظلاله العميقة والتجاويف في خدّيه.

ـ ولكن كيف ستجيب أنت عن السؤال؟

ـ أظنّ أنني لازم، وعلى الأخصّ لكم، لا للهايتمان.

ـ من الأفضل أن تخاطبني بالمفرد، فذلك يسهّل الكلام.

ـ حسناً، سأفعل.

ـ زعم الهايتمان أنّهم جنودك في صفوف جيش المتطوّعين، ولكنك فوضوي صادق، وملائم من حيث المنشأ أيضاً.

ـ كلّ ذلك كذب... منشئي غير ملائم مطلقاً. كما أنّني انضممت إلى جيش المتطوّعين بمحض إرادتي، وغادرته بمحض إرادتي.

ـ هل صرت تشعر بالعار؟

ـ لا... ولكن لماذا تلقّنني؟ لا تحسبني أحاول التشبث بقشّة، فأنا في الحضيض منذ زمان... حبّذا لو يؤمن الإنسان بالتكفير عن الخطايا الثقيلة!... ولكن حتى هذه السلوى لا أملكها...

ـ هل قمت بأعمال منكرة كثيرة؟

ـ كان، كان... طول حياتي طالبت نفسي بالصفاء، ولكن صفائي لم يكن صافيا... كلّ شيء كذلك، قد تقلّبت ظهرا على بطن، وصار الأبيض أسود.

ـ أروِ لي سيرتك، يا أخ، حسب الأصول.

ـ تخرّجت من جامعة بطرسبورغ... حقوقيّاً... آه، أنت تريد أن تعرف المنشأ... كنت صاحب أطيان، من أصحاب الأطيان الصغار... بعد وفاة والدتي بعت آخر ما تبقّى من الميراث: البيت، والبستان والقبور وراء السياج. وتركت الفوج... ثم ماذا بعد... كنت ليبرالياً، مثل جميع الذين عندهم شيء من التعقّل (وغضّ فاديم بيتروفيتش وجهه باشمئزاز) وطبيعي أنّني كنت أتعاطف مع الثورة المقبلة، وحتى في زمن الإضطرابات، العام ١٩١٣، على ما يبدو لي، فتحت نافذة التهوية وصرخت بكوكبة مارة من خيالة البوليس: "جزارون جلاوزة..." وبهذا أو نحوه كان ينحصر نشاطي الثوري...

ولم تكن بي حاجة إلى الإستعجال، فقد كنت أحيا حياة لذيذة... (وفي هذه المرة اهتز شاربا تشوغاي) لا، لا تتعجّل احتقاري... فأنا اتحدّث بصدق. فأنا على الأقلّ لم أرفع في الحفلات كأس الشمبانيا لأشرب نخب الشعب الروسي المعذّب. وفي العام ١٩١٧ كدت أجنّ في الجبهة خجلاً وعاراً. وقد قضيت عامين ونصف في الخنادق دون أن أعلن عن نفسي. ولم ألبس ملابس داخلية حريرية لأتّقي القمل.

ـ جدارة.

ـ لا تسخر. فلا داعي لذلك... (وغضّ فاديم بيتروفيتش جبينه، وخدّدت وجهه النحيل ظلال عميقة) والآن أجبني: ما هو الوطن بالنسبة لك؟ يوم حزيرانى في الطفولة، وأزيز النحل في زيزفون، وأنت تحسّ بالسعادة تنصبّ فيك كجداول من العسل... والسماء الروسية فوق الأرض الروسية.. وهل من المعقول أنّني لم

أحبّ ذاك؟ أمن المعقول أنني لم أحبّ الملايّين من ذوي المعاطف العسكريّة الرمادية تنزل من القطارات، وتسير إلى خطّ النار للقاء الموت؟... لقد عقدت اتفاقاً مع الموت، ولم أحسب أنني أبياً.. فظهر أنّه لم يكن ذلك، بل شيئا آخر... إنّه الآخرون. أجبني: ما هو الوطن؟ ما هو بالنسبة لك؟ أراك صامتاً... أنا أعرف ماذا ستقول... أنّ الناس يسألون عن ذلك مرّة واحدة في الحياة، وذلك إذا فقدوه.. آه، أنا لم أفقد شقة في بطرسبورغ، ولا مستقبلي كمحام... بل فقدت في نفسي الإنسان الكبير، بينما لا أريد أن أكون إنساناً صغيراً.. يمكنك أن تطلق النار عليّ لو رأيت ارتباكاً ولو في كلمة واحدة من كلماتي... وتصرّف ذوو المعاطف الرمادية على طريقتهم الخاصة... فماذا تبقّى لي؟ لقد كرهتهم!.. وأطبقت على دماغي كمّاشة من رصاص. لا ينضمّ إلى جيش المتطوّعين غير الانتقاميّين والشقاوات المسعورين المتعطّشين للدم "من أجل القيصر، من أجل الوطن، من أجل العقيدة نرفع أصواتنا هورا.." فننطلق بعربة غجريّة إلى مطعم "يار" لنأكل فطائر السمك...

ـ أنت، يا أخ، كعكة متهيّئة للدخول إلى فرن قال تشوغاي، وبدا المرح في النظرة المجهدة لعينيه الجاحظتين تحفة أن تتحدّث مع مثقّفين! من أين لك هذه الشربكة الدماغيّة؟ أنتم، على أيّة حال، روس، أذكياء على ما يبدو.. إذن فهي التربية البورجوازية. أنت الذي ضيّعت نفسك! أنت لا تعرف حتى هل أنت موجود أم لا.. آه، أيّها الدينيكيون! سليتني... كيف سنتفق أنا وأنت؟ هل تريد أن تعمل لا من أجل أن تبقى في الحياة، بل ليرضى ضميرك؟

ـ سأعمل، إذا كنت تضع المسألة بهذا الشكل.

ـ بدون رغبة؟

ـ قلت سأعمل، إذن سأعمل.

تناول تشوغاي الزجاجة الفارغة ثانية، ورجّها، ونظر تحت الطاولة المبسوطة، ورمى ببصره إلى الشبكة التي توضع عليها الحقائب.

ـ لتدع صاحبك إبن الكلبة ذاك وفتح الباب ونادى يا مفوّض، أين أخفيت الكحول؟ وغمز لروتشين غمزة ذات معنى لا تتساهل معه، وإذا حدث أيّ شيء صوّب المسدس إليه إنّه أسوأ رجل لدى الهاتمان.

نزل روتشين وتشوغاي ولوفكا الذي انتفخ بالشرب خلال الليل إلى المحطّة الأخيرة قبل الجسر. كان الضباب الطالع من الدنيبر يغطّي يكاترينا‌سلاف في الجانب الآخر من النهر. كان الثلاثة منكمشين من البرد الرطب صامتين. وأخيرا تحرّك القطار ودبّ عبر الجسر وعرباته تصطدم إحداهما بالأخرى. ظهرت صوفي لا يبدو منها غير عينيها السريعتي الحركة. مرّت بالواقفين ثم عادت ثانية، ثم ثالثة وهي تباطئ سيرها. قال تشوغاي وهو لا يوجّه كلامه إليها، بل غفلا:

ـ ترى أين يمكن أن نشرب الشاي؟

توقّفت المرأة في الحال وأجابت:

ـ يمكن أن أجلبه لكم، ولكن لا يوجد سكّر.

ـ عندنا سكّرنا.

عندئذ أزاحت المنديل الصوفي عن وجهها، وبدا وجهها

حلو القسمات بشكل مذهل، فتياً له غمّازة على الخد المدوّر، وفم صغير بارز الشفتين.

ـ من أين أنتم، يا رفاق؟

أجاب لوفكا بغضب:

ـ ما هذا السؤال، من أين أنتم؟ قفي عند حدّك، ولا تتآمري! رفعت الفتاة حاجبيها دهشة، إلا أنّ تشوغاي قال لها "إنهم نفس الاشخاص الذين تريد أن تستقبلهم". قفزت من رصيف القطار وقادتهم عبر دروب وقفت على جانبيها عربات محطّمة عديدة ولم يصادفهم كائن حيّ في طريقهم عبر منبسطات الفرملة، وتحت العربات حتى وصلوا إلى عربة بضاعة طرقت الفتاة ونادت:

ـ هذا أنا، ماروسيا. أتيت بهم.

سحب شقّا باب العربة بحذر، وأطل وجه ناحل صارم شاحب ذو عينين سوداوين كفحم الأنتراسيت. قال الرجل بخفوت:

ـ اندسوا بسرعة فأنتم تدعون البرد ينفذ إلى الداخل.

انسلّ الثلاثة ووراءهم ماروسيا إلى العربة. جذب الرجل شِقّي الباب سوية. كان الدفء يشيع في العربة من موقد حديدي محمّى، وكان الضوء المرفرف في علبة قديمة لطلاء الأحذية يلقي إضاءة باهتة على وجه صارم القسمات هو وجه رئيس اللجنة العسكرية الثوريّة، وعلى شخصين غير واضحين في نهاية العربة.

عرض تشوغاي التفويض، كما أنّ لوفكا أخرج ورقة صغيرة، جلس الرئيس القرفصاء قرب الضوء، وظلّ يقرأ وقتاً طويلاً. ثم قال وهو ينهض:

ـ حسناً. هذه الليلة الثالثة ونحن في انتظاركم. أجلسوا ونظر بطرف عينه إلى حذاء لوفكا الطويل الصقيل الهايتمان ماخنو لا يبدو مستعجلا.

بادر لوفكا بالجلوس على المقعد الوحيد عند منضدة من ألواح خشبيّة. واتخذ تشوغاي مجلسه على كتلة خشبيّة، وتراجع روتشين واتكأ على جدار العربة. هذا إذن مقرّ أركان البلاشفة... عربة فارغة، ووجوه صارمة تبدو من سحناتها إنها وجوه عمال سكك صامتين متوجِّسين.

تكلم الرئيس بصوت متوازن:

ـ نحن مستعدون. والشعب متحفز. ويجب أن نبدأ على الفور... وهناك معلومات تقول أنّ البتلوريّين قد تشمّموا شيئا، فقد أنزلوا في المدينة يوم أمس مدفعية ثقيلة. وهم ينتظرون قوّات من كييف. لا يوجد خونة بيننا، ولهذا يمكن أن تكون المعلومات متسرّبة من غولاي بوله فقط.

قال لوفكا بلهجة متوعِّدة:

ـ إياك، إياك.. فكِّر فيما تقول!

وفي تلك اللحظة تحرّك الشخصان خارجين من الظلمة. وتابع الرئيس كلامه بنفس الصوت المتوازن:

ـ كلّ شيء عندكم يجري على المكشوف. وهذا لا يجوز، يا رفاق... في يكاترينوسلاف بدأت اعتقالات... إنهم الآن يعتقلون لا على التعيين، إلا إنهم اعتقلوا رفيقا لنا بالفعل...

قالت ماروسيا ذلك بصوت رنّان فيه شيء من التكسير الأنثوي. وكانت تقف بالقرب من فاديم بيتروفيتش وقد ألقت منديلها على كتفيها.

ـ واستجوبه ناريغورودتسيف رئيس استخباراتهم نفسه. ومعنى ذلك أنهم في حال إنذار....

ـ ضربوا ميشكا كريفوماز بقضيب من المطاط على جبينه، وطلعت عيناه، المسكين قالت ماروسيا بسرعة، ونشجت من أنفها فجأة بتروا إصبعين من أصابعه، وشقّوا بطنه، ولم يَشِ بشيء.

وضع لوفكا سيفه بين رجليه، وقال بازدراء:

ـ عمل رخيص. أتقولين أنّه ناريغورودتسيف؟ سنتذكّر ذلك. ومن المدّعى العام هنا؟ ومن هو رئيس البوليس؟

ـ سنخبركم بالأسماء والعناوين...

أوقف الرئيس ماروسيا:

ـ لنلتزم بالنظام، يا رفاق. سيقدّم فديوك تقريراً لنا عن قوّات العدو (وأشار إلى رجل ركين حشر في حزامه ردّنا فارغاً من سترته المتّسخة) وسأقدم أنا تقريراً عن عمل اللجنة الثورية. وسأعطي الكلمة لكم عن ماخنو. والمسألة الرابعة حول المناشفة والفوضويّين والإشتراكيّين الثوريّين اليساريّين. إن هؤلاء الأوغاد يتشمّمون طعاماً طيباً، وهم كالوباء يتهيّئون للعراك من أجل مقاعد في السوفييت والآن، أبدأ، يا فديوك.

بدأ فديوك كلامه بصوت صلب عن أحداث الماضي فأشار إلى الخطط الدمويّة للبرجوازية العالميّة، إلا أنّ الرئيس قاطعه في الحال: "لست أنت في اجتماع عام. فقدّم الحقائق المجرّدة" وظهر أنّ الحقائق المجرّدة خطيرة جدّاً: فقد كان للبتليوريّين في يكاترينوسلاف. حوالي ألفي رجل من المشاة، وستة عشر مدفعاً من بينها أربعة مدافع ثقيلة. وفضلاً عن ذلك كانت توجد وحدات

لجيش المتطوّعين تتألف من العناصر البورجوازية والضباط لديها عدد كبير من الرشاشات. وحتى كيف كانت مستعدّة لتقديم التعزيزات.

واتضح من التقرير الثاني أنّ اللجنة العسكريّة الثورية تستطيع أن تعتمد على ثلاثة آلاف وخمسمائة عامل سيقفون إلى جانب المنظّمة البلشفيّة دون تردّد، وعلى دفق من الشبيبة الفلاّحية من القرى المجاورة، حيث جرى نشاط تحريضي فيها. إلاّ أنّ السلاح قليل: "يمكن القول أنّ عشر العدد مسلّح والبقية بأيدٍ فارغة".

وحين رأى الرئيس تململ تشوغاي، وتدلّي شفّة لوفكا السفلى رفع صوته وقد التمعت عيناه بلون فحم الانتراسيت

ـ نحن لا نصرّ، إذا كان الهايتمان ماخنو يخاف أن يهاجم المدينة بنفسه ليبق في غولاي بوله، عليه أن يعطينا السلاح والذخيرة فحسب.

أحمرّ لوفكا، وضرب الأرض بسيفه:

ـ لا تشوّش دماغي، يا رفيق... نحن لا نتاجر بالسلاح..

..الهايتمان يستطيع أن يشتّت الأوغاد البتليوريّين كالذباب بحركة واحدة من ذراعه....

عندئذ قال تشوغاي:

ـ لا تحتدّ، يا رفيق لوفكا. أصمت لحظة. أيها الرفاق، إنّنا توصلنا إلى اتفاق مع الهايتمان ماخنو. إنّه الآن خاضع للقائد العام للجيش الأوكراني. وجيشه الشعبي ـ الذي هو الآن الفرقة الخامسة سيهاجم يكاترينوسلاف بأمر من القائد العام، وهذا الأمر موجود في جيبي. فلننتقل إلى تنسيق العمليات... إنّ معنا أخصائيّاً

عسكرياً. يا رفيق روتشين، إقترب، أرجوك.

سافر تشوغاي في نفس الليلة عائدا إلى ماخنو في غولاي بوله. وقد أخذ لوفكا معه لكيلا ينظر العمال شزرا إلى وجهه الممتلئ، وحذائه الصقيل، وكالوشَيْهِ العاليّين، كما لم يرد أن يبقى هذا الأحمق وحيدا مع روتشين.

إلحقوا ماروسيا بروتشين للإتصال والمراقبة. ولم تكن الخطة العسكرية للجنة الثوريّة صالحة على الإطلاق، وقد أعلن روتشين ذلك في الحال وبكلّ صراحة. اقترحت اللجنة الثورية أن يقوم هو بتفقّد المدينة، ويضع خطته. فكان في كلّ صباح يعبر مع ماروسيا الدنيبر المتبخّر على زورق وسط كسر الجليد، وينزلان على الشاطئ الأيمن في ضاحية مانديروفكا. ويطلبان من أحد الفلاحين الذاهبين إلى السوق توصيلهما إلى المحطّة، ومن هناك كانا يصلان إلى المركز مشياً أو في عربة ترام.

كانت المحطة بجسرها للخطّ الحديدي تقع في الجهة الجنوبية، ومنها كانت جادة يكاترينينسكي العريضة تمتدّ عبر المدينة كلّها محفوفة بأشجار الأكاسيا الحور الهرميّة. وعلى جانبي الجادة كانت تقف أبنية جديدة ضخمة لامعة النوافذ، هي أبنية البنوك والفنادق والبريد والبرق ودوما المدينة، وكانت الجادة تصعد في مرتفع شديد نحو المدينة القديمة المحيطة بساحة الكاتدرائية. وهناك كانت تقع ثكنات الجنود.

علم فاديم بيتروفيتش أنّ ماروسيا تعدّ الخطوات، وتحدّد الزوايا بعينها، وتحفظ بشكل خاص النقاط المهمّة لإطلاق النار. وكانا بين الحين والآخر يدخلان مقهى، ويخطّطان خطّة على ورقة. وتطويها ماروسيا على هيئة ظرف وتدعكها في كفّها،

لتدسّها في فمها وتبتلعها في حالة اعتراض الشرطة لهما. إلا أنّ أحداً لم يختلس نظرة إليهما البتّة، رغم أنّ الخامل وحده يمكن أن يغيب لحظة عن ماروسيا الجميلة بمنديلها الزاهي المشدود على الطريقة الأوكرانية وروتشين بقبّعته ذات القمّة القرمزيّة. إلا أنّ الناس هنا كانوا في شغل شاغل عنهما. فإنّ السلطات البتليوريّة التي أعلنت نفسها جمهورية ديمقراطية شربكت نفسها بين لجان من شتى الأصناف الممكنة: جماعة "النضال" والاشتراكيّين، والصهيونيّين، والفوضويّين، والقوميّين، وأنصار الجمعية التأسيسيّة، والاشتراكيّين الثوريّين والاشتراكيّين الشعبيّين وأعضاء الحزب الاشتراكي البولوني والمعتدلين والمتوسّطين، ولجان لها برامج وأخرى بلا برامج. وكان جميع هؤلاء الطفيليّين يطالبون بالعلنيّة وبالمقرات والمال، ويهدّدون بحرمانها من ثقة الجمهور. وزادت الطين بلّة دوما المدينة التي كان يرأسها بابريكاكي الصغير (فإن باربريكاكي الكبير، وهو أكثر ذكاء، قد هرب إلى دينيكن). سارت دوما المدينة على سياسة الحكم المزدوج، بل وأصرّت على تأليف فوج خاص يحمل إسم حاييم سولومونوفيتش غيستوري عمدة المدينة الراحل. والمفهوم أنّ السلطات البتليورية لم يبق لها إلا مجال واحد للنشاط تطلق فيه يدها، وهو الإغارة ليلا على العمّال الشيوعيّين في شققهم وحتى هذا كان يقتصر على الذين يعيشون على الضفّة اليمنى.

وبعد يوم من التطواف كان روتشين وماروسيا يعودان بأقصر طريق عبر الجسر إلى الضاحية في الضفّة اليسرى، قاصدين بيتاً أبيض صغيراً يقع على رأس منحدر على الدنيبر.

كان الفرن في البيت متوقّداً دائماً، ورائحة أقراص الروث

المجفّف المستعمل للوقود تفوح بنكهتها الخاصة المريحة في أرجاء البيت. وكانت والدة ماروسيا تدخل ومعها شمعة سميكة من تلك الشموع المستخدمة في عربات القطار (كان والد ماروسيا يشتغل في السكك الحديدية) وتمّس الفرن بها، وتسأل بصوت خافت:

ـ هل البيت دافئ؟

ـ دافئ، يا ماما.

ـ هل تتعشّيان؟

ـ نحن جائعان كالكلاب، يا ماما.

وتتنهد وتقول:

ـ تعشّينا أنا وأبوك. فاذهبا لتتعشّيا. فالشبان جائعون دائماً.

وكانت تمشي ببطء إلى ما وراء الحاجز وكأنّ فكرها مشغول بشيء حزين يعزّ عن الوصف، وتتناول الملقط وتنحني من الجهد، وتغمغم: "بحقّ المسيح اطلع سليما صحيحا" وتخرج من الفرن قدرا حديديا كبيرا فيه حساء "البورش". وكان الأب يجلس على السرير في وضع غير مريح مدخّنا غليونه. كان وزوجته يحاولان أن يصرفا انتباههما عن روتشين الذي يطلب شيئا ما كشيء من الماء أو علبة ثقاب كان والد ماروسيا يثب من السرير بسرعة، والأم تتهيّأ متحفزة لتلبية الطلب).

كان روتشين وماروسيا يحتسيان "البورش" صابّين إياها من القدر في صحنين مثلّمين. وماروسيا لا تكفّ عن الحديث، فقد كانت انطباعات اليوم تنطبع بأدقّ تفاصيلها على الغضارة الشفافة لذاكرتها.

كانت أمّها تقول وهي واقفة عند الموقد:

ـ بحقّ المسيح، كفاك كلاما. فالطعام لا يؤدّي فائدته مع الكلام.

ـ ماما، طول النهار كنت صامتة وتنظر ماروسيا إلى روتشين بعينيها الصغيرتين الزرقاوين بصفاء والمذهولتين.

ـ أريد أن أقول لك أنّني كثيرة الكلام بشكل مريع، حتى إنّهم لم يريدوا أن يقبلوني في الكومسومول، فأين التكتّم إذا كان الإنسان يحبّ الهذر؟ واجتزت الامتحان، حين لزمت الصمت سبعة أيام بلياليها.

وكانت ماروسيا، بعد العشاء تلقي المنديل الصوفي عليها وتهرع إلى الإجتماع الحزبي. وكان روتشين يشكر على حسن الضيافة، ويذهب وراء الحاجز، إلى حجرة ضيّقة وواطئة السقف بحيث كان يستطيع إذا رفع ذراعه أن يمسّ سقفها الخشن. وكان يحشر يديه تحت حزامه، ويسير جيئة وذهاباً بين النافذة المغلقة بالصفاقة، وصوان ماروسيا المصنوع من خشب الصنوبر. وكان يحلّ حزامه ويخلع قميصه، ويجلس إلى النافذة، ومن خلال الصفّاقة، يصغي إلى كتل الجليد ترسل خرخرتها الناعمة الصماء من بعيد أثناء تحدّرها على الدنيبر. وأهل البيت وراء الحاجز آووا إلى مضاجعهم، وفي صمت البيت الصغير كان لا يسمع غير فرقعة التجصيص في الفرن، وصرصرة الجدجد، وهو يحزّ خشبة صغيرة مثل منشار ضئيل. وكان فاديم بيتروفيتش يحس براحة وطمأنينة على نحو غير متوقّع، ولم تكن تطوف في رأسه غير أفكار بسيطة عن الحياة اليوميّة.

وكان لا يريد أن ينام قبل أن تعود ماروسيا، فكان لكي يطرد النعاس ينهض مرّة أخرى، ويذرع الحجرة. وقد أعجبته كثيراً هذه

الحجرة الصغيرة للغاية، المطليّة جدرانها بالكلس. كانت أشياء ماروسيا فيها قليلة: تنوّرة معلّقة بمسمار، ومشط ومرآة صغيرة على كومودينة، وبعض الكتب المأخوذة من المكتبة... وعند الحائط سرير حديدي قصير تنازلت ماروسيا عنه لروتشين، وفرشت لنفسها لبّادة على الأرض.

صفّق الباب في الرواق، وصرّ باب المطبخ، وظهرت ماروسيا مورّدة الخدين من البرد، وحلّت منديلها وقالت:

ـ لطيف أنّك قد انتظرتني. هل تعرف الأخبار؟ سيكون ماخنو هنا بعد ثلاثة أيام. وغداً يجب أن نقدّم الخطة.. أما هذه الليلة فساحرة! ساكنة والسماء مزدهرة بالنجوم.

كانت ماروسيا مغمورة جدا بالشؤون المهمّة والانطباعات المختلفة، وبسيطة القلب كثيرا حتى أنّها كانت تفرش لنفسها على الأرض، وتخلع ملابسها بحضور فاديم بيتروفيتش دون خجل. وكانت تقذف تنورتها وبلوزتها وجوربها حسبما اتفق. وتجلس على اللبادة لحظة محتضنة ركبتها:

"آه، متعبة" وتضرب الوسادة بجمع يدها، وتستلقي ساحبة اللحاف حتى رأسها. ولكنها سرعان ما كانت تخرج وجهها بأنفه الصغير والغمّازة وهو ما يزال محتفظا بتورّده، وتلقي ذراعيها العاريتين فوق اللحاف:

ـ حرّ شديد! إسمع هل أنت نائم؟

ـ لا ماروسيا، لا.

ـ أصبح أنّك كنت ضابطاً أبيض؟

ـ صحيح ماروسيا.

ـ اليوم تجادلت... وبعض الرفاق لا يثقون بك. عندنا مثل

هؤلاء متعنتون... يرتابون حتى بأمّهاتهم... ولكن كيف لاتثق بإنسان إذا كنت صادقاً مع نفسك! أنا أفضّل أن أكون مخطئة على أن أسي الظنّ بكلّ شخص. أنا اقول لهم مع مَنْ ستقومون بالثورة إذا كنتم تسيئون الظن بكلّ من حولكم؟.. نحن نقوم بثورة عالميّة... والثورة قوة خاصة. هل تفهمون ذلك؟ تصوَّروا ماذا كان عساي أن أفعل بدون الثورة؟ أنْ ألصق العلب في مشغل للكارتون لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميّاً... والتسلية الوحيدة أنْ أقرض بذور عباد الشمس أيام الاحاد في بولفار يكاترينيسكي.. أو ربما اقتّر لأحصل على حذاء طويل الرقبة، فيا له من مكسب ثمين! وأقول لهم: كيف لا تثقون به يا رفاق؟ هبّ أنّه، وهو المثقّف، قد أخطأ وخدم طبقته، ولكنه إنسان... والثورة تجلب اناسا من أصناف أخرى أيضاً. هل يستطيع أن يتحول عن طبقته العفنة؟ يستطيع... إنه ينحاز إلينا عن وعي، ويقاتل في سبيل قضيتنا العمّالية... لابدّ أن تكونوا متعنّتين إذا كنتم لا تؤمنون بذلك... حسنا، لقد اقنعت الكثيرين.

كان روتشين مستلقياً على السرير القصير منكمشا ينظر إلى ماروسيا التي كانت تمدّ ذراعيها العاريتين تارة، وتطويهما بحرارة تارة أخرى. وكانت الحجرة الواطئة تبدو وقد امتلأت بنضارة عذرتها، وكان غصنا من الزنبق الأبيض قد جلب إليها.

ـ والأمر يختلف إذا كان يتعلّق بوجوب إعادة تكوين المثقفين الفكري.. وسنعيد تكوينك أنت أيضاً... لماذا تضحك؟

ـ أنا لا اضحك، يا ماروسيا... منذ سنين عديدة وأنا لم اشعر بأنني نافع لقضيّة خيّرة مثل شعوري في هذا الوقت...

أنا أفكّر الآن بأن اخرج مع الفصيلة الأولى للاستيلاء على الجسر.

ـ آه، أحقاً ما تقول؟

وخرجت ماروسيا من تحت اللحاف بخفّة، وجلست قربه على حافة السرير:

ـ الآن، أؤمن بأنّك معنا عن حقّ... بينما ظلَلْت أجادل وأجادل لأنني لا أملك دليلا صريحاً على أية حال.

في نهار السادس والعشرين انطلق خمسون فارسا بتليوريا على الجسر الحديدي عبر الدنيبر طارقين صفائحه الحديدية بسنابك خيولهم، وهجموا على محطة البضائع، وأعملوا سيوفهم في العمال الذين كانوا يحرسون قطارا من أربع عربات أقيمت عليها متاريس من أكياس الرمل، وتفرّقوا على الخطوط مطلقين النار على العربات. وقد حصل كلّ ذلك بعجالة واحتراس. وكان يتوقّع أن توجّه هذه الغارة إلى مقرّ قيادة اللجنة العسكريّة الثوريّة، إلا أن البتلوريّين خافوا من الكمائن في الحيّز الضيّق بين العربات، وخرجوا إلى مكان مكشوف بأسرع ما يستطيعون، وعادوا من حيث أتوا.

وضعوا رشاشات في الجانب الآخر من الجسر، وراحوا يطلبون من كلّ عابر إبراز هويته. واشتد التوتر. وتواردت معلومات عن أحياء المدينة من غارات تفتيشيّة شاملة. وفي ذلك اليوم لم يأت فلاحو الضواحي فرادى، بل جماعات من عشرة أشخاص حزموا معاطفهم من فراء الأغنام بقوة، ولم يحملوا شيئا من متاع. وقد شكّلت اللجنة العسكرية الثورية فَوْجاً منهم وكانت الشكليّات

قصيرة. إذ كان كلّ واحد منهم يسأل:

ـ لماذا جئت؟

ـ وما حاجتك إلى السلاح؟

ـ يجب إنشاء سوفييتات، وإلا فستبدأ الهرج من جديد.

ـ وهل تعترف بالسلطة السوفييتيّة بدون تحفّظ؟

ـ ليس عندي تحفّظات...

ـ انضم إلى السرية الثانية...

ولكن السلاح لم يكن كافياً حتى جاء تشوغاي عند الظهر بصورة مفاجئة في قاطرة تجرّ عربة واحدة جالبا معه ثلثمائة بندقية نمساوية مع العتاد. وخفّف ذلك الوضع قليلا، وأخيراً، وفي ساعة متأخّرة من المساء أخذ جيش ماخنو المرتقب طويلا يقترب مدمدما قارعا السهب.

وكان أوّل من وصل إلى الحاضرة "فرسان كروبوتكين" ـ رجال الهايتمان البواسل ـ وجميعهم متساوون في الطول. وقد احتلوا المدرسة في الحال، وقذفوا منها الكتب والمقاعد الدراسيّة، وأخذوا يدقّون أبواب البيوت بطريقة تسلّطية. ودخل بعدهم زهاء مائتي عربة وعربة رشاشة تحمل المشاة. وبعد هؤلاء جميعا توقّفت قرب المدرسة مركبة سفر كبيرة، لعلّها كانت تعود إلى مطران، تجرّها أربعة خيول، وقد جلس الاخرس العظيم على مقعد السائق، ونزل منها ماخنو ولوفكا وكاريتنيك بعظمة.

وسارع الهايتمان فطلب أن يجتمع به أعضاء اللجنة العسكريّة الثوريّة في الحال. وخلال ذلك الوقت كان عدد غير قليل من العمّال المنفعلين قد تجمهر قرب عربة اللجنة العسكريّة الثورية.

وصاحوا برئيسها:

ـ يا ميرون إيفانوفيتش، إذهب بنفسك والق نظرة، ليست هذه قوّات سوفييتية، بل قطّاع طرق... إستمع إلى العمّة غابكا فإنّها ستروي لك ماذا فعلوا بها...

قالت العمة غابكا وهي تذرف الدمع:

ـ ميرون إيفانوفيتش، أنت تعرف أحوالي... اقتحم اثنان بيتي... وصارا يطلبان حليباً، وشحم خنزير... ذئبان جائعان... وطلبا أن اخرج إلى الفناء، وأدلّهما على الخنزير والدواجن والتهم اللعينان كلّ شيء، عسى أن يُصابا بالزحار...

واضطر الرئيس أن يشرح لهم بصوت حاد أنّ الأمر ما دام قد وقع إذ هم الذين دعوا ماخنو وقواته، فأن مجال التراجع قد فات، ولم يبق أمامهم الآن إلا مهمة واحدة: الاستيلاء، على المدينة اجتياحا، ونقل السلطة إلى السوفييتات. ثم صاح لا يكفيك خنزيران؟ سنهديك قطيعاً من الخنازير... فكفّي عن إثارة الناس...

في الإجتماع سلك ماخنو سلوكاً غريباً فقد أبدى وقاحة وجبنا. طلب بأن يعيّن قائداً عاماً لجميع القوات، وفي حالة الرفض هدّد بأن يعود الجيش نفسه من حيث أتى. وكرّر القول بأنّ السلطة السوفييتيّة لا تملك قوة قتاليّة أخرى، وإنها يجب أن تحرص على هذه القوّة، وإلاّ تبدّدها بهجمات متهوّرة. وكان يقرض أظافره، ويحشر يده تحت سترته بين الآونة والأخرى ويهرش جلده. واتضح أنّ أكثر ما يخشاه هو مدافع بيتليورا الستة عشر.

عندئذ قال تشوغاي له:

ـ حسناً، إذا كنت تخاف من هذه المدافع فإنّني ذاهب الليلة إلى المدينة لأتحدّث مع آمر المدفعية.

ـ كيف تتحدث معه؟

ـ هذا شيء يخصّني...

ـ تكذب!

ـ لا، لا أكذب. من هو آمر مدفعيتهم؟ مارتيننكو، وهو من جماعتنا في أسطول البلطيق، كان مدفعياً في المدمّرة "غانكوت" وهو من أبناء منطقتي، أو لعله من أقربائي أو ربما عرّابي... وهو لن يطلق النار علينا...

ـ تكذب! كرّر ماخنو ناشباً أظافره بكمّه. والظاهر أنّه قد صدق، فقد هدأ فجأة، واتخذ وقراره:

ـ حدّثنا عن خطّتكم للهجوم.

وعرضت اللجنة العسكرية الثوريّة هذه الخطة له: تعبر فصيلة من العمال المسلّحين بالقنابل اليدوية إلى الضفة الأخرى ليلا، ويتسلّل هؤلاء واحداً واحداً إلى جسر السكك الحديدية، وفي الفجر يهاجمون رجال الرشاشات، المستحكمين عند رأس الجسر، ويستولون على الرشاشات، ويضعون تحت النيران الشوارع المؤدّية إلى الجسر. وحين تندلع انفجارات القنابل اليدويّة يتحرك نحو الجسر القطار المصفّح (ذو العربات الأربع) بعماله المسلحين وجزء من فوج الفلاحين المؤلّف حديثا، ويهاجم محطة المدينة. وفي أثناء ذلك يبلّغ أعضاء القيادة اللجان البلشفيّة في المناطق مستخدمين في ذلك عناوين وتلفونات معروفة لهم وحدهم، فتقوم هذه اللجان بالانتفاضة في المدينة، وتوزّع على

المجتمعين عند المحطة الأسلحة التي يجلبها القطار المصفّح. وفي ذلك الوقت تنقل القيادة عمليّاتها إلى هناك. ويخترق فرسان ماخنو المدينة من خلال جسر المارّة، ويعبر المشاة الدنيبر بطابورين من يمين الجسر وشماله، ويلتقون في أماكن محدّدة في جادة يكاترينينسكي، ومن هناك يقومون بهجوم إلى الأعلى للاستيلاء على مؤسّسات المدينة والثكنات. إنّ نجاح الإنتفاضة يتوقّف على السرعة والمباغتة في الهجوم، ولهذا يجب أن تحدد هذه الليلة موعداً للهجوم.

قال ماخنو:

ـ الرجال تعبوا من المسيرة، والخيول محطّمة الحدوات، ويجب دقّ حدوات جديدة لها.

فرده رئيس اللجنة العسكرية الثورية على ذلك:

ـ يمكن أن يستريح الرجال بعد أن نستولي كلها لتستريح، أيها الهايتمان؟ سيغدقون عليك غداً من مدافعهم من عيار الست بوصات. باختصار: أمّا أن تبدأ اليوم ليلاً وأما أن ترحل...

جمد الدنيبر في تلك الليلة، إلا أن الجليد لم يكن مأموناً. وخلال الليل كلّه أخذ العمال يجرّون الألواح إلى ضفة النهر لاستخدامها في العبور قالعين إياها من مصاريع البوابات، وأسيجة بكاملها. كما عمل على قدم المساواة معهم جميع أعضاء اللجنة العسكريّة الثوريّة ورئيسها.

وكان رجال الهايتمان وحدهم يتجوّلون على الشاطئ مدجّجين بالسلاح بأبّهة خائفين أن تصببهم بالعرق، وأحدهم يغمز للآخر نحو أضواء المدينة القليلة في الجانب الآخر من النهر. لقد كانت يكاترينوسلاف كبيرة وغنيّة!

قبل حوالي ساعتين من بزوغ الفجر نزل أربعة وعشرون رجلاً إلى الجليد بقيادة روتشين. وكان كلّ شيء قد أوضح سلفاً. وتشقّق الجليد في الإلتصاقات بين كتل الجليد، فاضطروا إلى مدّ الألواح التي كانوا يحملونها في أيديهم. ومرّة واحدة فقط شعّ وميض في الضفة الأخرى بالقرب من الكتلة السوداء الغامضة للجسر المشبّك، وانطلقت رصاصة منفردة. استلقى الجميع. ومن بعدها أخذوا يزحفون متباعدين بعضهم عن بعض قدر الإمكان.

خرج روتشين في النقطة التي حدّدها بالضبط بالقرب من مركب غاطس. ومن تلك النقطة كان زقاق صغير يصعد في التل. وقد صعد فيه، واستدار نحو الجهة الخلفيّة للفناء الذي عيّن مكانا للالتقاء وهو فناء مستودع للبضائع خالٍ الآن. أرسلت أنوار المحطة ضوءاً باهتاً. كانت المدينة كلّها تغطّ في نوم عميق. قضى روتشين بعض الوقت يسير بمحاذاة السياج بخطوات خفيفة مكرّرا عبارة واحدة منغّمة وبلا معنى واضح. ونظر باستمتاع إلى السياج العالي عارفا أنّه يستطيع بلا جهد أن يقذف عبره جسمه العديم الوزن. أخذ الرفاق يتوافدون واحداً وحداً كالأشباح. أمر الجميع بأن يقفزوا إلى الفناء، ويصلوا إلى البوابة. وعاد ثانية يسير بخطو خفيف.

اجتمع ثلاثة وعشرون رجلا من الرجال الأربعة والعشرين، وضلّ واحد طريقه أو أمسلكه رجال الدورية. وثب روتشين، وتعلّق بيديه على حافة السياج، مخربشا ببوزَي حذائه على الواحة، وقفز إلى الجهة الأخرى، ولكن ليس بالسهولة التي تصورها، ونزل على آجُرّ مهشّم.

كان العمال واقفين عند البوابة صامتين يحدّقون في روتشين

وهو يتقدّم منهم. وكان البعض جالساً على الأرض، واضعاً وجهه في ركبتيه المرتفعتين. ولم يبق وقت طويل على بزوغ الفجر. وكانت لحظات الإنتظار الأخيرة هذه حاسمة وحافلة بالإرهاق، لاسيما بالنسبة للذين يخوضون قتالاً لأوّل مرّة. كان روتشين يلمح بغير وضوح الأفواه المطبقة بجهد عازم، واللمعان الجافّ في العيون التي لا ترفّ. لقد كانوا فتيانا مخلصين يفكّرون بثقة وصفاء، روساً ثقال الأيدي. وقد أقدموا بمحض إرادتهم على أمر خطر لا تعرف مغبّته، في سبيل الثورة العالميّة على حدّ دول ماروسيا في تلك الحجرة البيضاء الصغيرة المضاءة بشمعة. وداهمه إحساس بنشوة خاطفة، وعادت إليه نفس الخفّة، وغصّ بالعاطفة الفوّارة.

وكل شيء يختلف عمّا كان يحسّه من قبل، كلّ شيء جديد عليه. قال وقد قطّب حاجبيه:

ـ يا رفاق، إذا قمنا بهذه الهجمة بهدوء، فسيحالفنا النجاح فيما بعد أيضاً. وعلينا الآن يتوقّف نجاح الإنتفاضة بكاملها (نهض الذين كانوا جالسين على الأرض، واقتربوا) وأكرّر مرّة أخرى: الأمر لا يتطلّب دهاء كبيرا. والشيء الرئيسي هو السرعة والهدوء. والعدو يخاف من ذلك أكثر من أي شيء آخر. يخاف من الإنسان لا من السلاح... إذا كنت تشعر وصعّد النظر في شباب ذي رقبة جرداء قويّة إذا كنت، أيها الرفيق... وراودته رغبة لا تكبح، فوضع يده على كتف الشاب، ومسّ رقبته الدافئة إذا كنت تشعر ببرودة في قلبك، فإنّ العدو يشعر بنفس البرودة... إذن فالذي هو أحق من الآخر هو صاحب الغلبة.

هز الشاب رأسه وضحك:

ـ قولك صحيح. سيغلب من له ذكاء أكثر... ونحن أذكياء...

فنحن نعرف من أجل أي شيء... وفجأة أرخى رقبته المنتفخة، والتوى فمه الجميل نحن نعرف في سبيل أيّ شيء نموت.

وسأل شخص آخر، وهو يشقّ طريقه:

ـ خبّرني: إذا ألقيت قنابلي اليدويّة فهل سأصبح بعد ذلك بلا سلاح؟

أجابه شخص بهمس أجشّ:

ـ ويداك ما نفعهما؟ مغفّل!

قال روتشين:

ـ يا رفاق، أعيد عليكم العمليّة كلّها مرة أخرى. سننقسم إلى جماعتين...

وراح ينظر، وهو يتحدّث إلى فجر الصباح يبزغ أخيراً في الظلام الحالك وراء الدنيبر... كانت سحب كثيفة تحجبه. لا معنى الآن لإرهاق الرجال أكثر.

عدّل حزامه وقال:

ـ حان الوقت. لننقسم. إفتحوا البوابة.

فتحت البوابة بحذر. وخرجوا واحداً واحداً، متسلّلين ووصلوا إلى نهاية السياج. ومن تلك النقطة كان الجسر يُرى بشكل واضح في منبسط النهر المتجمّد. وأمامه كانت تلوح معالم مبهمة لحدبة الخندق في رأس الجسر مع رشاشاته والطاقم النائم، على ما يبدو. وكان ثمة خندق ثانٍ مماثل في الجانب الآخر من السدّة.

ـ تناولوا القنابل اليدويّة، واركضوا...

وركض الثلاثة والعشرون دفعة واحدة، كما يركض لاعبو

الكرة. ركضوا صامتين بكلّ قواهم. اتجه نصفهم نحو الخندق مباشرة، والثلاثة عشر الآخرون انحرفوا يميناً نحو السدة. جاهد روتشين ألاّ يتأخّر ورأى كيف تقفز أشباح طويلة في الستر المحزّمة عبر سدة السكة الحديد قفزات عالية. استدار في أثرها. وأدرك أنّ خطأ قد وقع، فإنّهم لم يلحقوا في الوصول إلى الخندق الثاني، وإذ بإشارة الإنذار ستصدر. صدر انفجار خلفه، وزعقت أصوات وحشيّة، وتفجّرت مرة بعد الأخرى قنابل يدويّة... واحتُلّ الخندق الأول. صعد السدّة غير ملتفت يعبّ الهواء الجارح بفمه المفتوح كان الرجال الثلاثة عشر أمامه ينطلقون بوثبات جبّارة... واقتربوا... واستقبلهم لهب الرشاش مثل فراشة مسعورة. وأحس روتشين وكأنّ خفقة ريح خفقت على رأسه. وفكّر في نفسه "يا رب، إصنع معجزة. ذلك يحدث. وإلا سنهلك..." ورأى الشاب ذا الرقبة الجرداء يلقي قنبلة يدوية دون أن ينحني، ووثب الثلاثة عشر كلّهم إلى الخندق أحياء. ورأى أجسادا تتخبّط وتلهث. رفع شخص ملتح على كتفه شارة ضابط جسمه إلى الأعلى منتفضاً، وراح يطعن بسيفه في غضب كلّ من يمسك به. أطلق روتشين النار، وتهاوى الضابط الملتحي، ولوى رأسه. وفي اللحظة التالية زحف آخر في معطف من معاطف الضباط رافساً صارخاً. أمسكه روتشين، فأطلق الضابط يديه، وأطبقها على رقبته قائلا "وغد، وغد" وفجأة ارتخت أصابعه:

- روتشين!...

اللعنة من هذا؟ يبدو أنّه من قيادة إيفرت. لم يجب روتشين وضربه بمسدسه على صدغه.

واحتل هذا الخندق أيضاً. وأدار العمال الرشاشة. صفرت

قاطرة وراء الدنيبر. ودبّ القطار المصفّح مدمدماً على الجسر ليحتلّ المحطة.

كانت الشمس قد ارتفعت منذ وقت طويل، وراحت تلهب بحرارتها. عبر القطار المصفّح الجسر ثانية نافثاً دخاناً أسود، حاملا الناس والسلاح إلى المحطّة المحتلّة، شيّعه الرجال من خنادقهم بالصياح. وسارت الأمور سيراً حسناً. قبل وقت طويل عبر مشاة ماخنو جليد النهر كالنمل، وزحفوا على الضفة الشديدة الانحدار، واجتاحوا نقاط الشرطة، وانتشروا في الشوارع. وكانت الطلقات تتردّد بلا فتور تارة عن بعد وتارة على مقربة دانية.

ـ ساشكا، إذهب إلى المحطة، واعثر على القائد العام، وقل له أنّنا هنا منذ الخامسة صباحاً، تجمّدنا ولم نأكل شيئا، دعهم يرسلون من يحلّ محلّنا.

قال روتشين ذلك لصاحب الرقبة الجرداء التي كانت الخدوش الدامية تغطّي وجهه الرجولي الفتي الأمرد إلا من شعيرات زغبية ملتفّة وكانت هذه الخدوش أثاراً تركها عليه مسدّد الرشاشة القوي، وهو يفارق الحياة.

اندفع ساشكا خفيفا وهو يرتجف في سترته الخفيفة إلى مكان مكشوف رغم صفير الرصاص المتكرّر في الهواء. صاحوا به "ستقتل، يا أحمق... ساشكا، أجلب لنا سجائر..." وعاد سريعا، وقرفص أمام الخندق وألقى بعلبة السجائر إلى رفاقه، وقدّم لروتشين مذكرة عليها ختم مازال طريا: "إنتظروا سأرسل. ماخنو".

وقال لروتشين:

ـ تحيّة لك من ماروسيا.

فغر فاديم بيتروفيتش فمه من المفاجأة، ورمق ساشكا المقرفص بنظرة خاطفة من مكانه في الخندق.

ـ إنّها فتاة مليحة، يا رفيق روتشين. أسعدك الحظ...

ـ أين رأيتها؟

ـ إنّها نشيطة في المحطة... لولاها لما وصلت إلى ماخنو. ما أكثر الناس هناك، الفتيان لا يلحقون في توزيع الأسلحة. يكاترينوسلاف لنا.

اتخذ ماخنو المحطّة مقراً لقيادته. جلس الهايتمان في صالة الدرجتين الأولى والثانية وراء منصّة المشرب بنخيلها الإصطناعي. وأزاحوا كلّ ما عليها من أوانٍ، فوقعت على الأرض، وأخذ ماخنو يكتب الأوامر. وكان كاريتنيك يدمغها بالختم. وكان من يتسلّمها ينطلق بها في الحال. وكان رجال منفعلون لا يفتأون يدخلون يطلبون العتاد والتعزيزات ومطابخ الميدان والسجائر والخبز ورجال الإسعاف... ذات مرّة جاء آمر وحدة استولى عليه الغيظ لأنّه شقّ طريقه إلى البنك التجاري الصناعي، ولم يبق بينه وبين بابه غير خطوتين، إلا أنّ النقص في العتاد أجبره على القعود يعضّ الأرض من التكدّر. تقدّم من الهايتمان وأمسك بقنبلتين معلّقتين في حزامه، وخبطهما على المنصة للتخويف، وقال:

ـ ماذا تفعل هنا، تصلّي للرب؟ قدّم العتاد لنا، يا كذا ويا كيت!...

وكان ماخنو لا يعطي الأوامر إلا لمن يطالب بها. ارتجف فكّاه ليثير الخوف، وتظاهر بأنّه صاحب الأمر والنهي. ولكنّه في

واقع الأمر كان مشوّش الفكر كلياً. ثقب ورقة، ورسم صلبانا على خارطة المدينة، في الأماكن التي هجمت أو تراجعت فيها القوّات. ليس في هذه المدينة الملعونة مجال للتحرّك، والشوارع كلّها ضيقة، والعدو في الأعلى والأسفل وعلى الجانبين... حملق ماخنو في الخارطة ولم ير لا هذه الشوارع ولا تلك البيوت وفقد القابلية على تعيين الإتجاه. وصارت اللعبة خبط عشواء. فلا عجب في أنه كان يعتبر المدن أشياء ضارة، آفة جميع الآفات.

وفضلاً عن ذلك كان يقلقه الغموض في علاقته بمارتينينكو. أكّد تشوغاي أنّ مارتينينكو لا يريد أن يطلق النار على جماعته. وقد يكون تشوغاي قد التقى به هذه الليلة، أو أنهما اتفقا من قبل. حقاً أنّ كلّ شيء هادئ في مستودع المدفعية، ونصف طاقم المدفعية قد هرب ومارتينينكو نفسه قد سكر غاية السكر من دقة الموقف دون شك. لم يكن في المحطة غير مدفعين من مستودعه وقد تركهما البيتليوريّون. وسُرّ ماخنو الذي لم يستولِ على مدافع البتّة، وطلب أن يخرجا إلى الجادة، وجذب بنفسه حبل الإطلاق. وطلعت على وجهه ابتسامة متغضّنة حين هدر المدفع حتى الناس وقعوا على الأرض وانطلقت القذيفة صافرة فوق أشجار الحور.

واتخذت اللجنة العسكريّة الثورية مقرّاً لها في ساحة ملحقة بالمحطة. وكانت النيران قد أوقدت هناك، وقف حولها العمال الذين جاءوا من مختلف مناطق المدينة. وكان أعضاء اللجنة العسكريّة الثوريّة يعرفون الجميع تقريبا بوجوههم والمنطقة التي جاءوا منها. نادوا العمال بأسماء المصانع والورش عمّال التعدين، والطحّانين والدبّاغين وعمّال النسيج فترك هؤلاء

النيران، واصطفوا كلّ خمسين رجلا أو نحوهم على حدة. وإذا كان بينهم شخص مناسب عيّنوه آمرا وإذا لم يكن تسلّم أحد أعضاء اللجنة قيادتهم. وزّعوا البنادق، وفي نفس المكان عرضوا على غير العارفين بها كيفيّة استخدامها. كانت تستند للفصيلة مهمّة قتالية ويرفع الآمر البندقية ويهزّها:

ـ إلى الأمام، يا رفاق...

ويرفع العمّال أيضاً هذه القطعة الثمينة التي وقعت في أيديهم أخيرا:

ـ في سبيل سلطة السوفييتات!...

وسارت الفصائل نحو جادة يكاترينينسكي للقتال.

شقّ روتشين طريقه نحو القائد العام وأبلغه بالتفصيل عن احتلال التعزيزات عند رأس الجسر، وعن الخسائر في الرجال: أربعة جرحى وواحد قتل تحت الأقدام. سلّط ماخنو، وهو يقضم القلم، نظرة قاسية إلى حد العجرفة وشبه بلهاء على وجه روتشين البنّي الناحل.

ـ حسناً، ستكافأ بساعة فضية قال ماخنو ذلك، ودفع خارطة المدينة الموضوعة أمامه إلى حافة المنصة انظر إلى هنا وخطّ بالقلم خطاً بين الصلبان الهجوم لا يتقدّم. ونحن وصلنا إلى هنا شارع، زقاق ملتو، بولفار.. وأبعد من ذلك، الصلبان تبدأ بالانعطاف... أريد أن أعرف لماذا نراوح هكذا، وكأنّنا غطسنا في روث؟ صرخ بصوت حاد كصوت طائر إذهب واعرف جليّة الأمر وخربش على قطعة من الورق بعض الكلمات، ونفخ كاريتنيك على الختم، ومدّ الختم من تحت مرفقه، ودمغ به الإمضاء يمكنك أن ترمي الجبناء. أعطيك الحقّ في ذلك....

خرج روتشين إلى الساحة حيث فصائل العمال ماتزال تصطفّ في صفوف غير مستقيمة، وترتفع الأصوات بالأوامر. وهتافات النصر. دار رأسه من الدخان المتصاعد من النيران. وكان على بعضها قصاع تطبخ فيها العصيدة، فطاف في ذاكرته قدر الحساء الحديدي الذي كانت ماروسيا تقفز من وراء المائدة وتختطفه من يدي أمها، وأسنان ماروسيا وهي تقضم قطعة الخبز الشذي.مكتبة سُر مَن قرأ

وخرج وراء روتشين، ساشكا وشخصان آخران يحملون البنادق. كان أحد الشخصين مجدّر الوجه مرحاً ضخماً كالقدر الكبير يدعى تشيج، وكان الثاني فتى جميلا له وجه قاس وعين مخدشة وقد أنزل ظليلة طاقيته السوداء على حاجبيه، وكان يبتسم طوال الوقت. أنه عامل سمكرة يسمّي نفسه روبرت. واضطروا إلى أن ينسلّوا انسلالا في جادة يكاترينينسكي محتمين وراء بروزات البيوت، منتقلين من مدخل إلى مدخل. وكان الرصاص مايزال يلعلع. وكان البولفار خالياً، ولكن الوجوه الفضوليّة كانت تلوح وتختفي وراء الحشايا التي تغطّي النوافذ في كلّ مكان. وعلى مدخل محلّ للمصوغات جلس رجل يرتدي فروة خروف، بدفع وجهه الصغير الذي أنحله البؤس إلى الوراء وكأنّما رفعه مع لحيته الشائبة نحو السماء القديمة هامساً: ما هذا، يا ربي؟

سأل تشيج:

ـ ماذا تفعل هنا؟

أجاب الرجل مكروباً:

ـ ماذا أفعل؟ انتظر أن يقتلوني.

ـ إذهب إلى بيتك.

ـ ولماذا أذهب إلى بيتي؟ سيقول السيّد بابريكاكي أيّهما أغلى: حياتك التعيسة أم محلّي؟... إذن، فالأفضل أن أموت بالقرب من المحلّ...

وما كادوا ينصرفون حتى أخرج الحارس لحيته من بروز الباب:

ـ يا شباب، أبعد من هنا يقتلون الناس....

وحين وصلوا إلى المنعطف أصابت صلية رشاشة تجصيص الحائط فوق رؤوسهم. استداروا إلى شارع جانبي وظهورهم منحنية، وضغطوا أجسامهم على تجويف بوابة. ونظروا لاهثي الأنفاس ورأوا على الرصيف عند المفترق سبع جثث وبنادق مرميّة. فلا بد أنّ فصيلة من العمال قد وقعت هنا تحت النار. ضحك روبرت بمرارة وقال مقطّعاً الكلمات في غيظ:

ـ إنهم يطلقون النار من علية فندق "أستوريا" الذي كان روتشين قد نزل فيه شهرين واقعاً في الجانب الآخر من البولفار، وكان لابدّ من الوقوع تحت النار إذا أريد الوصول إليه. ضغط روتشين رفاقه على البوابة بذراعيه المبسوطتين:

ـ التسلّل واحداً بعد واحد... وعلى فترات وبسرعة، ولا حاجة للمخاطرة أبداً.

انحنى روتشين حتى كاد يمسّ الأرض، وركض إلى المفرق، واستلقى وراء جثة. انطلقت طلقتان من علية الفندق. وثب، واندفع في خطّ متعرج كالحيّة نحو أشجار الحور في منتصف البولفار. لعلعت النار متلاحقة من العلّية، ولكن بعد فوات الأوان. بعد أن وصل إلى المنطقة "الميتة". اتكأ على جذع شجرة حور وخلع قبعته ومسح بها وجهه، وعبّ الهواء وصاح.

وضربوا طُرُق باب الفندق الزجاجي بالقنابل اليدويّة حتى ازاح شخص من الداخل الصوان، وفتح الباب. دفع روبرت البواب الضخم الذي صاح فيه "إلى أين، أيها الشيطان؟..." وانطلق وفي يده قنبلة يدوية. كان بهو الفندق غاصاً بالمقيمين الذين نزلوا من جميع الطوابق. ولكنّهم حين رأوا ثلاثة آخرين مُسلّحين راحوا يصعدون السلّم صامتين لاهثين منضغطين على السلالم. عرف روتشين الكثير منهم وهو يصعد الدرج. كما أنّهم عرفوه أيضاً، ولو كان من الممكن أن تقتل النظرات لكان قد وقع صريعاً مائة مرة من نظراتهم. ولكن واحدا منهم فقط، وهو نفس ذلك الرجل السمح صاحب الأطيان الذي ينوء بثلاث بنات غير متزوجات، كان خارجا من غرفته متأخّراً بعد أن تناول وجبة من الطعام البارد، فرأى روتشين، فكاد يأخذه بالأحضان نافثا عليه رائحة نبيذ "الماديرا":

ـ عزيزي فاديم بيتروفيتش. هذا أنت، بينما بناتي يثرثرن زاعمات أنّ بعض البلاشفة اقتحموا...

ولكن الكلمات جمدت على شفتيه حين رأى ساشكا الضخم والخدوش الدامية على خديه، والسمكري الذي يغطّي عيناً واحدة بظليلة طاقيته، وهو البادي المرح المتورّد ولو كان مظهره لا ينمّ كثيراً عن تلطف طبقي.

كان السمكري يعرف جميع مداخل الفندق ومخارجه. وحين صعد إلى الطابق الثالث اتجه إلى سلّم جانبي ارتقاه إلى العلّية، كان الباب الحديدي إلى هنا موارباً. وهمس السمكري "هم هنا!" وفتح الباب على سعته، واندفع بعزيمة شديدة حتى كأنه كان ينتظر تلك اللحظة طول حياته. وحين وصل روتشين إلى

نافذة الروشن منحنياً في الظلام الشاحب تحت روافد السقف، كان روبرت يغرز حربته برجل في معطف فرائي منبطحاً بالقرب من رشاشة:

ـ كنت أقول أنه صاحب الفندق نفسه!

عندما نزلوا من العلّية اضطرب الفتى فجأة واصطكت أسنانه، وجلس على درجة، وغطّى وجهه بطاقيته. أخذ ساشكا بندقيته منه، وقال بغلظة: "لا تتصوّر إنّنا سننتظرك!" وقال تشيج له "آه، يا لك، وتسمّي نفسك روبرت..." قفز وانتزع بندقيته من ساشكا، وركض نازلاً إلى الأسفل قافزاً الدرجات. تركه فاديم بيتروفيتش مع تشيج لحراسة الفندق. وأرسل تذكرة مع ساشكا إلى مقر القيادة ليرسلوا فصيلة إلى "استوريا" وعاد وحده إلى البولفار.

كان النهار في أواخره. وقد احتلّت فصائل العمال البريد والتلغراف ودوما المدينة والخزانة. وقد طاف روتشين في كلّ هذه الأماكن، وأرسل من كلّ منها مراسلين إلى مقر القيادة. وكانت جميع الدلائل تشير إلى أنّ القتال قد طال. واستنفد مشاة ماخنو الدفعة الأولى من الحماس، وبدأوا يضجرون من القتال في ظروف المدينة... فلو كان القتال في السهب لكانوا الآن قد قسموا الغنائم منذ وقت طويل وطبخوا الطعام على القدور، وتحلّقوا، ليتفرّجوا على الراقصين المتحمّسين يرقصون رقصة "الكوباك" الأوكرانية بأحذية جيّدة انتزعوها من أقدام القتلى. وكان البيتليوريّون، من جانبهم، قد أفاقوا من حالة الارتباك، وبعد أن تراجعوا إلى منتصف الجادة تخندقوا، وأخذوا في بعض الأماكن ينتقلون إلى الهجوم المضاد.

لم يعدْ روتشين إلى المحطّة إلا عند هبوط الظلام. إلاّ أنه لم يجد ماخنو هناك، فقد انتقل مقرّ قيادته إلى فندق "إستوريا". وذهب روتشين إلى هناك. وكان روتشين لم يصبّ طعاما منذ يوم أمس، ولم يشرب غير قدح من الماء. وكانت قدماه متخدِّرتين من التعب، والمعطف يثقل على كتفيه كالرصاص.

لم يسمحوا له بالدخول إلى الفندق. كان باب الفندق محروساً برشاشتين، وكان فرسان ماخنو يتجوّلون على الرصيف هازين بمهاميزهم وشعورهم الطويلة مسبلة على جباههم على الموضة الشائعة في غولاي بوله. وكان أحدهم قد ألقى معطفاً من فراء الظربان فوق سترته الفروسية المبطّنة وقاية من الإصابة بالبرد، ولفّ آخر على عنقه لفاحا من فراء السمور. طلب الفارسان من روتشين إبراز هويته، ولكن تبيّن أنّ كليهما لا يعرف القراءة، وهدّدا بانهما سيقتلانه في مكانه إذا أصرّ على الدخول. قال لهما روتشين واهن الصوت "إذهبا إلى الشيطان، أنتما هايتمانكما" وعاد إلى المحطة ثانية.

وفي المحطة دخل روتشين المشرب المحطّم نصف المظلم حيث كانت التماعات النيران تسقط من خلال النوافذ العالية، واستلقى على أريكة من خشب البلوط. وغفا في الحال، رغم الصيحات وصفير القاطرات والطلقات. ولكن نتفاً مشوّشة من أحداث اليوم ظلّت تنفذ إليه من خلال الإرهاق الشديد... إنّه قضى يومه بنزاهة... لا، ليس تماماً، على ما يظنّ.... لماذا ضرب ذلك الرجل على صدغه؟ مع أنّه قد استسلم... لكي يغطّي على آثار الجريمة؟ نعم، نعم، نعم... وتراءت له أوراق اللعب على المنضدة، وأقداح النبيذ المسخّن... والوصولي الكابتن فيدنيابن

القتيل بأسنانه المتآكلة، وفمه المبلّل مثل عجيزة دجاجة، المضموم وكأنه متهيّئ لقبلة لقائد الجيش الجنرال إيفرت، الجالس إلى لعبة ورق.. أوه، اللعنة عليه.. كان محقاً في ضربه...

تصارع النوم ودقات قلبه المرتاعة. فتح روتشين عينيه ورأى وجها رصينا فاتناً يضيء النور الأحمر المتسلّل من النافذة. زفر واستيقظ. كانت ماروسيا تجلس إلى جانبه، وهي تمسك على ركبتيها قدحا من الماء المغلي وقطعة خبز. وقالت:

ـ خذ، إشرب وكل.

في تلك الليلة تسلّل تشوغاي ورئيس اللجنة العسكريّة الثورية إلى مستودع المدفعيّة، الذي لم يبق في حراسته إلا الرجال المتعاطفون مع السلطة السوفيتيّة، وأيقظا مارتينينكو، وقال تشوغاي له ما يلي:

ـ جئنا لتوبيخك، يا رفيق، فإنّك تتصرّف اسوأ تصرّف... أما أن تنحاز إلى بتليورا بشكل صريح، ولكن لن نتركك حيّاً، وأما أن تهيئ المدافع للانطلاق...

ـ هذا ممكن... في الصباح سأرسل لكم المدافع...

ـ ليس في الصباح، بل الآن... آخ، مارتينينكو ستشبع من النوم في الآخرة...

ـ حسنا، فليكن الآن...

وفي اليوم التالي كانت جميع نوافذ يكاترينوسلاف تهتزّ من قصف المدافع. وفي جادة يكاترينينسكس تطايرت في الهواء البلاطات وأغصان الحور وتمزّقت أكشاك البولفار. وهجمت فصائل العمال وفوج الفلاحين ومشاة ماخنو على البيتليوريّين وقد حمّستهم هذه الموسيقى، ودفعتهم إلى منتصف الطريق إلى

المرتفع. عندئذ وفي وجه مخاطر كبيرة شقّ مندوبون عن مختلف المنظّمات الحزبيّة واللاحزبيّة وكذلك بابريكاكى الصغير طريقهم إلى اللجنة العسكريّة حاملين الأعلام البيضاء، وعرضوا الوساطة لإحلال الهدنة في أسرع وقت ممكن، وإنهاء الحرب الأهليّة.

كان ميرون إيفانوفيتش يجلس إلى منضدة في بهو "استوريا" مكوّر الكتفين في معطف صغير تقطّعت أزراره وكيبّيه Képi قذرة، وقد قال للموفدين، وهو يمضغ خبزا يابسا وفمه خال من أي قطرة من اللعاب:

ـ ليس من مصلحتنا نحن أن نهدم المدينة. وأنا اقترح إنذاراً نهائياً: على جميع الوحدات البيتليوريّة أن تلقي السلاح في مدّة لا تتجاوز الساعة الثالثة نهاراً، وأن تكفّ الشراذم المعادية للثورة عن إطلاق النار من عليّات المباني. وفي حالة الإمتناع ستقوم مدفعيتنا في الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة بفتح نيرانها على المدينة بخطوط متقاطعة.

وكان الرئيس يتحدّث ببطء، ويمضغ ببطء، أشدّ، ووجهه مسودّ من السخام. وأصيب الموفدون. باليأس. وتشاوروا طويلاً هامسين، وأرادوا أن يجادلوا. ولكن في تلك اللحظة نزل الدرج المرمري إلى البهو أناس صاخبون في ملابس زاهية ومتنوّعة يتقدّمهم شخصان يحملان في أيديهما رشاشتين من طراز لويس، ووراءهما دزينة من شبان ارتسمت على وجوههم الوقاحة، وكلّ واحد مزوّد بسلاح، وفي الوسط رجل طويل الشعر ذو عينين لعينتين.

اختطف الموفدون ورقة الإنذار النهائي من يدَيْ الرئيس،

وهرعوا خارجين إلى البولفار في الهواء الطلق تحت الرصاص المتطاير.

رفضت القيادة البتليوريّة الإنذار النهائي. وفي الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة استشاط الهايتمان ماخنو غيظاً ودقّ بالمسدّس على الطاولة التي كان المجلس العسكري الثوري يجتمع حولها وطلب أن تقصف المدينة بلا رحمة وبخطوط متقاطعة. وأشفق على المدينة أعضاء المجلس العسكري الثوري والعمال الذين ولدوا وعملوا فيها. ومع ذلك فقد كان من المتعذّر إظهار الضعف، فتقرّر تخويف البرجوازيّين. وهدرت مدافع مارتينينكو الأربعة عشر بعد تأخير. وتطايرت هنا وهناك قطع الآجُرّ والتجصيص من جدران البيوت الكبيرة المرتفعة كمدرّج. وتراكض ممثلو اللجان كالفئران من البتليوريّين إلى المجلس العسكري الثوري. ولم تنقطع هجمات فصائل العمال. واخذ البتليوريون يتراجعون في نهاية البولفار إلى التل.

قضى المجلس الثوري الليلة كلّها في تأليف الحكومة. وكما توقّع ميرون إيفانوفيتش في تلك المرّة في العربة كون الفوضويّون والاشتراكيّون الثوريّون اليساريّون تكتلاً مع الهايتمان ماخنو، وتحت حمايته اقتحموا الإجتماع، وصاروا يتصارعون بضراوة على كلّ منصب. ولسبب ما كان جميع الاشتراكيّين الثوريّين قصار القامة، وإنْ كانوا أقوياء البنيان يبدو عليهم الارتياح بعد نوم جيّد. وكان النقاش معهم صعباً جداً.

كان كلّ واحد منهم يثب وعلى فمه ابتسامة طريّة ويبادر بمخاطبة الهايتمان قائلاً بأنه، أي ماخنو، زعيم حقيقي واستراتيجي عظيم، ونار تطهّر كلّ شيء، وصلب من معدن

حديدي... أما فتيانه فغاية في الروعة وبواسل متفانون!

وكان ماخنو يزمّ شفتيه الشاحبتين ويصغي مكتفياً بهز وجهه الذي أضرّ به السكر. رفع اشتراكي ثوري متصلّب صوته بقوّة حتى نفذ من خلال الأبواب التي تفتح وتغلق إلى الرواق حيث ازدحم رجال ماخنو وجمهور من شتى الأنواع لا أحد يعرف كيف نفذوا إلى الفندق.

ـ أيها الرفاق البلاشفة عَمّ نتجادل معكم؟ أنتم إلى جانب السوفييتات، ونحن إلى جانب السوفييتات... واختلافنا تكتيكي محض. نحن نرث جهازا بورجوازياً لإدارة المدينة. وأنتم تريدون أن تجعلوه سوفييتيا خلال يوم واحد. ونحن نعلم أنّ جهاز المدينة لن يعمل مع الشيوعيّين. والتخريب واقع لا محالة. والمجاعة والخراب محتومان. بينما هم يرغبون في العمل معنا. وهناك قرار لدوما المدينة. ولهذا السبب نؤيّد ترشيح الرفيق فولين لمنصب مفوّض التموين. وأقترح غلق باب النقاش، وإجراء التصويت...

كان الفوضويّون حتى تلك اللحظة يتصرّفون بغموض بل وبازدراء فإذا بهم قد تصرّفوا تصرّفاً مفاجئاً جعل الهايتمان يدير رقبته الهزيلة.

ورشحّ ممثلهم، وهو طالب في طربوش قاني الحمرة، بابريكاكي الإبن لمنصب المفوّض.

ـ سنصرّ عليه بكلّ الوسائل التي نملكها... إنّ بابريكاكي الإبن هو شريكنا في المعتقد، فوضوي متعلّم، وخبير بالمالية، وسيكون في أيدينا سلاحاً طيّعاً مفيداً للشعب الثائر الحرّ... أقترح عدم إجراء النقاش، والتصويت برفع الأيدي فقط.

كانت ماروسيا و فاديم بيتروفيتش يجلسان عند الحائط على

مقعد واحد. تهيّجت ماروسيا وراحت تعصر يديها في حنق، وتنهض لتهتف بصوت متكسّر عالٍ: "هذا عار!" أو "أين كنتم حينما كنّا نحارب؟" وعادت إلى جلستها ووجنتاها متوهّجتان. كانت لا تملك غير صوت استشاري.

وكانت قد نحفت وتلوّحت بشرتها خلال تلك الأيام. وكانت تشعر بالحَرّ وهي في معطفها المفتوح القصير من فراء الغنم، وشعرها مسترسل. وفي الفترات بين خطاب وآخر كانت تحدّث روتشين بعجالة عن تنقّلاتها... عملت في البداية في لجنة تموين الفصائل بالخبز والماء المغلي... ثم نقلت إلى فصيلة الإسعاف، وأخيرا عيّنت مراسلة... وكانت تنطلق ضاربة في عرض المدينة وطولها... وتعرّضت للرصاص "مائة مرة" وعرضت لروتشين ثقوبا في حاشية التنورة...

ـ ولو لم أكن خفيفة الحركة لكنت في عداد الموتى. كنت أسمع مَن يناديني، فالتفت فإذا بقنبلة تنفجر في البقعة التي كنت واقفة عليها قبل لحظة، بينما أنا مختفية وراء شجرة حور... وتملّكني الذعر حتى إنني أحسّ بارتجاف ركبتي حتى الآن.

وكانت حيويّة ماروسيا يمكن أن تكفي لعشر انتفاضات وبينما كانت تتحدّث ظهر في الباب وجه ساشكا المخدّش. وشقّ طريقه بصعوبة، وأومأ لماروسيا بأصبعه. فهرعت وأسرّ هو لها بشيء فبسطت ماروسيا ذراعيها.

هدر تشوغاي معترضاً على المرشحين:

ـ أيها الرفاق، نحن لم نجتمع للجدل والنقاش ولم نجتمع لتقديم البراهين، بل اجتمعنا لنحكم، والحكم لمن لديه القوة...

تعذّر على ماروسيا الإنتظار، فهرعت نحو الطاولة، وأعلنت:

ـ في المدينة يعمّ نهب شامل... فاستمعوا إلى الرفاق... هم يمنعونهم من الدخول إلى هنا... وقد لووا أيديهم...

عندئذ ترامى من وراء الباب ضجيج ولغط وأصوات زاعقة واقتحم الغرفة ساشكا وبعض العمال ببنادقهم. وتكلّموا دفعة واحدة:

ـ ما هذا الأمر؟ لقد بُثّت الشرطة في الفندق. من الخير أن تذهبوا. أن تلقوا نظرة... والبولفار كلّه محاط. وفتيان ماخنو يقتحمون المخازن... وينقلون البضائع بالعربات.

مدّ ماخنو شفتيه، وكأنّه يهمّ بقضم شيء... ونهض من وراء الطاولة، وخرج. تراجع فتيان ماخنو في الممرّ والبهو حين رأوا الهايتمان يكشّر عن أسنانه الصفراء كأسنان كلب هرم. ولم يكن مضطرا إلى أن يذهب أبعد من ذلك. فقد رأى أشباحا تروح وتجئ في الجانب الآخر من الجادة عند نوافذ مخزن كبير. وما كاد يغادر باب الفندق حيث ظهر لوفكا على الرصيف.

سأل لوفكا وقد ترنّح:

ـ ما المسألة، ما سبب الهبهبة؟

صاح ماخنو:

ـ أين كنت، أيها الرذيل؟

ـ أين كنت... أثلمت حدّ سيفي... ستة وثلاثين قتلت بهذه اليد وحدها... ستة وثلاثين...

ـ حافظ على النظام في المدينة! زعق ماخنو، ودفع لوفكا من صدره بقوة، وعبر البولفار راكضاً نحو المخزن وتبعه لوفكا

وبعض الحراس. ولكن الذين كانوا هناك حدسوا أن عليهم أن يتفرّقوا، فاختفت الأشباح عند النوافذ. ولم يبق إلا عدة أشخاص كانوا يركضون على مسافة بعيدة ومعهم صرر ضاربين الأرض بخطى ثقيلة. ومع ذلك فقد باغت الحرس أحد فتيان الهايتمان في المخزن، وهو ذو شاربين كبيرين، وأخرجوه من المخزن، وهو ذو شاربين كبيرين، وأخرجوه من المخزن. فدمدم متباكياً بأنّه لم يأت على هنا إلا ليرى كيف شرب البورجوازيون الملاعين دم الشعب. حدّق ماخنو فيه وكيانه يرتجف. وحين جاء فضوليّون آخرون متراكضين من ناحية الفندق هزّ يده في وجه الرجل.

ـ هذا عميل معروف للمعادين للثورة... لن ندعك تمضي في عملك القذر بعد الآن... أقتلوه واكفونا شرّه...

أعول ذو الشاربين وصرخ "لا تفعلوا..." جرّد لوفكا سيفه، وجأر، ورفع سيفه عاليا وهوى به على عنقه بلهاث....

وقال متباهياً، وتراجع:

ـ سبعة وثلاثين!

أخذ ماخنو يضرب بقدمه في حنق جنوني الجسد المرتعش المخضب ببركة من الدماء.

ـ سيكون ذلك عبرة لكل إنسان... فوضى النهب قد انتهت...

ـ واستدار بحدّة نحو الجمهور الذي ارتدّ عنه، وقال يمكنكم أن تعودوا إلى منازلكم بهدوء.

غفت ماروسيا على المقعد فجأة، واسترخت على كتف روتشين، وارتخى رأسها بشعره المرسل على صدره شيئا فشيئا. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحا. وكان خادم الفندق العجوز الجهم الذي استبدل بدلته بسترة منزلية مستهلكة ذات

جديلتين بمناسبة إقامة السلطة السوفييتيّة، يقدّم الشاي وقطعاً كبيرة من الخبز. وكان قد تمّ تشكيل الحكومة، إلا أنّ قضايا ملّحة كثيرة بقيت معلّقة. فمثلا قدّم عمال السكك الحديدية منذ يوم أمس استفسارا يسألون فيه عمن سيدفع لهم أجورهم وبأيّة مقادير؟ فاقترح ماخنو الذي أيده الفوضويّون هذه الصيغة: ليحدّد العمال أنفسهم اثمان التذاكر، ويجمعوا النقود بأنفسهم، ويدفعوا الأجور لأنفسهم...

ولكن ما كاد النقاش يشتدّ حتى اهتزّ فجأة زجاج النوافذ في القاعة التي تلوّن هواؤها بلون السجائر الأزرق. وترامى صوت انفجار أصمّ. وبربر مارتينينكو الذي كان نائماً على الأريكة. واهتزّ الزجاج ثانية فاستفاق مارتينينكو: "اللعنة عليهم حماقة..." وأخذ يضرب سدارته على رأسه الحليق. وتناهت هبّة ثالثة ثقيلة. أنزل تشوغاي وميرون إيفانوفيتش قطعتي الخبز اللتين كانتا في يديهما، وتبادلا النظرات في قلق. واقتحم الباب لوفكا وأحد الفرسان يهزّ رأسه الحاسر كالدبّ. وقال الفارس ودفع يده فوق أذنه:

ـ هلكنا. هلكت كتيبة الفرسان كلّها...

صاح لوفكا هازّاً خدّيه:

ـ قرب ديفكا! وأنت تقضي الوقت في الكلام، يا هايتمان!.. العقيد ساموكيش يزحف بست كتائب... ويقصف المحطة بالمدفعية الثقيلة...

راقب سكان جادة يكاترينينسكي رحيل جيش ماخنو من جميع النوافذ بتشفّ وعلى المكشوف ودون حاجة إلى الإختفاء وراء الحشايا كما فعلوا من قبل. انطلق الفرسان ضاربين خيولهم بالمقارع يمينا وشمالا. ورفعت الريح فوق أكتافهم معاطفهم

وعباءاتهم القوزاقية وستر الفرسان القصيرة والأغطية الحريرية... وكانت الخيول المثقلة بالعدوى تتعثّر على الرصيف المغلّف بطبقة من الجمد، ويتدحرج الحصان وفارسه والغنيمة هالكة تحت السنابك... فكان الواقفون في النوافذ يصيحون "أها!.. واحد آخر!" وكانت العجلات تعدو محمّلة بالأشياء المنهوبة. وعربات الرشاشات ذات الخيول الأربعة تنطلق مكتسحة كلّ شيء في طريقها بسرعة تقدح الشرر من تحت العجلات وكان المشاة الذين لم يستطيعوا الصعود إلى العربات يركضون وراءها.

وكان كلّ ذلك يصعد منطلقا في الجادة مصحوبا بعويل وحشي وهدير وقرقعة، متّجها إلى منطقة التلال من المدينة. لأنّ العقيد ساموكيش قد احتل جسر السكة الحديد ومحطة القطار. وقيل إن الهايتمان ماخنو الذي كان قد خرج راكضاً من المجلس العسكري الثوري طبطب بقدميه في غيظ شديد عاجز، بكى، وألقى نفسه في عربة الرشاشة التي جلبها لوفكا له إلى الفندق، وغطّى رأسه بمعطفه من فراء الغنم خجلا أو حتى لا يعرفه أحد، وخرج من المدينة اللعينة إلى جهة غير معلومة.

وبينما كان جيش الهايتمان هاربا من المدينة دون أن يطلق رصاصة واحدة اصطدم بغتة بنقاط الحراسة الأماميّة النابعة للبتليوريّين، فاختلطت صفوفه من الذعر، واستدار بخيوله نحو الدنيبر، إلى هلاك محقّق. كان الشاطئ في تلك الناحية شديد الإنحدار. حطّم رجال ماخنو الأجمات والأسيجة منقلبين من العربات، وانزلقوا على جليد النهر. ولكن جليد النهر كان رقيقا، فأخذ يلتوي ويتصدّع وأخذ الرجال والخيول والعربات يتخبطون في الماء الأسود وسط كتل الجليد. ولم يخرج إلى الضفّة اليسرى

إلا جزء صغير من جيش ماخنو، فلول ضئيلة.

في تلك الليلة طلب عمّال كثيرون من أفراد الفصائل العودة إلى بيوتهم ليتدفأوا، ويغيّروا أحذيتهم ويحتسوا شيئا ساخناً. ولم يبق تحت السلاح غير فصائل الدورية ومحاربي فوج الفلاحين الذين لم يكن لهم مكان يذهبون إليه. فاضطر هذا الفوج أن يتلقّى كلّ الضربة التي وجّهتها وحدات العقيد ساموكيش البتليوريّة في الظروف غير المتساوية. وحوصر الفوج بالقرب من ساحة محطة القطار وأبيد بكامله تقريباً في معركة بالحراب، ولم يستطع إلا نفر قليل أن ينسلّوا ويهربوا من خلال الافنية الخلفية ويعودوا إلى قراهم، ويحكوا عن الموقعة الرهيبة التي قتل فيها ثلثمائة من الفتيان الطيبين الذين جاءوا إلى يكاترينو سلاف ليقيموا السلطة السوفييتية.

وأسرع ميرون إيفانوفيتش وتشوغاي عضوا المجلس العسكري الثوري ليجمعا فصائل العمال والدوريات. ولم يكونا يأملان الاحتفاظ بالمدينة، بل كانت مهمّتهما إتاحة الفرصة لجميع الذين اشتركوا في الانتفاضة بالانسلال عبر جسر السابلة إلى الضفة اليسرى من النهر. واختفت الفصائل المزروعة وراء زوايا البيوت، والحجارة المقلوبة والمتاريس تطلق نيران الرشاشات على البتليوريّين المهاجمين. ومن كلّ الانحاء تراكض مئات العمال مع زوجاتهم وأطفالهم إلى الجس وعبره... وكان بعضهم يحمل في يديه متاعا هزيلا كان من الممكن أن يتخلّى عنه دون أسف... وكانت الطلقات تصوّب عليهم من السطوح ومن الأسفل، من الشاطئ.

كان آخر من تراجعوا تشوغاي وميرون إيفانوفيتش روتشين

وماروسيا وساشكا وتشيج وعشرة رفاق آخرين. تراكضوا من زاوية إلى أخرى، ومن مكمن إلى آخر ساحبين رشاشة. وكانت قبّعات رجال ساموكيش الرمادية تظهر بين الحين والآخر غير بعيدة عن مداخل البيوت. وبقي أصعب عمل، وهو النزول إلى الجسر حيث لم تكن توجد أية حماية غير الجثث والصرر المتناثرة... أدار تشوغاي الرشاشة واستلقى وراء درعها مبقياً ساشكا بالقرب منه، وصاح بالآخرين "اركضوا خفاقاً..." وركضوا جميعاً تحت لعلعة الرشاشة التي بدت وكأن ماسورتها ستذوب من حدة النار.

تعثّرت ماروسيا في وسط الجسر، وسارت بتثاقل وبلا ثقة... لحق روتشين بها، وأسندها. نظرت إليه بدهشة تريد أن تقول شيئا، ولكنّها اكتفت بالنظر إليه فقط. قعد روتشين نصف قعود، وحملها في يديه كما يحمل الطفل. كانت ماروسيا تضغط جسمها عليه أكثر فأكثر. وها هي نهاية الجسر، وإذا بفاديم بيتروفيتش يحسّ وكأن عصاً حديدية تصيب فخذه، جاهد لكي يبقى على قدميه حتى لا تسقط ماروسيا من يديه ولا يصيبها بأذى. جاء تشوغاي راكضاً من الخلف. فقال له روتشين "سأتركها تسقط... أمسكها.." وفي الحال وقعت القبّعة من على رأسه، وبدأت الدنيا تغيم في عينيه. وكان مايزال يسمع صوت تشوغاي:

ـ ساشكا، لا يجوز تركه....

١٦

لم تمثل مسرحيّة "اللصوص" إلا في شباط، أثناء فترة استراحة قصيرة نالها فوج كاتشالين. وكانت قد تخلّفت في الماضي المسيرات الطويلة في الصقيع والزوابع الثلجيّة، حين كانوا لا يرون أمامهم، بدلا من المبيت الدافئ، غير الشفق الكئيب تحت السحب، ولا يجدون في السهوب الثلجيّة حزمات من الحطب يشعلون النار بها ليدفئوا أجسادهم المتجمّدة، كما تخلّفت في الماضي المعارك الطاحنة، والإنذارات الصباحية. والمناوشات القصيرة الضارية مع القوازق. كان مامونتوف مع فلول أفواجه الممزّقة بعيدا وراء الدون. فقد تحلّل جيشه. ولم يعد موضع ثقة. لقد ضيّع عبثاً عشرات الألوف زبدة قوات الدون في ثلاث هجمات على تساريتسين.

بعد أن احتل رجال كاتشالين قرية قوزاقية كبيرة استسلمت دون قتال شعروا بالفرح. وشبعوا ونالوا غايتهم من النوم في دفء. والربيع على الأبواب، ولربما ستنتهي هذه الحرب الطويلة بحلوله.

انهكت داشا مسيرة متعبة استغرقت شهرا ونصف شهر، ولم يدر بخلدها البتّة أن تشغل نفسها بهذه التمثيلية من جديد. فقد تبدّدت اللوازم المسرحيّة. وجرح عدة أشخاص من الفرقة، كما

أنّ كتاب المسرحيّة نفسه قد ضاع. وكانت داشا تودّ لو تقضي ولو بعض الأمسيات في دفء مع إيفان ايليتش، وتجلس إلى جانبه دون كلمات ولا أفكار غارقة في السكينة الهادئة عند الغسق على الأغنية المستديمة لجدجد تحت الموقد.

وكان عليها أن تغسل البياضات وتصلحها، وترسل حذاء إيفان ايليتش اللبادي ليرقع، وتصلح من هيئتها، وإلا فأن زوجها وجميع الخلق، ومن بينهم هي نفسها، وقد نسوا أنّها امرأة. في المساء الأول خرجت داشا وأغريبينا من الحمام فوق البرك المتجمّدة، وكان الصقيع الخفيف يداعب خدودهما الحارة المبخرة. فيا لها من سعادة! هيّأت داشا وأغريبينا سماورا، وأعدّتا العشاء. كما أن إيفان ايليتش وإيفان غوراً عادا من الحمام أيضاً وجلس الأربعة حول المائدة، وحمحم الرجلان من السرور، فقد كان في الجوّ رائحة حساء الكرنب، كما أنّ رائحة طيبة أخرى كانت تنبعث من السماور! قال إيفان غورا:

ـ هكذا، يا إيفان ايليتش، راحة بعد الأعمال...

ولم تحظ داشا بالراحة. ففي اليوم الثاني، وقبل الساعة التي يعود فيها إيفان ايليتش عادة جاءت أنيسيا ومعها كتاب شيللر وعليها سيماء الجدّ والتحفظ، وتكلّمت رافعة عينيها الحالمتين:

ـ ضجرت أنا، يا داريا ديميتريفنا... أم لعلّي قد فسدت... كلّ الناس يبدون إعتياديّين، أما أنا ففاسدة... وقد ظهر ذلك منذ الصغر...، ثم فيما بعد، بالطبع تزوّجت في سن مبكرة، وأنجبت أولادا... ثم ألمّت بي محنتي، أنا في الرابعة والعشرين يا داريا ديمتريفنا. وستنتهي الحرب فإلى أين أذهب؟ أعيش مع فلّاح في

كوخ ريفي، وأحدّق في السحب الخاوي؟ أنا بعد كلّ ما رأيت وسمعت بحاجة إلى شيء آخر...

ونهد صدر أنيسيا تحت معطفها، وغمّضت عيناها نصف إغماضة.

ـ لقد قرأت هذا الكتاب كلّه، ولم أفترق عنه في المعارك... قد أكون قليلة الوعي جاهلة وغير متعلّمة، ولكن في الإمكان أن يصلح ذلك، يا داريا ديميترييفنا فإنّ أصواتاً كثيرة تتردّد في داخلي... أنا لا أعرف شيئاً عن نفسي، ولكنني أعرف عن الناس... عيناي تغرورقان بالدمع حين أفكّر في إنني قادرة حتى على أن أروي شيئا عن الكونتيسة أماليا هذه... وإذ ذاك ستنهض حيّة من هذا الكتاب. وقد حدّثني المرحوم شاريغين عن ذاك... يا داريا ديميترييفنا، اليوم وجدنا مكانا، في المدرسة يسع لحوالي ثلثمائة شخص.... كما يوجد نجّارون عندنا، ويمكن الحصول على خشب وجنفاص... فما الذي يمنعنا من تمثيل "اللصوص"؟ نحن نتذكر أدوارنا... اليوم تذكّرها الأولاد، ويودّون لو تتاح لهم فرصة للضحك...

وجاء إيفان ايليتش، وأعجب بالفكرة بالطبع: "فكرة رائعة! سنمكث هنا أسبوعاً... وسيكون ذلك عيدا ممتازاً للأولاد.." كان إيفان إيليتش إنساناً عجيباً. لا شيء يمكن أن يضعف من استبشارة بالحياة، وما دامت داشا إلى جانبه فمعنى ذلك انطلاق تام نحو السعادة... مثل تلك الأيام الحزيرانية البعيدة الزرقاء النسائمية على السفينة...

وهكذا لم يكتب لداشا أن تسمع في الغبش إلى دقات قلب حبيبها، وتنسلّ حذرة كانسلال القطة إلى أفكاره الخفيّة... ولكن

هل كان من الممكن أن يكون لديه شيء خفي؟ ثم ما حاجة داشا إلى ذلك؟ إنّ إيفان ايليتش رجل بسيط كريم يهب كلّ ما لديه إلى الآخرين. ووجهه المتيبّس من الصقيع والريح بسيط كالشمس.... آه إنّ كلّ شيء سيكون مختلفاً لو أنّ داشا ستحمل حياة جديدة، لحما من لحمه في الظلام الغضّ لجسدها النحيل...

بدأت فرقة التمثيل تتمرّن. وأية عذابات كانت! بكت داشا في صمت، وكان الممثلون يخجلون من تبادل النظرات فيما بينهم. وأظهروا غلظة وقساوة، وبحّت أصواتهم من البرد... وأبدى سابوجكوف العون بالقائه محاضرة عن نشأة التمثيل بشكل عام حيث أثبت أنّ التمثيل متأصّل حتى بين بعض الطيور والحيوانات، فالثعلبة مثلا حين تصيد فأرا، تقوم معه أمام صغارها بعرض حقيقي، فتقفز، وتنقلب على ظهرها، وتسير على قدميها، وتدير ذيلها... وتنشّطت الفرقة، وسار الأمر سيرا حسنا بعض الشيء. وضعوا خشبة مسرح في المدرسة، وطلوا الجنفاص. وأعدوا أضواء مقدّمة المسرح من القناديل المشتعلة. وعثروا فجأة بين الأمتعة في العربات على ستر الفراك ومعاطف السهرة، وهي الأشياء التي صادرها إيفان ايليتش من محام عابر بينما كانوا في المزرعة.

وأخيراً جاء اليوم الموعود: ما أن غربت الشمس حتى طاف في القرية جندي على حصان رمادي تابع للمدفعية (وهذا ابتكار لإيفان ايليتش)، ونفخ في البوق النحاسي، وأنشأ يصيح: "أيها المواطنون والرفاق، بعد قليل سيبدأ عرض "اللصوص لشيللر...".

وهرعت القرية كلها إلى المدرسة، واقتحم الناس مقدّمة

المبنى والمدخل إلى القاعة حتى دخلوا إليها وعيونهم جاحظة وقد فقدوا في الزحام قبّعاتهم وأزرار معاطفهم... والذين لم يتسنَّ لهم حضور العرض زايلهم الندم بسرعة. إذ كان يطلّ على القرية هلال في أوائله في السماء الزرقاء قبيل الربيع. وارتفعت أصوات الأكورديون أمام المدرسة وأدهش رجال الجيش الأحمر بغنائهم المحبوب القوزاقيات اللواتي قبلن بالوضع منذ وقت قصير: "طار الملاك في سماء منتصف الليل..." وجرى تعارف وقيلت نكات و"الغزل للعيون، والقبل للشفاه..." أو من مثل "يريد العسكري أن يتزوّج، والزواج ليس بعطسه، ويمكن أن يؤجل..".

في البداية أخذ الجمهور في القاعة يهدر ضاحكاً حين اكتشف أنّ العجوز المموّه بالمكياج بخصلات شعره من الكتان، والرداء المصنوع من مسوح راهب هو الجندي الأحمر فانين... فصاح المتفرّجون: "إنّه هو! هيّا، فانين، أبْدِ شطارتك، ولا تخف!..." وحينما ظهر من وراء الكواليس رجل في ملابس فضفاضة وذيلين يرتدي جوارب نسائية وقد برزت أسنانه كلّها وتباعدت عيناه يدلف بخطى زاحفة ذات نمط خاص، وفح فحيح الأفعى "يا أبي، أنا هنا، ابنك الوفي، فرانتس" عرف الجمهور على الفور أيضاً أنّه كوزما كوزميتش، فانفجر ضاحكاً...

كانت داشا وراء الكواليس تمسك بصدغيها وتردّد لسابوجكوف:

ـ هذه النهاية. الفشل المريع، كنت أتوقّع ذلك... إلا أنّ الممثّلين تغلّبوا على المرح الذي شاع في القاعة. تعرّف الجمهور على الجميع، وأخذ يصغي. تقدّم لاتوغين من القناديل الساخنة الداخنة. فأضاءت من الأسفل وجهه الضخم الذي ألصقت به لحية

من صوف الغنم، وحاجبيه الكثّين المعوّجين، وطوى يديه على صدره بقوّة جعلت سترة السهرة السوداء التي كانت تعود للمحامي في وقت ماتتفتّق، وقال بصوت قوي:

ـ آه، لو كان في مستطاعي أن أدعو إلى الانتفاضة الطبيعة كلّها والهواء والأرض والمحيط. وارمي بالحرب ضدّ عشيرة بنات آوى هذه كلّها.."

وهدأ الجمهور حالا فاهماً الإتجاه التي تتّجه إليه المسرحيّة. ولم يغيّر الديكور، ولم تجر تبديلات تلفت النظر. وقبل بداية كلّ مشهد كان سيرغي سيرغييفيتش يطلّ برأسه من بين الستارتين وعلى وجهه ابتسامة، وكأنّه على علم بشيء ما خاص يقول:

ـ المشهد الثالث. تصوّروا القلعة المترفة للكونت مور. وإلى النافذة يأتي عبق الحديقة. وأماليا الجميلة تجلس في غرفتها...

ويختفي وجهه الذي أضاءته القناديل. وتنفرج الستارة. وما من أحد كان يريد أن يقرّ بأن هذه الجميلة الحانقة بتنورتها العريضة ومنديلها الزاهي اللون المربوط بعقدة على صدرها، الفتاة المورَّدة الجعداء الشعر الواسعة العينين هي أنيسيا نازاروفا من السرية الثانية.

تكلّمت بصوت واطئ وبارتجاف وكأنها تصدح ودقت الطاولة بقبضتها لفرانتس "إبتعد عنّي، أيها العاطل..." وسارت التمثيليّة مثل قصة أسطوريّة ساحرة من تلك التي كان الجدّ يرويها في الطفولة، في أمسية شتائية، وأنت تصغي مطرقاً برأسك الموقد....

وكان كوزما كوزميتش يخاف اللحظة التي تصفعه فيها أماليا على خدّه. فقد كانت يدها رغم استغراقها في الحلم يد محاربة

في الجيش الأحمر. وقد همس كوزما كوزميتش لها: "أخاف..." ولكنها صاحت بكلّ قلبها "آه أيها الكاذب المشين!" ورفعت ذراعها وكأن كلّ ثقل الحياة الماضية قد هبط عليها وضربت فانقذف كوزما كوزميتش على الكواليس. ولكن أحدا لم يضحك.

وصاح بعض المتفرّجين "يستحقّ..." وصفّق الجميع لأن كلّ واحد منهم ودّ لو يضرب هذا الوغد تلك الضربة.

ثم قطعت القلادة من رقبتها، وألقتها وسحقتها بحذائها:

ـ "البسوا أنتم الذهب والفضّة، أيها الأغنياء! واتخموا بطونكم وراء الموائد الفاخرة، وأريحوا أطرافكم على أريكة اللذة الناعمة! كارل أحبّك...".

ابتسم سيرغي سيرغييفيتش وهو يسحب الستارة وراءه وقال بدلالة كبيرة: "فاصل..." تقدّمت أنيسيا وراء الكواليس من داشا، وضغطت عليها وضمّت وجهها في صدرها مرتعشة ارتعاشة خفيفة مقشعّرة:

ـ لا تمدحيني، يا داريا ديميتريفنا ، لا حاجة لذلك..

وبعد ذلك سار التمثيل بانسياب. في الفصل الأول عرق الممثّلون عرقا شديدا، وخف التوتر من عضلاتهم المتوترة، وصارت أصواتهم المشدودة إنسانية، ولم يعودوا يعبأون إذا لم يسمعوا همس سيرغي سيرغييفيتش الصافر وهو يلقّنهم، فلم يتورّعوا من أنْ يبتكروا كلاما من عندهم أكثر مضاضة مِمّا لدى شيللر، أو على أية حال أكثر إفهاما.

وسرّ الجمهور سرورا كبيرا بالعرض. كان تليغين يجلس في الصف الأول جنب المفوّض، وقد دمعت عيناه عدة مرات. وكان إيفان غورا المفروض فيه أن يكون رابط الجأش ينشج من انفه

بصوت عال، وكأنه يشترك في عملية حربية موفقة. وكان الممثّلون مسرورين بشكل خاص، فلم تكن لديهم الرغبة في خلع ملابسهم وإزالة المكياج، وكانوا يودّون لو يقيمون عرضا ثانيا غير ملتفتين إلى صياح الديكة في القرية كلّها معلنة اقتراب الفجر.

وانتهى المهرجان. وهدأت الأغاني والأكورديونات، ولم يسمع غير باب حديقة يصفق هنا وهناك. وحتى الديكة كفّت عن صياحها. وهجعت القرية. وسارت أنيسيا ببطء في الشارع وإلى جانبها لاتوغين وقد ألقى معطفه على كتف واحدة، فقد كان مايزال يشعر بالحرّ.

ـ نعم، يا أنيسيا، نعم، شيء عجيب... تسيرين في غلافك هذا، في معطفك، ولكنّني أراك من خلاله... الكلمات الاعتيادية غير ملائمة، ولا أريد أن أقولها لك...

سارا في نهاية القرية، إلى حيث كان السهب في المدى البعيد يندمج في الظلام. وقد تسلّق الهلال عالياً في السماء التي دكن لونها. وما زالت القناديل تتراءى أمام عيني أنيسيا مشتعلة، ووراءها في الظلمة الحارة المكتومة تلقّت كلّ كلمة تفوّهتها صدًى قويّاً، وتصاعدت إليها زفرات عميقة، وكان في قوّتها هذه شيء نسوى فريد لا قرار له. وقد طاب لها أن تستمع إلى لاتوغين...

ـ عرفت الكثيرات، يا ملاكي... الشيطان بهن جميعا... أنا لم أصادف مثلك... لقد أخذني حبّك، فأن شئت اسمعي، وأن شئت لا...

وتوقّف وتوقّفت. وعانقها، وسقط معطفه عن كتفه على الثلج. وقبّل شفتي أنيسيا الباردتين قبلة قوية طويلة. وأبعدها عنه،

ونظر في وجهها الذي بدا غير مكترث بوجنتيه المحمرّتين بحمرة البنجر. بينما هي لم تنظر إليه، كانت عيناها المطليتان تحدّقان في الهلال.

ـ ذلك هو عذابي... آوه، لابأس...

رفع معطفه عن الأرض وتابعا سيرهما من جديد...

في تلك الليلة لم تنم داشا أيضاً. أسندت كوعها على الوسادة وراحت تقول:

ـ أنا افهم أنّ ذلك لا يمكن تحقيقه الآن... ولكن إسمع. عندنا أنيسيا وعندنا لاتوغين. وكوزما كوزميتش موهبة حقيقية... سيكون ياغو... سنمثّل "عُطيل"... سنضيف إلى الفرقة عناصر جديدة، غدا أصدر أمرك في الفوج... وسترى. سنمثّل أمام الفرقة، أمام الفيلق. ولكن من الضروري، أولا: الإحتفاظ بديكورنا. تحدّث مع المفوّض ليخصّص لنا عربات خاصة... هل رأيت كيف استمعوا! تكون لدي انطباع بأن المتفرّج اسفنجة تمتصّ الفن...

ـ أنت على حقّ.

أجاب إيفان ايليتش. كان يسير واضعاً يديه وراء ظهره في قميص محلول وقد خلع حذاءه الطويل الرقبة وانتعل خفّين خفيفَين كانت داشا قد اشترتهما من قوزاقية، وفي كلّ مرّة كان يحجب ضوء القنديل على الطاولة بجسمه الضخم الأسود، وكان ذلك لا يريح داشا لسبب ما. وحين اقترب من النافذة الصغيرة استدار، وأنار الضوء وجهه الباسم القوي الأحمر الذي بدا وكأنه البرونز، ودقّ قلب داشا بقلق.

ـ أنت على حق... الروسي يحبّ المسرح... الروسي يملك

ولعاً خاصاً بالفن. إحتياجا غير اعتيادي، تعطّشاً... أنظري. شهر ونصف من المعارك، والناس قد هلكوا، ولم يبق منهم غير الجلد والعظم، والكلب نفسه يمكن أن يفطس... فما حاجتهم إلى شيللر؟ ولكن اليوم أقبلوا على العرض كما يقبل الناس على العرض الأوّل في المسرح الفني في موسكو... ثم خذي أنيسيا!.. أنا لا افهم... إنّها ممّثلة بالفطرة... أيّة حركات وأيّة رهافة... أيّة عواطف! وهي فضلاً عن ذلك حسناء.

وحجب الضوء مرة أخرى وهو يهز ذراعيه، وقالت داشا:

ـ إيفان، ألا يمكنك أن تكفّ عن السير في الغرفة؟

وكان في صوتها ضيق لم يسمعه منذ زمن بعيد. كانت وهي ترتفق الوسادة تتفرّس بعينين غائمتين. توقّف إيفان ايليتش على الفور، وتقدّم من الفراش، وجلس على حافّته. وبان عليه تخوّف مكشوف.

ـ إيفان وقعدت على الفراش إيفان، منذ زمان وأنا أريد أن أوجّه إليك هذا السؤال ومرّرت إصبعيها على عينيها بسرعة ذلك شيء صعب، ولكن لا أستطيع الإصطبار أكثر من ذلك...

ورأت من وجهه أنّه فهم أي سؤال سيكون، ومع ذلك فقد قالته لأنّها قد رددته مع نفسها ألف مرة:

ـ إيفان، ألم تعد تعد تعتبرني امرأة كلّيا؟

أخذت كتفاه ترتفعان، وغمغم بشيء غير مفهوم، وأمسك برأسه. حدّقت داشا فيه تحديقة ثاقبة، وكان مايزال لديها أمل ما... أمن الممكن أن يكون ذلك حكما صادراً عليها؟

ـ داشا، داشا إلى هذا الحدّ أنت لا تفهميني.. على أيّة حال يجب أن تكوني شهمة.

ـ شهمة؟ (ذلك هو الحكم!...)

ـ إنّ حبي لك كبير يا داشا... يمكنك أن تكرهيني... رغم أنّني في الحقيقة لا أعرف شيء؟... ربّما هو نفور عضوي... وأنا افهم جيدا... لقد احببتك لمدى الحياة، ولا يهمّ، وأقولها لك بكلمة شرف، أن يكون ذلك صعباً عليّ أو يسيراً. أنت معي مثلما قلبي معي... فلاتقلقي وكوني سعيدة...

كانت داشا تصغي، وهي تهزّ رأسها. تغضّن وجهه، وقال بهدوء:

ـ لا أدري لماذا كنت أتخيل دائما قدميك الصغيرتين المسكينتين: كم ضربتا في الأرض بحثاً عن السعادة، وكلّ ذلك بلا جدوى...

كشفت داشا من تحت البطانية عن قدميها العاريتين النحيلتين وقفزت على الأرض الترابيّة، وركضت وأطفأت القنديل على الطاولة.

بعد أن عاد إيفان غورا من العرض مع أغريبينا أشعل شمعة محترقة إلى النصف واستعرض الأوراق المختلفة التي تراكمت خلال اليوم وكان من عادته أن يهيّئ كلّ شيء قبل أن ينام. جلست أغريبينا على مصطبة قرب الباب، في ناحية دون أن تخلع معطفها ولا قبّعتها.

قال إيفان غورا متثائبا حاكاً رقبته:

ـ وأنت أيضاً لم يكن تمثيلك شيئاً، لم أسمع ماذا قُلْتِ على المسرح. كان دورك صغيراً جدا... ولكن أنيسيا، أنيسيا! وأنزل أنفه نحو الشمعة، وابتسم ابتسامة ذات معنى، وأخذ يتصفّح

الأوراق ربما ذلك لأنها أدارت تنورتها على حد تعبيركن بشكل مفرط. إنها تشعر أنّ هناك رجلاً... يجب أن تصان. أن تصان. وماذا تظنين؟ ما أكثر ما رفعت الثورة من أمثالها! وفي ذلك تكمن المسألة كلّها... كلّ شيء مخطّط على ذلك... لا، ليس الشعب جاهلا... الشعب غني بالمواهب... ونحن نقاتل ببذخ تام... نحن بحاجة إلى آلات... هاك، اقرئي... وهي بيديه على إحدى الأوراق استولينا على دبابة بأيدينا العزلاء... تلك همجيّة... لو كان لي إبن لوشَمْتُ على صدره. تذكّر ولا تنس مَن أنت مدين إليه بالسعادة، لا تنس الذين ترقد عظامهم في أعشاب السهب...

استندت أغريبينا على الحائط، وأغمضت عينيها، وأطبقت شفتيها، وراحت تتذكّر أمض شيء على نفسها يخطر على بالها. كيف كان غورا يرقد ليلا في السهب بلا حراك ولا نفس، ولم يكن يهمّها آنذاك أحيّ هو أم ميت. كان في بندقيتها آخر مشط من الرصاص... ولم تودّ الرحيل مع الآخرين، ولم تتركه وحيداً في هذا السهب ليلا... ومن المؤسف أنّ عظامها منذ ذلك الحين لم ترقد بيضاء هناك...

ـ لماذا لا تأوين إلى فراشك، يا أغريبينا؟

وحجب إيفان غورا الشمعة عن عينيه براحة يده، ونظر. كانت الدموع تنزل من عيني أغريبينا المطبقتين، وغالباً ما تقطّر من رموشها الطويلة، بينما ارتفع حاجباها الأسودان عالياً... جمع الأوراق في حقيبة الميدان، واقترب من أغريبينا، وقرفص أمامها:

ـ ما هذا، يا بلهاء؟... لعلّك متعبة؟

ـ أوشم صدره، علّمه، علّمه عند العظام البيض...

ـ ماذا وراءك، يا أغريبينا؟

ـ أنا في الشهر الثاني... وأنت لا ترى شيئا... لا تعرف إلا شيئا واحدا: أنيسيا، أنيسيا...

فجلس إيفان غورا عند قدمي أغريبينا. وانفتح فمه من تلقاء نفسه كما ينفتح فم الأبله...

ـ ألا تكذبين، يا فتاة؟ أيّة سعادة هذه، أحقا أنّك حامل؟ يا عزيزتي، يا حلوة...

وعندئذ قال ذلك قال بصوت منخفض، صوت امرأة:

ـ دعك عنّي، اغرب عن وجهي...

ومالت نحوه، وطوّقته، وهبطت بثقلها عليه وهي ما تزال تنشج، وفي كلّ مرة يزداد نشيجها تقطّعاً ووهناً.

أثار اندحار الهايتمان كراسنوف للمرة الثالثة قرب تساريتسين حيويّة في الجبهة الجنوبيّة كلّها حيث كانت تتسلّط بجيوشها الثلاثة الثامن والتاسع والثالث عشر على الدون والدونباس. كان القوزاق المعاودون يبدون وكأنّهم على استعداد لنبذ العداء، وتعليق سروجهم في السقيفة ومحطّاً لذرق الحمام ولفّ البنادق في الخرق المزيّتة، ودفنها عميقاً في الأرض. فأي شيطان ظنّ أنّ العيش متعذّر في ظلّ البلاشفة؟ فالأرض لم تذهب عنهم، ها هي ترسل البخار على الأكمات الجرداء، تحت شمس الربيع، وأيديهم ماتزال معهم، والخيول تنشد الأطواق، والثيران تسأل عن النير...

كان القائد العام في سيربوخوف يستعجل الهجوم. وكانت خطّة القائد العام الأوّلية الناقصة قد تغيّرت بعض الشيء، وجرى تعديل في تشكيلات الجيوش أثناء المسيرة، فبدلاً من الزحف

على طول الدون إلى الجنوب الشرقي اضطرت الجيوش الحمراء إلى أن تستدير إلى الجنوب الغربي نحو دونيتس في الوعورة وفي موسم تسوء فيه الطرق، ولكن الوقت كان قد فات للقيام بذلك، فإنّ طريق الثورة الرئيسي الدونباس البروليتاري قد أغلق بإحكام. ذلك لأن فرقة ماي مايفسكي قد شقّت طريقها إلى الدونباس أثناء الشهرين اللذين انقضيا في المكوث في البقعة، وعززت بوحدات قويّة من جيش المتطوعين اخذت من شمال القفقاس بعد أن شتّت الجيش الأحمر الحادي عشر على رمال استراخان. والآن كان يقف على الضفة اليمنى من الدونيتس خمسون ألفاً من قوّات البيض المختارة بقيادة ماي مايفسكي وبكروفسكي وشكورو.

بدأ الربيع دفعة واحدة. فتحت الشمس الشعثاء ذابت الثلوج، وامتلأت منخفضات السهوب بماء أزرق وانفتح نهر دونيتس، وجرت فيضانات لا مثيل لها. ولما كانت خطوط السكة الحديد في تلك الأنحاء تسير بخطوط طول، فقد لزم الأمر أن تجري إعادة تشكيل الوحدات في الأرض الترابيّة، في الطريق الوعرة. ولصقت العربات العسكرية بالوحل اللزج متخلّفة عن وحداتها. وكلّ هذه المصاعب أوقفت وأبطأت إعادة تشكيل الوحدات. وكان البيض قد احتلوا المعابر على نهر دونيتس الطافح على مساحة عريضة. وتحوّل الهجوم إلى معارك مطوّلة. وفي ذلك الوقت بالذات اندلعت فجأة في المؤخّرة في قرية فيشينسكيا المتصالحة انتفاضة قوزاقية دموية عنيدة دبّرها عملاء دينيكين. ونقلت طائرات البيض إليها المحرّضين والمال والسلاح.

وبناء على أمر القائد العام تابع الجيش العاشر وحده، وكان يشكّل الجناح الأيسر، والتحرّك نحو الجنوب على طول الطريق

الحديدي العام دافعا ومحطِّماً فلول وحدات كراسنوف.

وسار الجيش العاشر للقاء حتفه.

في الظهيرة، وفي السهب حيث كانت تهبّ ريح حلوة كان يؤذي العين النظر إلى البرك والجداول وبحيرات الربيع، فقد كانت الشمس تلتهب عليها، وفي السماء النيليّة الشفافة كانت عصائب الطيور تصفِّق بأجنحتها، وتحلِّق الغرانيق زاعقة بصوت الأبواق. فكان الناس يرفعون رؤوسهم وهم على درجة العربة يشيّعونها بأبصارهم!... إلى أين، أيها الاحرار؟ إلى أوكرانيا، بوليسيّة، إلى فولين، وأبعد من ذلك، إلى ألمانيا وراء الرين، إلى الأوكار القديمة... أيه، يا غرانيق، بلِّغي التحية للطيّبين، وحدِّثيهم، وأنت تضعين ساقاً حمراء على السقف كيف طرت إلى روسيا السوفييتية، ورأيت الجليد قد تشقّق فيها، ومياه الربيع تطفح على الحوافي. ربيع لا مثيل له في أي صقع بضراوته وعصفه وخصوبته...

كانت داشا وأغريبينا غالبا ما يجتمعن الآن على فسحة العربة تعبات من الشمس والريح. وكان القطار يتّجه جنوباً، والربيع مقبل للقياه. وكان المقاتلون قد خلعوا معاطفهم واكتفوا بالقمصان وحدها غير مزرّرة عند العنق. وبين الحين والآخر كانت تترامى قرقعة وهدير من وراء الأفق إلى الأمام، حيث كانت الوحدات الأمامية للجيش العاشر تطرد من الضيع العصابات الأخيرة من القوزاق واحتلت فليكو كنياجسكيا دون صعوبة كبيرة. وبعد أن تجاوزها قطار فوج كاتشالين أفرغ حمولته على ضفّة نهر مانيتش، وأخذ يحتلّ مواقعه في الجبهة.

تمتدّ سهوب سالسكيه منبسطة خالية مثل غشاوة خضراء.

متجمّدة فوق البحر، وفي الربيع يغدق عليها نهر مانيتش مياها كدرة تغطّي عيدان القصب. وهنا، في الأزمنة الغابرة، كانت السهام تطير على مانيتش من ضفّة إلى أخرى، وكان الرحل الاسيويون يتقاتلون مع السكيفيّين والالانيّين والقوط. ومن هنا جعل الهونيون الأرض قفراً حتى شمال القفقاس. وهنا كان الكالميكيّون يستمعون وهم جالسون عند خيامهم اللبادية إلى القصّة المأثورة عن بطولات ماناس. وكانت السهوب باذخة في الربيع، فقد كانت الأرض التي اترعت بالماء تتعجّل التدثر بالأعشاب والزهور، وكان الغروب المسائيّ البليل يورّد حوافي السماء باتجاه البحر الأسود، والنجوم الكبيرة تسطع حتى حافة الأفق. وكانت الشمس الضاربة تخرج من وراء قزوين مثل درع فارسي.

نزلت قيادة فوج كاتشالين في المبنى الوحيد الصالح للسكنى في هذا القفر، في بيت طيني مغطّى بالقصب وراء سياج زريبة خيل مهملة. ولم يكتشف أثر للعدو في مكان قريب، وتوغّل رجال الاستطلاع بعيدا في الجنوب باتجاه تيخوريتسكيا، وفي الغرب نحو روستوف. وكان من الصعب إقناع المقاتلين بأنّهم لم يأتوا إلى هنا لينسفوا السمك بالقنابل اليدويّة، ولا يضيّعوا العتاد الغالي بالتسديد على الوز في الشفق المسائي، فإنّ أمامهم قتالاً صعباً، لأن الجيش قد قذف في مؤخّرة العدو، وهذا العدو ليس بسيطاً، كما أنّه لم ينهزم بعد.

ذات مرة عاد إيفان غورا من قيادة الفرقة، واستدعى إيفان ايليتش، وسار الإثنان صامتين على الشاطئ، وجلسا عند الماء، وأشعلا سيجارتين، كانت الشمس الحمراء المسطّحة تنحدر

محجوبة بالأبخرة المتصاعدة من الأرض، وكانت الضفادع تنقّ على مانيتش كلّه نقيقاً عالياً خبيثاً.

قال إيفان غورا:

ـ الخبيثات، يضعن البيض.

ـ اها. ماذا عرفت هناك؟

ـ الوضع السابق. قلق. الجميع مدركون، وليس من الممكن عمل أي شيء. إن أمر القائد العام القاطع هو الهجوم على تيخوريتسكيا. ما رأيك في هذا؟

ـ ليس النقاش عملي، يا إيفان ستيبانوفيتش، بل تنفيذ الأمر عملي.

ـ أنا أسألك ماذا تفكر فيه بينك وبين نفسك؟

ـ ماذا أفكر؟.. وأنت الا تنوي رميي بالرصاص؟

ـ تفو، يا عبيط... الجميع يجيبون بهذا الجواب... أنتم جبناء جميعا...

ودفع إيفان غورا طاقيته وحكّ رأسه، ثم شعر بأنّ جنبه يحكّه، انقلعت كتلة من الأرض من الشاطئ تحت قدميه، وسقطت في الدوّامات المائية الكدرة بطرطشة خافتة. نقّت الضفادع بضراوة عارمة، وكأنها نوت أن تسكن عشيرتها الزلقة رحاب الأرض كلّها.

ـ إذن، فأنت تعتبر إيعاز القائد العام صحيحاً؟

ـ لا، لا أعتبره.

أجاب إيفان ايليتش بخفوت وثبات.

ـ اها! لا! حسنا... لماذا؟

ـ نحن هنا قد انقطعنا تقريبا عن الاحتياطات، عن قواعد التموين. وسيقطع العدو في مكان ما الخيط الرقيق الذي يربطنا بتساريتسين. وعندئذ سنقع في المصيدة. إنّ الأمر كله لا يبدو ركينا.

ـ إذن؟...

ـ إنّ هجومنا ابعد إلى الجنوب على تيخوريتسكيا يعني أن نكون كالقطّ وهو يضع رأسه في بوز الحذاء. ولن يحصل من ذلك أيّ خير. يمكن أن أفهم المغزى لو أن جيشنا أرسل تظاهرات لاخراج قوات البيض من الدونباس بأي ثمن...

ـ وبعد...

ـ ولكن ذلك متعة غالية الثمن: أنْ تحطم جيشاً لمجرّد التظاهر....

ـ وما هو استنتاجك؟

نفخ إيفان ايليتش خدّيه، وألقى في الماء سيجارته المنطفئة الملفوف تبغها بورق الجرائد:

ـ لم أضع استنتاجاً، يا إيفان ستيبانوفيتش...

ـ أنت تكذب يا أخ، تكذب، تكذب... حسنا، أسكت، كلّ شيء مفهوم من دون أن تقول شيئاً... ذات مرة حكيت لي، يا إيفان، عن مفوّضك غيمزا وكيف أرسلك... إلى القائد العام في تبليغ سري عن الخائن سوروكين... وعلى هذا... (وتلفّت إيفان غورا وخفض صوته) أشعر وكأنني أود الآن لو أسافر بنفسي لا إلى القائد العام سيربوخوف، بل إلى موسكو مباشرة... هناك وغد مندسّ أما في القيادة العامة أو في المجلس العسكري الأعلى... نعم، ولا يمكن غير ذلك، فأنها الحرب... ونحن نثق كثيراً...

فإذا كان لنا ومن لفّ لفّنا أفكار سامية، وقلوب كبيرة فإنّنا نظّن أن العالم كلّه فاضل إذا استثنينا البورجوازيّين، فلنضرب بإخلاص ذات اليمين وذات الشمال... لقد تمنعت في فلاديمير إيليتش في بتروغراد. إن له عينا روسية متقلصة فاحصة... إنه متحمّس ومفكّر، يضع يديه خلف سترته، ويسير جيئة وذهابا، وفجأة يوجّه جبينه وعينه نحو الشخص، ويفهم كلّ شيء... هذا ما ينبغي.. أنا وراءك أراقب كلّ حركة، وكلّ كلمة تقولها... أما أنت فلا تراقبني، بل تثق بي ثقة عمياء... سأقدّم لك مهمّة مؤذية. ما عليك إلاّ أن تصمت وتنفذ.

ـ لا، لا أنفذ.

ـ منذ لحظة قلت: ليس النقاش عملي. حسنا، ماذا ستعمل؟

ـ أحاول أن أوقظ، أن اقنع...

ـ تقنع! مثقف... يجب أن ترمي!... آه، يا الهي...

وضع إيفان غورا يديه الكبيرتين على طاقيته، على رأسه مسندا مرفقيه على ركبتيه. أنّه لم يخبر تليغين بالشيء الأهمّ، وبالبرقية التي قرئت يوم أمس في الاجتماع الحزبي للفرقة، برقية رئيس المجلس العسكري الأعلى للجمهورية مرسلة من موسكو ردّاً على الإستفسار المقلق لقائد الجيش العاشر برقية متعجرفة مهدّدة تؤكّد بشكل قاطع على التوجيهات التي أعطيت من قبل.

ـ وإليك آخر الأخبار: على جناحنا الأيمن تتركّز أربع فرق للجنرال بوكروفسكي جلبت من الدونباس، وفيلق الجنرال كوتيبوف يزحف للقائنا، وقد قطع علينا الطريق إلى تيخوريتسكيا بالفعل. حزر خطة القائد العام... وعلى الجناح الأيسر تتجمّع

خيالة الجنرال أولاغاي... وإلى الوراء على بعد أربعمائة فرسخ يوجد خواء.

قال إيفان ايليتش:

ـ وهذا ما سيحسم كلّ شيء. إذا تريد رأيي فهو أن يجلى على الفور جميع المرضى، وترسل جميع الأشياء الزائدة إلى المؤخّرة لنكون أخف. لن نستطيع الاحتفاظ بمانيتش....

لم يرد إيفان غورا بشيء. صمت قليلا ثم بصق في النهر بحنق:

ـ إن مثل هذه الاحاديث كان من الممكن أن ترسلنا أنا وأنت إلى محكمة عسكرية... كفى أن يقال لك: مت على مانيتش فتموت...

ـ لم أرفض ذلك البتّة، ولا أرفض على ما يبدو.

في اليوم الثاني من أيار ظهرت دوريات الجنرال كوتيبوف وراء النهر. في بادئ الأمر كانت مجموعات صغيرة حذرة من الخيّالة. كانوا يستكشفون السهب، فتارة يتوقّفون قليلاً، وتارة ينطلقون بأقصى سرعتهم تحت الرصاص على البرك اللامعة. وظلّوا يتجمّعون أكثر فأكثر، ويقتربون من الجبهة بجرأة أشد، ويترجّلون مرقدين خيولهم، ثم أخذوا يطلقون النار على النقاط الأمامية.

وفي الثالث من أيار اقتربت قوات كوتيبوف الرئيسية وسط هدير قصف المدافع وخلال تركّزها في منطقة الخط الحديدي أخذت تهاجم ساحل مانيتش بوثوق وبموجات متعاقبة. وحلّقت طائرات استطلاعيّة ذات جناحين مختلفة عن الطائرات الروسية وعن الألمانية. وتقدّمت لوريات تحمل عوامات الجسور ناثرة

الماء والوحل. وفي نفس اليوم اخترقت النهر الوحدة الضاربة من قوات كوتيبوف في الموقع الذي تحتلّه فرقة موروزوف. إلا أنّها أبيدت في معركة بالحراب.

ومع هبوط الليل تراجعت الصفوف وتخندقت. ولم تشعل النيران في أي مكان. وهذا التراشق، وخيم على السهل ليل هادئ رطب عبق بالزهور. ونقّت جوقات الضفادع الوقحة وكأن لا شيء مهمّاً قد حصل. وتوهّم بعض الرجال النائمين وآذانهم على الأرض إنهم يسمعون حفيف العشب الخفيف، والظلام الدامس المتحرّك ببراعمه الرقيقة القوية.

استمر الاجتماع طول الليل في مخبأ الاركان عند إيفان ايليتش. كانوا ينتظرون بنفاد صبر أمر الفرقة بالهجوم، فقد كان واضحاً للجميع أنّ عدواً كهذا العدو لا يجوز أن يترك ساعة واحدة للتناور دون عقاب، وتوجيه الضربات في الأماكن التي يريدها على الجبهة النحيلة للجيش العاشر الممتدة إلى ما يقرب من خمسين فرسخا، والمكشوفة من الجناحين ومن المؤخّرة. وتحدّث أمراء الوحدات عن مزاج وحداتهم. أن رجال الجيش الأحمر متهيّجون ولا ينامون ويتهامسون في الخنادق بأنّه لو كان هذا في العام ١٩١٨ لهرع الفوج كلّه لاجتماع عام مهدّدا بأنّه سيمزق آمره إذا لم يصدر أمراً بالزحف إلى الأمام! فهناك لحظات من اليأس والحنق يبدو وكأنّ في الإمكان اكتساح كلّ شيء في الطريق.

دخل إلى المخبأ موشكين وهو آمر سريّة، وقد كان عبر لتوّه نهر مانيتش وغطس فيه حتى رقبته من الضفة التي توجد فيها حضيرة من سرِيته. كان عاملا من عمال التعدين في تساريتسين،

وقد هوى الفن العسكري هوى الصيّاد.

ـ رائحة المخبأ لطيفة، يا رفاق، قال ذلك مقلّصاً عينيه من دخان التبغ الكثيف بحيث أنّ الشمعة لم تكد ترف. وخلع حذاءه الطويل قافزا على هذه الرجل ثم على الأخرى، وسكب الماء من باطن الحذاء، وتابع قوله: جرح رجالي واحداً من الكاديت. وأردت أن أجلبه معي، ولكنّه مات مع الأسف... فتى صغير، غرّ، ولكنه مملوء بالضغينة. ظلّ يصرخ "أوغاد، أوغاد!" حتى أنّ فتياننا ذهلوا... مزّود يرتدي الجوخ والحذاء الطويل والأحزمة... شتان بينه وبين القوزاقي! القوزاقي أحمق، ريفي، من إخواننا، إذا ضربته رد لك الضربة مثلها، وارتدّ... أما هؤلاء ذوو الأيدي البيض فلا يرأفون بأحد... الحضيرة متكوّنة من ضباط فقط، وآمر الحضيرة عقيد... وكلّ واحد منهم يشد ساعة في معصمه... لقد قلت لرجالي: يا صعاليك! أخرجوا الساعات من أدمغتكم ولا تزحفوا على مواقع البيض من أجل الساعات، سأكسر أسنانكم...

وضحك موشكين كاشفاً عن أسنان جيّدة، وأنارت الطيبة وجهه القبيح المجدّر الذكي.

ـ الوضع كالآتي، يا رفاق: ترامت من السهب ضجة لا نزال نسمعها منذ زمان منذ هبوط الظلام. فأرسلت المستطلع ستيبكا تشافيليف، وهو ليس إنسانا بل روحا قديسا... وزحف وجاء وقال إنّ مدفعيتهم قد اقتربت، ويبدو أنّ المشاة محمّلون على عربات... استعدوا، يا رفاق..

أحسّ إيفان ايليتش بالدوار من الدخان، فخرج من المخبأ إلى الهواء الطلق لبرهة من الوقت. كان هلال حاد الطرفين

كالمنجل منير بشكل نافذ يطلّ وسط النجوم الوامضة. وكانت ثلاثة شخوص نسائية تجلس على سياج من ثلاثة ألواح. اقبل إيفان ايليتش نحوها.

طلب إلى الجميع أن يناموا في الخنادق فقط. أنا لا أفهم.

ـ لا نستطيع النوم.

قالت داشا ذلك من أعلى الحواجز منحنية نحوه.

وبدا ثلاثتهن جميعا داشا وأنيسيا واغريبينا وسيعات العيون نحيلات غير اعتياديات... ولم يقدر أن يتبيّن إن كنّ يبتسمن له أو يعبسن بطريقة خاصة.

قالت أغريبينا:

ـ نحن ننتظر هنا انتهاء اجتماعكم.

وقالت أنيسيا:

ـ أما أنا فاسمح لي بالبقاء معهما، أيها الرفيق آمر الفوج.

ـ انزلن إلى الأرض، لماذا قعدتن قعود الدجاج؟ الرصاص يتطاير، ألا تسمعن؟...

قالت داشا:

ـ في الأسفل روث وبراغيث، أما هنا فالريح رخاء..

وقالت أغريبينا:

ـ ليس هذا رصاصاً، بل خنافس بيض، فلا تخدعنا. وانحنت داشا ثانية:

ـ الضفادع خرجت عن أطوارها، ونحن جالسات نستمع... التفت إيفان ايليتش إلى النهر، وفي هذه اللحظة فقد انجذب انتباهه إلى الزفرات والأنّات الإيقاعية للهفة والانتظار، وها هو

المنتصر، المغنّي المنفرد الكبير الفم، بطول ثلاث بوصات، وذو العينين الزرقاوين الجاحظتين يبدأ غناءه ويغرِّد بثقة بأنّ النجوم نفسها تسمع ثناءه على الحياة...

ـ لطيف، برافو قال إيفان ايليتش وابتسم حسناً، اجلسن، ولكن إذا ما حدث شيء أسرعن بالدخول في الخندق فورا... – وجذب كتف داشا نحوه، وهمس في أذنها بديع... حقا؟ أنت بديعة جدا...

وهزّ ذراعه، وسار نحو المخبأ. وحين عادت النساء إلى الإنفراد قالت أنيسيا بخفوت:

ـ وددت لو تطول الجلسة العمر كله...

مكتبة
t.me/soramnqraa

أغريبينا:

ـ السعادة تكسب بالدم... ولهذا فهي غالية...

داشا:

ـ يا فتاتي، كم رأيت في حياتي من أشياء، وكل شيء قد مرّ دون أن يمسّني... كنت طوال الوقت أنتظر شيئاً غير اعتيادي، شيئاً فريداً... عذبني قلبي الأحمق وعذّب آخرين... الأفضل أن يحب المرء لليلة واحدة، ولكن بشكل جيّد... أن يفهم كلّ شيء، ويمتلئ بكلّ شيء، أن يعيش مليون عام في ليلة واحدة...

ومالت برأسها إلى كتف أنيسيا، وفكّرت أغريبينا مع نفسها ثم مالت هي أيضاً على أنيسيا من جانبها الآخر. وظللن جالسات هذه الجلسة طويلا على الحواجز، وظهورهن إلى النجوم.

كانت الطائرات الجديدة تصحّح مرمى مدفعية كوتيبوف بتحليقها فوق الإنفجارات بعد أن تلقي على الحمر بعض القنابل، وترتفع فوق السهب كالعقبان باتجاه الأفق. نحو البطاريات التي

أخذت عند الفجر تقصف مانيتش بشدة.

ولتخويف العدو طارت من الفرقة طائرة وحيدة مرتفعة في الجو، وهي طائرة قديمة بطيئة السرعة كانت قد أدّت خدمتها كاملة في الحرب الأمبريالية، ورمّمت في تساريتسين ترميما بدائياً.

وكان من المرعب النظر إليهما بهيكلها الخشبي وبجناحيها المرقّعين خلافا لكلّ قوانين علم الطيران، تقرقع وتكاد تنطفئ مارة فوق الرؤوس. إلا أنه كان يديرها فالكا تشيرداكوف الشهير في الجبهة الجنوبيّة كلّها والمعروف جيّداً عند الطيارين البيض. وفالكا رجل ضئيل الجسم كالقرد أعرج مائل الكتف محطم العظام كأنّما مشدود بعضا إلى بعض بالغراء. كانوا يسألون "فالكا، أحقّاً ما يشاع عنك من أنك في عام ١٩١٦ اسقطت طياراً ألمانياً مجرّباً، وفي اليوم الثاني طرت إلى المانيا لتلقي الورود على قبره؟" فكان يرد بصوت موصوص: "وماذا في ذلك؟" وكانت طريقته معروفة: حين ينفد لديه شريط الرشاشة كان يهوي على العدو من فوق ويضربه بجسم طائرته. "فالكا، وكيف لا تسقط أنت؟" ماذا لو سقطت؟ غير مهمّ..."

حين رأى رجال طائرته تحلّق فوق السهب على انخفاض سرّوا جميعا، رغم أنه لم يكن ما يسرّ به. كانت القذائف العالية الإنفجار تنفجر على كلتا ضفتي مانيتش حاصرة رجال الجيش الأحمر في الخنادق. كان هناك ست بطاريات للعدو على الأقل تهدر بلا انقطاع ضد بطارية واحدة للحمر. وكانت صفوف العدو تقترب بوثبات سريعة وحماس واندفاع لا يكبح.

طار فالكا تشيرداكوف فوق الرؤوس وجناحا طائرته يترنّحان وهبط على مسافة غير بعيدة، ونزل من الطائرة، وسار بالقرب

منها يعرج. هرع الجنود الحمر إليه. كان زيت الطائرات يغطّي وجهه كلّه.

أعندي فرجة؟ قال ذلك غاضباً، وأخرج من الطائرة حقيبة الأدوات والقطع الاحتياطيّة أبعدوا طائرات العدو عني. أريد أن أعمل.

وبالفعل كان العدو قد لاحظه، فراحت ثلاث من طائراته تحوم فوق المكان محلّقة بعلو شاهق لأنّ الجنود الحمر أخذوا يطلقون النار عليها. تساقطت القنابل تتراءى ورفعت نوافير من التراب وكان فالكا يصلح أنبوب الزيت وهو لا يلقى التفاتا لما حوله. وانفجرت قنبلة على مسافة قريبة جداً حتى أنّ طائرته تمايلت، وتساقطت على جناحيها كتل من الأرض. عند ذاك رفع بصره إلى السماء، وهدّد بأصبعه. وحين فرغ من التصليح صاح بالجنود الحمر:

ـ هيّا، تعالوا، وأديروا المروحة وصعد إلى الطائرة واستقرّ في مكانه. كيف تديرون، يا رفاق؟ ليست هذه ضفيرة امرأة، هيّا، لا تخافوا من العرق!

أخذ المحرّك يعطس، وأرسل صوتا مُصمّاً، وهدر وقفز الجنود الحمر مبتعدين، وتدحرجت الطائرة على السهب متمايلة متوثّبة إلى مسافة بعيدة حتى بدا وكأنّها لن تترك الأرض، ثم ارتفعت. حلّق فالكا صاعدا في الجو، وأخذ يتقلّب لكي يختلط في خزان الوقود الخليط الوسخ من البنزين والكحول بشكل جيّد. رسم في الجو أنشوطة عريضة، وهوى بكلّ سرعته على العدو. إلا أن الطائرات الثلاث أخذت تبتعد مسرعة رافضة القتال.

بعد أن طار فالكا تشيرداكوف فوق الجبهة بالقدر الذي اعتبره

كافياً هبط على الأرض مرة أخرى وأرسل مذكّرة إلى تليغين:

"شاهدت ثماني سنوات ركوب جديدة في الجبهة. إنّه دينيكين مع الأجانب. تلك حقيقة، فالتفتوا إلى ذلك. حطم مدفعين للعدو. أطلقت النار على طابور للمشاة. أنا ذاهب إلى القاعدة للتزوّد بالبنزين..."

كان دينيكين في الجبهة. وقد انقضى أكثر من عام بقليل منذ أن كان يهتزّ في عربة مصاباً بالتهاب القصبات وملتفاً ببطانية من فراء النمر في قافلة من سبعة آلاف من مقاتلي جيش المتطوّعين تحت قيادة كورنيلوف. شقّوا لهم طريقا دمويا إلى يكاترينودار. والآن كان دينيكين دكتاتورا مطلق الصلاحية على الدون الأسفل كلّه وعلى كوبان الغنية كلّها وعلى تيريك وشمال القفقاس.

أخذ دينيكين معه في هذه الجولة في الجبهة إلى الجنرال كوتيبوف عميلين عسكريّين إنجليزيّاً وفرنسيّاً ليشعروا بالحرج الشديد والخجل على أوديسا وخيرسون ونيقولاييف التي أعطيت للبلاشفة بشكل مشين. لو كان الجيش الأحمر النظامي أخرج من هناك الفرنسيّين واليونانيّين لهان الامر! بل أن الفلاحين الأنصار تلوا بالسيوف لواءً يونانياً كاملاً في نيقولاييف على مرأى من المدمّرات الفرنسية. وتراجع المنتصرون في الحرب العالميّة أمام الفلاحين الروس، فزعا على ما يبدو، وبعد أن سلّم الفرنسيون خيرسوف جبنا أجلوا فرقتين من أوديسا... شيء لا يقبله العقل! خافوا من شيوعيّي موسكو. عزم انتون إيفانوفيتش على أن يرى الأوربيّين الأمجاد رأي العين كيف يحطّم جيشه الشيوعيّين حاملاً شعاراً من إكليل الغار والسيف.

وكان يضمر في نفسه مساءلة أخرى من قرار مجلس العشرة في

باريس عن تعيّين الاميرال كولتشاك الحاكم الأعلى لروسيا كلّها. راق لهم كولتشاك! في العام ١٩١٧ نزع عنه سيفه الذهبي، وألقاه من سلّم الاميرالية في البحر الأسود. وقد ذكرت ذلك الصحف في جميع العالم تقريباً. وفي ذلك الحين كان الجنرال دينيكين سجينا في سجن بيخوفسكيا، وقد صمتت الصحف عن ذلك. وفي العام ١٩١٨ يهرب كولتشاك إلى أمريكا الشمالية، ويدرس فن الألغام في أسطولهم الحربي، والصحف تنشر صوره إلى جانب نجوم السينما... ويهرب الجنرال دينيكين من سجن بيخوفسكيا، ويشترك في "الحملة الجليديّة" ويتسلّم عن القتيل كورنيلوف عبء القيادة الثقيل، ويحتلّ مساحات أكبر من فرنسا... فتكتفي صحيفة باريسية هزيلة بنشر ثلاثة أسطر عن ذلك، مع صورة متخيّلة له بسبلتين: "الجنرال دينيكين"! بينما يعيّن كولتشاك حاكماً لروسيا، وهو دعي شهير، مصاب بهستيريا وجنون العظمة مولع بالكوكايين!

لم يكن أنتون إيفانوفيتش يؤمن بنجاح سلاح كولتشاك الحديث الرتبة وقد استولى على بيرم، فإذا بكلّ الصحف الأجنبية تزعق: "قبضة حديدية تطلّ على موسكو البلشفية". وحتى أنتون إيفانوفيتش نفسه قد صدّق بذلك برهة، وتحمّل نجاح بيبلايف على مضض. إلا أنّ موسكو قد أرسلت إلى كاما (كما أبلغت الإستخبارات) المفوّض ستالين، نفس الشخص الذي حطم في الخريف كراسنوف مرّتين قرب تساريتسين، وأسرع بتدابير جذرية في تنظيم الدفاع، وسدّد لبيبلايف الشهير ضربة أخرجته من بيرم إلى الأورال. وبهذه النتيجة كان لابدّ أن ينتهي دون شك هجوم كولتشاك الحالي على الفولغا، الذي يجري دون استعداد حازم،

وبطريقة خادعة مصحوبة بهرج عالمي لا يصدّق وهدير انتصار من قبل تجار سيبيريا السكارى.

ـ تكتيكنا يختلف قليلا عن التكتيك الذي استخدمتموه واستخدمناه نحن والألمان في الحرب العالميّة. الصفوف أقلّ كثافة، وبفواصل كبيرة جدا. وكلّ حضيرة تنفّذ مهمّة مستقلة.

قال دينيكين ذلك واقفاً على سيارة جديدة مكشوفة أنيقة من نوع "فيات" وأشار بيده المقفّزة بقفاز أبيض من الشاموا إلى لواء الفريق تبلوف، وهو يقوم بحركة انتشار حاذقة وكأنما هو في استعراض.

وكان إلى جانب القائد العام يقف الفرنسي في سترة من الجوخ الناعم السماوي اللون، وبنطلون عسكري فاخر مثلها، وعلى رأسه كيبيه (Képi) مخمليّة صغيرة غاطسة ومائلة بشكل حاذق فيه برز شاربان صغيران ناعمان، وعلى جانبه زمزمية من الألمنيوم للكونياك. إلى هذا الحدّ كان الفرنسي مزوّداً بأسباب الارتياح! كما كان الإنجليزي واقفا على مواطئ السيارة ينظر في منظار أيضاً، ولكنّه أقلّ رهافة وأبسط ملبسا في لباس كاكي له جيوب عريضة محشوّة بصور فوتوغرافية وتبغ وغلايّين وقداحات، وطاقيته المسطّحة كالفطيرة، المفرطة في نزولها على الأنف كانت موضع نقاش من قبل الحاشية الروسية الواقفة على مسافة تنمّ عن الإحترام. "مهما تقل فإنّ الإنجليز لا يعرفون كيف يلبسون البزة، أنهم من النوع البلدي! والأمر يختلف مع طاقية الفرسان! ثم كيف كان فرسان جلالتها يرتدون القبّعات؟"

كان كوتيبوف الشرس يمتطي صهوة حصان كالميكى صغير قرب السيارة، رجل خالط الشيب رأسه عريض المنكبين في فروة

خروف محلولة الأزرار، وبمناسبة الإستعراض ارتدى قفازين وشدّ مهمازين. كانت عيناه الصغيرتان ملتهبتين فقد جاء اليوم الخامس وهو ما يزال يضرب مانيتش اللعين، وكان يدرك جيّداً أنّ هذه الحركة الإستعراضية التي يقوم بها لواء تبلوف أمام هذين المدللين ما هي إلا بالية ستكلّف اللواء غاليا.

شرح دينيكين قائلا:

ـ إن خاصّية هذه الحرب هي قدرتها الكبيرة على المناورة. ومن هنا تنبثق كلّ الأهميّة التي تكتسبها الخيّالة عندنا. وهنا لديّ الأفضلية الحاسمة: تيريك وكوبان والدون تقدّم لي مائة الف خيّال نظامي...

ـ أو لا لا لا لا...

ترنّم الفرنسي بذلك رخيّ البال غير تارك المنظار من فوق عينيه. والحمر لا يملكون خيّالة، ليس لديهم القوة التي ينشئونها منها باستثناء لواء بوديوني الذي سبّب متاعب كثيرة للهايتمان السابق كراسنوف المسكين...

قال الإنجليزي من خلال أسنانه دون أن يترك المنظار أيضا:

ـ يجب أن يكون لك مائة ألف سرج ولجام.

ـ نعم، هنا تكمن المسألة كلّها.

قال دينيكين ذلك بصوت جاف، وأمسك نفسه رغم أنه كان يود كثيرا أن يقول الحقيقة كلّها لهذين الحليفين في هذه اللحظة بالذات، وسط قواته، وتحت هدير المدافع (كانت السيّارات تقف على بعد فرسخ واحد فقط من البطاريات) أن يقول لهم إنّهم تافهون، وأنّ سياستهم برمتها قصيرة النظر وجليّة وبخيلة في غاية التقتير... فقد أثبت لهم مثل عمليّة حسابيّة أنّ البلشفيّة أخطر عليهم

من مائتين وخمسين فرقة ألمانية... فقدّموا السلاح بالقدر الذي أحتاجه، أيها السادة، إذا كنتم تخشون إرسال جنودكم إلى روسيا... سنتحاسب بعد ذلك، في موسكو.

- إذا لم يكْفِ ما عندي من السروج فسأدع القوزاق يجلسون على ظهور الخيول عارية.

قال دينيكين دون أن يضبط نفسه إنْ لم يكن بحدّة فليس بزيادة في الطيبة. والتفت إلى المترجم، وقال:

- ترجم ما تعني كلمة عارية ليفهمها كلاهما.

ولكن المترجم، وكان شاباً على النمط الجنوبي مطواعا إلى حدّ القرف عبّ الهواء بنهم فجأة، بدلا من الجواب. وفي تلك اللحظة هتف كوتيبوف جاذباً رأس حصانه، وهامزاً إياه:

- أيها السادة، اسرعوا، تحت السيارة!

مع هدير المعركة لم يلاحظوا كيف طارت فوق السيارات طائرة صفراء مترنّحة. بل ولم يسنح الوقت لأي واحد منهم لإطلاق النار عليها، فقد حلّقت في زاوية حادة طلع منها فالكا تشيرداكوف الضئيل الخشن الشعر، وألقى قنبلتين يدويتين إحداهما على غطاء "الفيات" الفاخرة مباشرة، والثانية على مقربة... ثم كشف في تكشيرة على أسنانه البيض، وحلّق عالياً.

ومع ذلك استطاع الجنرال دينيكين والإنجليزي والفرنسي الإنزلاق تحت السيارة، وقد صعب ذلك على أنتون إيفانوفيتش بشكل خاص بسبب كرشه ومعطفه الثقيل. ولم يصبهم إلا الذعر. وتطاير أفراد الحاشية في جميع النواحي كالرشاش، كما استطاع كوتيبوف نفسه أن ينحني.

هاجم جيش المتطوّعين بعنف لا مثيل له. وبقي الكثيرون

منهم يرقدون منطرحين على السهب. إلا أن صفوفاً جديدة متزايدة ظلّت تزحف نحو مانيتش. كانوا يظهرون هنا وهناك تحت النار المتوازية المنطلقة من الرشاشات الخفيفة ويركضون منحنين، ويتجمّعون على الضفة الأخرى من النهر. أمر تليغين إخراج راية الفوج من المخبأ، وخلع الغلاف منها.

لقد حلت اللحظة الحاسمة. كانت مدفعية البيض توجّه نيرانها على احتياطات كاتشالين، وتطايرت هناك كُوَم كثيفة من التراب. ومن الضفة الأخرى كان ينهمر وابل غزير من الرصاص. واندفعت صفوف المتطوّعين الأخيرة دون أن تنبطح على الأرض. وتوقّفت نار الرشاشات فجأة. وقفز مئات الرجال في النهر، بضراوة في جوف الماء. ونزلوا في الماء حتى صدورهم ورقابهم هازين البنادق، وسبحوا وقفزوا من الماء مصابين بالرصاص، وتخبّطوا وغرقوا، بينما انزلق على جثثهم آخرون جدد وجدد... لم يكن عرض النهر هنا يزيد على ثلاثين ذراعا... لم يعد في مستطاع أيّة نيران من إيقاف هؤلاء الرجال المسعورين الزاعقين إلى حد الجنون. ولكن عبثا كان صياح تبلوف وهو يقف وسط القصب في الضفة الأخرى ملوِّحاً بسيفه: "إلى الأمام، إلى الأمام!" ظاناً أنّ زخم الهجوم المفزع سيترك الحمر في حالة ذعر فيتقهقرون، ويفرون.

كان رجال فوج كاتشالين ينتظرون هذه اللحظة طيلة اليوم، والذين أكل القلق قلوبهم، وعانوا انفعالهم تقسوا في توتر خانق. حين بدأ الهجوم صاح أمراء الوحدات والشيوعيون بالجنود الحمر ممسكين إياهم من قمصانهم أو بناطيلهم لئلا يخرجوا قائلين "اطلقوا، اطلقوا..." وتردّدت شتائم مريعة في الخنادق. إذ لم

يكن مناوشة بقبضات الأيدي في الشتاء على الجليد، على الجسر أو في وسط الشارع شادّين أحزمتهم بقوّة، مرتدين قفازات جلدية. لقد كانت في دمائهم الرغبة القديمة في العراك بالقبضات. آه، أوغاد، آه أوغاد" ويملأ الحنق أفئدتهم... "أتركني يا... أين!!.." وكان لاتوغين أوّل من قفز من الخندق شاكاً حربته صارخاً صرخة وحشيّة. وانطلق الجنود الحمر وراءه منحدرين على الساحل المنحدر للقاء المهاجمين "هورا، هورا، هورا!..." فيردّ الاوغاد بهتاف مثله "هورا، هورا، هورا!..." . كان هجوم رجال كاتشالين بالحراب لا يكبح في جماحه. بعد أن صدّوا الذين وصلوا إلى الشاطئ من الاعداء، نزلوا في الماء، وقاتلوا في وسط النهر، ضاربين بأخماص البنادق، ملقين القنابل اليدويّة، متقاتلين مع العدو بالسلاح الأبيض... وكيف يستطيع الضباط أبناء الأعيان ذوو الأجسام المتأنقة أن يصمدوا، مهما تكن روح القتال عندهم، ضدّ فتيان الريف الأقوياء وعمّال مناجم الدونباس، وعمال التفريغ والشحن على الفولغا، وقاطعي الأخشاب الذين كانوا يظهرون فجأة من تحت الماء ويقفزون على أكتافهم. وتعالت فوق النهر المضطرم المحمّر أصوات اللغط وقعقعة السلاح وهدير القنابل اليدوية المتفجّرة. ودحر البيض، وأرجعوا إلى الوراء، فأخذوا يخرجون على الجانب الآخر من النهر. أنزل الفريق تبلوف تعزيزات جديدة. عندئذ تناول المفوّض إيفان غورا من حامل الراية راية الفوج المصنوعة من الحرير القرمزي بنجمتها الذهبية، والمثقوبة برصاص المعارك السابقة، ورفعها عالياً، وركض بخطوات ثقيلة نحو مانيتش محاطاً بالشيوعيّين.

وإلى الأعلى في مجرى النهر، حيث أخذ الماء ينزل

بمستواه، وتلوح فيه رؤوس القصب كان تليغين قبل بدء الهجوم قد وضع الاحتياط تحت قيادة سابوجكوف. وحين تناول إيفان غورا الراية ترك تليغين نقطة القيادة، ووثب على فرسه، وعدا به إلى مرج مغمور بالماء. وعندما وصل إلى القصب صاح بالجنود الحمر الذين ظلّوا نصف النهار باركين في الوحل كالخنازير البرية:

ـ يا رفاق، العدو يهرب. لا تدعوه يفيق على نفسه!

عبر مائة وخمسون مقاتلاً تحت غطاء القصب إلى الجانب الآخر من النهر جارين بأيديهم رشاشات ثقيلة، تاركين أحذيتهم في الغريق اللزج زاحفين تارة وسابحين تارة أخرى، وخرجوا إلى جناح رجال كوتيبوف وأخذوا يضربونهم. وتقرّرت نتيجة المعركة. تراجع البيض من مانيتش، وأخذوا يتراجعون تحت غطاء من النيران ويفرّون. وعلى مسافة بعيدة من جناحهم الأيمن، المنتشر فوق السهب كالحمم الخفيفة هبّت لمساعدة فوج كاتشالين الخيّالة من القطاع المجاور لقطع الطريق عليهم.

خرجت فلول لواء تبلوف من الحصار، ولم يقع تحت حراب المقاتلين الحمر غير شراذم منفصلة من البيض متخلّفة. وأضحت الملاحقة أبعد من ذلك خطرة. أمر تليغين سابوجكوف بتسوية خط الجبهة والتخندق، وذهب بفرسه إلى حيث كانت راية الفوج تلوح على بعد نصف فرسخ في السهب. وكان يراقبها منذ زمن كيف عبرت النهر، وتقدّمت إلى الأمام، وتوقّفت، وفجأة ارتخت، وارتفعت من جديد، ورفرفت وتحرّكت إلى الأمام.

غطّت سحب سوداء الشمس الآفلة، ودكن السهب بسرعة، ولمعت في الأفق مدافع كوتيبوف، وصفرت القذائف متّجهة إلى

مكان ما، وهذا كلّ شيء. وغطّى الليل ميدان المعركة الدامية.

ظلّ تليغين يبحث عن المفوّض إيفان غورا طالما كان في الإمكان رؤية الأشياء. والمقاتلون الحمر الذين التقى بهم اختلفوا فيما قالوا عنه. كان الجميع قد رأوه يعبر النهر حاملاً الراية. ولكن الراية بعد ذلك كانت في يد آمر السرية موشكين. ولكن حتى موشكين هذا قد جرح. وأخيرا تبيّن أنّ الراية في يدي شاب متين البنيان. جاء لاتوغين وغاغين إلى تليغين. وقد بقيا وحدهما حيّين من طاقم المدفع، بعد أن حطّمت القذائف مدفعهم تماماً، وقد أكمل خدمته الوفيّة.

قال لاتوغين محرّكا شفتيه بصعوبة:

ـ كم كان ذلك رهيبا. إنّ تذكّره يبعث الذعر.

وقال غاغين الصامت عادة بصوت خافت أيضاً:

ـ حتى الآن من الخطر الاقتراب من أيّ واحد من الفتيان. إنهم يتنفّسون، كما لو بأضلاعهم.. وإذا نظرت إليهم يبدو وكأنهم يطعنونك بحربة...

ـ ألعلّك تبحث عن إيفان ستيبانوفيتش، يا إيفان ايليتش؟

ـ نعم، نعم، هل رأيته؟

ـ تعال.

ساروا نحو النهر ملتفّين حول الجثث. ومن الظلام ترامت هنا وهناك أنّات وتمتمات. وكان رجال الإسعاف يتنادون فيما بينهم باحثين عن الجرحى. وميّز إيفان ايليتش همس كوزما كوزميتش الناشج. كان لاتوغين يمشي في المقدّمة فتوقّف فجأة، وقرفص.

كان إيفان غورا منطرحا على وجهه كبيرا طويلا وقع حالماً

خرقت الرصاصة قلبه، باسطاً ذراعيه، وكأنّه يحتضن الأرض كلّها، لا يريد أن يعطيها للعدو حتى في موته.

اجتمع الرجال القدامى من فوج كاتشالين من الذين عرفوا إيفان غورا منذ أن كان جندياً أحمر، ثم آمر سرية، اجتمعوا ليلا في العراء، وتشاوروا في دفن المفوّض في مكان بارز مشهود، على رابية عالية تطلّ على شاطئ مانيتش.

كانت الروابي في ذلك المكان كثيرة متناثرة، ولكن هذه الرابية مرتفعة كالتلّ. ولعلها في الزمن القديم قد رفعت لخيمة الخان لترى من الأعلى إلى مسافة بعيدة ارعال الخيل الغفيرة العديدة في السهب. ولربما في زمن أوغل في القدم دفن السكيفيّون تحتها زعيمهم مع جواده وزوجته المحبوبة، ووضعوا في الأعلى أغصان الصفصاف صفوفا وغرزوا سيفا برونزيا ضخما موجّهاً حدّه إلى السماء. كانوا يعبدونه كإله الخصب والسعادة.

عبروا النهر حاملين المفوّض إيفان غورا بأيديهم، ووضعوه فوق الرابية على العشب الربيعي، ومشطوا شعره، وغطّوا جثمانه الطويل براية الفوج.

كان الليل ساجيا ومنيرا بضوء القمر. ووقف إيفان ايليتش عند قدمي المفوّض وسيفه مجرّد ووقف عند رأسه بابوشكين مفوّض السرية الأولى، والشيوعي من بتروغراد. ومرّ المقاتلون الحمر به فرداً فرداً مودّعين، كلّ واحد يحيّيه ببندقيته.

ـ وداعا، يا رفيق...

وحين ودّعه الجميع، وحان وقت إنزال المفوّض في قبره، صعد لاتوغين إلى الرابية ثانية وصاح:

ـ اليوم قتل أعداؤنا الألداء أفضل رفاقنا... لقد علمنا، لأي شيء أعطيت لي هذه البندقية... لنقاتل في سبيل الحق! من أجل هذا هي في يدي... وقد كان هو نفسه رجل حقّ، رجلنا حتى الجذر... لقد علّمنا: إذا كانت أمك قد ولدتك، فقد صرخت في الدنيا، وليس لك من قضية غير الكفاح من أجل الحق... وأنا أرجو من آمر الفوج والمفوّض بابوشكين أن يقبلا مني طلب انتمائي إلى الحزب... وأنا أقول ذلك بإخلاص، أمام هذا الجثمان، أمام الراية...

دفن المفوّض، وفي ساعة متأخرة من الليل دعت داشا إيفان ايليتش من المخبأ، وقالت وهي تقرقع بأصابعها:

ـ إذهب إليها، أرجوك، وخذها.

وقادت إيفان ايليتش إلى الرابية. وكان الليل قد احلولك قبيل الفجر، اختفى القمر: والريح السهبية تصفر قرب الأذن.

ـ تعذّبنا أنا وأنيسيا، ولكنها لا تصغي لشيء...

كانت أغريبينا جالسة على تلّة قبر إيفان غورا على الرابية وقد خفضت رأسها بعبوس، وقبّعتها وبندقيتها بالقرب منها. وكانت أنيسيا تجلس بعيدة عنها. وكانت أنيسيا تجلس على مسافة منها.

همست داشا:

ـ إنّها كالمتحجّرة، والشيء الأهم انتزاعها من هناك وجلبها

واقتربت داشا من أغريبينا أنظري، إنّ آمر الفوج أيضاً يطلب منك المجيء.

لم ترفع أغريبينا رأسها. كانت كلمات الناس تمرّ بها كالريح

المتطايرة فوق القبر. أنزلت أنيسيا وجهها على ركبتيها وهي ماتزال جالسة على مسافة منهم. سعل إيفان ايليتش وقال:

ـ هذا لا يجوز، يا أغريبينا، قريباً سيطلع الفجر، وسننتقل جميعا إلى الضفة الأخرى، فهل تبقين وحدك.. ليس ذلك صحيحاً...

تمتمت أغريبينا بصوت باهت، دون أن ترفع رأسها:

ـ من قبل لم أتركه، والآن أيضاً... إلى أين اذهب؟

همست داشا ثانية مشيرة إلى جبينها:

ـ أتفهم؟... رأسها مضطرب...

ـ لنفكّر، يا اغريبينا وجلس إيفان ايليتش مقرفصا بالقرب منها أنت لا تريدين تركه... أحقا هذا كلّ ما تبقى من إيفان ستيبانوفيتش؟ سيعيش في ذاكرتنا، ويلهمنا الشجاعة... فافهمي ذلك.. أنت زوجته، يا أغريبينا... وفي رحمك بذرته ما تزال تنمو...

رفعت أغريبينا يديها وضمّتهما بالقرب من وجهها وأنزلتهما.

ـ أنت الآن عزيزة علينا عِزّة مضاعفة... وسيكون طفلك ابن الفوج.. ففكّري بالمهمّة التي تحملينها ومسّد على شعرها تناولي البندقية، ولنذهب...

أحنت اغريبينا رأسها بحداد إلى المكان التي جلست بالقرب منه طوال الليل. ونهضت، وتناولت بندقيتها وقبّعتها ونزلت من الرابية.

استمرت المعارك الدامية على مانيتش إلى منتصف أيار، وهدأت. حنق الجنرال دينيكين لجهود كوتيبوف العقيمة في خرق جبهة الجيش العاشر، وللخسائر الفادحة للغاية، فاستدعاه إلى

يكاترينودار. وتكلّم أنتون إيفانوفيتش في مكتبه وبحضور رومانوفسكي المتعالي المزدري، وكانت نبرته مرتفعة وفي غير وجه حقّ ملقياً القلم السميك على الأوراق الموضوعة أمامه:

ـ قل لي: هل نحن نقاتل أم نقوم باستعراضات بهلوانية للسادة الحلفاء؟ لسنا العبيد الذين كانت تلقيهم روما لمصارعة الأسود، يا صاحب السيادة! ما الداعي لكل هذا التهوّر؟ فضيحة! عمليّة غير متحضرة البتة، حرب عصابات!

كان كوتيبوف يعرف دينيكين جيّداً، وفهم السبب في فورانه هذا. صمت جهما، ونظر بطرف عينه إلى باقة الزهور الصغيرة بالقرب من المحبرة.

ـ تفضّل، إقرأ، وابتهج وتناول دينيكين الورقة الأولى من ضمّة الأوراق ـ خرقت جبهة الجيش التاسع الأحمر بخسائر تافهة، وخرقت بشكل ممتاز... ونحن ندخل منطقة القوزاق المنتفضين. والظاهر أننا سنحتل قرية فيشينسكيا بعد أيام... إلا أنه كان من الممكن أن تتحوّل العمليّات على دونيتس إلى هجوم واسع، لو لم يستخدم ذلك العدد الكبير من قواتنا على مانيتش. أنا خجل، يا سادة، من إستراتيجيتنا... العالم كلّه ينظر إلينا... ولدى الناس هناك حساسية مرتفعة جدا، كونوا على ثقة... تفضّلوا هنا...

وبحث عن نظارته الأنفية بين الأوراق وسار مع كوتيبوف ورومانوفسكي إلى طاولة من خشب البلوط حيث بسطت خرائط عسكرية.

كانت الخطة هي أن يقوم الجنرالان بوكروفسكي واولاغاي بعد فراغهما من تركيز قوات خيّالة كبيرة على جناحي الجيش

العاشر باختراق مؤخّرته وتحطيم قوة الخيّالة البلشفيّة، والاستيلاء على محطة فيليكو كنياجيسكيا، والانتهاء خلال أربعة أو خمسة أيام من محاصرة الحمر كليّاً على مانيتش.

أخرج دينيكين من جيب جانبي منديلا قطنيا نظيفا فواحاً بماء الكولونيا، وأخذ يمسح به نظارته الأنفية. وارتعشت قليلاً أصابعه القصيرة بجلدها الجاف اللامع.

ـ إن جيش المتطوّعين يحلّ قضايا السياسة العالمية. وقد أخذ الغرب يفهم ذلك بعد سقوط أوديسا وخيرسون ونيقولاييف... ويجب أن نقوم بضربات خاطفة ماحقة. والثناء في هذه الحرب يتحوّل إلى ناقلات الأسلحة... وقد كنت دائما احذر من المجازفة. وأنا لا أحبّ الألعاب المغامرة. ولكنّني أيضاً لا أحبّ الخسارة... وإذا نجاحاتنا في الدونباس لا تكتسب نطاق هجوم عام في عمق البلاد ولا تنتهي بموسكو فسأضع رصاصة في صدغي، أيّها السادة..

دقّ رومانوفسكي الوسيم طرف سيجارته على علبة سجائره الفضّية بابتسامة متشامخة. وألقى الجنرال كوتيبوف نظرة جانبية من تحت جبينه المغضّن الواطئ وحدس من أين لانتون إيفانوفيتش هذا الأفق في الأفكار، إذن، فإنهم يلفّون له ذيله بقوة، يوبّخونه. ولكن كوتيبوف كان جنرال ميدان لا جنرال أركان. أي أنّ قضايا الإستراتيجية كانت تبدو له ضبابيّة جداً ومتعبة، وكان عمله أن ينحر العدو في مكانه. قال:

ـ سنفعل كلّ ما في وسعنا، يا صاحب المقام الرفيع. إذا أمرت بأن نحتّل موسكو هذا الخريف فسنحتلها....

ظلّ رجال كاتشالين خلال ثلاثة أيام يشقون طريقهم نحو

الطريق الحديدي دون أن ينالوا جرعة من ماء أو قطعة من خبز. لقد صدر في الحادي والعشرين من أيار أمر بالتراجع. وتراجع الجيش العاشر من مانتيش شمالا إلى تساريتسين شاقاً الحصار بجهود وضحايا ضخمة. وكانت ريح جافة تهب، وتسطّح الافسنتين على الأرض، وكان السهب رماديا، والأفق البعيد كدراً حيث كان خيّالة أولاغاي تقف كقطعان الذئاب.

وكانت خيول العربات تسقط هالكة، والجرحى والمرضى من الرفاق ينقلون إلى عربات كانت مكتظّة بدونهم. وكان ذوو الجراح الخفيفة والممرّضات يسيرون وراء العربات متعثّرين. وكانت الشفاه تتورّم وتتشقق من العطش. وكانت العيون الملتهبة المتقلّصة اتقاء الريح الشرقية تبحث في الأفق عن معالم مضخة الماء التابعة للسكة الحديد. ومن منخفضات السهب العريضة لم تفح رائحة رطوبة، بينما كانت المياه هنا تصل إلى الوسط قبل مدة قصيرة. فليت هناك بعض القطرات من ذلك الماء ليبلّ الأفواه السوداء!

في أحد هذه المنخفضات حين نزلت العربات على منحدر معشب وقعوا في كمين، وارتفعت الطلقات من مكان قريب، وهجم القوزاق على العربات المضطربة حاثّين خيولهم، طالعين من مخبأ لا يعرفه إلا الشيطان، مؤمّلين غنيمة سهلة. انحدر زهاء خمسين من النهابين القتلة على المنحدر شارعين لحاهم. إلا انهم رجعوا بنفس الخفة، حين أخذ الرصاص يتصدّى لهم من وراء كلّ عربة، فقد كان كلّ جريح مزودا ببندقية، وحتى داشا أطلقت النار مقلّصة عينيها بكلّ قوتها.

استدار القوزاق بأفراسهم، ولم يقع إلا واحد منهم تدحرج

مع فرسه. وتراكضوا نحوه آملين أن يأخذوا منه زمزميّة الماء. وتبين أنه يضع شارتين فضيتين على كتفيه. سحبوه من تحت الفرس القتيل فراح يكرّر مذعورا: "أستسلم... أستسلم. أعطيكم معلومات قودوني إلى الآمر..."

انتزعوا منه زمزمية الماء، كما وجدوا زمزميتين أخريّين في عدل السرج.

ـ اجلبوه حيّاً إلى هنا!

صاح آمر السرية موشكين الذي كان يجلس في العربة مكسور الذراع مضمدّ الرأس.

وقف الضابط الأسير أمامه في هيئة استعداد. كانت له سحنة سيّئة قلّ ما صادف أن رأى مثلها: وجه مترهل ذو فم رخو وعينين ميتتين. وكانت رائحته حرّيفة ثقيلة.

ـ هل أنت نظامي أم من رجال العصابات؟

ـ من وحدة غير نظامية مساعدة.

ـ أتقومون بالانتفاضات في مؤخّرتنا؟

ـ نحن بموجب أمر الجنرال أولاغاي نقوم بتعبئة الذين أنهوا مدة الخدمة...

وسارت العربات من جديد، وسار الضابط إلى جانب العربة. وكان يردّ بأحرّ استعداد وطواعية وبدقة. كان يعرف كيف يشتري حياته، والظاهر أنّه كان من رجال الإستطلاع ذوي الدراية. سار بعض المقاتلين الحمر بالقرب من العربة ليسمعوا ما يقوله. وأخذ الرجال يتبادلون النظرات حين تحدّث عن دونيتس في رد على سؤال عن تراجع الجيش الأحمر التاسع، وكيف أن فيلق الجنرال سيكريتوف للخيّالة قد أحدث ثغرة بين الجيشين التاسع والثامن،

وراح يجوب على مؤخّرات الحمر.

ـ تكذب، تكذب. لم يحدث هذا.

قال آمر السرية موشكين ذلك في غير وثوق، ودون أن ينظر إليه.

ـ أبداً. هذا صحيح. أرجو المعذرة: لديّ نشرة القيادة العليا...

نزلت أنيسيا نازاروفا من العربة، وسارت أيضاً مع جماعة المقاتلين الحمر بالقرب من الأسير. قرأ موشكين أوراق النشرة المرفرفة بالريح. وانتظر الجميع ما سيقوله. كانت أنيسيا طوال الوقت تبعد الرفاق بيدها الضعيفة لتقترب من الأسير أكثر. فكانوا يقولون لها: "ما هذا؟ لا يوجد شيء يلفت النظر..." كانت قدماها مثقلتين، ورأسها يؤلمها، وعيناها كأنّما ذرّ فيها رمل جاف. لم تستطع الوصول إلى الأسير فلحقت برفاقها، وتعثّرت وأمسكت بعنان الفرس، وأوقفت العربة. ولم يدرك أحد في الحال ما هي مقبلة عليه. اتلعت رقبتها، ونظرت إلى الأسير بعينيها الشاحبتين الواسعتين على كلّ وجهها المسودّ الناحل. وقالت:

ـ أنا أعرف هذا الرجل! يا رفاق، إنّ هذا الرجل هو الذي أحرق ولديّ حيّين، وضربني ضربا مميتا.. وجلد في قريتنا تسعة وعشرين رجلاً حتى الموت...

اكتفى الضابط بابتسامة ساخرة، وهزّ كتفاً. وأطبق المقاتلون الحمر في الحال، ونقلوا أبصارهم بينه وبين أنيسيا. قال موشكين:

ـ حسنا، حسنا، سنتحقق من ذلك. اذهبي، وانطرحي على

العربة، يا عزيزتي، اذهبي...

كررت أنيسيا، وكأنها في إغماءة:

ـ يا رفاق، يا رفاق. لا يجوز أن يترك حيّاً. أنا أفضّل على ذلك أن تقطعوا قلبي... فتّشوه... إسمه نيميشايف، وهو يتذكّرني... أنظروا، لقد عرفني!

صاحت فرحة مشيرة إليه بإصبعها.

امتدّت عشرات الأيدي، ومزّقت سترة الضابط القوزاقية المشبعة بالعرق، ومزّقت قميصه، وقلبت جيوبه، وصدقت أنيسيا، فقد وجدوا هويّة عسكرية باسم آمر السرية نيقولاي نيقولايفيتش نيميشايف.

ظلّ يكرر مدلهّم السحنة:

ـ أنا لا أعرف شيئا، لا أفهم. المرأة تكذب، تهذي، إنّها مصابة بالتيفوس.

عرف المقاتلون الحمر مأساة أنيسيا، وتراجعوا في صمت حين تناولت أنيسيا البندقية من أحدهم، واقتربت من نيميشايف. ومسّت كتفه بيدها، وقالت:

ـ لنذهب.

تلفّت بوحشية في وجوه المقاتلين الحمر الرصينة وزفر وأراد أن يقول شيئا لموشكين الذي استدار عنه ماضيا في قراءة النشرة. وأمسك الأسير بجانب العربة، وكأن في ذلك إنقاذا له. إلا إنهم فصلوه عنه، ووخزوه في ظهره:

ـ إذهب، إذهب...

عندئذ سار في السهب مذهولا، غارزا رأسه بين كتفيه، متعثّراً كالأعمى. وسارت أنيسيا على بعد عشر خطوات وراءه،

ورفعت البندقية الثقيلة، وضغطت الأخمص على كتفها:

ـ التفِتْ نحوي.

التفت نيميشايف. خفيف الحركة متهّيئاً للقفز، وأطلقت أنيسيا النار في وجهه، ولم تلق نظرة أخرى، وعادت إلى رفاقها دون أن تلتفت. وكان هؤلاء ينظرون بلا حراك وبجهامة وهم يشهدون عملية إعدام محققة.

وقالت أنيسيا:

ـ يا صاحب البندقية، خذها.

وسارت نحو العربة الأخيرة، وصعدت إليها، واستلقت، وتغطّت بدثار الفرس.

١٧

كانت كاتيا تصحِّح الاملاء في الدفاتر المدرسيّة. كانت هذه الدفاتر المقطوعة والمخاطة من أنواع مختلفة من ورق الجدران (كانوا لا يكتبون إلا على الجانب الخلفي منها) إنجازاً هائلاً في حياتها البائسة. ومن أجلها سافرت بمفردها إلى كييف. كان الوصول إلى مفوّض الشعب لشؤون التعليم سهلاً. حين علم المفوّض بشخصيتها وبالسبب الذي جاءت من أجله، أمسكها من مرفقيها، وأجلسها في مقعد، وسكب شاي الجزر من سخان شاي مسودّ موضوع على طاولة فاخرة، وقدّمه لها مع نصف قطعة من الملبس. وسار على البساط جيئة وذهاباً ملقيا على كتفه معطفا فرائيا مرتديا حذاء لبّاديا، وراح يبسط لها برنامجا للتعليم الشعبي يدير الرأس.

ـ خلال عشر أو خمس عشرة سنة سنكون بلاد متعلِّمة. وسنيسِّر كنوز الثقافة العالميّة لجماهير الشعب قال ذلك بابتسامة خياليّة ماساً لحيته أمامنا عمل جبار في محو الأمية. أن يُغْمر الجيل الجديد بالتعليم من دور الحضانة ورياض الأطفال حتى الجامعة... نحن البلاشفة، لن يعيقنا أحد ولا أيّ شيء من التحقيق عملياً ما كان أحسن ممثّلي مثقفينا يحلمون به فقط.

ووعد مفوّض الشعب كاتيا بعشرة آلاف دفتر وبكتب مدرسيّة وأدبيّة وأقلام وألواح كتابة، ولوحات للصفوف. وخرجت منه عبر درج مرمري، وكأنّها تحلم. ولكن بعد ذلك حصلت مصاعب وتعقيدات. وكلّما اقتربت كاتيا من الدفاتر والكتب المدرسيّة صارت هذه أكثر بعدا عن الواقع، وأصبح الناس الذين يتوقّف عليهم أمر تسليمها الدفاتر والكتب المدرسيّة أكثر مواربة وسخرية أو جهامة. وعادت كاتيا يائسة إلى غرفتها في الفندق، حيث السرير بلا حشيّة، والمصباح الكهربائي العالي في السقف يبدو محترقا ويكاد يلفظ أنفاسه، وجلست في معطفها على أريكة متخلخلة.

ذات يوم دخل عليها الغرفة دون استئذان رجل ضخم في قبّعة شعثاء وسترة محزّمة جيّداً، ودخل الموضوع رأسا، وسألها بصوت أجش:

ـ ما تزالين هنا؟ أنا اعرف قضيتك. أريني الاستشهادات التي لديك.

وراح يفحص الوثائق وهو واقف تحت المصباح المحمرّ. نظرت كاتيا بوثوق إلى وجهه الفكه القوي الجميل. قال:

ـ أوغاد. مخرّبون محتالون... غدا تعالي في ساعة مبكرة لمقابلتي في لجنة المدينة، سنفعل شيئا، نفكّر في شيء... إلى اللقاء.

وبواسطة هذا الرجل حصلت كاتيا من المستودعات على ورق الجدران، وأقلام وعلى مكتبة كاملة مصادرة من صاحب معمل سكر ذوّاقة جمال كان نصفها باللغة الفرنسية. ولعلّ أتعب شيء لها كان طريق العودة بهذه الكنوز في عربة بضاعة كان يندفع

إليها في كلّ محطة فلاحون ملتحون مخيفو العيون يحملون أكياساً، ونساء هائجات منتفخات كالأبقار بكلّ ما يحملن من المأكولات يخفينها تحت الستر والتنورات.

وظهر أنّ لكاتيا شيئا من القوّة منذ ذلك المساء الذي أعلن فيه الكسي خطوبته لها في غير توفيق. نظرت كاتيا في النعمة المعدّة لها كزوجة صاحب حانوت ريفي، وتراجعت كرجل يرى في الطريق قبرا محفورا له، فيتوقّف، ويهتزّ اشمئزازا. لقد بدت لها عينا ألكسي النهمتان المترعتان بالخمرة قبراً! ألكسي ربّ البيت والزوج! واضطرب كلّ شيء في داخل كاتيا، وتمرّد، وكان ذلك بالنسبة لها أكثر الأشياء مفاجأة وإبهاجاً، مثل الاحساس بالقوة بعد مرض طويل. كما كان مفاجأة قرارها في الفرار إلى موسكو، حين يكون الجوّ أكثر دفئا. كما وجدت في نفسها الحيلة لتخفي كلّ ذلك. فلم يلاحظ ألكسي وماترينا سوى أنها ابتهجت، وأنها بدأت تعمل وتغنّي.

أضحى ألكسي الآن يغمز باستمرار سواء عند الغداء أو العشاء (وكان لا يرى في البيت غير هذه الأوقات): "خطيبتنا هذه مرحة.." وكان هو يبدو مبتهجا بحصوله على قرار من اجتماع القرية جناح ضيعة الامير، ونقل خشبه وآجُره إلى قطعة أرضه.

حين استولى الجيش الأحمر على كييف في بداية كانون الثاني مرّت وحدة عسكرية بقرية فلاديميرسكويه وكان ألكسي أوّل من هتف للسوفييتات في اجتماع عام. ولكن الأمور اتّخذت اتجاها آخر بعد وقت قصير.

جاء الرفيق ياكوف إلى القرية. فصادر الدار الحسنة البناء

التابعة لقسّ القرية، ونقل القسّ وزوجته ليعيشا في الحمام. ودعا إلى اجتماع عام، وطرح القضية على الشكل التالي: "الدين أفيون الشعوب. ومَن يعارض غلق الكنيسة يعارض السلطة السوفييتية.." وفي ذلك الاجتماع ودون أن يعطي كلمة لأحد أجرى التصويت، وخُتمت الكنيسة بالشمع. وبعد ذلك عزل العمال الزراعيّين والمعدمين من الفلاحين والفلاحات وكانوا زهاء أربعين في القرية عن سائر الفلاحين الآخرين. ونظّم هؤلاء الأربعين لجنة الفلاحين الفقراء. وتكلّم بحنق دافق في اجتماع لها في بيت القسّ:

ـ الموجيك[١٥] الروسي وحش جاهل. عاش ألف عام في الروث، ليس له ولا يمكن أن يكون له غير الحقد المكلوم والجشع، ونحن لا نثق بالموجيك ولن نثق به أبدا. سنشفق عليه، مادام سائراً معنا، ولكن بعد قليل سنكفّ عن ذلك. أنتم بروليتاريو الريف يجب أن تتسلّموا السلطة بقوة، ويجب أن تساعدونا على قصّ جناحي الموجيك.

وأخاف ياكوف القرية كلّها، وحتى أعضاء اللجنة. وكلّ كلمة تقال في القرية يعرفها الجميع، وسرى تهامس في البيوت:

"لماذا يقول ذلك؟ لسنا وحوشاً، بل روساً، ونعيش في وطننا، وفجأة لا تجوز الثقة بنا.. ثم كيف تُقصّ أجنحتنا؟ قصوا جناح الكسي كراسيلنيكوف، فهو لصّ. قصوا جناح كوندراتنيكوف، ونيتشيبوروف. ذلك حق، لأنهما مصّاصا دماء

---

(١٥) فضّلت استخدام اللفظة الروسية لرفع الالتباس بينها وبين كلمة فلاح ولها لفظة اخرى مختلفة الدلالة. المترجم.

معروفان... فكيف يكسر جناحي على قميصي المالح؟ لا، ليس الأمر كذلك، خطأ..." وكان آخرون يقولون: يا رب، هذه هي السلطة السوفييتية!..."

وعندما كان ياكوف يخرج من الفناء لشأن من شؤونه السيّئة قذرا لم يحلق وجهه منذ زمن بعيد، في معطف جندي ممزق، وقبّعة مخلوعة الظليلة ولكنّه في حذاء طويل جيّد، على أية حال، والمعطف يخفي جيد اللباس كان الجميع يراقبونه من النوافذ، وكان الفلاحون يهزّون رؤوسهم في حيرة كبيرة، وينتظرون ماذا سيحدث بعد؟

في آذار حين بدأ نقل الروث من توّه إلى الحقل دعا ياكوف إلى اجتماع عام، وطالب مهدّدا مرة أخرى بتهمة متعلّقة بتسجيل رؤوس الخيل كلّها، ومصادرة الخيول الزائدة، وإقامة استثمارات جماعية على الفور في ضيعة الأمير... وقطع هذا الشيطان القذر إيصال الروث، والحراثة الربيعية!

وبعد ذلك بوقت قصير وصلت إلى القرية فرقة تموين. وعرف في الحال أن ياكوف قدّم لأعضائها قوائم لفائض الحبوب ضخمة بحيث قيل أنّهم بسطوا أيديهم مندهشين. وطاف ياكوف بنفسه على البيوت ومعه الشهود مؤشّراً بالطباشير على الأبواب الكميّة التي ستؤخذ من هذا البيت أو ذاك.

وكان الفلاح يصرخ "في حياتي كلّها لم تقع عيني على مثل هذه الكمّية" وهو يحاول أن يمسح الرقم بكمه. وكان ياكوف يقول لأعضاء الفرقة: "فتّشوا في سردابه.." كان الفلاح يخاف أن يرسم علامة الصليب بحضور ياكوف، فكان يشقّ فروته وهي عليه ذارفا الدموع: "لا شيء هنا، يا إلهي..." فيأمر ياكوف

"حطّموا موقده، فقد خبأ شيئا تحت الموقد..."

ونظفّت جهوده القرية إلى الصفر، استدعى ياكوف ألكسي كراسيلنيكوف إلى مكتبه في اللجنة، وأغلق الباب الذي دقّت عليه بالمسامير صورة رئيس المجلس العسكري الاعلى للجمهورية، ووضع المسدّس على الطاولة بالقرب منه، ونظر ساخراً إلى ألكسي المتجهّم.

ـ حسنا، هل نتبادل الحديث؟ أعندك حبوب؟

ـ من أين لي الحبوب؟ في الخريف لم أحرث ولم أبذر.

ـ وإلى أين سقت الخيول؟

ـ وزّعتها على الضيع، على المعارف.

ـ وأين أخفيت الفلوس؟

ـ أية فلوس؟

ـ المنهوبة.

جلس ألكسي مطرق الرأس، سوى أنّ أصابع يده اليمنى كانت تنطوي وتنبسط دلالة على السماح والأخذ. قال:

ـ سيكون هذا غير لطيف. ضريبة، إنّها مفهومة... ولكن ذلك مثل إمساك الإنسان من رقبته، وتعريته من قميصه...

ـ سنضطر إلى تحويلك إلى اللجنة الاستثنائية...

ـ ولكنّني لا أرفض. الواجب هو الواجب. سأجلب الفلوس.

عندما وصل ألكسي إلى البيت اندفع إلى السرداب رأسا، وأخرج من هناك محفظات السفر وآنية وصرر وأقمشة. في إحدى المحفظات كان يخبّئ الفلوس القيصريّة وفلوس الدون، وقد حشرها في الجيوب تحت القميص. وأعطى محفظة أخرى لماترينا مملوءة

بعملة كيرينسكي، فإنّها سقط متاع لا تساوي شيئاً قائلاً:

ـ خذيها إلى اللجنة، وقولي ليست عندنا غيرها. وإذا لم يصدّقوا، وجاءوا إلى هنا ليرفعوا غطاء السرداب لا تقاومي. ألقي الساعات والسلاسل في البئر. وضعي القماش في العربة، وغطّيها بالتبن، وفي الليل خذي حصان الجدّ أفاناسي، وانقليه إلى ضيعة دمينتييف. سأنتظرك هناك.

ـ ألكسي، إلى أين تنوي الذهاب؟

ـ لا أدري. لن أعود في وقت قريب. وحين أعود ستسمعونني كلتا كما بطريقة أخرى.

سحبت ماترينا منديلها الصوفي إلى حاجبيها، وغطّت بأطرافه محفظة نقود كيرنسكي، وذهبت إلى اللجنة. أغلق ألكسي الباب بالمزلاج، والتفت نحو كاتيا التي كانت واقفة قرب الموقدة. كانت عيناه شامتتين، ومنخراه منتفخين.

ـ ضعي عليك ملابس أدفأ، يا كاترينا ديميترييفنا. معطفاً فرائي وجوربين صوفيّين... وفي الداخل ملابس دافئة.. ثم أسرعي.. ليس لنا وقت نضيعه....

ونظر إلى كاتيا موسّعاً عينيه، وبدا وكأنّ شررا يقدح من حول حدقتيه، واهتزّ طرفا شاربيه القاسيان الكتانيان فوق أسنان عارية. أجابت كاتيا:

ـ لن اذهب معك لأي مكان...

ـ أهذا جوابك؟ لا يوجد جواب آخر؟

ـ لن اذهب.

تقدّم ألكسي منها، وأبيضّ منخراه المنتفخان.

ـ لن أتركك وحدك، فلا تأملي ذلك. أنا لم اطعمك يا كلبة

ليفسدك شخص آخر... سيّدة من حلوى... أنا لم أمسّك حتى الآن، وستأتين، أيتها البهيمة، حين ألوي يديك وقدميك...

وأمسك كاتيا بيدين حديديتين، وشخر إذ ضغطت كوعها على تفاحة آدم من رقبته وحملها بخطوتين إلى السرير، جمعت كاتيا القوة التي لا تعرف كيف أتتها، وخلصت نفسها مردّدة: "لا أريد، لا أريد، وحش، وحش..." ووثبت، ولكنه سقط عليها من جديد. وكان يشعر بالثقل والحر وهو في فروته المحشوّة بالنقود. وأخذ يضرب كاتيا خبط عشواء. خبّأت كاتيا رأسها، وراحت تكرّر بكراهية وحشيّة من خلال أسنانها المصكوكة: "اقتلني، اقتلني، وحش، وحش..."

تحرّك المزلاج في الباب. وصاحت ماترينا من الرواق "افتح، يا ألكسي!..." تراجع عن السرير، وأمسك بوجهه. أخذت ماترينا تدقّ بقوة أشدّ، ففتح الباب. قالت ماترينا وهي تدخل:

ـ أحمق. إرحل بأسرع وقت. إنّهم قادمون إلى هنا.

نظر ألكسي إليها لحظة، وأدرك، ولاح وجهه أكثر استبياناً للأمر. جمع القماش والآنية وخرج. وركب الحصان الوحيد المتبقي في البيت، وانصرف من الفناء الخلفي عبر ثغور السياج الخارجي، وهبط يعدو نحو الساقية، وعبر إلى الجهة الثانية، واختفى وراء الحرش.

بعد وقت قصير أخرجت ماترينا من الصندوق تنورة وبلوزة، وألقتها على السرير، حيث كانت كاتيا ترقد ممزّقة الثياب.

ـ إلبسي واذهبي إلى حيث تشائين. أنا أخجل من النظر إليك.

فتّش ياكوف والشهود بيت ألكسي من السرداب إلى العلبة، إلا أنهم لم يجدوا الذي كان مخبأً في العربة. وفي الليل جلبت ماترينا الحصان، وغادرت إلى الضيعة. ظلّت كاتيا جالسة طوال الليل دون ان تخلع معطفها في البيت المظلم البارد منتظرة بزوغ الفجر. وكان عليها أن تقلّب الفكر جيدا بكلّ الأمور. ستغادر ما أن يطلع الفجر. إلى أين؟ وضعت كوعيها على الطاولة وضغطت على رأسها، وأخذت تنشج. مضت إلى الجردل عند الباب، وشربت من المغرفة. إلى موسكو بالطبع. ولكن من بقي هناك من المعارف القدامى؟ كلّهم قد تبعثروا... وغفَتْ على الطاولة، وحين أخذتها رجفة قويّة واستيقظت، كانت الدنيا قد تنوّرت. لم تعد ماترينا حتى الآن. سوّت كاتيا المنديل على رأسها، ونظرت في المرآة على الحائط. يا للفظاعة! وذهبت إلى اللجنة.

قضت وقتاً طويلاً على المدخل الخلفي تنتظر أن يستيقظ الناس في بيت القسّ. وأخيرا خرج ياكوف يحمل جردل الماء القذر، ودلقه على كومة ثلج وسخ، وقال لكاتيا:

ـ كنت أنوي استدعاءك... تعالي...

وقاد كاتيا داخل البيت، وطلب إليها الجلوس، وبحث في جرّار الطاولة بعض الوقت.

ـ سنرمي بالرصاص زوجك أو لا أعرف من هو بالنسبة لك.

ردّت كاتيا بسرعة:

ـ إنّه ليس زوجي... ارجو فقط أن توفّر لي الفرصة للخروج من هنا. أريد السفر إلى موسكو...

كرر ياكوف ساخرا:

ـ "أريد السفر إلى موسكو" وأنا أريد أن انقذك من الرمي.

ظلّت كاتيا جالسة عنده حتى المساء راوية له كلّ شيء عنها، وعن علاقتها بألكسي. وكان ياكوف يخرج بين الحين والآخر مدة طويلة، ويعود ليجلس مستلقيا ويدخّن. قال:

ـ تقضي توجيهات مفوضيّة الشعب للتعليم بضرورة فتح مدرسة في القرية. أنت غير ملائمة كثيرا، ولكن على الأقل لنجرّب... وواجبك الثاني أن تخبريني بكلّ ما يحدث في القرية. وسنتفق فيما بعد على تفاصيل هذه المراسلة. وأحذّرك من العقاب الشديد إذا أخذت تثرثرين بذلك. وأنصحك بأن تنسي موسكو في الوقت الحاضر.

وهكذا أضحت كاتيا معلّمة دون توقع. خصّص لها بيت صغير فارغ قرب المدرسة. وكان المعلم السابق العجوز قد مات فيه في تشرين الثاني لإصابته بالتهاب الرئتين. وكان البتليوريّون الذين اتخذوا المدرسة في وقت من الأوقات مقرّاً لوحدة عسكريّة قد استهلكوا جميع الكتب والدفاتر وحتى الخارطة الجغرافية للفّ سجائرهم بأوراقها. وكانت كاتيا لا تعرف بأي شيء تبدأ، وذهبت لتستشير ياكوف. إلا أنه لم يعد في القرية. فقد غادرها فجأة مثلما جاء إليها بعد أن تلقّى برقية مرسلة بيد رسول خاص، ولم يلحق أن يخبر أحدا غير الجدّ أفاناسي الذي راح الآن يتردّد على لجنة فقراء الفلاحين خائفا أن يفقد نفوذه:

ـ خبّر الرفاق بأن لا يتهاونوا مع الفلاحين الموجيك. سأعود واتحقّق...

وهدأت القرية بعد مغادرة ياكوف لها. وكان الفلاحون لدى مجيئهم إلى بيت القسّ يجلسون قليلا عند مدخله، ويقولون لأعضاء اللجنة:

ـ قمتم بأشياء وأشياء، يا رفاق. وكيف تتحمّلون المسؤولية عنها؟ أى، أى.....

وكان أعضاء اللجنة انفسهم يعرفون ماذا تعني "أى، أى." وأنّ القرية هادئة في الظاهر فقط. ولم يعد ياكوف. وسرت شائعة عن ألكسي كراسيلنيكوف تزعم أنه جمع فصيلة في القضاء وتسلّل نحو الهايتمان غريغوريف. وسرعان ما القرية كلّها أخذت تتحدّث عن غريغوريف هذا، الذي أصدر مرسوما، وهبّ للقضاء على السلطة السوفييتية. وعاد الناس من جديد ينتظرون تغيّرات.

وعد العاملون في سوفييت القرية كاتيا بمساعدتها بشيء ما: إصلاح المواقد، ووضع الزجاج. وقامت كاتيا نفسها بغسل أرض المدرسة والنوافذ، وصفّت المقاعد المدرسيّة المخلخلة. وكانت امرأة صافية الضمير، وفي الأمسيات كانت تبكي وحدها في بيتها الصغير لأنّها كانت تخجل من خداع الأطفال. أي شيء كانت تستطيع أن تعلّمهم دون كتب ودفاتر؟ وأي أصول الصلاح يمكن أن تلقّنهم، بينما كانت تعتبر نفسها غير صالحة كليّاً... وجاء اليوم حين ارتفعت أصوات الصبيان والصبيّات مرحة في بكرة الصباح قرب المدرسة. واضطرت أن تجمع رباطة جاشها كلّها. مشطت شعرها بنعومة، وشدته بعقصة قويّة، وغسلت يديها جيّداً. وفتحت باب المدرسة، وابتسمت، وقالت للصبيان والصبايا الصغار الذين رفعوا إليها أنوفهم الصغيرة:

ـ على الرحب والسعة، يا اطفال.

ـ مرحبا، كاترينا ديميتريفنا.

صاح الأطفال بأصوات صافية رنانة مرحة حتى أحسّت بنفحة من الشباب تمرّ على قلبها. أجلست الأطفال على المقاعد،

وصعدت المنصّة، ورفعت سبابتها وقالت:

ـ يا أطفال، ما دمنا بلا كتب ولا دفاتر ولا شيء نكتب به فسأحدّثكم أنا، وإذا استعصى عليكم فهم شيء اسألوني.. اليوم سنبدأ بروريك وسنيوس وتروفور[(١٦)].

كانت أدوات كاتيا المنزليّة ضئيلة جدّاً. فلم ترد أن تأخذ شيئاً من بيت ألكسي، كما أنه صعب عليها أن تلتقي بماترينا بوجهها النحيل الكئيب. كانت في بيتها مكنسة من العساليج قرب العتبة، وقدران فخاريان على الرف، وحوض خشبي قديم للماء. وكانت سلوتها حديقة صغيرة محاطة بسياج فيها شجرتا كرز، وشجرة تفاح وعنب الثعلب. ووراء السياج يبدأ حقل.

وعندما ازهرت شجرتا الكرز أحسّت كاتيا وكأنّها في السابعة عشرة من عمرها.

وكانت في العادة تهيّئ دروسها في الحديقة، وتقرأ الروايات الفرنسيّة من مكتبة صاحب معمل السكر، وكثيرا ما تتذكّر باريس في السديم الأزرق للأعوام الماضية في العام ١٩١٤ كانت تعيش في ضاحية لباريس في شقّة في الطابق العلوي تحت سقف منحن لها شرفة تطلّ على شارع هادئ ضيّق، فوق سقف بيت صغير عاش فيه بلزاك في وقت من الأوقات. وكانت نوافذ مكتبه لا تطلّ على الشارع، بل على الحدائق المتحدرة نحو السين. وفي زمانه كانت هذه منطقة ريفيّة. وحين كان دائنوه يظهرون من جانب

---

(١٦) روريك وسنيوس وتروفور حسب الأساطير الروسية هم ثلاثة اخوة زعماء وحدات الفاراغيّين (المنحدرين من شبه جزيرة اسكندينافيا) زعم أن سلاف نوفغورود دعوهم لوقف التناحرات في هذه المدينة، فأقاموا الدولة الروسية القديمة. الناشر.

الشارع كان هو يبتعد عنهم عبر الحدائق إلى السين. والآن صارت تلك الحدائق ملكاً لامرأة أمريكيّة ثرية، وفي الأمسيات، حين كانت كاتيا تخرج إلى الشرفة كانت تسمع الطواويس تصيح بأصوات ربيعية حادة، فكان يبدو لكاتيا التي جاءت إلى باريس بعد انفصالها عن زوجها في وحشة وانعزال معتقدة أنّ الحياة قد بلغت نهايتها.

أحبّ الأطفال كاتيا وكانوا في الدروس يصغون إليها بانتباه شديد وهي تروي قصصاً من التاريخ الروسي تبدو كالحكايات. وبالطبع كانت مسائل الحساب وجدول الضرب والإملاء أكثر صعوبة بالنسبة للأطفال، وبالنسبة لكاتيا نفسها، ولكنّهم تغلبّوا على ذلك بالجهود المشتركة. وصارت معاملة أهل القرية لها أفضل بكثير، فقد عرف الجميع أنّ الكسي كاد يقتلها. وكانت النساء يحملن إليها الحليب والبيض والخبز. فكانت كاتيا تقتات على ما يحملنه إليها.

كانت كاتيا تصحّح الدفاتر وهي جالسة تحت شجرة التفاح القديمة المغطاة بالصوفة. وكان صبي صغير ينشج منذ وقت طويل وراء السياج الواطئ الواهن أيضاً.

ـ يا عمّة كاتيا، لن أفعل ذلك مرّة أخرى.

ـ لا، يا إيفان غافريكوف، أنا زعلانة عليك. ولا أتكلّم معك يومين.

كان إيفان غافريكوف ذو العينين الزرقاويّين البريئتين كثير المشاكسة. كان يجرّ الفتيات من ضفائرهن في الدروس، وحين وبخوه على ذلك تظاهر بالإغفاء، وهوى تحت المقعد. ومشاكساته الأخرى لا حدّ لها.

ـ لا، لا، يا غافريكوف. أنا لا أرى تماماً أنّك لن تندم على

افعالك، وأنّك جئت إلى هنا لأنّه لا شيء لك تفعله.

ـ حق الإله، لن أفعلها مرّة أخرى...

دخل شخص البيت من الشارع، ونادى صوت ماترينا كاتيا. ماذا كانت تريد؟ عفت كاتيا عن غافريكوف بسرعة، ودخلت البيت. استقبلتها ماترينا بنظرة متفرّسة غير طيّبة.

ـ هل سمعت؟ ألكسي في مكان قريب... إسمعي، يا كاترينا، لن أريد أن يتكرّر ما حدث من قبل، أنت لست منّا... إنّه سيقتلك على أيّة حال.. أضحى وحشا يسفك الدماء! وأنت مذنبة في كلّ شيء... قبل برهة قال شخص أنّ الكسي قادم على عربات... إرحلي، يا كاترينا عن هنا. سأعطيك عربة ونقودا.

كان لفاديم بيتروفيتش الوقت الكافي لمختلف الأفكار خلال مكوثه في المستشفى في خاركوف. لقد وجد نفسه في الجانب الآخر من خط النار. وكان هذا العالم الجديد غير جذاب في ظاهره: ردهة غير مدفّأة، والثلج الرطب يتساقط وراء النوافذ، والطعام رديء ـ حساء رمادي اللون مع سمك ـ وأحاديث المرضى اليوميّة عن الطعام والتبغ البيتي وعن الحرارة وكبير الأطباء. ولا كلمة عن المستقبل غير المعروف الذي كانت روسيا تعدو نحوه، ولا عن الأحداث التي تهزّها، والصراع الدموي الذي لم ينته والذي كان المشتركون فيه هؤلاء المرضى والجرحى ذوو الرؤوس الحليقة والملابس القطنيّة المتسخة يقضون أوقاتهم نائمين أياماً بكاملها، أو لاعبين على الأسّرة بقطع الداما التي صنعوعها بأنفسهم، أو أن يغنّي أحدهم أغنية شجيّة بصوت منخفض.

لم يجتنب الناس فاديم بيتروفيتش ولكنّهم لم يحسبوه من

جماعتهم. فلم يكن أمامه غير أن يحادث نفسه، فقد تراكم في نفسه الكثير ممّا لم يقلّب الفكر فيه، ولم يبثّ الرأي، وانقطعت عنه ذكريات جمّة، مثلما تقطع من كتاب صفحة في موضع شيّق. لقد قبل فاديم بيتروفيتش هذا العالم الجديد دون تردّد، لأنّ ذلك قد حدث في وطنه. والآن كان عليه أن يفهم كلّ شيء، ويتروّى في كلّ شيء.

ذات مرّة جلب كبير الأطباء إليه جرائد موسكوفية. وقد قرأها فاديم بيتروفيتش بعينين مختلفتين كليّاً، دون أن يهزأ بها بخبث مقدّما، كما كان يفعل... لقد انتشرت الثورة الروسية في المجر في ألمانيا وفي ايطاليا. وكانت سطور الجرائد مفعمة بالجرأة والثقة والتفاؤل. إن روسيا المسحوقة بالحرب، بالصراع الداخلي، والمقسّمة مقدّما بين الدول الكبرى تأخذ بقيادة السياسة العالميّة، وتصبح قوّة يعتدّ بها.

أخذ فاديم بيتروفيتش يفهم الطمأنينة اليومية لرفقائه ذوي الألبسة الرمادية، فقد كانوا يعرفون أي قضية قد أنجزت، وإنهم قد أسهموا في العمل... إن طمأنينتهم دائمة ثقيلة اليدين والقدمين تأمّلية استغرقت خمسة قرون، وما أكثر ما حدث في تلك المدة... إنّ تاريخ الشعب الروسي والدولة الروسية عجيب وله خاصّيته. والأفكار الجبّارة غير المتّخذة أشكالها تطوف فيه من قرن إلى قرن، أفكار ذات نطاق عظيم عن الحياة الحقة. وتتحقق بدايات خارقة جريئة تقلق العالم الأوروبي، وتتطلع أوروبا بذعر وحنق إلى هذا الغول الشرقي الضعيف والجبار، والفقير والغني غِنًى لا حدّ له، المولّد من بطونه المعتمة توهّجات بكاملها من الأفكار والنظريّات على نطاق البشريّة كلّها.

وأخيراً إنّ روسيا بالذات تختار طريقاً جديداً لم يجرّبه أحد من قبل، ومنذ الخطوات الأولى يسمع العالم وقع خطاها على هذا الطريق...

وطبيعي أنّ فاديم بيتروفيتش لم يكن وهو بهذه الأفكار، ليعبأ لجداول المياه القذرة وراء النوافذ تحمل في الشارع ثلج آذار، أو للمستخدم السوفييتي النكد المتذمّر ذي الحذاء الطويل المهترئ يحمل كيس الطعام وصفيحة كيروسين وراء ظهره ليشترك في اجتماع احدى الهيئات التي لا حصر لها. ولم يكن ليكترث بالحساء الذي يجرعه، ولا بما فيه من سمك. فقد كان يضطرم بنفاد الصبر ليعاون بنفسه في هذه القضيّة بأقرب وقت.

بدأت أوكرانيا تتطّهر من البتليوريّين وقبل مدة قصيرة استولى الجيش الأحمر على يكاترينوسلاف. ومازال بتليورا متشبّثا ببيليا تسيركوف، إلا أنه أخرج منها أخيرا، فعبر الحدود مع فلول وحداته إلى غاليسيا. وكانت موجة واسعة من انتفاضات الأنصار تصعب على التعداد والسيطرة. كانت تندلع كالحرائق في القرى والأقضية التي يمزّقها صراع ضار بين الفلاحين ممّن يملكون قطعا صغيرة من الأرض وبين الغولاك الأقوياء. وكان هؤلاء وأولئك يشكّلون الفصائل الخيّالة والمشاة التي كانت تشتبك في معارك دمويّة بكلّ ضراوة. وكان العملاء السرّيون للبتليوريّين والدينيكيّين متخفّين ومستفزّين. وكانت السلطة السوفييتية تقام في المدن وعلى طول الخطوط الرئيسية للسكك الحديدية، وعلى جانبي هذه الخطوط كانت الحرب مستعرة على مدى انطلاق قذيفة من قطار مصفّح.

وأخيرا تلقّى فاديم بيتروفيتش التعيّين الذي انتظره طويلاً ـ

في أركان لواء للطلبة العسكريّين كان تشوغاي مفوضاً له، وخرج من المستشفى في أواسط آذار، وهو مايزال يعرج ويتّكئ على عصا، وسافر إلى وحدته في كييف.

كانت عصابة زيليني التي انفصلت عن الهايتمان غريغوريف تقترب من كييف نفسها على مئات من عربات الرشاشات محطّمة سوفييتات القرى ومتصيّدة الشيوعيّين. وقد خلّف زيليني وراءه على طول الطريق التي سلكها أناسا سلخت جلودهم، وآخرين أرغموا على الجلوس على قِرَم حادة الأطراف. وكان يحرق أعضاء لجان فقراء الفلّاحين أحياء في الأهراء، ويسمّر اليهود بالمسامير على الأبواب، ويبقر بطونهم، ويخيّط قطة بها. وضعت خطّة القضاء على هذه العصابة بمساهمة روتشين في مقرّ مفوّض الشعب للشؤون العسكرية. ولم تكن القوات المخصّصة لها كثيرة. خرج مفوّض الشعب للشؤون العسكرية لأوكرانيا من كييف على سفينة ليوجّه العملية في مكانها.

كان الدنيبر مايزال ممتلئاً بالمياه. دارت دواليب السفينة في مياه صافية لا تعكّرها دوامات دانية. ولم يستطع ضجيج الدواليب، ولا أصوات الطلبة العسكريّين أن تغطّي على تغريد البلابل على الضفاف المطرّزة بالخضرة المعطرة اللزجة في بوادر الأوراق والزغب والصفرة الفاقعة، وكان سطح السفينة حارّاً من وهج الشمس التي نهضت فوق منبسط الفيضان. كان فاديم بيتروفيتش يقف عند الحاجز ينظر في الماء المتلألئ.

لقد عاش فصول ربيع كثيرة، ولكن نبيذ الحياة لم يفرّ هذا الفوران في أعماقه البتة... وفي وقت هو أقلّ الأوقات ملاءمة وأبعدها عن القبول... كان رأسه غائما بهواجس غير صافية... من

الخير أن لا تبحث في جيبك عن سيجارة، أيّها الرجل الجاد، ولا تقطّب حاجبيك، ولا تنفض عنك المفاتن المقبلة... هذا هو اغبشاش الربيع، يرتفع فوق مياه الفيضان، فوق الجزر، فوق البيوت الريفيّة الغريقة وقد نفذت فيه الشمس الهائلة المتدلّية. وضوءها يرقد على الماء، وعلى الأشجار وانعكاساتها الشاحبة الرجراجة، وعلى ظهور الأبقار الداخلة في الماء حتى ركبها، وعلى ربوة معشوشبة صعد إليها أحد الثيران ليتمعّن في أعجوبة الربيع الفريدة البكر.

من الغريب، ومن الغريب جدّاً أنّ كاتيا لم تخطر على بال روتشين إلا قليلا طيلة هذا الوقت ومنذ أن كان في يكاترينوسلاف. وكأنها رحلت مع ماضيه، فقد كانت مرتبطة كليّاً بالحياة التي ينتقدها الآن بشدة... حين كان فكره يعود إلى كاتيا كان يعود نفسه إلى روتشين ذاك الذي رآه مرة في مرآة الحلاق. حينذاك لم يكن له من النفور ما يكفي لإطلاق الرصاص على الصورة والبصق عليها على الأقل. بينما في إمكانه أن يفعل ذلك الآن.

قبل ربيعين كانت عاطفته نحو كاتيا تبدو وكأنّها تملأ الكون كلّه، كلّ الكون خارج جبينه المجعد، جبين رجل مبلبل ومتكدر بشكل مميت. آنذاك كان بحاجة إلى حبّ كاتيا، لاسيما في ساعة وحدته في فندق يكاترينوسلاف، حين كان ينظر إلى مقبض الباب الذي كان من الممكن أن يشنق نفسه من خلاله... والآن: لا حاجة له بها؟ وكيف ذاك؟ في روستوف خان كاتيا للمرة الأولى، وفي يكاترينوسلاف للمرة الثانية؟

تطلّع إلى الضفاف المارّة، واستنشق بكلّ صدره الهواء البليل

المضمّخ بالعسل، ولم يشعر بتأنيب ضمير ولا بندم. لا، لم تحدث خيانة في يكاترينوسلاف.. فقد صفّى هناك حسابه مع الماضي... وكانت ماروسيا... ترنّمت بأغنية قصيرة بريئة عاطفية عن الحياة الجديدة، عن هذا الفيضان الربيعي، عن السعادة التي لا تسير ولم تُذَق.

جأر الثور الواقف على التل المعشوشب، وضحك الطلبة العسكريّون عند مؤخّرة السفينة، وجأر واحد منهم محاكياً. اغمض روتشين عينيه رخيّ البال. أحقاً أنّ الموت يأس؟ لقد كان موت ماروسيا وضّاء. لقد كان موتها بمثابة هتاف راحل للباقين: أحبوا الحياة، أمسكوا بها بكلّ عنفوان، واجعلوا منها سعادة!...

إنه لم يؤجّل جهوده للبحث عن كاتيا. وبناء على طلبه أرسل من مفوّضية الشعب العسكري إلى اللجان التنفيذيّة في اقضية يكاترينوسلاف وخاركوف استفسار عن ألكسي كراسيلنيكوف إلا أنّه لم ترد حتى الآن معلومات عن مكان وجوده. ولم يكن في وسع فاديم بيتروفيتش الآن أن يقوم بأكثر من ذلك. لقد كانت هذه الساعات القليلة على ظهر السفينة هي وقت الفراغ الوحيد المتاح له منذ شهر ونصف من العمل ثماني عشرة ساعة في اليوم.

تقدّم منه تشوغاي ومفوّض الشعب للشؤون العسكرية. كان الأخير رجلاً نحيلاً في سترة محزمة من الجنفاص له وجه محمرّ من الشمس وعينان نديّتان كعيني السكران، رغم أنه لم يشرب الخمرة البتّة، ويكره السكارى حتى كان يطلق النار على آمر اللواء، وهو رجل طيّب، حين وجده في بيته مع زجاجة من الفودكا... أشار إلى الضفّة العالية حيث لاح برج جرس أبيض وقال:

ـ هذه قريتي... كانت جدّتي عندما تسمع صفير سفينة كانت عجوزا لا تهدأ ترسلني في الحال مع منخل مملوء بالأجاص والكمثرى والجوز إلى الرصيف لأبيعه... ولكن لم أصبح تاجراً...

قال تشوغاي:

ـ أما جدّتي فكانت تقّيه. كانت تتردّد دائماً على الأماكن المقدّسة، وحتى بلوغي العاشرة كانت تأخذني معها للتسوّل...

قال مفوّض الشعب دون أن يصغي:

ـ ثم أعطوني إلى دكان حدادة لاتدرب. ومن المحتمل أنّه ما يزال هناك، أسفل برج الجرس. ومازلت أحبّ رائحة فحم الخشب، والغاز المتصاعد منه. وحين نلت كفايتي من الضرب على القفا سافرت إلى كيف لأشتغل في مستودع القاطرات... هذا ما حصل.. ثم رحلت إلى خاركوف. إلى مصنع ميكانيكي...

قال تشوغاي دون أن يصغي:

ـ كنت ماهراً في الغناء من أنفي في فناء الكنيسة. كنت إذا خُدشت في مكان ما، أو لُطّخ وجهي بالدم أرفع عيني، وأنشد "الصلوات"... ثم كان يحدث أن اتخاصم مع جدّتي على كوبيك.

وكرّر تشوغاي في سهوم:

ـ أتخاصم مع جدتي على كوبيك....

ونظر إلى الشاطئ الذي نتأ الآن برأس دار الدنيبر حوله نحو غيضة مغمورة بالماء. وتفرّست عيناه الجاحظتان. وضرب بيده على قبّعته ذات الشريطين، وسار سريعا إلى جسر القبطان.

وصاح بالقبطان الذي كان عجوزا جاف العود متدلّي الشاربين:

ـ هاي، يا جدّ. إبتعد نحو المروج!

ـ لا يمكن، يا رفاق، نحن نسير في الجزء الصالح للملاحة، بينما الماء ضحل في المسيرة.

ـ لا تسر في الجزء الصالح وضرب تشوغاي على غلاف مسدّسه استدار استدارة حادّة!...

استدارت السفينة حول الرأس، وشيئا فشيئا تكشّفت على الضفة المنحدرة قرية كبيرة لها برج جرس عال وطواحين وبيوت بيضاء، وبساتين واطئة ذات خضرة غضّة.

كان مفوّض الشعب يقول لروتشين:

ـ أنظر إلى ذلك البيت الصغير الذي يُرى وحده هناك، يلوح بالكاد. إنّه البيت الذي ولدت فيه.

صاح تشوغاي بلهجة جادة:

ـ هيا، يا وباء، أدر الدفّة إلى اليسار بحدة!

كان جمع كبير من العربات يقف على الشاطئ، وزوارق كثيرة عنده. وكان الناس يتزاحمون نحوها قافزين فيها، بينما لحق أحد الزوارق أن يجذّف بسرعة. نزل تشوغاي السلّم، وسترته ترفرف، وهبط إلى ظهر السفينة في آن واحد تقريباً، ولعلعت الرشاشات من السفينة. وتناثر الناس من الزوارق الآتية واقعين في الماء واضطرب الجمهور الواقف على الشاطئ مندفعاً إلى عربات الرشاشات، وعدا بها مثيرا الغبار، صاعداً في الأعلى إلى الشارع العريض. ودقّ جرس البرج دقات الإنذار.

لم يستمرّ التراشق والعدو غير بضع دقائق. وخلا الشاطئ. صعد تشوغاي السلّم وعيناه الجاحظتان تلمعان بمرح:

ـ إنه زيليني! تسلّل إلى هنا، إبن الكلبة. يا فاديم بيتروفيتش

يا لها من خطة للمحاصرة هذه! حسنا، يا مفوّض الشعب! لابدّ من أن تقوم بإنزال....

واضطربت عصابة زيليني في طوق الحصار مثل قطيع من الذئاب، وضغطت أخيراً على سدّة السكة الحديد تحت نار القطار المصفّح، وأبيدت في حرش كثيف للجوز اندفعت إليه عربات العصابة آملة أن تحدث ثغرة. وكان الحقل كلّه قد حفر مقدماً حفراً متفرّقة فطلعت العربات الرباعية من حرش الجوز مزبدة مذعورة بالرصاص والقنابل اليدويّة. ارتدّت الخيول التي في المؤخّرة إلى العربات، وكسرتها وقلبتها. واندفع قطّاع الطرق نحو الأجمات حيث كان الموت بانتظارهم. ولم يحاول أحد منهم أن يلتمس الرأفة. وجدوا الهايتمان زيليني تحت كومة من عساليج العام الماضي، وأخرجوه من هنا من قدميه، ودهش الطلاب العسكريّون لأنهم تصوّروه عملاقا يثير الذعر، فإذا به نحيل مجذوب لا يستحق بصقة، سوى أن عينيه الصغيرتين الناصلتين البغيضتين كانتا تنمّان عن أصله الذئبوي. لووا يديه ورجليه ليحملوه إلى كييف حيّاً.

ومع ذلك فإنّ إحدى فصائله قد اخترقت الحصار في ناحية، واتّجهت نحو الشرق. أرسل مفوّض الشعب لملاحقتها فوجاً مؤلّفاً من ثلثمائة فارس ومعهم تشوغاي وروتشين. وبدأت ملاحقة طويلة حذرة. كان قطّاع الطرق يغيّرون خيولهم في الضِيع، بينما سار الحمر في أثرهم دون تغيير الخيول. وتبيّن أنّ قطاع الطرق يتّجهون نحو قرية فلاديميرسكويه حسب ما رواه الفلاحون في قرية كان قطّاع الطرق قد مرّوا بها قبل يوم واحد وصادروا الخيول فيها، ونهبوا كلّ ما استطاعوا أخذه في عجالتهم.

وقال الفلاحون لتشوغاي وروتشين عند البئر حيث كان الفرسان يسقون خيولهم:

ـ أقضوا عليهم بأسرع وقت ممكن، يا رفاق. نصارحكم بأنّنا ضجرنا من العمليّات العسكرية. ونحن نعرف هايتمانهم جيّداً، وهو من قرية فلاديميرسكويه ويدعى أليوشكا كراسيلنيكوف. لقد كان فلّاحاً صالحاً، ولا جدل في ذلك، ولكنّه فسد، وأضحى عربيدا

وهكذا وقع فاديم بيتروفيتش فجأة على أثر ألكسي الذي كان يلاحقه للأسبوع الثاني، وقع على أثر كاتيا. واضطرب اضطرابا شديدا. لم يعد يفصله عن كاتيا غير مسيرة يوم واحد. في أيّة حال سيجدها؟ معذّبة متغيّرة بشكل لا تعرف فيه؟ بحيث لا يستطيع أن يفعل سوى أن يضع رأسها الشائب على صدره.... الشائب، الشائب... "حسنا، يا كاتيا. استريحي الآن. سنعيش، ويجب أن نعيش..." لا، لا، لا يعقل أن تكون قد أصبحت زوجة الكسي الطيّعة! والأكثر احتمالا أن يتوقّف حصانه في نهاية مسيرة اليوم على قبر كاتيا... وربما ذلك أفضل لها... وتكون صورة كاتيا طاهرة غير ملوّثة....

سار الفوج بسرعة في الطريق المترب. فاديم بيتروفيتش يترنّح على السرج. واهتزت صورة كاتيا وغامت في ذاكرته الكالحة. سيعيدها إلى حياته مهما تكن الحالة التي يجدها فيها.

كانت البيوت المحترقة في قرية فلاديميرسكويه ماتزال ترسل الدخان، والأطفال ما يزالون يأتون لينظروا بذعر إلى برك الدماء التي لم يمتصّها الرماد بعد، والنساء مازلن في مخابئهن في بيوت الآخرين مرتجفات منتفخات الوجوه بالدموع حين اقتحم تشوغاي

روتشين القرية في تشكيلتين من طرفيها. ولكن كراسيلنيكوف لم يكن هناك. فقد نبّهه أحد الناس فخرج مع شقائه قبل نصف ساعة تقريبا من ظهور الحمر بعد أن نكّل بأعضاء لجنة فقراء الفلاحين، وأعمل الطعن بسيوفهم في سبعة عشر رجلا، وجعلوا الجدّ أفاناسي ثامن عشرهم لمجرّد إظهار الشقاوة.

كان حنق الفلاحين عليه شديداً جداً حتى أنّ القرية طلعت عن بكرة أبيها تقريباً، وأحاطت بالفرسان، الذين كانت خيولهم تترنح تحتهم متعبة. وصاح الفلاحون:

ـ إلحقوا به، اقتلوا ألكسي. فإنّ قواه ضعيفة، ولا يملك عتاداً... لم يذهب بعيدا، فنحن نعرف أين ذهب أولئك الأوغاد... تستطيعون أن تمسكوهم بأيدي دون سلاح.

سأل تشوغاي:

ـ وهل تعطوننا خيولاً مستريحة، يا رفاق؟

ـ نعطيكم... لأجل ذلك نعطيكم.

ـ كم؟

ـ يمكن أن نجمع خمسين حصاناً أو نحوها... اتركوا خيولكم لنا، وسنتبادل بعد ذلك... يا إلهي، إنّه لا يتركنا نعيش.

وبينما كانوا منشغلين بجلب الخيول، ووضع السروج عليها تقدّم فاديم بيتروفيتش من النساء وئيد الخطو. ولما رأين أنّ الرجل يريد أن يسأل عن شيء أقبلن نحوه. قال فاديم بيتروفيتش:

ـ كنت أعرف كراسيلنيكوف في الحرب الألمانية. كان له أخ متزوج، أما هو فيبدو لي أنه كان أعزب... فكيف هو الآن؟ متزوّج؟

لم يكن النسوة يعرفن بعد ما يرمي إليه فقلن لهوفات:

ـ متزوّج، متزوّج...

ـ أي متزوّج هو! إنها لم تكن زوجته...

ـ ليس كذلك... أيها الرفيق العسكري، سأحكي لك... لقد كسب هذه المرأة من ماخنو في لعبة ورق، وجلبها معه إلى هنا، وأراد أن يتزوّجها.. طبعا قالت له: تزوّجني، ولكنني لم أتعوّد على عيشة الفلاحين... فقد كانت من الأعيان، جميلة شابة... عندما الألمان أحرقوا بيت ألكسي في الربيع الماضي.. فأنشأ يبني له بيتاً... ثم حصلت الأمور مع ياكوف...

تدافعت امرأة ثالثة لتقترب من فاديم بيتروفيتش، وكانت أكثر معرفة:

ـ إسمع. أيها الرفيق الآمر، لقد ضربها ضرباً شديداً، ولكن الشيطان اللعين لم يستطع أن يقتلها.. وهي منذ شهر آذار تشتغل معلّمة عندنا.

ـ هكذا، إذن قال فاديم بيتروفيتش، وسعل وهل هي الآن في القرية؟

أخذت النسوة يتبادلن النظرات. عندئذ قالت امرأة رابعة اقتربت لتوّها:

ـ اخذها معه تحت التبن في إحدى العربات، ولا نعرف إن كانت ميتة أم حيّة...

كان صبي صغير ينظر بعينين مفتوحتين إلى روتشين إلى سيفه ذي المقبض النحاسي، وإلى حذائه المترب ذي المهماز، وإلى الساعة الكبيرة في معصمه، وإلى المسدّس المتدلي. وقد ألقى رأسه إلى الخلف كلّيا.

وقال بصوت غليظ:

ـ انهن يكذبن، يا عمّ. هن لا يعرفن شيئا عن العمة كاتيا. أنا أعرف كلّ شيء.

وقالت صبية قبيحة نحيلة على شفتها قرحة كانت تقف وراءه:

ـ صدّقه، يا عمّ. هذا الصبي يعرف كلّ شيء.

ـ حسنا ماذا تعرف؟

ـ ماترينا أخذت العمة كاتيا إلى محطة القطار. لم تكن العمّة كاتيا راغبة في الذهاب، فبكت بكاء شديدا، وكذلك ماترينا... ثم قالت العمّة كاتيا لي: "قل للأطفال أنني سأعود..." وعندما دخل ألكسي القرية مع عربات غادرت ماترينا والعمّة كاتيا من طرف القرية الآخر! وعندما صعدنا إلى التل أنزلتاني من العربة...

صاح تشوغاي:

ـ إلى الخيول!:

ولم يتح لفاديم بيتروفيتش الوقت ليسمع الحديث إلى نهايته. غادرت الفصيلة القرية على خيول مستريحة وعربات رشاشات. كان فلاح قصير داكن البشرة، من أولئك الذين اضطروا إلى قضاء اليوم بطوله جالسين بالبئر غاطسين إلى سررهم في الماء والطين يخبّ بحصانه إلى جانب تشوغاي وروتشين رافعاً مرفقيه. وقد امتطى حصانه بلا سرج بالهيئة التي كان فيها حافياً ممزق القميص منفوش اللحية. قاد الفصيلة في حركة التفاف إلى غابة لأشجار البلوط، كانت الطريق الوحيدة للشقاة في هذه الأنحاء.

وصلوا قبل انقضاء النهار، وأخذوا يحيطون بالغابة تاركين مخرجاً واحداً للشقاة ليقعوا في كمين. كانت الشمس الواطئة تنفذ

بأشعتها من وراء الأوراق اللامعة إلى جذوع الشجر المعوّجة. كان الحصان الذي يمتطيه فاديم بيتروفيتش كثير الحركة، يهزّ رأسه ويتوقّف ويعضّ ركبته، ويضرب بطنه برجله. ألقى فاديم بيتروفيتش المقوَد أخيراً، وأمسك القربينة بكلتا يديه على أهبة الاستعداد. كانت أشعة الشمس المبقّعة بسحب البعوض الذهبية تشعشع الغابة وتشرطها، فكان يصعب تبيان أي شيء إلى الأمام وعلى الجانبين، حيث كان الطلبة العسكريون المترجّلون يزحفون يمينا ويسارا في صف نحيل وهم يطأون العساليج المخشخشة بحذر خلال الأجمات النامية والسرخس الطويل.

نبّه الدليل إلى إنّهم سيقعون في مكان ما هنا على كوخ حارس الغابة، وعلى الطريق الوحيد الذي من الممكن أن يسلكه الشقاة للنفاذ إلى قلب الغابة، وفجأة ظهر للعيان سقف مغطى بالصوفة له حافة كالسرج على بعد خطوات من روتشين. توقّف فاديم بيتروفيتش محدقا من تحت الأعشاب الكثيفة. وصفر صفيرا خافتا. كانت الأغصان تتكسّر بخشخشة أشد وعلى مسافة أقرب تحت أقدام الطلاب العسكريّين. همز الحصان من جديد، ومرّ خلال الأحراش، وشاهد الكوخ المتروك في فرجة صغيرة من الغابة كانت تقف بالقرب منه بضع عربات محلولة منها خيولها، وتتناثر أسمال وخرق. لقد رحل الشقاة من هنا.

أمسك فاديم بيتروفيتش قربينته في هيئة استعداد، وأخذ يدور حول الكوخ بحذر. وكان الكسي كراسيلنيكوف يتراجع أمامه بحذر أيضاً من ركن إلى آخر، وهو ينوي الاستيلاء على حصان هذا الفارس. تلفت روتشين، وتوقّف عند الحائط الجانبي. بينما وقف ألكسي عند الحائط الأمامي بنافذته المحطّمة وبابه المخلوع.

ولكي يقوم بكلّ شيء دون أن يحدث ضجة أمسك بسكينه فقط بهيئة استعداد. وحينما خرج روتشين من وراء الركن، هجم ألكسي عليه بسكينه إلا أن روتشين استطاع أن يحمي نفسه بقربينته. وثب الكسي إلى الوراء فارتطم ظهره بحائط الكوخ بشدة. وسقط السكين. نظر إلى فاديم بيتروفيتش، وكأنّه ينظر إلى ميت يبعث حيا. وزعق زعيق الهول، وركض منحني القامة، هازّاً ذراعيه بارتباك.

ـ ألكسي!

صاح روتشين، وجذب المقود وانطلق في أثره. وصل ألكسي إلى شجرة، وألقى ذراعيه حولها فجأة. وضغط وجهه على جذعها. وثب روتشين من على السرج، وراح يطلق الرصاص في تسديد مباشر تقريبا على ظهر ألكسي العريض المهتزّ.

ـ كانت تعيش هنا؟

ـ أها.

انحنى روتشين، وتخطّى العتبة إلى كوخ صغير مائل ذي نافذة صغيرة واحدة واطئة جدّاً حتى أن الارقطيون في الخارج كان يغطّيها تماماً. رأى روتشين دفاتر مصنوعة من ورق الحيطان وبعض الكتب موضوعة على منضدة صغيرة واطئة أيضاً في الضوء المخضوضر قرب النافذة. وكان أحد الدفاتر مفتوحا وبالقرب منه محبرة وريشة. يعني أن كاتيا لحقت فقط أن تهرب بنفسها. قرفص روتشين أمام المنضدة. غطّى الطفل الصغير فمه بيده خلسة وأخذ يكبت ضحكة، ويشير لروتشين بعينيه إلى الموقد.

كان غراب قيظ صغير ذو عينين مستديرتين بلهاوين يجلس أمام فتحة الموقد. ولعلّه سقط من المدخنة حيث كان عشه. ولما

رأى الغراب الأنظار مصوّبة نحوه قفز داخل الموقد خافقا بجناحيه ليعين نفسه. قال الطفل:

ـ إنها أربعة غربان قيظ هناك. وسأصطادها كلّها...

قلب فاديم بيتروفيتش الدفاتر الموضوعة على المائدة فوجد دفتر يوميات كاتيا المدرسيّة، حيث كانت تسجّل فيه الدروس وبعض الحوادث المعيّنة. وكانت كلّ يوميّة تقريباً تنتهي بما يلي:

"شاغب إيفان غافربكوف مرة أخرى..." أو "اقطع على نفسي عهدا بالأ أكلِّم إيفان غافريكوف ثلاثة أيام..." أو "مرة أخرى سار إيفان غافريكوف على حافة السطح ليخيف البنات. أنا في يأس تام..."

سأل روتشين:

ـ مَن إيفان غافريكوف هذا؟

ـ أنا.

ـ ولماذا تشاغب، وتزعج كاترينا ديميترييفنا؟

زفر إيفان غافريكوف زفرة عميقة، وغطت عيناه الزرقاوان براءة تامة.

ـ يحصل... أنا مجتهد في الدراسة... أنظر في دفاتر الخط للبنات: خربشة. وهذا هو دفتري. ستندهش. وأنا اعرف جدول الضرب كلّه، هل تريد أن تسأل؟

وقلّص عينيه بكلّ قوته.

ـ أصدقك.

جلس فاديم بيتروفيتش على الأرض وقد طوى رجليه، وواصل تقليب دفتر اليوميات. فلم يعثر فيه على كلمة عن كاتيا.

ولكنّه أحس وكأن شباب كاتيا الدائم ورقتّها النقية الواثقة بالآخرين ينهضان من كلّ صفحة فيه، وتراءت له يداها بعروقها الخفيفة الزرقة، وعيناها الدافئتان الصافيتان...

قال إيفان غافريكوف:

ـ تسعة في تسعة تساوي واحد وثمانين، أليس صحيحا؟

ـ شاطر، شاطر... إسمع، ألم تقل لك إلى أين سافرت؟

ـ إلى كييف.

ـ ربما تكذب؟

ـ وما حاجتي إلى الكذب؟

ـ قد تكون لديها رسائل ودفاتر أخرى مخبّأة في مكان ما، ألا تعرف؟

ـ كلّ شيء هنا... سآخذ هذه إلى البيت الآن، طلبت مني أن أحرص على الدفاتر، وإلا فأنّ الفلاحين سيلفّون بأوراقها سجائرهم.

قرأ روتشين في صفحة الدفتر الأخيرة:

"... لا أدري لماذا أنا مؤمنة بأنك حية، وسنلتقي يوماً ما... تصوّري إنني خرجت من ليل طويل طويل... وأوّد أن أحدّثك عن عالمي الصغير الذي أعيش فيه. توقظني الطيور وراء النافذة. فأذهب إلى الجدول للاستحمام. ثم في طريق العودة أشرب الحليب عند العمّة اغافيا، صرت مدينة لها بروبل وستين كوبيكا، ولكنّها ستنتظر. ثم يتوافد الأطفال، وندرس. ولا شيء يعيقنا، وليست لنا أيّة هموم. تبيّن أنّ الإنسان لا يحتاج أبدا إلى ما كان يبدو لنا ضروريا، ولم نستطع العيش بدونه. أشعر بالخجل الشديد حين أقول إنني أحسّ وكأنني قد عدت إلى السابعة عشرة. وأنا

أعرف، يا داشنكا، إنّك تفهمين ما أريد أن أقول... يضايقني فقط بعض الأحيان الصبي العزيز عليّ إيفان غافريكوف... إنّه فريد في ...".

وانقطعت الرسالة عند هذا الحد لنفاد الفراغ في الدفتر. جذب فاديم بيتروفيتش الصبي إيفان غافريكوف، وحصره بين ركبتيه:

ـ ها؟ ماذا تريد أن اهدي لك؟

ـ طلقة.

ـ لا توجد عندي خرطوشة فارغة...

ـ أطلق رصاصة، لنخرج إلى الفناء.

نهض فاديم بيتروفيتش من الأرض، وأطبق الدفتر، وأخذ يحشره وراء قميصه.

ـ سآخذ هذا الدفتر يا إيفان.

ـ لا، ستوبّخني.

ـ سأرى العمّة كاتيا قريباً، وأخبرها بأنني أخذته... لنخرج إلى الفناء لأطلق...

١٨

كانت الشمس في الهواء الساكن تشوي شوارع تساريتسين المقفرة، حيث كانت أكوام القاذورات تتكدّس عند مداخل البيوت بأبوابها المفتوحة على مصراعيها. كان أهل المدينة مختبئين. وعلى منحدرات الفولغا فقط كانت العربات المثقلة بالممتلكات الحكومية وأرشيفات المؤسّسات تندفع بضجيج. لقد كانت المدينة تعيش ساعاتها الأخيرة. وفي مشارفها كان الجيش العاشر الذي استنزف كثيرا بعد مانيتش لا يزال يصمد لضغط جيش شمال القفقاس الحديث التشكيل بقيادة الجنرال فرانغل.

كانت محطة التلفونات ماتزال تعمل، ولكن المدينة أضحت بلا ماء ولا كهرباء. وتوقّفت المصانع. وفكّ كلّ ما يمكن أن يؤخذ منها وخلع وجمع وحمل إلى رصيف النهر. ولم يبق في المناطق العمالية غير الأطفال والشيوخ. فلم تكن بروليتاريا تسارتسين التي تحمّلت ضحايا فادحة في الدفاع عن المدينة خلال الشهور العشرة الأخيرة تنتظر رأفة من البيض. فمن كان مايزال ذا مقدرة انخرط في الجيش ليقاتل والآخرون سافروا على سطوح العربات وعلى ظهور السفن وبطونها. وكان الناس يرحلون شمالا إلى مكان ما. وكانت مستودعات الأخشاب على ضفّة الفولغا

تحترق، وهدير المدافع يشتدّ ويقترب أكثر.

كانت حياة المدينة تتركّز في محطات القطار وأرصفة النهر. وامتلأ شاطئ الفولغا بالأكياس والصناديق والآلات والمخارط، وكان مئات الناس المتصبّبين عرقا يقلّبون هذه الأشياء في صياح وسباب، ويجرّونها على خشبات الصعود إلى السفن. وكان آلاف الناس يقفون بانتظار الصعود إلى السفن في صفوف كثيفة أو يستلقون صامتين جياعا يحدّقون خلال الغبار الساكن إلى الماء المزيّت الملتمع في أشعة الشمس. وكانت الفولغا العريضة في نهاية حزيران قد ضحلت حتى أنّ الجرف الرملي في الضفة الأخرى قد اقترب إلى حدٍّ لا مثيل له، فكان الناس يخوضون فيها عراة ويسبحون فيها. كما كانوا يسبحون في هذه الضفّة أيضاً في الماء الفاتر بين المباني على الشاطئ، ووسط النفايات العائمة، ولكن حتى من صوب النهر لم تهبّ طراوة.

كانت المراكب المسلوخة القذرة ترسو على الأرصفة واحدا تلو الآخر، وكانت ترتفع منها صيحات هاذية. كانت سطوح المراكب غاصّة بالنازحين ومقاتلي الجيش الأحمر الأحياء وسط الجثث، والمصابين بالتيفوس المتوجّعين المتمتمين الهاذين. كانت عشرات المراكب والمقطورات تحتكّ بعضها ببعض وهي تنتظر التفريغ والشحن، وتصفر صفيراً مبحوحاً. وقد جاءت جميعا من الجنوب، من استراخان وتشورني يار.

كان رجال الإسعاف الملطخون ببقع الكلس يركضون على ظهور المراكب، ويتخطّون المرضى الراقدين، ويرفعون جثث الموتى، ويلقونها على الشاطئ ليوفروا مكانا للأحياء. كان الكلس يتناثر، وحامض الكابوليك يرش. وقد صدرت الأوامر بوضع

الجثث في أكشاك بيع المرطبات والكفاس[١٧]. وبدأت الجثث تنتفخ من الحر، وتشققت السقائف الخشبيّة المقامة على عجل. ورائحة النتانة الخانقة بشكل خاص كانت تحمل الناس على مغادرة شاطئ تساريتسين. وكانت طائرات فرانغل تطير فوق المدينة كالظلال من خلال نقاب الغبار. وكانت تلقي قنابلها على النهر.

كان الناس يتسلّلون عبر نقاط حراسة الرصيف، وآنيتهم تعلق بحراب الجنود الحمر، ويهرعون إلى ظهور المراكب. وكانت الصناديق والآنية تتطاير إلى هناك مقرقعة. فكان المركب يثقل حتى يصل الماء إلى مقربة من حاجزه.

بين هذا الجمع كانت عربة تقف على الشاطئ بالقرب من خشبات الصعود تماماً وقد استلقت فيها أنيسيا داشا. وقد جلبها كوزما كوزميتش من الجبهة بموجب أمر صارم لآمر الفوج بأن تجلى المرأتان لا عن طريق السكة الحديد، بل في سفينة قطعا، ولو كلّفه ذلك حياته. قال تليغين له:

ـ يا رفيق نفيدوف، أنك لم تقهم البتّة بمهمة أكثر مسؤولية. انزلهما في مكان الإرساء، واعتن بهما قدر وسعك. أسرق أو أقتل، ولكن عليك أن تطعمهما جيّدا... ستكون مسؤولا عن حياتهما...

كانت المرأتان مستلقيتين في العربة على القش تغطّيهما الخرق، مثل هيكلين. وكانت أنيسيا قد عادت إلى وعيها، ولكنها كانت واهنة بحيث لا تستطيع أن تفتح فمها. فكان كوزما

---

(١٧) مشروب شعبي روسي غير كحولي. المترجم.

كوزميتش يضطر إلى أن يباعد بين صفّي أسنانها بأصبعه ليجعلها تشرب الماء الدافئ من زجاجة. وكانت داشا التي أصيبت بالتيفوس بعد أنيسيا تهذي متمتمة دون انقطاع بصوت منخفض غاضب.

مرّت عدة مراكب دون أن يستطيع كوزما كوزميتش ركوبها. توسّل والدموع في عينيه، ولجأ إلى مختلف الحيل، طالباً من الناس مساعدته في حمل المرأتين إلى ظهر المركب، ولكنّهم في ذاك الوضع الصعب لم يكلّفوا أنفسهم حتى الإستماع إليه. اتكأ على العربة، وحدق بعينين ملتهبتين في ذلك السراب، في انعكاسات الشمس الصافرة بنفاد صبر محمّلة بالجثث. وترامى من جديد هدير المحرّكات المتوعّد، وأثارت القنابل التراب في هذه المرة على مسافة قريبة، وغطّى الغبار الشاطئ كلّه. ألقى الكثيرون أنفسهم في الفولغا، وسبحوا إلى مركب مقبل صائحين: "ألقوا الحبال..." إلا أن الحبال لم تلق لهم، فظلّت الرؤوس تحوم طويلا قرب المركب مثل بطيخ أسود.

والآن لم يبق إلا المركب الأخير تقريبا، وهو مقطورة صفراء واطئة ذات مراوح الدواليب المعوجّة. لم تتجه نحو رصيف الرسو، بل بالقرب منه، إلى رصيف خال من الناس. أدار كوزما كوزميتش العربة على الرمل العميق، وكان الأول في الوصول إلى الرصيف عدوا وركض عليه ملوّحاً بذراعيه باستماتة:

ـ هاي، يا قبطان، يا رفيق صاح بعجوز مربدّ الهيئة من العهد القديم كان يقف على قنطرة القبطان معي زوجة قائد الجبهة وأخته لأجْلُوَ بهما، والتهاون في الموضوع يعرّضك للرمي، أرسل لي اثنين من البحارة ليحملا المرأتين إلى المقطورة...

وترك وجهه المنفعل وكلماته الحاسمة مفعولها. تخطّى وقّاد جهم قذر عار إلى النصف حاجز المقطورة، ونزل إلى خشبة الصعود. كان يرتدي بنطلونا مهلهلا:

ـ أين هما؟

ـ لا تستطيع حملهما وحدك، يا رفيق.

ـ وكيف لا...

تقدّم الوقّاد من العربة، وألقى نظرة على المرأتين الراقدتين، وأشار إلى أنيسيا:

ـ أهذه زوجة قائد الجبهة؟

ـ نعم، هي... وإذا حصل لها مكروه عوقب الجميع بالرمي...

قال الوقاد هادئا:

ـ لا تحاول أن تغشّني، إنها طباختنا أنيسيا.

ـ ربما فقدت عقلك، يا رفيق. أية طباخة هي!...

ـ لا تصرخ بي يا مغفّل.

وأخرج أنيسيا بسهولة من العربة، وألقاها على كتفه، وعدّل وضعها.

ـ ساعدني في أخذ هذه أيضاً...

حمل كلتا المرأتين بين ذراعيه، وسار إلى المقطورة. انعكفت الألواح تحت ثقله حتى مسّت الماء.

سحب كوزما كوزميتش وراءه كيس الخبز وشحم الخنزير المقدّد، وحقيبة الأدوية وهو في غاية الرضا....

في صباح الثالث من تموز أخرج ستيبان الكسييفيتش، وهو

معلّم مدرسة، من مطبخ السرداب إلى الفناء الصغير حشايا ووسائد ومقاعد وثيرة مفروشة بقماشة خضراء، ورزماً من الكتب والمخطوطات. وحمل وهو يترنّح مجموعة ملء ذراعيه من الثياب والستر المتربة والتنانير والفساتين الصوفيّة، والقى كلّ حمله على الأرض، وفتح فمه ماسحا سيول العرق بكمّه. كان مبلّلا بالعرق بكلّيته: شعره الأصفر ولحيته، وبنطلونه من قماش القنب، وقميصه المتّسخ، الملتصق مع حمّالة البنطلون بدفّتي كتفيه المكوّرتين.

كانت أمه المترّهلة المرتدية ثوبا أسود تضرب سجّادة بعصا وهي جالسة على كرسي من الخيزران وأخته المشلولة ذات الجبين البارز بحيث يبدو سائر وجهها صغيرا منكمشا تستلقي متنعّمة في كرسي على عجلات في ظل شجر أكاسيا، وكان الحر شديدا حتى أن العصافير نفسها كانت تفتح مناقيرها.

قال ستيبان الكسييفيتش:

ـ ماما، هذا كلّ شيء، على ما يبدو. ولن أستطيع أكثر من ذلك! يا إلهي، كم سأدفع الآن لقاء قدح البيرة المثلّجة:

ـ يا ستيبان، ليست عندنا قطرة من الماء. يتعيّن عليك يا عزيزي، أن تتناول الجردل وتذهب لملئه.

ـ مستحيل، يا ماما! ألا يمكن الإستغناء عن ذلك؟ أها! تلك هي اللعنة حقاً!

ووقع ستيبان الكسييفيتش في يأس حاد. إنّ جلب الماء يعني النزول إلى شاطئ الفولغا، حيث ما تزال أكوام الرماد والجثث المحروقة التي أحرقت في أكشاك المرطبّات والكفاس، ويعني الدخول في النهر إلى الصدر ليصل إلى ماء أنظف، واغتراف

جردل من الماء، وحمله على المرتفع خلال الرمل السميك في هذا الحرّ الجهنمي.

ـ لو استخدمنا أحداً من الناس لدفعت، على ما يبدو عشرة روبلات على الجردل الواحد، إنّ قلبي أثمن، حسب ما أظنّ...

ـ افعل ما تراه صائبا...

ـ نعم، ولكنّك، يا ماما، تفضّلين أن أجهد نفسي بهذه الجرادل...

لم تُجب الأم، وتابعت ضرباتها الضعيفة على السجادة. أخذ ستيبان الكسييفيتش يتنفّس بعسر، وهو ينظر إلى وجهها الممتلئ المخطّط بخطوط العرق. سأل خافت الصوت:

ـ أين الجردل؟ أين جردلك هذا؟

صرخ بالجملة الثانية بصوت قبيح، حتى أن أخته المريضة قالت متضرّعة وهي في مكانها تحت الأكاسيا:

ـ لا حاجة، يا ستيبان .

ـ لا، لازم، لازم؟ سأجلب لكما الماء، وسأجلب لكما القصريّات! وحتى آخر حياتي سأعمل مثل البغل الذي يجرّ عربة الماء! وليذهب إلى الشيطان مستقبلي، وتدرّجي في الحياة، وأطروحتي! كلّ شيء قد انتهى وتحطّم! فراغ مملّ، جثث محروقة، مقبرة! لا دينيكين ولا غيره يستطيع أن يبعث شيئاً!...

وأخذ يقرقع أصابعه المبلّلة بالعرق، كما فعل ذات مرة أمام داشا. وعزم أن يتخلّص من جردل الماء بطريقة أو بأحرى. وفجأة دقّ جرس برج الكاتدرائية بعد صمت دام أكثر من عام. دقّ، وسرى فوق المدينة المهجورة صوت متهلّل مهدّئ لكل المخاوف. وتوقّف ستيبان الكسييفيتش في منتصف الجملة، ورف

هدوء مفاجئ على وجهه الناحل المرتعش، بل لاح عليه قليل من البله بسبب ابتسامة. قالت الأم:

ـ ستيبان، على أية حال ينبغي عليك ارتداء اللباس الجيّد والذهاب لحضور القداس أيضاً.

ـ إنّه لا يؤمن، ملحد يا ماما.

قالت الأخت الجالسة تحت الأكاسيا بحنق خافت.

ـ وليكن. على الأقل ليتظاهر، فلا يحسبوننا من الحمر.

صاح ستيبان الكسييفيتش بنكد:

ـ ما هذا الكلام، يا ماما؟ ما كدنا نتحرّر من مسرّات البلاشفة حتى أخذت تدفعينني إلى مستنقع البورجوازية الصغيرة... تماما، بالضبط! وكشّر باتجاه الأكاسيا، حيث كانت أخته تغمض عينيها لكيلا تسمعه. وتابع قوله: من يعتبرني أحمر؟ أصحابك آل شافيردوف، وبريس... السوقة، التافهون... يا إلهي، إنّ النزول إلى مستواهم يعني الشطب على نفسك ذاتها! لم تكن لنا حاجة إذن إلى التعلم والتفكير والتمني! أنا أكره البلاشفة، لا لأنهم حصروني في السرداب، ولا لأنهم أخذوا كلّ الفحم من محطة اسالة الماء. بل لأنهم داسوا على حرّيتي الذاتية... أنا أحب التفكير كما يملي عليّ ضميري، عبقريتي. وأنا أحبّ قراءة الكتب التي تهمّني. ولكن لا أحبّ قراءة كارل ماركس، ولو كان على حقّ ألف مرة... أنا هو أنا... وبنفس القدر تماما لا أقبّل، يا أمي ويا أختي، يد صاحبكما دينيكين... لنفس الاعتبارات تماماً...

وبعد أن قال ستيبان الكسييفيتش كلّ ذلك بايماءات قويّة جداً في شمس حرارتها أربعون درجة مئوية، قام بلا ترابط كلّي أيضاً بسجب سترة طويلة وبنطلونا من كومة الملابس، ونزل إلى

السرداب. وظهر بعد نصف ساعة في ملابسه الكاملة وفي قميص منشًى ماسكاً بيده قبّعة رسمية وعصا. وبعد ذلك لم ينطق أحد في الفناء بكلمة واحدة. خرج ستيبان الكسييفيتش إلى الشارع وسار في الجانب الظليل إلى ساحة الكاتدرائية.

كانت أشجار الأكاسيا الواطئة حول الكاتدرائية رمادية من الغبار. وقد جلس تحتها بعض الأشخاص في ثياب مهلهلة. نظر أحدهم إلى المعلّم أثناء مروره نظرة دعابية مصعّداً بصره من الأسفل ليتفرّس في عينيه.

وقال بصوت عميق واضح:

ـ الوجه المدهش بعدد من التغيّرات السحرية.

وراء السياج كانت كوكبة من الخيّالة القوزاق تقف مترجّلة في قمصان كاكية، بينما استلقت على العشب المسفوع مجموعة من طلاب المدارس العسكرية في بزّة الإستعراض التامة، والمعاطف على الأكتاف، والقصعات والرفوش مقرّبة... وكان جمع من المدنيّين يقف على درجات الكاتدرائية. وقع بصر ستيبان الكسييفيتش على تاجر الخردوات شافيردوف المجامل المتنمّق في قميص روسي مطرّز، ومعه زوجته وطفلاه، وعلى بريس وهو صاحب مطبعة صغيرة ضئيل الجسم مهمل الهندام كثير الحركة، يهودي متنصّر، ومعه زوجته وأطفاله الستة. أحنى ستيبان الكسييفيتش رأسه لهما بلا اهتمام، ودخل الكاتدرائية الطرية الهواء، وجعلوه يمرّ دون إعاقة لسترته الرسمية بل وتنحى بعضهم ليفسح له الطريق.

على الرغم من أنّ اثار الإهمال مازالت تلوح على الكاتدرائية (في عهد البلاشفة استخدمت مستودعا للأطعمة) فقد كان زجاج

النوافذ الضخمة مهشّماً، وبقيت على الجدران المسلوخة كتابات من مثل "٩٤ كيس بطاطس... المستلم (غير مقروء)" إلا أن بريق الشموع العديدة على منصّة الأيقونات المذهبّة، والبخور المتصاعد إلى القبة، وترديدات الشماس المنداح صداها كزئير الوحش تحت عقود السقف، وأصوات الجوقة الطفولية الخالية من الحرارة، كلّ ذلك قد ترك خليطاً من الانطباعات في نفس ستيبان الكسييفيتش، فقد أحسّ بالمهابة على مألوف العادة وفي نفس الوقت وبحكم العادة أيضاً عانى من الشعور بالضعة، فإنّ ذيل المثقّف البارز باستقلال ذاتي قد انكمش من تلقاء نفسه.

إلى الأمام، كان الرؤساء العظام، أصحاب السطوة يقفون ووجوههم إلى المحراب: عشرة جنرالات قصار وطوال، ممتلئون ونحاف في قمصان عسكريّة ناصعة البياض، وشارات كتف ذهبية وفضيّة عريضة ناعمة. وكان كلّ واحد منهم يمسك قبّعته بيده اليسرى المطوية: لنصل للرب!" وفي المقدّمة، وعلى بساط مفصول وقف جنرال متوسّط القامة في قميص كاكي فضفاض، وبنطلون طويل ذو شريط في موضع الدرز. كان شعره نصف الأشيب الممشّط إلى الخلف يبدو محكوكا عند القفا. وكان يرفع يده الصغيرة الممتلئة الشديدة البياض مرات أقلّ بكثير من الجنرالات الآخرين، ويرسم علامة الصليب عريضة بطيئة، واضعاً اضمامة إصبعيه وسبابته بقوّة على غضون جبينه المنحدر قليلا.

وعرف ستيبان الكسييفيتش أنه دينيكين. تفحّصه بنهم، دون أن يرفع عن شفتيه الدقيقتين ابتسامة التشكك اللاذع، ولكن عن غير وعي تماماً في هذه المرة. كان أحد الضباط يراقبه باهتمام، وقد انسل مقتربا ووقف إلى جانبه. كان ستيبان الكسييفيتش منغمرا

باحساساته المتناقضة. وقد جذبته بشكل خاص يد دينيكين البيضاء تلك، ومن لا يعرف يدي الجنرال، ورخاوتهما المتباطئة بشكل خاص. والمرء مهما حاول لن يستطيع أن يجعل ليده هذه الأهمية الفريدة، وهذه المحاولات غير المجدية تجعل يد الجنرال مضحكة، ولاسيما حين يمدّها الرئيس إليه متلطّفا لتصافحها، أو حين يعطي أهمّية لأصابعه الرخوة الشبيهة بالسجق، وهو يوزّع الورق على اللاعبين، أو حين يحشر الفوطة وراء ياقته. كلّ ذلك لا يقبل النقاش. ولكن يد دينيكين البيضاء أمسكت بخناق التاريخ نفسه، وحرّكتها ترسل الجيوش مندفعة إلى المعركة الدامية.

وانفعل ستيبان الكسييفيتش انفعالا شديدا بهذه الأفكار حتى لم يلحظ كيف انتهى القداس، وصعد إلى المنبر قسيس قصير القامة يضع نظارة، وأخذ يتكلّم، وهو ينظر إلى دينيكين:

ـ إنّ الأمر التاريخي لزعيمنا المحبوب القائد العام للقوات البيضاء لجنوب روسيا، الفريق أنتون إيفانوفيتش دينيكين قد طبع باحرف من نور في قلب أرثوذكسي. والقائد العام يبدأ أمره بالكلمات التالية: بالنظر لأنّ هدفي الأخير هو الاستيلاء على موسكو، قلب روسيا، فإنّني آمر ببدء الهجوم العام في هذا اليوم، الثالث من تموز..." أيّها السادة، إنّ ذلك وكأنّ السماء انشقت فوقنا، وصوت القديس ميخائيل يدعو عسكره الأبيض الطاهر...

أحس ستيبان الكسييفيتش بدغدغة في داخل أنفه، وصدره يعلو ويهبط بسرعة تحت القميص المنشّى المبلّل، واستولى عليه الانشراح. ورأى دينيكين يرفع كفّه إلى جبينه ببطء. وأدرك بضع دقائق حين كان دينيكين أول من قبّل الصليب، وسار على الممرّ

المفروش ببساط بسيطاً ذا لحية رمادية مشذّبة مثل شيخ لطيف، غمرت النشوة ستيبان الكسييفيتش فتقدّم منه مندفعا. تراجع دينيكين، وحجب بيده وجهه الذي تلوّى بتقطيبة بائسة. وهرع الجنرالات لحجبه في الحال. وأمسك شخص ستيبان الكسييفيتش بمرفقيه من الخلف، وجذبه إلى الاسفل بقوة شديدة حتى انحنت ركبتاه:

ـ إسمعوا، كنت أريد....

قلب الضابط الذي أمسكه عينيه في وجهه:

ـ كيف جئت إلى هنا؟

ـ اردت أن أقبّل يده فقط....

ـ أين إذن الدخول؟

وواصل الضابط دفع ستيبان الكسييفيتش نحو الجمهور دون أن يطلق قبضتيه عنه. وبالقرب من باب الخروج الجانبي دعا الضباط بهزّة من رأسه طالبين فتيّين من طلبة المدرسة العسكرية يحملان بندقيتين:

ـ خذا هذا إلى آمرية الموقع...

"كما ترى، أيها العزيز المبجّل إيفان إيليتش، أنّنا وصلنا إلى كوستروما نفسها. ولم أجازف أن انزل في الطريق في أي مكان، وحتى نيشني نوفغورد لم تبد لي مكانا مأمونا من ناحية الحوادث الطارئة الحربية. فنزلنا في ضاحية من كوستروما، في بيت خشبي على الفولغا في حديقته الغبيراء وأشجار الحور. وكل شيء كما يجب... والبلدة صغيرة طليقة تقع على تلال مثل روما، تجدها ساكنة ونائية وهذا ما نحتاجه فعلا.

داريا ديميتريفنا تتماثل للشفاء، ولو ببطء وهي ماتزال

ضعيفة جدا، وأنا أحملها كالطفل الصغير من السرير وأخرج بها إلى الفناء. وشهيّتها على ما يبدو، مثل شهيّة الذئب، رغم أنّها لا تستطيع الكلام، ولكنّها عندما تريد أن تأكل تشير بعينيها... ولم يبق فيها غير عينيها، وعلى ما أعتقد وجهها الصغير كقبضة اليد، وغالبا ما تبكي من الضعف بلا صوت سوى الدموع تسيل على خديها. ظلّت ثلاثة أسابيع تقريباً في حالة هذيان وإغماء. طوال رحلتنا على الفولغا. وكان هذيانها مضطربا موجعاً، وروحها تصارع بلا انقطاع أشباح الماضي. هناك كنز ما، جواهر أو شيء من هذا القبيل حصلت عليه بعد جريمة مزعومة، قد لعب دورا كبيرا في هذيانها، مهما بدا ذلك غريباً. وكان كلّ الهذيان يتلخّص في أنّ داريا ديمتريفنا كانت تتحدّث بصوتين: أحدهما كان يدين، والآخر كان يبرّر، وهو صوت نحيل مولول. وما كنت أكتب لك عن ذلك لولا اكتشاف عرضي غير اعتيادي...

لقد انتابني الجزع والذعر غير مرة، وأنا أراعي بثبات الأمر الذي أصدرته بإطعام مريضتينا جيّداً، وقد جعلت ذلك مهمّتي الأساسية. إنّ الزمن عصيب. والناس أما يفكّرون بمذاهب كبيرة، ويحسّون بمشاعر لا تقلّ عن الكرة الأرضية رحابة، وأما يخلّصون جلودهم بكلّبية عارية. وكلتا الحالتين تفتقران إلى الرحمة الحياتية: هناك من تسطيع أن تجذبه، وهناك مَنْ تستطيع أن تخفيه. ولكنّك غالباً ما تفشل في تليّين القلوب والتماس عشرة ارطال من الخبز بدموع الجوع وحدها.

بادلت كلّ التوافه الزائدة مِمّا أخذنا معنا بالخبز الأبيض والسمك. وكم من مرة وقعت في إغواء بيع معطف داريا ديميتريفنا السميك الذي هربت فيه من سامارا في الخريف.

ولكنّي امسكت نفسي، لا بسبب الإدراك السليم، وأنا انظر إلى الخريف، بل لأنّ هذا المعطف قد شهد تماما في هذيان داريا ديميترييفنا كمتّهم غير مفهوم لي. ومعنى ذلك أنني اضطررت إلى اللجوء إلى الحيل، إلى خداع النفوس الميّالة إلى التصديق، وإلى السرقة المحضة. ومرّة أخرى نفعت قراءة الكفّ. أصادق امرأة ريفية على رصيف النهر تكيّساً فأثرثر معها وأبحث عن نقطة ضعف وهي موجودة دائماً، فإنّ لتجربة الحياة شأن كبير وأدير الحديث حول عدو المسيح، والناس في الفولغا يتحدّثون كثيرا الآن، ولاسيّما إلى الشمال من قازان. وهل تحتاج إلى الشيء الكبير لتخيف امرأة بلهاء؟ لا أحتاج إلا لأن أنال ثقتها، حتى يكون نصف كيسها لي...

يوم أمس فقط، في صباح الأحد انشغلت في توضيب ملابس داريا ديميترييفنا. يبدو أنني في كوستروما الشخص الوحيد الذي يملك بكرة خيوط كبيرة، وهو أمر لا يستهان به، حتى أنّ الناس يحجّون إلينا ليخيّطوا زرّاً في بنطلون أو ليرقعوا... وأنا آخذ على ذلك مختلف المأكولات دون خجل. كنت جالساً على مدخل البيت، وقد نشرت معطف داريا ديميترييفنا، وبطانته من الفانيلة المربّعة كما تعرف، على ما أظنّ. فيدور في ذهني: إخلع البطانة، واصنع منها تنورة رائعة فإن تنّورتها القديمة مهلهلة كالغربال... والبطانة الجديدة أصنعها من قماش آخر. وسحرتني هذه الفكرة فسألت أنيسيا كونستنتينوفنا، فقالت هي أيضاً "ستكون تنورة جيدة فأخلعها..." فأخذت أخلع البطانة، فإذا بالجواهر تندلع من هناك، قيمة كبيرة، أربعة وثلاثين حجرا... وهكذا فإنّ الهذيان تحوّل إلى حقيقة! وفي نفس اليوم عرضت الجواهر على

داريا ديميتريفنا، وفجأة أراها تتذكّر! ظهر في عينيها استعطاف وفزع، وعلى شفتيها شيء تريد أن تقوله... لقد نسيت الكلام... انحنيت إلى شفتيها الممتقعتين، فتمتمت بالكلمة الأولى خلال مرضها كلّه "إرمها، إرمها..."

أنا بدون إشارتك، يا إيفان ايليتش، لا اجرؤ على أن أفعل شيئا. لا أدري من أين لها هذا الكنز ولماذا يبدو كريها لها بهذا الشكل. وأنا لا أعرف كيف أتصرف، فأنا أخاف من الاحتفاظ به في البيت، واعتبر رميه أمر غير معقول. حلفت لداريا ديميتريفنا بأنني ركبت زورقا، وسحبت لمنتصف الفولغا، وألقيت الجواهر فيها. فهدأت في الحال، ولاح لمعان في عينيها، وكأنّها تخلصت أخيراً من شيء لزج...

اعذرني، يا إيفان ايليتش على كتابتي لك عن كلّ شيء بمثل هذا الاسهاب. ولكنّني دائما كثير الكلام ثرثار. أعلمنا بطريقة من الطرق عن صحتكم، وهل تقضي الشتاء هنا، في كوستروما، أم نسافر إلى موسكو؟ وأنا باق على عهدي مخلصاً إلى آخر العمر لك ولداريا ديميتريفنا. كوزما نيفيدوف..."

ـ جلب البريد معه إلى سابوجكوف، وصعد إلى العربة المصنوعة من الأغصان المضفورة واتخذ مجلسه على القشّ إلى جانب تليغين قائلاً أهنأك، يا إيفان.

ـ كلّ ذلك محزن، يا سيرغي سيرغييفيتش. لو كان الأمر بإرادتي لبقيت آمر فوج كاتشالين. أناس جدد، وهموم جديدة. وليس ذلك كلّه في ميسوري.

ـ لماذا تجعل من نفسك عجوزا؟

ـ سينتهي ذلك. تعبان بعض الشيء...

راح الحصانان يعدوان على الطريق الريفية، كان جانبا العربة المضفوران يهتزّان، وإلى اليسار تلوح غابة بلوط وإلى اليمين، في حقل محصود كانت أكوام الحصاد المتصالبة لا تكاد تلوح في الغسق. وفي الجو رائحة قش القمح. وكانت نجوم أغسطس تطلع.

ـ مَن سيكون رئيس الأركان في لوائك؟

ـ سيعيّنون شخصاً ما.

ـ انحرفت الطريق أقرب إلى الغابة حيث كانت تهبّ رطوبة خفيفة. وبدأ الحصانان يحمحمان. سأل تليغين:

ـ لاتوجد رسالة لي بالطبع؟

ـ اوه، أعذرني، يا إيفان. لك رسالة.

كان إيفان ايليتش يجلس محنيّ الظهر متعباً غافياً، وفجأة دفع جسمه إلى الأمام:

ـ أوه، يا سيرغي سيرغييفيتش! أين هي؟

نبش سابوجكوف في حقيبته وقتاً طويلاً. أوقفا الحصانين وأشعلا اعواد الثقاب فهسّت وانقذفت. أخذ تليغين الرسالة، وكانت من كوزما كوزميتش، فقلّبها بأصابعة. وقال سابوجكوف همساً:

ـ سميكة. كتابة كثيرة.

سأل تليغين همساً أيضاً:

ـ وماذا في ذاك؟ أهو شيء سيّئ؟

وقفز من العربة، وسار إلى حافة الغابة، وأخذ يكسر العساليج بعجالة، وأشعل عود ثقاب، ونفخ في العساليج.

ـ خذ حزمة من القش، وستشتعل في الحال.

وحمل سابوجكوف إليه حزمة القش على الفور. قرفص تليغين وراح يقرأ الرسالة. راقبه سابوجكوف يقرأ، ويمسح عينيه بكمه، ثم يعود للقراءة ثانية. القضية واضحة، إذن. نشق سابوجكوف من أنفه، وصعد إلى العربة، وأشعل سيكارة. كان العجوز الجالس على مقعد السائق يريد أن يعود إلى البيت بأسرع وقت فقال:

ـ أخشى أن نتأخّر على القطار، والطريق بعد هذا سيكون رمليّاً بحتاً، ثم علينا أن نعثر على مكان نخوض فيه... نحن نضيّع الوقت...

لم يعد سابوجكوف ينظر إلى تليغين، حين تقدّم من العربة ومالت العربة بثقله حين تسلّق عليها، وحطّ على القش. انطلق الحصانان عدوا. كان درب المجرّة يمتدّ فوق رأس سابوجكوف على مسافة ثلاثة ملايّين سنة ضوئية. قرقعت العجلة الخلفيّة المتراخية، إلا أن العجوز السائق لم يعر لها التفاتا، فلتنكسر إذا كتب لها أن تنكسر. فما باليد حيلة...

قال تليغين بصوت مكتوم:

ـ ما أعظم قوّة نفسها... صراع دائم من أجل اعادة القوى، ومن أجل النقاوة، والكمال... أنا منذهل تماماً...

ـ هل هي حيّة؟

ـ اها، وما تظنّ؟ إنها في كوستروما، وتتماثل للشفاء...

التفت سيرغي سابوجكوف نحوه بقوة، وضحك الإثنان. دفعه سابوجكوف بقبضته فدفعه تليغين أيضاً. ثم قصّ عليه محتوى الرسالة بالتفصيل، تاركاً قضية الجواهر فقط. إنّها نفس الجواهر

التي كتبت لأبيها عنها في الصيف الماضي، حين كانت تصارع من أجل الحياة، بصورة سافرة ومحطّمة نفسها في الوقت ذاته. والظاهر أنّ داشا في أيام حيرتها تلك خاطت الجواهر في المعطف. ولم تذكرها مرة واحدة لإيفان ايليتش. ومن الواضح أنّها نسيتها وليس هذا بغريب عنها. نسيتها ثم تذكّرتها في حالة هذيانها. وقولها "أرمها، أرمها" جعل انفاس تليغين تحتبس... بالطبع هناك الكثير من الغموض يكتنف هذه القضيّة، ولكنّه لم يحاول البتّة أن يتوغّل في فهم داشا إلى النهاية.

ـ هناك شيئا واحداً واضحاً لي، يا سيرغي سيرغييفيتش هو أنْ أكون أهلاً لحبّ امرأة مثل داشا، مثلا، إنّه مكسب كبير في الحياة.

ـ نعم، أسعدك الحظ كثيرا، كنت أقول ذلك دائما..

ـ آه، كم يحبّ أن يرتفع الإنسان دائماً، يا سيرغي سيرغييفيتش! وقد يسقط.. وأنت أيضاً أمن المحتمل أن تسقط؟

ـ قضيتي شيء آخر...

ـ أمن المعقول أنّك لا تتحرّق دائماً للعثور على امرأة مثل داشا؟

ـ النساء لا يلعبن مثل هذا الدور في حياتي... أنا أنظر إلى هذه الأشياء أبسط بكثير... دون متاعب...

ـ كفاك حديثاً مُعاداً! أنا أعرفك... سيرغي سيرغييفيتش، حياتنا شامخة: النصر أو الموت، وكلّ شيء منحصر في ذلك. ونحن مديرو أمورنا، بل ونحن نحيا بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى! وفي العلاقة مع النساء يجب أن تبعد كلّ الصغائر.. ويجب الحرص على الحبّ... وكن على يقظة دائما! هل جرّبت أن

تحدّق في عينين محبّتين؟ تلك أعجوبة الحياة...

لم يجب سيرغي سيرغييفيتش. وبالتدريج انسرحت طاقيته إلى قفاه كليّاً. ومرة أخرى نظر إلى درب المجرّة. وقال:

ـ في مكان ما في ذلك الجانب هناك ثغرة في الكون. مكان أسود بلا نجوم، له شكل رأس حصان... وهو في الصورة الفوتوغرافية مخيف جدا. وسيأتي زمن نفهم فيه ببساطة تامة ووضوح أنّ الفضاء اللانهائي لا يثير الرعب. وكلّ ذرة من جسمنا هي الأخرى نظام نجمي لا يسبر. وفي هذا وفي ذاك لانهائية. ونحن أنفسنا لانهائيون، وكلّ شيء فينا لا نهائي. وأنا وأنت نقاتل في سبيل اللانهائية وضد النهائية...

لاحت إلى الأمام ملامح مبهمة لأشجار ضخمة، ولكنّه تبيّن أنها أجمات واطئة عند الشاطئ. وفاحت طراوة النهر. وانحدرت العربة على المنحدر. وتهيّب الحصانان، وحمحما بصوت عال، وغاصا في الماء الضحل. قال العجوز:

ـ عسى أن لا نقع في حفرة.

إلا أنّهم عبروا النهر الصغير بسلامة. وعندما وصلوا إلى الجانب الآخر قفز العجوز عن مقعده بخفّة صبي، وركض إلى جنب العربة هازاً اللجام، صائحا على الحصانين. انطلق الحصانان على المرتقى الرملي وتوقفا لاهثين. صعد العجوز إلى مقعده. ولم تبق إلا مسافة قصيرة للوصول إلى المحطّة. التفت العجوز وقال:

ـ لن يحصل على شيء من كلّ هذه الأمور، فقط أن يقتل الناس عبثاً. وأهل قريتنا يقولون: أننا في كلّ الأحوال لن نرجع الأرض التي أخذناها، ولن تجدى القوة معنا. لا يشبه الأمر الآن ما كان في العام ١٩٠٦، فالفلاح قوي، ولا يهاب شيئا. في قرية

كولوكولتسيفكا وأشار بسوطه إلى الظلام ألقوا منشورات من جديد. وصل إلى هذا الحدّ. لم يعد يأمل بأن نهبها له بلا ثمن... لابأس، سننتظر: سيرحل من حيث أتى.... آخ دينيكين، دينيكين!

في الصباح وصل تليغين وسابوجكوف إلى مقرّ قيادة الجبهة الجنوبيّة كوزلوف. مملكة التفاح. تلك هي أمّنا روسيا! بيوت صغيرة ذات سطوح كالحة، والجيرانيوم في النوافذ الصغيرة، وعمود متطاير من الغبار من تحت عجلات عربة متضعضعة وهي تنطّ على الطريق غير المستوي المرصوف بالحجارة على جانبيها أعمدة التلغراف الموحشة التي تعلّقت على أسلاكها مزق الطائرات الورقيّة. ودكان مبنى بالآجُر بظليلة، وقد دقّت على أبوابه خشبتان متصالبتان، وفتاة حافية القدمين تعبر الطريق مذعورة، وهي تجرّ أخاها الصغير المعوّج الساقين، المترنّح، وحطام مهمل لبرج جرس صغير مهدّم بالقرب من مسقى عام في ساحة قذرة كانت من قبل سوقا، وهي الآن خواء. ووراء الأسيجة المتزعزعة نصف المحطّمة أشجار التفاح المثقلة بالثمار المحمرّة والخضراء بلون الشمع. وفوق البساتين والسطوح يطير سرب مرح من الزرازير تظهر جميعا بطون أجنحتها.

يبدو أنّ الناس هنا كان من الممكن أن يعيشوا خارج الزمن ألف سنة أخرى لو لم يقع هذا الحدث غير الاعتيادي، الثورة. وعلى كلّ حال لا يوجد هنا ما يحزن عليه، فإنّ الحياة زهيدة. إنّ الناس ناموا كثيراً فحسب.

قال سابوجكوف. وهو يهتزّ إلى جانب تليغين في العربة المؤجّرة:

ـ فكّر أنّ الثواني وراء البحر تتحول إلى نقود فحسب،

والإنسان يضغط في آلة هائلة ليكون ملائماً للانتاج، والبضائع تنهال من المعامل كما في هذيان حمى، ولزم الأمر قتل عشرة ملايّين إنساناً لتباع جميع البضائع في فترة وجيزة! أما هنا فالطائرات الورقيّة تتدلى من أسلاك التلغراف. أنظر إلى ذلك الرجل في النافذة هناك يحك رأسه الاشعث والنوم عالق في عينيه... ونحن من هذه البقعة ذاتها نقفز إلى لا مثيل له، تحقيق حلم الإنسانية جمعاء... تلك هي أمنا روسيا! أنعم عيشا، يا إيفان. الجوّ مضمخّ برائحة تفاح قوية، مثل رائحة أنثى فتية... حبّذا لو أعيش إلى ذلك الوقت! أشعر أنني ساؤلّف كتابا...

أوصلهم الحوذي إلى مقرّ قيادة الجبهة، وكانت طقطقة الآلات الكاتبة تتسرب من كلّ نوافذ المقرّ.

عرف تليغين وسابوجكوف أثناء انتظارهما لدورهما في المقابلة، كلّ الأنباء الحربية. وكان الوضع العام كالآتي: القوات العسكرية للقائد العام دينيكين تواصل الهجوم نحو موسكو بثلاث تشكيلات، بعد توقّف قصير. وجيش شمال القفقاس بقيادة فرانغل يتقدّم على طول الفولغا قاطعاً وسط روسيا عن مناطق الجنوب ما وراء الفولغا وسيبيريا (وكان الجيش العاشر قد استطاع في تموز أن يفلت منه بعد أن ضحى بكاميشين) والهايتمان سيدورين على رأس جيش الدون، الذي اعاد تنظيمه بوغايفسكي هايتمان الدون الجديد المشمول برعاية دينيكين يضغط باتجاه فورونيج يتقدّمه فيلقان صداميان للخيّالة بقيادة مامونتوف وشكورو. وجيش المتطوعين بقيادة ماي مايفسكي الجنرال المهاب، وإن كان سكّيراً دائماً، يقوم بهجوم على جبهة عريضة منظّفاً أوكرانيا من القوات الحمراء وفصائل الأنصار ومسلّطا في نفس الوقت قبضته،

المتمثّلة بفيلق الجنرال كوتيبوف على أوريل وتولا وموسكو.

إنّ نجاحات دينيكين العسكرية واضحة وتموينه جيّد، وأفواجه من المتطوّعين رغم تطعيمها الكثير بفصائل الفلاّحين تقاتل بثقة واقتدار. إلا أنّ الشعور السائد في مؤخّراته يزداد اضطراباً يوماً بعد يوم (وهو يستهين بذلك بصورة خطرة). فكوبان يريد الإنفصال والإستقلال الكامل، وقد اضطر دينيكين لتثبيت سيادة الدولة الكبرى هناك، إلى شنق عضوين بارزين جداً في رادا كوبان. وفي تيريك مصادمات دامية، وقوزاق الدون حيث أعلن الزحف على موسكو صاروا يقولون: "لقد كان الدون الهادئ لنا، وسيظلّ لنا، فليستولِ دينيكين وحده على موسكو"، والقضيّة الفلاحية في المناطق التي يستولى عليها جيش المتطوّعين تحلّ ببساطة عسكريّة: بالعقاب بالجلد. وحكام الولايات ورؤساء الأقضية والجندرمة القيصرية يعادون إلى مراكزهم والفلاحون يقطعون سبطانات بنادقهم كما كان يفعلون في عهد الالمان وفي السنة الماضية، وينتظرون الجيش الأحمر. أما ماخنو فبعد تحايل فقتل بنفسه منافسة الرئيسيّ الهايتمان غريغوريف أعلن على الملأ إقامة نظام فوضوي في كلّ مقاطعة يكاترينوسلاف وأوديسا... وجمع زهاء خمسين ألف من قطّاع الطرق، وهدّد بأن يقتطع من دينيكين روستوف وتاغانروغ والقرم ويكاترينوسلاف وأوديسا... وظهر هايتمانات خضر وهم نوع خاص من الهايتمانات هاربون مهووسون كانوا يهاجمون دينيكين في كلّ مكان أينما وجدت غابات وتلال.

عدّل الجيش الأحمر خطّ الجبهة بعد النكسات القاسية للجيشين الثالث عشر والتاسع والتراجع البطولي للجيش الثاني

عشر من دنيستر وبوغ. ومعنويته تتحسّن، وقدرته القتالية تزداد لسبب رئيسي هو تدفق الشيوعيّين الضخم من بتروغراد وموسكو وإيفانوفو والمدن الشمالية الأخرى. وكان الرجال يتوقّعون أمر القائد العام بالهجوم المضادّ من يوم لآخر.

بعد أن ثبّت تليغين تعيّينه الجديد كآمر لواء مستق، وسابوجكوف كآمر فوج كاتشالين عاد الإثنان في نفس اليوم، واستغرقا الطريق كلّه في مناقشة الأخبار التي عرفاها، وقد اتفق كلاهما على أنّ خطّة دينيكين الضخمة مبنّية في الفراغ، وأنّه لم يستطع أن يعيد في روسيا ما استطاع أن يحقّقه في كوبان في العام الماضي. ففي كوبان استطاع أن يدحر سوروكين، أما هنا فعليه أن ينازل لينين نفسه، والبروليتاريا الأصليّة ذات التقاليد الموروثة، ثم أن الفلاح هنا(١٨) عنيد معروق من أحفاد الذين طردوا نابليون بالمذراة.

ـ الراية إلى الأمام! إرفع الغلاف!

تقدّم حامل الراية إلى الأمام ومعه لاتوغين وغاغين الواقفان إلى جانبه للحراسة. سلّم تليغين الفوج إلى آمره الجديد سيرغي سيرغييفيتش سابوجكوف، وكان بادى الجدّ مستغرق الفكر مقطّب الجبين، وحتى التورّد المألوف قد زال عن وجهه الملوّح. كانت

---

(١٨) شخصيّة تمثّل المأثرة الوطنية للشعب الروسي في الحرب مع جيش نابليون المؤلّف من ٦٠٠ الف مقاتل. في النصف الثاني من هذه الحملة في خريف ١٨١٢ قامت حرب وطنيّة في كلّ مناطق تراجع القوات الفرنسية، وقد ساهم الفلاحون الروس مساهمة فعّالة في هذه الحرب. =

= وكانوا غالباً ما يهاجمون فصائل العدو مسلّحين بالمذاري والفؤوس والمناجل، ويشتبكون في قتال ضار مع العدو، وبطولة هؤلاء الفلاحين بالذات هيّأت الضربة النهائية لجيش نابليون. الناشر.

في يده ورقة خطّ فيها خطبة.

ـ يا رجال فوج كاتشالين!

قال ذلك ونظر إلى المحاربين الحمر الواقفين بهيئة استعداد والسلاح في أيديهم، وكان يعرف كلّ واحد منهم، ويعرف أيّاً منهم بأي جرح أصيب، أيّ همٌ يشغل باله، لقد كانوا رجاله الأقربين:

ـ أيّها الرفاق، لقد قطعنا معاً أكثر من الف ميل في زمهرير الشتاء ومرارة القيظ.. وتكلّلتم بالمجد مرّتين قرب تساريتسين... وإذا تراجعتم لسبب لا يخصّكم كبّدتم العدو ثمناً باهظا لقاء نصر مؤقّت واهٍ. وكانت لكم أفعال مجيدة كثيرة، لم تذكر في بلاغات مضخّمة، وقد ضاعت التقارير عنها في خضّم الأنباء العامة... ولا بأس في ذلك (ونظر تليغين بطرف عينيه إلى الورقة الموضوعة في راحته المطوية) أحذّركم من أن أمامكم أعمالا أخرى كثيرة، فإنّ العدو لم يدحر بعد، ولا يكفي دحره بل يجب إبادته... في هذه الحرب يجب أن يحرز النصر المؤزر، ولا يجوز غير ذلك. إنّ الإنسان ينازل وحشاً، ويجب أن ينتصر الإنسان. أو لنضرب مثلاً آخر: حين تطلع سنابل القمح تكون غضّة رخوة، ولكنّها تشقّ الأرض السوداء، تشقّ الصخر. وفي البذرة النابتة تكمن كلّ قوة الحياة الجديدة التي ستأتي ولا يمكن إيقافها... لقد خرجنا في صباح غائم بارد إلى القتال في سبيل نهار وضّاء، بينما أعداؤنا يريدون ليلاً داكناً ليل الشقاوات. وسيطلع النهار، ولو تمزّق العدو غيظا (ونظر ثانية إلى الورقة مشغول البال ودعكها) أعترف لكم، أيها الرفاق، أنني لست فرحاً، وسأفتقدكم كثيرا. إنّه لشيء كبير أن نقضي سنة كاملة معاً حول النيران هنا وهناك. سأغادركم

مودِّعاً رايتكم القتالية.. أودّ وأطلب دائماً أن نقود فوج كاتشالين المجيد للإنتصارات...

وخلع إيفان طاقيته، وتقدّم من الراية، وأمسك بطرف قماشها الناحل المثقوب بالرصاص، وقبّله. ولبس قبّعته، وأدّى التحية العسكرية، واغمض عينيه، وقلّصهما بقوة جعلت كلّ وجهه يتغضّن.

كان رأس إيفان ايليتش يضجّ بعد التوديعات التي أقامها له سابوجكوف بالتعاون مع أمراء الوحدات. جلس في عربة أغصان مضفورة متأبّطا كيس المتاع (الذي كان يحتوي على قطة وكلب داشا الخزفيّين إلى جانب الأشياء الأخرى) وتذكّر بعذوبة الخطب الحارّة التي قيلت حول المائدة. وبدا وكأنّ ليس في الإمكان أن يحب الناس بعضهم بعضا أكثر من هذا الحبّ. تعانقوا وتبادلوا القبل وتصافحوا بقوة. آه، يا لهم من أناس طيبين أصفياء مخلصين! نهض امراء الوحدات الشبان وشربوا نخب الثورة العالميّة وخطرت لأحد أمراء الكتائب، وهو رجل متواضع هادئ، رغبة مفاجئة في أن يعتلي المائدة، فصعد عليها، ورقص رقصة قوزاقية عارمة بين عظام البط المقضومة وقشور البطيخ. وضحك إيفان ايليتش بكلّ قوته، اذ تذكّر ذلك.

توقّفت العربة عند مشارف القرية، وتقدّم ثلاثة هم لاتوغين وغاغين وزادويفيتر، وحيّوه، وقال لاتوغين:

ـ اعتمدنا أنك لن تنسى!، ومع ذلك فقد نسيتنا.

وأكدّ غاغين:

ـ نعم، لقد انتظرناك.

ـ إنتظروا، إنتظروا، يا رفاق، عَمّ تتحدثون؟

وضع لاتوغين قدمه على عجلة العربة وقال:

ـ انتظرناك. عشنا سنة واحدة سويّة، ووهب بعضنا بعضاً حياته... حسنا، إذن وداعا إذا كان سيّان لديك.

وكان صوته حانقاً مرتجفاً.

ـ إنتظر، إنتظر.

ـ ونزل تليغين من العربة. قال زادويفيتر:

ـ ماذا نفعل هنا مع المشاة؟ إنهم صنف آخر! هل سنعفّر أقدامنا بالغبار إلى الأبد؟

وقال غاغين وقد لمعت عيناه:

ـ نحن من رجال المدفعية البحريّة، فهل تجد مثلنا؟

قال لاتوغين:

ـ عندما كنّا في نيشني كنّا اثني عشر، فبقينا ثلاثة، وأنت الرابع... فإذا بك تجلس في عربة، ومع السلامة. أما نحن فلسنا بشراً، نحن ذوي المعاطف الرماديّة، نحن من سواد الناس... كنّا معك ثم مضينا... ولكن ما الفائدة من الكلام معك وأنت سكران؟

قال دادويفيتر:

ـ عندك الآن لواء، يا إيفان ايليتش، وستكون تحت قيادتك مدفعيّة ثقيلة.

صاح لاتوغين:

ـ لتذهب ومدفعيتك إلى جهنّم. يمكن أن أنظّف المرحاض إذا اقتضت الضرورة! ولكن يعزّ عليّ أن أفقد إنسانا! وثقت بك، يا إيفان ايليتش، واحببتك... وأنت تعرف ماذا يعني أن تحبّ

إنساناً؟ فإذا أنا!! بالنسبة لك غريباً. حسناً، لننه الحديث.. ستفهم البقية في الطريق...

ـ يا رفاق! وحتى خمّار البارحة أراح إيفان ايليتش من هذه الأحاديث كنتم متسرعين في ادانتي. هذا ما نويته بالضبط: أن اسجلكم جميعا في مدفعيتي حال وصولي إلى اللواء.

تألّق زادويفيتر وقال:

ـ شكراً على هذا.

أما لاتوغين فقد ضرب الأرض بحذائه المهلهل غيظاً:

ـ إنّه يكذب! لقد لفّق هذا الآن ثم قال بلهجة أخفّ، وإنْ هدّد تليغين بأصبع معوجّة النيّة وحدها لاتكفي، يا رفيق، لا تستطيع أن تذهب بها بعيدا. ولو إنّني أشكر على ذلك أيضاً.

ضحك تليغين، وضربه على ظهره:

ـ يا لحِدّة طبعك! كما أنّك لست شخصا منصفا...

ـ ليذهب الإنصاف إلى الجحيم. فأنا لا أنوي أن أخدع الناس. ومن الممكن التسامح معك لسبب واحد، لأنّك بسيط ولهذا تحبّك النساء حسناً، لا تزعل، واصعد إلى العربة ثم امسكه من كوعه بقوة، وقال أتعرف كيف يلقي الإنسان نفسه على سيف العدو من أجل رفيقه؟ وأدار عينيه الوضّاءتين المتسعتين الباردتين والمشوبتين عاطفة في وجه إيفان ايليتش وعينيه ألم تكذب؟ ها؟ ألم تكذب؟

قطّب إيفان ايليتش، وهزّ رأسه قائلا:

ـ حسناً، كذبت. وأنتم فعلتم خيراً حين ذكرتموني. أشرتم عليّ بمخرج...

ـ الآن، تقول الشيء الصحيح...

دندن غاغين:

ـ أتركه... لا تتشبّث به... عدت لتكون ملك الطبيعة. ودّعهم إيفان ايليتش دون أن يقول كلمة أخرى، وصعد إلى العربة، وظلّ وقتاً طويلاً في الطريق يبتسم مع نفسه، ويهزّ رأسه.

كانت المسافة إلى مقرّ اللواء المنفصل يمكن أن تستغرق في الطائرة ساعة واحدة، وعلى الحصان أكثر من أربع وعشرين ساعة بقليل. ولكن إيفان ايليتش سافر بالسكّة الحديد أربعة أيام متنقّلاً من قطار آخر ضجراً إلى حدّ الغيبوبة في المحطّات القذرة الخالية من الطعام، وبالطبع لم يجد عربة الصالون المنفصلة التي وعده بها وعداً قاطعاً، واضطر أن يقطع المرحلة الأخيرة من الطريق في عربة مواش مملوءة إلى النصف بطباشير لا أحد يعرف لأي غرض تُرسل في مثل هذا الوقت. وفضلاً عن ذلك وجد على الرفوف مسافراً له وجه سمين كالجرّة يرتدي نظّارة أنفية. وكان طوال الوقت يردّد مع نفسه مقاطع من أوبريت أو فينباخ: "لحم خنزير مقدّد من تولوز، من تولوز... سيكون مالحاً بلا نبيذ..." وحين بدأ الظلام يعتكر أخذ ينشغل بأكياسه، ناقلاً أشياء من هذا الكيس إلى ذاك، مخرجاً أشياء ليشمّها ويحشرها ثانية.

كان إيفان ايليتش تعباً إلى حدّ الإعياء، وجائعاً فأخذ يتشمّم مميّزاً بين روائح مختلف المأكولات. وحين بدأ هذا الوضيع يدقّ بيضة مسلوقة ناخرا من أنفه ويقشّرها ويأكلها لم يصطبر إيفان ايليتش فقال:

ـ إسمع، يا مواطن، بعد قليل سيقف القطار، فما عليك إلا أن تنزل في الحال مع أكياسك هذه.

أوقف هذا تحريك فمه في الظلام على الفور، ولم يبد

حركة. وبعد قليل شمّ إيفان ايليتشس رائحة سجق قويّة قرب أنفه، أبعد إيفان ايليتش اليد الممدودة غير المرئية بحركة حانقة.

قال هذا الرجل بصوت ناعم عالي النبرة:

ـ لم تفهمني جيّداً، أيها الرفيق العسكري. لم أرد إلا أن تنال شيئا من الشراب والطعام. آه! وتأوّه، وأحس تليغين بأنفه ثانية أنّ السجق يمدّ إليه اليوم ليس عندنا غير المبادئ ولا شيء غير المبادئ. ولكن ما علاقة المبادئ بسجق أوكرانيا؟ مع الثوم وشحم الخنزير. وعندي خمرة. جرعة واحدة لكلّ منا وسكت منتظرا، ولزم تليغين الصمت لعلّك تحسبني مضارباً أو مشتغلاً في السوق السوداء؟ أرجو المعذرة! أنا فنان. ربما لست بمستوى كاتشالوف ولا يوريف ولا مامونت دالسكي رحم الله روحه السوداء. كان ممثّلاً تراجيدياً عظيما! فتصوّر نفسه، البهيمة، زعيم الفوضويّة العالميّة، وراق له أن ينهب بيوتات موسكو. وفي القمار كان من الصعب أن يكسب المرء في اللعب معه... لقبي العائلي باشكين رازدورسكي لقب له صيت في الأقاليم. وإسمي يبرز في عناوين ضخمة... وانتظر، لعلّ تلغين يهتف: آ! باشكين رازدورسكي، بالطبع فرصة سعيدة.." ولكن تليغين ظلّ صامتاً. مثّلت موسمين في موسكو، في مسرح كورش... وأخذ فلاديمير إيفانوفيتش نيميروفيتش دانتشنكو يحوم حولي. فأقول له "لا، دعني، يا فلاديمير إيفانوفيتش أمثّل حتى أرتوي، ثم خذني..." وفي العام ١٩١٨ افتتحنا الموسم بـ"موت دانتون" في مسرح كورش، ومثلت أنا دور دانتون، أسد مزمجر، شخصيّة بارزة، شفتان بارزتان، ثور، وحش، عبقري، جشع، والظلام يسود موسكو، ولا بيع في شبّاك التذاكر. فتشتت الفرقة. وكنّا خمسة تحوّلنا إلى

الأقاليم لنمثّل "موت دانتون" كيفما اتفق. في موسكو منعنا لوناتشارسكي مفوّض الشعب للتعليم من التمثيل، فأخذنا حريّتنا في الأقاليم. وفي الفصل الأخير حملنا المقصلة على خشبة المسرح، ففصلت رأسي عن جسدي... والتذاكر تباع بسرعة! ولا أحسبك تصدّق حين تسمع الجمهور يهتف: "إقطع رأسه مرّة أخرى..." ومثّلنا في خاركوف وكييف وكان الحمر مايزالون هناك، ثم في أومان، في سقيفة الحريق. وبعد ذلك في نيقولايف، وخيرسون، ويكاترينوسلاف. وقادنا الشيطان إلى روستوف على الدون. ومثّلنا، وكان النجاح هائلاً. حتى أنّ أحد الضباط أخذ يرمي من مقصورته على روبسبير... وفي اليوم التالي استدعاني عمدة المدينة، وضربني على وجهي حسب الطريقة القديمة قائلا: "أدع الله ليبارك القائد العام دينيكين، لو كان الأمر بيدي لشنقتك.. أخرج من روستوف حالا..." نعم، حال الفن صعب الآن... نتنقّل من إقليم ناءٍ إلى آخر كالغجر... وديكورنا قد أضحى ممزقاً، ومن العيب أن تضعه على مسرح... وفي كوزلوف لم يسمحوا لنا في المقصلة باعتبارها شيئاً لا تُعرف الغاية من استعماله.... تفضّلوا! ليقطع رأسي بفأس! هل لديك علبة كبريت؟ في إمكاني أن أريك: رأسي موضوع في كيس. صنعه خازن أدوات التمثيل في مسرح "مالي" في موسكو. إنه عبقري... ثم تأتي الرقابة. تأخذ النص إليها فيظلّ الرفيق يقرأ ويقرأ... وتشرح له أنّ هذه حقيقة تاريخيّة... فيعود لتقليب الصفحات... "أين الإثبات على أنها حقيقة تاريخية؟" فتقدّم له عرضاً للوناتشارسكي يبدي فيه إعجابه.. فيقرأوه أيضاً ويقول "ألا تستطيع أن تبتكر شيئاً أمرح من هذا؟" وهكذا يخدش أعصابك... أنا لا أعرف ماذا سيحصل لنا

الآن... نحن ذاهبون للتمثيل في مدينة اينسك، في قيادة اللواء المنفصل.

سأل تليغين بصورة غير متوقّعة له:

ـ وأين فرقتك؟

ـ في العربة المجاورة مع الديكور. وروبسبير في القاطرة، وهو الممثّل تينسكي. لابد أنّك قد سمعت به طبعا. احسن روبسبير في الجمهورية... إطمئن على ذلك إنّه يحصل على الكحول من تحت الأرض. عبقري! يركب القاطرة حالا فنسافر باطمئنان... ما رأيك، أيها الرفيق العسكري، ألا نأكل قليلا؟... لا ترفض.

ـ الآن، لا أرفض.

ـ سأكون ممتناً جداً ونبش باشكين رازدورسكي في الأكياس هاسا ومدمدماً: "أين حشرته..." ووقعت في يد تليغين قطعة سجق وبقسماطة وتابع باشكين رازدورسكي قوله حين ننتهي من التمثيل في مدينة اينسك، سنسافر إلى موسكو... شكرا... كفانا تجوالاً! في ممرّ نيغليني، وفي فناء الدار رقم ٥، أقام أحد الأرمن محلاً لتناول الأطعمة الخفيفة. إنه عبقري! تجد النقانق واللحم المقلي مع البطاطس، وكل ما تشاء. ورجال الميليشيا يفتّشون كلّ يوم. ما السبب؟ لأنّ جميع المتردّدين عليه تفوح منهم رائحة الكحول. ويفتّشون، ولا يستطيعون أن يجدوا كحولاً، ولن يجدوا... إنه يحتفظ بصفيحة في العلبة في الطابق الرابع مربوطة في أنبوب الماء الفارغ. فينزل الكحول إلى الأسفل، إلى محل الطعام حيث توجد حنفية ومغسلة إعتيادية. ولك أن تفتح الحنفّية، وتصبّ لك قدحاً من الكحول، وتكون مرتاحاً.

قال تلغين وهو يمضغ السجق بتلذّذ شاعرا بعذوبة من جرعة الكحول:

ـ سأحاول أن ارتّب كلّ وسائل الراحة. استريحوا وتمرّنوا، ولا تستعجلوا، وقدّموا لنا عرضا جيّداً. ستكونون ضيوفي في اينسك، أنا آمر اللواء...

فتعجّب باشكين رازدورسكي:

ـ آووو! إذن فهذا أنت... وأنا طوال الوقت أنظر إليك وأقول هذا هو حتفي! كم أرعبتني! أتكلّم ولا أفهم لماذا لم أرم من القطار... يا عزيزي، سنمثّل لكم من كلّ القلب، كفنانين حقيقيّين.

نزل تليغين من العربة يحمل كيس متاعه. كان مصباح كيروسين مهشّم يضيء بالكاد بضعة أشخاص عسكريّين على الرصيف.

ـ مرحبا، يا رفاق حيّا إيفان ايليتش وتقدّم منهم اتنتظرون آمر اللواء؟ هذا أنا، تليغين. إعذروني على هيئتي هذه...

وصافحهم ونظر بدهشة إلى أحدهم، وهو رجل أشيب قصير القامة جاف العود صارم ذو قيافة جيّدة... وحينما ساروا عبر المحطة إلى ساحة مظلمة حدجه مرة أخرى من وراء كتفه بنظرة من طرف عينه، ولكنه لم يستطع أن يتبيّن وجهه. أجلسوا إيفان ايليتش في عربة، فسارت به وقتا طويلاً في حقل دامس تفوح منه رائحة القاذورات. وتوقّفت العربة عند بيت طويل كالسقيفة له سطح عال. وقد أعدت فيه لإيفان ايليتش غرفة فارغة حديثة الطلاء. وقد وضعت على إفريز النافذة شمعة مضاءة وصحن طعام غطّي بصحن آخر. ألقى كيس المتاع على الأرض، وخلع قميصه

العسكري، وتمطّى، وجلس على سرير ضيق مفروش بفراش نظيف، وأخذ يخلع حذاءه الملطّخ بالطباشير.

دقّ الباب دقّة خفيفة. وفكّر إيفان ايليتش بانزعاج: "كان يجب أن اطفئ الشمعة في الحال. إنهم سيأتون، وتبدأ الأحاديث. والساعة قد تجاوزت الرابعة الآن، اللعنة.." ثم أجاب:

ـ نعم، أدخل...

ودخل بسرعة ذلك الرجل العسكري القصير القامة الأشيب، وأغلق الباب من دونه، وبحركة قصيرة رفع كفه المستقيمة إلى صدغه مؤديا التحية العسكرية.

وقف تليغين على ساق الحذاء الطويل الذي كان قد خلعه إلى النصف، وتفرّس في هذا الشبيه... وقال:

ـ أعذرني، يا رفيق. حصل بعض الحرج على الرصيف، ولكنّني قرّرت أن أؤجل التعارف والقضية كلّها إلى الغد... إذا كنت غير مخطئ، فأنت رئيس أركاني؟

أجاب العسكري باقتضاب، وهو مايزال واقفاً عند الباب:

ـ بالضبط...

ـ أعذرني، ما اسمك؟

ـ روتشين، فاديم بيتروفيتش.

أخذ تليغين يجول ببصره فيما حوله في عجز من أمره. وفتح فمه وابتلع عدة جرعات من الهواء.

ـ اها... يعني... واختلج وجهه، فتحوّل إلى الهمس:

ـ فاديم؟

ـ نعم.

ـ أفهم.. أفهم... غريب جدا... أنت من الحمر... أنت رئيس أركاني.. رحمتك يا رب!

قال روتشين بنفس الصلابة والجفاف:

ـ إيفان لقد عزمت أن اتحدّث إليك الآن، لكي لا تكون في موضع محرج غدا.

ـ أها... تتحدث...

لبس إيفان ايليتش بسرعة حذاءه المخلوع إلى النصف، ورفع قميصه من الأرض وأخذ يلبسه. أنزل فاديم بيتروفيتش جبينه، وتابع حركاته، وكأنّه يراقبه بلا أي نفاذ صبر، ولا قلق.

ـ أخشى، يا فاديم، أنّ أحدنا لا يفهم الآخر بعض الشيء.

ـ سنتفاهم....

ـ أنت رجل ذكي..، نعم، نعم... لقد أحببتك بحرارة، يا فاديم... أنا اتذكّر لقاءنا قبل أكثر من عام في محطة روستوف... لقد أظهرت شهامة كبيرة... لقد كان لك دائما قلب حار... آه، يا الهي، يا إلهي...

وشدّ حزامه، ولوى أزراره، وفتّش في جيبه أما من فرط ذهوله، وأما ليؤجّل قليلاً حتمية حديث ثقيل...

ـ يبدو أنك تعتبر أنّنا قد تبادلنا الأماكن، وأنّ علي، بدوري، أن أبدي عاطفة كبيرة... إنّ مثل هذه العاطفة موجودة لديّ نحوك، عاطفة كبيرة جدا... كنا مرتبطين مع بعض أكثر من أي إنسانين آخرين... ولكن، فاديم، ماذا تفعل هنا؟ ولماذا أنت هنا حدّثني...

ـ لاجل هذا جئت، يا إيفان...

ـ جيّد جداً ربما تظنّ أنني قادر على أن أخفي شيئا... أنت

رجل ذكي، فلنتّفق: أنني لا استطيع أن افعل لك شيئا... نحن هنا مختلفان جذرياً...

وتجهّم تليغين، وصرف بصره عن روتشين، أما هذا فقد سمع وابتسم.

ـ ووراءك شيء ما... وذلك مفهوم... والإشاعة حول موتك داخلة في هذه الخطة على ما يبدو... حدّثني... ولكن أحذّرك من أنني سأعتقلك... آه، كيف يحصل هذا...

وهزّ تليغين يده علامة يأس منه، ومن نفسه ومن حياته كلّها التي أضحت الآن محطّمة. تقدّم فاديم بيتروفيتش منه بحركة سريعة، وعانقه، وقبّله من شفتيه بقوة:

ـ أنت رجل طيّب، يا إيفان... نفس بسيطة... وأنا سعيد بأن أراك بهذه الصورة... أحبك، لنجلس وجذب تليغين إلى السرير، وكان مايزال في عناده لا تتصلّب. أنا لست من الاستخبارات، ولست عميلا مدسوسا... فاطمئن. أنا في جيش الحمر منذ كانون الأول. مكتبة سُر مَن قرأ

لم يكن إيفان ايليتش قد تخلص تماما من عزمه الذي هزّ كيانه حتى النخاع، ولم يزل بين الشك واليقين، فنظر في وجهه روتشين الداكن الملوّح، القاسي والرقيق معاً، ونظر في عينيه السوداوين الذكيتين الجافّتين. وجلس الإثنان على السرير ويداهما ما تزالان متشابكتين. وأخذ فاديم بيتروفيتش يقصّ كلّ ما قاده إلى هذا الجانب، إلى بيته، إلى وطنه.

وكان تليغين قد قاطعه في بداية القصة:

ـ وأين كاتيا؟ هل هي حيّة وفي عافية، وأين هي الآن؟

ـ آمل أن تكون كاتيا الآن في موسكو... تفاوتنا مرة أخرى.

وصلت إلى كييف في وقت متأخّر، قبيل الإجلاء... ولكن وجدت أثرها...

ـ وهل هي تعرف أنّك حيّ، وأنك معنا؟

ـ لا... وهذا الذي يخرجني عن أطواري...

١٩

مرَّ شهران.

ولم يكن من الممكن إيقاف هجوم جيش الجنرال دينيكين. وكان كولتشاك حاكم روسيا الأعلى يضغط على الأورال بآخر جهد مستميت. وفي منطقة البلطيق انثالت النوائب على الجيش الأحمر السابع الذي تقهقر عبر الوحول اللزجة أمام الجنرال يودنيتش فاقدا بسكوف ولوغا وكاتشينا، فأصدر هذا الجنرال أمره إلى قواته "اقتحام بتروغراد...".

وقطعت الجمهورية السوفييتيّة كليّاً عن مناطق الحبوب والوقود. وكانت الموصلات لا تكاد تكفي لنقل القوات والذخيرة. كانت سماء تشرين الأول تبكي على الأرض الروسية، وعلى المدن الجائعة المشلولة، حيث كانت الحياة تخمد في انتظار شتاء أكثر بعدا عن التفاؤل، وعلى مداخن المصانع الخامدة والورش المهجورة، التي تركها عمالها إلى مختلف الجبهات، وعلى مقابر القاطرات والعربات المحطَّمة، وعلى السكون العريق للقرى ذات السقوف القشّية، حيث لم يبق إلا القليل من الفلاّحين، وحيث عادت المسارج، كما كانت في زمن الأجداد، وعاد النول اليدوي يدمدم في بعض البيوت.

في ذلك الفصل الرديء الطقس اخترق الجنرال مامونتوف

جبهة الجيش الأحمر للمرّة الثانية وتوغّل بفيلقه القوزاقي في غارة عميقة محطّماً المؤخّرة قاطعاً جميع المواصلات.

كان تليغين وروتشين والمفوّض تشيسنوكوف (وهو رجل جديد أرسل قبل فترة وجيزة إلى اللواء ليحلّ مفوّضه الذي أصيب بالتيفوس) منكّبين على خارطة مقطّعة لصقت باللعاب. كان تشيسنوكوف عاملاً من موسكو انهكت صحّته الأشغال الشاقّة في العهد القيصري، وأنحله الجوع، وشاب قبل أوان الشيب. وراح يمسّد جبهته الصلعاء، وكأنّه يحسّ بألم فوق حاجبيه، ويقرأ للمرة العاشرة أمر القائد العام عن العمليات

كان تليغين يمصّ غليونه. وكان في المدّة الأخيرة قد ترك لف السجائر، وتعلّق بالغليون الذي أهداه له لاتوغين وكان هذا قد حصل عليه من ضابط أبيض أثناء الاستطلاع. وأصبح الغليون تسلية ووسيلة للتهدئة في اللحظات الصعبة وما أكثرها في الأيام الأخيرة وكان إذا لم ينظّفه مدّة طويلة يصفر صفيرا مريحا كصفير السماور الموضوع على المائدة في أمسية باردة.

اتضح لفاديم بيتروفيتش من النظرة الأولى كلّ ما ينطوي عليه الأمر من هستيريا يائسة فكان ينتظر أنْ ينهي المفوّض تأمّلاته في كتابة هيئة الأركان هذه متكِئاً على الجدار المصنوع من كتل الخشب، وكانت عيناه تلمعان بخبث من تحت جفنيه نصف المطبقين.

كانوا في بيت الضيعة الذي اتخذ مقراً لهيئة أركان اللواء على بعد حوالي عشرة فراسخ من الجبهة. ولم يبق في كلا الفوجين اللذين تسلّمهما تليغين في آب، أي قبل شهرين، غير ما يقلّ عن

ثلثمائة مقاتل، أما الذين يرسلون للتعزيزات فقد كان من الصعب أن يسمّوا مقاتلين. فقد كانت القيادة العامة تشكّلهم على عجل، وبالدرجة الأولى من الهاربين من الجنديّة، ملتقطة "الخضر" من المدن والقرى التي كانوا يأوون الآن إليها خوفاً من أمطار الخريف. وكانوا يحشرون دون اعداد ولا تمرين في سرايا التعزيزات، ويرسلون إلى الجبهة، حيث كان عليهم أن ينّفذوا مهمّات حربيّة لا تتحقّق بدقة إلا في حركة القلم الأحمر على خارطة العمليات في مكتب القائد العام الهادئ المهيب.

ـ أنا لا أفهم قال تشيسنوكوف ونظر إلى ظهر الورقة، رغم أنه لم يكتب عليها شيء أنا لا افهم الفكرة العامة...

ـ وليس هناك شيء لتفهمه. إنه أمر أكاديمي للجبهة. يبدو أنّ القائد العام أكل في فطوره بيضتين وشرب كوبا من الكاكاو، ودخّن سيجارة جيّدة، وتقدّم من الخارطة. وكان رئيس أركانه ينتظر أن يزول في أحد الأيام هذا الكابوس اللعين في غمضة عين، كما في الحلم، فأخرج بإصبعيه على الخارطة علم الاشارة الأحمر الذي يعلّم فوجنا "١٢٣ وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلّف من الفين وسبعمائة محارب وغرزه بحركة رشيقة إلى بعد مائة فرسخ إلى الجنوب "وبهذه الطريقة، وبعد أن نحتلّ قرية درموفكا، سنهدد جناح العدو..." ثم اخذ العلم الذي يعلّم فوجنا "٣٩ وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلّف من ألفين ومائة محارب ونقله إلى بعد خمسة وتسعين فرسخا إلى الجنوب الشرقي "وبهذه الطريقة سيقوم الفوج التاسع والثلاثون بهجوم أمامي، وهكذا..." عندئذ قلّص القائد العام عينيه من خلال الدخان لينظر إلى الخارطة، ووافق، لأن رئيس

الأركان، على أيّة حال، قد قضى الليل متروّياً في كلّ شيء وإن الخطوط والسهام قد خطت بدقة بالحبر الأحمر والأزرق، ولأنّ النتيجة واحدة مهما يكن موضع أعلام الاشارات وهي إنعاش الحركة في الجبهة... وهذا هو المطلوب...

قاطعه تشيسنوكوف وهو يهزّ رأسه الكبير الأصلع:

ـ إسمع، ليس هذا نقداً، يا أخ، بل حنقا...

ـ نعم حنق... ولماذا عليّ أن أصمت إذا كان هذا ما أفكّر فيه. وهذا ما يفكّر فيه تليغين أيضاً، وما يفكّر فيه مقاتلونا، ويتحدّثون عنه...

زفر تليغين زفرة قويّة، دون أن يرفع الغليون من فمه. وتصاعدت في نفس المفوّض مرارة الشك والحيرة، كلّ ما حاول أن يكبته في نفسه. أنه لم يتخلّف عن الحياة خلال عشرة أعوام من الاشغال الشاقّة في العهد القيصري، بل لأن أشياء كثيرة معقّدة قد ظهرت فيها، دوامات، أينما يمّمت وجهك... وكان قلبه الذي طهّرته سنوات العذاب يجد صعوبة في تقبّل التشكيك في الذين يقاتلون في صفّ الثورة. فكان يحبّ مثل هؤلاء الناس في الحال، ولكنّه كان يكتشف غير مرّة أنّ بعضهم كان يضمر الشرّ. وقد أحبّ روتشين، لأنه كان حاداً مستقيماً ولا يهاب شيئاً، حتى ولو وضعت بندقية بين عينيه. سأل المفوّض:

ـ ماذا يقولون، على أيّة حال؟

نقر روتشين ورقة الأمر بإصبعه محتدّاً:

ـ الآمر يقول: أنْ تحتلّ قرية ميتروفانوفكا وضيعة دالنى وبسريتين، ويحتفظ بهما. لقد احتللنا ذات مدّة قرية متروفانوفكا وضيعة دالنى بناء على أمر القائد العام. وخرجنا منهما طائرين

كالطلقة. وسيتكرّر هذا بحذافيره بعد غد، حين ننفّذ ما كتب هنا.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه... لأن من المستحيل الإحتفاظ في هذا الموقع، ولا ينبغي أن نقدم على ذلك.

قال تليغين هازّاً غليونه: صحيح.

ـ هبّ أنّنا أقدمنا على ذلك، وخسرنا مائة مقاتل في هذه العمليّة، ونفذنا في جبهة البيض دون أن يكون لنا اتصال بقوّاتنا. عند ذاك سيطبقون علينا من اليسار واليمين، فنخرج سراعا من هذا الكيس، وفضلاً عن ذلك سنضطر إلى أن نعبر النهر ثلاث مرات حيث سنتعرّض للرمي عند العبور، ثم هناك الأرض المنبسطة حيث سيهاجمنا الخيّالة، والمستنقع حيث ستغطس نصف العربات.

ـ ولكن هذه القرية وتلك الضيعة ضروريتان لنا في الخطة الاستراتيجية العامة.

ـ لا... أنظر إلى الخارطة... وهذا ما يقوله المقاتلون: لا توجد فكرة ولا هدف ولا خطة في كلّ عملياتنا خلال الشهرين الماضيّين... نحن نراوح مكاننا دون أي توقّع مأمول، ونكيل ضربات لا معنى لها، ونتكبد خسائر في الرجال، ونخسر الإيمان في النصر... سترى: اليوم ليلاً سيغادر بضع عشرات من الرجال الجبهة من تلقاء أنفسهم.. وبعد شهر سيجلبونهم إلينا ثانية... أنا أتساءل: ما الذي حدث، وماذا يحدث؟ شلل!

قال تليغين بعد أن حشرج في غليونه:

ـ اليوم أبلغوني في كوكبتنا للخيّالة وأنا لا أدري من أين يعرفون؟ أنّ مامونتوف، على حدِّ زعمهم، قد عبر الدون ثانية،

وهو يتوغّل في مؤخّراتنا.

اختطف روتشين الأمر ومرّر عليه بصره، ثم ألقاه، واتكأ على الحائط ثانية.

ـ محتمل جداً.. وهذا الأمر خالٍ حتى من التلميح إلى ذلك...

ودخل المكلّف بالحراسة وهو رجل كهل قصير القامة ملتحٍ يحمل كيس عتاد قذراً:

ـ أيها الرفيق آمر اللواء، يطلبونك على التلفون شخصياً.

نظر تلغين إلى المفوّض مندهشاً، وألقى معطفه على كتفيه بعجالة وخرج، قال المفوّض، وهو يمسح جبينه مرة أخرى:

ـ إذا صدّقك الإنسان، يا روتشين، فقد كلّ إيمانه. فما الذي يحصل؟ هل هناك خيانة بيننا؟

ـ أنا لا أفترض شيئا، ولا أؤكّد. ولكنّني أعرف أنّه من المستحيل الإستمرار في القتال بهذه الطريقة.

ـ والأمر العسكري يجب أن ينفّذ؟

ـ نعم، يجب... وسأنفذه غداً...

فكّر المفوض لحظة، ثم ضحك باقتضاب:

ـ لعلك تبحث عن الموت؟

ـ إنّ هذا لا يتعلّق في المسألة كليّاً، وأبعد من أن يمسك... وأنا، فضلاً عن ذلك، لا أبحث عن الموت... وحتى لو جئت إلينا منذ فترة لابأس بها لعرفت، على أيّة حال، أنّ الفوج لا يريد أن ينّفذ هذا الأمر... ولكن يجب أن ينّفذه.. إنّ حياة الجيش هي في تنفيذ الأمر الصادر إليه. فإذا انتفى ذلك كان مآله إلى التحلّل

والفوضى والموت... سأقرأ الأمر بنفسي، وأقود الفوج إلى الهجوم... فاعتبر هذه العمليّة تجربة للضبط... ولِنُنْه الحديث بذلك...

عاد تليغين، وجلس دون أن يخرج يديه من جيبي معطفه. وكانت عيناه مستديرتين.

ـ أيها الرفيقان، رئيس المجلس العسكري الأعلى يطوف في الجبهة. وبعد ساعة سيكون عندنا...

ومرّت ساعة وأخرى. ونزل المطر رذاذا. وكانت كوكبة الخيّالة في كامل نصابها ووحدة الموقع تصطفّان في المرعى وراء بيت الضيعة. وكانت قطرات المطر تلتمع على أعراف الخيول المتدلّية، وخصلها الممشّطة جيدا، وعلى معاطف الفرسان الناصلة اللون. وكانت الخيول تدوس الوحل بسنابكها فتزداد شبها بالجيف المسترخية من الماء، فقد كانت ضلوعها بادية، وأكتافها ناتئة، وأشفارها متدّلية. وكان آمر الكوكبة، وهو ملازم سابق في الخيّالة القيصرية، ذو وجه مدوّر، وأنف مرفوع كأنف الصبي، ينظر إلى تليغين في يأس. فضيحة! وعلاوة على ذلك ظهر من حيث لا يدري جرو قذر طويل القوائم وقبع أمام الكوكبة يراقب بفضول رخيّ البال.

هش عليه آمر الكوكبة هازّاً ذراعه، إلا أن الجرو رفع أذنيه فقط، ومال برأسه إلى جنب. وفي تلك اللحظة استدار الفارس المكلّف بالاشارة، والواقف على مرتفع غير بعيد بحصانه ولكزه بعجالة، وإذ به يرقل في عدو سريع نحو تليغين ناثرا الوحل.

لاحت مقدّمة سيارة ضخمة لامعة يحفّ بها مصباحان متباعدان صاعدة المرتفع في زاوية قائمة تقريباً، ثم ظهرت السيّارة

مكشوفة طويلة رمادية فاتحة.

أخذت الخيول ترفع أقدامها من هديرها الشديد وتهزّ رؤوسها. أصدر آمر الكوكبة أمره: "استعداد!" وتوقّفت السيارة وهي تكاد تسحق الجرو الذي قفز جانباً، كقطعة من القطن، وقبع ثانية. تقدّم تليغين، رافعاً سيفه بالتحيّة مختاراً حسبما اتفق أحد الثلاثة العسكريّين الجالسين في السيارة، وكانوا جميعاً يضعون مماطير صهباء، فوق معاطفهم. نهض الجالس إلى جانب السائق واضعاً يديه على الزجاجة الأماميّة، واستمع إلى التقرير دون أن ينظر إلى تليغين.

ثم استدار نحو الكوكبة بحركة حادّة. نهض العسكريان الجالسان في المقعد الخلفي أحدهما شاحب بلون الورق مبتل اللحية، والثاني ممتلئ منتفخ ضاري الهيئة وأدّيا التحية العسكرية. وأخذ الرجل يتحدّث بصوت نابح دافعاً رأسه إلى الأعلى حتى لاح منخراه أسودين، ورقصت نظارته الأنفيّة المبلّلة على قصبة أنفه:

ـ أيها المقاتلون، باسم سلطة العمّال والفلاحين آمركم بأن تشحذوا سيوفكم أشدّ، وتركّزوا حرابكم بصلابة أعظم. من منكم لا يريد أن يروي حصانه من مصب الدون الهادئ؟ الجبان وحده لا يريد ذلك... لماذا ماتزالون هنا، وليس هناك؟ إنّ الجمهورية تتوقّع منكم مآثر بطوليّة خارقة. فإلى الأمام! ادحروا العدو، وانثروا رماده في سهبنا الأم...

وظلّ يتحدث باندفاع أشد على هذا المنوال. وانتهى من خطابه، وأجال بصره في الكوكبة، وهتف "هورا" رافعاً فوق رأسه قبضته المطوية. فردّد المقاتلون هتافه بأصوات متنافرة. فقد

أقلقهم خطابه. وكأنّه رجل نازل عليهم من القمر. فوجئوا بأن ينعتوا بالجبناء، ولم يكونوا يتوقّعون ذلك.

دعا تليغين بهزّة من رأسه:

ـ لست راضياً عن وضع مقاتليك. إنهم رعاع على خيول! ولست راضياً عن حالة خيولك، إنّها كدشان لجرّ العربات! إتبعني...

وجلس على المقعد قرب السائق. وانطلقت السيّارة الضخمة من مكانها نحو الضيعة.

وتبعها تليغين على فرسه، متصوراً في عجالة أنّ الأمر ربّما يضمر احتمالا قوياً برميه...

توقّفت السيارة عند مقرّ قيادة الميدان. ووصل تليغين وراءها وفي أثره تشيسنوكوف ينطّ على سرج حصانه في غير اقتدار. وكان أمام البيت جندي الخفارة على التلفون، وقد أدّى التحيّة مرتجف اليد والفزع مرتسم على وجهه. وتوسّل بعينيه إلى تليغين يطلب اذنا بالحديث. وتكلّم متلجلجا من الجهد ليلتزم بالرسميّات، وأبلغه أنّ مقرّ اللواء قد تلفن يستدعيه قبل دقيقة (وكانت جميع أقسام اللواء وممتلكاته وخزانته وأرشيفه في قرية غاريفوروني على بعد حوالي أربعين فرسخا إلى الشمال). واستطاعوا أن يبلغوه بأنّ دورية من البيض من رجال مانتوف في أغلب الظن قد أغارت على القرية، وأنّ الاتصال التلفوني قد انقطع أثر ذلك.

زحف العسكريّ الممتلئ الجسم على ركبته ثقيل الحركة كان رئيس أركان القائد العام - وانحنى على المقعد الأمامي، وأخذ يهمس لرئيس المجلس العسكري الأعلى. فهزّ هذا رأسه،

وقال لتليغين عبر كتفه:

ـ ستتسلّم تعليماتي ببريد الميدان.

ظلّ تليغين وتشيسنوكوف ينظران طويلا بصمت وذهول إلى الطريق الأسود الذي انطلقت فيه السيارة الشبيهة بالغول وذابت كالشبح في عتمة المطر.

اشتغلت داشا في قسم تحسين الأرض التابع للجنة التنفيذية كمساعدة ثانية لرئيس "مكتب المشاريع". كانت في بعض الأحيان تقوم برسم البقع بالألوان المائية على خارطة ولاية كوستروما في الأماكن التي يفترض أن تجفّ مستنقعاتها للحصول على الفحم النباتي وخام المستنقعات بكميّات لا تنفذ. وفي أحيان أخرى كانت تستنتج القوائم التي يعدّها المهندس غريبوسولوف ليجعل اللجنة التنفيذية في حالة دائمة من التأثّر العصبي بضخامة مشاريعه العقيمة تماماً في واقع الحال، لأنّ القسم لم يكن يحوي غير صندوق الأصباغ وبعض الفرش وكمّية غير كبيرة من الورق فلا رفوش، ولا عربات، ولا خيول ولا مضخّات ماصّة، ولا نقود، ولا أيد عاملة.

وحصلت داشا على جراية وهي ربع رطل من الخبز المخلوط بالقشّ، وأحياناً بعض أوراق الغار أو حبّ الفلفل. وكانت أنيسيا تشتغل مراسلة في اللجنة التنفيذيّة. وكانت تحصل على جراية أكبر لخدماتها القتاليّة. فإلى جانب ثمن رطل من الخبز والفلفل كانت تتلقّى سمكة ونصف من السمك المجفّف، وأحياناً سمكة رنجة صغيرة بلون الصدأ.

وكانت أنيسيا إلى جانب عملها الأصلي تعمل في حلقة

التمثيل للهواة، وتتردّد لسماع المحاضرات المبسّطة في كلية الآداب والتاريخ التي أجليت من قازان إلى كوستروما. وكانت أنيسيا تنظر بترفّع بالغ إلى واجبها المباشر وهو الجلوس في مقعد متداع عالي المتكأ عند باب نائب رئيس اللجنة التنفيذية فكانت أما أن تطوّق رأسها لتصمّ أذنيها باصبعيها، وتنحني نحو ركبتيها وتقرأ تراجيديات شكسبير، وحين كانت تستدعى، كانت تجيب مكرهة: "الآن، الآن.." بل وتردّد بحدّة على الطلبات المتكرّرة في أن تنقل هذا الظرف أو ذاك إلى أحد الغرف العديدة المزدحمة بالمناضد، والمكتظّة بالناس الذين شغلوا أنفسهم بعمل من الأعمال، وأما أن تتغيّب عن مكانها. وذات مرّة كانت إحدى المشتغلات، وهي امرأة ذات وجه مصفرّ، لفتت نظرها بهذا الخصوص. فنظرت أنيسيا إليها نظرة سوداء قائلة "لا ترفعي صوتك عليّ، يا رفيقة فأنا لم أخف حتى من سيوف القوزاق..." حتى أنّ هذه المستخدمة المثقّفة التي عملت كثيرا من قبل في قضية تحرير المرأة وجدت من الأفضل ألا تتورّط مع هذه العاملة الفلاحة السليطة...

كانت داشا تعود إلى البيت بعد الساعة الخامسة بينما كانت أنيسيا لا تعود أحياناً إلا في ساعة متأخرة من الليل. وكانتا تعيشان في بيت خشبي مطلّ على الفولغا. وكان كوزما كوزميتش يطعم داشا وأنيسيا إلى حدّ الشبع ملتزم بأمر إيفان ايليتش تماماً، ويتابع، خلافا لضميره، القيام بأعمال غير صافية في الحصول على المأكولات والحطب، رغم أن ذلك كان يشقّ عليه في بعض الأحيان: فقد كان كبر السن يؤثّر فيه، والطقس الخريفي يميل به من اللغب واللغط إلى التأمّلات الفلسفية الهادئة عند الموقد

المشتعل، والمطر يضج ضجيجا خفيفاً فوق السطح.

وحين يزرورق الغبش الصباحي في النافذة كانت داشا وأنيسيا تحتسيان في العادة الشاي المصنوع من الجزر مع شيء من الإدام، وتخرجان إلى العمل. وكان كوزما كوزميتش يغسل الأواني، ويسكب جردل الماء القذر، ويكنس بالمكنسة كلتا الغرفتين، ثم يبدأ على مهل وبزفرات في الغالب في تقليب الفكر والتخمين مِمّن يمكن أن يقتنص اليوم بيضتين وقطعة من شحم الخنزير، زجاجة من الحليب، نصف قبعة من البطاطس... وكان كوزما كوزميتش لا يستجدي، لا سمح الله! بل كان يقوم بتبادل الأفكار الفلسفيّة والخلقيّة بالمأكولات تبادلا لا غبار عليه. وخلال هذين الشهرين عرفه كلّ أهالي كوستروما تقريباً، بل طاف أكثر من مرّة في القرى القريبة من المدينة.

وكان وهو يفكّر يقوم في العادة برتق وخياطة شيء ما في النور المتزايد عند النافذة. فالحياة قوة جبارة. وحتى في زمن التحوّلات التاريخية العميقة والمحن الصعبة يخرج الناس من أرحام أمهاتهم ورؤوسهم في المقدمة، وبصراخ حانق يطالبون لهم موضعا في هذه الدنيا سواء أكان يلائم هذا آباءهم وأمهاتهم أم لا. ويتحابب الناس دون اعتبار إلى أنهم يملكون من وسائل الدعم الخارجيّة أقلّ نسبياً مما لدى الطاووس على سبيل المثال حين ينشر ذيله الترف، وهو يرقص على مرج الربيع. إن الناس ينشدون السلوى، ومستعدون إلى أن يقدّموا نصف رغيفهم إلى من يسكب طمأنينة غير متوقّعة في نفوسهم التي يمزقّها الشك: "ماذا سيحلّ بنا؟ هل سنأكل العشب، ونغطّي عوراتنا بأوراق الكرنب؟" وآخرون يكونون ممتنين لو وجدوا مستمعاً فيهم يمكن

أن يكشفوا أمامه كلّ ما في أعماقهم من غيظ دون أن يخافوا اللجنة الاستثنائية في الولاية.

وكان كوزما كوزميتش يخرج للطواف في البيوت. وكان يمسح قدميه في الأروقة المظلمة، ويدخل المطبخ. وفي بعض الأحيان تصرخ ربّة البيت عليه في غضب:

ـ جاء الطفيلي مرّة أخرى! لا يوجد شيء اليوم، لا شيء، لا شيء...

ـ جئت اسأل عن ماريا سافيشنا كان كوزما كوزميتش يردّد بذلك هازّاً وجهه الأحمر بالتحية مقلصا شفتيه أهي في حالة سيئة؟

ـ سيّئة.

ـ ليس الموت بحدّ ذاته رهيباً، يا آنا إيفانوفنا. بل ما يرهق أرواحنا هو شعورنا بأنّنا عشنا حياة عقيمة. ومن هنا يحتاج الإنسان إلى السلوان. ضعي يدك على جبهتها الباردة وقولي: كانت حياتك شحيحة، يا ماريا سافيشنا، فلا تتأسفي عليها. ولكنّك كنت تكدحين مثل أصغر نملة وحملت قشّتك بلغب وبلا مسرة. والأعمال لا تذهب عبثاً أبداً، وكلّ شيء يتجمّع، ويزداد بيت الإنسان سعة وعلواً، ويكون لقشّتك شيء تسنده. لقد ربّيت أولاداً وأحفاداً، وها هو مساء حياتك قد حان. فاغمضي عينيك، وارقدي مطمئنة. ولا تأسفي على شيء، فأنت لم تكوني ملومة في شقائك...

وثرثر كوزما كوزميتش وهو يجلس على مقعد الباب. وكانت المرأة تكسر شظايا الخشب فإذا بها تلقي الفأس فجأة، وتزفر عدّة مرات متتالية، ويتبلّل خداها بالدموع...

ـ يسعى الإنسان ليعيش... وإذا فطس لا أحد يقول له كلمة شكر...

ـ لأنّ حياتنا مازال فيها ظلم... بينما يجب أن يقام لكلّ إنسان نصب جزاء على أفعاله... وسيكون ذلك في المستقبل، يا آنا إيفانوفنا، في المستقبل ستكون الحياة طيبة...

ـ ذلك في العالم الآخر؟

ـ لا، في هذا...

ـ أنت وحدك الأبله الطيّب...

ـ هذه مهنتي، يا آنا إيفانوفنا، ولكنّني لست طيّباً... أنا محبّ للاستطلاع. والإنسان لا يحتاج إلى شفقة. الإنسان يحبّ حين يجد اهتماماً من الناس به. حسناً، يعني يمكن أن أزور ماريا سافيشنا؟

ـ إذهب...

وكان كوزما كوزميتش لا يخرج من مثل هذا البيت خالي الوفاض. وفي المساء كان ينشر ويكسر الخشبة التي يكون قد أخذها من أحد البيوت، ويشعل الموقد في النصف النسائي من البيت، وينفخ الرماد من السماور الفائر، ويضعه على الطاولة، ويقص على داشا وأنيسيا عن روحاته. فيقول وهو ينفخ في صحن الشاي:

ـ ظهر لي منافس. صار عجوز يطوف على البيوت حافي القدمين لا يضع على جسده غير قميص من قماش الأكياس، وقد نشر لحيته عن قصد وأنفه المهيب بشكل غير اعتيادي يملأ وجهه. وهو يدعى الأب أنغل. وقد اختلق هذا المحتال حكاية بسيطة. فهو يلج البيت ويجلس على الأرض ويبدأ بالترنّح وتشمير

الذراعين، ويولول: "هذا جزاؤك، يا أنغل. وأنت لم تصدق، تفو، تفو... رأيت بعينيك، ولمست بيديك. تفو، تفو، تفو..." والمستمعون إليه يفغرون أفواههم، فيمثّل برهة أخرى ويقول: قبل أيام، في ليلة الجمعة وضعت امرأة زوجها في الجيش الأحمر مولوداً ممتلئاً له أسنان. وقد غسلوه وقمّطوه، ووضعوه على يدي أمه. فتخرج الأم ثديها، وتقدّمه له، فلا يأخذه، بل ينظر إليها نظرة ذات معنى ويقول: "ماما، ماما، ها أنا قد جئت!..." رشف كوزما كوزميتش من صحنه بصوت عال وضحك سيأخذ أنغل زبائني مني. إنّه غيور! اليوم التقينا في أحد البيوت فأشار بأصبعيه على صدغه إشارة ساخرة وقال: هل جئت يا كوزما لتأخذ فضلاتي؟ إذا أخذت تتعقبني فستعرف طعم عصاي...

قالت داشا بحدّة:

ـ أترك كلّ هذه الحماقات، يا كوزما كوزميتش والتحق في الخدمة السوفييتيّة، لابأس، لابأس، سندبّر أمرنا على الجراية وحدها... وإلا فقد بدأ الناس يتحدّثون عنك حديثا غير جميل، وهذا يزعجني كثيرا...

وأفاقت أنيسيا من احلامها المرفرفة كعادتها دائما وقالت:

ـ اليوم تحدّثت مع شخص، إنّه خنزير ولوّنت تعابير وجهها ونغمات صوتها، كنت جالسة اقرأ بالطبع. فيأتي رجل يشتغل عندنا في قسم التموين المدني، مهدّم رخو معوّج الفم.

"أوّد كثيراً أن أتعرف إلى عمّك."

"أيّ عم؟"

"الذي تعيشين معه... بحاجة إلى أن أستمع إلى نصيحة روحيّة منه..."

"انه لا يقدّم أية نصائح..."

"ولكنّني سمعت العكس. الكثيرون يأتون إليه ويجدون عنده تسرية..."

"يا رفيق، لا وقت إليّ لسماع سخافاتك. ها أنت تراني مشغولة..."

فيسرّ في أذني مع لعابه:

"ألم تسمعي بالطفل الذي يتكلّم؟.."

"إذهب إلى الشيطان..."

"لاحاجة إلى الذهاب بعيدا، نحن منذ زمن مع الشيطان.. وذلك الطفل أليس المسيح الدجال؟

قالت داشا: شيء مزعج جداً جداً.

- نعم، وحشة قال كوزما كوزميتش ذلك، وصبّ لنفسه قدحاً آخر من الماء الفائر وهو ساهم وحشة تزرع الرنين في الآذان. ومع ذلك فإنّ الروسي مولع بالاستقصاء، وهو إلى ذلك سريع التأثر. وله رأس نفيس. وكلّ ما يحتاج إليه هو المعرفة والطريق الصحيح للخروج من هذه الشربكة البيزنطيّة. منذ زمن طويل تراودني الرغبة، يا صاحبتَيّ العزيزتين النفيستين ولكن دون أن أعقد العزم، تراودني الرغبة في أن اقترح عليكما الانتقال إلى موسكو.

- إلى موسكو؟

تساءلت أنيسيا واتسعت عيناها الزرقاوان.

ـ إلى النور، إلى الأفكار، أقرب إلى القضايا العظيمة. وأقطع لكما عهدا بأن أكفّ عن شيطنتي... فأنا نفسي قد قرفت منها منذ زمن... ما أن رأيت صورة الأب أنغل حتى أصابني الغمّ، وتملّكني كليّاً...

قالت داشا:

ـ إلى موسكو، إلى موسكو! عندنا هناك مكان نلجأ إليه، فقد بقيت لكاتيا شقّة تعيش فيها ماريا كوندراتيفنا... ربما لم يبق منها شيء الآن؟ آه يا كوزما كوزميتش، أيها العزيز، دعنا لا نماطل في الأمر... فنحن هنا نعيش على ما يقع في اليد، ونبيع أعز الأشياء لدينا... وأنت أصبحت هنا إنساناً آخر أسوأ... إسمع، في موسكو، سندخل أنيسيا مدرسة المسرح في الحال...

لم تقل أنيسيا شيئاً في الرد على ذلك، سوى أنّها احمرت، وأسبلت جفنيها.

ـ كوزما كوزميتش، إذهب غداً لتعرف هل هناك سفن ذاهبة إلى ياروسلافل؟...

واستولى الانفعال على داشا، فصمتت وتنهّدت. قوّس كوزما كوزميتش ظهره، وضغط براحتيه على بطنه، وفكّر أنّ من المحتمل ألا تكون في موسكو مجازفة تذكر بخصوص إطعام المرأتين، وعند الضرورة القصوى فإنّ لديهم جواهر داشا الغالية المخفيّة سراً... ثم أنّ في الإمكان أن يأخذوا معهم من كوستروما من طحين الجودار... ثم كيف أفلت من لسانه موضوع السفر هذا! ولكن إلى الأحسن، بالطبع... وأخذ يؤلّف في ذهنه رسالة توضيحيّة لإيفان ايليتش الذي تلقّى منه من قبل فترة بطاقة بريديّة قصيرة يعلن فيها أنّه حي ومعافى مع الحب والقبل.

أتكأت أنيسيا بمرفقها على المنضدة، وحدّقت في الضوء الواهن لقنديل الصفيح، وتراءى لها ذلك السلّم (الشبيه بسلّم اللجنة التنفيذية) الذي ستنزل فيه عارية الكتفين ساحبة ذيل فستانها الحريري وتفرك يديها الملطّختين بالدم، ثم الصندوق الطويل المصنوع من خشب الصنوبر التابوت الذي ستنهض منه وترى روميو، وترى قارورة السم...

وهكذا ظلّ الثلاثة جالسين طويلا قرب السماور الهاسس. وكان الليل يرشق زجاج النافذة الصغيرة بدفقات حادة من المطر، ولكن لم تكن تعنيهم رداءة الطقس، ولا تعاسة المأوى، ولا كلّ الحرمان العابر، فقد كانت قلوبهم تخفق بحرارة وثقة على عتبة الحياة، وكأنهم وهبوا شباباً دائماً....

كان إيفان ايليتش يعتبر نفسه رجلاً موزونا. فإنّه لم يفقد صوابه مهما يكن من شيء. ولكن الذي حدث هو أنّه فتح زر قراب مسدسه بأصابع لم تطاوعه كثيرا وبدون تفكير، وكأنما أصيب بعمى فجائي، وسحب مسدسه، وصوّبه على رأسه، وداس على الزناد. ولكن الرصاصة لم تطلق، لأنّ أحد الأشخاص كان قد أفرغ الرصاص من مسدسه لغرض من الأغراض.

التفت إليه روتشين والمفوّض تشيسنوكوف وأخذا يعنّفانه بشدّة ناعتين إياه بالغرّ الساذج، وبالمثقّف، وبخرقة لا تصلح حتى لمسح عجيزة حصان عجوز. وقد فعلا ذلك في حقل، حيث ترّجلوا من خيولهم عند تل دريس أسود من المطر. وعلى مسافة غير بعيدة كانت تقف كوكبة الخيّالة ووحدة المقرّ على صهوات الخيول. وكان ذلك كلّ ما تبقّى من لواء تليغين.

فقد نفذ فيلق مامونتوف إلى مؤخّرته بجبهة عريضة وقطع كلّ

اتصالاته، وحطّم وسائل الإتصال ودمّر مستودعات التموين والذخيرة في قرية غايفوروني وفي يوم واحد تحوّلت مؤخّرة اللواء كلّها إلى فوضى انعدم فيها كلّ اتصال بأية نقطة قيادية، فتراجع الرجال في وحدات مشتّتة وفرادى واختبأوا، وراحوا يهيمون على وجوههم.

إنّ كلا الفوجين للمشاة وجد نفسه في المصيدة قبل أن يفيق على نفسه. فقد هاجمهما رجال مامونتوف من الخيّالة من المؤخّرة، والخيالة القوزاق المترجّلون من المقدّمة. وترك المقاتلون الحمر الجبهة، وتشتتوا شذر مذر.

واتضحت أحجام الكارثة شيئاً فشيئاً، وبالتدريج. سار تليغين ومعه كوكبة الخيّالة ووحدة المقرّ في البحث عن لوائه. كان مايزال يأمل في مَنْ يجمع بعض الفلول، فقد زال الذعر، وكان مامونتوف بعيداً، إلا أنّه سرعان ما اتضح أنه من المستحيل أن يجمع أناساً من تحت السماء الرصاصيّة، وبين أكداس الدريس المنتفخة، والحقول التي يتعذّر فيها السير، والمنخفضات والأجمات حيث يخيّم الضباب... فقد ذهب رجال للبحث عن إحدى وحدات الجبهة للانضمام إليها، وراح بعضهم يجوبون الضيع يسألون أهلها من تحت النوافذ إذنا في أن يدخلوا ليدفئوا أنفسهم بينما انتهز آخرون الفرصة فولّوا هاربين بعيدا عن هذه الأماكن إلى مواطنهم وزوجاتهم ومواقد بيوتهم.

عثر تليغين وروتشين والمفوّض تشيسنوكوف مصادفة على رجلين من الفوج التاسع والثلاثين منهكين إلى حدّ الإعياء، حتى لم يبق لهما إلا أن يجلسا وراء تل دريس، وقد رويا للثلاثة قصة بائسة جدا...

قال أحدهما:

- عبثاً تجوالكم في الحقل، فإنّكم لن تعثروا على أحد كان هناك فوج وزال

وبقي الآخر جالسا وظهره إلى كومة الدريس وكشر عن أسنانه:

- باعونا، وهذا كلّ ما في الأمر... أتظنون أنّنا لا نفهم في الأوامر العسكريّة؟ نحن نفهم كلّ شيء.. باعونا... اللعنة على القيادة! أعطونا نعلاً من الكارتون لأحذيتنا! وحرّك أصابعه البارزة من حذائه وقال: انتهينا من القتال... النهاية... آمين!

وعند كومة الدريس هذه انهار تليغين. طافت في ذهنه مقدّمة السيارة المريعة بمصباحيها المتباعدين. أين فرصة التبرير أمام هؤلاء! لقد ضيّع كلّ شيء بسماحته الكسول، وتركه يفلت من بين يديه، ويزيغ...

قال لروتشين وتشيسنوكوف:

- كفاكما صياحاً عليّ. حسناً، ضعفت، جبنت، وأنا الملوم... وغضّن وجهه بصورة مقرفة، وأخذ يضع مسدّسه في قرابه كنت محظوظا طوال حياتي، وكنت أنتظر دائما الإنهيار في يوم ما... حسناً، دعوا المحكمة العسكريّة الثورية تصدر حكمها...

- إذهب إلى الشيطان! ليس الأمر يخصّك الآن! صاح روتشين به وقد اختلجت عضلة خدّه إلى أين تقود الكوكبة؟ إلى الشرق أو إلى الغرب؟ ماهي خططك؟ ماهي المهمّة الآتية؟ فكّر!

- أعطني الخارطة...

تناول تليغين الخارطة من يدي روتشين في غضب، وتمتم، وهو ينظر إليها، شاتماً نفسه بشتى العبارات الفاحشة. وتراقصت

أمام عينيه أسماء المدن والقرى والضيع. ولكنّه تغلّب على ذلك أيضاً في آخر الأمر. وبعد نقاش تقرّر السير شرقا في محاولة للاتصال بوحدات الجيش الثامن.

وقضوا بقيّة النهار يسيرون عدواً كلمّا كان ذلك ممكناً. وحين ادلهمّ الليل حتى إنّهم لم يعودوا يرون آذان خيولهم أرسلوا رجال الاستطلاع للبحث عن قرية روجدستفينسكويه التي اختفت غير بعيد في الظلام الدامس. وتوقّفوا دون أن يترجّلوا عن خيولهم وانتظروا طويلا. قرّب فاديم بيتروفيتش حصانه من حصان تليغين، ومس ركبته بركبته وتساءل:

ـ حسنا، ربما يمكن أن توضح الآن؟ هل يمكن أن أتحدث إليك؟

ـ ممكن.

ـ لماذا قمت بذاك المشهد المسرحي؟

ـ أي مشهد مسرحي، يا فاديم؟

ـ مع المسدس الفارغ...

ـ ربّما فقدت عقلك!... وانحنى إيفان ايليتش على سرجه نحوه، ولكنه لم يتبين في الظلام غير كتلة غامضة ذات عينين سوداوين فاديم، إذن لم تكن أنت الذي أفرغ الطلقات؟

ـ لست أنا الذي أفرغ الطلقات من مسدّسك... بدأت أفكّر في أنك أكثر مكرًا مما تبدو...

ـ أنا لا أفهم... جبنت... لا علاقة للمكر هنا... لو كنت في مكانك لما ذكرت ذلك...

ـ لا تراوغ، لا تراوغ...

كانا يتحدّثان همساً. وكان روتشين يرتجف بكلّ كيانه مثل كلب صيد في طوق.

ـ إنّ رجال الكوكبة جميعا رأوا ذلك المشهد المقزّز عند كومة الدريس... أتعرف ماذا يقولون؟ يقولون إنّك مثلت كوميديا... تريد أن تنقذ حياتك عند المحاكمة العسكريّة...

ـ لا أفهم ماذا تعني في كلامك!

ـ لا، يجب أن تصغي إليّ! وبدأ الحصان تحت روتشين يضطرب أيضاً يجب أن تردّ عليّ بكلّ إخلاص... ففي مثل هذه الأيام يعرف معدن الإنسان... هل تحمّلت المحنة؟ أتدرك أنّ لطخة قد علقت بك؟... وأنت لا تملك الحق في تلطيخ نفسك...

وثب حصانه، وضرب وجه تليغين بذيله بقوة. عندئذ قال إيفان ايليتش بصوت مبحوح يكبته تشنّج في حلقومه:

ـ إبتعد عني، وإلا طعنتك!...

وفي تلك اللحظة قال المفوض تشيسنوكوف في الظلمة:

ـ كفاكما ثرثرة، أيها الرجلان. أنا الذي أفرغت الطلقات.

لم يرد روتشين ولا تليغين بشيء عن ذلك. كانا يتنفّسان تنفّساً ثقيلاً احدهما من المساءلة الشديدة والثاني من امتلاء النفس بالبغضاء، وكلاهما لا يرى الآخر. ومن الظلام تردّد أصوات قصيرة كالطلقات:

"قف، قف!" "مَن أنتم" "أتركني" "مِن أين أنتم" "نحن رجالنا، وأنتم من أيّ جانب؟ اللعنة عليكم".

كان ذلك اصطدام دورية بأخرى. دار الخيّالة بعضهم حول بعض خائفين في الظلمة الحالكة أن يجرّدوا أسلحتهم، وغير راغبين في نفس الوقت من أن ينفصلوا لما تملّكهم من الحماس

الحانق، فتصايحوا وتشاتموا، حتى أحس الطرفان من قوة التعابير أن كِلَيهما من الحمر.

"لماذا تمسك لجام فرسي؟"

"من أي وحدة؟"

"لا شأن لك في هذا، يا ابن... نحن وحدة فرسان كبيرة".

"أين وحدتكم؟"

"تعال معنا..."

وتعبت كلتا الدوريتين أخيراً، وسارتا بهدوء إلى الكوكبة. وتبيّن أنّ قرية روجدستفينسكويه على مسافة غير بعيدة، وراء غابة ونهر صغير. وحين سئل أحد رجال الدوريّة الأخرى عن الوحدة الموجودة في القرية أجاب بغير كثير من الأدب:

ـ ستصلون، وتعرفون...

كان سميون ميخائيلوفيتش بوديوني واثنان من قوّاد الفرقة يجلسون وراء طاولة في أحد الأكواخ يشربون الشاي من سماور كبير. وحين رأى سيمون بوديوني الرجال الثلاثة تليغين وروتشين و تشيسنوكوف يدخلون قال بلهجة مرحة:

ـ وصلت تعزيزاتنا. أهلاً وسهلاً. اجلسوا واشربوا الشاي معنا.

اقتربوا من الطاولة، وتصافحوا مع بوديوني الذي كان ينظر نظرة مبطّنة إلى آمر اللواء الهائم وأركان حربه (وكان مطّلعا على كلّ شيء) وتصافحوا مع قائد الفرقة الرابعة، وهو رجل قصير القامة له شاربان مهيبان يمكن أن يصلا إلى ما وراء اذنيه بسهولة ـ ومع قائد الفرقة السادسة الذي مدّ لكل واحد منهم يداً كبيرة،

وضغط بها على أيديهم بقوّةٍ وكأنّه يلوي حدوة فرس، وقد انطبعت على وجهه الفتي المورّد طمأنينة عميقة.

سأل سيمون بوديوني عمّا إذا كان قد هُيّئ لوحدتهم مبيت جيّد، وهل لديهم شكاوى أو طلبات. ردّ روتشين بأنهم قد نزلوا في أحسن ما استطاعوا أن يوفّروه، وأنّه لا شكاوى لديهم.

ـ خير على خير، إذن أجاب بوديوني الذي كان يعرف جيّداً أنّ القرية التي نزل فيها فيلقه لقضاء راحة قصيرة في الليل لا توفر موضع راحة حتى لذبابة ولماذا أنتم واقفون؟ اسحبوا المصطبة واجلسوا. أنا اتذكّرك جيّداً يا رفيق تليغين. إنّ رجالك استقبلوا قوزاق الدون بحمّام حار، آنذاك... وأجال بصره في الجالسين حول المائدة مقلّصاً عينيه في رضى شديد، وهز قائد الفرقة السادسة رأسه مؤكّداً أنّ القوزاق بالفعل قد استقبلوا بحمام حار، بينما هزّ قائد الفرقة الرابعة وجهه الكالميكي بفخر وجفاف، وتابع بوديوني قوله إذن في هذه المرّة عبث بكم مامونتوف بعض الشيء... ماذا جلبتم معكم، جماعة المقرّ أو وحدة قتالية؟

قال تليغين:

ـ وحدة قتالية، كوكبة معزّزة.

ـ وما هي حالة خيولكم؟

ـ في حالة ممتازة أجاب روتشين بسرعة قوائمها الأماميّة بحدوات.

قال بوديوني مندهشاً:

ـ تصوّروا، حتى القوائم الأماميّة بحدوات. أظن لا حاجة لكم في الذهاب للبحث عن الجيش الثامن، فقد لا يكون في مكانه الآن...

قال تليغين:

ـ يجب أن أرفع تقريراً لقائد الجيش.

ـ قدّم التقرير لي... ماذا تقولان، يا قائدَي الفرقتين، في أن نضمّ آمر اللواء وكوكبته المعزّزة؟

هزّ كلا القائدين رأسيهما موافقين. تناول بوديوني قبضة تبغ من علبة صفيح، وأخذ يلفّ سيجارة. وكرّر قائلاً:

ـ لا حاجة لكم في الذهاب بعيدا. انضموا إلينا. لقد جلسنا ذات مرّة نفكِّر أنا وقائد الفرقتين وقرّرنا بعد التفكير بأنّ خيولنا أخذت تسمن، ومقاتلينا يضجرون، فلنذهب شمالا للبحث عن مامونتوف.. وهكذا نجري، وهو يبتعد عنا، ونحن نلاحقه...

كان سيمون بوديوني يمزح، بينما كانت الأمور شديدة الخطورة. فبعد أن عرف بوديوني أنّ فيلق مامونتوف قد خرق جبهة الحمر جازف برأسه وخالف الأمر الشخصي لرئيس المجلس العسكري الأعلى في الاستمرار بلا هوادة في تنفيذ الخطّة العسكريّة التي إن لم تكن تنطوي على خيانة، فإنّ غباءها وفشلها المحقّق قد تبدّيا الآن بوضوح. وانطلق بمبادرته الخاصة لملاحقة مامونتوف. وكان بوديوني وقائدا فرقتيه يتصوّرون جيداً لأنفسهم صريف الأقلام القوي على الورق في مكتب القائد العام، والمخاطر الفوّاحة برائحة الموت تلك التي تنتظرهم في نهاية الخطّ المباشر. ولكن إنقاذ موسكو كان أغلى لديهم من رؤوسهم. ولم يروا انقاذ موسكو إلا في ملاحقة مامونتوف فوراً، وفي دحر فيلق الخيّالة الذي هو أفضل فيلق لدى البيض. وكانوا لا يشكّون في أنّ هذا الفيلق لن يصمد لضربات سبعة آلاف مقاتل بالسيف في فيلق بوديوني، وأنّه سيُصْرَع لا محالة في

مكان ما في الحقول العريضة بين تسنا والدون. وكان عملاً باسلاً أن يلحق بمامونتوف الذي كان قد أخذ من قطّاع الطرق عادة تبديل الخيول المنهكة المصابة في القرى والضيع.

كانت أفواج مامونتوف من قوزاق الدون وهي أفواج جريئة أسكرتها الانتصارات تضمّ عدداً أكبر بكثير. ولكن مامونتوف كان لا يسعى إلى الإلتقاء ببوديوني، فقد كان يخاف هذا الخصم المحنك الذي يلاحقه. إذ لم تكن القوة التي تتصدّى له خيّالة من الأنصار بل أرهب قوّة لا يعرف إلا الله مغبّة الالتقاء بها في أرض مكشوفة. إنها خيّالة روسية نظاميّة. كان بوديوني يزحف بأقلّ سرعة، ولكن بذكاء أشد، فتارة كان يختار طريقاً أقصر أو أكثر ملاءمة، وتارة كان يحصر مامونتوف في أماكن كان من الصعب الحصول فيها على علف للخيول أو على خيول مستريحة...

واستمرت هذه المطاردة، هذه اللعبة الخطرة لقوّتين جبّارتين من الخيّالة تسير من يوم إلى يوم. وكانت الأدخنة والحرائق في ضباب الخريف تشير إلى الطريق الذي يسلكه مامونتوف. وكان مامونتوف يهاجم الوحدات الحمراء في المؤخّرة، وينسحب سريعاً في ناحية. وأخيراً راوغه بوديوني ولحق به. ففي صباح باكر، وحالما لاحت معالم الصفصاف القديمة سوداء على خلفيّة حدائق الخضراوات وثب سميون بوديوني ومعه كوكبة الفرسان إلى قرية بائسة كان مامونتوف يقضي ليلته فيها.

الا أن عربة من ثلاثة خيول صهباء خرجت في الحال من بوّابة بيت في الطرف الآخر من القرية وراحت تبتعد. كان مامونتوف في هذه العربة المكشوفة يتلفّت على مقعد حاسر

الرأس محلول المعطف، وقد أطلق عدّة رصاصات على فارس في المقدّمة ذي شاربين وعباءة قوزاقية سوداء كان يلاحقه، فقد عرف أنه بوديوني، ولكن القربينة تراقصت في يديه. وطوردت العربة، إلا أنّ خيول الدون الصهباء حملتها بعيدا كالريح.

كانت الصرخات الوحشيّة وصلصلة السلاح والطلقات المنفردة ماتزال تتردّد في أفنية البيوت. لقد كان حرس مامونتوف الشخصي من القوزاق يقاتل باستماتة. طاف رجال بوديوني في القرية، وأخذوا يخرجون من المخابئ والزوايا إلى الشارع أناسا ركبهم الذعر، منهم من خرج في لباسه الداخلي فقط، ومنهم من خرج في حذائه لا غير. وتبيّن أنهم موسيقيون. أحاطوا بهم، وأخذوا يضحكون منهم. تقدم سيميون بوديوني، ولما عرف جلّية الأمر طلب أن تجلب لهم آلاتهم الموسيقيّة.

ولما رأى الموسيقيّون أنّ البلاشفة لا يقتلونهم بالسيوف، بل يضحكون منهم فقط، تراكضوا وارتدوا ملابسهم بنشاط، وجلبوا آلاتهم الهوائية هيلوكونات ضخمة، وأبواقا وترومبيطات وكانت جميع الأبواق من الفضّة الخالصة. واندهش رجال بوديوني وتمطّقوا. إنها لغنيمة عظيمة!

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال سيميون بوديوني:

ـ على الأقل حصلنا على شعرة من جلد خنزير... أتعرفون عزف "النشيد الأممى"؟

كان الموسيقيّون يعرفون عزف كلّ ما يشتهي المرء، فقد كان بينهم طلاب من كونسرفاتور موسكو، وقد قضوا عاماً ونصف عام في البحث عن مورد رزق، وخبز أبيض منتقلين من مدينة إلى أخرى، هاربين من أعمال الاباحة والاستجوابات وقتال

الشوارع حتى وصلوا إلى روستوف فجنّدوا. بل أنّ قائدهم وهو رجل ذو انف اسفنجي ومشبع بالكحول أعلن أنّه ثوري أصيل قديم. نظروا إلى أنفه الموردّ المزرقّ وصدقوا بأنّه لن يلحق بهم اذى.

وتملّص مامونتوف مرّة أخرى من النزال. وخرج فيلقه بمناورة سريعة من التماس. واستمرت الملاحقة. ولكن مقصده أضحى واضحاً، وهو الخروج من خلال جبهة الحمر إلى جماعته. وكان بوديوني يخشى ذلك أكثر من أي شيء آخر. ذلك لأنّ حملته كلّها ستكون بلا جدوى. وعند ذاك لن يقتصر الأمر على تحمّل المسؤولية أمام القائد العام، بل اسوأ من ذلك، أمام رئيس المجلس العسكري الأعلى.

كما شاء سوء الحظ ألاّ يفلح في إقامة أي اتصال ويعرف ما يدور في العالم حوله في تلك الأيام... وأخيراً وصلوا إلى السكّة الحديد. هرع بوديوني على حصانه إلى محطّة القطار ومعه رئيس أركانه والمفوّض، وقعد إلى جهاز الإرسال. وتلقّى عن طريق التلفون أخباراً جعلته يرسل في طلب قائدَيْ الفرقتَيْن وأمراء الوحدات الكبار للوصول إلى المحطّة على الفور.

واجتمعوا في مشرب المحطّة، حيث كانوا يرون من خلال النوافذ الكبيرة المحطّمة تقدّم كوكبات الخيّالة، وعبورها سدّة القطار. وإلى الخلف منها يمتدّ غروب موحش ملاصق للأرض تحت ثقل السحب. صعدت صفوف الفرسان والإشارات على رماحها على المنحدرة، وبدت مقدودة من حديد، شديدة البأس على خيول قوية. ذهل تليغين من التعبير المرتسم على وجه فاديم بيتروفيتش روتشين، الذي كان ينظر من النافذة في انعكاس

الغروب. فقد كان وجهاً ترتسم عليه الأنفة والجمود وكأنّما في حالة انفعال قوي.

ـ يجب أن نعرف أيّ شيء هي... قال بصوت كامد، وتقدّم تليغين ليسمع بشكل أوضح - لقد نسينا... ليس هناك عقاب يساوي مثل هذه الخيانة... قبّل الأرض على غفرانها لك...

كان فاديم روتشين يتحدّث على هذا النحو لأوّل مرة بعد الشجار عند كومة الدريس. وكان تليغين يدرك أنّه يتعذّب، وأنّه يصمت لا عن أنفه، بل عن يأس لأنّه لم يكن في وسعه أن يطلب غفرانا من تليغين بكلمات عادية من مثل "أعذرني، يا إيفان..." والآن، وفي حالة التوتر الطويلة والتعب وصل إلى لحظة الاحساس الطافح بوطنه المضاء والمنسيَ والمسكوب من جديد، وكان ذلك في نفس الوقت دعاءه إلى الصفح عنه...

سعل إيفان تليغين، وأراد أيضاً أن يقول شيئاً طيباً لروتشين شاطباً على شجارهما الأحمق، وكأنّه لم يكن... وفي تلك اللحظة خرج بوديوني من قسم التلفون. وأحاطوا به فقال:

ـ أيّها الرفاق، هناك أخبار كبيرة الشأن.. ولنبدأ بالأخبار المنّغصة. إن كوتيبوف استولى على أوريل. ودورياته قد بلغت مسافة قريبة من تولا. وهو في هذا الهجوم دقّ إسفينا عريضاً في جبهتنا. وتراجع الجيشان الثامن والعاشر إلى الشرق، والتاسع والثالث عشر إلى الغرب... وكان ذلك في الأسبوع الماضي وصمت بوديوني والتمعت عيناه بألق مرح ومنذ ذلك الحين تغيّر الوضع تغيّراً كبيراً، يا رفاق... أولاً يمكنني أن افرحكم بأنّ القيادة العليا كلّها قد استبدلت. ولم يعد رئيس المجلس العسكري الأعلى يتصرّف في الجبهة الجنوبية... واسترجعت قواتنا أوريل...

ومزّقت أفواج كورنيلوف وماركوف ودرزدوف شرّ تمزيق ما بين أوريل وكرومي... إنّ ما انتظرناه طويلا قد بدأ... والتفاصيل غير معروفة حتى الآن... ولكن مجموعة صداميّة خاصة تعمل بنجاح ضد كوتيبوف.

وتوقّف سميون بوديوني ثانية مديراً في يديه قصاصة من شريط التلفون اللاسلكي، وتحرّك شارباه، وألقى نظرة ضارية على امراء الوحدات الملتفّين حوله.

ـ إنّ عمليات فيلقنا لم تجر وفق أمر القائد العام، ولكن خلافاً له... فقد أمرنا بالتحرك جنوبا إلى سهوب سالسكيه، إلى مانيتش، حيث كاد الجيش العاشر أن يتحطّم. وصعدنا إلى الشمال. وبدلاً من أن نكون على الجانب الأيسر من الدون كنّا على جانبه الأيمن. وبدلاً من أن نبتعد عن خيّالة الدون، تشبّثنا في ذيلها. وهذا غير صحيح، ولا يجدي شيئاً!... اما لتفكيرنا البسيط، فإنّ لنا عقولا فلاّحية قوزاقية، ولا يجدر أنْ يكون لنا تفكيرنا الخاص، وبالمقابل فإنّ في أركان القائد العام عقولا متعلِّمة، متنوِّرة.... والذي حدث أننا سرنا وأوامر القائد العام سارت وراءنا وأنا لم أتسلّمها، ولم أقرأها: فأنت إذا بدأت تقرأها فإنّ السيف سيسقط من يدك في أغلب الظن.. ومع ذلك، فسواء أردت أم لم أرد فإنّ الأمر قد لحق بي... والأمر خال من الكلمات المطوّلة وبسط شريط التلفون حتى لا يلتف حول نفسه، وقرأ "إلى قائد فيلق الخيالة بوديوني... تشير معلومات الاستطلاع الأخيرة إلى تحرّك خيّالة العدو من منطقة فورونيج إلى الشمال. أمر قائد فيلق الخيّالة بوديوني بتحطيم خيّالة العدو..." وهكذا كلّ شيء باختصار ووضوح. يعني أنّ عقولنا قد أصابت

بتفكيرها... والأمر موقّع من قبل رئيس المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية ستالين. في مقرّ القيادة العامة في سيربوخوف.

عادت كاتيا إلى موسكو، إلى نفس زقاق ستاروكونيوشني قرب شارع أربات، حيث يقع البيت ذو الطابق العلوي (الذي انتقل إليه نيقولاي إيفانوفيتش سموكوفنيكوف في بداية الحرب مع داشا قادماً من بطرسبورغ والذي عادت كاتيا إليه من باريس) ونزلت في تلك الحجرة التي شهدت جزع حياتها اليائس في ذلك اليوم الكئيب، يوم دفن نيقولاي إيفانوفيتش. آنذاك استلقت على الفراش، وتغطّت بمعطفها الفرائي، وسارت إلى غرفة الطعام لتجلب شيئا من الماء، وتشرب المورفين، وفي ضوء الغبش رأت فجأة حياتها الثانية: كان فاديم بيتروفيتش روتشين يجلس في انتظارها...

والآن انتهت هذه الدورة الثانية من حياتها، مترعة بالجهد والحبّ والعذاب. وخلّفت وراءها طريقاً طويلاً جداً من الخسائر التي لا تردّ. وقد أحسّت كاتيا بذلك إحساساً حادّاً حين خرجت في اواسط تموز من محطة كييف تحمل صرّتها... رأت أطفالاً صغاراً يسبحون في نهر موسكو الناضب وأصواتهم تتردّد في السكون مجلجلة موحشة، ورجلاً عجوزاً يجلس على العشب الذابل عند الشاطئ ومعه عود لصيد السمك. ولمّا خرجت إلى شارع سادوفيا حيث اختفت الأسيجة المشبّكة التي كانت تحيط بالممشى الأوسط المشجّر كلّه أدهشها السكون المخيّم، فلا صوت غير حفيف أشجار الزيزفون الهائلة مغطّية الفيلات الصغيرة المقفرة بظلّها الأخضر المهيب. وفي شارع أربات الذي كان يزخر

بالناس لم تجد تراما ولا عربات أجرة، بل وجدت بعض السابلة يمرّون عبر سكّة الترام الصدئة مطرقي الرؤوس. سارت كاتيا حتى زقاق ستاروكونيوشني، وانعطفت فيه حتى رأت بيتها، فارتخت رجلاها. وقفت طويلا على الرصيف المقابل. كان هذا البيت يتراءى لها في ذكرياتها بيتا جميلا ذا لون ذهبي وأعمدة بيضاء مسطحة، ونوافذ نظيفة تنسدل عليها الستائر... وخلفها كانت تعيش ظلال كاتيا وفاديم روتشين وداشا... أمن المعقول أن يختفي كلّ ما كان دون أن يترك أثرا؟ أحقّاً أن الحياة تولّي كالحلم في رأس على وسادة، وبعد أن تخادع خداعا عقيما تتلاشى بعد زفرة الاستيقاظ؟ لا، لا، في تلك الأيام الخوالي تجمّد اثنان: كاتيا في مكان ما في غمرة المسرّة غير المتوقّعة حينما ألقت قارورة المورفين على البساط وتدلّت فاقدة القوى على ذراعي فاديم بيتروفيتش روتشين المتصلّبتين والثاني هو الذي كان يهمس لها بكلمات الحبّ وكأنّما قد اسودّ من الإنفعال. لا، لم يكن ذلك حلماً، ولم يختف. إنّه مايزال هناك وراء النوافذ السوداء وهناك أيضاً ليلتهما المؤرقة الأولى، في القبل الصامتة العميقة كالعذاب، وفي الكلمات المتكرّرة والمتجدّدة أبداً والمعبّرة عن الدهشة من أن تكون هذه المعجزة الوحيدة على الأرض، المعجزة التي شابكت بمثل هذه القوى يدين سمراوين قويّتين ويدين بيضاوين رقيقتين هما أكثر الأشياء رقّة وأكثرها رجولة...

كان البيت يقف معوّجاً بادي البؤس مسلوخ الجدران، وليس فيه أعمدة بيضاء. اختلقتها كاتيا اختلاقا. كانت النافذتان الأخيرتان من الطابق الأوّل قد غُطّيتا من الداخل بأوراق الجرائد، أما النوافذ الأخرى فقد تلطّخت بلطخات من الوحل اليابس ممّا يدل على

خلّوها من الساكنين... وكان زجاج الطابق العلوي حيث كان مخدع داشا، قد هشّم كلياً.

عبَرتْ كاتيا الشارع، ودقّت الباب الخارجي الذي تعمّقت في طلائه البني خطوط طويلة. دقّت كاتيا طويلاً حتى تنبّهت إلى أنّ ثقباً مغلفاً بالغبار كان في موضع المقبض. عندئذ تذكّرت أنّ الوصول إلى الباب الخلفي يقتضي الإنعطاف في شارع جانبي. كان باب الحديقة مفتوحاً، وقد سارت منه عبر فناء صغير نما فيها العشب في ممشى مطموس المعالم. إذن، فالمنزل لم يكن خالياً، على أية حال.

دقّت كاتيا باب المطبخ. وبعد قليل فتح الباب رجل صغير القامة شاحب بلون الورق أشقر الشعر يرتدي نظارة له رأس كبير أشعث:

ـ صحت بأعلى صوتي أنّ الباب غير مغلق. ماذا تريدين؟

ـ أعذرني، أردت أن اسأل: أما تزال ماريا كوندراتيفنا العجوز تعيش هنا؟

ـ نعم، هنا ردّ بصوت تناقش فيه المسائل الحسابيّة ولكنّها توفّيت.

ـ توفّيت! متى؟

ـ منذ زمن غير بعيد. لا أتذكر بالضبط.

ـ ماذا سأفعل الآن، إذن؟ قالت كاتيا حائرة وهل شقّتي مشغولة؟

ـ أنا لا اعرف، سواء أكانت شقتّك أم لا، فإنّها مشغولة... وأراد أن يغلق الباب، إلا أنه رأى عيني المرأة الجميلة مغرورقتين بالدمع فتريّث.

ـ إنّه لأمر مزعج... أنا قادمة من محطّة القطار رأساً، فأين سأذهب الآن؟ غبت عن موسكو عامين، وقد عدت إلى بيتي، فإذا....

ـ عدت إلى بيتك؟ أعاد السؤال بدهشة إلى موسكو؟...

ـ نعم، قضيت الوقت كلّه في الجنوب، ثم في أوكرانيا...

ـ عجيب أنت مجنونة؟

ـ كلا... ولماذا؟ هل العودة إلى البيت أمر غير معقول؟

اختلج أحد طرفي شفتيه الرقيقتين في وجهه الناحل الشاحب كلون الورق، وتغضن خده الرخو:

ـ ألا تعرفين أنّ الناس يموتون جوعاً في موسكو؟

ـ سمعت أن الطعام عسير... ولكّنني لا أحتاج إلى الكثير منه... ثم إنّ ذلك شيء مؤقّت. حين تشتد الضائقة يجب أن يكون الإنسان في بيته.

ـ مَنْ أنت على أية حال؟

ـ أنا المعلّمة يكاترينا روتشينا... إنتظر، سأريك...

وأخذت كاتيا تفك عقدة كيس الجنفاص بأسنانها. وأخرجت شهادة مفوّضية الشعب للتعليم.

ـ عملت في مدرسة روسيّة للأطفال الصغار في كييف حتى الجلاء... ثم طلب مفوّض الشعب منّي ألا أبقى مع البيض مهما كلّف الأمر... أنا نفسي ما كنت أريد أن أبقى... وأعطاني هذه الرسالة لمفوّض الشعب لوناتشارسكي... ولكنّها مسدودة بالختم...

قرأ الرجل الشهادة، وقرأ العنوان على طرف الرسالة. وكانت كلّ حركاته متباطئة.

ـ في الحق إنّ غرفة العجوز غير مشغولة فإذا كنت تودّين أن تسكني هنا بالذات... فانتقلي إليها... ولكن كلّ شيء هنا متآكل ومحطّم... في موسكو يمكنك أن تنزلي في أي فيلة فارغة...

وتنحى، وترك كاتيا تدخل المطبخ شبه المظلم الذي تكدّس فيه اثاث محطّم. وأشار إلى مفتاح غرفة العجوز المتدلّي من مسمار في الممرّ الملطخّ بالسخام، وانصرف بخطوات بطيئة إلى غرفته (التي كانت من قبل مكتب نيقولاي إيفانوفيتش). فتحت كاتيا بصعوبة باب غرفة محبوسة الهواء لها نافذتان تلطّخت من الخارج بلطخات جافّة، كانت هذه غرفة نومها، وسريرها مايزال في موضعه، وكان صندوق الأدوية المحفور الذي تناولت منه المورفين آنذاك مازال معلّقا على الحائط وعلى صفّاقتيه صورتان باهتتان من الفولكلور الروسي. وكانت المرحومة ماريا كوندراتيفنا قد جلبت إلى الغرفة أحسن ما في الشقّة من أشياء أرائك وكراسي ورفوفيات مكدّسة بعضها فوق بعض ومضعضعة ومغطّاة بنسيج العنكبوت والغبار.

واستولى اليأس على كاتيا. فقد كان عليها أن تبدأ العيش، أن تبدأ الدورة الثالثة من حياتها في هذه الغرفة المكتومة الهواء المكدّسة بالاثاث الزائد عن الحاجة، في موسكو الهائلة الخاوية الجائعة المتلظّية بشمس تموز. جلست على الحشية العرية، وبكت بصمت. كانت متعبة جداً وجائعة. وبدت المصاعب المقبلة والتعقيدات أقوى من أن تتحمّلها قواها الهزيلة. وتذكّرت كوخها الصغير المتداعى الحبيب المعبود بالقرب من المدرسة، والحديقة الصغيرة، والحقل ذا التلال الممتد وراء السياج... المكنسة عند عتبة الباب، وبرميل الماء في الرواق، والضوء المخضوضر

المتسرّب عبر أوراق الشجر إلى النافذة الصغيرة والساقط على دفاتر الأطفال... والأطفال المرحين الطلقاء، وطفلها المفضّل إيفان غافريكوف...

لماذا لم يكن من الممكن أن نبقى هناك مدى العمر؟

نزلت كاتيا من السرير لتجلب لها شيئا من الماء لتبلل الخبز الجاف الذي جلبته من كييف. ولكنها لم تجد حتى قدحا تبدأ الحياة معه! مسحت كاتيا عينيها وقد تملّكها الغضب، وذهبت إلى الرجل الشاحب.

دقّت بابه دقّاً خفيفاً، وقالت بصوت ناعم:

ـ أعذرني، أرجوك. مازلت أضايقك...

سار ببطء وفتح الباب وتفرّس في كاتيا وكأنّما صعب عليه أن يفهم.

ـ أعذرني، أرجوك.. هل لديك قدح؟ أريد أن أشرب ماء.

ـ اسمي ماسلوف، الرفيق ماسلوف، أي قدح تريدين؟

ـ قدحاً زائداً...

ـ حسناً...

وذهب إلى أعماق الحجرة تاركاً الباب مفتوحاً، فرأت كاتيا كتباً كثيرة على رفوف تنوء بها مصنوعة من الخشب غير المسحوج، وكتبا مفتوحة ومخطّطات على منضدة كتابة، وسريرا حديديا بائسا تناثرت الكتب عليه أيضاً، ووساخة على الأرض، وجرائد مصفّرة تغطّي النوافذ. وعاد ماسلوف نحو كاتيا بنفس البطء، وأعطاها قدحا قذرا.

ـ يمكنك أن تأخذيه كليّاً...

في المطبخ وصلت كاتيا بجهد إلى حوض الغسيل الذي تكدّست فيه الفضلات ولكن الماء كان جاريا فيه. غسلت القدح، وشربت الماء بتلذذ، وعادت إلى غرفتها. أرادت كاتيا أن تفتح النافذتين، وأن تغسل قليلا قبل أن تأكل خبزها. ولكنّها وجدت من الصعب فتح الصفاقات الملتصقة. انشغلت كاتيا طويلا. ونبشت، ودقّت على المفاصل برجل مخلوعة كرسي، وزفرت عالياً. وجاء ماسلوف على الضجة، ووقف بعض الوقت ينظر إلى كاتيا بدهشة صامتة:

ـ لِمَ تريدين أن تفتحي النافذتين؟

ـ من الممكن أن يختنق المرء هنا.

ـ أتظنين أن هواء الشارع سيكون أحسن؟ غبار وسخام. والعفونة تتصاعد من كلّ أفنية البيوت... أنا لا أنصحك بذلك استمعت كاتيا لذلك وهي واقفة على إفريز النافذة، وأطبقت شفتيها، وعادت تدقّ برجل الكرسي من جديد لنفرض أنّك ستفتحين النافذتين، ولكن سيتعين عليك أن تسديهما في الليل من جديد... فلا ضرورة لتضييع الجهد...

واستجاب المفصل أخيراً. وثبت كاتيا من إفريز النافذة، وفتحت النافذة، وأطلت برأسها وتنفّست هواء الشارع بنهم.

قال ماسلوف باستغراق:

ـ نعم، نعم. لم نحلّ مشكلة المدينة بعد، واهتزت ركبتاه فجأة، وانطوتا، فتلفت ليجد مكانا يجلس فيه. اتكأ على الباب، ودسّ أصابعه الكبيرة وراء الحبل الذي يحزم رخوا قميصه الجنفاصي المتّسخ وقال ذاب الثلج، وانتشر الوحل وبقيت القاذورات وجثث الكلاب والقطط الميتة، وحتى فطائس الخيول

في الشوارع والأفنية... جرفت الأمطار بعضها، ولكن هذا ليس حلاً للمشكلة...

قاطعته كاتيا:

ـ قل لي، هل الحمام يعمل عندكم؟

ـ لا علم لي به... في أحد الاوقات كان يعيش هنا سمكري... وكان في أيام الآحاد ينشغل في المطبخ والحمام بمبادرة تلقائية منه، ولكنّه رحل إلى الجبهة...

قالت كاتيا بحزم:

ـ من الأفضل أن تنصرف. سأنظف الغرفة بعض الشيء، واغتسل وأجئ إلى غرفتك... قبل كلّ شيء احتاج إلى أن أعرف بعض العناوين... فأنا لا أعرف شيئا في موسكو... أيمكنك أن تساعدني؟

ـ نعم، نعم. اليوم يوم أحد، وسأظلّ طوال اليوم بالبيت...

وسحب جسمه ببطء وانصرف. أدارت كاتيا مفتاح خلفه. لقد كان من المهمّ أن تحتدّ، عندئذ ستشتدّ حمية العمل. خلعت بلوزتها وتنورتها خوفا من أن تلوثهما، وبدأت حملتها ضد الغبار. كانت الخرق متوفرة في مختلف الصناديق بكمّية وافية. نبشت كاتيا ورأت بياضات سريرها مع العلامات التي وضعتها عليها ثم وجدت قمصانها وسراويلها الداخلية، وبعض الأزواج من الجوارب المرفوءة. إنّ ماريا كوندراتيفنا امرأة طيّبة، فقد احتفظت حتى بالأشياء القيمة هذه!.. وبشكل عام كانت العجوز المتوفّاة نهّابة وجشعة... ولكن لابأس... لتسترح عظامها في التراب...

في ذلك المساء أطلع ماسلوف كاتيا على مخطوطاته، بل وقرأ شيئا منها. كانت بحثا تاريخيا عن الاشتراكيّين الطوباويّين

الكلاسيكيّين. قال لكاتيا الجالسة على سريره غير المرتّب:

ـ أيبدو لك غريبا أنّ من الممكن أن يدرس الطوباويون في مثل هذا الوقت؟ الطوباويّة في عهد الدكتاتوريّة البروليتاريّة! أين إذن المنطق الداخلي؟ إعترفي بأنك مستغربة؟

هزت كاتيا رأسها مؤكّدة استغرابها. وكانت لاتكاد تفتح عينيها.

ـ ومع ذلك ففي الأمر منطق... أنا اتوقّف بالتفصيل على محاولات بعض الأشخاص وجماعات صغيرة في منتصف القرن التاسع عشر في تطبيق الأفكار الطوباوية. وهذه صفحة من أطرف صفحات تاريخ الحركة الاشتراكية...

واستدار عن كاتيا ليحجب عنها ابتسامة ساخرة كشف عن أسنانه الصغيرة.

ـ ولكنّني مضطر إلى الكتابة في أيام الآحاد فقط. فأنا مثقل بالعمل في لجنة المنطقة الحزبية، ونحن قليلون إذ لم يبق في موسكو غير عدد ضئيل من الحزبيّين... وأنا لم أعف من التعبئة للجبهة إلا بسبب صحّتي الضعيفة للغاية... أنا منهك جسمانياً ومعنوياً...

وعلى الرغم من اعتلال صحّته وضموره الظاهري التام فقد كان على قدر كاف من النشاط. في اليوم التالي اصطحب كاتيا إلى مفوّضية الشعب للتعليم، وعرّفها بالرفاق الضروريّين لها، وساعدها في التسجيل والحصول على بطاقات التموين. ولولاه لضاعت كاتيا تماماً في المفوّضية الضخمة بأقسامها المتعدّدة ومكاتبها ورؤساء الأقسام لاسيّما وأنّ روح القلق والنفور من الروتين كانت تدفع المستخدمين مرّة في الأسبوع على الأقل من

مكان إلى مكان، ومن طابق إلى طابق مع مكاتبهم ودواليبهم وأرشيفاتهم، بل وتغيّر النظام الداخلي للتبعية والإرتباط والمسؤولية.

حصلت كاتيا في الحال على وظيفة معلّمة في مدرسة ابتدائية في منطقة بريسنا. وفي المكتب الآخر سجّلوها في عمل إجتماعي مجّاني في الدورات المسائيّة لمحو الأميّة. وفي المكتب الثالث أمسك بها رجل نحيل للغاية ذو بشرة زيتونية وعينين هائلتين محمومتين، وقادها عبر الممرات والسلالم إلى قسم الدعاية للفن. وأضافوا لها هناك محاضرات خارجية في المصانع. وقال لها الرجل ذو البشرة الزيتونية:

ـ سنحدّد مضمون المحاضرات فيما بعد. ستقدّم. لك الأدبيّات المناسبة والخطّة. ولا حاجة إلى الفزع. فأنت امرأة مثقّفة، وهذا يكفي. مأساتنا أنّنا لا نملك غير عدد ضئيل جداً من المثقفين، فإنّ نصف المثقفين يقومون بأعمال التخريب. وسيندمون على ذلك كثيراً؛ والآخرون ابتلعتهم الجبهة. إن مجيئك ترك انطباعا طيّباً جداً لدى الجميع...

وأخيراً، وفي أحدى الممرّات التقى بكاتيا رجل مكتنز شديد الحركة كليّاً ذو شفتين غليظتين يرتدي بلوزة من قماش الشيت مخضرّة عن الإبطين.

ـ هل انت ممثّلة؟ أشاروا لي عليك الآن تكلّم بعجالة، ودون أن يلقى بالاً إلى جواب كاتيا بأنّها معلّمة طوّق كتفيها بذراعه، وقادها عبر الممر قائلاً سأضمك إلى فريق ترفيه متنقّل. ستسافرون إلى الجبهة في عربة خاصة، ولدى خروجكم من موسكو ستحصلون على كمّية غير محدودة من الخبز والسكر

وأحسن زبدة... البرنامج، اها! بقوامك هذا يمكنك أن تغنّي وترقصي، وسيصفّق لك مقاتلو الجيش الأحمر... أرسلت إلى الجبهة البروفيسور تشيبوتيكين، وهو في الستين من العمر، وهو كيمياوي أو فلكي. وهل أعرف؟ الآن يسمّونه "ملك فريق الترفيه" وهو يغنّي المثانى من بيرانجيه... يمكنك ألاّ تشكرينني، أنا مجرّد متحمّس...

- إسمع! صاحت كاتيا، وقد تحرّرت من تحت ذراعيه عندي مدرسة ومحاضرات ومحو أميّة... لا تتحمل قواي الجسديّة...

- ما يعني قواك الجسديّة؟ وهل تتحمّل قواي الجسديّة؟ شاليابين أيضاً لا تتحمّل قواه الجسديّة. ومع ذلك فقد حصلت له على صندوق من زجاجات الكونياك، وهو الآن يسأل بنفسه أنْ يرسل إلى الجبهة. حسناً، فكّري في الأمر... سأجدك...

سارت كاتيا إلى البيت مثقلة بالمسؤولية. كانت الريح الحارة تعصف في الشوارع الخالية فتدير دوّامات من الغبار والأوراق على الرصيف المرصوف بالحجارة. انعطف إلى بولفار تفيرسكويه. وأخذت تحسب لتجد هل سيكفيها الوقت إذا نامت ست ساعات؟.. يعني ستبقى ثماني عشرة ساعة... قليلة! ساعات الدروس في المدرسة، وتصحيح الدفاتر، وتحضير الدروس ليوم الغد... ولمحو الأميّة ساعتان على أقلّ تقدير... يا إلهي، والسير ذهابا وإياباً؟ وإلقاء المحاضرات والذهاب إلى هناك وطريق العودة؟ ثم يجب الإعداد للمحاضرات... ثماني عشرة ساعة لا تكفي!

جلست كاتيا في البولفار، وخيّل إليها أنّها تجلس في نفس

المكان الذي التقت فيه هي داشا ببيسونوف العام ١٩١٦، وقد سار معفّراً بالغبار كلّياً لايكاد يجرجر قدميه. يا للبلاهة! إنّ امرأتين لا تصلحان لشيء ولم تكونا تعرفان ماذا تفعلان بالوقت الفائض، مرّتا بمأساة مجهولة الهوية حين حيّاهما بيسونوف وكأنّه خارج من أحد قصائد بلوك: "ما أعجب أن يتحرك الميت بين الأحياء متظاهراً بالحياة وجيشان العاطفة!" ومرّ بهما ببطء، فشيّعتاه بنظريهما، وبدا لهما بائساً بشكل خاص بنطلونه شبه العسكري الذي لاح وكأنّه سيسقط عنه...

يجب أن تنام أربع ساعات، وتأخذ كفايتها من النوم في أيام الآحاد. ثم سيكون عليها أن تقف في طوابير الطعام! أغمضت كاتيا عينيها، وأنت... حرّكت الريح خصلات الشعر على رقبتها النحيلة، وضجّت الأوراق بقوّة على شجرة الزيزفون العتيقة فوق رأس كاتيا... وعلى هذا الضجيج كفّت كاتيا أخيراً من تعذيب نفسها بمشكلة كيف لها أن توفّر أكثر من أربع وعشرين ساعة في اليوم الواحد. لابأس، ستدبّر أمرها على نحو ما!... ودارت أفكارها حول هذا التغيّر الغريب الذي حدث فيها، والذي ما انفكّ يمدّها بالدهشة والفرح. حالما قالت: "لا.." وهي تنظر في وجه الكسي المغتاظ واضعة علباءها على جدار الموقد بدأ يشيع فيها توقّع هادئ واثق لسعادة جديدة في حياتها. وقد أحسّت بقليل من هذه السعادة في الربيع: في كلّ مساء قبل أن تنام كانت تتذكّر اليوم المنقضي فلا تجد فيه شيئا مظلماً مقبضاً للنفس. وأعجبت كاتيا بنفسها. وها هي الآن تتوهّم الفزع واليأس بشكل مبالغ فيه، وكأنّ من المستحيل أن تنهض بالاعباء الاجتماعية... المسألة تختلف تماماً: إن القطيطة البائسة الملتقطة تنقلب بين عشيّة

وضحاها إلى مخلوق مهمّ، بل وصار الناس على ما يبدو محتاجين إلى كاتيا، وكان الرفيق المسؤول ذو الوجه الزيتوني والعينين الجميلتين جداً يتحدّث معها باحترام كبير... وكان عليها أن تكون على مستوى من المسؤولية في هذا كلّه، فسيكون فظيعاً لو قالوا في مفوّضية الشعب للتعليم: "ونحن وضعنا أملنا فيها..." إنّ الأمر في موسكو يختلف كليّاً عن الجلوس في عربة تسير وراء عربة ألكسي مهتزّة في السهب وهي تقضم قشّة وتفكّر: "ما الذي يجديه لك جمالك، أيتها الأسيرة؟"

طلب ماسلوف من كاتيا أن تقدّم تقريراً مفصلاً. وعندما نقلت له الحديث مع الرفيق ذي الوجه الزيتوني تجمّع خد ماسلوف الأيمن في غضون مركزة لابتسامة ساخرة معوّجة. وأشاح وجهه عن كاتيا قائلاً:

ـ نعم، نعم. مأساة المثقّفين هي نصف المصيبة... هناك ما هو أكثر مأساوية منها.

افتتحت كاتيا المدرسة في أول آب. وجاءت بهدوء صبايا صغيرات حافيات لهن ضفائر شدّت بخرق أو قطع من الخيوط السميكة، وصِبْية حليقو الرؤوس كليّاً في قمصان ممزّقة، وجلسوا على المقاعد بهدوء أيضاً. وكانت وجوه الكثيرين شفافّة تبدو شائخة من النحول.

قضت كاتيا اليوم الأول كلّه في التعرّف على الأطفال والجلوس معهم على المقاعد، والإستفسار منهم ودعوتهم إلى مبادلة الأحاديث. وكانت لها تجربتها غير الكبيرة في إثارة اهتمام الأطفال في أقصر وقت ممكن. كانت تتناول كتابا وتفتحه وتقول: "هذا كتاب. صفحات بيضاء وحروف سوداء، وسطور رمادية.

مهما تمعّنتم النظر فيه لن تجدوا شيئا آخر. ولكن إذا تعلّمتم القراءة والكتابة ثم عرفتم التاريخ والجغرافية والحساب، وأشياء كثيرة أخرى فإنّ الحياة تدبّ في هذا الكتاب فجأة...»

وتذكّرت كيف كان الفضول يلتمع في عيون الصبايا والصبيان في مدرسة قرية فلاديميرسكويه. وكانت تتحدّث بانجذاب شديد عن «القيصر سلطان»(١٩):

«ها أنت قد بدأت بالتعليم أ ب ت، ثم كتابة الحروف على اللوحة، ثم أخذت تتهجي الكلمات ثم القراءة بصوت عال بالتأكيد كلمة وراء كلمة من البداية حتى النهاية... وفجأة في أحد الأيام السعيدة تأخذ السطور بالإختفاء أمام عينيك، فترى بدلاً منها بحراً أزرق وموجة زاحفة على الساحل، وتسمع حتى تسكر الموج على الساحل، حينذاك يخرج من زبد البحر أربعون عملاقاً في دروع حديدية وخوذاً مرحين مبلّلين ومعهم رجل ملتح هو تشيرنومور...»

وكانت تشعر وهي تتحدّث هنا، في حيّ بريسنا، أنّ كلماتها تبدو وكأنّها لا تقع في آذان الأطفال بل تذبل بوحشة في الصف، حيث نصف مربّعات النوافذ قد رُكِنَتْ بخشب الابلكاش، والطبقة الخارجيّة للجدران قد تساقطت حتى لاح الآجُر. وكانت الصبايا بأيديهن النحيلة جداً بحيث يمكن إمرارها باسطوانة من فوطة الطعام، والصبيان بغضونهم الصغيرة وكدماتهم يصغون بهدوء فلا ترى في عيونهم غير التسامح... فقد كان الجميع يفكّرون في شيء آخر.

---

(١٩) القيصر سلطان هو بطل «حكاية القيصر سلطان» لبوشكين (١٨٣١) الناشر.

في فترة الإستراحة الكبيرة كان الأطفال يخرجون إلى الفناء، ولكن بضع فتيات فقط كن يقفزن على رجل واحدة ملقيات الحجارة، وصبيّين فقط يدبّران شكسا. أما الغالبية فكانت تجلس في ظلّ السياج حيث نما الارقطيون، وتظل جالسة هناك ولا أحد منهم قد جلب معه طعاما. فقد كانوا جميعاً أبناء وبنات عمال يعيشون في ذلك الحي، والكثيرون من آبائهم قد خرجوا إلى الجبهة. ألقى أحد الاطفال يديه على الأرض، وحدّق في السحابة المخيّمة على بريسنا كالدخان. جلست كاتيا على مقربة وسألت بلهجة حادة:

ـ أنت ميتيا بتروف. أليس كذلك؟

ـ اها.

ـ أين يعمل بابا؟

ـ بابا في الحرب منذ زمن.

ـ وماما؟

ـ ماما في البيت، مريضة.

ـ وهل يكتب بابا من الجبهة؟

ـ لا.

ـ ولماذا لا يكتب؟

ـ لا شيء يكتب عنه... الأخبار المفرحة قليلة... عندما رحل قال لماما: سأقتل عشرة جنرالات جزاء على مرضك من جرّاء الكدّ. إنّه جرئ للغاية.

ـ ماذا تريد أن تكون حين تكبر؟

ـ لا أدري... ماما تقول أنّنا لن نعيش هذا الشتاء...

كانت جحافل البيض تزحف على موسكو، وكان الخريف يزحف بسرعة أكبر. وتألّقت الأيام الذهبيّة في بواكير الخريف، ثم هبّت ريح عنيدة من الشمال تسوق السحاب بقطعان حالكة.

ولم يكن في المدرسة ما يُدفأ به. ذهبت كاتيا لزيارة ذى الوجه الزيتوني في مفوّضية الشعب للتعليم لتشتكي له. فاكتفى بان هزّ رأسه دون أن يصرف بصره عن وجه كاتيا الحلو. "أفهم، يا كاترينا ديميترييفنا، قلقك وأقدّر حرارتك، ولكن نقص الوقود سيكون فظيعا في هذا الشتاء. وعدوا مفوّضية الشعب للتعليم بتقديم الحطب. ولكن الحطب في ولاية فولوغدا ويجب نقله من هناك بالعربات... وعلى العموم تكلّمي في الموضوع واضغطي حيثما يمكنك ذلك..."

ولكن الأطفال يأتون إلى المدرسة مزرقّين مبلّلين في معاطف خفيفة، أو في ستر أمهاتهم التي لا تصلح الا لتعليقها في الحدائق لتخويف الطيور حتى أنّ كاتيا قرّرت أخيرا اللجوء إلى طريقة النهب الصريحة، وعيّنت يوم عمل تطوّعي لتحطيم الاسيجة. وفي مساء داكن وتحت ضجيج الريح العاصفة قام حارس المدرسة وهو عجوز أصمّ ذو رجل خشبيّة، وكاتيا، والأطفال (الذين جاؤوا جميعاً تقريباً) بتحطيم الأسيجة، وحملوها جميعاً إلى رواق المدرسة. ونشر العجوز الخشب، وفي الصباح كانت غرفة الصف دافئة رطبة، وخرج البخار من الجدران الرطبة، وجلس الأطفال بشوشين، فحدّثتهم كاتيا من منصّتها عن الطاقة الشمسية (وكانت هي نفسها لم تعرف بذلك إلاّ يوم أمس من الكتاب المفيد "قوى الطبيعة").

ـ كلّ ما ترونه، يا أطفال: هذه المنصّة، وتلك المقاعد

والنار في الموقد، وأنتم أنفسكم، من الطاقة الشمسّية.. إمتلاكها هي مهمّة الإنسانية... ولهذا الغرض يجب أن يتعلّم الانسان ويتعلّم، ويناضل ويناضل... والآن لنتحوّل إلى درس اللغة الروسية... ان اللغة الروسية هي أيضاً طاقة شمسية، ولهذا يجب امتلاكها جيّداً...

وكان الأطفال في فترات الإستراحة يروون لكاتيا مختلف الأخبار. فقد كانوا يعرفون ما كان يجري في حي بريسنا في موسكو، وحتى عند اللوردات وراء الحدود. واستنبطت كاتيا الشيء الكثير من هذه الحكايات. وهكذا عرفت قبل أن تعرف من الصحف عن الثغرة التي أحدثها البيض عند أوريل التي أخذ الجرحى يصلون منها. وذهبت صبيّتان إلى عائلة ميكولين لغرض تقصّي الأخبار حيث سمعتا أن ستيبان ميكولين الخراط قد عاد من توه إلى بيته وقد ثقب الرصاص جسده. رفع المسكين جسده على السرير قليلا وكان الأطباء قد ألزموه إلزاماً قاطعاً بالاستلقاء على السرير وسمعته الصبيتان بآذانهما يصرخ في حضور زوجته وأمه بصوت موحش:

ـ عندنا خيانة في الجبهة، خيانة! اعطياني ورقا وحبرا لأكتب لفلاديمير ايليتش لينين! إنّ أفضل البروليتاريّين ينزفون دماً، وتغطّيهم الأرض الرطبة، ولكنّهم لا يريدون أن يسلّموا موسكو للجنرال الأبيض... لسنا الملومين في سقوط أوريل، بل الخيانة.

وحين سمع ميتيا بتروف بحكاية الصبيتين امتقع لونه فصار بلون الحائط المجصص، واتسعت عيناه معذّبتين حتى أنّ كاتيا جلست إلى جانبه على مقعده، وضمت رأسه إلى صدرها، إلا أنّه حرر نفسه صامتا، فلم يعد مكترثا بالتسرية والمداعبة.

هطل المطر غزيرا لعدة أيام، وبدت بريسنا غاطسة إلى الركبة بوحل سائل بلون كامد. وكان الأطفال يأتون مذهولين تماما من الإشاعات المريعة التي كانت تنتشر في المدينة كالطاعون. وكان من الصعب حمل الأطفال على تركيز أذهانهم على الدروس. لم تحضر الفتاة الصهباء كلافديا الجمع والطرح فانفجرت باكية بمرارة في منتصف درس الحساب. دقت كاتيا منصّتها بالقلم:

ـ كلافديا، اضبطي نفسك حالاً.

ـ لا اقدر. يا ع... م... ة... كا... ت.. يا...

ـ ماذا حصل؟

أجابت الفتاة بصوت فيه حشرجة:

ـ تقول ماما: على أية حال لا جدوى لك من تعلّم الحساب، يا كلافديا...

ـ ما هذه البلاهة! أمك لم تقل ذلك البتّة.

ـ لا، إنّها قالت: لا فرق في الأمر. خرجت من الوحل وستعودين إلى الوحل.. الضباط سيدوسوننا جميعا بخيولهم...

عند هبوط الظلام ذهبت كاتيا إلى دورة محو الأميّة منسلّة في درب ألصق ما يكون بالأسيجة لكيلا تبلّل قدميها قدر الإمكان، وتوقّفت بيأس عند مفترق طريق غير عارفة كيف تعبر الشارع. في ذلك المساء لم تأت أية امرأة من بين النساء العشر التي كانت تعلّمهن في شقة العامل تشيسنوكوف الذي أرسل إلى الجبهة قبل فترة قصيرة ليكون مفوّضاً. قالت لها زوجته التي تزوّجته قبل ستة أشهر، وهي الآن حبلى ونحيفة للغاية تنتشر البقع الصفر على وجهها كلّه:

ـ توقّفي عن المجيء إلينا وانتظري قليلاً. مالنا ولهذا الأمر الآن!... ثم أنّ ذلك سيكون أفضل لك.

وأطلعت كاتيا على رسالة صغيرة لزوجها من الجبهة: "لوبا، هيئي أمرك إذا استولوا على تولا، فإنّنا لن نتخلّى عن موسكو إلا عبر آخر جثة... أكتب لك على عجل مع شخص ذاهب إلى موسكو... ربّما يأتي إليك ضابط هو الرفيق روتشين، كوني على ثقة به. سيخبرك بكلّ شيء ولطيف لو يسمعه رفاقنا... وليساعدوه إذا احتاج إلى شيء. أنا رغم كلّ شيء حي ومعافى، وقد تعلّمت ركوب الخيل، وذلك ما لم يخطر على بالي البتّة."

ـ نحن في انتظار الرفيق روتشين هذا. ولا أدري لماذا لا يأتي قالت زوجة تشيسنوكوف وهي تنظر إلى النافذة المبلّلة عندئذ تعالي واستمعي.. سأرسل صبيّة لتستدعيك... مَنْ روتشين هذا، لعلّه زوجك؟

أجابت كاتيا:

ـ لا، زوجي قتل منذ زمن.

ولدى عودتها إلى بيتها أشعلت النار في الموقد الحديدي الصغير بمدخنته المتّصلة بفتحة في نافذة التهوية كان يسمّى "النحلة" لأنّ هذه المواقد المسمّاة بهذا الإسم كانت كالنحل تئزّ حين تشعل بقطع الخشب وقد صنعه عمال بريسنا، ونصبوه بأنفسهم في حجرة كاتيا، مفترضين أن معلمتهم ستكون اكثر مقدرة على العمل إذا نامت في غرفة فيها شيء من الدفء. خلعت كاتيا حذاءها المبلّل وجوربها وتنورتها الملطّخة بالوحل، وغسلت قدميها في ماء شديد البرودة، ولبست ملابس جافة، وصبت الماء في السخان ووضعته على "النحلة" وأخرجت من

جيب معطفها قطعة من الخبز الرمادي الخشن وقطعتها إلى قطع صغيرة ووضعتها على فوطة نظيفة إلى جانب كوب الشاي وملعقة فضّية. وقامت بكلّ ذلك وهي في ذهول. وحين انصفق باب المطبخ وتردّدت في الدهليز خطوات ماسلوف الشاحطة البطيئة بشكل لا يحتمل، سارت كاتيا ودقت باب غرفته.

ـ اها! احتراماتي، يا كاترينا ديميتريفنا. تفضّلي أجلسي. طقس شرير... بينما أراك تزدادين ملاحة.. نعم...

ولسبب ما كان مغتاظاً في ذلك المساء بشكل غير مألوف وحين سألته كاتيا: ما الذي يحدث ولماذا هذا الفزع في كلّ مكان؟ لم يشح بوجهه عنها، ورسم على شفتيه الرقيقتين ابتسامة من اكثر ابتساماته الهازئة سخرية:

ـ يهمّك أن تعرفي الأخبار الحزبية أم شيئا آخر؟ الجبهة؟ رجالنا يضربون. وماذا يمكنني أن اقول لك بعد؟ يضربون! أما في موسكو فهناك مزاج تفاؤلي بشوش، كما هو دائما... تعبئة عامّة للشيوعيّين ضد دينيكين... وفي بتروغراد تفتيشات عامة في الأحياء البورجوازية. واتخذ قرار بإغلاق جميع المعامل والمصانع بسبب نقص الوقود... ثم الخبر الأخير المشجّع كلياً: أعلن عن إعادة تسجيل البطاقات الحزبية، أي التطهير الشامل... وبهذه الطريقة نحسب أنّنا سننتصر على دينيكين ويودينيتش، وكولتشاك...

وجرجر قدميه في الغرفة التي تناثرت فيها أعقاب السجائر، وقد تدلّى شريطاً سرواله الداخلي المحلولان على رسغيه من تحت بنطلونه المبلّل القذر... كان أثناء سيره يطقطق بسلاميات أصابعه طقطقة موهنة بسبب رخاوته. وكرّر بصوت هازئ:

ـ وبهذه الطريقة نحسب أنّنا سننتصر. طبيعي أنّ هذا كلّه غير

مفهوم لك... ولا غرابة في أن يكون غير مفهوم لك... والأغرب من ذلك بكثير أن يكون غير مفهوم لي أيضاً... أنا لا أفهم شيئاً بعد الآن... الاشتراكية تقام على قاعدة من الحضارة الماديّة... الاشتراكيّة أعلى شكل لإنتاجية العمل.. نعم. ومن الضروري وجود طبقة عاملة عالية التطوّر كثيرة العدد؟ وكيف لا! لقد قرأنا كارل ماركس، قرأناه بتمعّن... لا بأس، سنشغل أنفسنا بإعادة التسجيل... ما تزال لنا فضلة من قوة...

وهكذا لم تعرف كاتيا منه شيئا ذا جدوى. وفي مفوّضية الشعب للتعليم، حيث ذهبت في اليوم التالي لتتلقّى التعليمات كان هناك تيار من الهواء البارد في الممرّ الرئيسي، وذلك شيء لم يحدث من قبل البتّة (فلعل نافذة تحطّمت أو فتحت عن عمد) ومع ذلك كان المستخدمون يجتمعون في كلّ مكان في جماعات متهامسة. ولم تجد كاتيا طائلاً من تنقّلها من غرفة إلى اخرى، إلاّ أن مستخدمة واحدة فقط أبلغتها، وهي تخفي أنفها في ياقتها المحكوكة من فرو الظربان:

ـ لعلّك مازلت نائمة، يا مواطنة، فلا تعرفين أن من المحتمل أن نجلو إلى فولوغدا.

ثم حدث تغيّر حاد فجأة. في الصباح، وحالما تنوّرت الدنيا، هرعت كاتيا إلى المدرسة. وفي شارع سادوفيا اضطرت إلى التوقّف والإنتظار. مرّت فصائل مسلّحة من العمال على الوحل المتحجّر محطّمة البرك المتجمّدة تحت أشجار الزيزفون الضخمة الجرداء والريح تُعْوِل فيها كما تُعْوِل في الشتاء. ومرّت وراءهم عربات ثم طوابير أخرى متكاثفة الصفوف تسير ببطء، وكأنّها تحت تعويذة من السحر. وهنا وهناك كانت أصوات خشنة

ناشزة تنشد "النشيد الأممي". وكانت قطع القماش الحمراء التي يحملونها قد كتب عليها بعجالة وبحروف معوّجة: "الجميع إلى النضال ضدّ عصابات ينيكين البيضاء!" "عاشت الثورة البروليتارية في جميع العالم!"، "الموت للبورجوازية العالميّة!". وظلّت الطوابير تتابع طالعة من ظلمة صباح غائم. حدّقت كاتيا في تلك الوجوه غير الحليقة النحيلة المرهقة الداكنة، وبدا وكأنما انطبع على عيونهم وشفاهم المطبقة تماماً تعبير واحد عن عذاب مقهور وتصميم وإرادة لا تغلب...

وفي المدرسة ما لبث الأطفال حتى قصّوا الأخبار لكاتيا: بالأمس كان لينين في المصنع الميكانيكي في بريسنا، وبدأ أسبوع الحزب[٢٠].

على مسافة غير بعيدة عن فورونيج انضم فيلق كوبان تحت قيادة شكورو إلى فيلق مامونتوف. فأضحى لمامونتوف ست فرق خيّالة مقابل فرقتين لدى بوديوني. توقّف مامونتوف وأخذ ينتظر بوديوني. كان مامونتوف حذرا. خصّص جزءاً من القوات لتعزيز الدفاع عن فورونيج وإعادة تنظيم الفيلقين وشكّل منهما ثلاثة طوابير واختار موقع المعركة الذي ستطوّق فيه خيالة الحمر وتباد

---

(٢٠) نظراً لهجوم دينيكين على الجبهة الجنوبية (ايلول ١٩١٩) وتمشّياً مع نداء لينين "كلّ شيء للنضال ضد دينيكين!" صادق الاجتماع الموسّع للجنة المركزيّة للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) على اقتراح لينين الداعي إلى توجيه الحدّ الأقصى من العاملين الحزبيّين إلى الجيش. فأرسلت اللجنة المركزيّة زهاء ٣٠ ألف شيوعي. وأعلن أسبوع الحزب لملء صفوف الحزب. فلقي نجاحا هائلا. في مناطق البلاد الوسطى وحدها انضمّ إلى الحزب أكثر من ٢٠٠ الف عامل وفلّاح. وكان ذلك نجاحا جبّارا للحزب، أظهر بسطوع أنّ جماهير الشعب تسير وراء الشيوعيّين. الناشر.

وكان حقلا شاسعا ينتهي بسدّة خطّ حديد يسير عليه قطار مصفّح كالسلحفاة الفولاذية ذات مدافع من ست بوصات.

كان بوديوني جريئا وشديد الإحتراس في الوقت ذاته. وقد تلقى معلومات مفصّلة عن جميع استعدادات الجنرال مامونتوف ومناوراته... كانت إحدى الفتيات الصغيرات تُخفي تحت منديل رأسها تحت الضفيرة مذكّرة بخط مخربش أو إحدى العجائز المسكينات تحمل كيساً لقطع الفضلات تعبران نقاط حراسة البيض وما أقل من تغوية فتاة فقيرة أو عجوز يعافها أي قوزاقي باشمئزاز وتتصلان برجال بوديوني للاستطلاع وتقدّمان لهم المعلومات.

توقّف بوديوني بين الغابة والمستنقعات دون أن يتقدّم إلى الحقل العريض الذي عيّن لهلاكه. وأمر بأن تطعم الخيول حتى الشبع، وأن تفحص حدواتها جيّداً (كانت الحدوات مدقوقة في قوائم الخيول الأمامية). وأمر بأن تستكمل عدة الذخيرة وأن تستبدل عصيدة الدخن التي ضجر المقاتلون منها، وأن يقدّم لهم اللحم المملّح مع الفول، والحليب المعلّب المحلّى والبسكويت المسكر من مختلف الأنواع، والتبغ العبق لينعموا حول النيران. وكلّ ذلك قد لخذ من "الترسانة" وهو الإسم الذي اطلق على طوابير عربات البيض الثرية. وكانت في تلك الآونة تخرج ليلاً ونهاراً من فورونيج إلى مامونتوف. وكان سميون بوديوني حريصاً بشكل خاص على الإستيلاء على البنادق اليابانية الجديدة لتستبدل بها، حسب الإمكان، البنادق القديمة التي استهلكت في المعارك، وعلى أدوات الكتابة أيضاً.

وبالاحتماء بالغابة والمستنقعات كان من الممكن أن يأخذ

المقاتلون قسطاً وافياً من النوم قبل العمليّة الخطيرة. ولكن هذه العمليّة الاشتباك بالسلاح الأبيض مع ستّ فرق من فرق الدون بدت للمقاتلين خطيرة جداً حتى أنّ القليل منهم أخلد للسكينة. فنظّفوا خيولهم تنظيفاً لامعاً جداً، لا تنظيفا عابراً وأصلحوا السروج، وشحذوا السيوف. ولم تسمع في الوحدات أغان ولا أكورديونات، وجرت أحاديث عميقة المعاني. وحين تقع أبصارهم على المفوّض يلوحون له قائلين "تعال هنا، يا شيوعي.. قل لنا أيها الرفيق العزيز.. إذا قضينا على مامونتوف فهل نستولي على فورونيج، فإنّ لهم هناك ثروة لا تخطر على بال..." وكان المفوّض يردّ بأن سميون بوديوني لم يصدر أمراً حتى الآن بخصوص فورونيج. وعند ذاك كانت المناقشات تبدأ: هل تستطيع الخيّالة الاستيلاء على منطقة محصّنة؟ فكان بعضهم يقول: ممكن بالحماس الشديد، والبعض الآخر يؤكّد ان ذلك مخالف لكل احتمال.

كانت كوكبة تليغين المكلّفة بواجب الحراسة تتّخذ مواقعها عند حافة مستنقع. وإلى الجنوب حقل كانت تلوح فيه دوريات البيض بين الآونة والأخرى. وكان معروفاً أنّ أحد طوابير مامونتوف الثلاثة يتجمّع في تلك الناحية. وفي المساء كانت السحب تعكس وميضاً خافتاً لنيرانهم.

في هذه الكوكبة أيضاً كانت تدور أحاديث كثيرة حول المعركة المقبلة التي حشدت لها من الخيّالة هذه الحشود الجبّارة الضخمة على نحو لا مثيل له. وقد ذكر فارس قديم يدعى غوربوشين أنّ معركة واحدة مثل هذه قد وقعت في العام ١٩١٤ قرب برودى، إذ هاجمت فرقة خيّالة نمساوية مؤلّفة من أربعة

أفواج فرقة خيّالة خفيفة روسيّة هجوماً محنقاً ولكن النمساويّين بعد هذه المعركة سحبوا كلّ خيالتهم إلى المؤخّرة... قال الفارس القديم: قد هاجموا من الأعلى، من تلّ يريدون أن يحصروا جماعتنا في واد. إلاّ أنّ رجالنا خرجوا للقائهم من الوادي إلى التل، وعلى كلّ جناح أربع كوكبات من الخيالة القوزاق من حملة الرماح، والآخرون في الوسط حاملين الرماح والفرسان الاختيريون (الهوسار) بقبّعاتهم ذات الأشرطة الصفراء والحواشي الصفر لبزّاتهم وقد كانوا فرساناً جسورين! ثم يدرك رجالنا أن النمساويّين لن يستطيعوا أن ينعطفوا بخيولهم من التلّ بتلك السرعة. وحين بدأوا يقتربون منّا، بوغتوا بموجة من العرامة من جانبنا لم يكونوا يتوقّعونها فحاولوا إيقاف خيولهم، ولكن الوقت قد فات! وهاجمهم رجالنا بالرماح من الأسفل ممّا يسهّل الأمر. نصيب نمساوياً برمح ونتركه، ثم ننطلق مخترقين صفوفهم، ونتحوّل ونطعن بالسيف، ليس على الكتفين فقد كانوا يضعون صفائح فولاذية تحت الشارات على أكتافهم بل في خطٍّ مائل على جذوعهم... وهكذا خلّف الأفواج الأربعة مطروحة في التل مطعونة مغروزة بالرماح في الأرض. شيء فظيع!

كان لاتوغين يتضايق حين يتحدّث شخص بحضوره بشكل جذاب، فقاطع المحارب القديم هذا:

ـ اها، كان وما أكثر ما كان. إنّها مجرّد صدفة..ز ولكن حدّثنا كيف استولى ثلاثة من رجالنا الحمر على كتيبة ألمانية... لا تعرف؟ اها! كان يجب عليك أن تعرف...

ـ هيا، حدّثنا، يا لاتوغين.

تردّدت أصوات بذلك. فركع على ركبتيه قرب النار، ولصق

جمراتها التي اضاءت وجهه الناحل الذي لم يبق فيه غير العروق بعد ثلاثة اسابيع من التقلّب على السرج. وكان تليغين منذ البداية قد سجّله في كتيبة المقر مع غاغين وزادويفيتر، وخلال شهرين امتلأت خدودهم بعض الشيء، وهم الآن فرسان في الكوكبة.

ـ كان معنا في الجيش العاشر رجل يدعى لونكا شور لا تكاد تجد مثيلا له في الطعن حتى ولو أحسنت التفتيش بدأ لاتوغين حديثه، وقد وضع يديه على مقبض سيفه الذي انغرست نهايته في الأرض ـ في الخريف الماضي، وقبل أن يخرج من لواته الأوكراني، طلع في دورية استطلاعية مع رفيقين له. وبينما هم سائرون ودون أن يخطر لهم على بال اصطدموا بالالمان، وبكتيبة كاملة منهم لا أكثر ولا أقلّ. انزوى الألمان في مكان قصي يطبخون لهم حساء....

قال أحد المستمعين:

ـ ما هذا الكذب! ألماني يطبخ حساء في مكان قصيّ..

ألقى لاتوغين نظرة ثقيلة على هذا الرجل:

ـ هل أشرح لك لماذا كانوا يطبخون الحساء؟.. حسنا.. كان الألمان في طريقهم إلى وطنهم، فقد قامت ثورة هناك... وفي أوكرانيا هبّت جميع القرى في تلك الانحاء ونصبت الرشاشات في كلّ مكان، وقطعوا الطرق، فجاع الألمان... هل فهمت الآن؟ وقبل أن يستطيع الألمان أن يتهيّأوا للقتال، أخرج لونكا من حقيبته قطعة نظيفة من لفافة الساق، وغرزها بالسيف، وسار نحوهم بجراأة قائلا "استسلموا. أنتم محاصرون بقوّة كبيرة من الفرسان، ونحن لا ننوي حتى تلويث سيوفنا بالدم، بل ندوس عليكم بخيولنا..." وكان بينهم مترجم ترجم لهم هذه الكلمات.

ردّ آمر الكتيبة، وهو ألماني ركين برتبة ضابط صف، رد على لونكا: "أشكّ في صحة كلماتك..." فقال له لونكا: "أنت محق في شكّك. امتط حصانك ولنذهب إلى مقر الأركان، وهناك سنقترح عليك شروطا معتبرة..." تشاور الألمان فيما بينهم بشكل جديّ، وقال الآمر "لابأس، سنخرج ثلاثة مقابلك، وفي حالة اكتشاف تحايل منك، سنقتلك في الطريق.." قال لونكا له "تفضّل، لن يكون هناك أيّ تحايل. أنت تتعامل مع مقاتلي الثورة..." وخرجوا، ووصلوا إلى مقرّ الأركان. وتبدأ المفاوضات مع الألمان. ويطالبون بالسماح لهم بالمرور على السكة الحديد، وبإعطائهم خمسة وعشرين بودا من الدخن. ويطالب رجالنا بأن يسلِّم الألمان أسلحتهم ومدفعين. ويعاند الالمان، ويعاند رجالنا. ولونكا يحضر طوال الوقت ويقول "أيها الرفيق آمر اللواء، إنهم جياع، ولهذا السبب يصعب الاتفاق معهم.. دعني أحرّضهم. أطلب لهم شيئا من لحم الخنزير الجيد وخبز القمح" أما عن الخمرة فإنّ الشيطان لم يذكرها بشكل رسمي، فقد كان مدير الميرة صديقه الحميم، فاقتطع منه ربع جردل. وجلس مع الألمان في أحد الأكواخ، وقطع شحم الخنزير والخبز، وصبّ الكحول في قدح، وبدأ يتحدّث عن هذا وذاك: كيف أنّ الناس عندنا في أوكرانيا يأكلون ويشربون بشكل جيّد، ثم أنّ الشعب بشكل عام يميل إلى التعاطف. ومدح الألمان أيضاً لأنهم أطاحوا بغليوم. وعلى الرغم من أنّ حديثهم كان يجري بلا مترجم في هذه المرة فأنّ الألمان فهموا كلّ شيء. ربت لونكا على ظهورهم بقبضته بطريقة ودّية، وأمسك آذانهم، وقبّلهم. وبعد قليل لم يبق وراء المائدة غير اثنين: هو وآمرهم ضابط الصفّ. لونكا يبذل كلّ

جهده، والألماني يكتفي بالضحك وهزّ الأصبع... وجاء رسول من مقرّ الأركان ليعرف كيف يجري الأمر؟ ويجيب لونكا "بشكل سيّئ. الآمر لا يستجيب للتحريض. نحتاج إلى ربع جردل آخر..." وحين فرغا من الربع الثاني لم يبق وراء المائدة غير لونكا وحده وقضى الالمان ليلتهم هناك. وفي الصباح أبقى ضابط الصف رفيقيه رهينتين على أية حال لم يكونا قادرين على امتطاء فرسيهما بعد تلك السكرة وخرج مع لونكا. وفي المساء قاد الكتيبة كلّها زهاء أربعمائة رجل والعلم الأحمر في المقدّمة... بهذا الشكل أعجبه تحريض لونكا...

وعندما انتهى لاتوغين من قصّته وهي اروع بكثير من قصة غوربوشين قصة المعركة عند برودى أخذ المقاتلون يضحكون ضحكا شديداً فمنهم من صهل وأبدى كلّ أسنانه، ومنهم من مسح دموعه، ومنهم من تأوّه هازّاً ذراعه. وتقدّم روتشين من النار، وانحنى نحو لاتوغين وقال:

ـ إبحث عن غاغين وزادويفيتر، وتعال معهما إلى الخيمة.

في الضباب الصباحي الأبيض المنطبق على الحقل كله انطلق خمسة فرسان: كان روتشين على فرس كميت مقصوص العرف وعلى مسافة ذراع أمامه كان دونديتش الصربي الصغير الجسم آمر احدى كتائب بوديوني يمتطي جواداً أسحم. كان دونديتش خلال طريق حياته الصلب قد وجد وطنه الثاني، وأغرم بروسيا الشاسعة الأطراف وثورتها المترامية الحدود بكلّ حماسة رجل بسيط النفس محبّ للحياة شديد الجرأة. كان دونديتش وروتشين يرتديان معطفي ضباط فاتحي اللون بشارات على الكتف ذهبيّة. وإلى الخلف منهما لاتوغين وغاغين وزادويفيتر يرقلون على أفراسهم

في قبّعات مائلة بشدّة وستر من فراء الأغنام، وعلى أكتافهم شارات برتبة رقيب.

لقد أعطيت لهم مهمّة النفاذ إلى فورونيج، ومعاينة مواقع المدفعية ومقدار قوات الخيالة والمشاة، ومن بعد ذلك تسليم الجنرال شكورو قائد الدفاع ظرفا مختوما فيه رسالة من بوديوني.

كان دونديتش يحبّ الحياة، ويحبّ الدخول معها في لعبة خطيرة. أما في أيام تشرين الأول المنشّطة هذه حيث كانت العضلات تتوتّر من تلقاء نفسها تحت القميص العسكري من مجرّد استنشاق الهواء المنعش المملوء بمختلف الروائح الذكية في الضباب الصباحي فقد كان يجد البقاء بلا عمل شيئاً لا يحتمل أبداً. وقد تبرّع بنفسه أن يسلّم شكورو الظرف المختوم. راح يبحث عن روتشين حتى وجده وقال له:

ـ فاديم بيتروفيتش، أنت رجل ملائم كليا لمغامرة صغيرة. فأنت تعرف عادات الضباط ومختلف تسلّكاتهم. لعلّك توافق على الذهاب معي إلى فورونيج؟ إنّ ذلك يستغرق يوماً واحداً. وسيكون ذلك مسيرة طيّبة على ظهور الخيل. وقد وعدنا بوديوني بفرسين لنا هما بيتوشوك وافرورا...

وكان من المضحك أن يُخيّر بين أن يوافق أو لا يوافق. الا أن فاديم بيتروفيتش تضايق فقط من تذكيره بتسلُكات الضباط. ولكنه في واقع الأمر اضطر أن يقضي المساء كلّه بتعليم رفاقه كيف ينبغي على ذوي الرتب الواطئة أن يقفوا بهيئة استعداد، ويؤدّوا التحية العسكرية ويردّوا، وما هو المظهر الخارجي لضباط جيش المتطوعين، وكيف أن رجال درزدوف بمسحة التكتم البادية على وجوههم يحبّون لبس النظارات الانفية تكريما لرئيسهم

الراحل، وأنّ رجال كورنيلوف يتميّزون في العادة بنظرات كابية، وعلى وجوههم خيبة أمل مشمئزّة، وإنّ رجال ماركوف يتباهون بمعاطف قذرة ولغة فاحشة.

واتفق على أنهم إذا أوقفوا وسئلوا فإنّهم سيردّدون: "نحن نحمل ظرفا سريا إلى فورونيج من آمر الفوج الإحتياطي التطوّعي الذي وصل إلى منطقة كاستورنايا من الجنوب". فإنّ ذلك جواب مبهم ومقنع.

وبعد زهاء ثلاث ساعات من السين الحثيث، لاحت فورونيج في الضوء الشاحب الذي كان يفلت لفترة قصيرة من تحت سحب رصاصيّة، فبدت القباب وأبراج الحريق والسطوح الضاربة إلى الحمرة. لم تعترضهم دورية واحدة خلال الطريق كلّه. فقد كان رجال الدورية ينظرون عبر المنظار إلى الفرسان الخمسة الذين يتقدّمون بأفراسهم باتجاه المدينة، ويواصلون طريقهم بدون عجل. وقد حصل التأخير الأوّل عند الجسر. فقد كان هذا الجسر الخشبي غير المتين موضوعا تحت الحراسة يسير عليه رجال مهيبون يرتدون طاقيات بلا ظليلات، ومعاطف بيضاء من فراء الأغنام كتلك التي ترتديها النساء في أوكرانيا، وجميعهم قد أرسلوا لحاهم لسبب ما. وفي الجانب الآخر وقفت جماعة من طلاب المدارس العسكرية قرب خنادق رأس الجسر تدخّن.

أوقف دونديتش فرسه، وقفز منه، وأخذ يشدّ أحزمته. وقال بصوت منخفض:

ـ ليس من المستحسن تماماً إبراز الهويّات المزيّفة. ثم أنّ النهر ممتلئ بالمياه. وخوضه في موقع ماء والتبلل حتى الرقبة أمر ينطوي على عاقبة اسوأ. سنضطر إلى عبور الجسر على خيولنا.

قال لاتوغين بلهجة كئيبة:

- حسنا. سنتخلّص منهم بالشتائم.

وهنا قال زادويفيتر وهو يكاد يختنق بضحكته:

- اوي، يا رفاق. أصاب بالعمى إذا لم يكن الذين على الجسر قُسسا، أصحاب اللحى...

- إلى الأمام سر، وأظهر المرح.

قال دونديتش، وقفز إلى سرجه كالقط. ضج ذوو اللحى على الجسر بأصوات متنافرة: "قف، قف". اتجه دونديتش نحوهم ممسكا العنان بقوّة لاكزا بيتوشوك بمهمازيه. إلاّ أنهم رفعوا أصواتهم بصياح شديد ملوّحين بالبنادق حتى أنّ فرسه أخذ يتراجع على رجليه الخلفيتين ضاربا بذيله في غيظ. اضطر دونديتش إلى التوقّف. ارتفعت بعض الأيدي لتمسك باللجام، فصرخ لاتوغين دافعا بحصانه:

- جننتم! تمسكون بلجام سيادته! مَنْ أنتم على أية حال؟ اروني الوثائق!

- سكوت! أوقف حصانك! قال دونديتش له بهدوء وعبر كتفه، ثم انحنى على سرجه نحو ذوي اللحى وقد ابتسم عن أسنان بيض من تحت شاربيه البارزين:

- هل تطلبون ترخيصا لعبور الجسر؟ ليس لديّ... أنا المقدّم دونديتش، ومعي حرّاسي.. هل يكفيكم هذا؟ شكراً لكم...

وانطلق بيتوشوك إلى الأمام ضاحكا حتى أنّ الحصان حمحم وشبّ على رجليه الخلفيتين مبديا بطنه الرمادي المخملي، وقفز ماراً بذوي اللحى، وهم لا يكادون يجدون الوقت لأن يتنحّوا. الا أن دونديتش شدّ على العنان في الحال، وتحوّل إلى السير

الوئيد. وعلى الشاطئ الآخر بدأ فزع. ألقى الطلاب العسكريون سجائرهم وتراكضوا نحو الخنادق الطينيّة وأذيال معاطفهم الطويلة حتى الأرض تتشابك بين أرجلهم، ومن هناك وجّهوا فوّهتي رشاشتين نحو الفرسان. وصاح آمر استحكام الجسر وهو وقح مألوف جعل روتشين يطبق أسنانه باشمئزاز:

ـ هاي، يا مَنْ على الجسر، ترجّلوا وأعدّوا الوثائق... سأعدّ حتى اثنين وافتح النار...

فتح دونديتش فمه باتجاه روتشين:

ـ لا مفرّ من المهاجمة...

وامتدت يده إلى سيفه. فأوقفه روتشين بحركة سريعة.

ـ تبلوف نادى روتشين على الضابط الطويل أترك الرشاشتين.. هذا أنا، فاديم بيتروفيتش...

وترجّل عن حصانه على مهل، وقاده من مقوده، وسار عبر الجسر وحده. كان هذا الضابط هو نفس الشخص المسمّى فاسكا تبلوف السكّير المتباهي الأحمق الذي كان في فوج روتشين في الماضي والذي حذّره روتشين ذات مرة عن جدّ من أنّه سيحطم وجهه على تخرّصه وبذاءته. نظر تبلوف بارتياب إلى روتشين وهو يقترب، معيدا مسدسه إلى قرابه ببطء.

ـ لم تعرفني... ربّما من فرط السكر؟ مرحبا، يا فتى ومدّ روتشين له يده دون أن يخلع القفاز ماذا تفعل هنا؟ أراك قد جمعت لنفسك جماعة من ذوي الكروش واللحى، يا للحماقة! لقد حان الوقت لأن تكون آمر فوج... أنزلت رتبتك مرة أخرى؟ على السكر، بالطبع؟

ـ أوه، يا للشيطان! قال تبلوف صافراً بالحرف بسبب الثغرة

السوداء التي لاحت تحت شاربيه بدلاً من الأسنان الأمامية فاديم بيتروفيتش!... واختلج الكيسان الصغيران الأحمران تحت عينيه يا للسماء التي انزلتك... اعتبرناك هارباً...

ـ شكراً!...

وحدّق روتشين في عيني تبلوف تحديقة صلبة حارّة (شعر تبلوف بالحرج من هذه النظرة، فرأى من الأفضل ألاّ يستمر في الحديث عن الهروب) وقال روتشين:

ـ إنّ لكم رأياً جيّداً جداً عني.. كنت طوال الوقت في أوديسا عند غريشين ألمازوف... وأنا الآن رئيس أركان الفوج الإحتياطي الحادي والخمسين. ربّما تريد أن أريك وثائقي حقاً؟ سأل روتشين متحدياً واستدار ولوّح منادياً دونديتش، تعال.. تستطيع أن تبقى على فرسك..

نخر تبلوف في غضب لا غير، وكان دائماً يتوجّس من روتشين:

ـ كفّ عن التحذلق... أراك قد اتخذت طريقة خاصة في التحدّث معي، يا روتشين... إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى الجنرال شكورو.. جلبنا لكم فوجا ليعاونكم. يقولون أنكم خائفون من بوديوني كثيراً...

ـ عندنا فوضى... جنّدنا جميع المدنيّين، والجنرالات المتقاعدين، والموظّفين البهائم... وحتى القساوسة ألبسوهم البزات العسكرية، وأرسلوهم لي.

أخرج روتشين علبة السجائر، وكانت فيها سجائر أجنبية استولى عليها يوم أمس من طابور مقرّ القيادة. دخّن تبلوف ونفث الدخان الزكي الرائحة على شاربيه. وقال متعجّباً:

ـ هذه السجائر الأجنبية الحقيقيّة! من أين هي؟ أما نحن فيقدِّمون لنا التبغ البيتي... وهو يسبِّب حرقة جهنَّمية. أعطيني أرجوك سيجارتين على الأقل للإحتياط...

ـ كيف تعيش يا فاسكا؟

ـ أعيش عيشة الخنازير. بلا نقود.. ضجرت من كلّ شيء وألقى من تحت حاجبيه نظرة جانبية إلى دونديتش الذي قفز من حصانه، وإلى الفرسان الجهمين الثلاثة وراءه. وقال إذا كنتم تظنّون يا سادة، أنكم ستقضون وقتاً ممتعاً في فورونيج فأنتم على خطأ... الأوغاد الحمر أتوا على كلّ شيء. ما من حانة واحدة، ولا ماخور واحد. لا مكان للراحة مطلقاً...

قال روتشين:

ـ لأعرِّفكما: المقدّم دونديتش.

ـ الكابتن تبلوف.

وتبادلا التحيّة العسكرية. غضّ دونديتش بضحكة وجهه الأسمر وعيناه تتقلبان بسرعة، وقال:

ـ مع الأسف، مع الأسف بينما كنّا نحلم في الواقع بأن نقضي وقتا ممتعا... عندنا ما يكفي من النقود...

ـ طبعا توجد فتيات في الشقق الخاصّة، ويمكن الحصول على الفودكا الممتازة، والشمبانيا مخفيّة عند المضاربين... ثمن الزجاجة خمسمائة روبل! فظاعة! وتراءى الحنق في عينيه المتورّمتين اللتين تسحّان دمعاً باستمرار السلطة العسكرية تعامل هؤلاء المضاربين معاملتها للقديسين... منقذو الوطن!... في تامبوف صادف أن شربنا كثيراً. وكانت قائمة الحساب فظيعة، وليس لنا ما ندفعه، فضربت صاحب المحلّ في وجهه

وانصرفت.. فأنزلوا رتبتي... وهكذا يا فاديم، يسود شعور الكبت في وحداتنا. إنّنا، على أيّة حال، نضحّي بحياتنا... والشباب يزول... وماذا ينتظرنا في المستقبل؟ موسكو المهدّمة؟ إفلاس... من حسن حظِّك أنّك انهيت الجامعة. يمكنك أن تخلع البزّة العسكرية المقلّمة وتلقي محاضرات أيّاً كانت... أما أنا فسأمضي في هذا العمل الرتيب المضجر.. وفضلاً عن ذلك لن يسمحوا لنا بالاحتفاظ بجيش حقيقي...

ـ أنت بحاجة إلى تغيّر الجو، يا كابتن. لنذهب إلى المدينة. ليس لنا من عمل سوى أن نسلِّم الظرف للقائد، وبعد ذلك نمرح طوال الليل... أنا مسؤول عن الشمبانيا...

ـ أوه، اللعنة قال تبلوف ذلك وحكّ ما وراء أذنه لا يليق أن اترك موقعي بدون سبب معقول...

قال روتشين:

ـ سلِّم القيادة إلى الأقدم في الحضيرة... وقل لآمر الموقع أنّك اشتبهت بأن نكون رجال استطلاع حمراً متخفّين... في أسوأ الحالات سينعتونك بالغفل...

فتح تبلوف فمه الخالي من الأسنان، وقهقه وقال وهو يمسح عينيه:

ـ هذه فكرة! بل وحتى أردت أن أعتقلكم...

ـ عين الصواب...

ـ يا ضابط الصف الأقدم غفوزديف! صاح تبلوف بصوت مرح رنّان، واستدار نحو الخندق، حيث عاد الطلاب العسكريّون يتجرون حول الرشاشة. وعندما تقدّم ضابط الصفّ الأقدم وهو غلام في نحو الثامنة عشر ذو عينين زرقاوين وقحتين وأدّى التحيّة

بخفة رافعاً كوعه بموازاة كتفه، سلّمه تبلوف القيادة، وأمر بتهيئة فرس.

في الطريق إلى المدينة روى تيلوف وهو يتقلّب على سرجه من نفاد الصبر، كلّ المعلومات المطلوبة: ما هي الوحدات العسكرية الموجودة في فورونيج، وكم يوجد فيها من مدفعيّة، وأين مواقعها...

ـ فزع حيواني، ولا شيء غير ذلك... أريد أن أخبركم بأنّ كوتيبوف أصيب بالفشل بالقرب من أوريل، حتى أنّ رجالنا اصيبوا بهزّة فظيعة.. إنّ ذلك لم يحدث من قبل البتّة... أنت تذكّر الحملة الجليدية، يا فاديم! ليس عندنا الآن غير تعبير واحد يتكرّر: "فقدنا العزيمة..." نعم، نعم، إنّ شيئاً قد فقد الحماس السابق.. ثم أنّ الفلاحين هنا انقلبوا أوغاداً. ينظرون كالذئاب... إنّ الجنرال كوتيبوف على حقّ تماما. يقولون أنه ردّ على القائد العام بحدّة: "يمكن الإستيلاء على موسكو بشرط أن يقدّم للسكان الإصلاح الزراعي والمشنقة..." بحيث لا يبقى عمود تلغراف واحد فارغاً... أنْ يجري الشنق كما حدث أيام بوغاتشيف ليشمل قرى بكاملها... كلّ ذلك على أية حال، قصة مضجرة... أعطوني أحد العناوين: أختان خدومتان للغاية تعزفان على القيثار وتغنّيان الأغاني الرومنسيّة.. تخلبان اللب، يا فتى! دعونا نذهب إليهما رأسا...

والظاهر أن تبلوف كان معروفاً جداً، فإنّ بعض الدوريات التي التقت بهم اكتفت بأداء التحيّة حتى دون أن تلقي نظرة جانبيّة على دونديتش وروتشين. وفي الشارع الرئيسي انعطفوا على مدخل حديدي لأحد الفنادق. نزل تبلوف عن فرسه، ومد رجليه،

وقال بشيء من الخجل:

ـ لا أحبّ أن أؤذي العين أكثر من اللازم. من الأفضل أن أنتظركما هنا.. القيادة العامة في الطابق الثاني.. يجب أن تستعجلوا فحسب، يا سادة.. ثم توجّه بكلامه إلى القوزاقي الكوباني بحدة دعهما يدخلان، يا أبله...

ارتقى دونديتش وروتشين سلّما من الحديد. كان قد كتب على ظرف رسالة بوديوني "على اللواء شكورو. شخصي وسرّي..." وكان قد تقرّر أن يسلّم الظرف عن طريق المرافق. كان ديوان الأوراق يحتلّ قاعة المطعم ذات النوافذ المفقودة الطلاء. دخل دونديتش وروتشين القاعة. وفي نفس اللحظة ومن الباب الآخر دخل شخصان: أحدهما طويل ضخم في وجهه الجميل الخشن الملامح سبلتان غزيرتان، وكان يسير على عكّازة نفخت إبط معطفه الرمادي الفاتح. معطف الجنرالات. وقد عرف روتشين أنّه الجنرال مامونتوف. أما الثاني الذي كان يرتدي سترة جركسيّة بنية فقد كان له وجه ملتهب عالي الوجنتين شقيّ الملامح فتحتا منخريه واسعتان، وأنفه مرتفع. لقد كان ذلك الجنرال شكورو. دخلا وتوقّفا عند منضدة كان يجلس إليها ضابط أركان صغير في بنطلون لركوب الخيل عريض كجناحَي خفّاش، يملي شيئا عن فتاة شقراء حلوة القسمات كانت تشمّر يديها عالياً وتطبع على الآلة الكاتبة.

أشار روتشين لدونديتش على شكورو سائلا "ما العمل الآن؟" وفي تلك اللحظة التفت مامونتوف فوقع بصره على ضابطين غير معروفين له، فأمر بصوت عالي النبرة:

ـ تقدّما، أيّها السيدان...

اتخذ روتشين هيئة الاستعداد عند الباب، وتقدم دونديتش من شكورو:

ـ لديّ رسالة لأسلمها إلى فخامتكم.

كان شكورو يقف وظهره إلى دنديتش تقريبا، ولم يلتفت، واكتفى بأن حرّك رقبته القوّية الحمراء التي انغرزت فيها ياقته المطرّزة، ورفع شفّته العليا كالذئب، وسأل دون أن ينظر إلى وجه محدّثه:

ـ من أين الرسالة؟

ـ من آمر الفوج الاحتياطي الخامس والخمسين الذي وصل إلى الشاطئ الأيمن للدون انتظاراً لأوامركم...

ـ من أين هذا الفوج الحادي والخمسون؟ واستدار شكورو، إلا أنّه ظلّ على جفائه، وتناول الرسالة، وأدارها في يده وقال: مَنْ الآمر؟

أحس فاديم روتشين الذي كان واقفاً على الباب ببرودة غير مريحة، وأنزل يده في جيب معطفه إلى مقبض مسدّسه. لقد تحوّلت الأمور إلى درجة عالية من الحماقة والتخلخل واللاجدوى... الآن سينطق دونديتش باسم سخيف... يا للأسف! كان من الممكن أن ينقلوا لبوديوني معلومات قيمة.

ـ يقود الفوج الحادي والخمسين الكونت شامبرتن ردّ دونديتش بذلك على الفور، وجابه بنظرة مرحة نظرة شكورو الجانبية الناعسة العابسة: هل تسمح لي بالانصراف، يا صاحب الفخامة؟

ـ إنتظر، إنتظر، يا مقدّم قال مامونتوف وأخذ يستدير نحوه على عكّازته بحركة غير متقنة يبدو لي أنّه إسم مألوف وفجأة لوى

الألم وجهه الجميل المكتنز، فإنّ حركته غير المتقنة جعلت الجبيرة تحتكّ بساقه التي حطمتها رصاصة في الأسبوع الماضي، حين كان يهرب من بوديوني على عربته. وتمتم: اوه، اللعنة، اللعنة. يمكنك أنّ تنصرف، يا مقدّم...

أدى دونديتش التحية العسكريّة، وقام بنصف استدارة متقنة، واتجه نحو الباب. ورأى روتشين شكورو يتحدّث إلى مامونتوف الذي مايزال متلوّي الوجه من الألم، ويفضّ ببطء الظرف الذي يحتوي على رسالة سميون بوديوني التي كان روتشين ودونديتش على علم بمحتواها: "٢٤ تشرين الأول، في الساعة السادسة صباحا سأكون في فورونيج. آمرك، يا جنرال شكورو بأن تصفّ جميع القوات المعادية للثورة في الساحة، عند السوق، حيث شنقت العمال. وآمرك بأن تقود الاستعراض بنفسك..."

هبطا السلّم الحديدي. قابلهما طلاب عسكريّون يحملون البنادق ويسيرون في خطّ واحد. وبدا لروتشين أنّ دونديتش الصغير الذي يسير أمامه مرفوع الرأس مصلصلاً بمهمازيه يسير على مهل شديد للغاية. وتلك شجاعة فارغة حمقاء لا ضرورة لها!...

في الطابق الثاني في الأعلى تردّدت صيحة حادة مبحوحة. خرج دونديتش وروتشين إلى مدخل الفندق، ومن الرصيف اندفع تبلوف نحوهما. كان وجهه الرخو بشاربيه المتدليّين يتعطّش إلى الشمبانيا، والأغاني الرومانسيّة، والفتيات...

ـ الحمد لله، يا سادة... لنذهب...

دسّ قدماً واحدة في الركاب وحجل على القدم الأخرى قرب الحصان الحرن. كان روتشين على سرجه. أخرج دونديتش

علبة السجائر. وأشعل سيجارة كانت أصابعه السمراء الجافة ترتجف قليلاً وألقى عود الثقاب المشتعل، وتناول المقود من لاتوغين وقال بصوت حاد:

ـ أول زقاق إلى اليسار إنطلق عدوا!

كان الزقاق الأوّل لا يبعد غير مسافة عشرة بيوت. كان لاتوغين وغاغين وزاديفيتر أوّل من استدار إليه ضاربين بلاط الشارع بسنابك خيولهم. زعق تبلوف وهو يشدّ عنان فرسه ويلتفت:

ـ يا سادة، يا سادة... الزقاق التالي، إلى اليمين...

إلا أن حصانه انطلق به مع الجميع إلى اليسار. التفت روتشين عند الزاوية، وهو يستدير، ورأى طلابا عسكريّين يخرجون راكضين من مدخل الفندق، ويتلفّتون عجالى ساحبين أسلحتهم.

ـ روتشين، ما هذه اللعنة؟

صاح تبلوف وهو يكاد يبكي منتقلا إلى العدو مع الجميع. التصق دونديتش بحصانه أثناء العدو وانحنى، وقبض على مشط يده بقوة، وقطع حبل مسدسه، وسحب المسدس من غلافه.

وصاح كاشفا عن اسنانه:

ـ أنا مدين لك بشمبانيا!

الآن كان هو وروتشين والمقاتلون الثلاثة ينطلقون في الزقاق الملتوي بكلّ سرعة خيولهم مارين بالبيوت الصغيرة والأسيجة وأشجار الزيزفون المعمّرة التي كانت أغصانها العارية تحتّك بقبعاتهم. وتردّدت طلقات إلى الخلف. عبروا حقلا دون أن يخفّفوا من سرعتهم، وبالقرب من الجسر تحوّلوا إلى الخبب

الخفيف، ثم إلى السير عند خنادق أوّل الجسر. نادى دونديتش مربتاً على عنق الفرس المتصاعد منها البخار:

ـ يا ضباط الصفّ الأقدم غفوزديف! وعندما اقترب هذا يخفي سيجارته في ردنه أضاف طلب الكابتن تبلوف مني أن أنقل لك أنّه سيعود بعد نصف ساعة. سنعود نحن إلى هنا في صباح الرابع والعشرين، فلا تخفنا بالرشاشات...

ـ سمعا، يا حضرة المقدّم...

وعندما صار الجسر بعيدا خلفهم، وقد هبط المساء، أعطوا فترة استراحة لخيولهم المزبدة التي بدأت تتعثر. عند ذاك قال دونديتش لروتشين:

ـ أنا محرج جداً أمامك وأمام الرفاق... كثيرا ما لعنت نفسي على إظهار الفتّوة. الخطر يسكر، والعقل يحتدّ. وأنا العاشق نفسي أنسى الغاية والمسؤولية. وبعد ذلك أحسّ بالندم... لو أنّ الرفاق الآن نزلوا من خيولهم، وسحبوني من رجلي، وضربوني لما أحسست بالتكدّر، بل ولشعرت بالتنفيس..

دفع روتشين رأسه إلى الخلف وقهقه عاليا. فقد كان هو الآخر يحتاج إلى تنفيس التوتّر الطويل الذي أرهقه تماماً.

ـ هذا صحيح، يا دونديتش، تستحقّ أن تضرب بشكل جيّد لاسيما على السيجارة في المدخل...

ونجح دهاء بوديوني. فبعد أن قرأ مامونتوف وشكورو رسالته التي سلّمت إلى أيديهما شخصيّاً بمثل تلك الوقاحة المنقطعة النظير استولى عليهما غيظ لا يوصف. فإنّ كتابة مثل هذه الرسالة وتعيّين اليوم والساعة لاحتلال فورونيج يحتاجان إلى ثقة. ومعنى

ذلك أنّ بوديوني كان يملك مثل هذه الثقة. وفقد الجنرالان الإحساس بالتوازن.

كانت خطّة بوديوني في دحر الخيّالة البيض مبنّية على أن تقوم كلّ قواته المتركزّة بشنّ هجوم مضاد مباشر ضد الطوابير الثلاثة لفرقتي الدون وكوبان الساعيتين لتطويقه. أبطأ الأعداء بالهجوم واقتصروا على أعمال الاستطلاع. والآن أضحى بوديوني واثقاً أنهم سيهجمون عليه دون أن يحفلوا بالعواقب.

في ليلة الثامن عشر من تشرين الأول أشار رجال الاستطلاع إلى بدء تحرّك للعدو. وحانت ساعة المعركة الدموية. قال سميون بوديوني وهو منكبّ مع قائدي فرقتيه على الخارطة في ضوء شمعة: "حظاً سعيداً" وأصدر أمره إلى الفرقتين والافواج والكوكبات:

"إلى الخيول"

ورنّت تلفونات الميدان سواء في كوخ مظلم أو في حقل، في خندق مغطّى بالأغصان والتبن أو تحت كومة دريس. وسمع رجال الإتصال من السماعات ما كان الجميع ينتظرونه من ساعة إلى أخرى. هرع المراسلون إلى صهوات خيولهم، وانطلقوا في الظلام وهم يضعون أقدامهم على المهاميز أثناء العدو. كان المقاتلون نائمين بثيابهم في تلك الليلة الحالكة كالقبر، الساكنة الريح فاستيقظوا على الصياح الممدود: "إلى الخيول!" ووثبوا على أقدامهم نافضين النوم عنهم، واندفعوا إلى مرابط الخيل، وأسرجوا خيولهم على عجل، وأوثقوا السيور بقوة جعلت الخيول تترنحّ.

تجمعت الكوكبات في الحقل، ومن صيحات أمراء الوحدات

المترامية في الجبهة، وجدت مكانها في الظلام. انتظمت في صفوف، وانتظرت طويلا ملقية بأبصارها على الناحية التي يوشك الفجر أن يطلع منها. كانت الخيول ماتزال تتنفس بثقل من أثر النوم. وكانت برودة رطبة تنفذ من خلال الستر المبطّنة وفروات الأغنام ومعاطف الجنود الخفيفة وصمت الرجال، وكفّوا عن التدخين.

وها هي الطلقة الأولى تصدر مبربرة من بعيد. وتردّدت أصوات المفوّضين: "أيها الرفاق، أمرنا سميون ميخائيلوفيتش بوديوني بتحطيم العدو. إنّ مأجوري البورجوازية يسعون إلى شق طريقهم إلى موسكو الموت لهم! كلّلوا سلاح الثورة بالمجد".

لم ينوّر الفجر الحقل بسبب جثوم الضباب. انطلق سيل من ثمانية أفواج بوديونية على امتداد فراسخ في كركبة ثقيلة وصفوف متلاصقة. وفي الضباب الكثيف لم يكن المحارب يرى غير رفيقه إلى اليسار ورفيقه إلى اليمين، وعجائز الخيول أمامه تنطّ في الضباب الحليبي المتخلخل.

كان العدو على مسافة قريبة تتناقص. وصارت طلقاته تسمع متردّدة بلا نظام. أخذ المقاتلون وهم يحثّون خيولهم بلهفة يمدّون رقابهم ساعين إلى أن يروه. ثم سرت في السيل كلّه صيحة راحت تتردّد أعلى وأكثر خنقا وضراوة. فإنّ الصفوف الأماميّة قد رأته...

أخذت تطلع من الضباب أشباح فرسان ينعطفون على خيولهم. لم يصطبر قوزاق الدون، فاندفعوا للقائهم بنفس السيل العارم... إلاّ أنّه يبدو أنّ الشيطان حملهم بهذا البعد عن قراهم الأصليّة ليطاعنوا هؤلاء الشياطين الحمر. سمعوا هدير الحقل كلّه وارتجافه فادركوا أيّة قوة رهيبة توشك أن تعصف بالخيول

والرجال وتخلط وتلفّ، وتتعالى أكوام الأجساد المدمّاة.. وليت ذلك لسبب وجيه! ركن القوزاق إلى خيول الدون الوثّابة الخفيفة الحركة فأخذوا يرتدّون ويجولون... وقليلون منهم فقط، المستميتون للغاية، السكارى من الجرأة خرقوا سيل البوديونيّين طاعنين بالسيوف في تهوّر وخبط عشواء...

ولم تنقذهم خيول الدون الوثّابة. والذين استداروا اصطدموا بالذين مازالوا يندفعون إلى الأمام... أوقع بعضهم بعضاً... راح رجال بوديوني يطعنون ويدوسون ويطاردون... بدأت صيحات وحشيّة... في الضباب لم يرَ غير فارس منكبّ على عرف فرس، وآخر يلاحقه منحنياً على السرج لتوجيه ضربة بسيفه... صهلت الخيول المهتاجة قاضمة بأسنانها...

الآن استدارت جميع أفواج القوزاق لتولي الأدبار. إلا أنّ عربات الرشاشات التي انغرزت عميقاً في جناحها قطعت الطريق عليها، ودفعتها بنيرانها إلى ناحية، حيث اخترقت كوكبات جديدة من خيّالة بوديوني كتلها المختلطة المرتبكة وهي تسعى إلى الفرار.

استمرت مطاردة فرقتي مامونتوف حتى طلوع النهار. وتناثرت في الحقل آلاف الجثث في الستر القوزاقية الزرقاء، وفي السراويل المزّينة بالأشرطة الحمراء عند خطوط الدرز، وانطلقت الخيول المذعورة بلا فرسانها.

في وقت الغداء تجمّع رجال بوديوني كمعسكر هائل في حقل منبسط متجمهرين حول مطابخ ميدان جيّدة من النحاس الصافي انتزعوها من العدو. تصاعد البخار من قدور عصيدة الدخن المعتادة المطعّمة بقطع من شحم الخنزير، وقد أضيفت، هذه المرة، المعكرونة والرز والفول واللحم المملّح وأشياء أخرى

من هذا القبيل خلطها الطّباخون لتحسين نكهتها.

وبعد أن شبع المقاتلون تماماً دخنوا وتفاخروا فيما بينهم بما غنموا في القتال من سيوف الفرسان من الفضّة أو قربينة يابانية، أو جواد من خيول الدون أصهب محجّل وذي غرّة.

ولم يهدأ الهياج الذي خلّفته المعركة، وما كان له أن يهدأ! عزفت الأكورديونات في كلّ مكان. وتردّدت أصوات أخرى تناغمها "انتشرت السحب تحجب السماء، وجثم الضباب على وجه الحقل.." وعلى أنغام البلالايكا دقّ الراقصون الأرض بكعوبهم وسط الصفير مشمّرين أذرعهم كما يشمّر البجع جناحيه، مقرفصين وضاربين الأرض ضربات متتابعة.

ولكن الأبواق تصدح من جديد داعية إلى القتال، إلى العمل الصعب! من بعيد مر بوديوني على فرسه في عباءته القوزاقية وقبّعة من فراء الاستراخان الفضّي، ومعه قائدا فرقتيه كلاهما. وبدأت الأفواج تصطفّ من جديد، وتوغّلت في صفوفها ثماني رايات حمر رفرافة.

إن الاندحار الذريع للطابور الأوّل أجبر البيض على التخلّي عن تطويق بوديوني، وأحبطت خطّتهم الأولى، وسارع بوديوني بوديوني الطابور الثاني من رجال مامونتوف، ولم يتحمّل الضربة هذا الطابور أيضاً وتراجع إلى سدّة السكة الحديد تحت حماية القطار المصفّح. خرج القطار من فوروونيج ثقيلا مقرقعاً عبر الجسور. كان الضباط المدفعيّون تحت الأبراج الفولاذيّة وقرب مدافعه من عيار ٦ بوصات ورشاشاته يمعنون النظر في الضباب الآخذ بالنحوّل ببطء. وبين الحين والآخر كان يظهر على السدّة رجل من رجال الإتصال يلوّح بعلم صغير، فيتوقّف القطار دقيقة

ليتلقى المعلومات. وهكذا أضحى معروفاً الوضع الحرج للطابور الثاني الذي ردّه رجال بوديوني إلى السكة الحديد.

زاد القطار المصفّح من سرعته. وظلّت الصافرة المبحوحة في قاطرته تزعق بلا انقلاع لتنبئ رجال مامونتوف بمعونة عاجلة.

لمح المدفعيّون الذين كانوا يعاينون من خصاص الأبراج شبحاً غير واضح. أوقف القطار حركته، وعاد يتحرّك إلى الوراء. وأطلقت المدافع قذائفها على الشبح المتنامي بسرعة. ولكن الوقت كان قد فات. فإنّ قاطرة بضائع كبيرة أطلقت سرعتها خالية من الناس ارتطمت بالعربة الفولاذيّة الأماميّة للقطار المصفّح. وكانت القاطرة كلّها قد عبئت بالديناميت من أمام ومن الجانبين. ودوّى انفجار. وفي الحال تفجّرت القذائف في العربة المصفّحة من التماس. ووقفت العربة المصفّحة على طرفها في دوّامة من التراب والرمل والنار والدخان والبخار، وتدحرجت مسحوقة ساحبة على منحدر السكة السلحفاة الفولاذيّة الضخمة برمتّها.

وهرب الطابور الثاني من رجال مامونتوف إلى فورونيج. وبدأ الطابور الثالث يتراجع إلى هناك أيضاً بدون قتال إلا أنّه أجبر على خوض المعركة في اليوم الرابع من هذه المذبحة التي لا سابق لها، وحطّم كليّاً، وتناثرت جثث القوزاق المطعونة على مسافة فراسخ من الحقول والتلال.

وتراجعت إلى وراء النهر جميع فرق الدون وكوبان مدحورة متكبّدة في بعض افواجها ما يصل إلى النصف من عدد رجالها. وفي الصباح الباكر من الرابع والعشرين تحرّكت قوات بوديوني

الرئيسية إلى هناك، حيث وجدت الجسر الخشبي الذي كان محروساً من قبل القساوسة والطلاب العسكريّين بقيادة تبلوف متروكا لم يلحقوا أن ينسفوه. كانت بعض البطاريّات تطلق النيران من ناحية المدينة رافعة أعمدة من الوحل والماء... وصل بوديوني إلى الجسر، ورأى الجسر واهي البناء. استدعى الموسيقيّين ذوي الأبواق الفضّية، وأمرهم أن يعبروا الجسر إلى الجانب الآخر من النهر، وأن يعزفوا هناك المرحة الألحان والأكثر إثارة من موسيقى المارش والرقصات. كان طلاب الكونسرفاتور بالهيئة التي أخذوا فيها آنذاك في معاطف قصيرة ذات تطريزات صفراء وحمراء على الأكتاف وقد تراكضوا عبر الجسر، وما كادوا يعبرونه حتى أصابته قنبلة فانهار. وفي وسط هدير الإنفجارات اخذ الموسيقيّون شبه الأحياء من الفزع ينفخون في أبواقهم الفضّية ويصدحون...

وسلّم كلّ مقاتل خيّال قذيفة مدفع ليحملها في يده، وصاح أمراء الوحدات والمفوّضون "إلى الأمام!" وقذفوا بأنفسهم قبل وحداتهم في الماء القارس البرودة الفائر المتطاير من القذائف المنفجّرة. وفي وسط النهر انزلق الرجال عن سروج خيولهم وسبحوا وقد وضع كلّ فارس يداً على عرف فرسه، ورفع القذيفة على الأخرى. وقفزت خيول المدافع إلى النهر الغاضب ساحبة المدافع على قاع النهر. وعبر رجال بوديوني النهر وأخذوا يهاجمون فورونيج بحرارة غضابا مبلّلين وعلى خيول مبلّلة. إلا أنّ فرق مامونتوف وشكورو هنا أيضاً لم تتقبّل المعركة وابتعدت بسرعة إلى ماوراء الدون باتجاه كاستورنايا.

كان دحر أحسن خيّالة البيض والإستيلاء على فورونيج

إحدى العمليّات الأوليّة لخطة عسكرية ضخمة وضعتها القيادة الجديدة للجبهة الجنوبيّة.

وقد تلقّى قواد الجيش والفيالق والفرق والألوية وأمراء الأفواج نسخا من هذه الخطة مطبوعة على ورق مزرق وموقّعة بتوقيع ستالين. وصفت فيها عمليّات جميع وحدات الجبهة الجنوبية ابتداء من منطق أوريل وكرومي، (التي كان يتراجع عنها تحت ضربات التشكيلة الخاصة بقيادة سيرغي اوردجونيكيدزه فرسان دينيكين المسحوقون تحت قيادة الجنرال كوتيبوف الذي أقسم بأن يكون أوّل من ينفذ إلى موسكو) ومن عمليّات فورونيج وكاستورنايا (حيث أعطيت لفيلق بوديوني مهمّة شطر جبهة البيض عند نقطة التقاء جيش الدون بجيش المتطوّعين) وانتهاءً باحتلال روستوف على الدون التي كان الطريق إليها يمتدّ عبر الثغرة التي أحدثت خلال منطقة دونباس المنجميّة البروليتارية.

وخلافا لتوقّعات الجميع سواء أولئك الذين كانوا جالسين في الفنادق المنتنة على حقائبهم في أهبة السفر واثقين من أنّ الفرنسيّين سيجلبون إلى موسكو في عيد العام الجديد الشمبانيا والمحار وحتى بنفسج بارما، أو اولئك الذين كانوا يقضون الساعات في غرفة استقبال حاكم أوروبا في باريس، وهم الآن مرفوعو الرؤوس، وروسيا الدستورية في أيديهم تقريباً، حتى أنّهم لم يضبطوا أنفسهم فدخلوا في مكتب كليمانصو حيث يشتعل موقد، وحيث جلس الدكتاتور الضئيل المكوّر الكتفين وحاجباه الأشيبان متدليّان على مشروع سكون كالقبر يعمّ العالم، ونهض الفرنسي ليقدّم أصابعه المعقّدة للروسي الذي كان يضغط عليها من شدة الفرح، بل وخلافا لما توقّع أنتون إيفانوفيتش دينيكين

نفسه الذي هجر منذ زمان لعبة "الفينت" في أيام الجمع، والذي بالرغم من ضعفه الذي يشترك فيه الجميع أخذ يؤمّن بأن له رسالة سامية قام البلاشفة الذين كانوا في آخر رمق بشيء لا يتصوّره العقل، ونظّموا هجوما مضاداً جباراً رغم تفشي التيفوس والمجاعة الحادة للغاية والدمار الاقتصادي الكلي، حتى تصدّعت كلّ السياسة العالميّة لخنق وتقطيع أوصال روسيا الحمراء، تلك البلاد المترامية الأطراف التي كانت تمثّل إذا اردت الحق ـ لغزاً لعقول أوروبا الغربيّة.

وكانت لغزاً ينابع إلهام الشعب الروسي. كما أنّ أفكار السعادة للجميع والنظام الاجتماعي العادل تلك الأفكار التي ظنّ أنّها قد انقبرت إلى الأبد تحت تلال جثث الحرب العالميّة قد انتشرت وكأنّ عاصفة نشرت بذور سدرة الجنّة في روسيا المعدمة المخرّبة، حيث مايزال الريفيّون الاميّون يقصّ بعضهم لبعض حكايات اسطورية عن إيفان الأبله، وعن الساحرة بابا ياغا، وعن البُسط الطائرة، والشيوخ العميان ـ رجالا ونساء ـ ينشدون اشعار الملاحم المطوّلة عن معارك الجبابرة ومآدبهم وحفلات زفافهم.

وربّت هذه الأفكار في شعوب روسيا مرونة وصلابة النصل الفولاذي. إنّ الفلاحين الذين مايزالون يحكون الحكايات، وعمال المعامل نصف المتهدّمة التي همدت مداخنها منذ زمن، من خلال تغلّبهم على المجاعة والتيفوس والخراب الاقتصادي التام يدحرون ويطاردون جيش دينيكين، وهو جيش من الدرجة الأولى، وقد أوقفوا عند مشارف بيتروغراد جيش بودنيتش الصدامي ودفعوه إلى أستونيا، وحطموا وشتتوا في ثلوج سيبيريا

جيش كولتشاك الكبير العدد، وقبضوا على حاكم عموم روسيا هذا، وأعدموه رمياً بالرصاص، وهم الآن يدحرون ويطاردون اليابانيّين في الشرق الأقصى. إنهم، الملهمون بأفكار لينين ـ بالأفكار فقط لأنّ في روسيا لا شيء يؤكل ولا شيء يلبس ـ يؤمنون بأنهم أقوى من جميع من في العالم، وأنّهم سيبنون على خرائب دولتهم المعدمة، وفي أقرب وقت مجتمعا شيوعيّاً عادلاً.

٢٠

خيّل إلى كاتيا أنّ معدتها الآن، لا تزيد على الأرجح عن حجم محفظة صغيرة لحفظ قطع النقود المعدنيّة. ليس فيها ما يكفي الا لما يزيد قليلا عن خمسين غراما من الخبز، وقطعة من سمك الفوبلا المسلوق، ولبضع ملاعق من الحساء. وكانت المصيبة التي تجابهها هي في التنانير التي أضحت فضفاضة عليها وليس لها ما تخيّطها به، ولا الوقت الذي يسمح لها بذلك. وبمقابل ذلك أضحت عينا كاتيا أوسع بكثير ممّا كانتا في الخريف الماضي، حيث كانت ماترينا تطعمها الفطائر الدسمة عن قصد.

كانت الصبايا في المدرسة يقلن لها أحياناً، وهن يلوين أفواههن الجائعة:

"يا عمّة كاتيا، ما أحلاك..."

وكان ذلك يبعث السرور في نفس كاتيا، لأنّ الحياة كانت في المستقبل. والتذكار الوحيد عن الماضي خاتم زمردي فلاديميرسكويه. أما الأشباح المحبوبة التي كانت تسكن هذا البيت المتداعي في زقاق ستاروكونيوشني، فلم تعد تخطر في ذاكرتها بينما كانت تتصوّر المستقبل التي تتّجه نحوه كلّ الآمال، كلّ أفكار الناس المعذّبين بالجوع وشدّة القرس والخراب والحرب طريقاً عريضاً لامعاً كزجاجة في الشمس، وسط المروج الخضراء

والبحيرات المحاطة بكتل الاشجار الناعمة طريقاً يؤدّي إلى عالم مدينة خفيفة الزرقة معقدّة فاخرة رائعة يجد الجميع فيها ضالتهم من السعادة.

ذات مرة تحدّثت كاتيا عن ذلك في الدرس. وأصغى الأطفال وقد أخلدوا للهدوء. والصبايا العاطفيّات أعجبن بشكل خاص بأنّ الطريق إلى المستقبل يتلوّى عبر المروج الخضر، حيث من الممكن أن يطاردن الفراشات، ويجمعن باقات من الزهور الصغيرة، على شكل نجيمات. ووجد الأولاد الحكاية غير مرضية. فإنّ كاتيا لم تقل شيئا عن القطارات المنطلقة في كلّ مكان خلال هذه المروج، مارة بمؤشّرات الإتجاه، وعبر الجسور المشّبكة والأنفاق، ولم تذكر المداخن الضخمة التي يتصاعد منها الدخان ممراحا. واتفق الجميع على أنّ مدينة المستقبل زرقاء بالطبع، لها بيوت عالية تناطح السحب، وترامو ايات شديدة السرعة، ومراجيح في جميع البولفارات، وأكشاك تبيع الفطائر والسجق. سألت كاتيا: "والدوندرمة؟" الا أنّه تبيّن أنّ الأطفال لم يتذوّقوا الدوندرمه البتّة أو ربما تذوّقوها عندما كانوا صغارا ونسوها.

وكان على كاتيا أن تحرص كثيرا على قوتها. قبل فترة قصيرة حملت جردلا مملوءاً إلى الفناء وأحست فجأة بأنّها لا تستطيع أن تمضي به، فوضعته على الأرض، واتكأت على الحائط مغالبة الغشاوة التي غطّت على بصرها. ومن حسن الحظّ أنّ المحاضرات عن الفن ظلّت مؤجّلة. فقد أقفرت موسكو تماماً، وكان من الممكن أن يسير المرء من أربات إلى شارع ستراستنايا دون أن يلتقي بعابر سبيل. ومع ذلك فقد كانت "الأزفستيا" تنشر

في كلّ يوم أنباء انتصارات عسكرية. وتدفّقت الجيوش الحمراء إلى الدونباس في سيل عريض عبر ثغرة في الجبهة عند كاستورنايا، واندلعت انتفاضات الفلاّحين في مؤخّرة البيض. والآن لاحت للنظر نهاية للحرب والنكبات.

في المساء، والساعة تقترب من الثامنة. كانت كاتيا جالسة في حجرتها، دون أن تشعل الفتيل. فقد كان الموقد "النحلة" يلقي ضوءاً كافياً من خلال بابه نصف المفتوح. جلست كاتيا على مقعد واطئ، وألقت قطع الحطب بحذر، فاشتغلت بضوء ساطع، وفرقعت فرقعة لطيفة لأنّها كانت من نفس الطاقة الشمسية التي تحدثت كاتيا عنها في المدرسة.

كانت كاتيا تقرأ "الجريمة والعقاب"(٢١). يا إلهي، إلى أيّ حدّ كانت تلك الحياة بلا مخرج! وضعت كاتيا يدها على الكتاب، وحدقت في النار. ما أرهب الليلة التي قضاها سفيدريغايلوف في الحانة الخشبيّة. في الجادة الكبيرة! لقد كان نفس المطعم الذي جلست فيه كاتيا مرّة واحدة في حياتها مع بيسونوف، ولربّما في نفس الحجرة التي كان سفيدريغايلوف يزجي فيها الوقت ساعة بعد ساعة وقد عرف أنّه غير قادر على قهر الرعب والنفور من الحياة.

إنّ هذه اللعنة قد حطّمت وأحرقت وبدّدت. والآن يستطيع المرء أن يجلس هذه الجلسة ويقرأ بهدوء عن الماضي، ويكوّم الحطب في الموقد، ويؤمّن بالمستقبل.

---

(٢١) "الجريمة والعقاب" ـ رواية دوستويفسكي (١٨٦٦) وأحد الأعمال الرئيسيّة لهذا الكاتب الروسي العبقري. الناشر.

ترددت في الممرّ خطوات غير متوازنة، ومن الأرجح أنهم عادوا مرّة أخرى إلى ماسلوف للتشاور. في المدّة الأخيرة أخذ الناس يتردّدون عليه باستمرار في غبش المساء، وكانت أصواتهم الغاضبة تسمع حتى في غرفة كاتيا. ومهما كانت الساعة التي ينتهي فيها الاجتماع كان ماسلوف يوصل الناس إلى المطبخ، ويدقّ باب كاتيا بحذر:

"أمعقول أنك آويت إلى الفراش؟ عيب، عيب أن ينام المرء مبكرا... وأنت امرأة عصريّة... أى، أى، أى..."

وكان يدير مقبض الباب بإلحاح، وكانت كاتيا ترتجف من الغيظ. فقد كان ماسلوف عنيداً ومعتدّاً بنفسه بشكل فظيع، ويستطيع أن يبقى وراء الباب حتى الصباح.

"كاترينا ديميتريفنا أريد فقط أن اجلس بهدوء قرب موقدك... اعصابي توتّرت... اسمحي لي بطريقة رفاقيّة..."

وكان من السخف الإستمرار في الصمت، وفي آخر الأمر تفتح كاتيا الباب. فيجلس أمام الموقد ويأخذ بوضع قطع الخشب وكانت كلّ قطعة منها أغلى من الذهب وكان يضحك بغموض ويمدّ كفّيه الضيّقتين فوق حديد الموقد الحامي، ويشرع في الحديث عن موضوع قوّة الجنس الرهيبة كالفضاء... والإستجابة لهذه القوّة جمال! وسائر الاشياء بيوريتانيّة عفنة. وفضلاً عن ذلك فإن كاتيا جميلة ووحيدة و"متحرّرة من الايواء" على حد تعبيره. وكان واثقا ثقة لا تتزعزع من أنها ستسمح له إن لم يكن اليوم فغداً بأنّ ينسلّ تحت لحافها.

واليوم، وقد قرأت كاتيا دوستويفسكي كانت الأصوات في غرفة ماسلوف تترامى إلى سمعها موحشة. فقد كانت تتردّد هناك هتافات عنيفة، ثم تسقط بين الحين والآخر أشياء تبدو وكأن كتباً تقذف على الأرض. واليوم لابد أنّه سيأتي لتهدئة نفسه.

سمعت خربشة على الباب، وانسلّ صوت خفيف عبر ثقب

الباب: "يا عمّة كاتيا، هل أنت في البيت؟" إنها صبيّة، كلافديا في حذاء لبّادي ضخم ربط بحبل.

ـ أرسلتني زوجة تشيسنوكوف لاستدعائك. عندها روتشين من الجبهة.

ـ وهل الجوّ بارد في الخارج؟

ـ فظاعة، يا عمّة كاتيا، ريح شديدة تجعل العين تزغلل، ليت الثلج يتساقط، ولكن لا ثلج... شتاء جنوني، ولكن غرفتك دافئة، يا عمّة كاتيا...

كانت كاتيا غير راغبة في الخروج إلى البرد وجرجرة نفسها إلى بيت زوجة تشيسنوكوف في بريسنا، وكان الشيء الأكثر إرهاقاً أنّها ستضطر إلى حديث حتمي في الليل. ارتدت معطفها، وألقت لفاحا دافئا على رأسها فوقه. وخرجت مع كلافديا إلى الشارع بحذر لكيلا يتنبّه ماسلوف. اندفعت الريح الليليّة نحوهما من الزقاق المظلم بقوّة جعلت كاتيا تغطّي الفتاة الصغيرة بأطراف منديلها. وكان الغبار يلذع الوجه، والسطوح الحديديّة تقرقع. كانت الريح تعوّل وتصفر وكأنّ كاتيا وكلافديا آخر مخلوقين على الأرض، فقد مات كلّ شيء، ولن تخرج الشمس بعد لتطلّ على العالم.

بالقرب من نافذة شاحبة الضوء في بيت خشبيّ صغير أدارت كاتيا ظهرها للريح لتلتقط أنفاسها. ومن خلال شقّ بين ستارتين لم تتّصلا بعضهما ببعض بشكل محكم رأت كاتيا حجرة مكتظّة بالأثاث، ومدخنة سوداء متّصلة في موقد بشكل ملتوٍ، وفي وسط الحجرة ضوء "نحلة" وقد جلس بعض الأشخاص في مقاعد وثيرة. وكان الجميع قد اسندوا رؤوسهم عاى أكفّهم، وراحوا يصغوا إلى شاب واقف أمامهم يقرأ شيئا في كرّاسه وقد رفع بشمم أنفه المتّجه إلى الأعلى. وكان يرتدي معطفاً مهلهلاً مفتوحاً على صدره العاري وحذاء لبّادياً ملفوفاً بحبل رفيع، كحذاء

كلافديا. ومن حركة يديه والطريقة البطوليّة التي يهزّ بها شعره الكثيف غير الممّشط عرفت كاتيا إنّه يلقي أشعاراً. وأحسّت كاتيا بدفء في قلبها، وابتسمت وأدارت وجهها للريح، وهرعت إلى أربات دون أن تدع كلافديا تخرج من تحت منديلها.

كان بيت زوجة تشيسنوكوف حافلاً بالناس جميع زوجات العمّال الذين خرجوا إلى الجبهة، وبعض الشيوخ يجلسون مجلس الصدارة عند طاولة حيث كان القادم يتحدّث عن الشؤون العسكريّة. أخذت النساء يسألنه والبعض يقاطع بعضاً: هل سيخفّ وضع الخبز عن قريب؟ هل يمكن توقّع وصول الوقود إلى موسكو في عيد الميلاد؟ وهل توزّع الأحذية اللبّادية والمعاطف الفرائيّة في وحدات الجيش؟ وذكر أسماء أزواج وإخوان ليعرفن هل هم أحياء معافون، وكأنّ هذا العسكري كان قادراً على أن يعرف بالأسماء جميع العمّال المقاتلين بالألوف في جميع الجبهات.

لم تستطع كاتيا أن تشقّ طريقها في الحجرة فوقفت عند الباب. وقفت على أطراف أصابعها ووقع بصرها خطفاً على القادم يسجّل شيئا في ورقة صغيرة، وقد أنزل رأسه الملفوف بضمادة. وسأل:

ـ أهذه كلّ الأسئلة، يا رفاق؟

وسرت رجفة في جسد كاتيا، وكأنّ هذا الصوت الواطئ القاطع النبرة قد نفذ فيها ممزّقا قلبها. واستدارت في الحال لتنصرف. لم يغب عن ذاكرتها شيء، على ما يبدو... إنّ رنين الصوت الشبيه بذلك الرنين الحبيب الذي صمت إلى الأبد أثار في نفسها أسىً قديما، ألماً قديما غير مدعو وعديم النفع... وبهذا الشكل تعود في الحلم إلى ذاكرة إنسان وحيد ذكرى ماضيه البعيد، فيرى بيتاً صغيراً في غابة لم تقع عليه عيناه البتّة، منارا بضوء باهت، وبالقرب من البيت أمّه المتوفاة تجلس وتبتسم كما

في الطفولة البعيدة، فيوّد أن يمدّ لها ذراعيه، ويدعوها من الحلم إلى الحياة، ولكنّه لا يستطيع أن يمسَّها، وتظلّ هي صامتة تبتسم، عندئذ يدرك أنّ ذلك مجرّد حلم، فتتحدر دموع نابعة من الاعماق على صدر النائم.

ولعلّ وجه كاتيا كان بهذا الشكل، بحيث أنّ إحدى النساء عند الباب قالت:

ـ يا مواطنات، إفسحن الطريق للمعلِّمة لتتقدّم، ضيّقتن عليها تماماً...

وفسحن الطريق لكاتيا لتتقدّم إلى الأمام. فدخلت ورفع الرجل الجالس إلى الطاولة رأسه المضمّد فرأت وجهه الصارم. وقبل أن يضيء الفرح ويوسّع عينيه الداكنتين ترنّحت، وأخذ الدوار يطوف برأسها، والوعي يتخلّى عنها شيئاً فشيئاً، وطنين الأصوات المتصاعد يبتعد، والضوء يعتم، كما حدث لها حين كانت تحمل الجردل في الرواق.. ابتسمت كاتيا في إحساسٍ بالذنب، وتتابعت أنفاسها، وشحبت، وأخذت تتهاوى..

ـ كاتيا! ـ صاح هذا الرجل شاقّاً طريقه بين الأشخاص كاتيا!

أمسكتها عدّة أيد، ولم تدعها تسقط على الأرض. ووضع فاديم روتشين بين كفّيه وجهها المنكّس الحبيب الفاتن حيث الفم هامد نصف مفتوح، والمقلتان مختفيتان وراء الجفنين.

ـ هذه زوجتي، يا رفاق، هذه زوجتي.

كرر روتشين محرّكاً شفتيه المرتجفتين.

سارا والريح تهبّ على ظهريهما. كان فاديم روتشين يضغط كاتيا عليه من كتفيها الواهنتين. وكانت كاتيا تبكي طوال الطريق، وتتوقّف وتقبّل روتشين. أخذ يحكي لها لماذا اعتبره الجميع ميتا، بينما كان طوال عام يبحث عنها في كلّ روسيا. الا أن ذلك كان حديثا مشربكاً طويلاً ولا حاجة له الآن على الإطلاق. وكانت

كاتيا تقول أحياناً "قف سرنا في غير طريقنا..." ويستديران، ويجوبان شوارع جانبيّة مظلمة خالية، حيث كانت الرياح الصدئة تصرف على المداخن، وتقرقع صفائح الحديد نصف المخلوعة على السطوح، وتحرّك شجرة زيزفون عتيقة بعويل يمزّق القلب أغصانها السود من وراء سياج مهدّم...

في زقاق ستاروكونيوشني قالت كاتيا:

ـ هذا بيتنا، هل تتذكّره؟ ولكن كنت تدخل من الباب الأمامي فقط. أنا أعيش في نفس الغرفة، يا فاديم.

عبرا الفناء ركضاً. كان باب المطبخ مغلقا.

ـ آه، غير لطيف... سنضطر إلى دقّ الباب... أطرق بأقصى ما تستطيع.

ضحكت كاتيا، ثم بكت قليلا، وقبّلت فاديم وعادت تضحك من جديد. دقّ فاديم الباب بشدّة بكلتا قبضتيه.

ـ مَنْ هناك؟ مَنْ هناك؟

سأل ماسلوف منفعلاً وراء الباب.

ـ إفتح، أنا كاتيا.

فتح ماسلوف الباب، وكان القنديل الصفائحي يرتعش في يده بغطائه الزجاجي. وحين رأى عسكرياً وراء كاتيا تراجع خطوات، وقد انكمش خدّاه في غضون طويلة، وتقلّصت عيناه ببغضاء.

ـ شكراً.

قالت كاتيا، وهرعت إلى حجرتها دون أن تطلق يد فاديم. ودخلا الحجرة، حيث ما تزال بقية من دفء. سألت كاتيا هامسة:

ـ هل معك أعواد ثقاب؟

وكان شديد الإنفعال، حتى أجاب بهمس أيضاً:

ـ معي...

واشعلت الضوء، وهو قبس صغير في علبة كان يكفيهما تماماً لأن يحدّق أحدهما في الآخر طوال الليل. فكّت لفاحها دون أن تصرف بصرها عن فاديم. وكان قد شاب تماماً، بل كانت في حاجبيه بعض الشعرات البيض. وظهرت الرجولة على وجهه، واكتسى مسحة غير مألوفة لها من الصرامة والسكينة. وقد سحرها ذلك. فقد كان أكثر شبابا ورجولة ووسامة من ذلك الذي كانت تتذكّره في روستوف. رأت الضمادة، ففتحت فمها، وتنهّدت قائلة:

ـ هل أنت جريح؟

ـ خدش... ولكن بسببه حصلت على إجازة أسبوعين في موسكو... كنت أعرف أنّك هنا... ولكن هل كان يمكن أن أجدك؟ (ابتسمت ابتسامة فرح ذات معنى ضمني وقد رفعت طرفي فمها) كدت أن الحق بك وأنت في القرية... لقد طاردت كراسيلنيكوف.. (اختلج حنك كاتيا، وهزّت رأسها بغضب) كاتيا، لقد قتلته.. (أسبلت جفنيها وأحنت رأسها) كاتيا، كنت قد بدأت أروي لك الملابسات التي جعلتك تتلقين نبأ موتي... في الحقيقة إنني قدمت.. (أخذت كاتيا تنظر إليه بفزع، وامتلأت عيناها الواسعتان بالدموع مرة أخرى). كنت مسافراً في عربة قطار في الليل، وقد فقدت كلّ ما أعيش من أجله، وكنت مخطئاً في الشيء الرئيسي، وكان واضحاً أنّني سأُقتل أو أنتحر... أعذريني، يا كاتيا، ذلك شيء مرهق وقاس، ولكنّني أريد أن أرويه... كنت أفكر فيك، لم يكن ذلك حبّاً، إذ لم يبق في نفسي ما أحبّ به، ولكنّه تفكير مجهد فيك، كما يفكّر المرء في شيء لا يمكن تمزيقه، وتركه ونسيانه، لا يمكن أن يخان. وهذا الشيء الوحيد الذي يربطني.. كانت تلك الليلة في عربة القطار تحطيماً لكلّ شيء في... والآن، حين أتعرّف في الطرف الآخر من بندقيتي على وجوه مألوفة، أدرك أيّ نفس سوداء محطّمة سأصيب برصاصتي...

وضعت كاتيا ذراعيها على كتفيه، وضغطت خدّها على قلبه وهو يدقّ دقات قويّة متتابعة. ظلاّ واقفين وسط الغرفة، هو في معطفه غير المزرّر، وهي في معطفها الفرائي. كانت تعرف أنّه سيحدّث الآن عن الشيء الأهمّ... الرجل العزيز الرائع... إنّه يريد أن يبرّر نفسه أمامها لتحبّ فيه ذلك الشيء الجديد النزيه الصارم المشبوب العاطفة... عندما خرج في روستوف عن أطواره. وهجرها كانت تعرف أنّه سيتعذّب عذاباً قاسياً، ويفهم كلّ شيء... استمعت وهي تضغط نفسها عليه، إلى كلماته المبهمة المتقطّعة، وكأنّه يخطّط على عجل هيروغليفية عذاباته الجسميّة... ولكن كاتيا كانت تفهم كلّ شيء بدون كلمات...

ـ كاتيا المهمّة جبارّة فوق كلّ مقياس... لم نحلم البتّة بأنّنا سننفذّها... أنت تذكرين فقد تحدثنا عن ذلك كثيراً كم بدا لنا مرهقاً وبلا معنى دوران التاريخ، وانهيار الحضارات العظيمة، والأفكار التي تحوّلت إلى محاكاة تهكّمية بائسة لها... تحت القميص المنشّى لسترة السهرة نفس الصدر المشعرّ للإنسان البدائي... كذب! إنّ الغشاوة تمزّقت عن العين... كلّ حياتنا الماضية جريمة وكذب! روسيا خلقت الإنسان.. والإنسان طالب بحقّ الإنسان في أن يكون إنساناً... إنّ ذلك ليس حلماً. إنّه فكرة، وهي على رؤوس حرابنا وقابلة للتحقيق... والضوء الباهر أضاء الأقبية نصف المهدّمة لجميع العصور الماضية... كلّ شيء قائم على أساس، كلّ شيء طبيعي... والهدف قد وجد... ويعرفه كلّ مقاتل أحمر... كاتيا أتفهمينني الآن قليلا؟ بودّي لو أعبّر لك عن كلّ ما في نفسي... يا فرحي، يا قلبي، يا معشوقتي، يا نجمتي...

وفجأة عصرها بين ذراعيه بقوّة حتى طقطقت كلّ عظامها، فزادت من انضغاطها على موضع القلب من صدره، ولا غير. دقّ الباب، وصوت ماسلوف:

- كاترينا ديميتريفنا، هل تسمحين للحظة واحدة.. ولما لم يرد عليه أحد، أخذ يدير مقبض الباب على عادته المسألة إنّك تعرفين حالة الطوارئ في المدينة. وفي غرفتك رجل بعد الساعة العاشرة... ولمّا كنت مسؤولاً...

- إنتظري، سأتحدّث معه.

قال روتشين وهو ينزل ذراعي كاتيا عن كتفيه.

- فاديم، لا تخرج عن أطوارك، سأتكلّم معه بنفسي... اتوسّل إليك، أرجوك...

وخرجت وراء الباب في الحال، وأغلقته وراءها. كان ماسلوف يقف مبتسماً ابتسامته الساخرة وهو مايزال يمسك بالقنديل.

- لا يمكن أن تدخل في غرفتي، يا رفيق ماسلوف.

قالت بلهجة صلبة لم تتحدّث بها معه البتّة. أخذ ماسلوف يتراجع عن الباب مشيراً إليها بأن تتبعه متفرسا فيها بهستيريّة. سألت، وهي تسير وراءه:

- ماذا؟ ما تريد؟ أنا لا افهم...

- أريد أن أنبّهك، يا كاترينا ديميتريفنا، بأنْ لا تلقي أهميّة لكارثتي... لا وجود لها... لقد أبلغوك، بالطبع... في المنطقة كلّها استبشار واحتفال بالنصر... مازال الوقت مبكرا للاحتفال والاستبشار...

أجابت كاتيا غاضبة:

- أنا لا افهم شيئا. باختصار أرجو ألاّ تدقّ بابي...

- لا تكذبي! أنت تفهمين كلّ شيء... آه، كم جرّبتك! اسمعي، أوّلاً: استمري في الحديث معي كما وكأنّ البطاقة الحزبيّة لم يأخذوها مني... سيكون ذلك أكثر تبصّراً... (وأصدرت حنجرته غرغرة، رغم أنّه كان يتكلّم بخفوت وخمول). لم يتغيّر

شيء كاترينا ديميتريفنا!... ثانيا: إن ضيفك الليلي يجب أن يخرج في الحال... تريدين أن تسألي: لماذا أصرّ على ذلك؟ هذا هو جواب... (ووضع يده في الجيب الصدري لسترته الملطّخة المقطعة الأزرار وأخرج مسدّساً مسطّحاً، وأمسكه في راحته، لتراه كاتيا) وبعد ذلك، سنستمرّ في علاقاتنا السابقة...

تملّكت كاتيا رجفة شديدة، حتى أنّها لم تستطع غير أن ترمش رمشاً بطيئاً. دفع روتشين الباب، وخرج:

ـ ماذا تريد من زوجتي؟

تغضّن وجه ماسلوف حتى أذنيه، وقرفص ليضع القنديل على الأرض، والمسدس يدور في يده.

ـ اى، أترك هذا قال روتشين وهو يتقدّم منه، وانتزع المسدّس من يده، ووضعه في جيب معطفه غدا سأسلّمه إلى اللجنة الاستثنائيّة في المنطقة، ويمكنك ان تتسلّمه هناك. وإذا اقتربت من بابنا مرة أخرى سألوي رقبتك...

وعادا إلى الغرفة. طقطقت كاتيا بأصابعها صامتة. خلع روتشين معطفها عنها.

ـ كلّ شيء مفهوم، يا كاتيا. وهو لن يحشر نفسه هنا بعد الآن. أغلب الظنّ أنني سمعت عن ماسلوف هذا وأنا في الجبهة. إنّه من اولئك الذين يفسدون الجيش...

وخلع معطفه، وحطّه بالقرب من كاتيا الجالسة على مقعد ذاهلة، ووضع رأسه على ركبتيها. أخذت يداها تمرّان على شعره وخدّيه ورقبته. وكلاهما قد نسي فوراً حادثة ماسلوف الحمقاء. جلسا صامتين. وأخذ يعتمل في نفسيهما قلق جديد وشديد وغريب إلى الأبد وفكّر في نفسه فرح اشتهائها، وفي نفسها فرح الإحساس بفرحه...

ـ أقوى بمليون مّرة، يا كاتيا.

ـ وأنا أيضاً... رغم أنّني دائماً، دائماً، يا فاديم...

ـ أتشعرين بالبرد؟

ـ لا، لا... مجرّد إنّني أحبك جداً...

جلس على جانبها في المقعد العريض القديم وقبّل عينيها وفمها وطرفَيْ شفتيها. وقبّلها من صدرها، وتذكّرت كاتيا أنّ في ثديها الايسر شامة الولادة التي كان معجباً بها لسببٍ ما. فكّت أزرار بلوزتها الصوفية ليقبّل الشامة.

برد الموقد "النحلة" بالفعل، وصارت الغرفة باردة. قرفص فاديم عند الموقد، وهو يلقي بنظراته إلى كاتيا طوال الوقت، ويبتسم عن أسنان منظومة، ونفخ في الجمر واضعاً كتل الخشب المقطوعة من قوائم وظهور المقاعد من الخشب الأحمر. وعاد الدفء من جديد. واحمرّت كاتيا وهي تخلع ملابسها، وضحك فاديم، واحتوى وجهها براحتيه، وقبّله.

ظلّت الريح تعول في المدخنة طوال الليل، وتخفق في صفائح الحديد. نهضت كاتيا مرّات كالربّة التي أحبها كيوبيد وعدّلت فتيلة المصباح، وهي لا تصرف بصرها عن وجه فاديم النائم. كانت ممتلئة بالسعادة وعارفة أنه ممتلئ سعادة أيضاً، ولهذا السبب كان وجهه على هذه السكينة والرصانة.

ـ كاتيا، كاتي، صاحت داشا وهي تندفع في المطبخ كاتيا، حبيبتي كاتيا!

وتردّد في الممرّ وقع حذائها اللبّادي المتجمّد. واندفعت نحو كاتيا، وطوّقتها، وقبّلتها، وابتعدت عنها، ونظرت مشبوبة العاطفة، وعادت تحضنها وتمسّد لها. كانت تفوح منها رائحة ثلج وفراء أغنام وخبز أسود. وكانت ترتدي سترة من فراء الأغنام، منديلا ريفياً، وقد تدلّت صرّة وراء ظهرها.

ـ كاتيا، حماتي، عزيزتي، شقيقتي... كم اشتقت لك وحلمت بك... لا، تصوري فقط أننا اضطررنا أن نمشي على الأقدام من محطة يارسلافسكي. إنّ موسكو كالقرية: هدوء

وغربان زرع وثلج، ودروب علمتها الأقدام في الشوارع... مسافة بعيدة، ورجلاي تكادان تنطويان... أما كوزما كوزميتش فيحمل بودين من الطحين... وصلنا إلى ستاروكونيوشني... ولم أستطع أن أجد البيت! قطعنا هذا الزقاق بطوله ثلاث مرات... ويقول كوزما كوزميتش ليس هو الزقاق المقصود... وتملّكني الغيظ، فقد نسيت البيت!... وفجأة... لا، تصوّري فقط! من الركن خرج رجل في لباس عسكري. تقدّمت منه: "مِن فضلك، يا رفيق..." أما هو فقد تفرّس فيَّ بملء عينيه... فتحت فمي دهشة، وجلست على الثلج... فاديم! وأتصوّر أنّ عقلي قد غاب عني، الموتى صاروا يمشون في شوارع موسكو الخلفيّة... وأغرب هو في الضحك. وقبّلني... ولم أستطع أن أنهض... كاتيا يا حسنائي، يا شقيقتي الذكيّة... نحن بحاجة إلى عشر ليالٍ لكي تروي الواحدة للأخرى ما لديها من أخبار... يا ربي، أنا أعرف هذه الغرفة... والسرير وصندوق الأدوية... حدّثني فاديم عن إيفان. بعد أيام سيتوجّه قطار إسعاف إلى وحدتهم وقد قرّرت أن أسافر عليه كممرّضة، وستصحبني أنيسيا و كوزما كوزميتش.. لن نتركه وحده هنا، فيتعفرت... كاتيا، نريد أوّلاً أن نأكل.. ضعي السخّان... ثم نغتسل... قضينا أسبوعاً في عربة بضائع قادمين من يارسلافل... يجب أن نخلع ملابسنا كلّها ونغليها. سنبقى الآن في المطبخ ولا ندخل إلى غرفتك... تعالي أعرّفك بصديقيّ... إنسانان رائعان، يا كاتيا! وأنا مدينة لهما بحياتي وبكلّ شيء... سنسخّن الموقد بأنفسنا، ونغلي الماء... هناك عدد كبير من مختلف الأثاث... كاتيا، أمن المعقول أنّك لم تشيبي البتّة؟ يا الهي، تبدين أصغر سناً منّي بعشر سنين... أنا واثقة من أنّ اليوم الذي سيجتمع فيه شملنا قريب، قريب جداً...

في موسكو كان الشوفان يوزّع ببطاقات التموين. إنّ عاصمة الجمهورية لم تمرّ البتة بوقت عصيب يشابه شتاء العام ١٩٢٠. فإنّ هجوم الجيوش الحمراء قد ابتلع كلّ القوى الحيّة. ونفدت

بسرعة احتياطات القمح والفحم المستولى عليها من البيض. وكانت الولايات الغنيّة التي مرّ بها القوزاق وجيش المتطوّعين قد خربت. فكانت فصائل التموين العمّالية لا تجد فيها غير فوائض هزيلة من القمح.

في الذكرى السنويّة للحملة الجليدية هرب جيش المتطوِّعين إلى نوفوروسيسك ناثراً في وحول كوبان المتعذّرة الإجتياز العربات المهملة المحملة بالامتعة، والمدافع الغاطسة في الوحل، وجيف الخيول. انتهى كلّ شيء. وهاجر أنتون إيفانوفيتش دينيكين على ظهر مجموعة ألغام فرنسيّة وقد تفشّى الشيب في شعره واحدودب ظهره، ليكتب مذكّراته في الهجرة. وعبرت الفلول الهزيلة لأفواج المتطوعين على سفن النقل إلى القرم. وأدرك قوازق الدون وكوبان أخيراً أنّهم خدعوا بقسوة، ودفع القوزاق ثمن عنادهم بقبورهم المجهولة المنتشرة من فورونيج إلى نوفوروسيسك.

كان الشتاء مايزال في موسكو. وزوابع آذار ترمي المدينة بالثلوج. وقد استنفذت المواقد جميع الأسيجة والأثاث الزائد وتوقّفت المعامل والمصانع. وكان المستخدمون في الدوائر يجلسون إلى مكاتبهم في معاطفهم وينفخون بأنفاسهم على أصابعهم المنتفخة لكي يستطيعوا أن يحتفظوا بالأقلام بأيديهم بطريقة من الطرق، فقد تجمّد الحبر في المحابر تماما في انتظار الأيّام الدافئة. وكان الناس يمشون ببطء، وهم يحملون على الدوام حقائبهم الظهرية. وقليلون منهم قادرين على السير من بيوتهم إلى أماكن عملهم دون أن يتوقّفوا ليستريحوا في كومة ثلج أو يتّكئوا على مداخل البيوت إتّقاء من الريح. وكانت المجاعة رهيبة وكان الناس يحملون في نومهم بخنوص مسلوق موضوع في صحن، وقد وضعت في فمه قطعة بقدونس، وفي الحلم كانوا يمضغون باسنان فارغة لحم الخنزير المقدّد الدسم والبيض المسلوق. إلاّ أنّ أفكار الجميع كانت متأجّجة، فقد دمّر غول

العداء للثورة :لعنيد الدموي الخانق، والحياة تأخذ خطّاً صاعداً، ولم تبق إلا شهور قليلة من الحرمان والعذاب، وسيأتي قمح جديد، وتشتغل الجيوش الحمراء المسرّحة بالعمل السلمي، بترميم جميع الاشياء المخربة وبناء ذلك الشيء الجديد الذي ستنسى فيه جميع العذابات، كلّ مرارة المساءات الماضية...

تحقّقت رغبة داشا. فقد اجتمع شملهم من جديد حصل إيفان ايليتش وروتشين على إجازة قصيرة فسافرا إلى موسكو في قطار الإسعاف الذي تعمل فيه داشا، ووصلوا إليها في صباح غائم من آذار. حين كانت السحب الرماديّة تتلبّد فوق المدينة، والثلج ينحدر من السطوح، وتتساقط دلايّات الجمد الضخمة، والهواء الثقيل فوّاح ومنذر بالقلق.

استقبلتهم كاتيا في محطّة القطار. كان روتشين أوّل من رآها من بسطة العربة، فقفز والقطار لم يتوقّف بعد. ركضت كاتيا نحوه متألّقة بالفرح في عينيها وابتسامتها خلال دخان القطار المتلوّي بين الأعمدة الحديدية. فبدت له أعذب مِمّا بدت له في لقائهما في كانون الأول. وكانت كلّ حياة حبّهما في هذه اللقاءات القصيرة. انزويا فوراً في ناحية تحت الساعة. إلا أنّ داشا الغيور جرّت زوجها تليغين إليهما. وكانت تريد أن تسمع شقيقتها تبدي اعجابها بإيفان ايليتش بصوت عال:

ـ كاتيا، انظري إليه... أتلاحظين كيف تغيّر؟ في بطرسبورغ كان في وجهه عدم اكتمال... كما كانت عيناه أيضاً مختلفتين... أرجو المعذرة، يا إيفان... ولكن عندما كنا في السفينة التي أقلّتنا إلى سامارا كانت لك عينان زرقاوان فاتحتان، بل بمسحة من الحماقة حتى أنّ ذلك أقلقني... أما الآن فهما بلون الفولاذ...

كان إيفان تليغين يقف أمام كاتيا، وقد زفر بتشنّج من امتلائه بالأحاسيس. وبدا لكاتيا أيضاً جذّاباً جداً أليفاً هادئاً ومتزناً.

ـ وإليك صورته كاملة، يا كاتيا... اثناء المسيرات بل

تصوّري حتى حين كان يطارد مامونتوف على ظهر حصانه كان يحمل معه في عدل سرجه إحزري ماذا؟ دميتين خزفيتين لقطّة ولكلب كان قد أهداهما لي في يوم زفافنا الثاني في تساريتسين... لأنني قد أعجبت بهما كثيرا...

هرع كوزما كوزميتش نحو كاتيا، وقد قفز من العربة لدقيقة. وظلّ يهزّ يدها بكلتا يديه وقتاً طويلاً وألتمع وجهه الأحمر الحليق تماماً سروراً ووفاءً. وكان يبدو في مريوله الأبيض ممتلئاً حتى أنّ الناس النحاف المارين به على الرصيف نظروا إليه بعداء.

ـ أحببتك، كاترينا ديميترييفنا خلال أيام قصيرة قدر محبّتي لداريا ديميترييفنا... أنا اقول دائما ليس في العالم نساء أروع من الروسيّات. نقيّات في مشاعرهن ومتفانيات، ويعشقن الحبّ وشجاعات حين تقتضي الشجاعة... أنا في خدمتك دائماً، كاترينا ديميترييفنا... ما أن أنتهي من شؤوني حتى أهرع إليك عند الغداء لأجلب لك أشياء جلبتها من روستوف... الفصل ربيع عندنا في روستوف... ومع ذلك فإنّ الشمال أحلى على القلب... حسناً، اعذريني...

واقبلت أنيسيا في مريول أيضاً. كانت خيبة الأمل تبدو على وجهها بعينيه الواسعتين. فقد كانت تريد أن تبقى في موسكو في هذه السفرة، إلاّ أنّ كبير الأطباء بطريقة غير سوفييتيّة على الإطلاق وحتى دونما رغبة في الإصغاء قال: "أي مدارس مسرحية هذه! عن قريب ستحدث معارك كبيرة مجدّداً، وتخلّف الجرحى. لا اسمح لك!"

ـ لا بأس، سأنتظر حتى الخريف قالت لداشا ومسحت أنفها بطرف منديلها الأعوام تمر، وأنا افقدها، وهذا هو المؤسف... لاتوغين هنا، وقد جاء لاستقبالي، عفريت أيضاً... جاء مندوبا إلى المؤتمر. أصبح فخوراً وجدياً... وهو يقول إنّه لليوم الثالث يهرع إلى محطّة القطار ليستقبل قطارنا للإسعاف...

ذهب ليقنع كبير الأطباء ليسمح لي بإجازة ليوم واحد... داريا ديميتريفنا، حدّثني عن أغريبينا، إنها في ساراتوف، وقد وضعت مولوداً لا أعرف إن كان ولداً أو بنتاً ومرضت مدّة طويلة... وعادت إلى الفوج مع وليدها... مسكينة، لها خلق صعب، لا تحبّ إلا مرة واحدة...

خرجوا من محطة القطار ومشوا في شوارع موسكو كلّها على الأقدام إلى زقاق ستاروكونيوشني، فقد اعدت هناك غرفة لداشا وتليغين، وهي نفس غرفة ماسلوف. وقد انقضى شهران وهو غائب، في بداية الأمر حمل كتبه، ثم اختفى هو الآخر... ساروا ببطء بسبب كاتيا. أراد فاديم روتشين أن يضعها على يديه، ويحملها تحت هذه السحب الربيعية الشعثاء المخيّمة على موسكو. وتأخّر تليغين وداشا عنهما لكيلا يضايقاهما. قالت داشا:

ـ أنا أخشى على كاتيا. موسكو وهذه المدرسة ستقضيان عليها. وهي لا تأكل شيئا... خلال ثلاثة أشهر صارت نحيلة جداً... يجب أن نأخذها معنا في القطار... سيكون في إمكاني أن اطعمها... أما هنا فهي لا تأكل شيئاً، وهذا غير معقول.

قال تليغين بخفوت ودلالة:

ـ نعم، ثم أنّ فاديم يتعذّب بدونها أيضاً...

ولحق بهما لاتوغين وأنيسيا بعد قليل. وكانت أنيسيا قد خلعت مريولها. وقد تورّدت وجنتاها. سلّم لاتوغين الجهم الجدّي بطريقة متحفّظة، وأخرج من ردن معطفه أربع تذاكر للضيوف إلى مسرح البولشوي، في اعلى طابق. وقال وهو يوزّع التذاكر:

ـ نعم، في الجبهة أسهل مِمّا عندكم في موسكو. كان عليّ أن اخوض معركة كبيرة من أجل هذه التوافه... ومن حسن الحظ أنّ الملاحظ كان من بحّارتنا على الطرّاد "افروا"... ولهذا يجب الا تتأخّروا. اليوم اجتماع مهمّ. حسنا، يا أنيسيا، لنذهب...

كانت مئات المصابيح الكهربائيّة لاتكاد تضيء بضوئها المُخمرّ الداكن صالة مسرح البولشوى بطوابقه الخمسة حيث ارتفع الضباب المتخلّف من أنفاس الحاضرين. وكانت الصالة باردة، وكأنّها قبو. وعلى المسرح الواسع الذي سدّت مؤخّرته بأقواس من الجنفاص جلس أعضاء الرئاسة حول منضدة قائمة في الجانب، وقريبة من أضواء مقدّمة المسح الشاحبة. اتجهت رؤوس الجالسين جميعهم إلى نهاية المسرح حيث علقت على كلاليب الديكور في أعلى المسرح خارطة روسيا الأوروبيّة وقد تغطت ببقع ودوائر من مختلف الألوان تكاد تملأ كلّ سطحها. وأمام الخارطة وقف رجل صغير الجسم في معطف فرائي حاسر الرأس. وكان شعره المتدلّي من جبينه الواسع يلقي ظلاً على الخارطة وكان يمسك في يده عصا بليارد طويلة، يشير بطرفها من حين لآخر، وهو يحرّك حاجبيه الكثيفين إلى هذه البقعة الملوّنة أو تلك فكانت تضاء في الحال بضوء ساطع حتى أنّ ذهب الطوابق الكامد في الصالة يأخذ بالتلألؤ وتبدو للعيان الوجوه النحيلة المجهدة بعيونها المتّسعة باهتمام.

وتكلّم بصوت عالي النبرة في السكون المتوتّر:

ـ عندنا في روسيا الأوروبية وحدها من الخثّ المجفّف بالهواء ما يقدّر بعشرات التريليونات من البودات. ونحن نملك من احتياطاته ما يكفي لقرون. والخثّ وقود محلّي. ومن فدّان واحد من مستنقع الخثّ يمكن أن نحصل من الطاقة على ما يزيد خمساً وعشرين مرّة على ما نحصل عليه من فدان واحد من الغابة. ويحتلّ الخثّ المرتبة الأولى تليه القوة المائية والفحم، وكلّها تحلّ المشكلة التي تجابهنا، مشكلة البناء الثوري. لأنّ الثورة التي انتصرت في ميدان القتال فقط ولم تنتقل إلى التحقيق الفعلي لأفكارها، ستخمد مثل عصفة ريح. لقد أشار فلاديمير ايليتش لينين الجالس بيننا، والذي ألهمني تقريري لهذا اليوم قد أشار إلى

الخطّ العام للثورة الخلّاقة: الشيوعيّة هي السلطة السوفييتيّة زائداً الكهربة..

ـ أين لينين؟

سألت كاتيا، وهي تطلّ من علو الطابق الخامس. كان روتشين يمسك بيدها النحيلة طوال الوقت، فأجاب بهمسٍ كذلك:

ـ إنّه هناك، صاحب المعطف الأسود. أنظري، أنّه يكتب بسرعة، ها قد رفع رأسه، ويلقي قصاصة ورق عبر الطاولة... إنّه هو... أمّا الشخص النحيل ذو الشارين الأسودين عند الحافة فهو ستالين، الرجل الذي هزم دينيكين...

وكان الخطيب يقول:

ـ في الأماكن التي تكمن فيها ميليارات البودات من الخثّ في صمت روسيا المزمن، وفي الأماكن التي تهبط عليها الشلالات أو يسوق نهرٌ جبّار مياهه سنبني المحطّات الكهربائيّة، وهي الفنارات الحقيقيّة للعمل الجماعي. لقد تحرّرت روسيا إلى الأبد من نير المستثمرين ومهمّتنا أنْ نضيئها بوهج لا يخبو من النار الكهربائية. إنّ لعنة العمل الماضية يجب أن تصبح سعادة العمل.

ورفع عصاه وأشار إلى مراكز الطاقة المقبلة، ومرّرها على الخارطة راسماً الدوائر التي كانت تومئ إلى مواقع الحضارة الجديدة المقبلة، وتألّقت البقع كالنجوم في أغباش المسرح الواسع. لقد كلّفت إضاءة الخارطة بهذه الإضاءة ولهذه اللحظات القصار تجميع كلّ طاقة المحطة الكهربائية في موسكو، وحتى في الكرملين فكّت جميع المصابيح في مكاتب مفوّضي الشعب ما عدا واحدا بقوة ١٦ شمعة.

في القاعة كان الناس الذين يحملون في جيوب معاطفهم العسكرية وسترهم المثقوبة بالرصاص حفنة من الشوفان وزّعت عليهم اليوم بدلاً من الخبز يستمعون مبهوري الأنفاس إلى آفاق

الثورة العظيمة والقابلة للتحقيق بالفعل على الرغم من ذلك، فالثورة تدخل الآن في طريق الخلق.

كان تليغين يقول لداشا خافت الصوت:

ـ تقرير مفيد. أنا أعرف المهندس كرجيجانوفسكي[٢٢] هذا بشكل جيّد. سننهي الحرب وأعود إلى المصنع، فأنا أيضاً عندي أفكاري... لديّ رغبة شديدة في العمل، يا داشنكا... إذا كانوا يضعون مثل هذه القاعدة الكهربائيّة، فسيكون في الإمكان القيام بكلّ شيء. فما أعظم ثرواتنا! وإذا قمنا بعمل حقيقي في هذه البلاد الجبّارة، فإنّنا سنتفوّق على أمريكا! نحن أكثر غنى... سنذهب سويّة إلى الأورال...

قالت داشا له:

ـ وسنعيش في بيت من جذوع الشجر نظيف تماماً، فيه قطرات من صمغ الصنوبر، ونوافذ واسعة... وفي صباحيّات الشتاء سنشعل الموقد...

وهمس روتشين في أذن كاتيا:

ـ أتدركين أيّ معنى ستتّخذ جهودنا كلّها والدم الذي أرقناه، وجميع عذاباتنا الصامتة غير المعروفة... سنحوّل العالم بجهودنا إلى مكان للخير... وكلّ الذين في هذه القاعة مستعدّون للتضحية بحياتهم من أجل ذلك... ليس هذا مجرّد خيال إنّهم يستطيعون أن يروك الندوب والبقع الزرق التي خلّفها الرصاص... وهذا في وطني، هذه روسيا...

---

(٢٢) المهندس كرجيجا نوفسكي (١٨٧٢ - ١٩٥٩) ثوري ورجل من رجال الحزب والدولة السوفييتيّة، وعالم بالطاقة.
وفي كانون الأول ١٩٢٠ ألقي تقريرا عن خطّة كهرباء روسيا في المؤتمر الثامن للسوفييتات. وفيما بعد لعب دوراً بارزاً في تنظيم التخطيط الاشتراكي.
وفي العام ١٩٣٠ أسّس معهد الطاقة التابع لأكاديميّة العلوم السوفييتيّة وظلّ يترأسه حتى نهاية حياته. الناشر.

ـ لقد استقرّ العزم! كان الرجل عند الخارطة يقول متكئاً على العصا وكأنّه يتكّئ على رمح إنّنا نقاتل وراء المتاريس من أجل حقّنا وحقّ العالم في أن نقضي مرّة وإلى الأبد على استثمار الإنسان للإنسان.

مكتبة
t.me/soramnqraa